مُعجم الأمثال في القرآن الكريم

سميح عاطف الزين

دار الكتاب المصري
دار الكتاب اللبناني

معجم
الأمثال
في القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

I.S.B.N 9953 - 843 - 57 - 4

دار الكتاب المصري
القاهرة
٣٣ شارع قصر النيل ـ تلفون: ٢٣٩٢٢١٦٨/ ٢٣٩٣٤٣٠١ / ٢٣٩٢٤٦١٤
ص.ب.: ١٥٦ ـ عتبه ـ الرمز البريدي: ١١٥١١ القاهرة ـ ج.م.ع
فاكسميلي: ٢٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)
FAX: (202) 23924657
ATT.: MR. HASSAN EL - ZEIN

دار الكتاب اللبناني
بيروت
شارع مدام كوري ـ مقابل فندق البريستول ـ بيروت
تلفون: ٧٣٥٧٣٢ / ٠١ ـ ص.ب.: ١١/٨٣٣٠
بيروت ـ لبنان ـ فاكسميلي: ٣٥١٤٣٣ (٩٦١١)
FAX: (9611) 351433
ATT.: MR. HASSAN EL - ZEIN

الطبعة الثانية الجديدة والمتجددة منقحة ومزيدة
١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩ م

Second Edition
A.D. 2009 - H. 1430

Website: - www.daralkitabalmasri.com
E-mail: - info@daralkitabalmasri.com

أَيُّهَا الْقَارِئُ الْكَرِيمُ:

ضَرَبَ الله تعالى الأَمْثَالَ فِي الْقُرآنِ الْكَرِيم لِلنَّاسِ جَمِيعِهِمْ، وَلَيْسَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَحْدَهُمْ، لِتُذَكِّرَهُمْ وَتَعِظَهُمْ بِمَا تَحْمِلُ مِنْ تَصْوِيرٍ لِلنَّمَاذِجِ الْبَشَرِيَّةِ الْمُتَنَوِّعَةِ، وَبِمَا تُقَدِّمُ مِنَ الأدِلَّةِ وَالْبَرَاهِينِ الَّتِي تَهْدِي إِلَى الإِيمَانِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ.

وَهَذَا مُعْجمُ الأَمْثَالِ فِي الْقُرآنِ الْكَرِيم، وَقَدْ جَعَلْتُهُ مُسْتَوْفِياً جَمِيعَ أَمْثَالِ الْقُرآنِ الْمَلْفُوظَةِ، مُنَسَّقاً إِيَّاهُ عَلَى أَسَاسِ سُوَرِ الْقُرآنِ الْكَرِيم؛ اِبْتِداءً بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَانْتِهَاءً بِسُورَةِ الْفِيلِ الَّتِي تَنْتَهِي بِآخِرِ مَثَلٍ: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾.

رُبَّما اعْتَرَضْتَ أَيُّهَا الْقَارِئُ الْكَرِيمُ قَائلاً: وَلَكِنَّ هَذَا الْكِتَابَ الَّذِي سَمَّيْتَهُ معجماً غَيْرَ مُنَسَّقٍ على أحرف الْهِجَاءِ؟!

وَالْجَوَابُ: نَعَمْ، جَعَلْتُهُ مُنَسَّقاً عَلَى أَسَاسَ سُوَرِ الْقُرآنِ الْكَرِيمِ؛ حَيْثُ لاَ تَتَجَلَّى عَظَمَةُ الأَمْثَالِ فِي

الْقُرْآنِ إلا فِي سِيَاقِ السُّورَةِ المَوْجُودَةِ فِيهَا، وَفِي الْمَوْضِعِ الْمَرْسُومِ لَهَا بَيْنَ آيَاتِ هَذِهِ السُّورَةِ. وَقَد جَعَلْتُ كُلَّ سُورَةٍ بِالأَمْثَالِ الْوَارِدَةِ فِيهَا، مُنْفَصِلَةً عَنِ السُّورَةِ الَّتِي تَلِيهَا بِأَمْثَالِهَا. وَابْتَدَأْتُ بِالْمَثَلِ الأَوَّلِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ الْكَرِيمَةِ، وَانْتَهَيْتُ بِآخِرِ مَثَلٍ فِي سُورَةِ الْفِيلِ. وَأَشَرْتُ بِالرَّقْمِ عَلَى وَرُودِ الْمَثَلِ فِي أَيَّةِ آيَةٍ؛ وَفِي أيِّ صَفْحَةٍ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ، لأَنَّ الأَمْثَالَ التَّي أَرَدْتُهَا أَنْ تَكُونَ عَلَى صُورَةِ الْمُعَجَمِ واردةٌ تحتَ عناوينَ لا يستطيعُ القارئُ أنْ يعرفَ المثلَ الذي يريده إلّا إذا رجع إلى السورة، وهذا ما ستجده في الفهرس، آخِرِ الكتاب.

والله ولي التوفيق

لمَاذَا يهتَّم الناس بالأمثَال التي يقدّمهَا العَامة أو التي يطلقهَا الحكمَاءُ أو الشعرَاءُ، وَلا يهتمون بالأمثال التي ضربَها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، وعلى لسان رسُوله العظيم؟!

* * *

الله تعالى محيطٌ بكل شيءٍ علماً، وقد ضَرب للنَّاسِ في القرآن الكريم من كل مثل. فمَا أحرَانا لأن نغترفَ منَ المعين الإلٰهي كلما احتجنا إلى ضرب مَثل، وأن ننهل من يُنبوعِ الله العلي القدير الذي لا تنفدُ كلماته وَلو جئنا ببحر من مداد يمدُّه سبعَةُ أبحر! . . .

* * *

قلّة استعمَالنا لأمثَال القرآن الكريم دَليلٌ علَى عدَم اهتمامِنا بالمداوَمة على قرَاءة كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه البَاطلَ من بَين يَديه وَلا مِن خلفه، تَنزيلٌ من حكيم حميد.

* * *

لا يستغني أحدٌ عن ضَربِ الأمثَال خلال محادثاته اليوميّة، وفي مُمَارسَة شؤون الحيَاة مع الآخرين، فمَا أجدره بأن يتمثل أثناء تعَامُله ومحَادثته بقَول أصدَق القَائلين، و«هو الله العليم الحكيم».

المُقَدّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(١)

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(٣).

وإنه لواضح من هذه الآيات الكريمة أن الأمثال في القرآن الكريم إنَّما يضربها الله (تبارك وتعالى) للناس ـ لجميع الناس ـ وليس للمؤمنين وحدهم، لتذكِّرهم وتعظهم بما تحمل من تصوير للنماذج البشرية المتنوعة، وبما تقدم من الأدلة العقلية والبراهين الحسِّية التي تهدي جميعها إلى الإيمان والعمل الصالح . .

ولعلَّ في تقديم المثل للناس ما يساير نفوسهم، ويوافق

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٧.

(٢) سورة الروم، الآية: ٥٨.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٥.

أمزجتهم، ولكن هنا ـ في القرآن ـ مع الضبط والتوجيه الصحيحين. فواقع الحياة البشرية يدل على أن الناس قد درجوا في حياتهم على استعمال الأمثال بما يعبِّر عن أفكارهم ومشاعرهم، حتى صار المثل صنو الحكمة الشعبية، واعتادوا على الاستعانة به، وهو يجري على الألسنة قولاً وكتابة، حتى ظهر ثمرةً للتجارب الإنسانية، وتجسيداً للأفكار التي آمنت بها كل جماعة في مرحلة من مراحل حياتها.

وقد تدرجت الأمثال مع الزمن فارتقت في أحيان كثيرة إلى مرتبة الأعراف التي يحتكم إليها الناس في تعاملهم مع بعضهم، وفي إقامة علاقاتهم فيما بينهم، وذلك في الحدود التي تتناولها تلك الأعراف، وبخاصة التي تعبِّر الأمثال عن مصداقيتها، وفِعْلِ تأثيرها. ولذلك كانت الاستعانة بالأمثال دوماً إما لتوضيح فكرة، أو تقريب معنى، أو للدفاع عن رأي، أو الاستشهاد بموقف.

ومن عجيب ما يُلاحَظُ، اهتمامُ الناس بالأمثال التي ابتكروها ـ وهي مما لا يُحصى لكثرة تنوعها ـ والتي جعلوها تدور على ألسنتهم، وتماشي وقائع كثيرة في حياتهم، وذلك في الوقت الذي يهملون الأمثال التي ضربها الله العزيز الحكيم في القرآن المبين، وعلى لسان رسوله الكريم، ساهين أنه سبحانه قد ضرب لهم من كل مثلٍ، وأنَّ له تعالى المثل الأعلى، وأنه قد أحاط بكل شيء علماً. فلماذا أيها الناس تتمسكون بالذي هو دون، وتتخلون عن الذي هو خير؟ ويقيناً إن معرفة واستعمال الأمثال في القرآن الكريم أكثر خيراً وفائدة للإنسان، وإن عدم الاهتمام بهذه الأمثال لدليل على عدم معرفة عظمتها، وعلى جهل كثيرين من الناس لها. فإذا كان الناس يألفون بحكم العادة الأمثال التي درجوا عليها، والتي هي، في الأصل، من

صنع الإنسان، وبنات أفكاره ومشاعره، فالأولى بهم أن يتعرَّفوا على ما ضربَ لهم خالقهم وبارئهم من أمثال في كتابه المجيد، حتى يتبين لهم فعلاً الحقُّ الذي تحمله هذه الأمثال، وما تهدي إليه، لا سيما وأنَّ فيها شمولية لكل شيء، سواء فيما تحكي عن أخبار الأمم الغابرة، أو بما تنير به سبل الحياة ـ في حال تطبيقها على أرض الواقع ـ أو بما تزود به من الحكمة، أو بما تعمل به من توسيع الأفكار وتقوية الحجة والبرهان. . والتي من شأنها جميعاً، في حال اتّباعها والعمل بوحيها، أن تجعل الحياة الدنيا سويّةً، وتقود إلى الفوز في الآخرة.

والحقيقة أن موضوعات الأمثال في القرآن الكريم كثيرة ومتنوعة ومتشعبة، بحيث لا يمكن التعرّض لها جميعها، لما يلزم لهذا الأمر من البحث، والتمحيص، والتدقيق وسعة الجمع والتأليف، ولذلك اقتصرنا على الآيات التي تحدِّد بذاتها أمثالاً، أو التي ظهر فيها التشبيه، أو التي ورد فيها لفظة «مثل» أو «كاف التشبيه»، أو ما دلت عليه الاستعارة، أو القياس التمثيليّ، فنكون قد أتينا على ذكر المثل الملفوظ(١) كاملاً، ولم نتعرض إلى المثل الملحوظ(٢). . كما حاولنا أن نجمع تحت عنوانٍ واحدٍ الآيات التي تتناول موضوعاً معيناً، أو أحوال فئةٍ من الناس مثل المؤمنين، أو الكافرين، أو المنافقين. . أو الموضوع الذي يبرز صفات الجنة أو النار، أو الحياة الدنيا. . . إلخ، وفي بعض أجزاء العنوان الواحد رأينا أن نضيف بعض الآيات التي

---

(١) ومثال المثل الملفوظ قوله تعالى﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحديد: ٢١].

(٢) ومثال المثل الملحوظ قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

تسبق أو تعقب الآية التي تحمل المثل القرآنيّ، أو أن نوضِّح ما قد ترمي إليه هذه الآيات من مقاصد حتى يأتي السياق متكاملاً، فيظهر المثل القرآنيّ بكل تجليات مضامينه ومدلولاته، لأن المثل ـ عامة ـ والمثل القرآنيّ ـ خاصة ـ يعتبر أرفع أنواع البلاغة، بما فيه من إيجاز لفظ، وإصابة معنى، وحسن تشبيه، وجودة كناية.

بيد أنه لا تتجلى عظمة الأمثال في القرآن الكريم إلا في سياق السورة الموجودة فيها، وفي الموضع المرسوم لها بين آيات هذه السورة، فتبدو في موضعها الطبيعيّ تشع بالحقائق المحسوسة التي تريد إبرازها لتجعلها في متناول الإنسان ـ فهماً وعظة وحكمة ـ ودائماً في بيان معجز، وترتيب دقيق، وفي منتهى البلاغة والفصاحة.

ولا بدَّ في ختام هذه المقدمة من الإشارة إلى أن قصدنا من وراء هذا العمل، وإخراج هذا المعجم إلى حيز التنفيذ ـ وطبعاً ممَّا قدَّرنا عليه ربُنا ومولانا الكريم، وأعانَنا به على جمع الأمثال في كتابه المجيد ومحاولة تفسير مضامينها ـ إنما كان لتوفير الوقت والجهد على القارئ العزيز، وعلى الإنسان المؤمن، والداعي إلى سبيل ربه تبارك وتعالى بالموعظة الحسنة.. لكي تتيسَّر الإفادة من هذه الأمثال التي أرادها الله جلت عظمته نوراً للهداية، وسبيلاً من سبل الفوز والفلاح في الدارَين.

وفقنا الله تعالى إلى طاعته ومرضاته، وتقبَّل منا هذا العمل المتواضع الذي يحمل بعض الأفكار الإسلامية بما يتوافق ومعاني كتاب الله تعالى وسنة رسوله الكريم ﷺ والذي يقدِّم جزءاً، ولو يسيراً جداً، ممّا جاء به الدين الحنيف من خير وصلاح لكافة الناس.

والله وليُّ التوفيق.

فصل تمهيدي

المثل

نشأته - معانيه - أنواعه
فوائده - خصائصه - أهدافه

فصل تمهيدي

المثل

نشأته - معانيه - أنواعه - فوائده - خصائصه - أهدافه

الفقرة الأولى ـ نشأة المثل منذ القدم

ليست الأمثال ـ على كثرة المواضيع التي تتناولها ـ حديثة النشأة، بل هي عريقة في القدم، وقد رافقت الثقافات الإنسانية في مختلف مراحلها، وعبر تفاعلاتها مع بعضها البعض، واستمرت في هذا التفاعل على الرغم من الصراعات الفكرية والمادية التي عرفها الناس على امتداد التاريخ البشريّ الذي حفل بشتى أنواع تلك الصراعات.. واللافت في هذا السياق أن التفاعل الثقافيّ الذي نتج عنه تراث فكريّ، وكان فيه غنىً لمسيرة الإنسان، نجده قد ظهر أكثر ما ظهر في البلدان التي كانت ملتقىً لثقافات متنوعة، بسبب موقعها الجغرافيّ، وما طرأ عليها من غزو واحتلال، أو بسبب نمط وأسلوب عيشها في الحياة، وما قدّمت هي فعلاً من نتاج فكريّ وحضاريّ تلاقى مع غيره، وجعل من تلك البلدان حاضنةً لالتقاء الثقافات وتزاوجها مع بعضها البعض.

وقد أحدث ذلك التفاعل بين الثقافات تغييرات جذرية شملت

الطريقة والمضمون اللذين كانت عليهما ثقافةٌ معينة، أو عدة ثقافات متنوعة، وأدى إلى قلب أنواع عديدة من الفنون الشعبية رأساً على عقب، بعدما قضى على كل صلة بين قديمها وحديثها، هذا في الوقت الذي تغيرت فيه أنواع أخرى من تلك الفنون والقوالبُ وأساليبُ الأداء، بينما بقي الجوهر محافظاً على مضامينه الأصلية.

ومن الفنون الثقافية التي حافظت على جوهرها، على الرغم من إيغالها في الزمن، كانت الأمثال، التي ظلت إحدى أهم الطرق الفكرية لتصوير معاناة الناس، أو لتجسيد أفراحهم من خلال الواقع الذي يعايشون، أو للتعبير عن تشوّف المستقبل الذي به يحلمون. وقد اتخذت أمثالهم مسمياتٍ عديدة، وأشكالاً متنوعة برزت في العبارة القصيرة، أو الجملة المفيدة، أو في المجموعة الفريدة، مروراً بالقصة والقصيدة، والخرافة والملحمة، وغيرها من ألوان الأدب التي عرفتها الشعوب القديمة والحديثة. وكل ذلك لأن المثل كان ولا يزال مظهراً من مظاهر العقلية، يعبّر بأسلوب من الأساليب اللفظية عن عادات المجتمع وتقاليده وأعرافه، تماماً كما يعبِّر عن نفسية الإنسان في مشاعره وعواطفه في ظل الوقائع والأحداث التي يعيشها، أو في ظل الظروف والأجواء التي تحيط به أو تخيّم عليه، حتى ليمكن القول بأنّ الأمثال، من الناحية الثقافية، تحتل حيزاً كبيراً في التدليل على معاني التفكير والسلوك لدى الجماعات البشرية.

وهكذا ندرك، مما جاء في الأمثال واستمراريتها عبر العصور، بأن الشعوب لم تضع أمثالها عبثاً، بل كان وراءها أسباب اقتضتها، أو أحداث أفرزتها. وكانت دائرتها تتسع أو تضيق تبعاً لما ترمي إليه من

تصويبٍ لأوضاع المجتمع، ومن توجيه للناس إما للحفاظ على تلك الأوضاع، أو معالجة المشاكل التي تعترضها.

ولم يختلف العرب عن غيرهم من الشعوب التي عرفت الأمثال. بل على العكس فقد شكل المثل عندهم فناً ثقافياً قديماً، يستمد عراقته من الجذور المشتركة بينه وبين الثقافات الساميّة القديمة، ولعله من أجل ذلك كان أقدم فنون الأدب العربيّ على الإطلاق. وقد بقي هذا النوع الأدبيّ حياً بروحه إلى عصرنا الحاضر، ولم يتغيّر إلا من الناحية الشكلية تبعاً لتغير الأزمنة والأمكنة. وكان المراد به ـ مثل غيره من أمثال الشعوب الأخرى ـ تصوير الوقائع والأحداث في حياة العرب، أو استخلاص العبر والعظات من أجل التهذيب والتثقيف، وغيرها من المعاني التي تناولتها أمثالهم المختلفة.

وإن شدة اهتمام العرب بالمثل، وما كان وراءه من أسباب، أو ما توخاه من أهداف، جعلت له تلك المكانة في أدبهم، حتى صار المثل المضروب لديهم، لأي شيء، كالعلامة التي يعرف بها ذلك الشيء. وليس في كلام العرب أوجز من المثل، ولا أشد اختصاراً منه في تقريب الفكرة إلى الذهن، بما يمكِّن من استيعابها بأقصر الأداء، وأوضح البيان. فكان للأمثال ذلك الشأن الهام في ثقافتهم من أجل إبراز المعاني أو كشف الحقائق التي يريدونها، بحيث تجعل المتخيَّل يُرى وكأنه في صورة المحقَّق، والغائب وكأنه مشاهَد، والمتوهَّم كأنّه في معرض المتيقَّن. . .

وتعتبر الأمثال في بعض خصائصها، من أنواع الحكمة التي عرفها العرب في الجاهلية والإسلام، والتي يمكن استخدامها كوسيلة ثقافية للتوعية والإرشاد، أو أداة تربوية للإعداد والتوجيه.

ومن الأمثال التي اتخذت خصائص الحكمة في تلك المضامين والأهداف، حديث الرسول الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ : **«مَثَلُ المؤمنينَ في توادِّهِمْ وتراحُمِهِمْ وتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الجسدِ الواحدِ إذا اشْتَكَى منه عضوٌ تداعتْ له سائرُ الأعضاءِ بالسهرِ وَالحُمَّى»**[1] .

فهو المثل النبويّ الشريف الذي يدل على التضامن والتكافل، وعلى وحدة الشعور والهدف بين أبناء الجماعة المؤمنة الواحدة، أو بين أبناء المجتمع المؤمن الواحد. فإذا حصل الخلل في جانب من هذا المجتمع انعكس على سائر جوانبه الأخرى، تماماً كما لو مرض أو تعطل أحد أعضاء الجسد فتأثرت سائر الأعضاء في أداء وظائفها . .

وكذلك الأمر في هذا الدعاء لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه حيث يناجي ربه - عزَّ وجلَّ - قائلاً: «اللهُمَّ اجعلْ نفسي أولَ كريمةٍ تَنتزِعُها مِنْ كَرَائِمِي، وأولَ وديعةٍ ترتَجِعُها مِنْ ودائعِ نِعمتِكَ عليَّ»[2] .

وروعة هذا الدعاء هي فيما يرمي إليه من حكمة بالغة ترتقي بالنفس الإنسانية إلى مقامين رفيعين: الكرامة الإنسانية، والنعمة الربانية .

فهو الدعاء الذي يعبِّر عن نفسية المؤمن الصادق الذي أدرك قيمة خلْقه، وفضل الخالق - تعالى - عليه فيما أكرمه به من فيوض الكرامات، وإحداها هذه النفس التي تضمها جوانحه، وتحتضُنها

(١) صحيح مسلم، رقم ١٩٩٩ (مجمع عليه).
(٢) نهج البلاغة، باب الأدعية.

جوارحُهُ، والتي هي ـ في الحقيقة ـ وديعة لا بدَّ وأن ترد إلى مولاها وبارئها.

ويقرب من هذا الدعاء لأمير المؤمنين عليه السلام، ما كان لبيدٌ قد عبَّر عنه بقوله:

وما المـالُ والأهلـونَ إلاَّ ودائـعٌ ولا بُـدَّ يـومـاً أَنْ تُـردَّ الـودائـعُ

ومن الأمثال التي أراد بها العرب الحثَّ على استئصال الشر، واقتلاعه من جذوره، حتى لا تقوم له قائمةٌ بعدُ، قال أحدهم:

لا تَقْطَعَنْ ذَنَبَ الأَفعى وتُرسلَها إنْ كُنْتَ شهماً فَأَتْبِعْ رأسَها الذَنَبا

ومن الأمثال السائرة على شكل الحكمة:

«لا شرفَ كالعلم ولا ميراثَ كالأدب».

«ما طارَ طيرٌ وارتفعَ إلاَّ كما طارَ وقَع».

«ومِثْلُكَ لا يَبْخَلُ».

ومن القرآن الكريم: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾[(١)].

وخلاصة القول إن الأمثال، وهي تستقي المعاني التي تريدها من الواقع، فلا بدَّ وأن تلامس الحياة العصرية، مثلما لامست الحياة القديمة، في مختلف مراحلها ومظاهرها. ولذلك فإن الثورة التكنولوجية، وسائر أشكال التقدم العلميّ والتقنيّ التي وصل إليها الإنسان قد صارت حُكماً مجالاً للأمثال. وعلى هذا فإننا نجد أن المثل الذي كان يضرب بالسهم على شدة السرعة، صار يضرب اليوم

---

(١) سورة السجدة، الآية: ١٨.

بالصاروخ بدلاً من السهم، فنقول: جاء مثل الصاروخ. أو أننا نشبِّه البواخر الكبيرة (كحاملات الطائرات وأمثالها) بالجبال الراسيات. أو أننا نعبّر عن ذلاقة اللسان وحدته بمبضع الجراح فنقول: أُفٍّ له لسان كالمشرط.. وما إلى ذلك من أنواع المثل أو التشبيه، التي يمكن أن تتناول أبسط الأشياء وأصغرها في حياتنا، مثلما يمكن أن تتناول أكبر الأمور وأكثرها تعقيداً.

الفقرة الثانية ـ التمييز بين المثل والتمثيل والتشبيه والاستعارة

المثل في الأصل بمعنى النظير، ثم نقل منه إلى القول السائر، أي القول الشائع الممثَّل مضربُهُ بمورده. وقد يأتي المثل على صورة التشبيه بأركانه. وفي أحيان أخرى قد يكون مشبهاً مسبوقاً بلفظ «مثل».

ـ **أما من حيث اللغة**: فقد اختير للمثل لفظ «الضرب» لأنه قد يكون مأخوذاً من أحد المعاني التالية:

ـ ضَرَب: بمعنى سار (ومنه: ضربَ في الأرض)

ـ ضَرَبَ: بمعنى صنع وأنشأ (ومنه درهمٌ مضروب أي مطبوع أو مسكوك).

ـ ضَرَبَ: بمعنى نصبَ وأشْهرَ (ومنه: ضرب الخيام).

ـ ضَرَبَ: بمعنى أبقى الشيء على مثال آخر.

وهي المعاني التي تجعل للمثل وقعه في إرادة التأثير، وهياج الإنفعال، وكأنَّ ضارب المثل يريد أن يقرع به أذن السامع قرعاً، بحيث ينفذ أثره إلى قلبه، وينتهي إلى أعماق نفسه.

وعلى هذا فإنَّ القول أو الكلام الصائب الصادر عن تجربة إذا ما كثر استعماله، وشاع أداؤه في مناسبات متعددة ومتشابهة يصير مثلاً، ويعرَّف على أنه: «القول السائر الذي يُشبَّه به حال الثاني بالأول». ولذا قيل في المثل: «ما يشبه مضربه بمورده».

وقد جاء في لسان العرب: «إن «مَثَلَ» كلمة تسوية، فيقال: هذا مِثْلُهُ ومَثَلُهُ كما يقال: شِبْهُهُ وَشَبهُهُ. وهناك فرق بين المماثلة والمساواة، لأن المساواة تكون بين المختَلِفَيْن والمتفِقَيْن، باعتبار أنَّ التساوي هو التكافؤ في المقدار لا يزيد ولا ينقص، بينما المماثلة لا تكون إلا في المتفقين بحيث نقول: فِقْهُهُ كفِقْهِهِ، ولونُهُ كلونه، وطعمه كطعمه. فإذا قيل: هو مثله ـ على الإطلاق ـ فمعناه أنه يسدُّ مسدَّه. وإذا قيل: هو مثله في كذا. . فمعناه أنه مساوٍ له في جهة دون جهة».

وفي الصحاح: ما يضرب به من الأمثال.

وإذا أَحَدٌ أطلق أو ضرب مثلاً، فيقال: تمثَّل فلان.

وإذا تمثَّل بالشيء فمعناه أنه ضَرَبَهُ مثلاً.

ـ وأما من حيث الاصطلاح: فقد عرَّف البلاغيون المثل بأنه «اللفظ المركَّب المستعمل في غير ما وضع له، لعلاقة المشابهة ما بين مضربه ومورده، مع قرينةٍ مانعةٍ من إرادة المعنى الأصليّ».

وهو أيضاً: «أحد أقسام علم البيان الاصطلاحيّ الهادف إلى تأدية المعنى بصورة أوضح وأتمّ، ولكن في تراكيب مختلفة».

ويستدلُّ من هذين التعريفين أنهم اعتبروا المثل: قولاً في شيء

يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة، ليبيّن أحدهما الآخر ويصوره، أي أن الْمَثَلَ هو عبارة عن تشابه المعاني المعقولة، والمِثْلُ هو عبارة عن تشابه المعاني أو الأشخاص أو الأشياء المحسوسة، وقد يدخل أحدهما على الآخر.

وقد جرى التمييز ما بين المثل وما يرمي إليه وبين بعض المعاني اللفظية التي قد تتداخل مع المثل، أو قد لا تمت إليه بصلة. ويظهر هذا التمييز بما يدل عليه كل من الألفاظ أو العبارات التالية:

ـ **المِثال**: ومعناه المقدار، وهو من الشبه. وبذلك فإن المثل ما جُعل مِثالاً، أي مقداراً لغيره يقاس عليه. والجمع: المُثُل والأمثلة، ومنه أمثلة الأفعال في باب التصريف.

والمثال أيضاً هو مقابلة شيء بشيءٍ نظيرِهِ، أو وضع شيء ما ليُحتذى به فيما يُفعل.

ولذلك يقال: تماثل العليل للشفاء أي قارب البرء، فصار أشبه بالصحيح من العليل المكروب.

ـ **الأَمْثَل**: وهو ما يعبّر به عن الأشبه «بالأفضل»، فالرجل من أماثل القوم أي من أفاضلهم، لأن أماثل القوم كناية عن خيارهم. قال الله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾[1].

وفي الحديث الشريف: **«أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فالأَمْثَل»[2]، أي الأشرَفُ فالأشرَفُ، والأفضَلُ فالأفضَلُ، والأعلى فالأعلى في الرُتبة والمنزلة.**

(١) سورة طه، الآية: ١٠٤.

(٢) سنن ابن ماجه، باب الفتن، ص٢٣.

وتأنيث الأمثل: المُثلى، كما في قول الله تعالى: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾[1].

١ ـ المُثلَة، وجمعها مُثلات ومَثُلات:

وهي النقمة التي تنزل بالإنسان وتجعله مثالاً يرتدع به غيره. أي أنها بمعنى العقوبة، كما في قول الله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾[2]. أي أن الكفار يستعجلونك ـ يا محمد ـ بالعذاب بدلاً من طلب المغفرة، وقد سبقت من قبلهم العقوبات التي أنزلناها على كثير من الأقوام السابقة فكيف لا يعتبرون بها؟! ومن الأقوام الذين استعجلوا عذاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فحاق بهم الفناء، فصاروا أمثالاً، أو مُثلاتٍ لمن جاء بعدهم: قوم نوح عليه السلام الذين أُغرقوا بالطوفان، وقوم هود عليه السلام الذين أهلكوا بريحٍ صرصرٍ عاتيةٍ جعلتهم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، وقوم لوط عليه السلام الذين أخذتهم الصيحة مصبحين، فقُلبت بلادهم عاليها سافلها، ثم أُمطرت عليهم حجارةٌ من سجيل، فذاقوا العذاب الأليم.

وقد نقول: مُثِّل بالرجل، إذا نُكِّل به، أي قطِّعت أجزاءٌ من جسده، فصار مشوَّهاً. وقد نهى رسول الله ﷺ عن المُثْلة التي تؤدي إلى تشويه الممثَّل به، لأنها تحقير لخلق الإنسان، وإهدار لكرامته حياً أو ميتاً.

٢ ـ التمثيل والتشبيه:

يقال: مثَّل الشيء أي صوَّره، ومثَّلتُ له هذا الشيء تمثيلاً إذا

---

(١) سورة طه، الآية: ٦٣.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٦.

صوَّرتُ له مِثاله بكتابة أو غيرها. ومنه التمثال (وجمعه تماثيل) وهو الشيء المصنوع مشبَّهاً بخلقٍ معين.

وتمثَّل بمعنى تصوَّر، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[1]. أي تصوَّر الملك جبريل أمام البتول مريم عليها السلام على هيئة بشريّ، على هيئة رجلٍ سويِّ الخلقة وحسنها.

وفي التمييز ما بين التمثيل والتشبيه نشير أولاً إلى أن المَثَل لا بد أن يكون جامعاً، شاملاً، ومتحصلاً بالتأويل، في حين أن التشبيه يكون عادةً بيِّناً، واضحاً لا يحتاج إلى تأويل، أو قد يحتاج إلى تفسيرٍ بسيط.

وعلى هذا فإن التشبيه يحصل في جملتين أو أكثر. وكلما أوغل التشبيه في أن يكون عقلياً، كانت الحاجة أكثر إلى الجمل الموضَّحة كما يظهر في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

فانظر كيف كثرت الجمل في هذه الآية المباركة حتى بلغت عشراً، ولكنها تداخلت في بعضها كأنها جملة واحدة، وقد أخذ التشبيه بمجموعها بحيث لو أردنا أنْ نفصل بعضها عن بعض، أو لو حاولنا حذف جملةٍ من موضعها، لأخلَّ ذلك بالمغزى من التشبيه.

من هنا كان القول بأنَّ التشبيه عام والتمثيل أخص منه، بمعنى

(١) سورة مريم، الآية: ١٧

(٢) سورة يونس، الآية: ٢٤.

أنَّ كل تمثيلٍ يكون تشبيهاً، وليس كل تشبيهٍ تمثيلاً. ويظهر ذلك جلياً في التأليف من أجل إظهار المعاني المقصودة. ذلك لأنَّ الألفاظ ـ كما هو معلوم ـ لا تفيد حتى تكون على ضرب خاص من التأليف، وعلى وجهٍ دون آخر من التركيب والترتيب، سواء في الشعر أم في النثر. فلو عمدنا مثلاً إلى هذا البيت الذي قاله زهير بن أبي سلمى:

وعينُكَ إنْ أبدَتْ إليكَ مَعايِباً فَصُنْها وقُلْ يا عينُ للناسِ أعيُنُ

وحاولنا أنْ نبعثر كلماته كيفما اتفق، أو حتى لو قلبنا تركيبه بحيث وضعنا الصدر محل العجز، لأبطلنا نظامه الذي بُني عليه، وأفرغناه من معناه الذي جرى عليه، وضاعت نسبته إلى صاحبه.

ويقرب من هذا تعريف «الشعر» عند البعض بأنه «الكلام المقفَّى الموزون» دون أن يأخذوا بالاعتبار: الخيال، والتعبير عن المشاعر، وقصد التأثير وما إلى ذلك مما يؤلف الشعر وروحه وسبب وجوده.

وكذلك الأمر في تعريف «الصلاة» على أنها عبارة «عن أقوال وحركات معينة» بحيث اعتبرت في الشكل، بينما جوهرها هو خشوع القلب، وطلب التقوى، ونيل رضى المولى عزَّ وجلَّ.

لذلك لا يجوز الاكتفاء بالصورة الظاهرة دون المعاني المقصودة، وإلا نخشى ضياع اللغة، بل وضياع المفاهيم الحقيقية للدين. فالمقصود من التشبيه أن يجعلك تتخيل صوراً متنوعة، ولكن لتأدية معانٍ متنوعة.

ومثال آخر على التشبيه المتعدد في قول أحدهم:

وكأنَّ أجرامَ النجومِ لوامِعاً دُررٌ نُثِرْنَ على بساطٍ أزرقِ

فالشاعر، هنا، يشبه النجوم في تلألئها وانتشارها في السماء الزرقاء بالدُّرر التي نثرت على بساط أزرق، ولا شك بأن حقيقة النجوم والسماء أبعدُ ما تكون عن الدرر والبساط، ولكنْ تأخذنا الدهشة لِمَا في هذا القول الجميل من صور متنوعة تشبع الذهن، وتستنطق القلب تسبيحاً بذكر الله تعالى الذي فرّق النجوم اللوامع في مواضعها، وزيّن السماء الزرقاء، فوقَنا، بضيائها. . فمن أين لنا بمثل هذه الصور لو أننا خرقنا هذا التشبيه المتعدد، وأزلنا عنه الجمع والتركيب؟

٣ ـ التمثيل والاستعارة:

وهنا يمكن أن نتساءل: هل إن الاستعارة هي التمثيل على الإطلاق، بحيث لا نستطيع أن نفرق بينهما، أم أن حدود التمثيل هي غير حدود الاستعارة ولكنها تتضمَّنه وتتصل به؟

والجواب هو أنه إذا كان كل تمثيل تشبيهاً، فإن الاستعارة يجب أن تفيد حكماً زائداً على المراد بالتمثيل. كما لو قلت: رأيت أسداً يسبح في البحر، بحيث تستعير تشبيه الأسد لهذا الرجل يسبح في البحر، لما أعجبكَ من قوته وشجاعته في مصارعة الأمواج، وهذا يفيد أن التشبيه ليس هو الاستعارة، ولكن الاستعارة كانت من أجل التشبيه.

ومع الإشارة إلى أنه ليس كل كلام يجيء فيه التشبيه الصريح بذكر الكاف ـ كاف التشبيه ـ أو نحوها، يستقيم فيه نقل الكلام إلى طريقة الاستعارة، وإسقاط ذكر المشبَّه جملة، والاقتصار على المشبّه

به، ومن قبيل ذلك: قول رسول الله ﷺ: «مَثَلُ المؤمنِ كَمَثَلِ النخلة أو الخامة»[1]، (والخامة: الغضة الرطبة من النبات).

أو قول الطرماح[2]: «إنما نحن مثل خامة زرع، متى يأنِ يأتِ حصاده».

فلا يستطيع أحد أن يتعاطى الاستعارة في شيء منها.

وأما قول الله تعالى: ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾[3] فيعد استعارة، لأن التمزيق في اللغة يعني تفريق الأجزاء المتلاصقة عن بعضها البعض كتمزيق الثوب إلى قطع متناثرة. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾[4] فيعد استعارة ويفيد نفس المعنى من حيث التفرقة والتشتت (وهو حكم رب العالمين على بني إسرائيل إذ قضى بتمزيق وحدتهم إلى فرق أو جماعات تتوزع بين أمم أهل الأرض، بحيث يكون منهم ناس صالحون، وناس كافرون، وآخرون فاسقون أو مفسدون)..

وكذلك يستعمل القرآن الكريم لفظتي «النور» و«الظلمة» بمعنى الاستعارة. فهو يستعير لفظة النور للبيان والحجة قاصداً بذلك الأخذ من محسوس إلى معقول، باعتبار أن النور هو من الأشياء المحسوسة التي يشاهدها البصر، بينما البيان والحجة من صنع العقل لإثبات حقيقة معينة أو أمر معين. وقد يستعير القرآن لفظة «النور» ليدل به على

---

(١) سنن الترمذي، باب الأدب، ص٧٧.
(٢) هو الطرماح بن حكيم: شاعر إسلامي فحل، ولد ونشأ في الشام. توفي نحو ١٢٥هـ.
(٣) سورة سبأ، الآية: ١٩.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٦٨.

الإيمان، أو على العلم، أو على الهداية وما إلى ذلك من معاني الخير والصلاح. ومثلها عندما يستعير القرآن الكريم لفظة «الظلمة» ليدل بها على الجهل، أو الكفر، أو الضلال، وما إلى ذلك من معاني الشر والفساد.

ووجه التشبيه في استعارة لفظتي النور والظلام:

أنَّ من عَلِمَ حقيقةَ وجود الله تعالى، وامتلأ قلبُهُ بالإيمان فهو يسير على هدى من ربه كمن يسير في طريق يشع عليه النور. أما من أعماه الجهل، وطغى عليه الكفر فهو كمن يتخبط في ظلام دامسٍ ويسير على غير هدى أو طريق منير، فيكون مصيره التردي في الهاوية والهلاك.

ومع الإشارة أيضاً إلى أنه لا يشترط في المثل أن يكون من نوع الشيء المقصود به، بل قد يكون مختلفاً تماماً عن هذا الشيء، إلا أنه استعمل ليعطي الفكرة عنه وفقاً لما أُريد بها. فمثلاً عندما تواجه شخصاً يتحداك، مزهواً بقوته وشدة بأسه، ويشبِّهُ حالَهُ بالريح، فإنك تحاول أن تَجْبَهَ تحديَهُ، فتقول له: إن كنت أنت الريح فأنا الإعصار.

وأياً تكن المناسبة التي جرى فيها هذا التحدي، فإنه في الواقع لا يوجد ريحٌ، ولا يوجد إعصار ـ أي ليس لدى إنسان قوةُ الريح، أو آخر قوَة الإعصار (الريح العاتية) ـ حتى يكون التشبيه مماثلاً ومطابقاً، ولكنه جرى استخدام الفكرة التي تبين حقيقة ثابتة ألا وهي أن الإعصار أقوى من الريح، وأن كل قوة لا بدَّ وأن يكون هنالك قوة أكبر منها. فكان التشبيه لتقريب المعنى المقصود، وجعل السامع يفهم ما أردت

من هذا التشبيه. وهكذا الحال بالنسبة لسائر الأمثال، إذ ليس من الضروري أن يُشبَّه فيها الشيءُ بالشيء عينه، ولكنها تُضرب لإعطاء المعاني المرادة منها، وتقريبها إلى العقول والأذهان، بما يعبّر عن فكرة صاحب المثل أو مَن استعمله. من جراء ذلك كان للأمثال مكانة هامة في الكلام، بما لها من وقع غريب في الآذان، وتأثير عجيب في القلوب والأنفس.

يقول إبراهيم النظام: «يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية. فهو نهاية البلاغة».

وقال العلامة أبو السعود في تفسيره للمثل: «والتمثيل ألطف ذريعة إلى تسخير الوهم للعقل، واستنزاله من مقام الاستقصاء عليه، وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغبيّ، وقمع سورة الجامح الأبيّ. كيف لا، وهو رفع الحجاب عن وجوه المنقولات الخفية، وإبرازٌ لها في معرض المحسوسات الجلية، وإبداء للمنكر في صورة المعروف، وإظهار للوحشيّ في هيئة المألوف»[١].

الفقرة الثالثة ـ معاني المثل

يمكن أن يتخذ المثل المعانيَ التالية:

١ ـ معنى الصفة: كما في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[٢]، أي صفة الجنة التي وعد بها المتقون.

(١) من تفسير: أبو السعود للآية ١٧ من سورة البقرة.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٣٥.

أو في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾[1]، أي صفاتهم.

٢ ـ معنى العبرة: ومنه قول الله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ﴾[2]. فمعنى «سلفاً» أنه جعلهم متقدِّمين يتّعظ بهم الخلف، ومعنى «مَثَلاً» أي عبرةً يعتبر بها غيرهم من بعدهم.

٣ ـ وقد يأتي المثل ذكراً لحال من الأحوال مشتملاً على ما يناسبها ليبيِّن ما كان خفيّاً من حسنها أو قبحها، فيكون قولاً بديعاً فيه غرابة، تجعله خليقاً بالقبول، ولذا قالوا: «استُعير لفظُ المثل لكل حالٍ، أو صفةٍ، أو قصةٍ، لها شأن عجيب، وخطر غريب، من غير أن يلاحَظ بينها وبين شيءٍ آخر شبه». ومنها قول الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[3]، أي للذين لا يؤمنون بالآخرة الصفات الذميمة، ولله ـ عزَّ وجلَّ ـ الصفات العُلى، ذات الشأن العظيم والخطر الجليل؛ فتعالى الله عمَّا يصفون علواً كبيراً.

٤ ـ معنى الحكمة، وقد سُمِّي المثلُ حكمةً لانتصاب صورها في الأذهان باعتبار أنها مشتقة من المثول والانتصاب. وفي ذلك يقول أبو هلال العسكريّ، صاحب كتاب (جمهرة الأمثال): «إن كل حكمة سائرة تسمَّى مثلاً. والكلمة إذا شاعت وانتشرت وكثُر دورانها على الألسن تكون مثلاً. أما إذا كانت صائبة وصادرة عن

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٥٦.
(٣) سورة النحل، الآية: ٦٠.

تجربة، ولم تدُر على الألسن، فتسمَّى حكمة». وهذا يعني أنه إذا أُريد بالمثل عبرة فقد يصح أن يكون حكمة، لأن من تعاريف الحكمة[1] أنها: «الكلام النافع، المانع من الجهل والسفه، والناهي عنهما».

٥ ـ وقد يحتوي المثل على قصة، فيطلق عليها اسم «القصة التمثيلية»، وهي تحمل في الغالب صورةً فرضية، وأحياناً تكون حقيقةً تاريخية سيقت لمجرد التصوير وإبراز المنقول في صورة المحسوس. يقول الله تعالى عن جبريل عليه السلام في سورة مريم عليها السلام: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾[2].

---

(١) إذاً فالحكمة هي القول الصائب والصادر عن تجربة ناجحة. أو بمعنى آخر هي إصابة الحق بالعلم والفعل... ولذا فإنَّ حكمةَ الله تعالى تتجلّى في علمه بالأشياء وإيجادها أو خلقها على غاية من الإحكام.. والحكمة من الإنسان هي معرفة الأشياء وتسييرها للغاية التي أوجدت لها، بما يؤدي إلى فعل الخيرات على وجه الصواب. وهذا ما وُصِفَ به لقمان عليه السلام في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾. وقوله تعالى لنساء النبيّ ﷺ: «واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة»، قيل معناه أن يذكرن تفسير القرآن الكريم وتدبر معانيه التي تهدي للعلم، والحق، والخير والصواب. وبناء على هذا الفهم لمعنى الحكمة نقول:

من الممكن أن يُؤتى الإنسانُ العلمَ، ولكن لا يحسن استعماله في وجه الصواب، فيكون أُعطيَ العلمَ ولكنه لم يُعطَ الحكمة. ومن الممكن أيضاً أن يُعطى الإنسانُ المالَ ولكنه لا يُحسن تدبيره من حيث الاستثمار أو الإنفاق على وجه الصواب، فيكون قد أُعطيَ المالَ ولكنه لم يُعطَ الحكمة في تدبيره. وبهذا المفهوم تكون الحكمة إذن أعلى شأناً من العلم والمال. لأن من أعطي الحكمة، وإن كان علمُهُ أو مالُهُ قليلاً إنما يُحسن تدبيره، فيكون ممدوحاً في الدنيا، ومرضياً عنه في الآخرة.. وبخلافه، فإن من جمع علماً كثيراً أو ملك مالاً وفيراً، ولم يحسن توجيه هذا العلم أو تدبير هذا المال، يكون مذموماً في الدنيا، ومغضوباً عليه في الآخرة.

وصدق اللهُ العظيم حيثُ يثني على صاحب الحكمة فيقول في محكم كتابه المجيد: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

(٢) سورة مريم: الآيتان: ١٧ و١٨.

الفقرة الرابعة ـ أنواع المثل

يمكن تقسيم المثل، بصورة عامة، إلى ثلاثة أنواع:

١ ـ **المثل السائر**: وهو ما ينبثق عن تجربة شعبية بلا تكلّف أو تصنّع، بحيث يمليه الواقع في الحياة، فيستعمله كل من يمرّ بنفس التجربة تعبيراً عن موقفه في مناسبة معينة، أو إبرازاً لفكرة أو شعور يتملكانه. ولا يقتصر ضرب المثل السائر على التجربة الشعبية، بل قد يأتي به أهل العلم والمعرفة كما في قول رسول الله ﷺ: «**إنَّ مِنَ البيانِ لَسِحْراً**»[١]. أو كما في قول أحدهم: «**رُبَّ أخٍ لك لم تلدْه أُمُّك**».

٢ ـ **المثل القياسيّ**: وهو سرد وصفيّ أو قصصيّ، أو صورة بيانية لتوضيح فكرة معينة عن طريق التشبيه والتمثيل، ويسميه البلاغيون: التمثيل المركَّب، أو التشبيه المتعدِّد.

ويكون هذا النوع من أجل تشبيهِ شيءٍ بشيءٍ آخر لتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسَيْن من الآخر. أو قد يكون من أجل التأديب والتهذيب، أو للتوضيح والتصوير بحيث يكون فيه إطناب، ويجمع ما بين عمق الفكرة وجمال التصوير، ومن قبيل هذا المثل القياسيّ ما قاله ابن حازم في وصف النرجس، على هذا النحو من التصوير الرائع:

ونرجسٍ ككؤوس التِّبر لائحةٌ
لهنَّ من خالص العِقْيان[٢] أحداقُ

---

(١) صحيح مسلم، رقم ٤٧.

(٢) العقيان: الذهب الخالص.

أو من قبيل القول القرآنيّ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[(١)].

فقد ذكر الله تعالى هذه القرية في حالتين: إيمانها، وكفرها.. وهو مثل يصلح لكل قرية، ويقاس على كل مدينة تكون حالُها حالَها. فهي عندما كانت تأتمر بأوامر الله ـ تعالى ـ كانت آمنة مطمئنة، يغدق سبحانه عليها كثيراً من رزقه الكريم. فلما تولَّت عن أوامر ربها، وكفرت بما أغناها بالأمس من النعم، أتاها عذاب الله وسخطه، ونزل فيها الجوع والخوف والنقمة، وكل ذلك نتيجة لكفرها بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ وجحودها بأنعمه. وهو المثل أيضاً الذي ضربه القرآن الكريم للكافرين من أهل مكة، لما بين قريتهم وتلك القرى من التشابه في الكفر والعناد.

٣ ـ المثل الخرافيّ: وهو ما تنسب فيه أفعال البشر إلى الحيوان أو الطير أو الكائن الخارق. ويكون هدفه تعليمياً أو عظةً أو تحذيراً، وما شابه.. ولذلك يأتي على شكل قصص خيالية أو فرضيات، أو على شكل خرافات وأوهام، كما هو الحال مثلاً في كتاب «كليلة ودمنة» الذي وضعه ابن المقفع اقتباساً عن كتاب بيدبا (الفيلسوف الهندي)، أو غيره من المؤلفات التي استبدلت أشخاصها الآدميين بمخلوقات أخرى، ولكنَّها كانت تمثِّل بهذه المخلوقات للتدليل على ما قد يصادف الإنسان في حياته من قضايا وأحداث تهمه، ويعتقد أنها مؤثرة على وجوده.

---

(١) سورة النحل، الآية: ١١٢.

الفقرة الخامسة ـ فوائد المثل[1]

للمثل فوائد عديدة وجمّة بما يعبَّر به عن المعاني، ونقل الصور، حتى يتحقق الغرض المقصود.

وقد أبرز الشيخ عبد القاهر الجرجاني في كتابه «أسرار البلاغة» صوراً لفوائد المثل، فقال: «واعلم أن ما اتَّفق العقلاء عليه، هو أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أُبَّهةً، ورفع من أقدارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها»...

ويتناول الجرجاني المثل من حيث كونه: مدحاً، أو ذماً، أو حجاجاً أو افتخاراً، أو اعتذاراً أو وعظاً وفقاً لما يلي:

- «فإن كان مدحاً: كان أبهى وأفخم، وأنبل في النفوس، وأسرع للإلف، وأغلب على الممتدَح، وأوجب شفاعةً للمادح». ومثاله في القرآن الكريم، وصفُ الرسول ﷺ وصحابتِهِ الكرام، بقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾[2].

---

(١) إن الآيات القرآنية التي يجدها القارىء الكريم في هذه الفقرة المتعلقة بـ«فوائد المثل» لم يوردها المرحوم الشيخ الجرجاني في بحثه، وإنما استدلّينا بها نحن من القرآن المبين للتوكيد على ما ذهب إليه الشيخ الجرجاني في بحثه القيّم عن «فوائد المثل.»

(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

ـ «وإن كان ذمّاً، كان مسُّه أوجع، وميسمه أَلْذع، ووقعه أشدّ، وحدُّه أحدَّ». ومثله في القرآن الكريم حالُ الذي ينسلخ عن آيات الله ويكفر بها، قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]. بل وأوجع من هذا الذم ما أحاط به الله الكافرين من مظاهر الذل، بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[2].

ومن قبيل هذا التمثيل في الذم قول أحدهم:

ولو لبِسَ الحمارُ ثيابَ خَزٍّ   لَقالَ الناسُ يا لَكَ مِن حِمارِ

ـ «وإن كان حجاجاً: كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر».

ومثله في القرآن الكريم قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3].

وهذا النوع من الحجاج أو النقاش يكون في حالتَين: المدح، والذم.. فهو هنا مدحٌ بحقِ إبراهيم عليه السلام، وذمٌّ للنمرود، ذلك الملك الظالم الكافر الذي ادَّعى بأنه يحيي ويميت...

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.
(٢) سورة يس، الآيات: ٧ ـ ٩.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

وتجد هذا النوعَ أيضاً في قول أبي العتاهية:

ترجو النجاةَ ولم تَسْلُكْ مسالِكَها
إنَّ السفينةَ لا تَجري على اليَبَسِ

وفي قول شاعرٍ آخر:

ونارٍ لو نفختَ بها أضاءَتْ ولكنْ أنتَ تنفخُ في رَمادِ

- «وإن كان افتخاراً كان شأْوُه أَبعد، وشرفُه أَجدّ، ولسانه أندّ».

وفي ذلك قول عبد المطلب (جد رسول الله ﷺ):

لا يَنزِلُ المجدُ إلاَّ في منازِلِنا
كالنومِ ليسَ لَهُ مأوىً سِوَى المُقَلِ

ومن حيث الإفتخار، فإنَّ ما يجيء في القرآن الكريم من بيان عظمة الله تعالى وكماله، فلا يسمَّى افتخاراً، بل اقتداراً..

ومثالُه قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[2].

- «وإن كان اعتِذاراً: كان إلى القبول أقربَ، وللقلوب أخلَبَ[3]، وللسخائم[4] أسلَّ[5]». وليس في القرآن الكريم من اعتذارٍ، إلا ما

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٧.

(٢) سورة الحج، الآية: ٧٤.

(٣) أخلب: أفتن ـ أخّاذ للقلب

(٤) السخيمة: الضغينة، والسخائم (بالجمع): الضغائن.

(٥) أسل: أسل الشيء أخرجه من مكانه وكشف ما فيه.

كِي عن أصحاب المعاذير الكاذبة ليكون اعتذارهم حجةً عليهم، أي هو اعتذار في الظاهر واحتجاج في المعنى، كما يستدلُّ عليه من قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾[1].

وقد قال شاعرٌ في الاعتذار:

لا تَحْسَبُوا الرَّقْصَ منّي بينَكُمْ طَرَباً

فالطَّيرُ يَرقُصُ مَذْبوحاً مِنَ الألَمِ

- «وإن كان وعظاً، كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغَ في التنبيه والزجر».

ومثله في القرآن الكريم قول الله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾[2] فالكفّارُ هنا بمعنى الزُّرّاع، لأنهم يكفرون الحب، أي يسترونه بالتراب.

وقوله تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3].

الفقرة السادسة ـ خصائص وفنّية الأمثال في القرآن الكريم

أشرنا من قبل بأنَّ تاريخ العرب الثقافيّ قد حفل بالأمثال

(١) سورة فصلت، الآية: ٥.
(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٠.
(٣) سورة الحشر، الآية: ٢١.

المتنوعة، فكان منها ما ارتبط بأحداث تاريخية، أو ما عبّر عن أوضاع مجتمعية، أو ما صوَّر أحداثاً خيالية أو فرضية، وكانت جميعها تتوخى أهدافاً معينة تريد إيصالها إلى الناس.

ولكثرة ما شابَ تاريخ الثقافات عند العرب من اضطراب وتشويش فقد جعل تلك الأمثال التي وصلت إلينا مختلطة من الجاهليّ والإسلاميّ، لأنَّ ما كان محفوظاً منها في مصنفات جامعة، ومميزة لكل عصر على حدة، إما أنّه ضاع في طيات الزمن، وإما أنه صار أشتاتاً متفرقة، فلم يبقَ سليماً على حقيقته، وعلى شكله ورونقه، إلا ما تنزَّل به القرآن الكريم، أو ما دلَّ عليه الحديث الشريف بالإجماع..

والأمثال في القرآن الكريم قد جاءت هي الأخرى كثيرة ومتنوعة - ربما جرياً على لغة العرب، باعتبار أن القرآن عربيّ - أو الأصح للحكمة التي أرادها الله تعالى من هذه الأمثال في كتابه المبين. على أنَّ ميزة الأمثال في القرآن المجيد أنها عصيّة على فهم وإدراك مقاصدها إلَّا لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.. فهو المؤمن الذي تضعه هذه الأمثال في حياة الأقدمين، ولكنه قديمهم المتجدد دوماً مع تجدد أنماط العيش ومظاهر الحياة الإنسانية، ومن ثَمَّ لتحمله إلى عالم فريد من الحكمة والموعظة، والدليل الحسيّ والبرهان العقليّ على ما أراده الله تعالى مثلاً..

فأنت أيها القارئ العزيز تتخطى مع الأمثال في القرآن الكريم

حدود الزمان والمكان حين ترى كل شيء **في الإنسان**: في خلقه وتكوينه، وفي نفسه وذاته، وفي علمه وجهله، وفي إيمانه وكفره.. وحين ترى كل شيء **للإنسان**: حيث سخَّر له ربُّهُ تعالى ما في الأرض جميعاً، وما يرتبط به عالمُهُ الأرضيُّ مع الكون، ولاسيما تلك الكواكب والنجوم التي تؤثر مباشرةً على الكرة الأرضية، التي جعلها خالقه الكريم صالحة للحياة البشرية من خلال تناسقها مع النظام الكونيّ الشامل.. وأخيراً حين ترى **الإنسان في كل شيء**: في تجربته الأولى مع أبينا آدم عليه السلام، وكيف أزله الشيطانُ وزوجَهُ عن الجنة التي كانا فيها، وأخرجهما مما كانا فيه لتعيش ذريته مختلف المراحل الزمنية التي تمرُّ عليها في وجودها الأرضيّ.. ثم ترى **هذا الإنسان في صراعه الدائم** ما بين الخير والشر، والحق والباطل، والحسن والقبيح.. وكذلك حين تراه في **تقدمه الماديّ، ونضوجه الفكريّ** مثلما تراه في **تقهقره الخلقيّ، ومجافاته لتكوينه الفطريّ**.

ونظراً لهذه الأهمية البالغة للأمثال في القرآن الكريم فإننا سوف نتناول في هذا البحث خصائص هذه الأمثال (أولاً)، وفنّية مبناها (ثانياً)، والأهداف التي تتوخاها (ثالثاً).

أولاً: خصائص الأمثال في القرآن الكريم

للأمثال في كتاب الله المبين خصائص عديدة، ولكن أبرزها التالية:

١ ـ **الخصيصة الأولى**: المثل القرآنيّ قد يكون حقيقياً، وقد يكون فرضياً:

ـ ففي حال كون المثل حقيقياً، أويعبر عن حقيقة فإنه يطلق على ذات الشيء كما في قول الله تعالى: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾[(١)]، أي كمن هو في الظلمات، أو في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾[(٢)]، أي مثل ذلك التبيين، يبيّن لهم أحوالهم، من حيث إن الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله أضلَّ أعمالهم، ومن حيث إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وآمنوا بما نُزِّل على محمد ﷺ وهو الحق من ربهم، كفَّر عنهم سيئاتهم، وأصلح بالهم. أو في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾[(٣)]، أي كما أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق آدم من تراب ومن دون أم وأب، ثم نفخ فيه من روحه فكان بشراً سوياً، كذلك خلق عيسى من غير أب، من أمه مريم عليها السلام، عندما بعثَ إليها جبريل فنفخ فيها فحملت بإذن الله.. فهذا المثل الذي يدل على خلق آدم وعيسى عليهما السلام، قد ضربَهُ رب العالمين للناس ليثبت لهم أنه على كل شيء قدير، وأنَّ أمرَهُ إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن، فيكون. فآدم هو حقيقة ثابتة في حياة البشر جميعاً، بل هو أبو البشر جميعاً، وكذلك عيسى هو حقيقة لا جدال فيها، وقد كان خلقهما خروجاً على النظام المألوف لدى الناس، أي على النظام الذي يقوم على اجتماع الزوجين الذكر والأنثى، بما أودع الخالق فيهما من العناصر التي تؤدي إلى إنشاء المخلوق البشريّ؛ كما كان خلقهما خروجاً على

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

(٢) سورة محمد، الآية: ٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

السّنن التي خلق الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بموجبها السماوات والأرض، وجعلها سنناً ثابتة، لا يطرأ عليها أي تحويل أو تبديل. وبذلك يكون هذا المثل القرآنيّ قد قرّب إلى أذهاننا فكرة الخالق، وقدرته على الخلق من صميم واقع حياتنا البشرية.

- أما في حال كون المثل القرآنيّ فرضياً، فإنه يأتي على صورة التشبيه، كما في قول الله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ﴾[1].

أما الأسفار فهي الكتب القيمة والنادرة، والتوراة هي سِفْرٌ، لأنَّ فيها صحف موسى عليه السلام، التي أنزلها الله تعالى عليه لتكون شرعة ومنهاجاً لبني إسرائيل؛ وقد أمرهم ربهم بحمل تكاليفها والعمل بما فيها. بل وأوجب عليهم أنْ يأخذوا ما آتاهم بقوة، وألّا يفرّطوا بشيء منه.. إلا أنهم تركوا أحكامها وراء ظهورهم، وحملوها في الظاهر، يأخذون ببعضها ويتركون بعضها الآخر، مما أدى بهم إلى عدم الانتفاع بها، فصار مثلهم كمثل الحمار الذي يحمل على ظهره الكتب القيمة دون أن يعرف ماذا يحمل، ودون أن ينتفع بما يحمل. ولذلك عقَّب القرآن الكريم على هذا المثل بقوله تعالى: ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2]. فبئس المثلُ مثلُ أولئك اليهود الذين كفروا بآيات الله تعالى التي أنزلت في التوراة، وجحدوا من ثم بآيات الله التي أنزلت في الإنجيل والقرآن، وهو بعينه الظلم لأنفسهم، فحق عليهم ألا يهديهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لأنَّ الله لا يهدي

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٥

(٢) سورة الجمعة، الآية: ٥

القوم الظالمين، ولا الكافرين ولا المكذبين أو المنافقين... فهذا المثل قد حمل صورة تشبيهية من الواقع المحسوس لمعانٍ عقلية، وهو النوع من المثل الذي قيل عنه: «وأبلغه تمثيل المعاني المعقولة بالصورة الحسية وعكسه». وقد بيّنا كيف أن المثل عندما يكون غير حقيقيّ يأتي على صورة الاستعارة. وأوردنا صوراً عن التمثيل في القرآن الكريم من خلال الآيات الكريمة التي أتبعناها بفوائد المثل لإبراز هذه الفوائد في موضعها من هذا الفصل.

٢ ـ الخصيصة الثانية: من مضامين المثل القرآنيّ: القياس التمثيليّ.

ولعل هذه الخصيصة من أهم خصائص الأمثال في القرآن الكريم التي تحتوي على القياس التمثيليّ كما في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

فمن حيث المبنى نجد أن هذه الآية الكريمة هي من أحسن وأظهر القياس التمثيليّ، لأنها تُشبِّه النيلَ من عرض الإنسان المغتاب، أو من شرفه وكرامته، بالتمزيق في لحمه وأكله. والبلاغة الفريدة فيها أنه لما كان الميت لا يسمع من يغتابه، فقد شبّه به الحيُّ الذي يغتابُه غيرُهُ من حيث أنه لا يسمع ما يُقالُ عنه، وغيابه يحول دون دفاعه عن نفسه، وردِّ الأذى أو السوء الذي يحمل النيلَ منه!. فهو في هذه الحالة بمنزلة الميت الذي يقطّع لحمه، ولا مجال له ليدفع عنه هذا البلاء.. ولما كان من مقتضى الدخول في الإسلام أن يصبح

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

المسلمون إخوةً في الدين، فإنَّ من معاني هذه الأخوة: التراحم، والتواصل، والتناصر، والحفاظ على الذمم والأعراض والأنفس. ونقيضُ هذه المعاني كلها أن يسيء المسلم إلى أخيه المسلم، أياً كان نوع الإساءة، كما في حال اغتيابه، وذلك بإظهار عيوبه، أو ذمّه بما ليس فيه، فكأنَّ المسلم الذي يغتاب مسلماً إنما يقطع لحم أخ له تقطيعاً ويأكله، وهو أكره شيء يمكن أنْ يتصوره الإنسان المؤمن، أو الإنسان الذي يشعر بإنسانيته.

وأما من حيث المعنى فإن هذا المثل يبيّن لنا إحدى أبرز المساوئ والمفاسد التي يتعرض لها الناس في حياتهم. إنها الغيبة، وما أدراك ما الغيبة؟! إنها الداء الوبيل، والرذيلة القاتلة التي يتعمَّد فيها أحدهم أن يسيء لغيره، بإظهار بعض العيوب التي يعرفها فيه، أو ربما باختلاق عيوب له، لا تكون موجودة فيه حقيقةً، وذلك لينال منه في الصميم أمام الآخرين.

هذه هي الغيبة، الرذيلة والفاحشة المؤذية التي قد تشيع في أوساط الناس، حتى تصبح بمثابة العادة لدى بعضهم، فلا يهنأ له عيش، ولا يقدر أنْ ينام على وسادته، ما لم يكن قد ملأ نهاره باغتياب الآخرين. والغريب أنَّ الذي يغتاب، ينسى أو يتناسى بأنَّ الله تعالى قد نهى عن الغيبة لأنها توقع في الإثم، فكان هذا القياس التمثيليّ لها في القرآن المبين عندما يشبه المغتاب بمن يأكل لحم أخيه الميت.

والرسول الأكرم محمد ﷺ، وتبياناً للتنزيل الحكيم، قد نهى أيضاً عن الغيبة، فعن جابر قال: «قال رسول الله ﷺ: **إيّاكم والغَيْبَةَ، فإنَّ الْغيبةَ أشدُّ مِنَ الزِّنَى، ثم قال: إنَّ الرجلَ يَزْني ثم يتوبُ فيتوبُ اللّهُ**

عليه، وإنَّ صاحبَ الغيبةِ لا يُغفَرُ له حتى يَغفِرَ له صاحبُهُ»(1).

ولما سأل رسولُ الله ﷺ الناسَ: أَيُحِبُّ أحدُكُم أنْ يأكُلَ لحمَ أخيه ميتاً؟ قالوا: لا، فكان الجواب: فكرهتموه!.. أي فكما كرهتم أكل لحمه ميتاً، فاكرهوا غيبته حياً. ولذلك يقال للذي يغتاب الآخرين: فلان يأكل لحوم الناس.

وكما أنَّ العقل، والفطرة والحكمة توجب جميعها النفرة من هذا الشيء المحسوس الذي هو أكل لحم الأخ ميتاً، فكذلك هي توجب النفرة مما هو نظيره وشبيهه أي الغيبة، حتى أنَّ الشاعر عندما استوعب فهم هذا المعنى من حيث التشبيه والتمثيل، قال:

وليسَ الذِئبُ يأكُلُ لحمَ ذِئبٍ
ويَأكُلُ بعضُنا بَعْضاً غِياباً

وقال آخر:

فإنْ أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرْتُ لُحُومَهُمْ
وإنْ هَدَمُوا مَجْدي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدا

٣ ـ **الخصيصة الثالثة**: المثل القرآنيّ ذو وجهين: ظاهر وكامن.

ـ فالمثل الظاهر هو المصرَّح به، كما في قول الله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾(2).

فهو مثل المنافقين الذين تظاهروا بالإسلام حتى يأمنوا على

---

(1) سنن الدارمي، رقم ٣٥.

(2) سورة البقرة، الآية: ١٧.

أنفسهم، وينالوا المكاسب والعزة، فلما ماتوا ـ وهم على نفاقهم ـ نزل بهم الخوف والعذاب فمثلهم كمثل الذي استوقد ناراً في ظلمة، فلما أنارت ما حوله، واستدفأ وأمن مما يخافه، انطفأت النار وخيَّم عليه الظلام من جديد، فانتابته المشاعر القاتلة، ووقف في مكانه لا يهتدي إلى الطريق الذي يقوده إلى الأمان.

ـ والمثل الكامن هو الذي لا يظهر فيه المثل، كما في قول الله تعالى: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾[١]. فالنص وإن كان يحكي عن الأوصاف التي طلبها بنو إسرائيل في البقرة التي أُمروا بذبحها، وبيَّنها لهم ربُّ العالمين على لسان موسى عليه السلام أي أنها بقرة ليست مسنَّةً ولا صغيرةً، بل هي بين ذلك، أي نصف في سنِّها.. إلاَّ أنَّ هذا الوصف القرآني للبقرة يشير إلى مثل كامنٍ فيه، وكانت العرب وغيرهم يعرفونه، وهو قولهم: «خير الأمور أوساطها».

وكذلك الأمر في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[٢]، وهو من دعاء[٣] نوح عليه السلام إلى ربه تعالى بألاَّ يذر على الأرض نازلَ دار من الفجّار الكفّار، الذين إن تُركوا فإنهم يضلون عباد الله، ولا يلدونَ إلا أمثالهم ممن يفجرون ويكفرون.. وهو ما يشير إلى المثل القائل: «الحية لا تلد إلا حية».

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٨.

(٢) سورة نوح، الآية: ٢٧.

(٣) وقد كان دعاء نوح عليه السلام بقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ سورة نوح، الآيتان: ٢٦ و٢٧.

والمثل الكامن نجده كذلك في قول الله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾(١). ويدل عليه قولُهُم في هذا المثل: «الإنسان عدو لما جهل».

٤ ـ **الخصيصة الرابعة**: ومن روعة الأمثال في القرآن الكريم أن بعض أجزاء آياته قد جرت مجرى المثل الذي يعرف بالمثل السائر، كما في قول الله تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾(٢) أي ظهر وبان، ويمكن أنْ يضرب في كل وقت يظهر فيه الحق الصراح.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾(٣). أي أن كل جماعة تكون ـ عادةً ـ معتدَّةً برأيها ومسرورة به. وهذا القول يدل على الأضداد والمتعارضين في الرأي. فكل جماعة قد تظن أنها وحدها على صواب، وغيرها على خطأ. . وهو ما يمكن أن يصور حالة الناس بالأمس، وحالهم اليوم، وفي أي مجتمع من المجتمعات حيث توجد الأحزاب، أو الهيئات أو الجماعات وتكون على خلافٍ في وجهات النظر. فالحزب سياسياً كان أو غير سياسيّ يعتقد أن مبدأه هو الصحيح، وأنه هو الذي يجب أن يهيمن على المبادئ الأخرى التي تنادي بها سائر الأحزاب من دونه.

ومنه أيضاً قول الله تعالى: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾(٤)، بحيث يضرب به المثل عند البت بأي نزاع بصورة نهائية ومحكمة، فلا

---

(١) سورة يونس، الآية: ٣٩.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٥١.
(٣) سورة الروم، الآية: ٣٢.
(٤) سورة يوسف، الآية: ٤١.

يعود من مجال للتنازع والاختلاف طالما أنَّ الأمر قد قضي وانتهى، أرضيَ المتنازعون أم لم يرضوا.

٥ ـ **الخصيصة الخامسة**: أمثال القرآن الكريم مطلقة.

وهذا يعني أنَّ الأمثال في القرآن الكريم تتناول الأمور بصورة كليّة وشمولية، دون أنْ تأخذ كل أمر على حدة وبصورة إفرادية.

يقول الله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾(١) فقوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ هو تعبير عن الحياة الدنيا كلها، دون ذكر تفاصيلها وأجزائها. فقد شبه هذه الدنيا بالنبات الذي ارتوى بالمطر فأينع وحسن، ثم صار هشيماً يابساً، فهبت عليه الرياح وفرقته أجزاءً صغيرةً متناثرةً لا نعثر لها على أثر. أَوَليس هذا واقع النبات بصورة مطلقة، مثل ما هو واقع حياة كل كائن حيّ عندما يصير في أوج القوة والعزة، ثم تعيده السنوات التي يعيشها إلى الوهن والضعف، ليأتيَ عليه الموت، أو الفناء فيتلاشى جسده إلى ذراتٍ..

والأمر كذلك بالنسبة لكل ما تتناوله أمثال القرآن. فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يضربُ مثلاً لحالة بحالةٍ، دون تفصيل كل حالة على حدة. وهذا ما يضفي على المثل القرآنيّ صفة الإطلاق، لأن معانيه ومدلولاته لا تنحصر بالحالة التي يتناولها نص هذا المثل، بل تتسع لتشمل جميع الحالات المماثلة لها في أي زمان ومكان وجدت فيه هذه الحالات. وحتى الأقوام، أو الأشخاص الذين يذكرهم

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٥.

القرآن، ويصف طرق تفكيرهم وتصرفاتهم ليسوا إلا نماذج لأقوام وأشخاص على شاكلتهم ومثالهم في هذه الحياة الدنيا. . فلو أخذنا نموذجاً للمغرور، صاحب الغنى والجاه، نجده في «قارون» الذي كان يدّعي أنَّ كل ما بلغه مجدٍ، وجاهٍ وثروة إنما كان من عنده، أي حصل بعلمه وقدرته وحذاقته، كما كان يقول للناس، وهو ما يبيّنه ـ على لسان قارون ـ قول العزيز الحكيم: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾(١)، في حين أنه في الحقيقة ليس هناك من شيء يتمتع به الإنسان من الصحة أو الخلقة أو القوة، أو يبلغه من العلم والنفوذ والسلطان، أو يمتلكه من المال والغنى والثروة إلا وهو من نعمة الله ـ تبارك وتعالى ـ عليه، لقوله الكريم: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾(٢).

وعلى شاكلة «قارون»، كان سيده «فرعون» الذي بلغ من الجبروت والطغيان ما جعله يدعي «الربوبية»، بل ويفرض على قومه أن يجعلوه «ربهم الأعلى»!. . ولا نظن «فرعون مصر» في ذلك الزمان، يختلف عن «فراعنة» أيِّ مصرٍ أو عصرٍ، الذين يتحكمون في رقاب العباد، وفي مصائر الأمم والشعوب، وكانوا مثالاً لكل حاكم طاغية، مستبد وظالم، أو صاحب نفوذ جشع، فاسد وفاسق!. .

هذا ولا تقتصر الأمثال التي ضربها الله تعالى على نماذجَ للكفار، والمكذبين، والمفسدين والمنافقين. . بل وتتناول أيضاً نماذجَ للمؤمنين الصالحين، والصادقين، والقانتين والزاهدين والمتقين. . أي شتى النماذج البشرية، بحيث يكون المثلُ للجنس، أي يبين جنس المنافق

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧٨

(٢) سورة النحل، الآية: ٥٣.

وجنس الصادق، وجنس الكافر وجنس المؤمن وجنس الفاسق وجنس التقي.. إلى آخر ما حفلت به الأمثال في القرآن المبين من تصويرٍ لأصناف الناس!.. ولذلك جاءت أمثال القرآن على النحو الجامع الذي يحيط بالإنسان في جميع أحواله، وبكل ما يتعلق بمسيرته على هذه الأرض منذ بدء الخليقة وإلى قيام الساعة.

ومن مجمل تلك الخصائص يتبيّن أنَّ المثل في القرآن الكريم لا يقتصر على مفهوم واحد من حيث التشخيص والتصوير والتمثيل، بل ربما تندرج تحت كل مثل مفاهيمُ لا تحصى، وهذا ما يجعل الأمثال القرآنية بمثابة قواعدَ تتفرع عنها حقائقُ كثيرة ومتنوعة.. يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1]، بمعنى أنَّ الأمثال في هذا القرآن، وإن كانت محدودة العدد، بحيث لا تتجاوز بضع مئات، إلا أنها في حقيقتها تتناول كل ما يهمُّ الناس، وما قد يشغل بالهم، أو ما قد يتمنونه ويطمحون إليه، لا سيما وأنها تخاطب الإنسان في عقله وقلبه ونفسه، وتشعره بعبوديته لخالقه، فلعله يتذكر ما تستحق هذه العبودية لله الواحد الأحد من قدسية، وامتثال لأوامره ونواهيه عن قناعة.

ولئن كانت الأمثال التي عرفتها الشعوب لا يمكن إحصاؤها، ولا معرفةُ مختلف المواضيع التي تناولتها، فإن ما يثير الدهشة، ويثبت الإعجاز أن يكون كتابٌ واحدٌ، وهو القرآن الكريم، قد مثّل لجميع النماذج البشرية، ولشتى الأنواع والأنماط في حياة الناس، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾[2]. فلفظة «من

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٧.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٧.

كل مثل» تحتوي على جميع نماذج الناس ومعتقداتهم وخصائصهم، وجميع أصنافهم ومزاياهم وصفاتهم، وعلى كل ما تحمل من العبر والعظات والبراهين.

فتأمل هذا البيان الإعجازيّ، والأسلوب البلاغيّ اللذين لا يمكن لغير القرآن أن يأتي بهما. فهو في ثلاث كلمات فقط: «من كل مثل» قد استوعب الحياة الدنيا بأسرها، في مختلف خلائقها من الكائنات الحية والجامدة، وما يحيط بها، ويؤثر على وجودها.. وكل ذلك بأمثال محدودة، معبّرة وصالحة لكل زمان ومكان..

ثانياً: فنّية الأمثال في القرآن الكريم

لقد جاء المثل في القرآن الكريم متميزاً بواقعيته، وبأسلوبه البلاغيّ، وبيانه الإعجازيّ ليكون غاية في الوضوح والتأثير، وهي العناصر الأساسية التي تشكل فنّية هذا المثل لإيصال المعاني التي يريدها بسهولة ويسر. وتظهر هذه الفنية في المزايا التالية:

١ ـ **الدقة والواقعية**: ذلك أنَّ المتأمّل في الأمثال التي احتواها القرآن يلحظ دقته الفريدة في صياغة الألفاظ لكي يكون وقعها في الأنفس مؤثراً وفاعلاً. فالمثل القرآنيّ لا يمثّل ـ دائماً ـ بالغريب العجيب، وإنما يتخيّر الصورة من المحسوسات الموجودة، ويعرضها بأوصافها وخصائصها، ثم يسكبها في الألفاظ لتكون شاهداً واضحاً على ما يريد إيصاله إلى الأذهان، وذلك من دون أنْ يضع في الممثَّل به وصفاً زائداً أو ناقصاً، فتأتي الصورة صادقة ومعبّرة..

يقول الله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ

ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[1].

فالوليّ (وهو مفرد الأولياء) يعني السيد الذي يأمر فيُطاع، والذي يمتلك فيتصرف، فهو يملك الاعتداد بالقوة والسلطة والأمر.. فهل يمكن أنْ تنطبق هذه المواصفات على مخلوقاتٍ زعموا أنها آلهةً، اتخذوها أولياءَ من دون الله، وهو ـ جلَّت عظمته ـ له مقاليد السماوات والأرض، وهو على كل شيء قدير، ومن جليل عظمته أنه قادر على أنْ يفعل بأولئك الأولياء ما يشاء؟! ولذلك يأتي هذا المثل ليبيِّن لنا أن الولاية لأي شيء من دون ربّ العالمين هي ولاية أو تبعية واهية، ضعيفة، لا تضر ولا تنفع بشيء. فالذين اتخذوهم من دون الله تعالى أسياداً ينصاعون لهم، هم كالعنكبوت في الضعف، وولايتهم ضعيفة وواهية مثل بيت العنكبوت في نسجه الرقيق، القابل للتمزيق والتبديد عند أدنى مسٍّ به.. ولو كانوا يعلمون ذلك ما عبدوهم، وما اتخذوهم آلهةً ينصرونهم من دون الله!.. فإنْ كانوا لا يعلمون ذلك، فإنَّ هذا المثل القرآنيّ يبين لهم وهن معتقداتهم، بحقيقة محسوسة، ماثلة أمامهم بهذه الحَشَرة الضعيفة التي هي العنكبوت.

٢ ـ **الدعوة إلى التفكّر والتبصّر**: وهذه الدعوة هي أحد أهم الجوانب الفنية للأمثال في القرآن المبين، عندما نراه يترك ـ عمداً ـ للمخاطَب بتلك الأمثال، كثيراً من المجالات التي تستدعي

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤١.

التفكير بمعانيها ومقاصدها؛ أي أنها دعوة للإنسان لحث العقل، وقدح زناد الفكر، ورؤية الحقيقة كما هي من دون مواربة أو إنكار. وهي عوامل تقوده حتماً إلى الإيمان الصادق بحقيقة وجود الله تعالى، والتصديق بأنبيائه ورسله. ذلك أنَّ دور العقل إنما يتمحور ـ في الأصل ـ حول اكتشاف الحقائق التي يقوم عليها الوجود البشريّ، وهذه الحقائق كفيلة بأن تشدَّ الإنسان إلى طريق الحق، وتهديه إلى عبادة ربه تعالى، وطاعته والعمل بمرضاته. أما إذا جافى الإنسان تلك الحقائق، وقولبَ ما يتوصَّل إليه عقله وقلبه بمظاهر الحياة المادية البحتة، دون أن يأخذها بأبعادها الروحية، ويعطيها مراميها المعنوية، فلا يعود لديه حينئذٍ، أيُّ معنى للإيمان بربه وخالقه.. وهذا هو الكفر والضلال بعينه.

يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾(1).

أجل هذا هو مثل الذين كفروا بربهم، إذ مهما أتوا من الأعمال الحسنة في هذه الحياة الدنيا، فإنهم يوفَّون أجورهم عليها في دنياهم هذه، ثم لا يكون لهم نصيب منها في الآخرة، لأنها سوف تتبدّد هناك وتغيب مثل الرماد الذي تهب عليه الريح في يوم عاصف فتذروه بدداً.. وكل ذلك بسبب كفرهم الذي يجعل عملهم غير خالصٍ لوجه الله تعالى، فقادهم إلى الضلال البعيد، وجعلهم في النهاية يخسرون آخرتهم.

---

(1) سورة إبراهيم، الآية: ١٨.

٣ ـ **التأثير النفسي**: إن الأمثال في القرآن الكريم تستمد مدلولاتها من عناصر الحياة ذاتها لكي تكون قريبة من فهم الإنسان، فيعايشها ويقتدي بوحيها وإلهامها، فكانت ـ من أجل ذلك ـ ضروريةً لها روعةُ التصوير التي يكون لها تأثيرها الفاعل في النفس البشرية.

ومن أجل هذا التأثير النفسيّ فإن أمثال القرآن غالباً ما تتخذ من الطبيعة ميداناً لها، لترسم منها الصور المعبّرة:

ـ **فمن نباتها**: نجد الحبة التي تنبت سبع سنابل، والزرع الذي أخرج شطأه، والشجرة الطيبة، والشجرة الخبيثة.

ـ **ومن حيوانها**: نجد الأنعام، كما نجد الحمار والكلب.

ـ **ومن طيرها**: نجد الهدهد..

ـ **ومن حشرتها**: نجد النحلة والنملة والعنكبوت والبعوضة..

ـ **ومن جمادها**: نجد الجبل، والقيعان، والسفينة..

بل وتجمع بعض نصوص القرآن في اللفظة الواحدة أو في العبارة الواحدة معانيَ عديدةً لتعطيَ صورة أو فكرة شاملة عما يؤثر في حياة الناس، كما في قول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾(١).

على أن تلك الصور التي تستقيها الأمثال في القرآن من الطبيعة لا تعني اقتصارها على أنواع معينة من المخلوقات دون غيرها، وإنما توردها على سبيل المثال أو الذكر، لأن القرآن المبين لا يعنيه الممثَّل

---

(١) سورة الغاشية، الآيات: ١٧ ـ ٢٠.

به، أو بتخصيصه عن غيره، بقدر ما يقصد به تقريبَ الصورة إلى نفس الإنسان، رغم شدة وضوحها وبيانها في السياق القرآنيّ.

وكما تأخذ الأمثال في القرآن من الطبيعة ميداناً لها، فإنها تأتي أيضاً بالأشياء ذات التأثير الشديد على الحياة اليومية للإنسان. ومن قبيل ذلك: النور والمصباح وشجرة الزيتون. يقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾(١).

أجل، ويضرب الله تبارك وتعالى الأمثال للناس حتى يفهموا مقاصدها فيعتبروا، ويؤمنوا.. «والله بكل شيء عليم»، لأنَّ علمه قد أحاط بكل ما في الكون، وما في الوجود، كما أحاط بما كان وبما سوف يكون.. ومن مقتضى علم الله أنْ يهدي عباده إلى الأشياء التي تؤثر على حياتهم تأثيراً مباشراً من خلال الأمثال التي ضربها لهم كما في هذا المثل عن نور الله تعالى في السماوات والأرض.. فالنور لا يمكن لشيءٍ الاستغناء عنه، وبخاصة أنّه لا حياة بلا هذا النور الذي يبعثه الله تعالى من الشمس ليؤديَ دوره في إيقاظ الحياة وتفاعل كائناتها. والمصباح الذي يعدُّ تمثيلاً للنار والاشتعال والإنارة، إنما هو من أهم ضرورات الحياة للإنسان، بحيث لا يستوي العيش من دونه. أما شجرة الزيتون فإنَّ الناس يعرفون مقدار ارتباط حياتهم بها لما تقدِّمُ

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.

لهم من حَبٍّ وزيتٍ للطعام، أو من خشب للوقود، أو من تأثيرٍ على البيئة سواء ما يتعلق بحفظ التربة، أو تحسين المناخ، وجلب المطر، أو ما تفيد منه الطيور والحشرات التي تعيش حيثما وجدت هذه الشجرة المباركة، وقد خُصَّت بالذكر في هذا المثل القرآني لتتوافق مع الخير الذي يبعثه النور في حياة الناس، ولتكون مثالاً لكل خير من أية جهةً أتى، سواء من الشرق أم من الغرب، ومن كل إنسان محبٍّ للخير دونما تمييز لأية بقعةٍ جغرافية أو لأية جنسية انتمى..

وفي ذلك كله ما يدل على أهمية الأمثال في القرآن الكريم وهي تعبِّر عن شؤون الناس العامة والخاصة على السواء..

الفقرة السابعة: الأهداف التي تتوخاها الأمثال في القرآن الكريم

لقد تنزَّل الكتاب المبين من لدن خبير عليم رحمة للعالمين. وقد تناول من بين ما أتى به قضيتين رئيسيتين قد ينضوي تحت لوائهما كافة القضايا التي تبحث في الكون والحياة والإنسان. وهاتان القضيتان هما: عبادة الله الواحد الأحد، وهدى الله لعباده.

أما من حيث عبادة الله الواحد الأحد، فيقول الحقُّ تبارك وتعالى:

﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾(١).

فهذا القرآن قد أحكمت آياته بعجيب النظم وبديع المعاني، تماماً كما أحكمت بأسلوب بلاغته، وإعجاز بيانه، لتُبعد جميعها عنه

(١) سورة هود، الأيتان: ١ و٢.

أي نقصٍ أو تفاوت أو خلل؛ كما أن آياته قد فصّلت بالأحكام والقصص والمواعظ والعبر والأمثال التي تؤكد ـ بمزاياه الظاهرة والخفيَّة ـ أنه من لدن حكيم في صنعه وإبداعه، خبيرٍ بشؤون عباده وتدبيرهم، وهو الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الذي يدعوهم لعبادته، وألَّا يعبدوا إلَّا إيَّاه إلّهاً واحداً أحداً فلا إلهَ إلَّا هو، ولا ربَّ يعبدُ سواه، وأنه سبحانه قد بعث نبيَّه محمداً ﷺ بهذا القرآن ليكون نذيراً بالعذاب لمن يكفر بعبادة الله، وبشيراً بالثواب لمن آمن بالله واتقى وعمل صالحاً..

والآيات التي تحضّ على عبادة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ محكمة في القرآن من أوله لآخره، وجميعها تؤكد على أنه إلَهٌ واحدٌ أحد، فرد صمد، وكلها تحمل الأمرَ لعبادِهِ ألَّا يتخذوا من دونه إلهاً آخر، كما في هذه الآية الكريمة: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾[1].

وإن الإقرار بالألوهية والربوبية لله ـ جلت عظمته ـ هو الهدف الأعلى الذي تنبثق عنه سائر الأهداف الأخرى، سواء تلك التي تتعلق بالغاية من خلق الإنسان وارتباطه بالكون، أم الأهداف التي تتوخاها أمثال القرآن في توجيه وتربية الإنسان ليكون عبداً لله تعالى.

وأما من حيث الدعوة إلى الهدى، فيقول الحقُّ تبارك وتعالى:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾[2].

---

(١) سورة النحل، الآية: ٥١.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

لقد نزَّل الله ـ تعالى ـ أحسن الحديث قرآناً متشابهاً، أي يشبه بعضه بعضاً في النظم والبيان، والدقة والإعجاز. وقد ثنِّيت فيه القضايا التي تهم الناس في حياتهم الدنيا والآخرة، ومنها الوعد بالجنة، والوعيد بالنار.. فالمؤمنون الذين يخشون ربهم ويخافون وعيده، تقشعر جلودهم لذكر وعيده، ثم تطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ورحمته بعباده، وما يعدهم به من النجاة والفوز..

فالقرآن هو أحسن الحديث، ومن محاسن حديث الله العلي العظيم أنَّ الذين يتأثَّرون بهذا الحديث الجليل هم المهتدون، بل وتأثرهم إن من ناحية الخشوع والخوف من ربهم، أو اطمئنان قلوبهم إلى ذكره تعالى، هو هدى الله، الذي يهدي بكتابه الكريم، وبحديثه السنيِّ من يشاء من عباده، وهؤلاء العباد هم الذين وصفهم تعالى بقوله الحكيم: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾(١)..

وأما من يضلل الله، فهم ـ في علمه المكنون ـ هؤلاء الناس الذين ليست لديهم قابلية للهداية، فما لهم من هادٍ، يعيشون في الضلال المبين، ويموتون في الضلال البعيد. فتأمل كيف نزَّل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ذلك الكتاب هدى ورحمة للعالمين، بما فيه من الآيات الدالة على طريق الهدى، ومنها هذه الأمثال التي يشع في كثير منها النور المبين الذي يهدي عباد الله الصالحين.

ولا ريب بأنَّ القرآن في مجمله ـ في آياته المحكمة والمتشابهة ـ يؤكد على أنَّ أهم مصاديق مقاصده الإقرار بالألوهية المطلقة والربوبية

---

(١) سورة الزمر، الآية: ١٨.

المطلقة لله تعالى؛ ومن ثَمَّ دعوة عباده ألّا يعبدوا إلّا إيَّاهُ، وأنَّ الله ـ تعالى ـ يهدي بهذا القرآن من يشاء، ويضل من يشاء.. وعلى هاتين القاعدتين، في إطلاقهما، تبنى معاني القرآن كافة، بما فيها معاني الأمثال التي قد يتوخى كل منها أهدافاً وغايات خاصة به، أو يشترك مع غيره في أهداف وغايات عامة ترد في آيات متعددة من القرآن المجيد.

وعلى هذا فإنه يمكن أنْ نستخلص ـ فيما هدانا الله تعالى إليه ـ بأنَّ من الأهداف التي تتوخاها الأمثال في هذا القرآن الأهداف التالية:

١ ـ الهدف الأول: إدراك الأمور الغيبية

من الواضح أنَّ الناس قد يحيط بهم كثير من الأسرار المغلقة على أفهامهم، وذلك في الوقت الذي يتوقون فيه إلى بلوغ معرفة هذه الأسرار، أو الوقوف على حقائقها، ولا سيما ما يعتقدون أنَّ له تأثيراً على حياتهم.. ولذلك كان من أهداف الأمثال في القرآن الكريم تبيانُ وإيضاحُ معاني بعض أمور الغيب ـ التي هي بمثابة أسرار بطبيعتها بالنسبة للناس ـ حتى يدركوا حقائقها، على أنْ تكون الغاية، من وراء ذلك، الإيمانَ بتلك الأمور الغيبية، ولاسيما تلك التي تشغل، في الواقع، بال الإنسان وتقضّ مضجعه، واعتبارها من ثمَّ مسلمات يقينية غير قابلة للجدال.. وعلى هذا فإننا نجد في القرآن الأمثال عن البعث والنشور، والحساب يوم القيامة، والثواب والعقاب، والجنة والنار، والإيمان والشرك وغيرها من المعاني العقلية، التي لا يمكن أنْ تستوعبها عقولنا، وتطمئن لها نفوسنا إلا بالأدلة والبراهين الحسية وبخاصة إذا كانت مستقاة من واقع وجودنا.

فلو أخذنا مثلاً الشرك بالله، نجد أنه في حقيقته من القضايا العقلية؛ أي القضايا التي قد تشكل موضعاً للاتفاق أو موضعاً للاختلاف بين الناس على ماهيتها، وتحديد نطاقها، والمرامي التي يتوخونها من الإقرار - أو عدم الإقرار - بها!.. ولكن عندما يأتي المثل في القرآن ويبيّن لنا ماهية الشرك - الذي أخذناه مثالاً على القضايا العقلية - بأدلة حسية، فلا يعود هناك من مجال لإنكار حقيقة هذا الأمر العقلانيّ، أو عدم إدراكه في صميمه، ومن جميع جوانبه..

يقول الله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1]. فهذا المثل قد ضربه الله تعالى من واقع حياة الناس، بل ومن الناس أنفسهم، في الحياة المشتركة التي يعيشونها مع بعضهم بعضاً، فإذا كان لدى بعض الناس عبيد يملكونهم (كما كان الحال في الماضي) أو خدمٌ في بيوتهم، أو مستخدمون في شركاتهم ومؤسساتهم، فهل يكونون لهم شركاء في أعمالهم وأموالهم مثل شركائهم الأصيلين في تلك الأعمال أو الأموال؟ طبعاً لا.. فهم مجرد مماليك، أو مأمورين يتقاضون أجوراً، وبالتالي فهم لا يخافون من هؤلاء أن يشاركوهم في أي شيء من ممتلكاتهم التي هي، في الحقيقة، مما رزقهم الله تعالى. فإذا كان الأمر كذلك مع أناس أمثالهم، فكيف لا يخافون أن يجعلوا بعض المخلوقات التي خلقها الله - عزَّ وجلَّ - شركاء له، سواء أكانوا من الملائكة، أو الجن، أو الأصنام، أو من الأرباب المتفرقة، في حين

(١) سورة الروم، الآية: ٢٨.

أن الله وحده هو مالك الملك، وله كل ما في السماوات والأرض خلقاً وعبيداً؟.. سبحانه وتعالى عما يشركون.

وبذلك دلَّ العقل ـ ومن خلال الواقع المحسوس الذي يتمثّل بالشراكة بين الناس ـ على الأمر غير المحسوس الذي هو الشرك بالله، بحيث يستوعب كل من يعقل ويدرك أنه محالٌ على مخلوقات لله الخالق العظيم، أن تكون شركاء له في ملكه!..

ولما كانت القضايا الغيبية كثيرة في القرآن الحكيم، فقد تولت الأمثال فيه مهمةً دقيقةً تتوخى تقريب معاني تلك القضايا إلى أذهان الناس، وجعلهم يدركونها من خلال ما تقدمه لهم من الصور الحسية التي تعبِّر عنها، والتي قد تكون، غالباً، مستقاةً ومأخوذةً من واقع حياتهم ووجودهم.

فعندما يريد المثل في القرآن أنْ يبيّن لنا معنى الجنة، حيث النعيم الكبير في الآخرة، فإنه يعرِّف بها من خلال الصور الحسية والمألوفة في حياتنا من مثل: الظلال الوارفة، والأنهار الجارية، والثمار اليانعة، ولحم الطير الشهيّ، والعسل واللبن والخمر، والسرر المرفوعة، والأرائك والنمارق والزرابيّ وغيرها مما يتمنَّاهُ الإنسان لكي ينعم بالعيش الرضيّ، ويحقق الرفاهية والطمأنينة، ويرفل بالحبور والأمان... وكذلك الأمر عندما يتوخى المثل في القرآن أنْ يبيّن لنا معنى النار، وجحيمها في الآخرة، فإنه يلامس واقع حياة الناس ويستقي منها الأدلة والبراهين المحسوسة على ذلك من مثل: اللهب المستعر، والماء المغليّ الحار، والأحشاء الممزقة، والجلود المحترقة، والمياه الآسنة، والطعام الرديء وغيرها من الأشياء التي تدل على الشقاء والتعاسة، والقهر والتنكيل، والألم والعذاب..

ومن أبرز القضايا الغيبية في القرآن قضية البعث بعد الموت، وهي القضية التي اتخذ منها الكفار والمشركون مجالاً كبيراً للجحود والإنكار، ومثاراً للجدال والحجاج، ومن ثَمَّ تكذيب الرسل في أمر الإحياء بعد الموت. . ولذلك تولت الأمثال في القرآن الكريم جلاء هذه القضية، وإثبات حقيقة البعث، وذلك من خلال الحقائق التي يعايشها الإنسان كل يوم، والتي لا يمكنه إنكارها، أو الادعاء بعدم وجودها، فكان التركيز في هذه الأمثال على خلق الإنسان وموته، كبرهانَيْن ساطعَيْن على ما سوف يعقبهما من النشور والإحياء. .

فأما البرهان الأول وهو الخلق، فقد دلَّ عليه كتاب الله بآيات بيّنات عظيمة، ومنها:

قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾(٣).

---

(١) سورة النور، الآية: ٤٥.

(٢) سورة الطارق، الآيات: ٥ ـ ٧.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١٢ ـ ١٦.

وغنيٌّ عن البيان ما في هذه الآيات البيّنات من الأدلة والبراهين المادية والحسية على أصل الخلق الآدميّ، وعلى كيفية تكوينه، والأطوار التي يمر فيها هذا التكوين حتى يخرج الإنسان بشراً سوياً، وفي خلق آخر مختلف عما كان عليه في مختلف الأطوار السابقة.

وقد أكد العلم وأثبت حقيقة وصدقية ما ورد في القرآن المجيد حول تلك الأطوار للخلق البشري، وهو قد توصَّل إلى ذلك بالنظريات والأبحاث والتجارب التي تملأ المجلدات.. في حين أن القرآن، وهذا من إعجازه، قد بيّن أطوار الخلق البشريّ بأقل العبارات وأدقها، ليكون هذا الإعجاز بذاته برهاناً إضافياً على قدرة الله تعالى في الخلق، وأنه هو الخلاق العليم.

فهذا الخلق حقيقة راهنة وثابتة في كل إنسان. بل وفي مختلف الكائنات الحية من النبات والزرع والطير والحيوان والحشرة.. ووجودها الماديّ أكبر برهان على أنها مخلوقات للخالق العظيم. ويكفي الإنسان أن يتفكر بها ليستدل على قدرة الخالق.

وأما البرهان الثاني فهو الموت، الذي هو أيضاً حقيقة ثابتة في حياة الناس، بل وفي حياة كل كائن حيّ أياً كانت المدة الزمنية التي يعيشها، أو يعمِّر فيها! وقد دلَّ القرآن على الموت، الذي هو حقيقة لا جدال فيها، بآيات كثيرة، ومنها:

قول الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾(١) وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾(٢).

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

(٢) سورة الواقعة، الآية: ٦٠.

وقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾(٣).

وهذه الآيات، كما آيات الخلق، هي جزء يسير من النصوص التي تتحدث عن الموت والحياة في القرآن المبين. . .

على أن الموت بذاته هو الحكمة البالغة التي شاءَ الخالق العظيم أن تدل بشكل أساسيّ على أمرين من أمور الغيب وهما:

- سر الحياة التي يودعها الخالق في الكائنات الحية.
- بعث الناس يوم القيامة.

ومن أجل أن يقرِّب القرآن المفهومَ الغيبيَّ لسر الحياة، ولإعادة الحياة أو البعث يوم القيامة، فقد دل عليهما بالحقيقة الحسية والمادية التي يراها الناس بأم العين، أي بالموت، الذي هو نقيض للحياة. .

فماذا يحدث في هذا الموت الذي هو نقيض للحياة؟

إن أول ما يدل على موت الإنسان هو خروج الروح منه، لأنّه بالروح يحيا في جسده ونفسه. ولئن كانت الروح هي خارج نطاق علم الإنسان، لأن الله تعالى ـ كما يثبت القرآن ـ قد جعلها سراً من أسرار خلقه، وتعزَّز سبحانه وتعالى بهذا السر، فإنه من الثابت أن الموت لا

---

(١) سورة الملك، الآيتان: ١ و٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٥.

(٣) سورة الرحمن، الآيتان: ٢٦ و٢٧.

يحلُّ بالإنسان إلا عند خروج الروح منه، ففي هذه اللحظة بالذات نجد الجسد قد همد عن الحركة، وتوقف فيه كل نبض للحياة.. ثم لا يلبث هذا الجسد أن يتصلب شيئاً فشيئاً (وهذا هو الحمأ المسنون الذي ذكره القرآن في أصل خلق آدم) ثم يتعفّن الجسد الميت ويصبح طرياً كالصلصال، ثم يصير تراباً إذا دفن في الأرض (أو هباءً منثوراً إذا جرى حرقه على طريقة بعض الجماعات البشرية).. فهذه الأشياء المادية: وقف حركة الجسد، الحمأ المسنون، الصلصال، التراب ـ أو الهباء المنثور ـ هي الأدلة الحسية على الموت، أي على فناء الجسد، وفناء الإنسان وزوال وجوده نهائياً من هذه الحياة الدنيا.

ولا ريب بأنَّ القرآن الكريم إنّما يقدم الأدلة والبراهين على حقيقة الخلق، وحقيقة الموت، ليكون خلق الإنسان وموته هما خير الشواهد على حقيقة البعث، ولا سيما من خلال الأدلة الحسية التي أتت بها الأمثال في هذا الكتاب المجيد كما في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ* وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ* قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ* ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ* أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ* إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ* فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1].

فالشواهد الحسية، والبراهين العقلية التي يسوقها هذا المثل القرآني على البعث عديدة، ومنها:

---

(١) سورة يس، الآيات: ٧٧ ـ ٨٣.

ـ النطفة (المنيّ أو الماء المهين)، فالله الذي يخلق من هذه النطفة خلقاً آخر (هو هذا الإنسان الذي نعرفه)، لقادر على أنْ يبعثه، أي أنْ يعيدَ خلقه بعد النشور، كما أنشأه أولَّ مرة.

ـ العظام التي هي من عناصر تكوين الجسد البشريّ، والتي لا يمكن أن يكون مثل هذا التكوين من دونها، فالقادر على إنشاء هذه العظام أول مرة من الماء المهين لقادر على إعادة إنشائها مرة أخرى، وإن بليت أو رمّت. وقد أظهر الله تعالى هذا الأمر أمام ناظرَيْ العزير، وهو يعيد إحياء حماره بعد أنْ مرَّت مائة سنة على إماتته، كما يثبتها قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(١)

ـ الشجر الأخضر الذي جعل منه الخالق العظيم للناس ناراً فإذا هم منه يوقدون. وأهمية هذا البرهان أو الدليل أنه يجمع ما بين الماء والخشب والنار ـ كأضداد ثلاثة ـ فلا ماؤه يطغى على النار الكامنة فيه. ولا المفاعل الداخلية التي تولّد النارَ في الشجر تحرق خشبه، بل يظل شجراً أخضر (على الرغم من وجود هذه العناصر الأضداد فيه) إلى أن ييبس ويصبح قابلاً للاحتراق، فالقادر على جمع هذه العناصر في الشجر الأخضر قادرٌ على بعث الإنسان بعد فنائه.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.

ـ والبرهان الأقوى هو خلق السماوات والأرض مع عظمهما، فالقادر على هذا الخلق العظيم أليس بقادر أيضاً على أن يخلق مثل هؤلاء الأناسيّ الصغار، وأن يعيد إحياءهم كيف يشاء؟ ومتى يشاء؟ بلى، وهو الخلاَّقُ (الكثير الخلق)، العليم (بما يخلق كلَّ شيء).

وقد ورد في أسباب نزول هذا المثل القرآنيّ، أن بعض المشركين في مكة، ومنهم العاص بن وائل قد جاء النبيَّ ﷺ وقد أخذ عظماً رميماً، ففتّه أمامه ثم قال له: أترى يا «محمد»، يحيي الله هذا بعدما بَلِيَ ورمَّ؟ وكان جواب النبي ﷺ القاطع: أجل، يحييه الذي أنشأه أول مرة، وهو بكل خلق عليم.. فكيف يعجب ذاك المشرك من البعث، وقد نسي أنه خُلِقَ من نطفةٍ من ماءٍ مهين، كما يؤكده القرآنُ المبين الذي كان النبي ﷺ يتلوه على مسامعهم في مكة، عندما يقول الله، وقوله الحق: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[2].

وقضية البعث هذه كانت من أهم القضايا التي اتخذها المنافقون والكفار والمشركون، سبيلاً ليحاجّوا بها رسول الله ﷺ، فكانوا يضربون له الأمثال أو يطلبون منه المعجزات من أجل غرس بذور الشك حول رسالته، فاتخذوا من قضية البعث وإنكارها، سبيلاً

---

(١) سورة الواقعة، الآيات: ٥٨ ـ ٦١.

(٢) سورة المرسلات، الآيات: ٢٠ ـ ٢٤.

لذلك، إذ في حال عدم وجود براهين حسية على هذه القضية، فإنه يصعب على النبيّ ﷺ متابعة دعوته ككل، وإقناع الناس بصدقها ومصداقيتها، ولذلك تنزّلت الآيات البيّنات التي تدحض كل تكذيب أو إنكار لبعث الإنسان بعد موته، ومن ثَمَّ لجعل هذا البعث حقاً يقينياً في النفوس، وذلك بما تحمل تلك الآيات من الأدلة المحسوسة التي ترتبط بها حياة الناس، ومدار عيشهم في وجودهم الأرضيّ، ومن تلك الآيات:

قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(٥).

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الروم، الآية: ١٩.
(٣) سورة النحل، الآية: ٦٥.
(٤) سورة الزخرف، الآية: ١١.
(٥) سورة الروم، الآية: ٥٠.

ويبرز في هذه الآيات الكريمة أمران:

- أن الله تعالى ينزل الماء من السماء فيحيي به الأرض بعد موتها.

- أن الله تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها كذلك يحيي الموتى من الناس يوم البعث أو النشور.

فالدليل واضح، والبرهان ساطع: فلينظر الإنسان إلى الأرض كيف تكون جافة، يابسة وهامدة، فإذا نزل عليها المطر من السماء اهتزت، وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، حيث هذه الأنواع التي لا تحصى من النباتات والزروع والأزهار، بشتى ألوانها الزاهية، ومختلف روائحها الطيبة؛ ثم هذه الأزهار والأوراق التي تعود الأشجار وتكتسي بها فتنتج الثمار أو تزين الطبيعة.. أليس في ذلك كله ما يدل على إيقاظ الأرض من رقادها، وإحيائها من مماتها؟ ثم أليس ذلك من آثار رحمة الله تعالى بالإنسان حتى يمكنه البقاء على هذه الأرض، وتأمين موارد العيش التي تساعده على هذا البقاء؟!

فهل يجوز للإنسان، مع هذه الشواهد الحسية، أن ينكر البعث، وهذه الشواهد تؤكد له أنَّ الله تعالى كما يخلق ذلك كله من الماء الذي يحيي به الأرض بعد موتها، كذلك يحيي الله الموتى، ويخرج الناس من الأجداث؟!.

بل وهذا أمر يسير على الله - جلت عظمته - بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ۞ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾[1].

---

(١) سورة ق، الآيتان: ٤٣ و٤٤.

فهذه القضايا الثلاث: الخلق، والموت، والبعث هي من القضايا الحسية والعقلية على حدٍ سواء. وقد جاءت آيات القرآن الكريم، ومنها الآيات التي وردت فيها الأمثال، تبيّن ماهية كل منها، بما يقرِّبها من أذهان الناس، وتجعلهم يفهمون معانيها، ويقرون بحقيقتها، فينجلي من ثَمَّ مفهوم البعث كقضية غيبية، ليصبح قضية عقلية، يقبلها العقل من خلال قبول الشواهد الحسية التي تدل على إعادة إحياء الأرض، كما يراه الإنسان بالعين المجردة.

٢ ـ الهدف الثاني: معالجة النفوس

إن من سنن الهدي الإسلاميّ مراعاةَ نفس الإنسان بما طبعت عليه من كوامنَ واستعداداتٍ، بحيث يقع على عاتق كل إنسان أن يزكّيَ نفسه بالخُلُق الحسن، والعمل الصالح: من الخير والبرّ والتقوى. . . أو أن يُدَسِّيَها ويملأها بالخلق السيّء، والعمل الباطل: من الشر والفجور والفساد. . . ولذلك كانت النفوس البشرية متباينة، فهنالك النفوس المؤمنة المطمئنة، والنفوس الكافرة الفاجرة، وبين هذه وتلك تكون النفوس المنافقة الحائرة. . وقد أنزل الله تعالى في كتابه المبين الآياتِ الدالةَ على مختلف هذه النفوس جميعاً.

فأما النفوس المؤمنة فالقرآن يربيها تربيةً مثاليةً تتلاءم مع قوة إيمانها واستعدادها للعمل بطاعة ربها، والامتثال لأوامره ونواهيه، ثم الانطلاق في العمل الصالح الذي يترجم زكاتها، ويجعلها مطمئنة إلى وعد ربها ـ عزَّ وجلَّ ـ بالرجوع إليه، ونيل رضوانه.

وأما النفوس الكافرة فأكثر ما يشدِّد القرآن على إظهار انحرافها عن الفطرة السليمة، ووقوعها في الكفر والضلال، بحيث لا تملك من

الضوابط ما يردعها عن الفجور والفسق، أو ما يحول بينها وبين ارتكاب الشرور والآثام. ولذلك يحاول القرآن أن يستميلها عن انحرافها، ويدفعها إلى ترك الكفر أو الشرك بالله تعالى مع وعده ـ عزَّ وجلَّ ـ بالتوبة والمغفرة، وإلاّ فإن الوعيد بالقهر والعذاب منتصب أمامها، بل سوف يزيدها الله ضلالاً من جراء إصرارها على الكفر، فلا تهتدي من ثَمَّ إلى الإيمان أبداً. .

وتبقى النفوس المنافقة، هذه النفوس الحائرة التي تتردد بين الإيمان الظاهر، والكفر الباطن، لما تمتلئ به من النفاق والتملق والخداع، وهذه النفوس يقدم لها القرآن من بالغ القول، وجميل الإرشاد، وهدي الحكمة، وروائع المثل ما هو حريّ أن يرد عنها الضعف ويخلصها من النفاق والذبذبة، ويدفعها إلى نبذ المكر والخداع، والكذب والرياء.

وبمثل هذه الغايات السامية، التي يتوخاها القرآن الكريم، فإننا نجد فيه تقويماً لجميع النفوس، ومعالجتها، وشفاءها من حالات الضعف أو الأمراض التي تعتورها. ويتبيّن علاج القرآن بقول الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾(1).

أجل إنَّ من القرآن ما فيه شفاء ورحمة للمؤمنين، بينما لا يزيد القرآنُ الظالمين لأنفسهم (بالكفر، أو الشرك، أو النفاق) إلّا خساراً.

على أنَّ المناط في إصلاح النفوس، وردّها إلى رحاب الإيمان الخالص، إنما هو بيد الإنسان، واختياره للنهج الذي يسلكه، وذلك بما يوطّن هو عليه نفسه، وبما يسيِّرها باتجاهه، ليكون بالتالي مسؤولاً

(1) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

عن المصير الذي قرَّر ـ وهو ما يزال بكامل وعيه وإرادته ـ أن يختاره لنفسه: ويكون ذلك إمَّا من حيث إصلاحها وتزكيتها، وإمَّا من حيث إفسادها وإضلالها، لقول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1].

ذلك أنَّ الله تعالى، وبمقتضى العدل الإلهيّ السنيّ، يترك الخيارَ لعباده، بل ويجعل مجالَهُ واسعاً أمامهم، لكي يتحركوا هم في دائرة هذا الخيار، فإمَّا يهتدون إلى الصراط المستقيم، أو ينحرفون إلى الضلال المبين.. ولكنه سبحانه وتعالى لا يتركهم لأنفسهم، إلَّا بعد أنْ يبيّن لهم، من خلال كتبه ورسالاته، وعلى لسان أنبيائه ورسله، ما قد يترتب على سلوكهم وأعمالهم من العقاب الذي يتوعدهم به، أو ما يعدهم به من الغفران والرحمة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾[2]. وإذا كان سبحانه يترك لعباده أن يختاروا بين غضبه أو رحمته، إلَّا أنه جعل ـ وهو الرحمان الرحيم ـ أبواب الرحمة والعفو والمغفرة مفتَّحة لهم، وهي رحبةٌ وفسيحة جداً، ولولاها لما ترك أحداً منهم إلَّا أهلكه، ، لقوله الكريم: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾[4].

(١) سورة الشمس، الآيتان: ٩ و١٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦٥.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٥٨.
(٤) سورة فاطر، الآية: ٤٥.

وإنه ـ والله ـ لقول كريم، مزيج من نصح، ومن هداية، وفيهما علاج للنفوس. ومثله آيات كثيرة دالّة ومعبرة، وفيها من الأمثال ما يشتمل على ألوان من الهدى تغري الناس بفعل الخير، وتحضّهم على البر، ولكنها بالمقابل تبيّن لهم عاقبة الضلال الذي يوقع بالمعاصي والآثام التي تترتّب عليها الذنوب.. فحريٌّ بالإنسان أن يستفيد من العبر والعظات التي تقدمها له آيات الكتاب المبين، فيتحقق له الشفاء من جميع عوامل الضعف في نفسه، وذلك هو الفوز العظيم..

٣ ـ الهدف الثالث: تبصرة الدعاة

والأمثال في القرآن الكريم تبصِّر الدعاة بالطرق والوسائل التي يجب أنْ يستخدموها، وبالظروف والأجواء التي يمكن للناس قبول الدعوة في ظلها، ومن ثمَّ الاستجابة للداعي فيما يقدمه لهم من التوعية، والترشيد والهدى..

فالدعاة للإسلام هم من أهل عقيدة التوحيد، وقد جعل الله تعالى حمل الدعوة الإسلامية ـ التي اختاروها بأنفسهم، أو هداهم بفضله لحملها ـ أمانةً في أعناقهم، تفرض عليهم إيصال دينه الحق إلى الناس بكامل أحكامه الشرعية البيّنة، وتعاليمه القويمة، ومفاهيمه الصحيحة...

وإنَّ هذا العمل لهو من أجلّ الأعمال وأعظمها أجراً عند ربّ العالمين، لأنَّ الداعي إلى الله (أي إلى دينه القيّم) هو هذا المؤمن المسلم الذي وصفه ربهُ بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1].

---

(١) فصلت، الآية: ٣٣.

ومن أهمّ وسائل نجاح الدعوة أن يعتمد الدعاةُ، في إيصال الإسلام إلى الناس، على مصدريَهْ الرئيسَيْن، قبل أي شيءٍ غيرهما، وذلك من خلال فهمهما فهماً صحيحاً، وهما:

- القرآن الكريم، فيجعلونه هدىً وسنداً وعضداً لهم في شتى شؤون الحياة، ولا سيما في دعوتهم إلى الإسلام وذلك لقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[١].
- والسنة النبوية الشريفة، فيكون لهم الرسولُ الأعظمُ محمد ﷺ القدوةَ والأسوةَ الحسنة، لقول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[٢].

ولا ريب بأنَّ من يتّبع كتابَ الله الذي فيه الهدى، ويستقي من سيرة الرسول ﷺ، وشخصيته الكاملة، ويسير على خلقه العظيم، إنما يكون قد اهتدى إلى غاية وجوده في هذه الحياة الدنيا، واستطاع أن يقوم بالدور المؤثر على مسرح الحياة الذي يعج بالحركة الدائبة، والتي لا يمكن أن تستقيم إلا بتقوى الله.. وصحَّ ما رواه جابرُ بن عبد الله رضي الله عنه عن أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّما مَثَلي في الأنبياءِ كَمَثَلِ رَجلٍ بَنَى داراً فأَكْمَلَها وَحَسَّنها إلاَّ موضِعَ لَبِنَةٍ، فكانَ مَنْ دَخَلَ فيها، فَنَظَرَ إليها قال: ما أَحْسَنَها إلاَّ موضع هذه اللَّبِنَة. فأنا موضِعُ اللَّبِنَةِ خُتِمَ بِيَ الأنبياءُ**»[٣].

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ٢ ـ ٤.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٣) صحيح مسلم، باب الفضائل، ص٢٢.

وكون محمد ﷺ خاتم النبيين، يتوافق مع ختم النبوات به، لأن الله ـ تبارك وتعالى ـ عندما بعثه بشيراً ونذيراً للعالمين، قد جعل رسالته الرسالة الخاتمة، التي أكمل فيها دينهم، وأتمَّ نعمته عليهم، ورضي لهم الاسلام ديناً، لتظل شريعته الشريعة التامة الخاتمة، ومنهاجها عن الإنسان والحياة والكون كاملاً وتاماً إلى يوم الدين. وبهذه الرسالة يمكن للإنسان أن يحقق سبل التكامل في الحياة.

وعلى هذا الأساس فإنَّ المسلم بمقدار ما يقف على حقائق القرآن الكريم، وخصائص معانيه ومقاصده، ومزايا شموليته وكماله.. وبمقدار ما يتمثل بسيرة رسوله الأكرم، محمد بن عبد الله ﷺ فإنه يكون داعياً إلى الله، ومؤهلاً لأن يضيءَ سبل الناس بمشاعل الهداية، وأن يدلَّهم على النهج القويم.

ولذلك كان من خصائص الأمثال في القرآن الكريم أنها تساهم في تبصرة الداعي بالجو العام الذي يدعو في ظله إلى الإسلام، فينصرف على ضوء فهم وإدراك القضايا والشؤون والأمور التي يحفل بها هذا الجو، إلى العمل الجديّ، متوسلاً للقيام بمهمته الجليلة التوكل على الله، والثقةَ بالنفس، ومعرفةَ الناس، والوقوف على حاجاتهم ومصالحهم، ومن ثَم محاولاً وضع، أو اقتراح الحلول التي يراها مناسبة وفقاً لأنظمة ومناهج وقواعد الإسلام التي تلبي تطلعات الناس مهما اختلفت عليها العصور، أو طالت بها الأزمنة.

٤ ـ الهدف الرابع: تبصرة المدعوين

وكما تساهم الأمثال في القرآن الكريم بتبصرة الدعاة، فإنها كذلك تساعد المدعوين على الاستجابة إلى هدى الله، بما تحمل من

معاني الترغيب والترهيب، والحكمة والموعظة الحسنة، وغير ذلك من المعاني التي تبين الرشدَ من الغيّ. .

فعلى سبيل المثال إنَّ الترغيبَ بالخير والثواب، والترهيب من الشر والعقاب، قد يكون أدعى للمدعوين أنْ يتفاعلوا مع معاني المثل المضروب. . وكذلك الأمر بالنسبة للمعاني الأخرى التي تجذب هؤلاء المدعوين إلى معرفة الحقائق التي تتوخاها الأمثال القرآنية، فإنَّ من شأنها جميعاً أن تجعل تعاليمَ الدين تستقر في نفوسهم، وأنْ يصبحَ إيمانهم بحقيقة وجود الله تعالى إيماناً ثابتاً، والتصديقُ بما أنزلَ على عبده ورسوله محمد ﷺ، وما أنزل من قبله، عقيدةً راسخةً.

أما كيف يلجأ المثل في القرآن الكريم إلى الترغيب أو الترهيب ـ كأحد المفاهيم الإسلامية ـ فذلك عن طريق استعراض ما مرت به الأقوام، أو الأمم الغابرة، وما حلَّ من الهلاك بتلك الجماعات البشرية التي لم تستجب لدواعي الإيمان، مؤثرةً تكذيب الرسل والبقاء على الكفر، بخلاف الذين آمنوا وعملوا الصالحات فنجَّاهم الله تعالى من ذلك الهلاك الجماعي، وفي هذا نهج عمليّ يجعل المدعوين يتمنَّون لو يكونون من القوم الناجين، وليسوا من القوم الهالكين.

ولو أمعنا النظر في تعاليم الإسلام والحقائق التي جاء بها، لتبين لنا أن المعيار ـ الأول والآخر ـ للتمييز بين الناس هو الإيمان، حيث يفرق الإسلام بين المؤمنين فيجعلهم في جانب، والكافرين والمشركين والمنافقين فيجعلهم في جانب آخر. . ويرقى المثل في القرآن الكريم وهو يعتمد هذا التقسيم إلى ذروة البلاغة في المبنى والمعنى، وذلك عندما يقيّم كلاً من هذه الأصناف البشرية وغيرها من

الأصناف الأخرى، من النواحي النفسية والسلوكية والمجتمعية، دون أن ينسى تقييم الإنسان في فرديته، وأنانيته، وعلاقاته بالآخرين.

ويبين رسول الله ﷺ ذلك التفريق بين مختلف الفئات من الناس، ولكن على أساس ما بعثَهُ الله تعالى به من الهدى والعلم اليقين، بما ضرب مثلاً عن أنواع الأرض التي ينزل عليها المطر، فقال ﷺ: **«إنَّ مَثَلَ ما بَعَثَنِيَ اللَّهُ بهِ مِنَ الهُدَى والعِلْم كَمَثَلِ غَيثٍ أصابَ أرْضاً، فكانَتْ منها طائفةٌ طيبةٌ قَبِلتِ الماءَ فأَنبَتَتِ الكَلأَ والعُشْبَ الكثير. وكانَ منها أجادِبُ**[1] **أَمسَكَت الماءَ فَنَفَعَ اللَّهُ تعالى بِهِ الناسَ فَشَربُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا. وكانَ مِنْها قِيعانٌ**[2] **لا تُمْسِكُ ماءً، ولا تُنْبِتُ كلأً»**[3].

فهذا الحديث الشريف يدل على تفاوت الناس في تلقي الإسلام - وما فيه من الهدى والعلم اليقين اللذين تنزَّلا على سيدنا محمدٍ ﷺ من ربه تبارك وتعالى - كتفاوت الأرض في تلقي الغيث. فالأرض الطيبة تفتح صدرها للمطر الذي أنزله الله تعالى عليها، فترتوي منه، ويختلط به نباتها فتخرج عطاءاتها بإذن الله نعمةً مباركة على جميع الكائنات. والأرض العقيم تختزن الماء في الحياض والآبار والبرك التي تنتشر فيها، فيشرب منه الناس، ويسقون أنعامهم، ويزرعون ما يحتاجون من الزروع، فكانت أرضاً ذات نفع.. أما الأرض الصلدة التي يغلب عليها الشدة والصعوبة، وكثرة الصخور والحجارة الملساء

---

(١) الأجادب: الأراضي المجدبة التي لا تنبت شيئاً فهي سبخة، ولكنها بصلابتها تحفظ الماء الذي ينزل عليها.

(٢) قيعان، جمع قاع، والقاع هو الأرض السهلة المطمئنة التي انفرجت عنها الجبال والآكام، كما جاء في «القاموس» و«التاج».

(٣) البخاري، باب العلم، ص٢٠.

فإنها تكون سهلة انسياب الماء، فلا يستقر عليها شيء منه، بحيث لا يخرج منها أي نبات، فهذه ليس لها من غيث الله حظ في عطاء، ولا نصيب في نفع..

وهكذا هُمُ الناس في الاستجابة لهدي الإسلام والعلم اليقين به، فمن قبله ـ على أساسهما ـ بقبول الحق، فإنه يحيا به ليكون من الصالحين، الذين يمدون الحياة الإنسانية دوماً بخير زادٍ، ويأتي في طليعةِ هؤلاءِ المؤمنينَ الدعاةُ إلى الله، والمجاهدون في سبيل الله. ومن أغناه ربه الكريم بهدى الإسلام، فعلم أحكامه وحقائقه ومفاهيمه، انتفع ونفع الناس، فكان أحد العلماء أو المجتهدين. أما الذي لا ينفع معه هدىً، ولا موعظة، ولا يؤثر فيه علم ولا معرفة، فليس له في خير الإسلام أي نصيب، وهو وأمثاله هُمُ الكسالى والمتقاعسون، والمنكرون والمستكبرون.

وإنَّ سيدنا ونبينا ورسولنا الأعظم محمد ﷺ إنما يدعونا ـ في مَثَل الغيث ـ إلى التزود بهدى الإسلام، وطلب العلم النافع حتى نصل إلى علم اليقين في معرفة هذا الدين وحقائقه، وحتى نكون أهلاً للعمل الصالح لأنفسنا ولغيرنا، إذ لا أحد يقدر على مدِّ يد العون للآخرين إذا كان عاجزاً عن عون نفسه أصلاً؛ فلكي يكون الإنسان سوياً في التعامل مع غيره، وقادراً على التأثير في محيطه، ومصلحاً في الناس، فلا بد أنْ يكون صادقاً مع نفسه أولاً. وأما المنشق على ذاته، والكاره لوجوده، والساخط على حياته، فهيهاتَ أنْ تظفر منه جماعةٌ بأي نفع، طالما أنّ نفسه قد حُرمته، أساساً، وهي أول مكرمةٍ من مكارم الخالق عليه.

تلك هي بعضٌ من الخصائص والملامح التي تتميز بها الأمثال

في القرآن الكريم، وبعضٌ من الأهداف والغايات التي تتوخاها، والتي هي - دائماً - من أجل الإنسان، وقد تنزَّلت على قدر الطاقة البشرية لتُبرز رحمة الله بعباده، وهو - سبحانه - ينشر أمامهم صفحاتٍ عن الإنسان والحياة والكون بآيات بيّنات، دالّات ومعبّرات، فلا يفوت الناسَ شيءٌ مما كان، ومما قد يكون.

ولما كانت أمثال القرآن على هذا القدر الكبير من الروعة، والعظمة والفائدة، فقد راع الكافرين والمعاندين والمكذبين، هذا النمط من الأسلوب القرآنيّ، وهذا اللون من معانيه العظيمة، فعمدوا إلى المواربة والتشكيك والمداهنة، مستنكرين أنْ يضرب الله الأمثال، وزاعمين أنَّ الله، إذا كان على هذا القدر من العظمة، وأنه خالق السماوات والأرض كما يقول «محمد»، فإنه أجلُّ وأعلى من أنْ يضرب أمثالاً بأشياء حقيرة، تستدعي الاستغراب والعجب، إذ أيُّ قدر للبعوضة - كما في ادّعائهم الباطل - حتى يضرب بها الله مثلاً؟! فجاءهم التوكيد الذي يدحض دعواهم الكاذبة، وجدالهم الباطل وذلك بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾(١).

ولم تكن الغاية من هذا المثل الرد على الكافرين والمنكرين وحسب، بل وللتمييز - كما يبدو واضحاً - بين المؤمنين المهتدين، والكافرين الضالين.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦.

فأما الذين آمنوا، ومن صفاتهم الصدق والإنصاف، ومن دأبهم العمل بالعدل والسوية، ومن منهاجهم النظر في الأمور بعين العقل والحق، فيعلمون أن المثل الذي يتنزَّل على النبيّ ﷺ هو الحق من ربهم تعالى، فلا يمكن أن يحتمل أدنى شبهة أو التباس، مما قد يعتور آراء الناس وأفكارهم..

وأما الذين كفروا، وهم من غلب عليهم الكذب، وران على نفوسهم الضلال، وغطى على عقولهم الجهل، فقد استكبروا عن التصديق أنْ يضرب بالبعوضة مثلاً، فاستنكروه معاندين، وحكموا عليه بالبطلان منكرين، فقالوا: «ماذا أراد الله بهذا مثلاً؟»

والحقيقة أنه لا مجال لأي إنكار أو جحود إذا كان المرادُ من المثل والتمثيل كشفَ المعنى، وبيانَ الغرض المطلوب، ولو جاء التدليل بأضعف المخلوقات، أو بأحقر الجمادات. فكيف ـ والحال هذه ـ يستغرب هؤلاء الكفار قول الله الحق، ويدّعون بأنه لا يجوز على الله ـ جلَّ جلاله ـ أن يضرب مثلاً بهكذا مخلوقات؟ وكيف ينكرون المثل بالبعوضة في كلام الله تعالى، والناس يضربون الأمثال بالبهائم، والطيور، والحشرات، والهوام، والجماد والنبات؟.. فالعرب ـ الذين أنزل القرآن بلغتهم ـ قد تمثلوا بأضعف الأشياء فقالوا: «أجمع من ذرة»، و«أجرأ من ذباب»، و«أضعف من فراشة»، و«آكل من سوس».. وما إلى ذلك من الأمثال التي لا تختلف عند غيرهم من الشعوب بأنواعها، ومعانيها ومقاصدها، فإذا كان الناسُ يملكون ضربَ المثل بأيِّ شيءٍ، فهل يجوز لأحدٍ منهم أن ينكر ذلك على الله تعالى، وهو خالق كلّ شيء؟!

ذلك هو مفهوم المثل بأشكاله المتنوعة، أو بما يتفرع عنه من مترادفات تؤول إلى بيانه وتوضيحه، أو ما يتداخل فيه من معانٍ بيانية أو اصطلاحية، تهدف إلى تقريب المعنى، وتوضيح الفكرة بأحسن الصور، وأجملِ التعابير.

ولا بد من الإشارة في ختام هذا الفصل التمهيدي إلى أنَّ بعض الأمثال التي وردت فيه إنما أردنا الاستعانة بها للتدليل على الفكرة، أو على المعنى الذي يتوخاه المثل، وهي سوف ترد بتوضيحٍ أوسع لمعانيها في الفصول اللاحقة، وفقاً لما يتناسب مع أجواء كلِّ فصل، وما يتناول من الأمثال القرآنية الكريمة. . .

الفصل الأوّل

العقيدة
مفهومها ومضامينها في الأمثال القرآنيّة

الفصل الأول

العقيدة

مفهومها ومضامينها في الأمثال القرآنية

لقد بات معروفاً لدى أهل العلم والفكر، ولا سيما الحكماء القاسطين، أنَّ الله تعالى، وهو اللطيف الخبير، قد أودع في خلق الإنسان خصائصَ ذاتيةً عديدةً هي التي ميّزته على سائر مخلوقات هذه الأرض. ولكنْ على الرغم مما لخصائص الجنس البشري من مزايا ترفع من قيمة الإنسان، فإنَّ أهمها يبقى هذا العقل، الذي به التفكير والإدراك، والتمييز والاختيار، وإلى هذا العقل ـ بالذات ـ ينسبُ كل تقدمٍ وارتقاءٍ في سلَّم الإنسانية، وفي تحقيق إعمار الأرض، إذ به تمكّن الإنسان من الاكتشافِ، والتفوقِ في ميادين العلوم والفنون والآداب، وإنشاء الحضارات، وتعاقب أشكال المدنية، حتى وصلت إلى ما نشهد من مظاهرها الحديثة في أيامنا هذه.. ومع كل تلك الإنجازات العظيمة، بقي أملُ الإنسان، بل حلمُهُ بالسعادة، في هذه الحياة الدنيا، بعيد المنال، ولم يتمكن العقل ـ بسبب صرفه إلى غير ذلك ـ من إيجاد السبل الكفيلة بتحقيق هذا الأمل فعلاً. ولعلَّ العامل الرئيسيّ كان في عدم قدرة الإنسان على إيجاد التوازن ما بين عمله

للدنيا، وسعيه للآخرة.. إذ غلّب أكثرُ الناس الأولى، فوقعوا في التخبّط والضياع، وفي القلق والشقاء على ما هو راهن في حياة الناس، مما لا يمكن لعاقلٍ منصفٍ إنكاره..

ويقيناً أنَّ ما أغرق الناس في هذا الخضم من التعب الفكريّ والنفسيّ، هو الإهمالُ للعقيدة الصحيحة، التي تقوم على الإيمان الصادق بحقيقة وجود الله تعالى، والامتثال لأوامره ونواهيه، حتى بلغ الحال بالأغلبية العظمى من أهل الشأن وأصحاب القرار لأن يُقصوا شرع الله تعالى، ومناهج رسالاته السماوية عن كافة شؤون الناس ـ تقريباً ـ وأن يرفضوا الحكم بما أنزل الله.. وكان الخيارُ، بدلاً عن تلك القيم المنزلة من ربّ العباد للعباد، هذا البحر من العقائد المادية الدنيوية، ومن القوانين والأنظمة الوضعية التي لم تؤمّن في تطبيقاتها ما يريح الناس، أو ما يبعد عنهم الهموم والأعباء التي تُرهق نفوسهم بصورة متواصلة، وذلك لأنها لم تراعِ ـ بشكل كامل ـ قواعد العدالة والإنصاف، واحترام الحقوق والواجبات، وإقرار العلاقات والمعاملات بشكل يحقق «إنسانية الإنسان»..

ولعل أهم الدلائل على ذلك هو هذا الانحراف الأخلاقيّ في اتخاذ القرارات المصيرية، والمواقف الصائبة، بل وهذا الظلم في العمل والسلوك على مستوى الأفراد والجماعات، بعدما غلب على الأنفس التعلق بمتاع الحياة الدنيا وزخرفها، واللهاث وراء الأهواء والمطامع دونما وازعٍ من ضمير أو وجدان، ودونما مراعاةٍ للاعتبارات الدينية.. مما يعني، في مجمله، تغليبَ كل شيء على العقيدة الدينية، وإباحةَ كل شيء على حسابها.. ولولا لطف الباري عزَّ وجلَّ بعباده، وأنه يؤخرهم إلى أجل مسمّى، لما ترك على وجه هذه البسيطة

أحداً، من جراء الفساد والفسوق والعصيان وغيرها من أنواع الشر التي تملأ الدنيا بأسرها.. وهذا ما يستدعي وقفةً، وصحوةً من العقل والضمير للعودة إلى العقيدة السليمة التي فيها الخلاص حقاً..

والعقيدة ـ كما جرى الاصطلاح عليها ـ هي ما انعقد عليه القلب من قضايا الغيب مثل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وما ينبثق عن هذا الإيمان من التصديق بيوم القيامة والحساب، والثواب والعقاب، والجنة والنار. وأهمية هذا الإيمان، الذي هو ضرورة للإنسان مثل الماء والهواء والنور، أنه يصوِّب مسار حياته كلها، فيمنعه من ظلم نفسه، ومن ظلم الآخرين، ويجعله يحاسب نفسه ـ الأمّارة بالسوء ـ على ما يقترف من ذنوب ومعاصٍ نهاهُ الله تعالى عنها، ومن بينها ما يرتكب بحق عباده من أخطاء وجرائم.. فعندما يؤمن الإنسان بأنَّ وراء هذه الحياة الدنيا بعثاً وحساباً، وأن جزاءَهُ مِن الثواب أو العقاب واقع لا محالة، وأنَّ قاعدة هذ الجزاء هو قول الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾(١)، أي لها ما كسبت من الخير، وعليها ما اكتسبت من الشر. أجل فعندما يؤمن الإنسان بذلك، فإنه يخاف أنّ يلحق الضرر بأحد من الناس، أو أنْ يرتكب معصية تُغضب ربهُ تعالى.. وحقيقٌ على الناس، أن لو اهتدوا إلى هذا الإيمان الصادق، لكان بإمكانهم أن يستبدلوا ما هو أدنى بالذي هو خير، وأن يعيشوا بالصفاء النفسيّ الذي هو صنو الفطرة، ولعلَّ هذا ما يبعث لهم الأمل المنشود لخلاصهم مما يحيق بهم من الشرور.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

ومن منطلق هذا الإيمان الرحب، نعتقد ـ ونحن على يقين بإذن الله ـ أنَّ عقيدة التوحيد هي العقيدة التي تقوم عليها السماوات والأرض، وأن هذه العقيدة، مبدأً، وديناً ودنيا هي: الإسلام. فالإسلام هو الدين عند الله، ولا يُقبل من العبد دينٌ غيرُهُ، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾(1)، وقوله عزَّ وعلا: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾(2).

والإسلام، بمفهومه الأصيل، هو الاستسلام لـرب العالمين، الاستسلام لله الذي لا إلَهَ إلا هو، إلٰهاً واحداً في السماوات والأرض، وهو الخالق العظيم، الذي خلق الكون والحياة والإنسان بالحق، فلا عبادة إلا لله، ولا عبودية لمخلوق إلا لخالقه. والإسلام هو الدين الذي حمله جميع الأنبياء والمرسلين إلى أهل الأرض، وهو وحده الذي يحقق لهم الفوز والفلاح في الدارين، وهذا الإسلام قد أكمله الله تعالى لبني البشر، شرعةً، ومنهاجاً ونظاماً أمثل للحياة، بالرسالة الخاتمة، التي بعثَ سبحانه بها خاتمَ النبيين محمد بن عبد الله ﷺ بشيراً ونذيراً للعالمين، كي يؤمن من آمن عن بيّنة، ويكفر من كفر عن بيّنة. وكتاب الله، الذي يحمل هذه الرسالة، هو القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم، وقد نزَّله ربُّ العالمين عربياً ليكون بلسان النبيّ محمد الذي يبلّغ هذه الرسالة، وهو لسان أمته التي انتدبها سبحانه لنشر هذه الرسالة وإيصالها للناس كافة، في مشارق الأرض ومغاربها، فعلينا

---

(1) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

(2) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

كأمةٍ موحدة أنْ نَعقل ما في هذا القرآن، وأنْ نتدبره حتى يكون منا الدعاة الصالحون لنشره قرآناً عربياً، أو مترجماً من العربية إلى اللغات الأخرى، وهذا كله مما يقتضي له التعقل والحكمة، والتدبّر.. يقول ربُنا تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1]، ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[2]. ويقول تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[3]، إلى ما هنالك من الآيات المبينة التي تعرِّف بهذا القرآن، وما ينطوي عليه من خيرٍ وصلاحٍ للعالمين..

ولكنْ يبدو أنَّ غلبة الدنيا كانت أقوى على النفوس من انصياعها لهذا الدِّين، فقام أهلها الذين جذبتهم أطماعها ومتاعها، وزخرفها وزينتها، يحاربونه منذ أول دعوة انطلق بها خاتم النبيين محمد ﷺ؛ ولكنَّ الله ـ تعالى ـ بالغ أمره، فهيّأ لـرسوله الأمين سبل النصر على أهل الكفر، والشرك والنفاق في نطاق الجزيرة العربية، ومكَّن، من ثَمَّ، لدينه أنْ ينتشر، بعد انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، لتظهر أحقيتُهُ في مجال العقيدة الراسخة، وفي أنظمة الحياة القويمة.. إلا أنَّ الجهل، والضلال وغواية الشيطان ـ التي لم تنقطع يوماً ـ كانت جميعها أقوى من ميل الإنسان للهدى والإيمان، فأبى الذين لا يريدون الانصياع للحقِ المبين، إلَّا مناصبة الإسلام العداء، والتخطيط لإبعاده عن حياة الناس، مسخرين لذلك جهابذة العلم، والتاريخ، والأدب والفن والإعلام لكي يضعوا الدراسات والأبحاث، وينشروا الأفكار

(١) سورة يوسف، الآية: ٢.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٧ و٢٨.
(٣) سورة النمل، الآية: ٦.

والثقافات التي من شأنها أنْ تقوّيَ النزعات المادية على مفاهيم هذا الدين، فحقت كلمة ربك عليهم بقوله العزيز: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1].. ومن قبائح فسقهم أنهم لم يكتفوا ببذل أقصى الجهود لإبعاد الناس عن معرفة الإسلام، وطمس معالم هذا الدين ـ كما يتوهمون ـ بل قاموا بالحروب، والانقلابات، والدسائس والمؤامرات لبذر روح الفرقة بين المسلمين، وإدخال كافة عوامل الضعف إلى نفوسهم ومجتمعاتهم.. وكان لهم ما أرادوا فعلاً، فانكفأ المسلمون عن حمل دينهم نوراً مبيناً للهداية والرشاد، وغرقوا بالمشاكل والنزاعات، وهي مما لا يمكن تلافيه، واتقاء أخطاره إلا بالعودة إلى إسلامهم، وحمله عقيدة، ودعوةً فريدة لخلاصهم وخلاصِ البشرية بأسرها..

وليس ذلك بعيداً عن متناول المسلمين، لأنَّ ربَّ العالمين أرادهم أنْ يكونوا، حقاً، أهل الخير، والبر، والصلاح كما وصفهم بقوله الكريم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[2]، فقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ﴾ هو توكيد للكيان العضوي والإنساني الذي اختاره ربهم تبارك وتعالى لهم بمقتضى إيمانهم بهذا الدين، فإنْ أغفلوا هذه الحقيقة، وقعوا في المحظور ـ في الفرقة والتشتت ـ وقصَّروا في حمل الأمانة، وأداء المهمة التي أمرهم الله تعالى بها!..

أجل هذا هو السبيل الأوحد أمام المسلمين لإصلاح حياتهم،

---

(١) سورة يونس، الآية: ٣٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

وإصلاح حياة الناس جميعاً.. لأن المسلم عندما يتعلم، ويتثقف بالثقافة الإسلامية، ويفقه مفاهيم وتعاليم دينه القويم، فإنَّ قلبه يطمئن بعقيدة التوحيد السامية، فيتحوّل ـ بداهةً ـ إلى إنسانٍ نقيٍّ السريرة، محمود الخصال، حسنِ السلوك، سمْحِ التعامل مع الآخرين.. وهي جميعها المقومات التي تؤمّنه من الانحراف والضلال، وتبعده عن الزلل والخطأ، فيصير قادراً على التغيير التدريجيّ، وصولاً لبناء المجتمع الإنسانيّ الفاضل.. والمسلمون حين يكونون على المستوى الإسلاميّ اللائق، فإنَّ مجرد مقارنتهم ما بين عقيدتهم والعقائد الأخرى، تجعلهم قادرين على التمييز بين الحق والباطل، والخير والشر، وعلى سبر غور الإسلام وإدراك ما فيه من غنى وفيض، ومن سماحة ويسر، وما في هذا الدين من مناهج إصلاحية.. وتلك هي مقوماتُ الدعوة التي حمل لواءها نبيُّ الإسلام، ورسول الهدى محمد ﷺ.. فكان لزاماً علينا نحن المسلمين، أنْ نقوم بأداء واجبنا، فننهل من معين القرآن الحكيم، ونقتديَ بالسيرة النبوية الشريفة، امتثالاً لطاعة الله تعالى ورسوله الكريم.

ولما كانت الأمثال في القرآن المجيد تدل على كثير من عناصر العقيدة التي يجب أنْ تنعقد عليها قلوبنا، فإننا سنحاول في هذا الفصل أن نتناول ـ بعون الله تعالى ـ الآياتِ القرآنيةَ الكريمةَ التي من شأنها أنْ تبرز أهم تلك العناصر لما فيها من الهداية إلى سبيل الله العليّ العظيم.

الفقرة الأولى ـ الإيمان بحقيقة وجود الله تعالى

إنَّ الإيمان بحقيقة وجود الله تعالى هو ضرورة، بل وحاجة للإنسان كي يطمئن قلبه، وينأى عن التصورات التي توقعه في القلق

النفسيّ، وفي سوء العمل الحياتيّ، لشدة ما قد تكون عليه تلك التصورات من التناقض والتضارب. بل ويعتبر الإيمان بحقيقة وجود الله تعالى، هو القضية الوحيدة في نظر الإسلام التي تبنى عليها، وتنطلق منها سائر القضايا الأخرى غيبية كانت أو مُشاهدة. ولذلك كان الإيمان ـ لغةً ـ هو التصديق مطلقاً، ومنه معنى «الأمن» الذي هو ضد الخوف، لأن المؤمن يأمن من عواقب الأعمال السيئة في الدنيا والآخرة، إذ يسير على الطريق المستقيم، والسبيل القويم الذي يهديه إليه إيمانه.

والإيمان ـ في الاصطلاح ـ هو التصديق القلبيّ بما جاء به الأنبياء والمرسلون على مدار الزمان منذ آدم عليه السلام وحتى خاتم النبيين وسيد المرسلين محمد ﷺ. وقد بيّن الرسول الأعظم معنى الإيمان، في حديث صحيح، من أنَّ جبريل الأمين عليه السلام سأل رسول الله ﷺ عن الإيمان، فقال له: «أَنْ تُؤمِنَ باللّهِ وملائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليومِ الآخِرِ، وتُؤمِنُ بالقَدَرِ خيرِهِ وشرِّهِ»(١).

وقد جاءت في هذا الحديث للرسول الأكرم الأركان الأربعة الأولى للإيمان كما بيّنها له ربُهُ بقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾(٢).

وجـاء الإيمان بالقَدَر ـ حكايةً لما يقال للكافرين وهم يُعذبون

---

(١) سنن ابن ماجه المقدمة ص٩، الترمذي باب الإيمان ص٧٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

في النار ـ في قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾(١).

أما الإيمان باليوم الآخر، أي اليوم الذي يؤدي مباشرة إلى الدار الآخرة الباقية، فالآيات فيه كثيرة جداً، ومنها قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾(٤). وقوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٥).

إذاً فالإيمان بحقيقة وجود الله تعالى هو أساس عقيدة التوحيد الكائنة في كلمة «لا إله إلا الله» وهي الكلمة التي بمقتضاها «تتقرر في الضمير وحدانية الاعتقاد، ووحدانية العبادة، ووحدانية الاتجاه، ووحدانية الفاعلية من مبدأ الخلق إلى منتهاه. ويقوم على هذه الوحدانية منهج كامل في التفكير والشعور، والسلوك، وارتباطات الناس بالكون وبسائر الأحياء، وارتباطات الناس بعضهم ببعض على أساس وحدانية الإله».

---

(١) سورة القمر، الآيات: ٤٨ ـ ٥٠.
(٢) سورة القصص، الآية: ٨٣.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٨.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٩٢.
(٥) سورة التوبة، الآية: ١٩.

والقرآن، وهو كتاب الله الذي حمل عقيدة التوحيد كاملة، بشتى قضاياها ومفاهيمها ومقاصدها، قد تضمن في كثير من آياته الأمثال التي تبيّن أن الله تعالى ـ وحده ـ هو الخالق العظيم، والمدبر الحكيم لكل شيء في الوجود، وأن البراهينَ والأدلةَ على الخلق والتدبير كائنة في السماوات والأرض: من أكبر الأجرام في الكون، إلى أصغر حشرة في باطن صخرة.

وإن الأمثال الدّالة على حقيقة وجود الله تعالى، وعلى تفرُّده بالألوهية والربوبية، والتي تستدعي من الإنسان الإيمان المطلق بهذه الحقيقة، يمكن أن نستخلصها من الآيات القرآنية التي وردت فيها على النحو التالي:

أولاً ـ اللَّهُ هو الخالق العظيم

١ ـ الله خالق السماوات والأرض «ليس كمثله شيء»

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًاۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(١).

الله «فاطر السماوات والأرض»، أي خالق السماوات والأرض، قد أبدعهما ابتداءً، وأنشأهما إنشاءً، ولا مجال لعباده أنْ ينكروا هذه الحقيقة أو يجادلوا فيها... فإذا قال (عزَّ وعلا) بأنه فاطر السماوات والأرض، فقوله الحق، لأنَّه (جلَّ جلاله) هو الحق.. وكما أوجد الله

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

هذا الخلق العظيم (من السماوات والأرض) فقد جعل لنا من أنفسنا أزواجاً، إذ خلق الإنسان (آدم) من تراب، ثم من صلصال كالفخار، وخلق زوجَهُ (حواء) من ضلع في صدره، أي من نفس آدم؛ ثم أودع في آدم وحواء عليهما السلام نظاماً للخلق البشري، الذي يتولد عن اجتماع الزوجين الرجل والمرأة، من خلال سكن الزوج لزوجه، وما يتآلفان فيه على المودة والرحمة اللتين جعلهما الخالق آصرة للزواج والإنجاب، يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].. وكذلك الشأن في الحيوان (ومنه هذه الأنعام التي لنا فيها منافع كثيرة) بأن جعل الله لكل نوع من الحيوانات نظاماً خاصاً يقوم على التزاوج بين الذكر والأنثى للتوليد. وبمقتضى هذا النظام، سواء في الإنسان أو الحيوان يكون التكاثر، واستمرارية تلك الكائنات الحية في أجناسها، وفي أنواعها وألوانها ونشاطاتها.. بل وانقراض أجناس من الحيوان أو الطير، هو بذاته دليل إضافي على تقدير الله، وحكمته في خلقه.

والخالق للأنفس البشرية، والخالق للأنعام وغيرها من الحيوان، والطيور، والنباتات، والأشياء جميعاً؛ والذي يملك أنّ يخلق ما يشاء غيرهم ـ ودون أن يكون لأحدٍ من مخلوقاته قدرة على الخلق ـ لأنه لا يملك سرّ الخلق والإحياء، إلا هو سبحانه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۞ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.

﴿بِئَايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾[1]. . إذ مع قيام الأدلة والبراهين على أنّه تعالى خالق كل شيء، فكيف تصرفون عن الإيمان، إلاّ أن يكون الإفك هو الذي جعلكم تصرفون!. . ومثل افتراء هؤلاء المنكرين لحقيقة الخالق العظيم، كذلك افتراء الذين كانوا بآيات الله يجحدون. . .

وانطلاقاً من الحقيقة الثابتة والأكيدة، التي لا تقبل أي شك أو جدال، من أنَّ الله تعالى هو وحده «الخالق»، وحتى لا تكون هنالك أية شبهةٍ حول ما ورد في الآية ٤٩ من سورة «آل عمران»، من حيث إنَّ السيد المسيح عيسى ابن مريم قد خلق طيراً، فإنَّ النَّص القرآنيَّ واضحٌ في المبنى والمعنى على أنَّ ذلك الأمر كان بإذن الله تعالى، حيث يقول الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[2].

فالنصُّ يحمل بنفسه المدلولات على:

ـ أَنَّ الله تعالى قد بعث المسيح عيسى ابن مريم رسولاً إلى بني إسرائيل، وقد أيدَّه بالمعجزات لتكون آياتٍ دالّةً من ربهم على خصوصيَّة السيد المسيح عليه السلام في خلقه خلافاً للنظام الزوجي، وخصوصيته في الإِتيان بتلك المعجزات بما لا يقدر عليه غيره من البشر، فيصدقون، بمقتضى هذه الأدلة ـ المعجزة، أنه نبيُّ الله ورسوله، إنْ كانوا مؤمنين.

---

(١) سورة غافر، الأيتان: ٦٢ و٦٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤٩.

- أَنَّ تلك المعجزات هي شواهد وبراهين حسيّة كانوا يرونها بأم العين، وما كان للسيد المسيح عليه السلام أنْ يجيء بها إلّا بإذن الله تعالى.

- أَنَّ تلك المعجزات، بما في ذلك خلق الطير، أو إحياء الموتى، لم تكن إلّا رخصة مؤقتة من ربّه تعالى، وليست صفة من صفات السيد المسيح عليه السلام، إذ من صفات الله (عزّ وعلا) أنه هو الخالق العظيم، فإذا أعطى عبداً من عبادة مِكْنَةً على الخلق، فإنَّ ذلك يكون من أمره تعالى، وبمشيئته، وبالقدر الذي يريد أن يمكّن لعبده من أمره الرّباني..

- أنَّ النص قد استعمل لفظة «كهيئة الطير» ولم يقل «طيراً» للتدليل على الرخصة المؤقتة في خلق طير، وقد أشارت إلى هذه الرخصة بعض التفسيرات[1]، من حيث إنَّ السيد المسيح عليه السلام قد خلق لهم الخفاش، لأنه أكمل الطير خلقاً، فكان يطير وهم ينظرون إليه، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتاً..

ولعلَّ في هذه الدلالات ما يكفي لاستنتاج أمور كثيرة، ومنها علم الله تعالى بما تنطوي عليه نفوس بني إسرائيل من الشك حول بعثة نبيِّهم الكريم عيسى ابن مريم عليه السلام فشاء سبحانه أنْ يؤيّد رسوله إليهم، بتلك الآيات الربانية «المعجزة» حتى يروها بأم العين، فيصدقوا هذا الرسول، ويؤمنوا بما جاءهم به من شرعةٍ ومنهاج.. إلّا أنَّ أجلَّ الأمور بشأن الخلق، يبقى الإيمان ـ المؤيَّدُ بالأدلة الساطعة ـ بأنَّ الله هو الخلّاق العليم، فكان، حكماً، أنْ «ليس كمثله شيء»..

ثم إنَّ البرهان العقلي الذي تقود إليه الحكمة والمنطق يثبت أنّ

(١) يراجع تفسير الجلالين للآية ٤٩ من سورة آل عمران.

من يوجد الأشياء يكون مختلفاً حكماً في «ذاته» عن الأشياء التي يوجدها، بحيث لا يمكن أنْ تكون هذه الأشياء مثله، لأنها ـ بداهةً ـ من صنعه وإيجاده. فالإنسان الآليّ يبقى آلياً من غير لحم ودم مهما أوجد فيه صانعه من القدرات والإمكانيات. والنسخ الذي يدَّعونه بين كائن حيٍّ وكائنٍ حيٍّ آخر، يبقى الناسخ فيه مقصِّراً عن أنْ يدرك سر الخلية التي استعملها، والتي على أساسها أجرى استنساخه لحيوان آخر، أو لشجر أو زرع آخر. . وهنا تتجلى قدرةُ الله الخالق العظيم، الذي يملك سرَّ الخلق، وسرَّ ما أودع في الخلايا من مقومات للخلق، فكانت هذه الصفة ـ الخلق ـ وحدها كافية للبرهان على أنَّ الله تعالى «ليس كمثله شيء». . . وبما أنه هو الله العزيز الحكيم، وأنه ربُّ السماوات والأرض، وربُّ العباد والخلائق جميعاً، فقد دلَّ ذلك على أنه هو السميع لما يُقال، البصير لما يُفعل، بل هو السميع لجميع المسموعات والمبصر لجميع المبصرات. . وقد نفى ـ جلَّ جلاله ـ أن يكون له نظير أو شبيه، فحكم العقل، وحكمت الفطرة بنفي هذا النظير أو هذا الشبيه. .

فسبحان من ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير. . ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

إنَّ هذا التوجيه من الله تعالى، وهذه الدعوة من ربّ السماوات والأرض للتذكّر بعظمة الخالق هما للوعظ، والتربية والتدليل على أنَّ من يخلُقُ لا يمكن أنْ يكون كمن لا يخلُقُ. . فهذه مقاربة يحكم العقل بصدقها وأحقيتها، دون مواربة أو افتراء أو

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٧.

بهتان. . ومثل هذا التذكير والدعوة يأتيان في «سورة النحل»[1] بعد استعراض آيات الخلق، وآيات النعمة، وآيات التدبير التي تدلُّ على أنَّ الله تبارك وتعالى هو وحده الخالق المدبّر، والذين يعبدون من دونه لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون. . ويتجلَّى هذا الاستعراض بما ملخصه:

- أنَّ إنذار النبيين والمرسلين للناس إنَّما كان ليؤمنوا بأنه «لا إلَهَ إلَّا الله»، فاتَّقوا يا عبادَ الله غضبَ الله. .
- أنَّ الله قد خلق السماوات والأرض بالحق، فتعالى اللهُ عما يشركون به علواً كبيراً. .
- أنَّ الله قد خلق الإنسان من نطفةٍ فإذا هو خصيم مبين لربه الذي خلقه، ومنكرٌ لبعثه بعد موته وفنائه. .
- أنَّ الله قد خلق الأنعام وفيها منافع للناس، وجمال للاستمتاع بها، فهل يشكرون هذه النعمة العظيمة، أم يجحدون فضلها عليهم؟!.
- أنَّ الله قد خلق من غير الأنعام أنواعاً أخرى من الحيوان للركوب والزينة، وهي أيضاً من نعم المولى على عباده. .
- أنَّ الله قادر على أن يخلق غير ذلك مما لا تعلمون أيها الناس، أفلا توقنون؟!
- وأنَّ الله قد أنزل من السماء ماءً منه تشربون، ومنه ينبت الشجر والزرع على اختلاف أجناسه، وكثرة أنواع ثماره وألوانه، فهل تقدرون هذا الفضل الكبير من الخالق العظيم؟

---

(١) تراجع في سورة النحل، الآيات: ٣ ـ ١٦.

ـ أنَّ اللهَ قد سخَّر لكم الليل والنهار والشمس، لتستوي حياتكم على الأرض، مثلما سخَّر لكم كل ما في هذه الأرض جميعاً لمنافعكم ومصالحكم، وسخَّرَ لكم البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً، وتستخرجوا منه حليةً تلبسونها، وأجرى لكم الفلك في مياهه لتطلبوا الرزق، وتقيموا أواصر التعارف والعلاقات، كما سخر لكم النجوم من فوقكم وجعلها علامات تهديكم إلى تحديد الجهات وسبل الأسفار التي تنقلكم إلى ما فيه خيركم وصلاح أحوالكم. .

ـ أنَّ اللهَ قد ألقى في الأرض جبالاً تحفظ توازنها من الاهتزاز، وجعل فيها الأنهار والطرق التي تهديكم إلى مقاصدكم. .

ثُمَّ وبعد هذا الاستعراض في آفاق السماء ورحاب الأرض يأتي التعقيب الذي هو حريٌّ بأن يؤثر في النفس وهي مهيأة له: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾. .

فالعاقل المنصف، أياً كانت درجة تفكيره وتقديره، يدرك، ولا ريب، بأنَّ مَن يَخلُق ليس كمثل من لا يَخلُق، بل ولا سبيل إلى المقارنة على الإطلاق، لا سيما وأنَّ في تلك الآيات القرآنية التي تستعرض ذلك الخلق يأتي دائماً التنبيه على أنَّها آياتٌ لقوم يتفكَّرون، ولقوم يعقلون، ولقوم يذّكرون. . إذ لعلَّ من خلال التفكير، والتعقل، والتذكير يهتدون إلى أنَّ الله ـ جلَّ جلاله ـ وحده خالق كل تلك الأشياء، وأنَّه وَحدَهُ له صفة الخلق، خصوصاً، وأن واقع حياة الناس تثبت عجزهم عن خلق مثل السماوات والأرض، أو مثل البحر أو النهر، أو مثل الشمس أو القمر، أو مثل الليل أو النهار، أو مثل الخلية التي منها ينشأون. . . فهذا العجز هو الدليل القاطع على أنَّ الخلق لله

تعالى، وأنَّ الخالق هو أحق بالعبادة، فسبحانه وتعالى عما يشركون به من خلائق وضيعة، مهينة لا تقدر على شيء. ولذلك كان التأكيد على التذكير بهذه الحقيقة، وعلى هذا النحو من الاستفهام التقريريّ: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تتذكرون ذلك بالبديهة، والفطرة فتعتبرون، وتؤمنون بالله الخالق العظيم؟!..

وقد يأتي تفسير قوله تعالى على ثلاثة أوجه:

الأول : أنَّ الذين يعبدونهم، أو يدعونهم من دون الله، وسواء أكانوا من الكواكب أو من الأصنام أو من الأناسيّ أمثالهم، فإنهم لا يخلقون شيئاً، بل هم يُخلقون. وإذن، فلا خالق إلا اللَّهُ وحده.

الثاني : أنَّ المقابلة بين من يَخلُق ومن لا يَخلق جديرة بأن تُظهر هَوانَ تلك المخلوقات التي يعبدونها، ويدعونها من دون الله تعالى. بل وهي خليقة بأن تظهر مقدار فقر تلك المخلوقات لخالقها.

الثالث : أنْ يدرك العالم والجاهل، العاصي والطائع، المهتدي والضالُّ هذه الحقيقة التي لا تحتاج إلى برهان وهي أنَّ «من يخلق ليس كمن لا يخلق»، فيكون هذا الإدراك بمثابة هزة عنيفة لهم جميعاً.. فيراجعون حساباتهم في تصور مَنْ هو أحق بالعبادة والتقديس، ومن له الفضل عليهم في تلك النعم التي يدعوهم للتفكير بها، وإدراك معانيها من حيث إنَّ حياتهم تقوم عليها، وأنه بدونها ـ أو بدون نعمة واحدة منها ـ لا يستطيعون حياة، ولا يدركون منالاً. ولذلك فإنَّ نصوص

القرآن تنبّه، بعد استعراض تلك الحقائق، التي أتت على ذكرها في «سورة النحل»، إلى شيء هام في حياة الناس، وهو أنَّ كل ما خلق الله (تعالى) إنما هو نعمة لهم، وأنَّ هذه النعمة أبعد من أنْ تعد أو تحصى، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[1]. مما يتقرَّر معه، بعد معرفة كل تلك الحقائق ضرورة الإيمان بحقيقة وجود الله تعالى الذي ليس كمثله شيء.

٢ ـ ما خلق الناس ولا بعثهم إلّا كنفس واحدة

يقول الله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[2].

... ماذا لو حاول الإنسان أن يحصي عدد الخلق البشريّ، عبر العصور المتطاولة في الزمن، فهل يقدر على ذلك؟ مستحيل هذا الأمر لكثرة ما مرَّ على هذه الأرض من الأنفس، وآخرها هذه المليارات الستة التي يعدّدونها اليوم.

أما الاستحالة فلا تحتاج إلى دليل، لأن النظام الطبيعيّ الذي أوجده الخالق في بني البشر، والذي يقوم عليه وجودهم، يحكمه أمران: الحياة والموت، فهذه أعداد تخلق كل يوم، وهذه أعداد تموت كل يوم، وعجلة الزمان تدور، ونظام الحياة والموت، كما هو مقدر لبني البشر، سائرٌ لا يحول ولا يزول.

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٨.

(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٨.

وسنة الخلق في الجنس البشريّ قد بيّنها القرآن الكريم في آيات كثيرة، ومنها الآية ٢٨ في «سورة لقمان» التي تثبت أن خلق الناس جميعاً كخلق نفسٍ واحدة، وأن بعثهم جميعاً بعد الموت كبعث نفسٍ واحدة. ومن هذه الآية نستدلُّ على أن الخلق البشريّ قد بدأ من نفس واحدة، هي النفس الأولى، وأن تلك النفس (كما تهدينا إليه آيات أخرى، في بضع سور من القرآن) كانت آدم (أبا البشر جميعاً)، وقد كان خلقه ـ كما تخبرنا به نصوص القرآن، في سور أخرى عديدة ـ من طين الأرض، من «صلصال كالفخار»، ثم نفخ فيه الله تعالى من روحه فصار بشراً سوياً. وحواء هي من نفس آدم، وبضعة منه، أي هي من تراب هذه الأرض كزوجها آدم.. وقد قضى أمر الله تعالى أن يودع فيهما سنةً ثابتة، لا تتغير ولا تتبدل، وهي سنة الاجتماع والإنجاب، والتي من جرائها تكاثرت ذريتهما، عبر الزمان.. فهذه هي حقيقة خلق البشر جميعاً، أي من نفس واحدة في الأصل.. وإنَّ القادر على خلق النفس الأولى، لقادر على أنْ يخلق مثلها بقدر ما يشاء، ودونما أي حسبان للأعداد والأرقام، ولا لتواريخ الولادة وتواريخ الوفاة.. فالأمر كله كائن، ولكنَّ سرَّ الخليَّة التي تنشأ منها الحياة هو من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، إنما وبمقتضى هذا السرّ كان خلقنا ووجودنا نحن البشر، وسيظل سرُّ خلق الخلية هذا مغلقاً على الإنسان طالما هو كائن على هذه الأرض، وإلى يوم القيامة.

ثم إنَّ من صفات الله (جلت عظمته) أنَّه هو الذي يحيي ويميت، وقد بيّن لنا القرآن أنَّ الله يحيي الموتى يوم القيامة، ويبعث من في القبور، كما يثبته قوله المبين: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ

ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾[1]. ويسوق القرآن شواهدَ حيةً ـ عايشها الناس وشهدوها وقائع حسيّةً في أزمانهم ـ على إحياء الله تعالى للأموات، ومن الأمثلة على تلك الشواهد الحية: بعث جماعة من بني إسرائيل، وإحياء قتيلٍ من بني إسرائيل، وفتية الكهف.

ـ فأما بعث تلك الجماعة من بني إسرائيل بعد موتهم، فقد جرى عندما ذهب موسى عليه السلام لميقات ربّه واصطحب معه سبعين رجلاً من بني قومه، ليعتذروا إلى الله تعالى، عن عبادة العجل.. وفي الطريق طلبوا من نبيهم، حتى يؤمنوا له، أن يَرَوُا اللّهَ جهرة، فأخذتهم الصاعقة فإذا هم خامدون، ثم بعثهم الله من بعد موتهم لعلَّهم يشكرونه على إحيائهم من جديد. ولكنهم لم يفعلوا، بل لجّوا في الكفر، ونكران النعم التي أنعمَ بها الله تعالى عليهم، فظلموا بذلك أنفسهم، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ۞ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۞ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾[2].

ـ وأما إحياء القتيل من بني إسرائيل، فقد ورد في الرواية أنه قتل فيهم رجلٌ، في ظروف غامضة، فاختلفوا وتخاصموا فيه حتى كادت الفتنة أنْ تندلع بينهم، فدعا النبيُّ موسى عليه السلام ربَّه أنْ يظهر القاتل حتى يدفع تلك الفتنة عن بني قومه، فأمره ربُّهُ تعالى أنْ يذبحوا

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧.

(٢) سورة البقرة، الآيات: ٥٥ ـ ٥٧.

بقرةً، ذات أوصاف معينة، وأنْ يضربوه بشيءٍ منها، وما كادوا يفعلون حتى أحياه الله تعالى، فدلَّ على ابنيْ عمٍّ له، هما اللذان قتلاه طمعاً في ميراثه، فكان احياؤه دليلاً حسياً على قدرة الله عزَّ وجلَّ في إحياء الموتى، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۞ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(١)، أي كما أحيا الله تعالى هذا القتيل، كذلك يحيي الله الموتى، وقد جعلكم تشهدون هذا الإِحياء بالعين المجردة ليريكم دلائل قدرته، لعلكم تعقلون فتوقنوا أنَّ القادر على إحياء نفسٍ واحدةٍ، قادر على إحياء الأنفس جميعاً . .

- وأما فتية الكهف فهم الذين أماتهم الله ثلاثمائة وتسع سنين لقوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾(٣)، ثم بعثهم الله بعد تلك المدة الزمنية، ليكون بعثهم آيةً شاهدةً على أنه قادر على البعث، مثل ما هو قادر على خلق الموت والحياة، وذلك لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾(٤)، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾(٥) . .

إذاً فالبعث من الأمور الغيبية التي تشكل حقائق ثابتة، يسوقها

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٧٢ و٧٣.
(٢) سورة الكهف، الآية: ١١.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٥.
(٤) سورة الكهف، الآية: ١٢.
(٥) سورة الكهف، الآية: ١٩.

القرآن الكريم عبر أحداث جماعية أو فردية عاشها الناس، وعاينوها بحواسهم المجرّدة، كما هو الحال في الصاعقة التي أرسلها الله تعالى على تلك الجماعة من بني إسرائيل فأهلكتهم جميعاً، ثم أحياهم القادر المقتدر بأمره.. أما عددهم فقد ورد في الروايات أنهم كانوا سبعين رجلاً، ولكن لا يعلم عدَّتهم إلا هو سبحانه وتعالى؛ وكذلك الأمر بالنسبة إلى فتية الكهف الذين أماتهم الله، ولا يعلم عددَهم غيرُهُ جلَّ وعلاَ، وإنْ وردت الرواية عن ابن عباس ﷺ أنهم كانوا سبعةً وثامنهم كلبهم..

وما إحياء ذلك الرجل الواحد، أو إحياء تلك الجماعة من بني إسرائيل، وكذلك إحياء فتية الكهف، إلَّا من البراهين التي تهدينا إلى حقيقة البعث يوم القيامة، وأن هذا الأمر يسير على الله العزيز الحكيم، إذ كما هو قادر على أنْ يبعث نفساً واحدة، فكذلك هو قادر على أنْ يبعث كل الأنفس التي أماتها، لأنَّ القادر على النشأة الأولى، قادر على النشأة الثانية، وهي أيسر وأسهل عليه لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(١).. وليس الأمر على الله تعالى هو قضية اليسر أو العسر، بل الأمر أنَّه ـ جلَّت قدرته ـ هو الخالق، وهو كما يخلق النفس الواحدة يخلق جميع الأنفس، وأنه هو الذي يحيي ويميت، فكما يميت ويبعث النفس الواحدة كذلك يميت جميع الأنفس التي خلقها ثم يبعثها من بعد موتها، وليس في ذلك شيء من اليسر أو العسر، وإنما مرده إلى مشيئة الله تعالى المطلقة في الإنشاء،

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢٧.

والإحياء، والإماتة والإفناء.. وهذا هو الحق من ربك، فلا تكونَنَّ أيها الإنسان من الممترين، الذين يشكون في حقيقة البعث، أو يكذبون بهذه الحقيقة، لأنه تعالى سميع لما يقول لسانك من الكذب، بصير بما تختلج به جوارحك من الإنكار.. فكنْ أيها الإنسان على يقين بأنَّ ﴿ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[١]: يسمع كل مسموع، ويبصر كلَّ مبصَر، لأنَّ من مقتضى صفاته في الخلق أنه سميع لكل شيء في الوجود، وأنه بصير بكل شيء في الوجود، فلا تخفى عليه خافية في الأرض، ولا في السماء، فسبحان من يملكُ السمْعَ والأبصارَ والأفئدة، ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[٢].

وإذا عدنا إلى خلق الإنسان فإنَّ القرآن يبيّن لنا أنَّ أصله من تراب الأرض، بينما خلق الله الجان من النار

يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾[٣]، ويقول تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ * وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[٤].

أجل، هذا هو أصل الخلق للإنسان والجان، وإنشاؤهما من العدم..

أما الإنسان فأصله من تراب هذه الأرض، أي من الطين اليابس، وهو الصلصال الذي تسمع له صلصلة إذا ضرب بشيء. وهذا الصلصال يشبه بعد يباسه الفخار الذي هو من طين يطبخ على

---

(١) سورة الحج، الآية: ٦١.

(٢) سورة الملك، الآية: ١٤.

(٣) سورة الروم، الآية: ٢٠.

(٤) سورة الرحمن، الآيات: ١٤ ـ ١٦.

النار حتى يصير خزفاً. والمعنى أنه كما يصير الطين اللازب (التراب المجبول بالماء) بعد أن يشوى على النار فخاراً، هكذا جُبل آدم ـ أبو البشرية ـ من طين الأرض، ثم نَفَخَ فيه خالقُهُ من روحه، فاستوى على متانته وصلابته في هذا التكوين من الجسد والنفس والروح..

ولا يملك الإنسان أنْ يناقش أصل خلقه من الصلصال كي يدّعي إنكار ذلك أو استهجانه لأنَّ العلم الحديث جاء يؤكد هذه الحقيقة القرآنية، بعدما ثبت أنَّ جسم الإنسان يحتوي على عناصر كثيرة من عناصر الأرض ـ إن لم تكن جميع عناصره منها ـ وبخاصة الماء الذي يؤلف حوالي ثلاثة أرباع مساحتها، والتراب الذي يؤلف اليابسة على سطحها..

وبعد ذلك الخلق الأول لآدم، ومن ثم خلق حواء، بضعةً منه، أودع الخالق العظيم في آدم وزوجه حواء، نظاماً للتوالد، فكان هذا الوجود البشريّ بأسره، وبما يحفل من العظات الدالة على قدرة الخالق، على الرغم من أن أصله من طين، ونسلَهُ من ماءٍ مهينٍ يقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾[1].. ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ * ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[2].

---

(١) سورة السجدة، الآية: ٤.

(٢) سورة السجدة، الآيات: ٦ ـ ٩.

وأما الجان فَخَلَقَهُ الله تعالى من مارج[1] من نار، فيكون أصل الجان من النار. وخاصّيته قوة الحركة وسرعة الانتقال تماماً كما اللهب الذي ينبعث من النار صعوداً في حركته..

ونحن، في الحقيقة لا نعلم عن مكنون خلق الجان وخصائصه غير ما دلَّنا عليه القرآن في سورة «الحجر» و«الرحمن» أو في غيرهما من السور الكريمة التي تبيّن قدرات الجن وطاقاته من قبيل: إمكانية استراق السمع في السماء، والغوص في البحار، وإنشاء الأبنية والمحاريب، وغيرها من الأشياء التي كان الجان يصنعونها وهم يعملون بين يدي النبيّ سليمان عليه السلام عندما كان يبني الهيكل في بيت المقدس.

وإذا كانت حياة الإنسان أكبر شاهد قائم على ما يتمتع به من المدارك والأحاسيس التي أودعها فيه خالقة الكريم، والتي أهّلته للاستخلاف في الأرض وإعمارها، فإن الخصائص المودعة في الجان، والقوى الخارقة التي يملكها هي أيضاً من الشواهد التي تثبتها آيات القرآن الكريم لتكونَ أيضاً من الأدلة على عظمة الخالق، وعلى أنَّ هذا الخلق للناس والجان في الأرض ـ وإن كنا لا ندري أين يسكن الجان أو يقيمون ـ لدليلٌ إضافيّ على نعمة الوجود بأسره...

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.. فهذه الآيات أو هذه المخلوقات وكلها شواهد قائمة، وهذه الطاقات والقدرات التي اختص بها الخالق كلاًّ من الإنس والجان، هل يمكن تكذيبها وأنتم تدركونها بالبصر والبصيرة، سواء في الأرض أو في السماء، أو تهديكم إليها آيات

(١) المارج، لغةً، الشعلة الساطعة، ذات اللهب الشديد.

القرآن، وكلها من الحقائق الثابتة التي لا تحتاج إلى دليل؟! وإذا كان الأمر كذلك فبأي من الآلاء، أو الخلائق التي خلقها ربكما أيها الأنس والجان تكذبان؟! أبداً لأنّ كل ما في الوجود شاهد على أنَّ الله ـ جلَّت قدرتُهُ ـ هو الخالق العظيم، وهو المدبر الحكيم؟

٣ ـ ليس الذكر كالأنثى في الخلق

يقول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾[1].

..كانت حنة، زوجة عمران، عقيماً، فلم تلد. وتقدَّم بها العمر، وهي على تلك الحال، حتى بلغت سنَّ اليأس ـ أي سنَّ عدم الإنجاب عند المرأة ـ بحيث لم يعد لديها أمل بالولادة.. ولكن ما يشاء الله تعالى وما يريد لعباده، فإنَّ علم العبد يقصِّر عنه، ولا يدركه أبداً. ولذا فإنَّ امرأة عمران لم تكن لتدري بأن ربَّ العالمين قد قدَّر لها أنْ تنجب مولودة ستكون سيدةً في نساء العالمين، فعاشت على تقواها وعبادتها، طاهرة القلب، صافية النية، صادقة الإيمان، دون أنْ يؤثِّر عقمها على صلتها بربها الكريم، لا بل وزادها سنُّ اليأس الإكثار من الصلاة، وذكر الله والتعبُّد لخالقها السميع العليم.

وقيل: إنها كانت تستظل ذات يومٍ تحت شجرة، فحركت في نفسها عاطفةَ الأمومة رؤيةُ عصفورةٍ ترفُّ حول فرخها، فدعت الله

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ٣٥ ـ ٣٧.

تعالى أنْ يهب لها الولد، دونما شعور منها ـ في تلك اللحظة ـ بما هي عليه من العقم واليأس، لأنَّ المؤمن، وفي الوقت الذي يكون اتصاله بربه مفعماً بالصدق والإخلاص، قد ينسى واقع حياته كلها، إلّا بغيةً واحدةً كان يرومها على مدى العمر، فيتوجَّهُ بناظريه إلى مولاه الكريم داعياً، وراجياً أن يحقّق له تلك الأمنية الغالية التي طالما أمِلَ بها. . هكذا كان حال امرأة عمران، فقد تاقت نفسها إلى الولد، في لحظة إشراقٍ مع خالقها، فأتاها الإلهام بالدعاء ـ النابع من صميم القلب إلى الله ربها ـ أن يهبها مولوداً، ثم لتفيق على استجابة الدعاء، وتحقيق الرجاء. .

فلما أحسَّت حنَّةُ بالحمل، لم تأخذها الدهشة، إنَّما وجدت نفسها تجثو على الأرض، غارقة في السجود لله تعالى، وهي تحمده وتشكره على ما أفاض عليها من نعمة عظيمة. ولم ترَ، في تلك الآونة بالذات، خيراً من التعبير عن الاعتراف بفضل الله عليها، إلّا النذر بأنْ يكون ما في بطنها محرراً من أوضار الأرض وقائماً على عبادة ربه بصدقٍ وإخلاص، إذ قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾. .

لقد كانت نية تلك المرأة منصرفةً لأن يكون حملها ذكراً، ومحرراً من أعباء الدنيا، إلا الإخلاص في طاعة الله، والقيام على خدمة بيت المقدس، جرياً على العرف في زمانها، إذ كان يوضع المولود الذكر، الذي نُذر لأن يكون محرراً، في بيت المقدس، أو في أي بيت آخر للعبادة، فلا يبرحه حتى يبلغ الحلم، فيُخيَّر بين الإقامة في المعبد، وتكريس نفسه لعبادة الله، أو الخروج إلى الحياة، والعيش مثل سائر الناس. هكذا كانت نية حنة امرأة عمران، إذ نذرت أن يكون ما في بطنها ابناً صالحاً، مؤمناً، تكرّس نشأته على العبادة لله تعالى،

بل ودعت ربَّها أنْ يتقبل منها نذرها، لأنها على يقين بأنَّه تعالى السميع لكل دعاء، العليم بكل نية. . .

وحان الوقت ووضعت حملها، «فلما وضعتها، قالت: ربي إنّي وضعتها أنثى»! أي أنها لم تضع ذكراً كما كانت تأمل. وهذا يعني أنها لا تستطيع الوفاء بنذرها، وأنَّ عليها أنْ تعتذر لـربّها، علَّه يقبل اعتذارها، فليس الأمر بيدها بما حملت، وما وضعت، بل الأمر لله وحده، فهو الذي صوَّر الأنثى في رحمها، وهو الذي خلقها ومنحها الحياة، وهو الذي يقبل العذر من أَمةٍ مؤمنةٍ صادقة. . ولذلك تابعت من خلال اعتذارها ـ وبعفوية تامة ـ فقالت: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ للوفاء بالنذر، وحمل هذه الوليدة إلى بيت المقدس. . إذ وفقاً للأعراف والتقاليد السائدة يومئذ، فقد كانوا يرون في الأنثى مخلوقاً ضعيفاً، ولا تحتمل مثل الذكر مواجهة الأعباء، ولا سيما ما تتطلب الخدمة في بيت المقدس من إقامةٍ بعيدةٍ عن الأهل، ومن مشاق العبادة، والالتزام بالفروض والطاعات. هذا فضلاً عن قدسية هذا البيت التي قد لا تتوافق مع إقامة أنثى فيه، لما يلحقها من حيضٍ، وبالتالي من عدم إمكانية الطهارة الدائمة بعد البلوغ. . فتلك العادات الموروثة التي لا تجيز الالتحاق في بيت المقدس إلّا للذكور دون الإناث، والوهن الذي خلقه الله تعالى في المرأة، ونية امرأة عمران بأنْ يكون ما في بطنها قائماً على عبادة الله في بيت المقدس بالذات. . كل تلك الأمور قد حدت بها للاعتذار من ربها، ورجاؤها أنْ يَقبل ربها الكريم عذرَها، وأن يتقبَّل منها نذرها، لأنها على يقين بأنه تعالى هو السميع العليم.

وعلى هذا الأمل، وبمثل هذا الرجاء سمَّت ابنتها «مريم»، أي

العابدة أو الخادمة ـ على لغة ذلك الزمان ـ وكأنَّ إلهاماً يقول لها بأنَّ هذه المولودة سوف تنشأ فعلاً للعبادة في الهيكل، وسوف تكون ملتزمة بكامل فروض العبادة، وأداء مهام الخدمة في رحاب المعبد الكبير..

واستكمالاً للنذر الذي قطعته على نفسها، وترجمة للعهد الذي التزمت به مع ربها أنْ يكون ما في بطنها محرراً من شوائب الدنيا، فقد ظلت على نفس التوجّه في الإخلاص وطلب العون من الله أنْ يحفظ وليدتها، وأن يصونها وذريتها ـ في الحياة الدنيا ـ من الشيطان الرجيم، فقالت: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

ومثل هذه الاستعانة بالله العليّ الكبير، إنما تنمُّ عن إلهام تستبق فيه تلك المؤمنة الزمن، وهي تتطلع إلى وليدتها تنعم، وذريتُها، بغدٍ مشرق ملؤه الإيمان، والطاعة والرضى، وهي عطاءات من الله لا تتحقق إلّا أنْ يحفظ سبحانه وتعالى هذه الوليدة وذريتها معها، من غواية الشيطان الرجيم، المطرود من رحمة الله، فتكون وإيَّاهم بمنأى عن الوساوس التي يدسّها الشيطان في نفوس بني آدم، وتدخل معهم في زمرة المؤمنين الصالحين، في ظلال رحمة ربِّ العالمين.

ولذلك يأتي التعقيب القرآنيّ الذي يؤكد هذه الحقيقة، بقوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أي أنّه سبحانه تقبَّلها ـ وهي أنثى ـ بقبول حسنٍ، هو قبول الرضى والنعمة، وأنشأها ورعاها رعاية حسنةً تتوافق مع قبولها الحسن، فكانت ـ كما يروى ـ تكتمل في اليوم بقدر ما يكتمل غيرها من المواليد في الأسبوع.. وذلك كله جزاءٌ للأم على الإخلاص الذي عمر قلبها، وعلى تجرّدها

الكامل في نذرها. . ومن ثمَّ إعدادٌ للمولودة فيما اختيرت له من دون نساء العالمين.

ويبين القرآن الكريم حقيقة هذا الاختيار بقول الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا۝فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا۝قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا۝قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾[1]، أي واذكر ـ يا محمد ـ ما أثبتناه في هذا القرآن من خبر مريم بنت عمران، إذ اعتزلت أهلها، حتى بعد بلوغها الحلم، لتقوم على عبادة الله تعالى في المحراب الذي أعده لها كافلها زكريا عليه السلام، في ناحيةٍ شرقية من بيت المقدس، بحيث تكون بعيدة عن أقاربها، وفي مكان محجوب عن عيون الناس، فلا يراها فيه أحد، ولا يقتحم عليها خدرَها أحد. إذ إنَّ في الحجاب ما يحجب ويخفي عن الآخرين، وما قد يقطع التعامل معهم، كما كانت عليه الحالة التي نشأت فيها مريم بنت عمران. وبالفعل فقد كان زوج خالتها، النبيّ زكريا عليه السلام هو الذي تكفَّل رعايتها، وتحمل مسؤولية إقامتها في بيت المقدس، وفقاً لما أعدَّ الله له من دورٍ يؤديه في حفظ تلك المولودة، وعزلها عن أي سوء، فمنع أيَّ إنسان من الدخول عليها في محرابها، فلا يصعد إليها أحد إلَّا هو، وقطع عنها الخدمَ والكهَّانَ فلا يطعمها، أو يقوم على خدمتها غيره.

وهكذا كانت تربية مريم، في رحاب بيت المقدس، وفي أحضان النبوة، تُنشَّأُ وحيدةً في محرابها على الطهارة، والعفاف والعبادة حتى جاء الوقت لتلقي النبأ العظيم، فأرسل إليها الله العزيز

---

(١) سورة مريم، الآيات: ١٦ ـ ١٩.

الحكيم «روحاً» من الأرواح الطاهرة التي خلقها، وأعدَّها لمهمات جليلة قضى بها سبحانه في علمه المكنون، وكان ذلك «الروح» الملك جبريل الأمين عليه السلام الذي عبَّر عنه النص القرآنيّ بلفظ «روحنا» لأنه مخلوق ملائكيّ، روحانيّ، ولأنه حملَ نفحةً من روح الله لينفخها في هذه الإنسانة البتول الطاهرة حتى يتحقق أمره تعالى بما قدَّر في سابق علمه. وزيادة الضمير «نا» تعظيماً لنفسه (جلَّ جلاله)، وأنه هو الذي بعث هذا الروح لينفذ أمره في خلقه كما يشاء ويريد. وكذلك كانت زيادة الضمير تأكيداً على جلالة الأمر الذي يريده ربُّ العالمين من بعث هذا الرسول ليكون الوسيلة في تحقيق مشيئة الله تعالى المطلقة، في نفاذ الأمر الذي يريد، ودون أي أمرٍ آخر ولذلك قال: «فأرسلنا إليها روحنا»، لإثبات أنَّ الأمر الذي أُرسل به جبريل شأنٌ إلَهيٌّ، ومنسوب إلى ذاته القدسية.. (ومثاله أن نقول: فؤادنا، عقلنا، كتابنا.. تأكيداً على ما في ذاتنا أو فيما يخصّنا دون غيرنا)..

وجاءها الملك جبريل فتمثل لها بشراً سوياً، على هيئة إنسانٍ، سويّ الخَلْق، بهيّ الطلعة، وذلك وفقاً لمقتضى التكليف الذي حمله من ربه.. وهنا يمكن أن نتمثَّل في خيالنا، مشاعرَ تلك العذراء الطاهرة، البريئة من الدنس، والتي نشأت في جو الإيمان، والإخلاص في العبادة، كيف يكون حالها، وقد دخل عليها هذا الإنسانُ فجأة، ومن غير استئذان كفيلها زكريا عليه السلام، فماذا يمكن أنْ تقول له؟ وبماذا يمكن أنْ تشعر أو تفكِّر؟

كان من الممكن أنْ تأخذها الدهشةُ ـ مثل أي عذراء غيرها ـ لمرآه. وكان من الممكن أنْ يتملكها الخوف أو الذهول، بل والغيبوبة لو أنَّ جبريل عليه السلام ظهر أمامها بصورته الملائكية، فتنهار عزيمتها، ولا

تعود قادرة على محادثته، أو سماع ما يقوله لها، فيفقد التكليف غايته. ولكنَّ هذا في عرفنا، ووفق قصورنا نحن الآدميين. أما عند الله، فكل شيء يخضع لما يشاء، ولما يدبِّر، ويُحكم العزيز الحكيم. فأرسل إلى مريم بنت عمران الملك جبريل على صورة إنسان يكلمها بلغتها - لا إيماءً فتنفر، ولا إيحاءً فتجفل - ويوصل إليها الرسالة بجلالها. . ولذلك فإننا نجدها، وعملاً بما زوَّدها به ربها من التقوى، التي تحمل معاني القوة، والشجاعة، ومواجهة المواقف - بالعزة والحق - تبادره بما ينمُّ عن طهرها وعفافها، فقالت له: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾؛ فالله هو الرحمن الذي يعصم من الزلل، وهو الرحمن الذي يستعانُ به، ويُلاذُ إليه في وقت الشدة، ولذلك كانت استعاذة مريم بالرحمن من هذا الزائر، وهي تقول له: إني أعوذ بالرحمن منك، ومن دخولك عليَّ إن كنت تخاف الله تعالى، وتتقي غضبه ونقمته. (وقد استعملت لفظة «تقياً» لأن التقيّ إذا ذُكِرَ الله أمامه خشع قلبه، فزادت تقواه، وزاد حذره وخوفه من الله، لأنه أصلاً لا يعمل إلا بما يرضي الله، وبما يبعد عنه سخطه). .

وأجابها جبريل الأمين: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾(١) طاهراً، مطهّراً من ربه تعالى؛ وليجعله آيةً للناس، وكان أمراً مقضياً!.

ويمكن أنْ يتمثَّل خيالنا، مرةً أخرى، ما قد تشعر به فتاة عذراء مثل مريم عليها السلام من خوفٍ، وخجلٍ وهي تسمع من هذا الإنسان ما تسمع في خلوتها، بعيدة عن الأعين، لأنه في العادة لا يمكن أنْ يهب رجلٌ لامرأة غلاماً إلا بملامستها. . أما مريم وهي طاهرة مقدسة،

---

(١) سورة مريم، الآية: ١٩.

فإنها ترفض أصلاً ملامسة أي رجل لها، لأنها قد نُشِّئت على العبادة والطاعة، ونذرت لها نفسها منذ أن تفتحت مداركها على وجودها في بيت المقدس. ولذلك كان جوابها واضحاً، ومعبراً عمًّا هي عليه، فقالت: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾[1]، أي فكيف تهب لي غلاماً وأنت لن تمسَّني، ولن تجرؤ على ملامستي، مثلما لم يمسسني بشر من قبل، لأنني لم تكن لي يوماً بغيةٌ لا في رجل، ولا في غلام، وحياتي قائمة على الطهارة، وعبادة الله ربي الذي يعصمني منك، ومن أي بشرٍ غيرك!..

وجاءها الاطمئنانُ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾[2]، أي مثل ما قال ربّك أقول؛ فالأمر إذاً ليس ملامسةً، بل نفخةً من روح الله فتحمل منها، وهو أمر هين على الله تعالى، حتى يتم أمره المقدر، كما شاءَ في سابق علمه.

وكان أمر الله تعالى الذي يقول للشيء: كن، فيكون، ونفخ فيها جبريل، فحملت مريم، وولدت عيسى (سلام الله عليهم جميعاً).

٤ ـ خلق اللّه سبع سماوات ومن الأرض مثلهن.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[3].

(١) سورة مريم، الآية: ٢٠.
(٢) سورة مريم، الآية: ٢١.
(٣) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

إن الجو الذي توحي به هذه الآية المباركة هو، في الحقيقة، جو الدعوة الإسلامية التي تخاطب أولي الألباب، كي يسيروا على منهج القرآن الذي يوحيه الله تعالى، إلى نبيِّهِ محمدٍ ﷺ ليهدي الناس إلى الإسلام، ويخرجَ الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور؛ وهذا يعني أنَّ القرآنَ هو من عند الله، وأنَّ النبيّ إنما يبلّغ عن الله تعالى هذه الآيات المبيّنات في كتابه الكريم، لتخاطب أولي الألباب، وتبيّن لهم أنَّ الله تعالى هو الذي خلق سبع سماوات، ومن الأرض مثلهن، وهو الذي أوجب أن يتنزَّل أمره الجليل بينهنَّ بالحق، ليعلم المؤمنون أنَّ الله على كل شيء قدير فيما خلق، وفيما أنزل، وفيما قدَّر ودبَّرَ في السماوات والأرض؛ وليعلموا كذلك أن الله قد أحاط بكل شيء علماً، فلا يغيب عن علمه شيء - ولو بمقدار ذرة - في السماوات والأرض، مما كان، ومما يكون. .

هذا ولا بد من الوقوف على ما يدلُّ عليه ظاهرُ الآية المباركة، وهو أنَّ الله تعالى قد خلق سبع سماوات، ومن الأرض مثلهن (أي في المِثْلِيَّة على القدرة في الخلق، لا في العددية). وليس في القرآن الكريم آيةٌ أخرى تشير إلى خلق سبعٍ من الأرضين. ولا خلاف في أنَّ السماواتِ هي سماءٌ فوق سماء. أما الأرضون فتحدث عنها ابن عباس ﷺ فقال: «إنها سبع أرضين ليست بعضُها فوق بعض، يفرق بينهنَّ البحار، ويُظِلُّ جميعهن السماء». وقد يكون ابن عباس ﷺ قد قصد بسبع أرضين أقسام اليابسة على هذه الأرض. . والله تعالى أعلمُ بمصاديق ما استأثر به علمُه، واشتبه على خلقه، فلا يعلم معنى ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ إلا هو سبحانه، إذ لم يميّز أحدٌ حتى الآن بين وجود سبعٍ من الأرضين، كما لم يميّز أحدٌ بين وجود سبعٍ من السماوات،

بما يؤدي إلى تحديدٍ لهذه السماء أو تلك، وإن كانت اكتشافات علم الفلك تتحدث عن الكواكب، والأجرام والنجوم، والمجرات الكبيرة التي لا تحصى في الكون العظيم. .

وهذا ما يوحي بأنَّ كل شيء في الوجود إنما كان بأمر الله، ومن خلق الله؛ كما يوحي بأنَّ الكون ـ بخلقه الهائل وسعته العظيمة ـ غير متروكٍ بلا تدبير، بل هو محكوم بنظام دقيق، محكم وقويّ، لم يتطرق إليه الخلل، ولا أصابَهُ العطل، وفقاً لسنن الله التي لا تتبدل، ولا تتحول. . . وهذا بحد ذاته أعظم دليل على أنَّ الله على كل شيء قدير، وأنه قد أحاط بكل شيء ـ في السماوات والأرض ـ علماً، فسبحان الله العليّ القدير، وسبحان الله العليم الحكيم!.

٥ ـ اللّهُ الذي خلق السماوات والأرض قادر على أنْ يخلُقَ مثلهم.

يقول الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾(١).

وهنا العجب العجاب من الذين كفروا بآيات الله، وأنكروا حقيقة خلقهم، وحقيقة بعثهم فقالوا: ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾(٢). . فجاءهم الجواب القاطع، على شكل استفهام تقريريّ: «أَوَلم يروا أنَّ الله الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم»؟! أي أنه قادر على أنْ يخلق مثل هؤلاء الناس ـ وهم

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩٩.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩٨.

ما عليه من الصغر ـ لأنَّ من قدر على خلق ما هو أكبر منهم بكثير في هذا الكون ـ كما في هذا الخلق العظيم للسماوات والأرض وما فيهنَّ وما بينهنَّ ـ لقادر على أن ينشئ الناس، بعد فنائهم، وأن يخلقهم من جديد كما خلقهم أول مرّة. . .

ثم أَوَلم يتفكروا أنَّ الذي خلقهم قادرٌ على أنْ يبدّلهم بغيرهم، ويأتي بأناس يكونون على مثالهم في الهيئة والتكوين، فيعبدوه ويتّقوه بخلاف ما هم عليه من الجحود والكفر؟!. .

بل وكيف ينكرون قدرة الله تعالى على إعادة إحيائهم، وبعثهم للحساب، وهو الذي قد جعل لكل واحدٍ من بني البشر أجلاً محدداً لا بدَّ أنْ يبلغه بالموت الذي لا مفرَّ منه في حياة الناس أجمعين، بل ولا أحد قادر على أنْ يفلت منه بحكم وجوده البشري؛ وأن موعد هذا الأجل ـ من ثَمَّ ـ لا يعلمه إلا الله تعالى؟!

إذاً فالبراهين ساطعة على أنَّ الذي خلق هذا الكون الكبير الواسع، بما فيه من السماوات والأرض، لقادر على أن يخلق مثل هؤلاء الأناسيّ، لأنَّ القادر على الإنشاء ابتداءً قادر على إعادة هذا الإنشاء، بل وهو أهون عليه. فأية غرابة إذاً في البعث والحساب؟!. . لا غرابة في ذلك أبداً عند ذوي الألباب. ولكنَّ الظالمين لأنفسهم ـ بالكفر والجحود ـ يأبون الإقرار بهذه القضية، ويصرون على أن ينكروا حقيقة البعث، مثلما يصرون على الكفر الذي هو منتهى ظلم الإنسان لنفسه، طالما أنَّ عاقبته سوف تكون وخيمة، وهي، حتماً، الخسران المبين، حيث يساقون يوم الحساب إلى جهنم، وبئس المصير. .

٦ ـ الوعد بالحساب والثواب والعقاب حقٌّ مثل حقيقة النطق.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾[1].

في هذه الآيات الكريمة إيقاظ للإنسان من مألوف العادة فيما يرى، ويسمع؛ وحثٌّ له على ألّا ينظر إلى الأشياء من حوله دون تبصّر، وتذكّر، واعتبار.. فما على الأرض من البحار والأنهار، ومن الجبال والأودية، ومن الأشجار والنباتات، ومن الحيوانات والطيور والحشرات.. هذه كلها براهين حسيّة على حقيقة وجود خالق عظيم، وأنه على كل شيء قدير فيما يخلق، وفيما يَهَبُ هذه المخلوقات من أنماط الحياة، وفيما يسنُّ لها من السنن التي تربطها بخالقها، وهو الله الواحد الأحد، الفرد الصمد..

والله ـ تعالى ـ يخصّ الموقنين بالذكر هنا، لأنهم عباده الذين صدّقوا، وآمنوا بما أنزل إليهم من ربهم على لسان رسله، واعتقدوا بجوارحهم اعتقاداً يقينياً بأنه «لا إلَهَ إلّا الله»، إلَه واحدٌ في السماوات والأرض، وأنه خلق كل ما في الوجود بالحق، لأنه هو الحق، فكان اعتقادهم هو التصديق الجازم الذي يوافق الفطرة، ويناسب الإدراك، ويلامس الشعور، ويقوِّم السلوك.. ولذلك كانوا على يقين أنَّ كلَّ ما هو كائن في الأرض من حولهم، أو في السماوات من فوقهم، هو من خلق ربهم تبارك وتعالى. وإنّ إيمانهم الصادق هذا، هو الذي يرفعهم إلى مرتبة «الموقنين»، الذين يرون أنَّ كل ما في الوجود من آيات

---

(١) الذاريات، الآيات: ٢٠ ـ ٢٣.

(مخلوقات) هي الأدلة الساطعة على حقيقة وجود الخالق العظيم، والمدبّر الحكيم.

وقد أيقن قلبُ الشاعر هذه الحقيقة، فقال معبّراً عنها:

وفي كل شيء له آيةٌ   تدل على أنه واحدُ

هذا في الأرض، وما يحيط بالناس من الأحياء، والجمادات والأشياء.. ولكن أليس في أنفسنا أيضاً آيات دالةٌ على قدرة خالقنا الكريم؟ إنَّ لفظة «أنفسكم»، كما وردت في التعبير القرآنيّ، هي إشارةٌ لكل إنسان، في تكوينه من جسدٍ ونفس وروح.. لأنَّ في خلق الإنسان من الصنع والإِحكام، ومن الخصائص والصفات الذاتية التي أودعها الخالق فيه، هو الذي يجعله بشراً سوياً، وفي أحسن تقويم.. فلو أدركنا ما في أنفسنا، أي ما في خلقنا كله، من دقيق الصنع، وعجيب التركيب، وعظيم التآلف والتناغم بين ما تنطوي عليه ذاتنا في الداخل، وما تظهر عليه صورتنا في الخارج، لأيقنَّا أن ذلك الخلق ليس عبثاً، وأن القادر على هذا الخلق لا يمكن أن يكون إلا الله العزيز الحكيم.

وإنَّ في القرآن المبين كثيراً من الآيات التي تدل على أصل الخلق البشريّ. وتلك الآيات جميعاً تدعونا إلى التبصّر بخلقنا حتى نستدلَّ على الخالق العظيم، ومنها قول الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾(1). فهنا تبيان لبعض أطوار الخلق البشريّ. وفي مواضع

---

(1) سورة القيامة، الآيات: ٣٦ ـ ٣٩.

أخرى من القرآن الكريم آيات تدل على أطوار غيرها من مثل تكوينه جنيناً في بطن أمه، ثم ولادته طفلاً لا يعلم شيئاً، ثم نموّه شاباً قوياً يملأ الحياة بالحركة، ثم صيرورته كهلاً وقد دبَّ فيه الضعف، ثم يُردُّ في النهاية إلى أرذل العمر فلا يعلم من بعد علم شيئاً. . وهذا كله قد اكتشف العلم منه شيئاً كثيراً، وسوف يزيده اكتشافاً، يوماً بعد يوم، مما يذهل العقول في دقة الإنشاء، والتركيب والتنظيم للهيكل البشريّ، وما تنطوي عليه نفس الإنسان من الملكات والقدرات والطاقات، التي تجعله - جميعها - بشراً سوياً. . وهذه الألطاف الربانية في الخلق البشري تنطق كلُّها بأن الله تعالى هو الخالق العظيم، فتبارك الله أحسن الخالقين.

أما لماذا جعل الله تعالى رزقنا في السماء لقوله الكريم: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾. . فلأنَّ الماءَ ينزل من السماء بأمر الله تعالى، ولأنَّ الله جعل من الماء كلَّ شيءٍ حيٍّ، فالأحياء على الأرض البرية، والأحياء في تجاويف الأرض المغطاة بالماء من الأنهار، والبحار والمحيطات. . تلك الأحياء قد جعل منها ربنا الكريم أرزاقاً وأقواتاً للناس، ولغيرهم من الكائنات الحية. . وتلك الأنواع التي تؤكل من النبات والطير، ومن الحيوان البريّ والمائيّ، هي مما لا يُعدُّ ولا يحصى. . وقد سخَّرها الخالق غذاء لا يمكن بدونه للإنسان أنْ يحيا، أو أنْ تستمر حياته على هذه الأرض. . بيد أنَّ أمر هذه الأرزاق هو بيده تعالى وقد قسمها لعباده بما قدَّر وشاءَ، وما قد يزيد فيه، أو ينقص منه (مما هو مكتوب في اللوح المحفوظ)، لأنه سبحانه هو اللطيف بعباده ومخلوقاته، الخبير بأحوالهم وحاجاتهم، فيرزقهم، بهذا المقدار أو ذاك، لأنه هو الرزاق الوهاب، والغنيّ

المغني، يقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾(١).

والناس يجهدون، عادةً، ويكدون في الحياة طلباً للرزق، وهذا أمر مشروع وشرعيّ، بل وواجب عليهم، لأنه لا يجوز للإنسان أنْ يكون عالَةً على غيره، طالما أنه قادر على العمل، وجني الرزق من الكسب الحلال. على أن الميلَ في طبع هذا الإنسان لنيل خيرٍ أوفرَ، ورزقٍ أكثرَ، هو ما يجعله يعِدُ نفسه بالاستزادة منهما؛ وهنا عليه أن يعيَ بأن العمل والأمل مباحان له، ويمكن أن يعمل، ويجتهد بقدر ما يستطيع، ثُمَّ يترك الأمر لله سبحانه وتعالى، لأنَّ النتائج دائماً بيد الله، لأنه مالك الملك فلا شريك له في ملكه، ولا حسيب له في رزقه، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، وعطاؤه لعباده لا يكون إلّا عن حكمة واقتدار وفقاً لما تقتضيه مصالح هؤلاء العباد.. والعبرة في الأساس أنَّ الأرزاق في الدنيا، وما توعدون به أيها الناس من البعث والحساب والثواب كله مقدر ومكتوب في كتاب لا يمسُّهُ إلّا المطهرون.. وفي ذلك آيات للموقنين.

﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾..

وهذا القسم من الله تعالى ـ وهو ربُّ السماوات والأرض ـ لعباده من هؤلاء الناس، الذين يملك أنْ يتصرَّف بهم، وبحياتهم وأرزاقهم ومصائرهم كيف يشاء.. لقسم عظيم تقشعر منه أبدان المؤمنين، الموقنين بآيات الله، وجليل قدره عزَّ وعلا.. فعندما يقسم ربُّ العزة والجلال لعباده، من هؤلاء الناس، بأنه ربّ السماوات

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٢.

والأرض، وأنه ربُّ هذه المخلوقات كلها جميعاً، وأنه هو الذي قدَّر لها ما في السماء والأرض من الأرزاق. . . فكل ذلك حقٌّ يقين، لأن المُقسِمَ هو الله العلي العظيم، وقد أقسم بذاته القدسية على أنَّ بعثكم هو آتٍ لا ريب فيه، وهو حقيقة ستجدونها، مثل ما هي حقيقة نطقكم، أيها الناس، بهذا الكلام الذي يخرج من أفواهكم، إذ كونكم تنطقون حقيقة لا جدال فيها ولا مواربة، وغير قابلة للشك، فكذلك بعثكم وحسابكم هو حقيقة لا مراء فيها. . لا بل وكلُّ ما أتى به القرآنُ، وهو كتاب الله المجيد، هو حقائق ثابتة وأكيدة، ولا تقبل الشك. . والإيمان بكتاب الله، وما أُنزل فيه، يرقى لدى المؤمنين إلى مرتبة الإيمان الصادق الجازم، فهلاّ توقنون، أيها الناس، بذلك حتى تكتبوا مع الصادقين، الموقنين؟!.

ثانياً ـ إنَّ الله يعلم أنْ لا مَثَلَ له، فلا تجعلوا له أشباهاً

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ * فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(1).

من الثابت أنَّ المشركين والكافرين كانوا يعبدون من دون الله

(1) سورة النحل، الآيات: ٧٣ ـ ٧٦.

تعالى بعضاً من مخلوقاته التي خلقها في الأرض وفي السماء، وأنهم كانوا ـ وما يزالون ـ ينقادون لأناس أمثالهم، حتى يصيروا بمثابة آلهةٍ لهم، يسيّرونهم وفق الأهواء والمطامع . . ليكون اتّباعُهُم لهم بمثابة عباداتٍ . . ولكنها عباداتٌ ضالّةٌ، مضلّلةٌ، وأولئك المعبودون ـ من دون الله تعالى ـ ليسوا إلّا كائناتٍ أو أشخاصاً لا شأن لهم، ولا اعتبار إلّا بمقدار ما قدّر لهم خالقهم العلي القدير . . ومن هوان شأنهم أنهم لا يملكون لمن يعبدونهم رزقاً، ولو شيئاً يسيراً منه، لأن كل رزق من السماوات إنما يأتي من المطر الذي ينزله الله تعالى، ولأنَّ كل رزق من الأرض ـ من النبات والحيوان والمعادن، وغيرها مما قد يكون مورداً للخير والعيش ـ هو أيضاً من الله تعالى. إذاً فكان أكيداً ـ ودونما حاجةٍ إلى برهان ـ أنَّ ما يعبدون من دون الله لا يستطيعون أنْ يرزقوهم شيئاً، بل وهم محتاجون أصلاً لمن يهب لهم الرزق ـ مثل ما هم محتاجون لمن يهبهم الوجود ـ فإذا كان فاقدُ الشيء لا يعطيه، كما يدلّ عليه الواقع في حياة الناس، فمن باب أولى أنْ لا يملك الذين يعبدونهم من دون الله رزقاً لهم: ولا يستطيعون أنْ يأتوهم بأي رزق لأنهم مفتقرون بذاتهم إلى من يرزقهم، والله تعالى وحده الذي يملك الأرزاق ويعطي منها من يشاء، ولمن يشاء . .

ولذلك يأتي التقرير الحاسم ـ وهو على شكل الأمر للعباد جميعاً، كافرِهِم ومؤمِنِهم ـ بألّا يجعلوا لله عزَّ وجلَّ أشباهاً يشركونهم به في العبادة، أو في سواها، لأنه سبحانه وتعالى منزَّهٌ عن التشبيه والمثال. فأمّا المؤمنون فيعلمون أنه الأمر الحق من ربهم، وهم أصلاً يقومون على عبادة ربهم العليّ الكبير، ولا يشركون بعبادة ربهم أحداً. بينما الكافرون، أو المشركون لا يعلمون هذه الحقيقة، أي أنه

لا شريك لله في ملكه، ولا مثيل له في كينونته، ولذلك يعبدون من دون الله آلهةً مزيفةً، يشبّهونها بالله تعالى في العبادة، ويشركونها معه في أرزاقهم وأموالهم، فتعالى الله عما يشركون علوّاً كبيراً!!..

وعندما يحذّر الله جلَّ جلالُهُ الكفار والمشركين ألّا يضربوا له الأمثال فذلك لأنه يعلم أنَّ لا مثل له، وأنهم، هُمُ، لا يعلمون ذلك، وبالتالي فلا يعلمون عاقبة العبادة الباطلة ـ لتلك الأشباه ـ من دونه تعالى.. والفارق كبير، بل لا مجال للمقارنة بين علم الله تعالى الذي أحاط بكل شيء، وبين جهل أولئك الكافرين والمشركين، الذي لا يزيدهم إلا ضلالاً، مثلما لا تزيدهم عبادتهم الباطلة إلّا كفوراً، فكان لا بد من الأمر الحاسم والجازم بألا يضربوا لله تعالى الأمثال، وألّا يجعلوا له ـ في تصوّرهم أو خيالهم، ولا في تفكيرهم أو شعورهم ـ شبيهاً أو نظيراً أو مثيلاً. . لأنَّ التشبيهات، وأياً كان نوعها، فما هي إلا ضلالٌ، وكفرٌ وصدٌّ عن سبيل الله.

ولكي يكون لهذا الأمر مدلولاته، وتأثيراته فإنَّ الله عزَّ وعلا يضرب في كتابه المجيد مثلين يقرّب بهما إلى العقول، والأذهان والمشاعر، الحقيقة التي غفل عنها الكفار والمشركون، وهي أنه ليس لله تعالى مثال ولا شبيه، وأنه ليس من الجائز أنْ يساووا في العبادة بين الله الخالق، وأشياءَ وأشخاص من خلقه، وكلهم عبيد له..

ـ أما المثل الأول فقد ضربه الله تعالى للتمييز بين العبد المملوكِ ـ ويُبدَّل منه الأجير، أو المستخدم أو الخادم ـ الذي لا يملك شيئاً من الرزق، أو من حرية التصرف .. وبين السيد الحر، أمثال صاحب العمل، أو المؤسسة، أو مالك الأرض أو الدار، أو الغني صاحب

الثروة وغيرهم ممن يرزقهم الله رزقاً حلالاً فهم ينفقون منه في السر والعلانية، ومن دون قيود، قد تمنعهم من هذا الإنفاق، سواء أكان في سبيل الله، أم في سبيل عباد الله. فهل يتماثل، إذاً، العبد والسيد ويتساويان في حرية الإرادة، وفي حق الملكية، والتصرف في هذه الملكية؟ وهل يعقل أنْ يكون هذا الحر المالك مثل ذلك العبد المملوك؟ أبداً لأنَّ الفوارق بينهما كبيرة في كل شيء، ولذلك لا يمكن أنْ يتماثلا، لا حالةً، ولا وضعاً، ولا إرادةً.. وقد عبَّر سبحانه وتعالى عن تلك الفوارق بينهما بعبارة ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾، ولم يقل: هل يستويان؛ لأنه أراد بالعبد المملوك «الجنس» وليس التخصيص، كما أراد بعبارة: ﴿وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ﴾ الكل، وليس الفرد.. فإذا كان هذا التفاضل موجوداً فعلاً بين إنسانٍ وإنسانٍ، بحيث لا يتشابهان أبداً، فهل يجوز أنْ يُماثَل ويُشابَهَ بين الله جلَّ جلاله مالك الملك، وبين عبيد له قد يكونون جماداتٍ لا تنفع ولا تضرُّ بشيء، أو قد يكونون أناساً، عباداً لله، ولكنهم لا يملكون إلَّا ما رزقهم ربّهم، وقد يكون بقدر كفايتهم، أو زيادةً عن تلك الغاية وذلك لمقتضى حكمة الله تعالى في عطائه أو منعه..

فالحمد لله أنْ ليس له ـ سبحانه ـ مثيلٌ في الخلق، والحمد لله أنْ ليس له ـ سبحانه ـ شريكٌ في الملك؛ فهو «الله الذي لا إلَه إلَّا هُوَ»، وعبادته وحده حق على عباده، وإقرارهم بالعبودية لـربهم نعمة تستحق الحمد والثناء، إلَّا مَنْ كان جهولاً فلا يعلم جليل قدر خالقه، أو من كان ضالاً فلا يقدِّر فضل ربه عليه!

والجاهلون ـ أو المتجاهلون ـ لهذه الحقائق اليومَ، كما كان عليه العهدُ عند بعث محمد ﷺ، هم كثيرون... لأنَّ أكثر الناس قد

لا يعلمون أنَّ الله ـ جلت عظمته ـ لا مثل له، فكانوا مثل ذلك العبد المملوك الضالِّ عن معرفة الحقيقة، وعن الاهتداء إلى ما يريد، فلا يقدر، بالتالي، على شيء. . بل ولعلَّ الذين يضلّون عن معرفة حقيقة وجود الله تعالى، وحقيقة الألوهية والربوبية لله تعالى، أو الذين «ما قدروا الله حقَّ قدره» هم أضلُّ من ذلك العبد المملوك الذي ضربه الله تعالى مثلاً للكافر أو المشرك، ممَّنْ عميَ عن هدى الله، فضلَّ السبيل، وأضلَّ غيره! . . .

ـ وأما المثل الثاني فقد ضربه ربنا تعالى لرجلين: أحدهما أبكم (أخرس اللسان) لا يفهم ما يقال له، لأنه لا يسمع أصلاً ـ باعتبار أن حاسة السمع تكون عادة مفقودة عند الأبكم ـ ولا يُفهِمُ ما يريد لأنه عاجز عن النطق. وهذا الرجل ثقيل العبء على وليّ أمره، الذي لا ينتفع منه بشيء، «أينما يوجِّهْهُ لا يأت بخير» بل يضلّ عن وجهته، ولا يهتدي إليها أبداً، فكان محكوماً أنْ يرجع من المكان، الذي استطاع الوصول إليه، دونما فلاحٍ، أو جدوى منه. . .

والآخر رجل عاقل ومدرك، اعترف بفضل الله تعالى عليه، وما وهبه من الجوارح، وبخاصة النطق، وما حباه من الحكمة والهدى، فقام بين الناس يأمر بالعدل والإحسان، ويرشدهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم. وهذه كلها من مزايا الاستقامة التي وطَّن النفس عليها، ومن صفات الخُلُق العظيم الذي يأبى على مثل هذا الإنسان إلّا أنْ يكون على صراطٍ مستقيم في كل ما يقول، وما يفعل. .

فهل يستوي هذا العادل المصلح، مع ذاك الأبكم القاصر؟ أبداً لا يستويان مثلاً، ولا يتساويان قيمةً وقدراً. . إذاً فأين إدراك المشركين

بـالله تعالى، الذين يجعلون له أنداداً من التماثيل، والأحجار والأشجار، أو يشركون في عبادته الكواكب أو الملائكة، أو من هم عباد أمثالهم؟ وكيف عُقلت عقولهم ونفوسهم عن الادراك وأُغلقت عن معرفة الحقائق، حتى غفلوا، وتاهوا عن عبادة الله الواحد الأحد، وهو الحاكم العادل، والهادي إلى الصراط المستقيم؟ عن ابن عباس أنه قال: «إنه مثل الكافر والمؤمن، فالأبكم هو الكافر، ومن يأمر بالعدل هو المؤمن».

وإذا كانت حقائق الوجود جميعاً تثبت أنْ لاَ مَثَلَ للَّهِ سبحانه وتعالى، فقد كان جديراً بالبشر أنْ يعتنقوا عقيدة التوحيد الخالصة، وألَّا يجعلوا لله شبيهاً أو مثيلاً في أي شيء من صفاته العليا، وأسمائه الحسنى التي تدل على تفرده سبحانه بـالألوهية المطلقة، والربوبية المطلقة.

ثالثاً ـ مَثَلُ نور الله تعالى في السماوات والأرض

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ * ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾(١).

لقد أنزلَ اللَّهُ تعالى القرآن وضرب فيه الأمثالَ، وقصَّ القصص

(١) سورة النور، الآيتان: ٣٤ و٣٥.

عن الشعوب والأقوام الذين سبقوا من قبل، لتكون سبل هداية للمتقين، وأداة زجرٍ للعاصين.. كما حملت آياتُهُ الأحكام لحماية المجتمع الإسلاميّ مِنْ أنْ تشيع فيه الفاحشة والمنكر، صوناً لكرامة الأسرة، والحفاظ على البيت المؤمن، فيظل طاهراً، نظيفاً، لا تُنتهك أعراضه، ولا يُعتدى على حرماته.

وفي آيات القرآن كذلك تربية لنفوس المؤمنين على الطاعة، والأدب، واللياقة، والتحلي بالأخلاق الفاضلة، والاستعفاف عن الشهوات، أي أنها، إجمالاً، تدعو إلى التحلي بالفضائل التي ترفع من قيمة الإنسان، وتبعده عن مهابط الإغواء، والانقياد وراء المتع والأهواء.. وهذا كله فضل من الله لهداية عباده الصالحين، هذه الهداية التي ترتبط بنور الإيمان في القلوب، بما يتوافق مع النور الذي في السماوات والأرض، والذي هو من أمر الله تعالى.. فهو ـ جلَّ سناؤه ـ منوِّرهما كي يسير كلّ ما فيهما وفق الانتظام العام الذي يحكمهما، بحيث لا يتعثر كوكب أو جرم في دورانه، ولا يتخبط في مصادفة عمياء تحيده عن مساره، وكذلك لكي تهتدي المخلوقات إلى سبل وجودها. وطرائق وظائفها، ومعاشها، فلا تضلّ عن غاية خلقها...

والإنسان، هذا المخلوق على الأرض، ماذا يريد غيرَ نور الله ليشعر باطمئنان القلب، وراحة الضمير؟ وماذا يبغي غيرَ نور الله ليحرك طاقاته الشعورية، وينمي مداركه العقلية، بل ويستخدم كلَّ ما جُبل عليه، كي يكون قادراً على العطاء لحياة أفضل؟!

ومن يقف على دلالة النور الذي يريده النص القرآنيّ، يتجلى له ذلك النور الوضيء، الهادي الذي يفيض حتى يغمر الكون كله، فلا

تحيد أجرامه عن مساراتها، بل تبقى على نفس الضبط والإيقاع في ذواتها، وفي حركاتها المرسومة لها.. ثم من لا يتجلى له النور الذي يضيء هذه الأرض وهو يشعر به حقاً، بحيث ينفذ إلى الجوارح، ويحرك الحنايا، ويوقظ الحواس، فيتجرَّدُ ناسوت الإنسان من كثافته وثقله، ليستحيل روحانيةً وانطلاقاً، ومعرفة وعلماً، وراحة وحبوراً نفسياً. فإذا الكون كله، وبمثل هذه الهالة النورانية، وبكل ما فيه ومن فيه، نور طليق من القيود والحدود، تتصل فيه السماوات بالأرض، والأحياء بالجماد، والبعيد بالقريب، وتلتقي فيه الشعوب والدروب، والطوايا والظواهر، والحواس والقلوب..

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

ومن هذا النور كان قوام وجودها ونظامها، وكان جوهر سننها ونواميسها.. ولقد أمكن للإنسان أنْ يكتشف بعضاً من خصائص هذا الضوء الذي ينبعث في كل ناحية من الكون الفسيح، فقال العلماء بأنه يسير أو ينتشر بسرعة ثلاثماية وستين ألف كيلومتر في الثانية الواحدة، وأنَّ مراصدهم تلتقط بعض الأضواء التي تحتاج إلى ملايين السنين الضوئية حتى تصل إلى الأرض، بل وبعض النظريات الحديثة تقول بأنَّ بعض الأضواء قد التقطت وهي آتية منذ مليارات السنين الضوئية، وأنَّ في الكون من المجرات والأجرام والنجوم والكواكب ما لا يمكن عده ولا إحصاؤه، وكلها ينبعث منها الضوء. وكذلك فإنَّ العلماء قد أدركوا طرفاً من حقيقة النور في الكون عندما استحال في أيديهم ـ بعد تحطيم الذرة ـ ما كان يسمى بالمادة إلى إشعاعات منطلقة لا قوام لها إلا النور، ولا مادة لها إلا النور. فذرة المادة مؤلفة من كهارب وألكترونات تنطلق عند تحطيمها في هيئة إشعاع قوامه النور..

وعلى الرغم من كل ما توصَّل إليه علم الإنسان حتى الآن، فإنه لا يُعدُّ إلا دليلاً جزئياً، ويسيراً على أنه هو ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ . . والإنسان، في الحقيقة، عاجز عن أنْ يتدبَّر سرَّ هذا التنوير في السماوات والأرض، ومدى تأثيره على انتظام الكون، وتسييره وتدبيره؛ ولكن، ولكي ندرك بعضاً من معاني هذا النور، وبما يمدّنا به مِنْ مقومات الحياة، وبما يملأ به قلوبنا من الإيمان، فقد ضرب الله تعالى لنا مثلاً عليه بالمشكاة والمصباح والزجاجة، وهي من الأشياء المادية المحسوسة، التي من شأنها، في تفاعلها مع بعضها، أنْ تقرب إلى أفهامنا كيفية تفاعل الكون بأسره من جراء نور الله تعالى. وعلى هذا يمكن أن نفهم المشكاة على أنها عبارة عن كوة في الحائط، وقد أحيطت بالزجاج البلوريّ الصافي، وفي وسطها وضع مصباح للإضاءة هو عبارة عن الفتيلة، وهذا المصباح وضع في زجاجة هي عبارة عن القنديل، وهذه الزجاجة كأنها كوكب من الدرّ (اللؤلؤ) الذي يدرأ الظلام من شدة نقاوته. أما وقود المصباح فمن زيت شجرة مباركة، «زيتونةٍ» لا يعلم ماهيتها إلّا الله ـ وحده ـ لأنها ليست من شجر هذا الزيتون الذي ينتشر في شرق الأرض وغربها، بل إنَّ لها خصائص ذاتية، يكاد زيتها يُضيء ولو لم تمسسه نارٌ، هي التي تبعث ـ عادةً ـ على اشتعاله وإضاءته. فإذا أشعلنا المصباح فإنَّ النور يملأ الكوة، وينعكس على الزجاج البلوريّ حتى يبدو متوهّجاً، متألقاً بالضياء. . فهذه الصورة الحسية مثال على النجوم والكواكب التي تملأ السماوات، وكلها تشع بالنور وهي تتحرك في مساراتها، وتنتظم في مداراتها، بما فيها الأرض التي تنعم بضوء الشمس ونور القمر وهما يتجليان على سطحها في النهار والليل مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ

وَضُحَىٰهَا ۞ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۞ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۞ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾[1].

ومثل ذلك النور الذي يضيء الكوة، كذلك نور الهدى الذي يملأ القلوب فيحييها بالإيمان الذي يحرِّك طاقات الإنسان الشعورية، وينمّي مداركه الفكرية فلا يعبد إلاَّ الله، ولا يسير إلا على هدى النور المبين من الله، وهو دينه القويم، الإسلام . .

وهكذا يصل التعبير القرآنيّ ما بين الحقيقة والمثل، فيرتقي من الزجاجة الصغيرة إلى الكوكب الكبير كي لا ينحصر التأمل في النموذج الصغير الذي ما جعل إلّا لتقريب الأصل الكبير إلى الفهم. ويبقى ـ دائماً ـ الضوء الذي يسطع بالأنوار المتلألئة التي تنبعث من نور الله في السماوات والأرض.

ومما قاله المفسرون في التأويلات المعنوية للشجرة المباركة:

ـ أنها مثلٌ ضربه الله تعالى لنبيه محمد ﷺ. . فالمشكاةُ هي صدرُهُ، والزجاجةُ قلبُهُ، والمصباحُ نبوَّتُهُ. . وهي لا شرقية ولا غربية، أي لا يهودية ولا نصرانية، توقد من شجرة النبوّة التي هي إبراهيم عليه السلام. يكاد نور محمد ﷺ، الذي يحمل النبوّة، يبين للناس ولو لم يعترف به أهل الكتاب، مع العلم أنهم دُعُوا في التوراة والإنجيل ليبشِّروا بمجيئه، والتحدث عنه قبل بعثه.

ـ أنها مثل عن شجرة النبوّة. فالمشكاة هي إبراهيم عليه السلام، والزجاجة ابنه البكر إسماعيل عليه السلام، والمصباح محمد ﷺ الذي هو من نسلهما. وهي لا شرقية، أي لا نصرانية لأنَّ النصارى كانوا

(١) سورة الشمس، الآيات: ١ ـ ٤.

يصلُّون إلى الشرق، ولا غربية، أي لا يهودية لأنَّ اليهود كانوا يصلون إلى الغرب. «يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار» يعني أنَّ محاسن صفات وأفعال محمد ﷺ تظهر للناس قبل أنْ يوحى إليه، ومن قبيل ذلك أنَّ بني قومه كانوا يلقبونه «الصادق الأمين» مذ عرفوه في مكة ذلك الشاب الفاضل، الذي يتمتع بالخلق العظيم، والسلوك المستقيم. . . و«نور على نور» أي أنَّ محمداً ﷺ هو نبيٌّ من نسل نبيّ.

- إنها تعبير عن القرآن بنور هدايته. فالقرآن يهدي للتي هي أقوم، ويكنَّى عن القرآن بالنور. فكما أن المصباح (المشبَّه به) يستضاء به، فكذلك القرآن يهتدى به، ويعمل به، وهداه لا ينتهي إلى مدى محدود. فالمصباح - إذاً - يُعنى به القرآنُ الكريم، والزجاجة قلب المؤمن، والمشكاة لسانه وفمُهُ، والشجرة المباركة هي شجرة الوحي الذي حمل آيات القرآن بحيث تتضح حججه وبراهينه للناس حين تدبّر معانيها، والتفكر بدلائلها العظام.

«نور على نور» ومعناه، على إطلاقه، أنَّ أصله من نور، وضوءَه من نور، وهو يسري في كل شيء خلقه الله تعالى حتى يهب له الحياة والوجود. وهو نور دائم في السماوات والأرض: لا ينقطع، ولا يحتبس، ولا يخبو؛ فحيثما توجه إليه القلب رآه، وحيثما تطلع إليه الحائر هداه، وحيثما اتصل به المؤمن وجَدَهُ. .

وهكذا يظهر المثل في النص القرآنيّ حاملاً أسمى المعاني والدلالات، موحياً بما للإيمان من عظيم الأثر والفعل في قلب المؤمن، لأنَّ أمره منوط بالله تعالى الذي يهدي لنوره - أي لدينه - من

يشاء، ويوفقه في إصابة الحق بالنظر، والتدبر، فلا يضلّ عن الصراط المستقيم.

أما من لم يتدبَّر، ولم يؤمن، فمثله كالأعمى سواء عليه جَنْح الليل الدامس، أو ضَحوَةُ النهار الشامس، فهو في هذه الدنيا أعمى عن النور الذي يضيء قلبه وبصيرته، وفي الآخرة أعمى، وضالٌ عن الصراط المستقيم الذي يقود إلى الجنة، فلا هداية له في الدنيا والآخرة، والله لا يهدي القوم الظالمين.

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ من أجل أن يقرِّب لهم معاني هذا القرآن وما فيه من الآيات البيِّنات، فتنفذ إلى عقولهم ومداركهم، وتستقر في قلوبهم ونفوسهم، فيهتدوا بنور الله الحق.

«والله بكل شيء عليم».. عليم بالإنسان، وبطاقاته على الإدراك والاستيعاب؛ وعليم بما يُنزِّل إليه فيقرِّب الحقائق إلى ذهنه حتى يكون قادراً على التمييز بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وعليم بأهل الإيمان الذين يعبدون الله الذي هو نورُ السماوات والأرض، وهو العليم بأهل الكفر الذين يعبدون آلهة مزورة لا تعدو عبادتها أن تكون بمثابة الظلام للنفوس، والعتمة للقلوب، وبسبب هذا الظلام العقليّ والقلبيّ ابتعد الكفار والمشركون عن نور الله تعالى، فلم يعبدوه بما يستحقُّ من العبادة والتقديس...

إذاً فهذا القرآن يبين لنا، بالمثل المحسوس، أنَّ الكون كله نور على نور. وأنَّ هذا النور يسري في كل شيءٍ حتى يهب له الوجودَ أو الحياة. وهذا ما يجعل المثل في القرآن سبيلاً لتبيان ما للإيمان من أثر فعّال في قلب المؤمن، باعتبار أنَّ المثل القرآني مستوحًى من نور الله

تعالى الذي يهدي لنوره من يشاء.. ومن أحق بهذا الهدى من النبيّ الأعظم ﷺ الذي أدرك حقيقة نور الإيمان بالله تعالى، ففاض به قلبه وهو عائد من الطائف، حيث خذله أهلُها، فنظر إلى السماء عائذاً بنور وجْه ربِّه الكريم، في هذا الدعاء النبويّ الشريف: **«أعوذُ بنورِ وجهِكَ الذي أشْرَقَتْ له الظلماتُ، وصَلُحَ عليه أمرُ الدنيا والآخرة»**[1].

وهو نفسه هذا النور الذي فاض به قلبه المؤمن في رحلة الإسراء والمعراج، فحينما سألته السيدة عائشة: «هل رأيتَ ربَّكَ؟ قال ﷺ: **«أنّى أراه، نورٌ على نور؟»**.

رابعاً ـ مردُّ القوى للَّهِ جميعاً

١ ـ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾[2].

كثيراً ما تعتري الإنسانَ حالاتٌ من القوة والضعف، فتراه، أحياناً، يمتلك من مشاعر القوة ما يجعله يظنُّ أنْ لا شيء يُدانيه، وأحياناً أخرى، قد تجده واهناً، وتتملكه من مشاعر الضعف ما يجعله يشعر بأنه لا يقدر على شيء مما حوله.. وهذه الحالات نابعة من تكوينه وطبيعته ككائن من عظامٍ ولحمٍ ودمٍ وعصب، وكتلةٍ من العواطف والمشاعر والميول والأهواء، التي لا يعلم حقيقة وكيفية تفاعلها في دخيلته إلا خالقه وحده.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢، ص٦٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

وعلى الرغم من ذلك فإن الناظر في التاريخ البشريّ يعجب، حقيقةً، مما ظهر من هذا المخلوق «القوي ـ الضعيف» من حنكة فاعلة، استطاع بها أنْ يتكيَّف مع عوامل الطبيعة، وأنْ ينتصر على وحوشها الكاسرة، وحشراتها القاتلة، لينتصب سيداً عملاقاً في دنياه، وعماده دائماً ادّعاء القوة، يتخذها حجة على نزعته في الامتلاك، والسيطرة، والتحكم في الأشياء كلما وجد إلى ذلك من سبيل.

هذا من حيث الواقع، الذي طغى فيه على الإنسان حُبُّهُ لامتلاك القوة، التي استطاع، عبر القرون، إثباتها بمظاهر شتى، كان من أهمها: التقدم العلميّ، وامتلاك المال..

وغنيٌّ عن البيان ما حققت الاكتشافات العلمية في الفضاء، أو على سطح الأرض أو في أعماق البحار من تقدم ومعرفة، وما ظهر للمال من سلطان وتأثير على النفوس.. ولن ندخل في تفصيلات مظاهر هذين العنصرين: العلم والمال، لأنها معروفة، ولكن نشير إليها لما تقود إليه من استنتاج وهو: أن القوة كانت دائماً في جانب، والضعف في جانب آخر على ساحة الحياة البشرية بأسرها.. إن على مستوى الأفراد، أو على مستوى الدول والمجتمعات. ومن جراء القوة، في ذلك الجانب، كانت الدول العظمى والدول الغنية والمتقدمة، في مقابل الدول الضعيفة والدول النامية والفقيرة، في الجانب الآخر، التي تلتمس العون والحماية من «أخواتها» الكبرى، بل وكان الأقوياء والضعفاء، وما يزالون يعيشون إلى جانب بعضهم بعضاً في البلد الواحد، والمجتمع الواحد..

ولعل منطق هذا التوزيع لمظاهر القوى، ولاسيما في عالم

اليوم، إنما يمكن ردُّه إلى ما يُسمى «شريعة الغاب» أي الشريعة التي قادت إليها غريزة البقاء عند الحيوانات لتأمين عيشها، والحفاظ على حياتها.

ولكن إذا كان لشريعة الغاب عند الحيوان ما يبررها، في فهمنا البشري، فما حاجة الإنسان لأنْ يستنَّ لنفسه مناهج تقوم على التمييز بين الناس على أساس العرق أو اللون أو الجنس، أو أنْ ينظر إليهم وفقاً لمقاييس الثروة أو الجاه أو السلطة؟! بل وما حاجة الإنسان لأنْ يستعمل قواه المادية والمعنوية، وعلى هذا النحو الذي نراه من الحدة، لكي يقتل أو يظلم أو يستغلَّ غيره، وكل ذلك من أجل مآرب دنيوية ليس إلَّا.. إذ لو أنَّ كل إنسانٍ قد عقل فعلاً، لوجد أنَّ كل شيء من حوله زائل، بل ولاستدرك أنه هو نفسه إلى زوال عن هذه الدنيا، وليس معه شيء إلا رصيدُهُ من الإيمان والعمل الصالح!..

أما نحن فنؤمن، ومن منطلق مفاهيم إسلامنا القويم، أن خالقنا العظيم، وربنا الكريم هو الذي رفع الناس بعضهم فوق بعض درجات: بالصحة والجمال، والمال والجاه، والقوة والضعف... وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾(1)، ولكنَّ ابتلاءَنا ما كان إلاَّ لأنَّ ربّنا العزيز الحكيم إنما شاءَ أنْ نكون على مستوى ما أمدَّنا به، وأعطانا من إنعامه وفضله، بحيث نقيم لكل نعمة وزنَها واعتبارَها، فلا نستخدمها في المعصية،

(1) سورة الأنعام، الآية: ١٦٥.

ثم لا نظلم، أو نستكبر، أو نستعلي بتلك النعمة على غيرنا.. فكل ما نملك من صحة وقوةٍ، أو من مالٍ وجاهٍ إنما هو من فضل الله تعالى لكي نوفّي حقه علينا بالطاعة فيما آتانا، وحق أنفسنا بما يقوّمها ويزكيها، وحق العباد بما نقيم معهم من العلاقات المجتمعية والإنسانية السليمة..

وهذا الابتلاء، بأنْ جعل الله تعالى بعضنا فوق بعض درجات، هو الاختبار الحقيقي، والشاهد الحقّ، ليقيم الحجة على عباده بأنفسهم على أنفسهم، إذ يظهر فيهم، وعلى رؤوس الأشهاد، من لا يقبل أنْ تمتلىء الدنيا بالجياع والمرضى والفقراء والأميين، بينما غيرهم يعيش على التخمة واللذة والفساد والفجور.. ويظهر فيهم أيضاً، وعلانيةً، من سعى، وعمل، وسخّر، لإقامة الأنظمة السياسية والاقتصادية والمالية والاجتماعية الجائرة، التي لم تراعِ قيمة الإنسان في ذاته، ولم تحفظ كرامته وحقه في وجوده!.. فهذه الأنظمة بجورها في المبدأ، والغاية والتطبيق، هي التي أوقعت الناس جميعاً، حتى صانعيها وأسيادها، في المشاكل والمصاعب، وفي الهموم والأمراض النفسية، فلم يسلموا من أذاها الذي طالهم مثل غيرهم - وربما أكثر من غيرهم - في حقيقة الأمر والواقع..

ومن هنا كان اليقين، وفقاً لنظرة الإسلام الشاملة إلى الحياة البشرية، بأنَّ الإنسان هو الذي أوقع نفسه في المأزق، لأنه بَعُدَ عن الإيمان الصادق، فنسي أو تجاهل الحقيقة المطلقة التي تحكم الوجود بأسره، وهي أن القوة لله جميعاً. فهو - سبحانه - الذي خلق القوى، وهو الذي يملكها، ويسخرها كما يشاء، وكيفما يشاء، وما قوة هؤلاء

الذين نحسبهم أقوياء إلا منه جلَّ وعلا، ولو شاء لبدَّل قوتهم بالضعف، وعزتهم بالذل، بل لو شاء لأهلكهم وخلق بدلاً منهم في هذه المعمورة.. وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾[1].

ولذلك فإنَّ الإنسان الذي يدّعي امتلاك القوّة، عليه أن يتروّى، ويعيد تفكيره وحساباته فيجد أنه لم يتملك من القوّة إلاَّ مقداراً محدوداً قضى له ربه تعالى أنْ يظهر به.. أما لماذا؟ وكيف؟ فهذا ليس من شأن الإنسان، لأنه يتعلق بحكمة الله السنية، التي لا مجال للنقاش فيها.. أما القوة، في الحقيقة، ومهما كان نوعها ومقدارها، فهي لله القوي المتين، والقادر المقتدر..

وإنَّ إغفال الإنسان لهذه الحقيقة المطلقة ـ أو ربما جهله بها في أزمان معينة ـ هو الذي قاده إلى أنْ يتخذ أولياءَ يعبدهم من دون الله، ويستمد منهم القوة، والنفع والضرر.. وقد تمثل هؤلاء الأولياء لدى الناس بتصورات مختلفة عن قوى الطبيعة، أو الكواكب، أو الأصنام أو غيرها.. ولكنَّ أعتى تلك التصورات، وأشدّها شراً على الإنسان، كان الإنسان نفسه، وهو يعتقد أنه يملك قوىً ذاتيةً، وطاقات فاعلة تجعله قادراً على أنْ يفكر، ويعمل ويقول ما يحب ويشاء، وأنه يستطيع أنْ يسيّر هذه القوى الذاتية، وأنْ يتحكم بها وفق هواه حتى ظنَّ بعض البشر أنهم آلهة! ونحن نحيل مثل هذا الإنسان، الذي جعل قواه الذاتية هي وليّه الذي يتعبّد إليه، إلى حالةٍ من الوهن أو الضعف أو المرض الذي قد يصيبه، ليقرر على ضوء تلك الحالة إن كانت قواه

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ٢٨.

تملك أنْ تساعده، أو أنْ تخلصه مما هو فيه، إلا أن يشاء له ربه ذلك!

يقول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ * لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾(١)، فلا يستطيعون نصرهم في الدنيا، حيث يتوهمون بأنهم جندٌ لهم يستقوون بهم على غيرهم، ولا يستطيعون نصرهم في الآخرة، بدفع العذاب عنهم، لأنهم محضرون معهم في النار..

أما ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(٢).. فيقود إليه الدليل العقليّ، والبرهان الحسيّ. ذلك أن بيت العنكبوت عبارة عن نسيج من خيوط دقيقة، شفافة وواهية لا يكاد اللمس يقاربها، أو الريح تهب عليها إلاّ وتتقطع وتتبدد، فلا تحمي العنكبوت ولا ترد عنها غائلة العوارض.. ومثل «المتانة» التي يتمتع بها بيت العنكبوت، هو ما ينطبق على القوة التي يستمدها الناسُ من الناس، أو من القوى الأخرى التي يتوهمونها في الآلهة المدعاة، أو في قوى الطبيعة.. ولذلك يجعلونها عوناً لهم لتمدَّهم بأسباب القوة. ولكن لو كان الذين يتخذون أولياء من دون الله، يعلمون أن القوة التي يستمدونها منهم هي عرضة للزوال في كل حين، وذلك عندما يأتيها أمر الله القوي المتين.. أجل لو كانوا يعلمون ذلك لما طلبوا العون إلّا من الله، ولما استنصروا إلّا بالله، ولما لجأوا إلّا إليه سبحانه وتعالى، ومن ثمَّ فما عبدوا إلاّ الله الذي هو ولي الأمر والتدبير.. والله يعلم أنَّ ما يعبدون من دونه من معبودات زائفة لا تملك شيئاً من قوة، ولا

---

(١) سورة يس، الآيتان: ٧٤ و٧٥.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤١.

تقدر على شيء من سدِّ حاجة؛ ولكنه ـ جلّت عظمته ـ وهو العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه، لو شاء لبدَّدهم ومعبوداتهم وأولياءهم جميعاً، إلّا أنه يؤخرهم إلى أجل مسمّى ليكون مصيرهم مرهوناً بالشرك الذي كانوا عليه، وبما اتخذوا من دونه أنداداً له ـ جلَّ شأنه ـ يحبونهم، كحب الله، إنْ كانوا يؤمنون بحقيقة وجود الله، أمّا إنْ كانوا من الكافرين بالله، فالويل لهم من عذاب الجحيم! . .

وهكذا يتبين أن الله تعالى قد ضربَ للناس المثل ببيت العنكبوت، ليكون دليلاً حسياً لهم على الضعف والهوان لسائر القوى التي يلجأون إليها، وبالتصوير الصادق لكي يعتبر الناس بالمثل، فلا يلتجئون إلى قوة ولا يطلبون حماية إلّا من الله، لأن سائر القوى تبقى هزيلة، وضعيفة، وبلا أدنى فائدة إن لم يشأ الله تعالى أنْ يمدها بالأسباب التي تجعلها قوىً ظاهرة.

وهذه الحقيقة التي تردّ القوى لله جميعاً، جديرة بأنْ يعلمها الإنسان ويعمل بهديها، وإلّا ظلت البشرية تتخبط بمشاكلها ومآسيها، وسوف تزداد أحوالها سوءاً، كلما بعدت عن سنن الله، حتى تصل في النهاية إلى ما ينذر الناس بالعذاب، دونما فرق بين من يدَّعون القوة، أو من يسيطر عليهم الضعف.

والحقيقة الأخرى، التي يؤكدها القرآن الكريم، هي أن اللجوء إلى قوىً بشرية أو غير بشرية، وطلب العون والحاجات من الذين يتخذونهم أولياءَ من دون الله، أو أسيادَ منقادين لهم، إنما مردُّه إلى جهل الإنسان بالله القوي المتين، وامتلاكه وحده تعالى للقوى جميعاً. وهذا الجهل هو ما يدلُّ عليه قوله المبين:

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(١)

وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَالسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٢).

٢ ـ المعجزات براهين على أنَّ القوة لله جميعاً.

المعجزات هي ما يُعجز الإنسان، ويستحيل عليه أنْ يأتي بمثله، لذلك كانت من البراهين الدَّالة على قدرة الله تعالى في صنعه، لأنه هو الله، وهو على كل شيء قدير.. وقد جاءت المعجزات التي يذكرها القرآن الكريم، لتؤكد هذه الحقيقة، وتدلل في الوقت نفسه على ضعف الإنسان، وقلة حيلته أمام ما يريده الله القويُّ الجبار، فلا يقدر الإنسان مثلاً على أنْ يجعل الطيور تفتك بجيش جرار؛ أو لا يقدر الإنسان على أنْ يفلق البحر ويجعلَ أمواجه كالجبال العالية ثابتة في مواضعها، ثم يعيدها إلى ما هي عليه أمواجاً منسابة أو متلاطمة.. فهذه خوارق أرادها الله تعالى أنْ تكون بأمره. والإنسان يصفها بالمعجزات، لأنها مُعجِزةٌ له حقاً، ولا يقدر على الإتيان بمثلها أبداً. فكانت من الشواهد على ضعف الإنسان، وعلى أنَّ القوة لله جميعاً.

وتبرز حقيقة مثل تلك المعجزات بالآيات القرآنية المبينة التالية:

أ ـ جعل الله أصحاب الفيل كعصفٍ مأكولٍ

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ

---

(١) الحج، الآية: ٧٤.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٧.

﴿كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[١].

فنحن نرى في هذه الآيات الكريمة توجيهاً من الله تعالى لنبيِّه الكريم محمد ﷺ، وتنبيهاً له على عظمة المعجزة التي حققها يوم جاء أبرهة الحبشيّ بجيشه لهدم الكعبة الشريفة، وكان معهم فِيَلَةُ اليمن، فأبتِ تلك الفِيَلَةُ وفي مقدمها كبيرها ورائدها، التقدمَ باتجاه الكعبة عندما صاروا على مشارفها، مما أوقع أبرهة في ورطة شديدة. ولكنَّ الأعجوبة التي حدثت لم تكن فقط بامتناع ذلك الحيوان الأعجم عن التوجه صوب بيت الله الحرام، وإنما كانت فيما حلَّ بأبرهة ومعه جيشه بأسره، عندما جاءَهُم أمر الله سبحانه، ليبطل كيدهم ويذهب بمكرهم، إذ بعثَ فوقهم أفواجاً من الطير، تتتابع فوجاً بعد فوج، كأنَّما ينطبق عليها وصف أمرئ القيس لكتائب جيش مدجَّج بالسلاح حيث يقول:

تراهمْ إلى الداعي سِراعاً كأنَّهم   أبابيل طيرٍ تحت داجنٍ مُدْجنِ

أما لماذا بعثَ الله تعالى تلك الأفواج من الطير، فلكي تذيق أبرهة وجيشه الموت الزؤام، إذْ كانت تحمل حجارة من سجيل (أي من الطِّين المجفَّف الذي صار كالزجاج المخروط) ترميهم بها، فيدخل الحجرُ في رأس الرجل ويخرج من جسمه فيقع قتيلاً في الحال، حتى صاروا جميعاً مثل الزرع الذي جُزَّ وأُكِلَ، أو كمثل العصف (التبن) الذي أكلته الدواب ثم راثته، وديست من بَعدُ أجزاؤه فتفرَّقت. وأما العبرة فهي ما حلَّ بأولئك الظالمين من الهلاك، إذ لم

---

(١) سورة الفيل، الآيات: ١ ـ ٥.

يكن الحجر ليصيب جسمَ أي فرد منهم إلا ويعرّضه للاهتراء من فوره، وتساقط اللحم عن عظامه حتى يُقضى عليه ويهلك. فكانت هي المعجزة التي أرسلها الله تعالى على أبرهة وجنوده ليهزمهم ويعذّبهم، لمَّا أرادوا هدم بيته الحرام ـ الكعبة الشريفة ـ في مكة. .

ب ـ انفلاق البحر بضربةٍ من عصا موسى، «فكان كل فرقٍ كالطود العظيم»

وهذه معجزة أخرى قد تكون أشدَّ عظمة وعبرة من معجزة الفيل، يسوقها القرآن الكريم من جملة المعجزات التي حفظها عبر الزمان للتدليل على قدرة الله تعالى، وامتلاكه وحده القوة. وهي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ * قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ * فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ * وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ * وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ * ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾(١).

فمتى، وكيف حصلت تلك المعجزة؟

لقد دأب فرعون مصر ـ وقيل إنه كان «رمسيس الثاني» وقيل إنه كان الفرعون «منفتاح» على ظلم بني إسرائيل، الذين ظلوا على عهد الإيمان منذ أيام النبي يوسف عليه السلام. . . وقد تمثل ظلم فرعون باضطهادهم واستعبادهم، حتى وصل به الحال إلى أنْ يستحيي النساء، ويقتل الرجال، والأطفال، من غير أن يُبقي على أحدٍ منهم، إلَّا على الذين يستعملهم هو والملأُ من قومه، سخرةً، للقيام على خدمتهم، وتنفيذ أشغالهم. .

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٦١ ـ ٦٧.

وإزاء ذلك الظلم العظيم نزل الوحي على النبي موسى عليه السلام أنْ يسري ببني قومه ليلاً، بما يمكّنهم من الهرب، والخلاص مما يحيق بهم في تلك الديار الجائرة!.. وبالفعل فقد خرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل، كما أمره ربّه تعالى؛ إلاَّ أنَّ فرعون سرعان ما اندفع وراءهم، وهو يقود جيشه الكبير، حتى تراءى الجمعان على مشارف البحر الأحمر، فقال أصحاب موسى ـ والخوف يكاد يقتلهم ـ: ماذا نفعل الآن وقد أدركنا فرعون وجنوده؟ وإلى أين نفرُّ منهم؟ وها هُم وراءنا، وليس أمامنا إلا البحر؟

قال موسى عليه السلام: كلاَّ، يا بني إسرائيل! لن يدركونا، ولن يبطشوا بنا كما تتوهمون، فالله ربّي معي، وسيكفيني شرَّهم، ويرشدني إلى طريق النجاة، فلا تخافوا ولا تحزنوا..

وسرعان ما نزل الوحيُ على النبي موسى عليه السلام: «أنِ اضْرب بعصاك البحر».. وكانت المعجزة الكبرى، إذ ما أنْ ضرب نبيُّ الله البحر بعصاه، حتى انفلق ـ أي انشقَّ ـ وظهر فيه اثنا عشر طريقاً يبساً، انتصبت الأمواج على جوانبها، وكل موجة تشكل قطعةً لوحدها، كالجبل العظيم في السماكة والارتفاع، وقد أمسكها الله تعالى على تلك الحالة حتى سلك بنو إسرائيل بينها، وانتقلوا بيسرٍ إلى الضفة الأخرى، ونجَوْا من بطش فرعون وجنوده..

ونتوقف قليلاً عند هذا المشهد قبل متابعة القصة ـ المعجزة:

فها هُمُ بنو إسرائيل أمام البحر، وليس معهم سفن ولا مراكب، وبدونها لا يستطيعون خوضه.. ولا هم بمسلَّحين حتى يدافعوا عن أنفسهم.. وفي المقابل، ها هُمُ فرعون وجنوده قد قاربوهم، يشهرون

السلاح وهم يطلبونهم، ولا يرحمون.. فكل الدلائل تشير أنْ لا مفرَّ من هلاك بني إسرائيل، والبحرُ أمامهم والعدو وراءهم..

وبلغَ الكربُ ببني إسرائيل مداه: فمن خوفٍ واحتقان، إلى لوعةٍ ومأساة! وربما كانت تتمُّ كلُّها في دقائق، ثم يهجم عليهم الموتُ الذي لا مناص منه!..

وها هو نبيُّ الله موسى، لا يشكُّ لحظةً بأنَّ ربَّهُ على كل شيء قدير، وهو تعالى الذي أوحى إليه أن يخرج ببني قومه من مصر فلماذا لا يكون ملء قلبه الثقة برحمته، واليقين بعونه، والنجاة كائنة لا محالة، وما عليه إلا التريث، والصبر لما يوحي إليه ربّه تعالى.. فبادر يطمئن بني قومه، على الرغم من حراجة تلك اللحظات العصيبة، قائلاً: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾..

قالها عليه السلام بشدّةٍ وتوكيدٍ. «كلَّا»، لن نكون مُدْرَكِين. «كلَّا»، لن نكون هالكين. وبهذا الجزم، والتأكيد واليقين ينشق الشعاع المنير في ليل اليأس والكرب، وينفتح طريق النجاة من حيث لا يحتسبون.. إذ نزل أمرُه تعالى: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَ﴾.

ولا يتمهل السياق القرآنيّ ليقول إن موسى عليه السلام قد ضرب بعصاه البحر، فهذا مفهوم.. وإنما يعجل ليأتينا بنبأ المعجزة غير المتوقعة: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

ووقعت المعجزة، وتحقق الذي يقول عنه الناس إنه مستحيل.. لأنهم يقيسون سنَّة الله تعالى على المألوف من قدراتهم ومقاييسهم.. والله الذي خلق السنن، هو القادر على أنْ يجريَها وفق ما يشاء، لأنَّ كل ما في الوجود خاضع لأمره، ولمشيئته المطلقة، وقد أمر سبحانه وتعالى

مياه البحر أنْ تنتصب على شكل الجبال العظيمة، فامتثلت لتكون بينها طرق النجاة، فيتمكن بنو إسرائيل من العبور وسط البحر إلى الشاطئ الآخر على حافة صحراء سيناء، ويفوزوا بالخلاص والسلامة..

ووقف فرعون وجنوده مبغوتين، مشدوهين بالمنظر الخارق، والحدث العجيب.. ولكنَّ فرعون سرعان ما أعادَهُ ظلمُهُ إلى طغيانه، فأصدر الأوامر لجيشه بأن يسلكوا مسالك بني إسرائيل، ويعجّلوا في القضاء عليهم.. ولم يَدْرُ في خلده أنَّ ما يحدث أمامَهُ لا بدَّ أنْ يثير فيه التفكير والتروي، لأنه شيء غير مألوف، بل وهو خارق للعادة.. ولكنه لم يفعل، بل أصرَّ على جنوده بالنزول في تلك الفجوات البحرية التي ظهرت فجأة، واللحاق ببني إسرائيل.. حتى إذا صاروا جميعهم داخل تلك الفجوات، جاءَ أمرُ الله تعالى فأطبق عليهم البحر بمياهه، وأغرقهم..

وهذا الذي حصل في ذلك اليوم من أيام النبوة التي يمثلها موسى عليه السلام، وأيام الكفر الذي يمثله فرعون مصر، وذلك منذ حوالي ثلاثة آلاف عام، على ما يرجّح بعض المؤرخين، من أنَّ خروج بني اسرائيل من مصر على عهد نبيهم موسى، قد حدث في مطلع القرن الثالث عشر قبل الميلاد، حدود سنة ١٢٣٠ ق.م. على عهد الفرعون منفتاح[١].

ومضتْ هذه الآية على الزمان تتحدث عنها القرون، فهل آمَنَ بها المستكبرون؟

إنها لآية معجزة حقّاً، وبرهان ساطع فعلاً على عظمة الله الذي

---

(١) الشيخ علي كوراني العاملي، عصر الظهور، ط٧، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م، ص ٥٦.

أمَرَ البحر فانفلق ليَعبره عبادُه وينجوا من القتل، ثم أعادَه إلى حالته الأولى حين عَبَرهُ أعداؤه، ليُغرقَ أولئك القوم الظالمين. ومع ذلك لم يؤمن أكثرُ بني إسرائيل، على الرغم من أنهم عاشوا تلك المعجزة الخارقة بالواقع والشعور .. لم يؤمن أكثرهم، لأنهم سارعوا إلى عبادة العجل، من بعد تلك المعجزة .. وهذا ما يوحي بأنهم أهل عناد وضلال؛ ومثلهم كلُّ مستكبر، معاند، ضالّ..

فهذه أحداث غابرة يسوقها القرآن الكريم شواهِدَ على أنَّ الله ـ جلّت قدرته ـ على كل شيء قدير، وأنه وحده القوي، ووحده الذي يملك القوى جميعاً.. فإذا لم يؤمن كثير من الناس بتلك الشواهِدِ فإنَّ هنالك شواهدَ أخرى ليست أقل دلالةً وإظهاراً للحقيقة.. فاستمعْ إلى دليلٍ آخر من أدلة القرآن، وهو تحويل الجامد إلى كائن حيٍّ، كما في عصا موسى عليه السلام.

ج ـ معجزة تحويل العصا الجامدة إلى حية تهتزُّ كأنها جانٌ.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾[1].

ولو أمعنّا النظر في آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن النبيّ موسى عليه السلام، لوجدنا أنَّ قصته تتكرر في أكثرَ من سورة، تقريراً للحجة على أهل الكتاب، واستمالةً لهم نحو الحق الذي يدعوهم إليه محمد صلى الله عليه وسلم.. على أنَّ كل موضع من مواضع التكرار لا يخلو من زيادةٍ في الفائدة علماً وبياناً، حتى يبقى للقصة أثرها القويّ في النفس، فلا يضيع هذا الأثر مع الإعادة والتكرار.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٣١.

ومن العود إلى بعث النبيّ موسى عليه السلام، فإنَّ آيات القرآن تهدينا إلى أنه كان عائداً بأهله من مدينَ إلى مصر، عندما أتاه التكليف من ربِّه. ويبدو أنَّ عودتَهُ تلك كانت عن طريق صحراء سيناء، وقد أظلم الليلُ واشتدَّ البردُ، فرأى ناراً على جانب الطور، ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ * إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ * إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾[1].

وأُخِذَ موسى وهو يستمع إلى هذا النداء العلويِّ. وكانت بيده عصاه التي يستعين بها على بعض حاجاته، فأرادَ ربّه ـ سبحانه وتعالى ـ أنْ يبيِّن له أول برهانٍ على بعثه، فسأله تبارك وتعالى بقوله الكريم: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[2].

فأجاب: ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾[3].

فأمره ربّهُ تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾[4].

وأطاع موسى عليه السلام الأمر الجلل، وألقى عصاه، فإذا بها تتحول إلى أفعى حيَّةٍ تتحرّك وتهتزّ بسرعة عجيبة، كأنها جانّ، فاستولى عليه الخوف، وولّى هارباً لا يدري ماذا يفعل، كما يهدي إليه قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾[5]، إذ أخذته

---

(١) سورة طه، الآية: ١٠ ـ ١٤.
(٢) سورة طه، الآية: ١٧.
(٣) سورة طه، الآية: ١٨.
(٤) سورة طه، الآية: ١٩.
(٥) سورة القصص، الآية: ٣١.

الدهشة أمام تلك المفاجأة التي روَّعته، وخاصةً في ذلك الجو الذي تحيط به الرهبة، والقدسية من كل جانبٍ، وهما ـ بذاتهما ـ كافيتان لإثارة الخوف في النفس، فكيف إذا اجتمع إليهما عنصر رعبٍ مفاجئ؟! فكان محكوماً أنْ يولّي موسى عليه السلام الأدبار فراراً، دونْ أنْ يعقب بأية كلمةٍ، لولا أنَّ قول ربّه تعالى قد أعاد إلى قلبه الإطمئنان، وإلى نفسه الأمانَ، وهو يناديه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ﴾[1]؛ وعادَ موسى عليه السلام فقال له ربُهُ تعالى: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾[2]..

وكلمح بالبصر عادت تلك الأفعى إلى سابق عهدها، العصا الخشبية، كما عهدها، التي يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه، ويعلّق بها زادَهُ، ويحمي بها نفسه من الحيوان والزواحف... وبذلك الأمان والاطمئنان اللذين أعادهما الله تعالى إلى قلبه، تلقّى سيدنا موسى عليه السلام الوحيَ، بعد أنْ أصبح لديه البرهان الحسيّ على بعثه من ربّه رسولاً، ليبدأ المهمة التي ندبَهُ إليها إلى فرعون مصر..

تلك هي عصا موسى عليه السلام التي استحالت حية تسعى.. وهي المعجزة التي أرادها الله ـ جلَّت قدرته ـ برهاناً على أنه وحده الذي يملك تغيير الأشياء شكلاً وروحاً، وإحالتها أشياءً أخرى مختلفة تماماً في تكوينها وطبيعتها ووظيفتها، كما في هذه العصا التي أراد القادر المقتدر أنْ تكون آيةً تدعم موقف نبيّه، وتقوّي حجته في مواجهة أهل الطغيان الذين بُعثَ إليهم، في الدعوة إلى الإيمان والهدى.. فهل ثمّةَ

(١) سورة القصص، الآية: ٣١.

(٢) سورة طه، الآية: ٢١.

مجالٌ بعد لأي تأويلٍ للحقيقة المطلقة، وهي أنَّ الله تعالى على كل شيءٍ قدير؟ وأنَّ عصا موسى عليه السلام، وغيرها من البراهين المعجزة، التي أمدَّه بها ربُّهُ تعالى، ستكون الحجة على فرعون ﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[1].

٣ ـ السفن العائمة في البحار كالجبال آياتٌ على أنَّ القوة والعزّة للّه جميعاً

يقول الله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾[2].

ولا يملُّ الترداذُ بأنَّ كلَّ شيءٍ في الوجود يدلُّ على أنَّ الله تعالى هو القوي المتين، وأنَّ القوى في الكون، أو القوى التي يدَّعيها الناس مردها لله جميعاً، لأنه هو الذي يملك خلقها وأسبابَ وجودها.. ولكي ندرك هذه الحقيقة فقد ضرب لنا القرآنُ مثلاً بالسفن الكبيرة التي نصنعها بأيدينا، حتى لنحسبها وهي تجري في البحر، كالجبال الكبيرة العالية التي اقتلعت من أماكنها، لتعوم فوق سطحه.. ولكنَّ العبرة ليس في صنعها، وإعطائها كافة قوى الدفع اللازمة ـ وكله ممَّا علم الله الإنسانَ ما لم يعلم ـ إذْ مَنْ غيرُ الله بقادرٍ على أنْ يجعل للماء خواصه حتى يحمل تلك الأثقال الكبيرة؟ أو أنْ يجعل للسفن نفسها خواصها حتى تكون صالحة ـ مع شدة ثقلها، وكبر حجمها، وكثرة حمولتها ـ لتمخر عباب اليم؟! ومن غير الله بقادر على أنْ يجعل الرياح والأمواج تتلاءم مع جريانها، فلا تطغى عليها فتغرقها أو تدمرها؟! ألا إنه هو الله القويّ المتين، وإنه على كل شيء قدير.. وهو كما أودع في المياه، وفي السفن، خواصها الذاتية، فقد وهب للإنسان العقل، وهداه إلى

---

(١) سورة طه، الآية: ٤٤.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٢٤.

العلم، حتى يضع المعادلات والمقاربات، ويسنَّ النظم الصناعية التي بفضلها كانت هذه المنشآت من السفن، والطائرات، والجسور، والمباني، والمراصد والآلات إلخ . . .

ولنا أنْ نتصور بعد ذلك ما يدلّنا عليه هذا المثل في القرآن من قدرة للإنسان على الإنشاء والصنع والتسيير . . . فهذه الأساطيل من السفن الحربية أليست كل بارجة منها ـ وهي تحمل الطائرات، والصواريخ، والمدافع، والدبابات، وسائر الأعتدة العسكرية الأخرى، بالإضافة إلى مَن يركب فيها من الناس ـ كالجبل الشامخ؟ ومثلها هذه الأساطيل من السفن التجارية ـ وما تحمل من البضائع والأشخاص والأثقال ـ أليست كل واحدة منها كالطود العظيم؟! .

إنها شواهد حسيّة على ما تحمله البحار فوق سطح مياهها من القوى الظاهرة التي يظن الإنسان أنه يملكها، بينما، في الحقيقة، إنَّ مالكها جميعاً هو الله «الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير». وهذا ما يريد القرآن أن يعيده إلى أذهاننا، ويكرّسه في نفوسنا، فالله تعالى ـ وحده ـ مالك الملك في السماوات والأرض، وهو ـ وحده ـ خالق وموجد القوى والطاقات في الإنسان وفي الأشياء . . ونلاحظ أن التدليل على أن الله ربنا هو المالك حقاً لتلك السفن العملاقة، إنما يأتي باللفظ البسيط ـ في الآية ٢٤ من سورة الرحمٰن ـ بقوله تعالى: ﴿وَلَهُ﴾، أي وله وحده السفن الجواري في البحر كالاعلام، وله وحده كل ما تملكون، وما تنشئون ، وما تقيمون أيها الثقلان: الإنس والجان.

ثم يأتي التعقيب: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ

رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[1] . . فالأمر لا يستدعي الكذب ولا الإنكار. لأنَّ كل هذه الأشياء التي تحيط بكم، سواء أكانت من صنعكم، أم من غير صنعكم، فهي لا تعدو، في واقعها وحقيقتها، أنْ تكون آياتٍ وأدلةً، وشواهدَ على أنها وجدت بمشيئة الله، إذ أنتم لا تملكون أنْ تحيطوا بشيءٍ من علمه إلَّا بما شاء، فإنْ كانت دعواكم أنَّ كثيراً من الأشياء كان بالعلم والجهد الإنساني، فهنالك من الأشياء ما لا يُعدُّ ولا يحصى غير ما آتيتم أنتم، كما تشاهدون في هذه الخلائق جميعاً، وهي كلها آيات تشهد وتدلُّ على أنها من صنع الله تعالى، فبأي من تلك الأشياء التي خلقها ربكما - أيها الأنس والجان - تكذبان؟! وعلى الرغم من كثرة هذه المخلوقات، سواء التي أنشأها ربكما ابتداءً، أو أحدكم بشيءٍ من علمه حتى تنشئوا ما أنشأتم على هذه الأرض، فكلها فانٍ، بما فيها أنتم جميعاً، لقول الله الحق: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ فلايبقى شيء على هذه الأرض، لا السفن العملاقة كالجبال الرواسي، والتي لا تعدو كونها مثالاً لجميع المنشآت الصناعية والتجارية والزراعية والسكنية على اختلافها، فكلها - جميعاً - سوف يصيبها القدم، والانهيار والاندثار، مهما تكن عليه من المتانة والقوة. ومثل ذلك، الأشياء كلها، والقوى كلها، فإنها إلى فناء، لأن الأرض أصلاً التي تقلُّها هي إلى فناء، وكذلك أنتم أيها الإنسِ والجان فإنكم جميعاً إلى فناء. . ولذلك كان تعبير القرآن: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ تعبيراً بليغاً وشاملاً. وقد غلَّب العاقل في «من» لأن الإنسان محسوبٌ من هذا الفناء. بل وكان فناء الإنسان، من هذه الدنيا، أكبر نعمة عليه من خالقه، باعتبار

---

(١) سورة الرحمن، الآيات: ٢٥ ـ ٢٧.

أنَّ الموت يشكل التسوية الحقيقية بين الناس جميعاً، ففيه يتساوى الكبير والصغير، والغنيّ والفقير، والملك والمملوك.. وباعتبار أنَّ حياة الإنسان إذا استمرت في هذه الدنيا، فإن مصيره سوف يكون في الابتلاء والشقاء، أو المرض والوهن، بينما في الحياة الآخرة ـ وبعد الموت والفناء والنشور ـ قد يفوز الإنسان بالنعيم الأبديّ حيث يجد ما لا عين رأتْ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.. وهنا الحكمة البالغة التي تقودنا إليها النصوص القرآنية فلا يكون تعلق الإنسان بالحياة الدنيا جلَّ اهتمامه، بل وعليه أنْ يسعى للحياة الآخرة سعيها، حتى يفوز بذلك النعيم المقيم..

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

وبعد فناء الأرض ومن عليها، وبعد فناء السماوات ومن فيها، لا يبقى إلا الله الحيُّ القيوم، الذي تعزّز بالقدرة والبقاء، وقهر عباده بالموت والفناء..

وليس التعبير بـ«وجه ربك» إلا للتدليل على أنَّ ربَّ السماوات والأرض قد ظهرت حقيقة وجوده لنا من آياته في الخلق، ظهورَ الإنسانِ في وجهه. إذ تعالى الله عن التشبيه والتجسيد، فهو ذو الجلال، تجلُّه الخلائق وتنزِّهُهُ، لأنه هو الله الملك القدوس العزيز الحكيم. وهو ذو الجلال والإكرام، الكريم في عزّته وجلاله، الجواد في إنعامه على خلائقه، يسبح له ويحمده كل ما في الوجود، لأنه ربّ الوجود، ومالك الوجود، والباقي بعد فناء الوجود..

ويلفت ربنا تبارك وتعالى أنظارنا وبصائرنا في آية أخرى، إلى أهمية السفن في حياتنا، إذْ بعد أنْ ضربَ لنا مثلاً، على عظيم صنعها

وإحكام هذا الصنع تشبيهاً لها بالجبال الكبيرة العالية، وبعد أن بيّن لنا أهمية هذه المنشآت في تسخيرها للناس وهي تعوم على مياه البحر، كذلك يبيّن لنا القرآنُ الكريم أنَّ اهتداءنا إلى بنائها قد كان بفضل الله ورحمته، عندما هدى نبيه نوحاً إلى بناء أول سفينة على الأرض، وذلك بقوله تعالى:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ * وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ * إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾[1].

ولقد جاء هذا التأكيد على أهمية السفن، وعلى أنها آية من آيات الله التي تشهد على عظيم خلقه، في معرض تبيان خواص وحقائق بعض الأشياء التي وضع فيها من السنن والأنظمة ما يجعلها تسير بهذا الانتظام الذي هي عليه، فلا يتعدى شيء منها على شيء آخر، بل كل يسير باتجاهه المرسوم له كما قدَّر له الصانع القدير.. وكل ذلك مرتبط بحياتهم، وبتأثيره الهام على هذه الحياة، ولولا خلق هذه الأشياء على ما هي عليه، لما كان لهم مجالٌ للحياة والبقاء على الأرض..

وتلك الأشياء التي ينبّه إليها القرآن المجيد (في سورة يس)[2] والتي كل منها آية على أنَّ الله تعالى هو الخالق، وهو وحده القادر على مثل هذا الخلق. بإمكاننا أنْ نتبيّنها كما يلي:

---

(١) سورة يس، الآيات: ٤١ ـ ٤٤.

(٢) تراجع الآيات من ٣٣ إلى ٤٢ من سورة «يس» المباركة.

- آية الأرض التي يُنزل الله عليها المطرَ فيحييها بعد موتها، ويخرج منها الأرزاق التي منها يأكلون . .

- وآية خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض، ومن الناس أنفسهم، ومما لا يعلمون (مما خلق في السماوات والأرض) . .

- وآية الليل عندما يسلخ منه النهار فيحل الظلام . .

- وآية الشمس وهي تدور في فلكها، وتجري لمستقرٍ لها . .

- وآية القمر في تقدير سيره خلال الشهر الواحد . .

- وآية الإحكام والدقة في التسيير بحيث لا الشمس ينبغي لها أنْ تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يدورون، ويسبحون في هذا الفضاء الواسع.

- ومن ثَمّ آية الفلك المشحون التي حُمِلَ فيها المؤمنون، وقت الطوفان . .

. . ففي كل شيء آية تدلُّ على أنه الخالق. ودلالتها شرط على العاقل أنْ يتّبع هدى ربّه، وأنْ يؤمن بأنه القادر على الخلق، وأنه القادر على تسيير الفلك في البحار، مثلما يسيّر الكواكب في الكون، فهذه تسبح في جريانها إلى مستقر لها لا يعلمه إلا هو (جلَّ وعلا)، وتلك تسبح فوق الماء بأحمالها وأثقالها لتبلغ البلد الذي تقصده بأمره تعالى . .

وقد جعل ربنا هذا المثل في هذا المقام، ليذَّكَّرَ أولو الألباب الطوفانَ الذي حلَّ في الأرض، فيكون في التذكّر عظةٌ للرجوع عن الغفلة إلى الإيمان والطاعة والعبادة . . ذلك أنَّ الطوفان كان بعضاً من غضب الله، وسفينة نوح عليه السلام بعضاً من رحمته بعباده، إذ بعد أنْ ملأ

الكفرُ الأرضَ، وأبى قوم نوح تصديقه بما يدعوهم إليه، أوحى له ربُّهُ أنْ يصنع سفينةً، فاتخذوا عمله هذا سخريةً واستهزاءً.

وحان الموعد، فحمل نوح عليه السلام في السفينة بعضاً من بني قومه، أولئك الذين آمنوا به وصدقوه، كما ملأها بالأزواج من الحيوان والطير والزواحف، حتى تتوالد هذه المخلوقات وتكثر، فتكون مصدراً للرزق لمن نجوا من غضب الله، وحفظاً لأنواعها من الزوال، حتى تعود الحياة على الأرض بكامل رونقها. ثم حلَّ الطوفان الذي غطَّى الأرض كلها بالماء، وغسل سطحها من أدران الكفر والشرك، فأغرق الكافرين والمستكبرين ومحا وجودهم من هذه الحياة الدنيا. بينما نجا المؤمنون الذين ملأت ذرياتهم الأرض من بعد الطوفان..

..فآيةٌ للناس، وعبرةٌ وعظةٌ في التاريخ البشريّ، كان ذلك الفلك المشحون. ومن أبرز دلالاته أنْ جعله المولى القدير تذكرةً لأهل العلم حتى يطرقوا بابَ صناعة السفن، فتكون لهم هذه السفن العامرة التي تمخر عباب اليم، وهذه الأساطيل العملاقة التي تجوب المحيطات، وهي تحمل منافع للناس، تماماً مثل ذلك الفلك الذي ملأه نوح عليه السلام بالناس، وشحنه بالمؤن والمعدات، وبالطير والحيوان.. ثم ألا يوحي لنا التعبير القرآنيّ ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾، بأن الخالق العظيم هو الذي أمدَّ العقل البشريّ بالطاقات التي أهَّلته لاكتشاف العلوم التي أدت إلى صناعة السفن، والطائرات، والقطارات، والغواصات، والسيارات وغيرها من وسائل النقل التي يركبها اليوم الإنسان، مثلما ركب نوح، والمؤمنون معه، تلك السفينة التي صنعها قبل الطوفان؟

على أنَّ هذه السفن التي تسير على سطح الماء وفقاً للسنن التي

قدَّرها الخالق لتسييرها، تبقى خاضعة لأمره تبارك وتعالى، إذ لو يشاء لأغرقها بموجٍ عاتٍ، أو عاصفةٍ هوجاء، أو بأي سبب آخر هي ومن عليها، فيغرقون في الأعماق لا يسمع لهم صريخ ولا بكاء، ولا يقدر أحد على إغاثتهم، بعد أنْ يبتلعهم الماء في جوفه، أو أنْ يمدَّ لهم يد العون إلا أنْ يشاء ربّهم تعالى ذلك، فيبعث من وسط البحر ـ أو من وسط المحيط الواسع ـ سفناً لتنقذ تلك التي شارفت على الغرق، وهو ما يحصل في أغلب الأوقات، فتكون هذه النجاةُ رحمةً من الله تعالى وعبرةً لمن يعتبر. . فلا مهارة ولا قدرة من العباد للإنقاذ إلا أنْ يشاء ربّ العالمين. وهذه الرحمة منه ـ عزَّ وجلَّ ـ تجعل الذين شارفوا على الموت، يحيون إلى أجلهم المقدَّر، فيتمتعون في هذه الحياة الدنيا ونعيمها طوال المدة الباقية من حياتهم، بدلاً من أن يلفهم الموت، ويأخذهم العدم بالغرق، وذلك كله مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ * إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾[1] فسبحان الله الذي جعل لنا الآيات كلها لنهتدي إلى الحق المبين، فندرك ما أحاطنا به ربّنا الكريم من النعم ـ ومنها هذه الفلك المشحونة ـ وما تفضل علينا به من تسهيل سبل حياتنا، وما سخَّر لنا في السماوات والأرض، فنعبده حق العبادة، ونحمده ونشكره على ما هدانا، وما رحمنا. .

خامساً ـ لا يكفي ماءُ البحار حبراً لكتابة علم الله الواسع ولو جئنا بمثله مدداً

يقول الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ

(١) سورة يس، الآيتان: ٤٣ و٤٤.

ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[1].

قد نقترب من فهم ما يعني هذا النص الكريم، إذا تصورنا مقدار أحجام المياه التي تحويها البحار ـ كبيرها وصغيرها ـ فإذا مثّلنا كل تلك المياه بالحبر الذي يُكتب به، واستعملناها لكتابة علم الله، فإنَّها لا تكفي، وحتى لو جئنا بمثلها ومقدارها من الحبر. وما ذلك إلّا لأنَّ علم الله غير محدود، وتقصر العقول عن إدراكه، لأنه العلم الذي وسع كلَّ شيءٍ في السماوات والأرض!.. وواضح أنَّ هذه النصوص تحمل خطاباً من الله تعالى لنبيّه محمد ﷺ إبّان معركة الجدل والحجاج التي كان الكفار والمشركون يفتعلونها للوقوف في وجه النبيّ ﷺ، كما تشير إلى ذلك أسباب التنزيل، وخاصة عند إعلان الدعوة، وعرض الإسلام على الناس في مكة وما حولها. ولذلك نجد في سورة الكهف ـ وهي مكية ـ التي ختمت بهاتين الآيتين (١٠٩ و١١٠ من سورة الكهف)، كثيراً من الأدلة والبراهين التي تدحض كل الافتراءات والدعاوى التي كانوا يكذّبون بها النبيّ ﷺ، والتي كانوا لا يريدون من ورائها إلا إظهاره في مظهر العجز، ولا سيما عجزه عن الإتيان بالأشياء التي كانوا يطلبونها ـ والتي تشكل معجزاتٍ ـ حتى يؤمنوا له أنَّه رسول الله!..

وكان النبيّ ﷺ يواجه معركة التشهير والاستهزاء به، ومعركة التكذيب والافتراء عليه، بالوحي الذي يتنزَّل عليه قرآناً فيه قول الله

(١) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٩ و١١٠.

الحق، وفيه من علم الله الواسع ما لا تقدر عقولهم القاصرة، والمنحرفة عن الحق والهدى، استيعابه وإدراك مراميه، إلا بتقريب معاني الآيات المنزلة إلى أفهامهم، كما هو الحال في هذا التشبيه المأخوذ من البحر، بما يشكل من واقعٍ ماديٍ، ومحسوسٍ في حياتهم، ولديهم تصورٌ كافٍ عن عمقه واتساعه، وعن كميات المياه التي يستوعبها والتي لو كانت مداداً ـ أي حبراً ـ نحاول أن نكتب به عن علم الله تعالى، وعن أنواع وأجناس الكائنات التي خلقها، وعما يتميّز به كل نوع أو جنس منها من الخصائص الذاتية، وما قدّر الخالق العظيم لها من السنن الخاصة بها، وكيف ربطها بالسنن العامة في الحياة والكون، التي تؤثر بها.. أجل، لو حوَّلنا مياه البحر (والمقصود مياه البحار جميعها في الأرض) إلى حبرٍ للإحاطة ببعضٍ من ذلك الخلْق العظيم، لأفرغنا البحر، وما قدرنا على تلك الإحاطة، ولو جئنا ببحرٍ مثله مدداً.. والسبب أنَّ علم الإنسان ضئيلٌ، ومحدود جداً بالنسبة لعلم الله الواسع، لأنه سبحانه وتعالى بكل شيء عليم، ومصداقه قوله الحقُّ المبين: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[1].. فهل بعدُ، أجلُّ، وأعظمُ مما يوحي به الله تعالى من آياتٍ بيّناتٍ، ليكون لها ذلك التأثير القوي والشديد في النفس، وذلك عندما يعلم الإنسان بأنَّ ربَّه، وربَّ هذا الكون بأسره، هو الله العليم الحكيم، وقد أحاط بكل شيءٍ علماً، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ولا يفوته شأنٌ من شؤونها؟ ثم بعد ذلك نتساءل: ما هي قدراتنا نحن بني

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

البشر، وما هي طاقاتنا التي نملك حتى نكون مؤهلين لأنّ نبلغ من علم الله إلا ما يعلِّمنا هو سبحانه وتعالى؟

ولذلك يقف المؤمنون مشدوهين أمام قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾.. وقد يكون القصد كذلك من هذا التعبير القرآنيّ: ﴿كلمات ربي﴾ ما في الكون كله من مخلوقات.. وهذا محال أنْ يصل إليه علم الإنسان مهما بلغ من العلم والمعرفة، ومهما جاء به من الاختراعات والاكتشافات..

وقد يكون القصد من قوله «كلمات ربّي» ما في آيات القرآن المبين من المعاني.. وهذه بدورها بعيدة عن متناول الإنسان لأنه عاجز فعلاً عن الإحاطة بكل مضامين هذا الكتاب الذي فيه تبيانٌ لكل شيء.

إذاً فماذا يريد الكفار والمشركون بعد؟! فهل يدّعون علماً ومعرفة؟ ولكن أين ما يدّعونه من علم ربّهم السميع العليم؟ أم هل يريدون إظهار عجز هذا النبيّ ﷺ الذي يبلّغهم عن ربّه ما يُعجز سادتَهم وبلغاءَهم؟! فكيف الحال بهم والقرآن يمدّه بالبراهين، والأدلة، والقصص والعظات التي تجعلهم هم العاجزين حقاً؟ أم هل يريدون البقاء على كفرهم، والنبيّ ﷺ يرشدهم إلى سبل الهداية التي فيها النور المبين لظلمات نفوسهم؟!.

فقد أخرج الحاكم وغيره عن ابن عباس في أسباب نزول هذه الآية الكريمة: أنَّ عتاة المشركين في قريش لما سألوا اليهود عن أشياء يمكن أنْ تضعف حجة «محمد» ﷺ، قالوا لهم: سلوه عن الروح،

فنزلت الآية الكريمة: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1]. فقالت اليهود: أوتينا علماً كثيراً: أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً؛ فنزلت الآية: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾، وهذا يعني أن علم الله لا تحيط به التوراة ولا الإنجيل، ولا القرآن نفسه، لأنَّ مضامين هذه الكتب السماوية ـ على شموليتها ـ تبقى يسيرة وقليلة مما يحيط به علم الله الواسع، لا بل والبشر لا يحيطون بشيء من علم الله إلَّا بما شاء لهم من الإحاطة، فيبقى علمهم محدوداً في مقابل علم الله اللامحدود...

أما عن المعجزات التي كانوا يطلبونها، فكان النبيّ ﷺ يقول لهم دائماً ما مؤدّاه: **إنَّما أنا بشر مثلكم، وما أبلّغكم إلّا ما يوحى إليَّ من ربي الكريم، الذي اختارني نبياً ورسولًا، وهو أعلم أين يضع رسالته، فليس لي أنْ آتيكم بمعجزات وخوارق مما تطلبون. ولكن ألا ترون بأن هذا القرآن الذي يُوحى إليَّ هو المعجزة بذاتها، وقد ثبت لكم إعجازه لأنكم لم، ولن تستطيعوا، أن تأتوا بشيء من مثله؟!**

وكذلك فإنَّ من مضامين هذا الوحي إلى النبيّ ﷺ أنْ يقول لهم ما معناه: **إنَّما إلهكم إلَهٌ واحد، فمن كان يأمل بلقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً، ولا يشرك بعبادة ربّه أحداً، يغفر له من ذنوبه ويدخله في رحمته التي وسعت كل شيء..**

وهذه الأمور هي من الحقائق المطلقة التي يقوم عليها كل الوجود البشريّ، وذلك بأن يكون إيمان الإنسان بوحدانية الله تعالى،

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

وألوهيته وربوبيته، إيماناً مطلقاً فلا يشرك بعبادة ربّه مثل تلك الآلهة المدعاة الباطلة من الأصنام والأوثان والتماثيل، أو غيرها من الأشياء الأخرى التي لا قيمة لها، ولا معنى تستحق عليه العبادة. وعدم الشرك من الإنسان بعبادة ربّه أحداً، هو الحق اليقين لأنه هو الله الذي لا إلَهَ إلا هو، إلهٌ واحدٌ في السماوات والأرض. ثم ليعمل بعد ذلك عملاً صالحاً، مع ما يستوعب معنى «العمل الصالح» من أمور الخير والبر، والتقوى والصلاح، إلى آخر الباقيات الصالحات التي أشارت إليها الآية الكريمة بقول الله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾(1) وقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾(2).

ولعلّ الربط بين الآيات التي سبقت مباشرة الآيتين (١٠٩ و١١٠) اللتين اختتمت بهما «سورة الكهف» ما يؤكد تلك الحقيقة المطلقة التي يتعلق بها مصير الإنسان في الحياة الآخرة، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا * ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾(3)، فهذه الآيات تبين سبل الأعمال إلى الضلال والخسران، وسبل الأعمال إلى الإيمان والصلاح، والمصير الذي يتقرر للإنسان على أساس تلك الأعمال

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٦.

(٢) سورة مريم، الآية: ٧٦.

(٣) سورة الكهف، الآيات: ١٠٣ ـ ١٠٨.

التي يتولاها في حياته الدنيا.. أجل تلك الأعمال التي يقوم بها الإنسان هي التي تقوده يوم القيامة إما إلى جهنم وساءت مقرّاً ومقاماً، وإما إلى جنّات الفردوس، وحسنت نزلاً ومستقراً. وتلك الأعمال التي يقوم بها الناس جميعاً - لا تشكل، في الحقيقة، إلّا بعضاً من كلمات الله، وهو يأمر سبحانه ملائكته بتدوينها في سجلات الناس.. إذ لو حاولنا أنْ نحصي فقط ما يقوم به الناس من الأعمال، دون شيء آخر، لاستحال علينا هذا الأمر، فكان حقيقاً على الناس أنْ يؤمنوا بأنَّ كلمات الله في القرآن لا قبل لهم على استنفاد معانيها، وكان حقيقاً على الناس أن يؤمنوا بأنه «لا إلَهَ إلاَّ اللَّهُ»، وأنه وحده يستحق العبادة، فلا شريك له في خلقه، ولا شريك له في ملكه، ولا شريك له في عبادته، بل وكان حرياً بكم أيها الناس أَنْ تتزودوا من علم الله الذي أودعه قرآنه المجيد، وتجسّدوه من ثَمَّ عملاً صالحاً.. ولئن فعلتم، وأتممتم ذلك، فهو - والله - توفيقٌ من ربّكم الذي يهديكم إلى الصراط المستقيم، والفوز بجنات النعيم.

سادساً - أمرُ الله تعالى نافذٌ ومحقَّقٌ كَلَمْحِ بالبصر

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ * وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾[1].

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾.. فهو الله الخالق البارئ المصوِّر. خالق كل شيء، بلا استثناء، فلا يكون أيُّ شيء في الوجود كله، إلا من خلق الله تعالى. بل وكل شيء كان خلقه بقَدَرٍ مقدَّر، وفقاً لما

(١) سورة القمر، الآيتان: ٤٩ و٥٠.

قضت به حكمة المولى السنية، ليكون في جنسه، ونوعه، وهيئته، وصفاته وخصائصه على النحو الذي جعلَه به أمر الله، بلا زيادة ولا نقصان. . وبحيث يقوم بوظيفته، أو بعمله، وفقاً لما هو مقدر له تماماً. . وبحيث يرتبط في وجوده، وفي تأثيره وتأثّره بغيره من المخلوقات بالسنن والقوانين والأنظمة التي قدَّرها الخالق للوجود بأسره. .

ولعلَّ في هذا النص القرآنيّ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ ما يجيب على تفكير الإنسان في أمر خلقه، أو في أمر خلق السماوات والأرض، والأسئلة التي قد تشغل باله: كيف كان هذا الخلق العظيم، ولِمَ كان، وعلى أي شيء كان؟ ومن حق الإنسان، وقد حباه خالقه بملكة العقل والإدراك، أن يفكر ويقدِّر، ولكن بشرط أنْ يأتي تفكيره متوافقاً مع الفطرة التي فُطر عليها، فلا يُجافي سلامة هذه الفطرة، ولا يجعلها تنحرف عن أصالتها، وإلا قادَهُ تفكيره وتقديرُهُ إلى الضلال، والضياع عن الحقيقة التي يطمئن إليها قلبُهُ، ويهديه إليها عقله. فالمهم أن يكون الإنسان منصفاً مع نفسه، ومستقيماً في صلته بخالقه العزيز الحكيم، وإلا ابتعد عن التقدير السليم.

والحقيقة أن انصراف الإنسان إلى التفكير في سر خلقه وإيجاده، إنما هو بحكم ما في طبعه من ميل للمعرفة، والتعلم، والاكتشاف، وبخاصة محاولاته في استشفاف المجهول، وما قد يحيط به من الأسرار. . والخالق العظيم لا ينهى الإنسان عن التفكير بما يهمُّهُ أو بما قد يشغل باله. لا بل يدعو سبحانه عبادَهُ إلى التأمل للاهتداء إلى الحقائق، وحضَّهم على التفكير والتأمُّل، لأنَّه جَبَلَ تبارك وتعالى في طباعهم ملكة التعلّم والمعرفة وهو عليم بهم، وخبير

بنوازع نفوسهم لأنه هو الذي خلقهم، إذاً: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[1]؟..

ولكي يكون الناسُ على بصيرةٍ من أمر الخلق فقد أنزل إليهم ربهم الكتب السماوية التي تدلهم على حقيقة هذا الخلق، وتبين لهم سبل العلاقة التي تربطهم بخالقهم، ليعلموا بأنَّ الله هو خالقهم، وهو ربّ السماوات والأرض، وأنَّ وجودهم يقوم على العبودية لله وحده، وأنَّ من شأن ذلك أنْ يزيح الغشاوة عن بصائرهم فلا يقعون في الشك، والحيرة، وفي التردد بين عبادة الله الواحد الأحد، وعبادة مخلوقاتٍ له.. فإذا قُدِّر للإنسان أنْ يهتدي إلى هذه الحقائق، التي تدله عليها الكتب السماوية، فإنه يؤمن حينئذٍ بأنَّ كل شيء هو من خلق الله العليّ العظيم، وأنه ـ سبحانه وتعالى ـ قد خلق كل شيء بقدَرَ من أصغر حشرةٍ، أو ذرة في الأرض، إلى أكبر الأجرام والمجرات في السماء. وبمقتضى هذا التقدير السنيّ كان التناسق الكامل في الوجود، وكان الانتظام الشامل في الكون..

والقرآن الكريم يبيّن كثيراً من الأدلة على حقيقة التقدير الإلّهي، ومن الأمثلة عليها:

قول الله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى * ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ * مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ

(1) سورة الملك، الآية: ١٤.
(2) سورة الأعلى، الآيات: ١ ـ ٣.
(3) سورة عبس، الآيات: ١٧ ـ ١٩.

﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا * ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[2].

فسبحان الذي خلَقَ كلَّ شيءٍ بقَدَر، وبأمره النافذ الذي لا يتعدّى المرَّةَ الواحدة في الخلق والتقدير: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾.

يقال في اللغة: لمَحَ البصرُ، يَلمَحُ لَمْحاً: امتدَّ إلى الشيء.

ولمَّح إلى الشيء: أشار.

واللَّمْحَة: النظرة العجلى، وهي اسم من اللَّمْح.

فيكون المعنى: وما أمرنا لشيءٍ نريد خلقه إلا أنْ نقول له مرةً واحدةً: كن، فيكون، أي كائناً في وجوده، وحالاً في كينونته مثل لمح البصر، أي بقدر هذا الزمن القصير الذي تستغرقه النظرة العجلى عندما تلمح الشيء..

وهذا هو أساس الخلق، وسنَّةُ الله تعالى في خلقه: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[3].

أجل إنما هي كلمة واحدة: «كن».. هذه الكلمة هي «أمر» يصدر لمرةٍ واحدةٍ، فلا يحتاج إلى إعادة، ولا تكرار، ولا تتابع، ولا

---

(١) سورة الفرقان، الآيتان: ١ و٢.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٦.
(٣) سورة يس، الآية: ٨٢.

فسحة في الزمان والمكان. إنه مجرد الأمر الواحد، في المرة الواحدة ويوجد الشيء على الكينونة التي يريدها الخالق.

ولا يعني «لمح البصر» تحديداً زمنياً، إنما هو تشبيه لتقريب المعنى إلى حسّ البشر. فالزمن هو مقياس بشريّ، ينظِّم به البشر أوضاعهم وحالاتهم، وحركاتهم وسكناتهم، حتى لا يعيشوا في فوضى، أو في فراغ، أو في تقلبات لا تخضع لقواعد ضابطة، ومقاييس معينة..

أما بالنسبة إلى الخالق العظيم فلا زمن، ولا حدود، ولا مقاييس لأمره في الخلق والإيجاد.. بحيث لا يمكن أنْ نتصور فارقاً زمنياً بين الأمر وتحققه، فهما: أمرٌ فخَلْقٌ، أمرٌ فوجودٌ، أمرٌ فتدبيرٌ، أمرٌ فحياة، أمر فموتٌ.. فكل شيءٍ خاضعٌ لأمر الله عزَّ وجلَّ إذا أراد شيئاً أنْ يقول له: كن فيكون. فكل شيء محكوم في خلقه إلى أمر الله، وكل شيء محكوم في تدبيره إلى أمر الله، فلا يكون لمخلوقاته شأن من الشؤون إلا بأمره، فإذا شاء: كان، وإذا لم يشأ: لم يكن، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[1]. وكما هو أمر الله تعالى في الخلق، إذ يقول للشيء: «كن فيكون» كلمح بالبصر، كذلك أمر الله عندما يتنزل بهلاك الكافرين، إذ جاءت الآية الكريمة ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾[2]، بعد تبيانٍ لصور العذاب الخاطف الذي أهلك، ودمَّر على قوم نوح، وعادٍ، وثمود، ولوطٍ، وآل فرعون[3].. ثم أتبع صور ذلك الإهلاك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى

(١) سورة الطلاق، الآية: ٣.

(٢) سورة القمر، الآية: ٥٠.

(٣) تراجع الآيات من (٩ ـ ٤٢ ضمناً) من سورة القمر.

﴿ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ۞ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾[1] وهذا يعني أنّه كما بيّن لنا العذاب الذي حلَّ بهم في الدنيا، يبيّن لنا كذلك العذاب الذي سوف يحيط بهم في الآخرة.. فهل من يتذكر ويتّعظ، وقد يسَّر ربُنا تعالى القرآن للقراءة وإدراك ما حلَّ بأولئك الأقوام، والاتعاظ بهم من كل معتبرٍ ومتّعظ، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾[2].

وهكذا يتبيّن لنا ـ من الفقرات السابقة ـ أنّ مثل تلك الصفات العليا والجليلة هي لله سبحانه وتعالى:

من حيث كونه الخالق العظيم (أولاً)،

ومن حيث إنه لا مَثَلَ له (ثانياً)،

ومن حيث إنه نور السماوات والأرض (ثالثاً)،

ومن حيث إنَّ مرد القوى لله جميعاً (رابعاً)،

ومن حيث إنَّ علم الله واسع ولا ينفد (خامساً)،

ومن حيث إنَّ أمر الله نافذ كلمحٍ بالبصر (سادساً)..

أجل، إنَّ هذه الصفات التي يتفرد بها رب السماوات والأرض حريّة بأنْ تزرع الإيمان وتوطّنه في القلوب والعقول، فيوقن الإنسان بحقيقة وجود الله تعالى، وبأحقية عبادته وتقديسه، ولذا كان الاعتقاد بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا من أواصر الإيمان الحق.

---

(١) سورة القمر، الآيتان: ٤٧ و٤٨.

(٢) سورة القمر، الآيات: ١٧ و٢٢ و٣٢ و٤٠.

الفقرة الثانية ـ الإيمان بملائكة الله وكتبه

يقول الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[1].

وانطلاقاً من التوجيه القرآنيّ الذي يبيّن الأركان الأساسية لعقيدة التوحيد، يبدو لنا جلياً أن الإيمان بحقيقة وجود الله تعالى يستتبع ـ حكماً ـ الإيمان بملائكته وكتبه..

أما من حيث ملائكة الله فيرد ذكرها في مواضِع متفرقة من كتابه المجيد، ولا سيما في الحديث عن معتقدات أولئك المشركين الذين توهموا بأن الملائكة بناتٌ لله، وقد نزَّه تعالى نفسه عن أنْ يتخذ صاحبة، ولا ولداً، أو أن يكون له شريك في الملك.. ولذلك لم نفرد نبذة خاصةً للملائكة، لا سيما وأنه لم يرد عليها المثل في القرآن الكريم، فانحصر بحثنا في كتب الله باثنين: اللوح المحفوظ، والقرآن الكريم، دون أنْ نتطرق للبحث في التوراة والإنجيل لسببين:

الأول: عدم الإلمام بنصوصهما بصورة كافية، مما قد يوقعنا في الخطأ الذي نخشاه.

والثاني: وهو ما يرتبط بالسبب الأول، إذ أنَّ ما لحق بالنصوص، التي أنزلها الله تعالى في هذين الكتابين السماويين، من التحريف، والتأويل والدسَّ، فأضاع بعضاً من قداستها التي أنزلت بها من عند الله تعالى، يجعل تناولها بدقةٍ وصدقٍ أمراً صعباً، إلَّا ما يتوافق منها والقرآن، بصفته من الكتب السماوية المقدسة، وهو

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

الكتاب الذي حفظه الله تعالى من أي إدخالٍ أو تحريف! . .

هذا مع التوكيد على أنَّ إيمان المسلم لا يكتمل ما لم يؤمن بصدق التوراة، وصدق الإنجيل وسائر الزبر التي أنزلت من الله تعالى على رسله الكرام، وهذا الإيمان بكتب الله ورسله هو ما تهدي إليه الآية ٢٨٥ من سورة البقرة، التي أوردناها في مطلع هذه الفقرة.

أولاً ـ ماهية اللوح المحفوظ

اللوح المحفوظ، كما يقول بعض المفسّرين، هو كتابٌ كبير الاتساع والشمول، كائن في السماء السابعة، وقد أحصى فيه الله تعالى كل مخلوقات الأرض من حيث إنشائها، وتسييرها، ووظائفها، ومصائرها، وما يمحو الله تعالى ويثبت في هذا الكتاب، من شؤون مخلوقاته . .

وقد عبَّر القرآنُ الكريم عن «اللوح المحفوظ» بعبارة «أم الكتاب»[١]، أو بلفظة «الكتاب»[٢].

ولم يرد النص على «اللوح المحفوظ» مباشرة إلَّا في آية واحدة من القرآن، بقول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾[٣].

ويتبيّن لنا معنى «اللوح المحفوظ» من حيث شموليته لشؤون الخلائق في الأرض بقول الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[٤].

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٤١، وسورة الزخرف، الآية ٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٥٨، وسورة الأنعام، الآية: ٣٨.

(٣) سورة البروج، الآيتان: ٢١ و٢٢.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

ونكرّر بأنَّ هذا الكون واسع فوق حدود التصوُّر، كما تدلّ على ذلك اكتشافات علم الفلك الحديثة. وكلما توغَّل الإِنسان في أعماق هذا الكون، تبين له أنه ما يزال بعيداً جدّاً عن إدراك حدودٍ له أو نهاية.. إذ من الواضح عجز علم الإنسان عن معرفة أين تقع نهاية الكون التي لا يعلمها إلّا الله تعالى وحده.. ومن المعروف أنه في مدارٍ ما من هذا الكون الشاسع، كتلة كروية صغيرة هي الأرض التي احتوت إلى جانب الجنس البشريّ أجناساً كثيرة ومتنوعة من الحيوان والطير والدَّابة، وكلٌّ يعرف فيها معاشَهُ، ويسعى إليه... وهذه المخلوقات كلُّها قد أحصيت جميعها في «الكتاب»، أي اللوح المحفوظ بلا أدنى تفريط، كما يبيِّن لنا ربُّ العالمين ذلك بقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾..

وإذا كان الله تعالى قد جعل الناس شعوباً وقبائل متفرقة، فإنه جعل من تكاثرها تلك الأمم التي تملأ الأرض في شرقها وغربها. ومثل هذه الأمم من الناس، فإنَّ القرآن الكريم يبيِّن لنا أنَّ الكائنات الحيّة الأخرى هي أمم أمثالنا، أي أنَّ كلَّ ما خلق الله من دوابَّ تدبُّ على الأرض برجليها، أو من زواحف تزحف على بطنها، أو كل ما خلق من طير يطير بجناحيه. إن هي إلا أجناس متعددة، وأصناف متنوعة، تختلف في أشكالها وأنواعها، مثل اختلاف الناس في تعدد أجناسهم وألوانهم ولغاتهم، وطرائق عيشهم. وتلك الدواب على تعدد أصنافها، وأعدادها الغفيرة من كل صنف، تُعرف بسمات معيَّنة، وبخصائص تميّزها عن بعضها البعض، لتكون مثل الناس، في خَلْقها من حيث الإِبداع في الخلق، وجميل الصنع في الهيئة والتكوين، وليكون كل جنس منها بمثابة أمةٍ، ولو تنوعت إلى جماعات

متعددة. . وقيل إنما مثَّلت الدوابُّ والطيور بالأمم من الناس نظراً لحاجتها إلى مدبِّرٍ يدبرها في أغذيتها، ونومها، ويقظتها، وهدايتها إلى منافعها، وإلى آخر ما لا يُحصى من أحوالها ومصالحها!.

وهذا التنوع في الكائنات الحية: من الناس، والحيوان، والطير والحشرات، وما يختصُّ به كل جنس من خصائص مميزة عن غيره من الأجناس الأخرى، بل وما في الجنس الواحد من تنوع كثير، إنْ في فئاته وأشكالها، أو في سبل عيشها في البر والبحر، واهتدائها إلى طرائق هذا العيش. . كل ذلك خير دليل، وأكبر برهان على أنَّ الله هو الخالق العظيم، وأنه على كل شيء قدير؛ فقد قدَّر لكل كائنٍ حيٍّ حياتَه، ومماتَه، ورزقَهُ وعملَه، مثلما قدَّر له تكوينه البيولوجي والنفسي. . وهذا كله محفوظ بأمر الله في «اللوح المحفوظ»، كما هو مقدر في علمه الأزليّ. . فما من شيء يتعلق بحياة الإنسان، سواء بصورته وحركته، أو أفعاله وأقواله، أو ما تنطوي عليه نفسه من النوايا، والمدارك والمشاعر، بل وحتى النفَس الذي يتنفَّسه، إلا وهو محصيّ عليه، ومحفوظ في كتاب المخلوقات كلها، الذي هو اللوح المحفوظ. . وهذا ما يثبته القرآن المجيد عندما يبيّن لنا أنَّه ما من إنسانٍ إلّا ويوكل به الله تعالى ملائكةً تدوِّن كل شيء عنه، من قولٍ أو فعلٍ، مهما كان صغيراً أو كبيراً، حتى ولو كان عمله مثقال ذرة من خيرٍ أو شرٍ، فهو مدوَّن، ومحصيّ عليه. وأما الغاية فلكي يكون كتاب كل إنسانٍ حاضراً يوم الحشر، وعلى مضمون هذا الكتاب يكون حسابُهُ وجزاؤُهُ.

والحشر لا يكون للناس وحدهم، بل إن الكائنات الحية الأخرى من الحيونات والطيور والحشرات سوف يكون لها حشرٌ أيضاً

مثلنا نحن بني البشر، بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[1]؛ أما لماذا حشر تلك الكائنات، وهي ليست عاقلة ولا مدركة، فإنَّ عقولنا تقصّر عنه، ولا نقدر على إدراك كنهه. وقد روي عن أبي ذر الغفاريّ عليه السلام ما يبيّن الغاية من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾، إذ قال أبو ذر: «بينا كنا مع رسول الله ﷺ إذ انتطحت عنزتان، فقال لنا: **أتدرون فيما انتطحتا؟** قلنا: لا ندري يا رسول الله. قال ﷺ: **«لكنَّ الله تعالى يَعلَمُ، وسَيَقْضي بينَهُما»**[2]. ومن قبيل ذلك أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: **«لتُؤَدُّنَّ الحقوقَ إلى أهلِها يومَ القيامةِ حتَّى يُقادَ للشّاةِ الجَلْحاءِ من الشّاةِ القَرْناءِ»**[3].

وما تجدر الإشارة إليه أنَّ جماعةً من أهل التناسخ قد استدلت من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ بأنَّ البهائم والطيور هي مثل البشر في التكليف.. وهذا لغوٌ باطلٌ، لأن القصد من عبارة: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ هو إفهامنا بأنَّ الدواب، والبهائم، والطيور على سطح الأرض، وكذلك حيوانات البحر، هي في كثرة أجناسها، واختلاف أحوالها مثل الجماعات البشرية من الناس في تنوعها وتعددها..

أما جعل الناس بمثل هذا التنوع من الشعوب والقبائل[4] فمن أجل الغاية التي أرادَها الخالق لهم، وهي التعارف فيما بينهم، أي التعارف الذي يؤدي إلى اجتماع جهودهم، وتضافر قواهم لإِعمار

---

(1) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

(2) صحيح مسلم، رقم ١٩٩٧.

(3) المصدر السابق.

(4) يقول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ سورة الحجرات، الآية: ١٣.

الأرض. فهذا الإعمار يقتضي له التنوع في الذهنيات، والطاقات، وفي الخصائص والمميزات عند الناس، كما يقتضي له أيضاً التعدّد في الأجناس والألوان والمواطن. . وكل ذلك يعتبر غنىً للناس، بما تغنى به عمارة أرضهم. . وأما الكائنات الأخرى من غير الجنس البشريّ، فإن وجودها كان حتمياً كما قضى الله تعالى منذ الأزل، وذلك لاستمرارية الحياة، وإقامة التوازن بين الأحياء في الأرض نظراً لما جعل الله لتلك الكائنات من منافع للناس، تساعد على بقاء الجنس البشريّ، إلى أنْ يرث الله تعالى الأرض ومن عليها. .

إذاً فالأمر لا يعدو كونه إفهاماً لعقولنا بأن المخلوقات والكائنات الحية على اختلافها، هي في تنوع أجناسها مثل الناس، ولا يتعلق بأي تكليفٍ لتلك الكائنات، لأنها في قوام خلقها ووجودها، هي كائنات تفتقر إلى ملكة العقل والتمييز، والتكليف لا يصح، بل ولا يكون أصلاً، إلا مع كمال العقل، والقدرة على التمييز. .

صحيح أنَّ الحيوانات والطيور والحشرات هي من الأحياء التي أوجد فيها خالقها الغرائز التي تهديها إلى مساراتها، وإلى ما فيه نفعها، ولكنها ـ قطعاً ـ لم تخلق لتكون موضع تكليف، ويكون حشرها على أساس هذا التكليف. . فالتكليف هو الذي يميّز بني البشر عن غيرهم من الكائنات الحية الأخرى. . ثم إنَّ هنالك أمراً آخر شديد الأهمية ترمي إليه الآية (٣٨) من «سورة الأنعام» وهو أنَّ خلق أي كائنٍ، ومهما كان نوعه، لم يكن خلقاً عبثاً، بل هو مقدر في «اللوح المحفوظ» منذ أنْ خلَقَ الله السماوات والأرض، وبمقتضى الحكمة الإلهية من هذا الخلق، ولا نملك نحن البشر أيَّ شيء عن حكمة الله تعالى، وعن تقديره في خلائقه. ولكننا بعد القرآن، وما أتى به من

البيان والتبيين، أصبحنا نملك المعرفة التي تؤكد لنا بأنْ ليس في وجودنا البشريّ، والأرضيّ أية مصادفة أو عبثية، بل كل شيء محكوم بعلة خلقه، وسبب وجوده، وأنَّ أمر هذا الوجود من حيث كيفية التسيير، والتدبير، والانقياد في الحياة والممات، إنما يخضع لما يشاء الله ويريد.. والأدلة على ذلك الآيات المبثوثة في الكون، من فوقنا ومن تحتنا، وفي أنفسنا، ومن حولنا، وكلها تبرهن، وتؤكد على الحقيقة الساطعة، حقيقة وجود الله تعالى، وبأنَّهُ هو الخالق العظيم، والمدبر الحكيم ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۞ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[1].. لذلك فكلُّ ما في الوجود ـ مما علم الانسان وما لم يعلم ـ من الكائنات الحية والجامدة، قد أحصيت في «اللوح المحفوظ» الذي ما فرَّط الله تعالى في هذا الكتاب من شيء يتعلق بمخلوقاته.. فحريّ بالإنسان النظر بآيات الله ـ أي مخلوقاته ـ نظر عظة واعتبار، والتفكر بها تفكير تدبّر واستدلال، فيؤمن بالله، وبأنه على كل شيء قدير..

ثانياً ـ الإيمان بحقيقة القرآن

لقد حملت رسالةُ الإسلام، التي بُعِثَ بها محمد ﷺ، في خاتمة مطاف الرسالات السماوية إلى دنيا الأرض، عقيدةَ التوحيد بكمالها وتمامها، لتكون العقيدة الحق، وعقيدة الإخلاص لله ربّ العالمين، وهي ـ بالطبع ـ نقيضةٌ للكفر والشرك والضلال، لأنَّ قوامها عبادة الله الواحد الأحد، والإيمان بما أنزل الله من كتب، والتصديق بأنبيائه ورسله، وأنَّ الجنة حق، وأنَّ النار حقّ، وأن الله يبعث من في

(١) سورة الأعلى، الآيتان: ٢ و٣.

القبور، وإليه النشور. . وهذا ما كان يستدعي من المسلمين مجابهة الأنظمة الجاهلية القائمة على الشرك، والفساد والفسق، والفجور، والظلم في حياة الناس، ليكون الحكم بما أنزل الله تعالى، فتستقيم سبل الصلاح والإصلاح، وتعتمد المناهج القيّمة للدين والدنيا. . ولكنّ الكافرين والمشركين لم يرضوا ـ ولن يرضوا ـ بذلك، فقام شياطينهم يتصدون للدعوة الإسلامية في شبه الجزيرة، شأنهم شأن أمثالهم من السابقين الذين وقفوا في وجه دعوات النبيين والمرسلين، يشنون عليهم حروب التكذيب والاستهزاء، ويتعرَّضون لهم ولأتباعهم بحملات الأذى والتعذيب والقتال؛ بل ولم يتورع بعض الأقوام، مثل اليهود عن قتل النبيين بغير حقٍّ، إلّا أن يقولوا: «ربُّنا الله». . والأسباب وراء ذلك واضحة، ويأتي في طليعتها صرف الناس عن تلك الدعوات، والحؤول بينهم وبين الدخول في دين الله، لأنه لو أتيح لتلك الدعوات المجال، وانتصرت بتعاليمها السماوية، لكان خليقاً بها أنْ تسقط عروش السلاطين والملوك، وتذهب بسلطانهم الجائر، وتزري بجبروت المستكبرين، والظالمين والمفسدين، لتقيم، من ثَمَّ، بديلاً عن ذلك كله، موازين الحق والعدل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حياة الناس. . وعلى هذا فإننا لا نجد، وعلى امتداد التاريخ البشري، أنَّ نبيّاً قد سَلِمَ من تكذيبٍ أو أذىً في بني قومه، أو خلت دعوةٌ رسوليةٌ من مواجهة طواغيت زمانها. . فكان من المحتوم ألّا يكون خاتمُ النبيين محمدٌ ﷺ أفضلَ حالاً من ثلة المختارين الذين سبقوه في حمل دعوات ورسالات الله إلى عباده، إذ ما إنْ أعلن نبوته ورسالته، وظهرت دعوته للإسلام، حتى هاج عنفوان الكفر والشرك في قلوب الأميين في مكة، واليهود من أهل الكتاب في

يثرب، فانبروا لمناهضته، ومنع الناس من الدخول في دين الله. . . ولكنَّ القرآنَ الذي كان يتنزّل عليه وحياً من ربّه العزيز الحكيم، لم يسكت عن الكفَرَة الفجرة، وأعداء الله والإنسانية، فحملت عليهم آياته المبيّنات حملةً شعواء، تسفّه أحلامهم، وتصفع وجوههم التي كانوا يتعبدُّون بها للأصنام، وتدين انصياعهم لأرباب متفرقة اتخذت الأطماع الدنيوية آلهةً من دون الله تعالى. . وذلك في الوقت الذي تفنّد الحجج الباطلة التي يدَّعون، وتقضي على الأكاذيب، وأقاويل الزور والبهتان التي يختلقون. . إذْ حيثما كانوا ينكرون حقيقة القرآن، ويدَّعون بأنه من تأليف محمد ﷺ، فإنَّ آياته المعجزة كانت بذاتها الحقّ الذي يدمغ عقولهم، لتثبت وتؤكد أنَّه منزل من عند الله عزَّ وجلَّ، وبأنه قول الحق تبارك وتعالى، ويتنزَّل بالحق الذي لا مرية فيه، وقد أنزله الله قرآناً عربياً - بلسان عربي مبين - لأنَّ الرسول الأعظم الذي اختاره ربُّ السماوات والأرض لحمل الدين الكامل، والرسالة الخاتمة، هو إنسان عربي المنبت واللغة، وحكمه حكم سائر النبيين والمرسلين الذين كان كل واحدٍ منهم يُبعث بلسان قومه، فكان لا بدَّ أن يكون القرآن عربياً، مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾[1]. . أي مثل ما أنزلنا الكتب والزبر، كل واحد بلسان القوم الذي بعث إليهم رسولهم، كذلك، أنزلناه قرآناً عربياً، لأنَّ محمّداً هو النبيُّ الأميُّ العربيُّ ولسانه لسان عربي مبين. .

ويقول الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾[2]، أي ومثل ما أنزلناه ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ

(١) سورة طه، الآية: ١١٣.
(٢) سورة الحج، الآية: ١٦.

﴿يَتَّقُونَ﴾[1]، كذلك أنزلناه آياتٍ بيّناتٍ: واضحةَ الدلالات، والحجج والبراهين، والعظات، ليكون هدى ورحمة للناس، وأنَّ الله يهدي من يريد هداه إلى هذا القرآن وآياته البيّنات، فيكون من الصالحين. ويقول ربُّنا تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[2].. أي وكما أنزلنا التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، وما سبقهما من الكتب التي أنزلناها إلى رسلنا، كذلك أنزلنا إليك يا محمّدُ الكتاب المبين، هذا القرآن المجيد.. فالذين آتيناهم الكتاب من اليهود والنصارى يؤمنون به، إنْ كانوا من المهتدين؛ ومن أهل مكة من يؤمن به كذلك، وهم الذين يصدقونك، ويؤمنون بنبوتك، وبما أنزلنا إليك من آيات بيناتٍ تتلوها عليهم... وما يجحد بآياتنا، بعد أن تبيّنها للناس، إلّا الكافرون..

أ ـ نزول القرآن متفرقاً

يقول الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[3].

فالسؤال: لماذا أنزل الله القرآن على قلب محمدٍ منجّماً ـ أي متفرقاً ـ ولم ينزِّله جملةً واحدةً؟ وهذا ما يجيب عليه القرآن الكريم نفسه بقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾[4]، ويقوله

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٨.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٧.

(٣) سورة الفرقان، الآيتان: ٣٢ و٣٣.

(٤) سورة الإنسان، الآية: ٢٣.

تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ * فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾[3].

إنها الحقيقة ـ بل هي أم الحقائق الإيمانية المطلقة ـ وهي أنَّ هذا القرآن هو قول الله الحقّ، فلا ريب فيه، وأنَّه منزّل من عند الله تعالى، على قلب محمّد رسول الله ﷺ والدليل على ذلك أنَّ القرآن كان منذ نزوله المعجزة الحسية الثابتة، التي لا يستطيع أحدٌ أنْ ينقضها فعلاً ـ لا قولاً بهتاناً ـ، أو أنْ يأتي بمثلها، وأنَّ هذا الدليل ما يزال قائماً أمام بصر وبصيرة العالمين، دون أنْ يقدروا على أنْ يأتوا ولو بسورة واحدةٍ من مثله .. وهم ـ حكماً ـ عاجزون عن ذلك «ولن» يقدروا أن يفعلوا.

ثم إنَّ هذا القرآن ـ وهو قول الله ـ لا يطيق قلبٌ، حتى ولو كان قلب محمّد ﷺ، أنْ يتلقاه، ويحمل ثقله وشدته، إلَّا أنْ يشاء منزِّلُ هذا القرآن ذلك، فكان محققاً بمقتضى قضاء الله أن يُنزَّل القرآن متفرقاً طوال فترة الوحي التي امتدت على مدى ثلاثٍ وعشرين سنة، وذلك لكي يثبِّت به الباري قلب رسوله الأمين، فينهض مطمئناً لحمل أعباء التبليغ، وهدي الناس إلى الصراط المستقيم.

وكان النبيّ ﷺ ينقل الآيات كما تنزَّلت عليه بحرفيتها، ليعود

---

(١) سورة المزمل، الآيتان: ٤ و٥.

(٢) سورة القيامة، الآيات: ١٦ ـ ١٩.

(٣) سورة الإسراء، الآيتان: ١٠٥ و١٠٦.

فيودعها صدور قوم مؤمنين، صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فساروا على هدى دينه القويم، وصراطه المستقيم، بما كان القرآن يفعله في نفوسهم، وهم يتابعون نهج رسولهم الكريم، الذي دأب على تعليم الصحابة الآيات التي تتنزَّل عليه، وذلك بتحفيظهم إيَّاها عن ظهر قلب، وتفسيرها، وشرح معانيها بكل ما تحفل به من الأفكار، والمفاهيم، والقيم، والأحكام والمواعظ.. وقد اتبع النبيُّ ﷺ مثل هذا الأسلوب التعليميّ التثقيفيّ ليسهل معه على الصحابة استيعاب الحقائق القرآنية، ويجعلهم مؤهلين لأنْ يكونوا الدعاة إلى دين الله الحق. وهذا ما يشير إليه قول ابن مسعود ﷺ: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لا يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن».

وبالفعل فقد حفظ التاريخ الإسلاميّ تلك الصورة الناصعة والمشرقة للمسلمين الأوائل، بما قدَّموا للإسلام من عزة ومنعة، وبما تربَّوا عليه من طاعة لربّ العالمين، وامتثالٍ لأمر الرسول الكريم، وبذلك امتلكوا تلك الثقافة الإسلامية العميقة، حتى أشربت بها قلوبهم: تلقيّاً، وحفاظاً، وتلاوةً، وفهماً واستيعاباً بفضل النبيِّ الأعظم، الذي أنشأ لهم دارةً بمثابة مدرسة، حيث كانوا يجتمعون في بيت الأرقم بن أبي الأرقم لتلقّي ما يعلّمهم إياه من آي الذكر الحكيم الذي يتنزَّل على قلبه الشريف تنزيلاً، لما فيه من القول الثقيل الذي يحمل الحق من ربّه تعالى، وبه تمتلئ كلمات الله التامة بالحقائق المطلقة عن الكون والحياة والإنسان.. وهذا ما يستدعي حضور الفؤاد كاملاً، ولا يقدر قلبٌ على تلقيه إنْ لم تتنزل الآياتُ تباعاً، والقرآنُ متفرقاً.. وهذه الحقيقة التي يدلُّ عليها القرآن بذاته لم يكن ليدركها، أو ربما تعمّد عدم إدراكها، أولئك الذين أشركوا بعبادة ربهم، ولم يصدّقوا

محمداً رسولَ الله بما يتلوه عليهم من الحق. فانبروا يذيعون بين الناس، وبخبثٍ ودهاءٍ، أنَّ هذا القرآن، لو كان حقاً من عند الله، لنزل على «محمد» دفعة واحدةً، كما كانت الحال في التوراة والإنجيل والزبور!.

فجاء الرد عليهم، بما خاطب به الله تعالى نبيَّه محمداً ﷺ، ما مؤداه: إنَّا ننزّل عليك يا «محمد» القرآن متفرقاً، لنقوّي به فؤادك في حمل العبء الثقيل، حمل الأمانة التي عُرضت على السماوات والأرض فأشفقن أنْ يحملنها!.. وقد نزَّلناه كتاباً مبيناً فيه آياتٌ محكمات وأخر متشابهات قد فصلت من لدن حكيم خبير، لتقرأها على الناس على مكث، بما يتناسب وطاقاتهم الذهنية والشعورية، فتأخذها نفوسهم عن قناعة، وتمتلئ بها قلوبهم عن يقين.. ولن يكون ذلك إلَّا بترتيل القرآن ترتيلاً، وتبياناً للحقائق التي لا يمكن استيعابها إلَّا بالإنزال المتفرق الذي يتبع بعضه إثر بعض...

فالترتيل هنا هو التبيين، كما شاء ربنا أن يكون هذا التبيين بحكمته البالغة، وعلمه المحيط بحاجات القلوب، واستعدادها للفهم والتأثر.

وقد روي أنَّ النبيَّ ﷺ قال لابن عباس: **«يا بْنَ عباس: إذا قرأتَ القُرآنَ فرتِّلْهُ تَرْتِيلاً.** قال ابنُ عباس: وما الترتيلُ يا رسول الله؟ قال ﷺ: **بَيِّنْهُ تَبْيِيناً، ولا تَنْثُرْهُ نَثْرَ الدَّقْلِ**[1]**، ولا تَهُذَّهُ هَذَّ الشِّعْرِ**[2]. **قِفُوا عندَ عَجَائِبِهِ، وحرِّكوا بِهِ القلوبَ، ولا يكونَنَّ هَمُّ أحدِكُمْ آخرَ السُّورَةِ»**[3].

---

(١) الدقل: الثمر الرديء.

(٢) هذ الحديث: قطعه سريعاً. سرده. وهذَّبه: لهج به.

(٣) صحيح مسلم، رقم ٢٥٢.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾.. فهو يبيّن أن الكافرين والمشركين قد اعتمدوا في الحجج التي يسوقونها على الأمثلة، كإحدى الوسائل لمخاصمة النبيّ ﷺ، ومحاولة تعجيزه، فنزل عليه القول الحق يطمئنه بأنَّ كل ما يأتونك به، ويظنون أنه قد يحمل معانيَ كبيرة وهامة ليس إلّا مجرد زعم باطل.. فلا يأتونك بحجة، أو يضربون لك مثلاً إلا جئناك بأحقّ منه، وأحسن تفسيراً وتبياناً للحقائق لأنه من لدنّا؛ وكفى بالحق الذي جئناك به أنْ يكون أبلغ لفظاً، وأوسع بياناً، وأبعد معنًى، ليكون أشدَّ تأثيراً في النفوس، وأكثر ملامسة للقلوب من كل ما يأتونك به، والذي لا يعدو كونه غثاً، لا يدل على حقيقة، ولا يؤدي إلى هداية.. وكان هذا هو الردّ القرآني دائماً.. ولكنْ أين الأذن التي تسمع، والقلب الذي يخشع، والعقل الذي يتفكَّر؟!

ب ـ تحدّي القرآن للثقلين أن يأتوا بمثله.

التحدي، لغةً، المباراة أو المغالبة..

وهذا يعني، في الواقع، العزم على المواجهة، والتصدّي لمحاولة تشويه أمر ما، من أجل إثباته على حقيقته، كما هو الحال مثلاً في مناهضة الجهود الفكرية والمادية التي تعمل على طمس حقيقة معينة، فينبري من يتصدّى لتلك الجهود من أجل إظهار مصداقية هذه الحقيقة وإثباتها، حتى تبقى قائمة ومعمولاً بها، أو النهوض مثلاً لمناصرة حقٍ يُراد هدره أو محوه.. وكذلك الحال في كل أمرٍ، أو قضيةٍ أو شأنٍ يهمُّ الناس، ويتطلب تحديد الموقف منه، أو اتخاذ القرار حياله.. ومن الطبيعي أن تختلف مواقف الناس تجاه القضايا،

والشؤون والأحداث التي تواجههم باختلاف الغايات والأهداف التي يتوخونها، كي تتحدد على أساسها العلاقات فيما بينهم. وليس من الضروري أنْ يكون الهدف ـ دائماً ـ نبيلاً وقويماً، بل ربما تكون الأهداف الدنيئة والملتوية هي التي تغلب على مصالح الناس وطباعهم، كما نجد في الأهداف التي يغلّفها المأجورون، في بلدٍ معين، بالطابع الوطني، بينما تكون، في حقيقتها، خدمةً لمطامع أسيادهم الأجانب، الذين يُملون عليهم الأوامر في السرّ، ويلزمونهم باتباعها وتنفيذها، ولو كانت ضد مصلحة بلدهم، وأبناء وطنهم!.. من هنا تبرز المواقف التي يتحدد على ضوئها وجود التحدي أو عدم وجوده... والتحديات ـ بالاستناد إلى الأهداف والمواقف والخيارات ـ قد لا تقع تحت حصر، وكذلك الأساليب والوسائل لاستعمالها، وطرق التعبير عنها، إلّا أنَّ أهمها، على الإطلاق، يبقى التحدّي الفكري، والذي يتخذ ـ عادةً ـ هدفاً له التغيير من أجل إنشاء أو فرض واقع جديدٍ، يختلف عن الواقع السابق..

وهذا هو المنهج الذي اتَّبعه القرآن، أي أنَّ نوع ومضمون التحدّي، الذي يشهره في وجْه المعاندين أو المنكرين لحقيقته، وبأنه من عند الله تعالى، كان، وما يزال على حاله.. إنه هو هو، هذا التحدي الذي لا يمكن أنْ يطرأ عليه أي تغيير أو تحويل أو تبديل، وهو التحدّي الفكري المحض، الذي يقوم على: أنْ يأتوا بمثل هذا القرآن إنْ كانوا صادقين بأنه من تأليف محمد ﷺ، لأنَّ لديهم جهابذة في اللغة، والعلم، والمعرفة، ولأنَّ لديهم الاستطاعة أن يسخّروا من هؤلاء الجهابذة من يريدون!.. فإنْ ظهر عجزهم عن الإتيان بمثل القرآن جملةً وتفصيلاً، فإنه يتحّداهم أنْ يأتوا بأقل: أن يأتوا بعشرِ

سُورٍ من مثلِهِ! . فإنْ عجزوا، وهم قد عجزوا فعلاً ـ قديماً وحديثاً ـ فإنه يتحداهم بأقل الأقل: أنْ يأتوا ـ ولو ـ بسورةٍ واحدةٍ مِنْ مِثْل هذا القرآن (وفيه سُوَرٌ منزلة من ثلاثِ آياتٍ فقط)! . . بل ولقد بلغ التحدي الفكري للقرآن ذروته، وهو يبيّن للإنس والجان جميعاً، أنهم لو اجتمعوا على أنْ يأتوا بمثل هذا القرآن، فإنهم عاجزون عن ذلك ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. .

وهذا التحدي قد ورد ـ فقط ـ في عدد يسير من آيات القرآن المجيد، وكان التعبير عنه بلفظ «مثله» أو بعبارة «من مثله»، كما يتبين ذلك جلياً في الفقرات التالية:

١ ـ القرآن منزَّهٌ عن التقوّل (ويتحدّى الكافرين أن يأتوا بحديث مثله).

إنَّ من يستعرض الآيات من ٢٩ إلى ٣٢ في «سورة الطور»، يتبين له بوضوح أنَّها تأييد، وتسديد للنبي ﷺ وحضّه على متابعة دعوة المشركين إلى الهدى، بينما هم يشنون عليه أعنف وأعتى الحملات الدعائية الجائرة، وذلك باتهامه بأبشع الظنون، عندما يقولون عنه: بأنه كاهن، أو مجنون، أو شاعر، وغيرها من الإشاعات التي تصفه ﷺ بأوصاف حاقدة، لا غاية من ورائها إلّا النيل من شخصه الكريم! . . ولكنَّ القرآن كان لهم بالمرصاد، وهو يتصدَّى ليس فقط لدحض تلك الافتراءات، وإبطال أكاذيبها، ولا لينفي عن النبي ﷺ أية شبهة، أو يرفع عنه أية ظُلامة وحسب، ولكن أيضاً لرفع مكانته في بعثته، وبما يُوحى إليه من ربّه تعالى، ولذلك يخاطبه العليُّ العظيم بأنْ يداومَ على تذكير المشركين بآيات الله، وألّا يتوانى عن التبليغ بسبب تقوّلاتهم تلك. . إذْ فما أنت يا «محمد» كما يقول له ربُّهُ

تبارك وتعالى: ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾[1]، كما يتقوّلون!..
وما أنت يا «محمّد» بنعمة ربّك ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾[2]، كما يأفكون، حيث يزعمون أنهم ينتظرون هلاكك كما هلك غيرك من الشعراء!! أبداً يا «محمد»، فما بك شيء من ذلك، إنْ كل ما يقولون إلّا أكاذيب، وادعاءات لا تستند إلى أي أساسٍ أو دليلٍ أو عقل!..
لا، بل أنت من أنعم الله عليك بالنبوّة، وحباك بالرسالة السماوية الخاتمة، لتكون خاتمَ النبيين، ورحمةً مهداةً للعالمين..

وبعد أنْ تبيّن النصوص القرآنية مكانة النبيّ ﷺ السامية، تعود إلى المشركين، لتدلَّ على بعضٍ من صفاتهم الشائنة، عندما تسأل باستفهام إنكاري، يزري بهم، وهي تتحدث عنهم بطريقة الغائب، وذلك بقول الله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[3].. فهل تأمرهم عقولهم أنْ يتقوَّلوا على هذا النبيّ الكريم بأنه كاهن، أو مجنون، أو شاعر أو ساحر؟! لا، لا تأمرهم عقولهم بذلك، بل هم في كل ما يتقوَّلون عنه ـ طاغون به.. إذ طغى عليهم الحقد، والشرك والعناد، فما وجدوا إلّا تلك الإشاعات المغرضة!.. ولكنْ أنَّى لهم ذلك، وهذا القرآن يتنزَّلُ عليك بالآيات التي تفضح كل تقوّلاتهم، وتخرّصاتهم وطغيانهم، لترفع، من ثم، مكانتك، لأنك النبيُّ الصادق الأمين، الذي كرَّمَك ربّك تعالى بما بعثك به للناس جميعاً من الهداية والصلاح والخير...

وتذهب النصوص القرآنية في سورة «الحاقة»، إلى أبعد من ذلك

---

(١) سورة الطور، الآية: ٢٩.
(٢) سورة الطور، الآية: ٣٠.
(٣) سورة الطور، الآية: ٣٢.

بكثير، لتبيّن لنا كيف أنَّ الله ـ جلَّت عظمته ـ يُقسم بكل مخلوق مما يبصرونه، ومما لا يبصرونه بأنَّ هذا القرآن إنْ هو إلَّا قولُ رسول كريم، وليس بقول شاعرٍ، ولا بقول كاهنٍ، بل هو تنزيلٌ من ربّ العالمين. يقول الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ * وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ * وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾[1].

أجل، بمثل ذلك الوضوح، وتقديم الأدلة والبراهين، والقسم الإلّهي القدسي، كانت الآيات تؤكد مصداقية القرآن الكريم، وبأنه تنزيل من ربّ العالمين، ويبلِّغه رسولٌ كريم، هو النبيّ محمد ﷺ... ولمّا لم يكن ذلك كله ينفع المشركين والمنافقين، ويثنيهم عن ادعاءاتهم الباطلة، وحملاتهم الفاشلة، فكان لا بدَّ أنْ يأتي التحدي القرآني ليسقط كل ما يقولون بأنَّ «محمداً» يتقوَّل القرآن، وذلك بقول الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾[2].

إذاً فالتحدّي بسيط جداً: فإذا كانوا يقولون بأنَّ «محمداً» يتقوَّل القرآنَ من عنده، ويتكلَّف حديثه، ويختلق آياته، ثم يُسمّيه وحياً من الله، فهذا أمرٌ غريب جداًا.. بل هو كذب بكذب، لأنهم، في الحقيقة، لا يؤمنون بأنه تنزيلٌ من ربّ العالمين، مثلما لا يؤمنون ببعث محمد ﷺ وتصديقه، وذلك استكباراً وعناداً.. وعلى الرغم

---

(١) سورة الحاقة، الآيات: ٣٨ ـ ٥٢.

(٢) سورة الطور، الآيتان: ٣٣ و٣٤.

من ذلك، فإنْ كانوا يقولون بأنَّ «محمداً» يتقوَّل القرآن، فليأتوا بحديث مثله إنْ كانوا صادقين! . .

وهذا هو التحدّي القرآني، وهو ـ بذاته ـ تحدّ بسيط، ولكنه شاقٌ ومستعصٍ، إلّا أنه كان لا بدَّ منه! لعلَّ أولئك المشركين يرعوون عمَّا هم عليه من الضلال والعناد. . فالتقوّل إنما يعني الاختلاف، أو التكلّف في القول، ولا يكون إلا في الكذب، فمن يريد أنْ يتقوَّل شيئاً، فإنما يريد أنْ يكذب به. ولذلك نزل الذكر الحكيم يستنكر دعواهم الباطلة بمثل ذلك التقوّل الذي يزعمونه، بل ويسفّه كل دعواتهم الضالَّة، لأنهُ لا يجوز أنْ يُنسبَ شيء من تلك الدعوات أو قبيلها إلى «محمد» ﷺ، وهو صاحب «الخلق العظيم»، مصداقاً لقول ربِّ العالمين عندما وصفه من عليائه بقوله الحق ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]، وكما خبره الناس في دنيا الأرض، وخاصة أولئك المفترين أنفسهم، الذين عرفوا «محمدَ بن عبد الله» حقّ المعرفة، فكانوا في مكة يلقبونه بـ«الصادق الأمين» قبل بعثه ﷺ، وقبل أن يتنزّل عليه القرآن المجيد، الذي يثبت قول العلي العظيم بأنَّ «محمداً» على «خلق عظيم».

ثم إنهم، وهم أهل الفصاحة والبلاغة، يعرفون جيداً أنَّ هذا القرآن ليس من كلام البشر، وما كان لأحدٍ أنْ يأتيَ بمثله أبداً. فيكون الأمر، والحالة هذه، أنهم هم الذين يتقوّلون الأحاديث عن النبيّ ﷺ، ويختلقون الأكاذيب، وما مرادهم إلا الإصرار على الكفر والشرك، وعدم الإيمان بما جاء به محمد ﷺ . .

(١) سورة القلم الآية: ٤.

وبعد أن نزَّه الذكر الحكيم النبيَّ ﷺ عن أية صفة مدّعاة لا تليق بمقامه، كان لا بدَّ من أنْ يُنزِّه القرآنُ نفسَهُ عن أية شبهةٍ، من أنه قول البشر، وهذا التنزيه قد حمل التحدّي الصارخ:

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ﴾.. فإذا كان هذا القرآن من حديث «محمد» ﷺ، ومجرد أقوال وتآليف من عنده، فإنَّ ما يقدر عليه من قولٍ أو تأليف لا يعجزهم أنْ يقولوا مثله، وأنْ يؤلّفوا مثله، لأن لغته لغتهم، وفصاحته من فصاحتهم، وبيانه من بيانهم.. إذاً فليأتوا بحديث مثله إن كانوا ـ في زعمهم ـ صادقين.. والله ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم أنهم لكاذبون، وأنهم لا يقدرون على أنْ يأتوا بحديث من مثل القرآن.. وهذا يعني أنَّ التحدي القرآني إنما يواجههم بالاستطاعة التي يملكونها، وهي: اللغة والتأليف.. فإذا ثبت عجزهم عن ذلك، لزم عليهم أنْ يكفّوا عن هذا الكذب الشنيع، وألا يفتروا على النبيّ ﷺ بأنه يتقوَّل القرآن. بل ويكون لزاماً عليهم ـ وهم لم يأتوا بحديث مثله ـ أنْ يقروا بأنَّ القرآن منزَّل من عند الله تعالى، وأنْ يصدّقوا «محمداً» ﷺ بأنه نبيُّ الله ورسوله، وأنه يحمل دعوة الحق من ربّه، وهي دعوة «لا إلَهَ إلا الله» وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير..

٢ ـ القرآن لا يُفترى، ويتحدى المشركين أن يأتوا بعشر سور مثله

يقول الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1].

(١) سورة هود، الآية: ١٣.

إنه هو، هو: التحدي القرآني ذاته!..

وإنهم هُمُ، هُمُ: المشركون والكافرون أنفسهم!..

ولكنَّ الجو الذي نزل فيه التّحدي القرآني هذه المرة مختلف عن غيره، فالآية ١٣ من سورة «هود» التي تحمل هذا التحدّي، قد وردت تعقيباً على مواقفهم الجديدة، حيث لم يتوجهوا إلى «شخص» النبيّ ﷺ واتهامه بتقوّل القرآن، بل لجأوا إلى محاولة جديدة وهي النيل من نبوّته عن طريق طلب المعجزات، كما تدلُّ عليه الآية ١٢ من سورة هود، بقول الله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾(١)... فلعلك أيها النبيُّ تارك بعض الآيات التي توحى إليك، بحيث يضيق صدرك فلا تبلّغها في وقتها، كما يتمنّى ويشتهي المشركون، وكما يعلّلون به أنفسهم، وهم يلحّون عليك بالمطالب الإعجازية، كي يحرجوك!.. من مثل قولهم: «لولا أنزل عليه كنز»، أو قولهم: «لولا جاء معه ملك يصدقه»!. فاصبر على ما يقولون، إنْ هي إلّا مجرد ترهات، وأمانيُّ كاذبة ولا تَنُمُّ إلّا عن عجزهم، هم، تلقاء ما تنذرهم به.. فما أنت، والحقُّ، إلّا نذير بين يدي عذابٍ أليم، وما عليك إلّا البلاغ المبين، وليس الإتيان بالمعجزات!.. فالوحي واضح الدلالة والمعنى، كما يبينه ربّك بقوله العزيز: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾(٢).. إذاً فلا استجابة لأهوائهم المضلّلة لأنك نبيٌّ مرسلٌ ولا تحتاج إلى المعجزات التي يطلبونها.. أما إذا كانوا يقولون

(١) سورة هود، الآية: ١٢.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٥٠.

بأنك تفتري القرآن، كعادتهم في الافتراء عليك، فهم ولا ريب ضالُّون، إذ لو تفكّروا، واستبصروا.. لوجدوا أنك لا تبتغي إلّا استلال الجاهلية من كوامن نفوسهم، وإنارة عقولهم بفعل هذا القرآن الذي تتلوه عليهم آياتٍ بيّنات، تهدي للتي هي أقوم.. فإذا كانوا لا يصدّقون أنه كتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين، وأنه من عند الله، ويدّعون أنك تفتريه من عندك (فلا بلاغ ولا نذير ـ إذاً ـ من ربّ العالمين) فقل لهم: «فأتوا بعشر سورٍ مثله مفترياتٍ»، وادعوا كل من ترونَ أنه يستطيع مساعدتكم على هذا الأمر من دون الله جلَّ وعلا، الذي بعثني نبياً ورسولاً وأنزل عليَّ هذا القرآن.. هذا إن كنتم صادقين ـ في ادّعائكم ـ بأنه قرآن مفترىً..

ممّا يتبيّن معه أنَّ التحدي للمشركين، في أي مقام أتى، هو التحدّي نفسه، الذي لا يختلف نصاً ومضموناً في كل مناسبة وحين.. وهذا يعني بأن القرآن يتحداهم أنْ يأتوا بحديث مثله، على وجه العموم، دون تخصيص لموضوع معين، أو لحالة معينة، أو لظرفٍ معيّن، ولهم أنْ يختاروا من أجل ذلك من يريدون، من الذين يتوهمون أنهم يستطيعون الإتيان بمثله.. ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ﴾[1].

ثم تضيق دائرة هذا التحدّي، علّهم يجدون الأمرَ أسهلَ عليهم، أي: فإنْ عجزوا عن أنْ يأتوا بحديث مثل القرآن ـ وهم حتماً عاجزون ـ وظنّوا بأنَّ المطلوب أنْ يأتوا بقرآنٍ مماثل، يفترونه من عندهم، كما «يفتريه محمّد من عنده» فإنَّ هذا القرآن يتحداهم أنْ يأتوا ليس بقرآن مثله، بل ليأتوا بعشر سورٍ مثل سوره.. ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ

(١) سورة الطور، الآية: ٣٤.

﴿سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ بحيث تكون من نفس القول، الذي يتلوه عليهم النبيّ ﷺ قرآناً، ويدّعون أنه ليس قرآناً. . . ومثل هذا التحدّي إنما يحمل في طياته نوعاً من الاستصغار لقدرهم، والتحقير لشأنهم، لأن الخطاب للنبي ﷺ بالأمر الجلل: «قل» لهم يا «محمد» بأن يدعوا لمساعدتهم كل من يرون فيهم مقدرةً على ذلك من جهابذة الفصاحة، والبلاغة، والبيان، وحسن النظم والتأليف، وهذا إن كانوا صادقين في دعواهم. . أما أنَّ دعواهم غير صادقة، فإنما هو التوكيد على عجزهم، وعلى أنَّ الافتراءَ منهم، هم، على القرآن، وعلى النبيّ ﷺ معاً.

أما من حيث التبليغ والدعوة، فالتحدي هنا، شأنه في كل الحالات، ليس إلا مؤازرةً وتصديقاً للنبيّ الكريم بأن يثبت في وجه الكفار والمشركين، ولا يضيق صدره بما يقابلون به دعوته للهدى، من التعنت والاستكبار والافتراء عليه. . ولكي يعلموا أنَّ هذا النبيّ معصوم عن الافتراء، والاختلاق والتقوّل، وأنه لا يبلّغ إليهم إلا قول ربّ العالمين. . ولعلَّ في ذلك ما يكبح جماح عنادهم، فلا يطلبون منه المعجزات والخوارق، وما إلى ذلك مما كانوا يبرعون به لإعجاز النبي ﷺ من دون أدنى طائل! . .

٣ ـ القرآنُ، لا ريبَ، منزَّلٌ (ويتحدى الكافرين أنْ يأْتوا بسورةٍ من مثله)

يقول الله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾(١).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

وهنا نلاحظ أيضاً أنه حصر دائرة التحدي، ولكن إلى أضيق حيّز ممكن من نسج القرآن، عندما يدعوهم أن يأتوا ولو بسورة واحدة من مثله حتى ولو كانت من ثلاث آيات، كما هي الحال في بعض السور القرآنية. . وهذا التحدّي لأن يأتوا ولو بسورة واحدة من مثل سور القرآن، ليس لأنَّ الأمر يتعلق فقط بردّ الافتراء على شخص النبيّ ﷺ، أو بكبح جماح خيالهم ـ وهم يطلبون المعجزات ـ فهذه أمور يقينية، بل ولأنَّ أهداف التحدّي هي أوسع وأشمل وأعم، فهي تتناول الدعوة ككل، ويجب أن تكون على مستوى الدعوة ككل، إذْ القضية في الأساس، تتعلق بجوهر الدعوة، وأصل العقيدة، حيث نجد أنَّه سبق هذا التحديّ للكافرين (أن يأتوا بسورة واحدة من مثل القرآن)، دعوةُ الناس جميعاً لأنْ يعبدوا الله ربّهم، مع تبيان الأدلة لأحقية هذه العبادة، وذلك بقول الحقّ تبارك وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ * وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[١].

فالقضية هنا هي المنطلق، وهي الغاية: إنها الدعوة إلى عقيدة التوحيد التي يحملها محمد ﷺ. . وهي الدعوة التي تستوجب على الناس، كلَّ الناس، أنْ يعبدوا ربّهم الذي خلقهم، ولم يكونوا شيئاً، مثلما خلق الذين من قبلهم جميعاً، ولم يكونوا شيئاً، وليس ـ في الحقيقة ـ من خالق إلّا الله، وهو ربُّهم، وربُّ العالمين. . وهذه

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١ ـ ٢٣.

الدعوة هي لصالحكم أيها الناس، فإنْ عبدتم الله ربكم، فقد تتَّقون بعبادته العقابَ والعذابَ.

أما الأدلة العقلية والبراهين الحسية على توحيد الخالق، وضرورة عبادته فهي مجملة بالأشياء الأساسية التي لا يكون للناس حياة بدونها.. إنها هذه الأشياء العظيمة: الأرض التي تقلهم، والسماء التي تظلهم، والماء الذي جعل الله منه كلَّ شيءٍ حيٍّ، ومنه هذه الأرزاق من الثمرات على اختلاف أنواعها، وألوانها وطعومها.. فهذا الماء، وهذه الأرزاق التي بدونها لا يمكنكم العيش، ولا البقاء أحياءً، هي بعض من الشواهد والبراهين التي تؤيِّد مصاديق الذكر الحكيم الذي يوحيه ربُّ السماوات والأرض لعبده ورسوله «محمد»، الذي بعثه بالهدى ودين الحق للناس كافة.. وبعد الأدلة يأتي الأمر الجازم: فلا تجعلوا لله أنداداً تشركونهم معه في العبادة وأنتم تعلمون أنه الله الذي لا إلَه إلَّا هو، إلَهٌ واحد في السماوات والأرض، فلا إلَهَ غيره، ولا معبود سواه!..

وإنْ كنتم في ريب مما نزَّلنا على عبدنا محمد ﷺ من الآيات، والسور في القرآن، فأتوا بسورة واحدة من مثل سوره التي هي، في حقيقتها، مغايرة، بصورة مطلقة، لأي كتاب من الكتب السماوية، أو من كتب أهل الأرض..

والدعوة في هذا التحدي ـ كما في كل موضع من القرآن المجيد ـ ليست مقصورة على الكفار والمشركين في زمن الرسالة، بل هي دعوة قائمة أبداً لكل من يشكُّون أو لا يقرُّون بأن القرآن منزَّلٌ من عند الله تعالى. وليدعوا معهم من يشهد لهم بهذا ـ من دون الله ـ فقد

شهد سبحانه وتعالى لنفسه بأنه «لا إلَهَ إلاَّ هُوَ» قائماً بالعدل في خَلْقه، وذلك بقوله الكريم: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1]، كما شهد لعبده ونبيّه محمد ﷺ بالصدق والإيمان بدينه ودعوته، قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[3].

«وكفى بالله شهيداً» عليكم أيها العباد، في الدنيا والآخرة بما أنزل إلى نبيّه محمدٍ من الذكر الحكيم، والقرآن المبين.. وشهادته (عزَّ وعلا) هي الحق الصراح.. وشهادته (جلَّ جلاله) هي الحجة الصادقة.. فلا تجعلوا لله أنداداً!.. ولا ترتابوا بما أنزل إلى عبده «محمد»، أنزله بعلمه الذي لا يعزب عنه شيءٌ في السماوات والأرض..

وعلى كل حال فالنتيجة محسومة سلفاً: ليس من أحد، ولا جماعة، ولا أهل السماوات والأرض ـ لئن اجتمعوا ـ بقادرين على أنْ يأتوا بسورة واحدة من مثل القرآن. ولذلك كان هذا التحدي الذي ضاقت مساحته إلى الإتيان ولو بسورة واحدة، وكان في مقابله العجز المطلق.

٤ ـ القرآنُ يَتحدَّى الإنسَ والجانَّ (الثقلين) أَنْ يأْتوا بِمِثْلِه

يقول الله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢٢.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٦٦.

ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا* وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾(١).

إن معارضة القرآن متعذرة ولا ريب، فقد ثبت بعدما يزيد على أربعة عشر قرناً من الزمان، أن هذا القرآن هو المعجزة الحسية الدائمة التي يلمسها الناس بأيديهم، ويسمعونها بآذانهم، ويبصرونها بأعينهم.. والمعجزة ـ أية معجزة ـ كافية بذاتها للتدليل على أنها ليست من صنع البشر، وإلَّا لما أعجزتهم، وقصَّرت قدراتُهم وطاقاتُهم عن الإتيان بمثلها. وهذا ما ينطبق على حقيقة القرآن، فلا أحد يستطيع أنْ يغيّر فيه لفظة، أو عبارة، أو آيةً أو سورةً إلى يوم الدين.. أو أنْ يدّعي هذا التغيير، ويكون ما يدّعيه قرآناً أو ما يشبه القرآن! لأنَّ أي تغيير، أو تبديل أو تحريف، يكون مفتقراً لخصائص القرآن اللغوية والبلاغية ومجمل نسجه وبيانه، فضلاً عن المعاني والعظات، والأهداف التي تتضمنها الآيات، عادة، في السياق الذي تتناوله... ومن هنا كان تحدّي القرآن بإعجازه لمن أنكروا أنه منزَّل من عند الله، أمثال المشركين والكافرين جميعاً، الذين ثبت عجزهم بالفعل، هم وجميع الناس الذين أخذتهم العزة بالأثم، فظنوا أنهم يملكون الاستطاعة على أنْ يأتوا بمثل القرآن، وآخر الأدلة الحديثة على ذلك الكتاب الذي ألَّفوه في الغرب، بالتعاون مع الموتورين والحاقدين على القرآن وأهله، وأسموه (الفرقان)، والذي ثبت أنَّ ما بينه وبين القرآن من البعد ما بين السماوات والأرض!... ولعلَّ المنكرين لحقيقة القرآن قد غاب عن بالهم أن الإعجاز القرآنيّ لم يطرح مسألة تحديه على ساحة الإنس وحدهم، بل وتعداها ليطرحها

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ٨٨ و٨٩.

على ساحة الجن أيضاً. والقصد من هذا التحدي إثبات قصور الإنس والجن عن الإتيان بمثل القرآن على الرغم مما يتمتع به كل جنسٍ منهما من الخصائص والمزايا في خلقهما!.. فأما من ناحية الإنسان، فقد حباه خالقه الكريم بالعقل الذي به الإدراك والاختيار، وهي الخصيصة التي جعلته سيد المخلوقات على هذه الأرض.. فهو إذاً قادر على أنْ يفعل، أو يعمل، أو يصنع ما يشاء، إلّا ما كان خارجاً عن طاقته أو قدرته، فيبقى عاجزاً حياله.. وأما من ناحية الجن، فإنَّ القرآن الكريم نفسه يبيّن لنا بأنه مخلوق قد أعطي قدرات خارقة يستطيع بواسطتها أنْ يأتي المعجزات والخوارق، ومن قبيل ذلك إخبار القرآن عن عفريتٍ من الجن عندما قال للنبي سليمان عليه السلام بأنه قادر على أنْ يأتيَ بعرش ملكة سبأ (بلقيس)، من اليمن إلى بيت المقدس، قبل أنْ يقوم من مقامه، وفي هذا دليل على ما يتمتع به الجن من قدراتٍ خارقة بحكم تكوينهم.. بينما نجد أنَّ الذي «عنده علمٌ من الكتاب»، وهو من الإنس، قال له: أنا آتيك به قبل أن يرتدَّ إليك طرفك، وقد فعل ذلك حقاً، وأتاه بعرشها في لحظات، ولكنَّ ذلك كان باستخدامه علماً ممَّا علَّمه الله إياه من آياته، التي بفضلها يمكن أن تتحقق المعجزات، إذا شاء الله، ومنها معجزة نقل عرش بلقيس في لحظاتٍ..

أما السبب وراء الإتيان بذلك العرش، فقد سبق أنْ بعث النبيُّ سليمان لملكة اليمن كتاباً فحواه أنه: «بسم الله»، وأنْ تأتيه وقومُها مسلمين.. ويبدو أنَّ شهرة الملك سليمان كانت قد وصلت إلى تلك البلاد، ولكنَّ السياق القرآني لا يذكر شيئاً من ذلك، إنما يبيّن أنها عرضت الكتاب على الملأ من قومها، ليروا ماذا يصنعون، فأبدى الكهان، وحاشية البلاط والقادة المحاربون استعدادهم للقتال، فقالت

لهم كما يبيّنه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾(1)، أي ومثل تلك الأفعال، من الفساد، والإذلال اللذين يأتيانهما الملوك عندما يدخلون بلداً عنوةً، كذلك يفعل هؤلاء الذين أرسلوا الكتاب إذا جاؤونا غُزاةً فاتحين.. عندها قررت أنْ ترسل للنبيّ سليمان هدية، لترى ردَّه، فجاءها الرد الحاسم برفض الأموال التي بعثت بها، مما جعلها تقرر الذهاب إليه، هي والملأ من قومها.. فلما علم النبيّ سليمان بخروجها من اليمن، طلب أنْ يأتوه بعرشها قبل أنْ تصل إليه، ليتبيّن عند مجيئها ما لديها من علم مكَّنها أنْ تحكم بلاد اليمن.. يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ۞ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾(2)، أي قيل لها: أمثلُ هذا العرشِ عرشُكِ؟ قالت: كأنه هو!.. مما يعني أنها عرفته، ولكنَّها شبَّهت عليهم، كما شبَّهوا عليها، إذ لو قيل لها: أهذا عرشك؟ لقالت: نعم.. وقد تأكَّد للنبي سليمان عليه السلام من جوابها، بأنَّ لديها علماً ومعرفةً، ولكنْ صدَّها عن الاهتداء إلى الإيمان الحق، وعن عبادة الله تعالى، أنها كانت من قوم كافرين.. ومع تلك القدرات الممنوحة للإنس والجن، كان تحدي القرآن لهم بأنْ يجتمعوا، ويتعاونوا على الإتيان بمثل هذا القرآن.. ثم كان الأمر الجازم على أنهم غير قادرين على ذلك.. ثم أتبعه التعقيب ـ على نفي قدرتهم ـ بأنْ يتقوا غضب الله ربّهم، وألا يبقوا مصرّين على عنادهم وكفرهم، وإلا كانوا وقوداً للنار التي أعدت للكافرين، كما يبيّنه قول الحق تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ

---

(1) سورة النمل، الآية: ٣٤.

(2) سورة النمل، الآيتان: ٤٢ و٤٣.

فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾(١).

بل ويرمي النص القرآنيّ في تبيان هذه الحقيقة إلى أبعد من ذلك بكثير، إذ إنَّ الخصائص التي يتميز بها خلق كل من الإنس والجن، تجعل اجتماعهم على التعاون فيما بينهم أمراً مستحيلاً، فهم من جنسين مختلفين في التكوين، سواء في الهيئة أو في الطاقة.. علماً بأننا لا ندري فعلاً كيفية تكوين الجن، ولكننا نعلم أنَّ بين جنسنا وجنسهم اختلافات كبيرة في كل شيء؛ ومنها على سبيل المثال أنهم يروننا من من حيث لا نراهم.. بل والنصوص القرآنية تبيّن أنَّ مِنَ الجان مَنْ هم من الشياطين، كما في قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾(٢). وفي قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾(٣).

وهنا لا بدَّ أن نتبين أمراً جوهرياً، وهو أنَّ الشياطين من الجن هم عدو للإنسان، ولم يثبت وجود اتفاق أو تعاون على الخير بين هذين الجنسين المختلفين، بل ومن الثابت في القرآن، أنَّ الشياطين، وهم من قبيل إبليس، إنما يغوون الناس ويضلّونهم ليصدوهم عن

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٢٣ و٢٤.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٢.

(٣) سورة سبأ، الآية: ١٢ و١٣.

سبيل الله تعالى.. أما ما كانوا يعملون للنبيّ سليمان عليه السلام، فهو تسخير لهم من الله تعالى كي يتمكّن من إقامة معبدٍ للصلاة. بل ولقد توعدهم ربّهم بأنَّ من لا يطيع سليمان عليه السلام فإنه يخالف أمر ربّه، وعذابه سوف يكون في النار..

ولئن كان الأمر كذلك من الاختلاف والعداوة بين الناس والشياطين فلا يمكن أنْ يتعاونوا أو يتعاضدوا.. ولئن اجتمعوا - فَرَضاً - على أنْ يأتوا بمثل هذا القرآن، فلن يفعلوا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، أي عضداً ومعيناً على هذا الأمر..

ثم إنَّ من مدلولات النصّ القرآني، في سياق تحدّي الإنس والجن على أنْ يأتوا بمثل القرآن، أنَّ الجنَّ منهم المؤمنون ومنهم الكافرون، وأنَّ هؤلاء الكافرين هم من يعارضونَ القرآن مثل الكافرين من الإنس، ولئن كانت تلك المعارضة لا تجدي هؤلاء ولا هؤلاء فتيلاً.

ومثل قضية التحدّي القرآني لكل من يعارضونه، والتي تشكل حقيقةً طرحها كتابُ الله على ساحتي الإنس والجن، هنالك حقائق كثيرة غيرها قد أوردها القرآن الكريم وحثَّ الناس على معرفتها، فإن عصيت على الناس، ولم يتمكنوا من إدراكها، أو الوقوف على مضامينها وغاياتها فهذا قصور من الناس، ولا سيما من الذين أبوا إلّا أن يكونوا كافرين بالله تعالى، وكتابه المجيد، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾(١)..

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٩.

وليس القرآن فريداً ـ وحسب ـ في المبنى والمعنى اللذين فيهما مضامين الإِعجاز، بل ويتفرَّد في تكامله بما يقدمه من براهين على عظمة الخالق، وعلى عظيم خلق السماوات والأرض، وما يهدي إليه من سبل الإيمان والرشاد، وما يبين من المناهج والأحكام. . أي أنَّ كل ما يستوقف الإنسان من القضايا التي تتعلق بالحياة الدنيا، وبالحياة الآخرة قد جاء بها القرآن، ومع ذلك فإنَّ قضايا أخرى عظيمة قد أحاط بها علم الله، وتنطوي عليها آيات القرآن، إلَّا أنَّ ربَّنا تعالى قد قضى، في علمه الأزليّ، أنْ تبقى مغلقة على الإنس والجن، لأنها من القضايا التي لا تقدر عليها طاقات البشر، ولا قدرات الجن. .

فإذا كان القرآن على ذلك الاتساع والشمول والعمق في احتواء الآيات للمعاني والقضايا والعظات، والأخبار، والقصص، والأمثال، والأهداف التي تتوخى أفضل القيم، والمُثُل، والمناهج. . فهل تقدر مخلوقات ـ مهما كان جنسها، ومهما تميزت به من الخصائص الذاتية ـ على الإتيان بمثله؟ ولذلك كان التحدي للثقلين معاً على أنْ يأتوا بمثل هذا القرآن، وكان بالمقابل عجزهما عن ذلك ثابتاً وأكيداً.

وعلى الرغم من كمال القرآن فقد أبى أكثر الناس إلا كفوراً وعناداً. . فلم يصدقوا ما يتصف به هذا الكتاب المجيد، وما يتفرَّد به من الإعجاز الذي يجعله فوق مستوى الإنس والجن، فأبوا إلا المماحكة والادعاء بأنه من عند محمد ﷺ، وليس هو قول الله الحق! . .

وبسبب هذا الإصرار على الكفر وعدم الإقرار بحقيقة القرآن، كان الإنسان أكثر شيء جدلاً ـ في حقيقة هذا القرآن العظيم ـ يقول

الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[1].

وهذا الجدل قد تبين لنا عندما كان الكفار والمشركون يدّعون تارةً بأنَّ محمداً ﷺ يتقوَّل القرآن، وتارةً أخرى عندما كانوا ينسبون إليه بأنه افتراه من عنده، أو عندما كانوا يجادلونه على نزوله عليه متفرقاً، وليس جملةً واحدةً أو دفعةً واحدة.. أو عندما كانوا يريدون إظهار عجز النبيّ ﷺ لصرف الناس عنه، وعن دعوته.. ومن قبيل ذلك سؤالهم التعجيزيّ عن الروح، أو طلبهم المعجزات التي لا يقدر عليها إلا الله العليّ القدير. بل قد بلغ بهم الحال أنْ يطلبوا من النبيّ ﷺ أن يأتيهم بقرآن غير هذا القرآن الذي يتلوه عليهم، كما يتبين في قول الله تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[2].

أجل، فقد بلغ الكفر بمن لا يرجون لقاء الله ربّهم، ولم يصدقوا الوعد والوعيد بالبعث والحساب، أنْ ينكروا كلَّ ما يُتلى عليهم من آيات القرآن المجيد، التي تبيّن لهم الأمثال، وتروي لهم قصص الأمم الغابرة، أو التي تبيّن لهم القضايا الغيبية بشواهد من واقع الحياة التي يعيشونها، أو تلك التي تسفه أحلامهم وتعيب عليهم عبادة آلهة مدعاة!.. فكانوا يطلبون من النبيّ ﷺ أنْ يأتيهم بقرآن غير هذا

---

(1) سورة الكهف، الآية: ٥٤.

(2) سورة يونس، الآية: ١٥.

القرآن، أو أنْ يبدّله فلا يكون فيه إزدراءٌ بعقائدهم وعباداتهم، ولا يفرض عليهم تكاليف وعبادات. .

وكان خطابُ الله تعالى للنبيّ الهادي، والرسول الأمين ﷺ في الردّ على ذلك، أنْ يذكّرهم، ويؤكد عليهم حقيقة بعثه نبيّاً رسولاً، وحقيقة أنَّ القرآن هو قول الله الحق، فلا يمكن لأحدٍ، ولا للنبيّ نفسه أنْ يبدّله أو أن يغيّر فيه شيئاً. . فكان توجيه ربّه تعالى له أن يقول لهم ما مؤداه: ما ينبغي لي أنْ أبدّله من تلقاء نفسي، فما أنا إلا بشرٌ مثلكم، وقد اختارني الله ربّي بشيراً ونذيراً للعالمين. وهذا القرآن إنْ هو إلا وحي يوحى إليَّ، فأتبع الوحي وأبلغه كما أمرت، وإني أخاف إنْ عصيتُ ربّي ـ فلا أبلغ الوحي كاملاً كما يتنزَّل به عليَّ جبريل الأمين ـ عذاب يومٍ عظيمٍ. .

وكذلك كان أمر ربّه تبارك وتعالى أن يقول لهم ما معناه: لو شاء الله ألّا ينزل عليَّ القرآن، وألّا أبلغكم إياه، ما أنزله، وما تلوته عليكم، ولا أعلمكم به. . ولكن شاء الله ربّي وربّكم، وربّ آبائكم الأولين، أنْ يتفضَّل عليَّ بنعمة النبوة، وأنْ يرسلني بالدين الحق، فأنزل عليَّ هذا القرآن الذي أتلوه عليكم. . فقد لبثت فيكم عمراً قبل أنْ يبعثني الله نبياً رسولاً، ولم أدَّعِ طيلة هذا العمر الذي امتدَّ على مدى أربعين سنة: لا نبوّةً، ولا رسالةً، ولم أتلُ عليكم شيئاً من وحي، أفلا تتذكرون، وتعقلون، وأنتم تعلمون سيرة حياتي التي عشتها بين ظهرانيكم؟!

وعلى الرغم من هذه الآيات البيّنات التي كانت تتنزَّل على النبيّ الكريم لمواجهة أهل الكفر والشرك، وما حملته من التحدي الذي يُظهر ضعف الإنسان، وصغره أمام عظمة القرآن المجيد، فقد ظلوا

على عنادهم، وعلى تكذيبهم للنبيّ ﷺ: يجادلونه، ويحاجّونه بالباطل دون أنْ يعقلوا أو ينصاعوا لدعوة الحق المبين. وهذا يعني أنه لم ينفع معهم ما صرّف الله تعالى في هذا القرآن من الأمثال، فأبى أكثر الناس إلّا الكفرَ، والضلال، ولذلك كانت طريقتهم للدفاع عن كفرهم: أنْ يجادلوا أكثر ما يجادلون في هذا القرآن، دون عقل أو تدبر.. إنما عاقبة هذا الكفر ـ بعدما تبيّن لهم الهدى فرفضوه ـ لن تكون، وفقاً للعدل الإلهيّ، إلا الخسران المبين..

٥ ـ بعض ملامح التحدي القرآنيّ

لقد تبيّن لنا مما تقدم أن التحدي ورد في أربع سور متفرقة من القرآن المجيد (البقرة: ٢٣ ـ هود: ١٣ ـ الإسراء: ٨٨ و٨٩ ـ الطور: ٣٣ و٣٤) وهي تحمل على الكافرين والمشركين لتأكيد أمرين جوهريين:

الأول: أن القرآن هو «ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين».

الثاني: أنه منزَّل بالوحي من عند الله تعالى على عبده ورسوله محمد ﷺ الذي بعثَهُ بشيراً ونذيراً للعالمين.

أما وجه التحدّي فيه، فهو أنَّ هذا القرآن قد أُنزل بلسان عربيّ مبين، وأنَّ العرب هم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان، ومع ذلك فإنه يختلف عن كلامهم كله، لأنه نزل على نظم مخصوصٍ، وبلاغةٍ وفصاحةٍ مخصوصتين فلا يستطيعون أنْ يدانوا شيئاً منهما.. ومن هنا كان اللفظ، والتعبير وأسلوب الأداء من ميزات الإعجاز القرآني، حتى للعرب أنفسهم، الذين نزل القرآنُ بلغتهم.. والدليلُ أنَّ البلاغة ـ التي كانوا يتغنون بأنهم أسيادها ـ تكون على ثلاث طبقات:

فأعلى طبقاتها معجز، وأدناها وأوسطها ممكن، والتّحدي القرآني وقع في الطبقة العليا، هذا من حيث البلاغة .. أما من حيث المعاني ففي القرآن تبيان لكل شيء، وهذا ما يعجز عنه الإنس والجان، ومن هنا كان عجزهم - عن عدم الإتيان بشيء من مثله - حجةً عليهم، ودليلاً ثابتاً على صدق محمد ﷺ، وعلى حقيقة الوحي الذي يبلغهم عنه آيات ربّهم تعالى..

أما لماذا ذَكَرَ الله التحدّي مرةً «بحديث مثله» ومرةً «بعشر سور» ومرة «بسورة واحدة» فلأنَّ التحدّي إنما وقع بما يظهر فيه الإعجاز من منظوم الكلام، فتحدى بالوجه العام، ثم بالأكثر، ثم بالأقل..

ثم إذا علمنا بأنَّ الكافرين والمشركين - وكثيراً غيرهم من أهل الكتاب - قد شنّوا على النبيّ ﷺ وأتباعه حروباً نفسية لا هوادة فيها، وبخاصة تلك الإشاعات المضلّلة التي تكفي - بذاتها - لصدّ الناس عن الدعوة، كما شنّوا على المسلمين حروباً قتالية فعلية، بذلوا من أجلها الأنفس والأموال، إلّا أنها لم تُؤتِ لهم إلّا الهزيمة، والقتل، والذل، وذهاب السيادة التي كانوا يتمتعون بها على سائر قبائل العرب في الجزيرة.. أجل لو علمنا ذلك كله، لأدركنا كم كان المكذبون للنبيّ ﷺ والمعارضون للقرآن على ضلال مبين!.. وكم كان التحدّي ضرورياً لأنْ يعيدهم إلى رشدهم، فلا يركبون مركب الجهالة، ولا مركب الهزيمة، وقد أدت كلها إلى عجزهم حتى بالاستطاعة التي يملكونها وهي: الكلام، والتأليف.. فتلك الحروب الإعلامية والقتالية التي مارسوها، هي البرهان على عجزهم هذا، إذ لو قدروا على معارضة القرآن، والإتيان بشيء من مثله، لكان ذلك أهون وأيسر

عليهم من الحروب والقتال، وبذل الأموال والأنفس.. وهذا أمر ينبع من طبيعة الإنسان التي تملي عليه ألّا يعدل عن الأسهل إلى الأصعب ـ أو أن يركب الخشن ـ إذا كان من شأن الأسهل أن ينيله الهدف الذي يبتغي.. فالأمر الأسهل كان بالنسبة إليهم معارضة القرآن، عن طريق الإتيان بشيء من مثله، أما الأمر الأصعب فهو ذلك القتال الذي ظهر بالغزوات التي شنّوها على المسلمين للقضاء على الدعوة، ومن ثَمَّ لإماتة الوحي الذي يعني ذهاب القرآن!.. ولكن أنّى لهم ذلك، وإنَّ مجرد اختيارهم للأصعب كان كافياً ـ بذاته ـ لإثبات عجزهم وإفلاسهم عن الإتيان بشيءٍ من مثل القرآن، وبالتالي للتأكيد على مصداقية التحدّي!.

على أنَّ من يطّلع على القرآن، ويفقه معانيه، يدرك تماماً أنَّ إعجازه لا يقف عند حدود سورة من سوره، أو آية من آياته، بل هو ينتصب في مطلع سور كثيرة مُفْتَتَحَةٍ بالأحرف النورانية، التي قال بعض المفسرين: إنَّ افتتاح بعض السور فيها إنما يعني أنَّ هذا الكتاب المنزَّل من عند الله تعالى هو مصوغ من تلك الحروف التي في أيديهم، بينما في الحقيقة إنَّ مثل هذا الافتتاح واستعمال هذه الحروف في أول السور، يبقى سراً مغلقاً على الناس، وإنَّ ما ذهب إليه المفسرون، في شتى التفسيرات، لا يعدو ضرباً من الاجتهاد الذي يثاب عليه صاحبه..

أما حقيقة إعجاز القرآن، فهو أنه ـ كما ثبت ـ ليس من كلام البشر، وإلا لما كان هذا التأكيد الجازم من الله العليّ العظيم على أن الإنس والجن لو تطاولوا، وحاولوا الإتيان بمثل القرآن، فإنهم عاجزون عن ذلك عجزاً مطلقاً، ولذلك كان الإنذار المبين بقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ

تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

فالتأكيد الجازم: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ أي لن تستطيعوا الإتيان بمثل هذا القرآن لا حاضراً، ولا مستقبلاً، ومهما تطاول الزمان!.. إنما يدلُّ على شيء واحد، وهو أن النتيجة محسومة سلفاً وهو عجزكم!.. إذاً فاعقلوا، وأدركوا أيها الناس المعاندون أنكم لن تأتوا بمثل هذا القرآن، وإلّا إن بقيتم على عنادكم، وكفركم بالقرآن فسوف يكون مصيركم إلى النار التي أعدت لكم بسبب هذا الكفر الذي تصرّون عليه بعد ثبوت الدليل العقليّ، والبرهان الحسيّ من أنفسكم بالذات، ألا وهو عجزكم المطلق عن الإتيان بمثل القرآن..

والخطاب: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ هو للثقلين معاً ـ الإنس والجن ـ وليس مقصوراً على جيل، أو أمة. «ولن تفعلوا» لا الآن، وإلى قيام الساعة، بل سوف يظل هذا القرآن حجةً في وجه جميع معارضيه ومكذّبيه، إلى أنْ يأتي الله أمراً كان مفعولاً، ويُظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون.. ولو كره الكافرون...

٦ ـ وكذلك يفصّل الله آياته ولتستبين سبيل المجرمين

يقول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ* وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ* وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ* وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤.

بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[1].

روى أحمد والطبراني وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: «مرَّ الملأ من قريش على رسول الله وعنده خباب بن الأرتّ، وصهيب، وبلال، وعمار وغيرهم من ضعاف المسلمين، فقالوا: يا محمد! أرضيت بهؤلاء، وهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا؟! لو طردت هؤلاء لاتبعناك، فأنزل الله بأولئك المسلمين من أتباعه ذكراً حكيماً بقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ـ الآيات ـ إلى قوله تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

إنها قصة المستكبرين أينما وجدوا. إنهم لا يطيقون مجالسة الفقراء والمستضعفين، ولا معاشرتهم، فكيف يكونون وإياهم في مجلس واحد، وعلى مستوى واحد من المساواة وعدم التمييز؟!

إنهم يريدون أنْ تكون لهم وحدهم المكانة الأولى في كل شيء! . . حتى في أمر العقيدة، وفي قضية الإيمان اللذين يربطان قلب الإنسان بربّه، ويجعلان الصلةَ الحقَّ مقصورةً على علاقة الإنسان بخالقه . .

هذا ما كان المشركون من زعامة قريش يريدونه، عندما اشترطوا على النبيّ ﷺ أنْ يبعد عنه ضعاف المسلمين، وأنْ يطردهم من مجالسه لأنَّ مكانتهم الاجتماعية لا تسمح لهم بمجالستهم، ولأنهم لا يرضون أنْ يكونوا وإيَّاهم سواسيةً في الدين الجديد. . ولكنَّ

---

(١) سورة الأنعام، الآيات: ٥٢ ـ ٥٥.

رسول الله أبى أنْ يستجيب لدعوة أولئك «الكبراء» من قريش!..
وهذا أمرٌ بديهي لأنَّ الإسلامَ الذي يدعو إلى اعتناقه لا يقيم أي اعتبارٍ أو وزنٍ للفوارق الاجتماعية التي يتمايز بها الناس على أساس الغنى والفقر، أو النفوذ والضعف.. فالمقياس في الإسلام هو التقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.. فلا مال، ولا جاه، ولا سلطان، ولا مكانة يمكن أن تعطي أيَّ إنسانٍ مكرمةً على غيره إلَّا التقوى، فهي الميزان الحق الذي توزن به القيم التي يتحلَّى بها الناس، وتجعل بعضهم في مرتبةٍ أعلى من بعض.

ولم يكن لتلك الشروط من المشركين أن تمرَّ من غير تبيان لبعض القواعد التي يجب أنْ تقوم عليها العلاقات في المجتمع الإسلامي، فنزل الوحيُ يثبّت النبيَّ ﷺ على موقفه؛ إذ إنّ عليه أنْ يبلّغ الناسَ، بما تحمل الآيات المنزلة من النذير المبين، ومن ثَمَّ فلا يطرد الذين يعبدون ربّهم، ويتوجهون إليه بقلوب عامرة بالإيمان، يدعونه في الصباح والمساء مخلصين له الدين ولو كره الكافرون.. أمَّا أنهم فقراء أو ضعفاء فهذا ليس من شأن أحد، لأن فقرهم أو غناهم مقدَّرٌ من الله، حتى النبيّ نفسه فإنَّ غناه أو فقره بيد الله، ولا يملك أحد هذا الشأن إلَّا الله سبحانه وتعالى؛ إذاً فلماذا يطرد رسول الله الفقراء والمساكين والمستضعفين من حوله، وهو الذي يحمل الدعوة إلى دين الرحمة، والعدالة، والمؤاخاة.. ولو فعلَ ـ فرضاً ـ بأن آثَرَ المستكبرين على غيرهم من الناس، لكان من الظالمين، وحاشا لرسول الله أنْ يكون من الظالمين، فكان رفضه قاطعاً في الاستجابة لرغبة أولئك الطغاة من قريش! ثم ماذا على هؤلاء، ممَّن يدَّعون السيادةَ في القوم لو دخلوا في الإسلام، وهذا لصالحهم!.. أما إنْ

رفضوا، مدَّعين مثل تلك الأعذار الواهية، فالذنب يقع على عاتقهم، وهذا لا يعني إلَّا تصميماً للبقاء على شركهم، وهو الظلم بعينه، لأنَّ الشرك لظلمٌ عظيم لو كانوا يعلمون!...

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾[1]..

..فالاستكبار على المؤمنين المساكين هو بذاته فتنة، إذا لم تتقبّل عقولهم، ولم تقتنع نفوسهم بأن يكون مواليهم وفقراؤهم أهدى منهم. وتلك الفتنة هي ما ابتلاهم الله به، لأنه يعلم ما في الصدور. وقد ظهرت تلك الفتنة على ألسنتهم بقولهم: أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا، فهداهم إلى الخير الذي يدعو إليه «محمد»؟! إنه لو كان ما جاء به «محمّد» خيراً لما سبقونا إليه، ولما جعلهم الله أفضلَ مِنّا، ولا منَّ عليهم من بيننا، وتركنا من غير أنْ يهدينا إلى دينه.. والحال أننا نحن أصحاب الجاه والمال، وذوي السيادة والمقام!.. ذلك قولهم بأفواههم، ولكنَّ القرآنَ يردُّ عليهم مستنكراً ظنونهم وأفكارهم العقيمة: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لربّهم على ما أنعم عليهم من نعمة الإسلام، التي تُعدُّ - بالمفهوم الإنساني - من أعظم النعم التي يمنُّ بها الله على عباده، الذين لا يعبدون إلّا الله تعالى، ولا يتوجهون بالحمد والشكر إلّا لوجهه الكريم... والله تعالى يعلم هؤلاء المؤمنين الشاكرين، فخصَّهم بنعمة الشكر لأنهم يستحقونها، وسيجزي سبحانه هؤلاء الشاكرين على شكرهم.. وشتان ما بين جزاءٍ محمودٍ على شكر النعمة بالإسلام، وبين جزاءٍ مذمومٍ على جرم الكفر

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٣.

أو الشرك!.. والله أعلم بالشاكرين لأنعمه، وهو أعلم بالجاحدين لهذه الأنعم.

ثم يأمرُ الله تعالى نبيَّه محمداً بتعظيم المؤمنين، الذين يؤمنون بآيات الله يتلوها عليهم قرآناً مبيناً، ويصدقون بما أنزل إليه من ربّه، وما أنزل من قبله من كتاب.. وذلك التعظيم بأنْ يقول لهم: سلام عليكم بما قضى ربكم على نفسه من الرحمة بكم، كما يهدينا إليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

إنه السلام الذي يملأ نفوسهم بالطمأنينة والراحة، فلا يخافون أنْ يطردوا من مجالس رسول الله ﷺ، ولا أن يُبعدوا عن رحمته ورأفته بهم؛ لا بل هو رضىً من ربّهم الحميد الذي أسبغ عليهم فضل السبق إلى الإسلام، فكانوا أهلاً لأنْ ينعموا بأمان الله، وبالسلام الذي يفشيه الرسولُ بينهم.. وزيادة في تكريمهم والإنعام عليهم، فإن الله يبشرهم بأنه كتب على نفس الرحمة، أنه من عمل منهم سوءاً بجهالة، ثم تاب من بعده، وأصلح نيته وعمله، خالصاً لله، فأنه تعالى غفور رحيم.. وهذا يعني أنَّ الله عزَّ وجلَّ أمرَ نبيَّه بأنْ يقبل عذر من عمل سوءاً، وكان يجهل عاقبةَ هذا السوء، ثم يبشِّره بالسلامة لمن اعتذر وأناب إلى ربّه، بل ويؤمِّنه بأنَّ ربَّهُ ومولاه أوجب على نفسه الرحمة إيجاباً مؤكداً، وذلك بأنْ جعل هذه الرحمة للذين آمنوا بآياته، ثم أخطأوا في بعض تصرفاتهم - عن جهل، ثم تابوا عن خطأهم، من بعد علمهم به.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٤.

وقد يحتمل النص: ﴿أنه من عمل سوءاً بجهالة﴾ أي كان جاهلاً للمكروه فيه، لأن البعض يفسّر الجهالة بأنها ملازمة لارتكاب الذنب، فما يذنب المؤمنُ إلّا عن جهالة، أو أنه علم أنَّ عاقبة هذا السوء مكروهة، ولكنه آثر العاجل، فَجُعِلَ جاهلاً لإيثاره النفعَ القليلَ على المنافع الكثيرة، والمتعة الزائلة على العافية الدائمة. ومثله قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[١].. فالتوبة التي تتأتّى عن الرحمة التي كتبها الله على نفسه للذين يعملون المعصية، إنما هي لأنهم كانوا جاهلين بأنهم يعصون ربّهم، ثم يتوبون من قريب، أي قبل أنْ يدركهم الموت، فأولئك يقبل الله توبتهم. والله تعالى عليم بخلقه، وبضعفهم الذي يرتكبون بسببه المعصية، ثم لا يصرون عليها. وهو سبحانه حكيم بما جعل في نفوسهم من قابلية لتجاوز هذا الضعف، وعدم الوقوع في المعصية مرة أخرى، ثم الرجوع إلى ربّهم طلباً للتوبة والمغفرة..

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[٢].

«وكذلك» أي مثل ما قدَّمنا من الدلالات على التوحيد، والنبوة، والقضاء بالرحمة، والتوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون عنه.. «نفصّل الآيات»، أي نبيّن الحجج، والبراهين، والشواهد والأدلّة ونوضّحها على صحة ما يقول هذا الرسولُ، وبطلان ما يقوله أولئك الكفار.

﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: أي ليعرف السامع أو السائل، أو

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٧.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٥.

لتعرفَ أنت يا «محمد» ـ في حال كانت «سبيلَ» على النصب ـ سبيلَ المجرمين، وما هم عليه من الكفر والعناد، وارتكاب المعاصي والجرائم المؤدية إلى النار.. وقيل: إنَّ المراد بـ «سبيل المجرمين» ما عالجهم الله به من الإذلال، واللعن، والبراءة منهم، والأمر بالقتل والسبي في حال محاربتهم للمؤمنين، ونحو ذلك من المخازي التي ينزلها بهم العليم الحكيم على يد المؤمنين، أو العقوبات التي ينزلها بها العليُّ القديرُ على ذنوبهم...

وإذا سُئل: ما المشبه وما المشبه به في الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؟ فالجواب:

الكاف: أداة تشبيه، وقد جاء هذا التشبيه في موضع نصب لأنه مفعول «نفصِّل».

و«الواو» في «ولتستبين» للعطف على مضمر محذوف، وتقديره: لتفهموا ثوابَ التوبةِ وإصلاحِ النفس، «ولتستبينَ سبيلُ المجرمين» ممن لا يتوبون، ولا يرجون رحمة من ربهم الغفور الرحيم، أو جاء الحذف لأنَّ فيما أبقى دليلاً على ما ألقى.

أو أنَّ المعنى: كما بيّنا ما ذكر في الآيات التي تقدمت في هذه السورة، كذلك نفصّل ونبيّن الآيات الأخرى التي تليها، ليظهر الحق فيُعمل به، وتظهر طريق المجرمين فيُصار إلى اجتنابها..

«ومن هذا يتبين أنَّ النص قد جاء شاملاً لكل سوء يعمله صاحبه متى تاب من بعده وأصلح عمله، وذلك لأنَّ النصوص الأخرى في القرآن الكريم تجعل التوبة من الذنب ـ أياً كان ـ والإصلاح بعده، مستوجبة للمغفرة بما كتب الله تعالى على نفسه من الرحمة».

الفقرة الثالثة ـ الإيمان برسل الله

١ ـ ليست استجابة الذين يدعونهم من دون الله، إلّا كباسط كفّيه إلى الماء وما هو ببالغه.

يقول الله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾[١].

إنَّ دعوة الحق، التي هي كلمة الإخلاص بشهادة «لا إلَهَ إلّا الله»، وما ينضوي تحتها من دعوات الصلاح، والإصلاح، والخير والتقوى، والإيمان، والسلام، والإسلام.. هي جميعها لله وحده، الذي لا شريك له، فله الملك، وله الحمد، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير.. فكان من مقتضيات الوجود كله، أنْ تكون العبادة لله وحده، وأنْ لا يشرك العباد بعبادة ربّهم أحداً.. ولكي تستقيم هذه الدعوة في عقول الناس وأفئدتهم، وتتأثر بها أسماعهم وأبصارهم، وسائر حواسهم وجوارحهم، فقد أمر الله تعالى الرسولَ ﷺ أنْ يلقي الحجج البيّنات على أهل الكفر والضلال ـ بل وعلى الناس كافة ـ فيسألهم بطريقة السؤال التقريري، التوكيدي بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ﴾[٢]... فهذه القضايا الكبرى، التي تلامس كيانَ كل كائن بشري، لا بدَّ إلّا أن تكون، إذا ما طرحت

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٤.

(٢) سورة يونس، الآية: ٣١.

على الأسماع والأبصار والأفئدة، من الحجج والبراهين العقلية والحسية التي يقدمها القرآن. .أجل إنَّ هذه القضايا إذا ما طرحت على الناس، لا بدَّ أن تهزَّهم، وتحرّك عقولهم ومشاعرهم، ثم تفرض عليهم أنْ يجيبوا إمَّا بالإنكار، أو بالإقرار، فإنْ راعوا الحقَّ المبين ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾[1]، أي أنَّهُ إقرارٌ بيّنٌ منهم بأنَّ من يرزق من السماء والأرض، ومن يملك السمع والأبصار، ومن يخرج الحيَّ من الميت، ويخرج الميت من الحي، ومن يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض هو الله تعالى. . فإذا قالوا هو «الله» فقل لهم يا محمد: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[2] ـ إذاً ـ ربّكم القويَّ المتين، فتؤمنون به إلَهاً واحداً، وله وحده دعوة الحقّ؟

بل ويتابع الوحيُ الأمرَ التقريري، حتى لا يكون الإقرار، مجرد إقرار، وإنما توكيد على أنَّ الخالق، والجاعل والفاعل لكل تلك القضايا والأشياء، والذي يدبّر أمور الخلائق، هو لله ربّكم، الحق الأزلي، القائم والدائم، ولذلك يأتي التوكيد على أنَّ الله وحده دعوةَ الحق بقوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[3]. . فكيف تحيدون عن الإيمان بالله ربّكم الحقّ، مع تلك الحجج والبراهين، وبعد إقراركم واعترافكم؟! . .

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّۖ﴾ أيها العباد، فكان قوله الحق، و«له دعوة الحق» عبادةً، واستسلاماً ودعاءً؛ فإذا كان توجهكم إليه بالنية

(1) سورة يونس، الآية: ٣١.
(2) سورة يونس، الآية: ٣١.
(3) سورة يونس، الآية: ٣٢.

الخالصة، والقلب الموقن، واللسان الصادق، فإنه سبحانه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ولا يخيِّب أمل من رجاه..

أما الذين يدعونهم من دون الله، كما هو شأن المشركين والكافرين، الذين كانوا يتعبَّدون لتصوراتٍ وهميةٍ لا تنفع ولا تضرّ، أو كشأن الذين يعتمدون على أمثالهم من الناس، ويتكلون عليهم في قضاء حوائجهم ونيل مطالبهم.. فكل أولئك الذين يدعونهم من دون الله ربّهم الحق، لا يستجيبون لهم بشيءٍ، إلّا أنْ يكون خلافاً للحق، ومتماشياً مع الباطل!.. ولذلك فإنَّ مِثْلَ تلك النتائج التي يحصلون عليها من حيث قيمتها في حسبان الحق، كمثل ما يحصل على الماء رجلٌ ظمآنٌ يقف على حافة بئر، أو فوق نبعٍ، أو على ضفة نهرٍ، وهو يحدِّق بالماء، ويبسط إليه كفيّه، وكأنما يدعوه ليرتفع إليه، فتتلقفهُ كفاه المفتوحان، ثم يودعه فمَهُ ليرتوي!.. وهذا ضربٌ من التصور الذي لا ينفعه بشيء، لأنه محالٌ أنْ يرتفع الماء بصورة تلقائية لمجرد أنْ يبسط كفيه إليه، دون أنْ يتقدم ويغرف منه، ليروي ظمأه.. فحاله في هذا التصرّف الذي يدل على بلاهته في عدم اغتراف الماء بكفَّيْه، كمثل حال أولئك الذين يدعونهم، أو يعوّلون عليهم من الأوثان، أو الكائنات، أو البشر من دون الله تعالى إذ تبقى دعواتهم لهم دعواتٍ باطلةً وفاسدةً لأنها غير مبنية على الحق، ولا تتوخى الحقّ.. ولذلك كانت كل دعوة لغير الله الحق، دعوة ضلالٍ وبهتانٍ، وخارجةً عن طبيعة الحياة المحكومة بالحق، وكذلك كان كلُّ خروجٍ على سنن وضوابط الحق، إنما هو إلى بطلان وضياع؛ فالنتائج التي تترتب على أعمال الباطل محسومة سلفاً بالخسران.. والقرآن الكريم عندما يقرر هذه الحقيقة في مثال الباسط كفيه إلى الماء، إنما يريد أنْ يدلّل به على

دعاء الكافرين، أي على ركونهم إلى عباداتهم، وتصرفاتهم، ووجوه سلوكهم، فكلها تذهب بلا فائدة في حسبان ربّ العالمين، بل وقد ترتدُّ بالخيبة على أصحابها، لأنَّ طلب الباطل لا يمكن أنْ يقع إلاَّ في باطل، وعبادة الكافرين لا يمكن أنْ تقع إلَّا في ضلال، وذلك بخلاف الذين حملوا الدعوة للإيمان بحقيقة وجود الله، من الأنبياء والمرسلين، ومن سار على هديهم من أولياء الله الصالحين وعباده المؤمنين، فكان حرياً بالناس أنْ يؤمنوا بحقيقة بعث النبيين والمرسلين، وأن يصدقوا بما جاؤوا به من ربّهم تبارك وتعالى، كما تبيّنه الآيات المباركة التالية.

٢ ـ الرسلُ بشر مثل سائر عباد الله من الناس

يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[١].

إنه تذكير للمشركين والكافرين بأنباء الأقوام الذين مرّوا على

(١) سورة إبراهيم، الآيات: ٩ ـ ١١.

هذه الدنيا من قبلهم، مثل قوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ، والذين جاؤوا من بعدهم، وهم كثير لا يعلمهم إلا الله الذي بعث الرسل لهدايتهم، فأبوا الهداية، وكذبوا الرسلَ بكل ما جاؤوا به من البشير والنذير، وهم يعلنون عن ذلك صراحة، فيقولون: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾.. ولكنَّ الرسل كانوا ينكرون، بدورهم، على الكافرين كفرهم، وعلى الشاكّين بدعواتهم، شكَّهم، وذلك من خلال هذا الحوار الرصين بين الفريقين، وهو كما يبدو حوار هادئ، بليغ بدلالاته المقنعة على الحق الذي يدعو إليه أولئك الرسل المهتدون..

قالت الرسل: أفي حقيقة وجود الله ـ تعالى ـ شكٌّ، وهو فاطرُ السماواتِ والأرض؟ وكيف يمكنٍ أن يتسرَّب الشكّ إلى نفوسكم، وكلُّ ما في السماوات والأرض يدلُّ على حقيقة وجوده تعالى وبأنه هو الخالق العظيم؟ إنه هو ـ جلت عظمته ـ الذي يدعوكم للإيمان به، عملاً بالميثاق الذي واثقكم به وأنتم في عالم الذرّ، وقد أقررتم على أنَّ الله تعالى هو ربكم وأنتم له مسلمون.. وما نحن إلا مبلِّغون لدعوة التوحيد والإيمان، وحاملون للبيّنات على صدق دعوة الله الحق لعباده.. وإن يَدْعُكُمْ ربّكُمُ الله العليّ الكبير، أيها العباد إلى الإِيمان والهدى، فإنّما ليغفرَ لكم من ذنوبكم التي اقترفتموها، جراء الكفر الذي هو أكبر المعاصي على الإطلاق. فالدعوة التي نحمل إليكم هي دعوةٌ للإيمان بالله الحق، وهذه الدعوة لخيركم، وفلاحكم في الدنيا والآخرة، فإن أنتم آمنتم غَفرَ لكم ربّكم من ذنوبكم ما لا تعلمون. وهذا الغفران هو منتهى الرحمة لأنه يُنجيكم من العذاب يوم الدين. بل ورحمته أوسع عندما يؤخركم إلى أجل محدود أنتم بالغوه، بحيث

تكون لكم فسحة للتعويض عما فاتكم من الطاعة والعبادة، ومن ثَمَّ الاستقامة على منهج الإيمان الذي يكفل لكم الفوز والنجاة.

قال الكفار: كلًا، لن نصدِّقَ ما تزعمونه بأنكم مرسلون من الله، ومبعوثون لهدينا، إنْ أنتم إلّا بشر مثلنا، والله لا يبعث الرسلَ من البشر!.. وإنّما جئتم تحاولون أنْ تصدُّونا عما كان يعبد آباؤنا، فإنْ كنتم صادقين في دعوتكم، فأتونا بالبراهين البيّنة، والحجج الظاهرة على الرسوليَّة التي تدَّعون!..

قالت لهم رسلهم: إنْ نحن إلّا بشر مثلكم، وها نحن أمامكم بأجسادنا البشرية التي لا تتنكَّرُها، ولا ندَّعي غيرها. وسنة الله تعالى في خلقه ألّا يبعث رسولاً لقوم إلا من أنفسهم، وبلغتهم، وهو ـ سبحانه ـ يمنُّ بهذا الفضل العظيم، وبنعمة النبوة وحمل الرسالة، على من يختار من عباده الصالحين. وأنتم تعرفون حق المعرفة أننا أبناء قومكم، وإخوانكم في اللحم والدم والموطن، وقد عشنا بينكم زمناً قبل بعثنا رسلاً من ربّنا وربّكم.. فآمنوا بما ندعوكم إليه، ودعواتنا كما نبسطها لكم بالآيات، والأحكام والقصص، والأمثال والأدلّة العقلية والحسية فيها البيّنات على صدقنا. أما أنْ نأتيكم بمعجزات ـ كما تطلبون ـ فليس لأيّ نبيّ أو رسول أنْ يكون له ذلك إلا بإذن الله، فالمعجزات منه تعالى، فإن شاءَ أظهر معجزاته على أيدي رسله، وإلّا فالأمر له عزَّ وجلَّ، وما كان لنا، نحن البشر أمثالكم، أنْ نأتي بأية معجزة إلّا أن يشاء الله، أو نأتي بأي برهان أو حجة إلا بما يُوحى إلينا من الله الذي بعثنا..

وفي ختام المطاف كان رسلُ الله يلقون الحجة على الناس،

قائلين: لقد آمنّا بالله وملائكته وكتبه ورسله، وبما أُنزل إلينا من الدين والهدى، ومن يؤمن بالله ربّاً كريماً، فهو حسبه، إذ إليه تعالى يوكل الأمورَ جميعاً في هدايته، وهداية عباده. ونحن نتوكل على الله في دعوتنا، ولا نلتفت إلى عون إلا عونه، ولا نركن إلى حمىً إلا حماه، وعلى الله فليتوكل المؤمنون.

٣ ـ بلاغة دعاء الأنبياء ومثالها دعاء أيوب عليه السلام

يقول اللَّهُ تعالى:

﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ* ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ* وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[١].

إنَّها مواساةٌ من الله تعالى لرسوله الكريم محمد ﷺ بأنْ يتذكَّر أخاه أيوبَ عليه السلام، وما وقَعَ به من البلاء، فخاطبه تعالى بقوله العزيز: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾.. وهنا تبرز الصيغة الجميلة في دعاء أيوب عليه السلام، وهو يرفع صوته منادياً: يا ربِّ!.. فالنداء الذي يتوجه فيه الإنسان المؤمن إلى ربِهِ، هو دعاءٌ ينبع من الأعماق مع حرارة في القلب، واستسلام في الجوارح، وهذا ما يفرقه عن الدعاء كما لو قال: «اللّهُمَّ ارحمنيَ»، فيكون داعياً، وليس منادياً. ولذلك تبقى في النداء صرخةٌ أعمقُ في طلب الرحمة، ولهفة أشدُّ للاستجابة..

وهذا ما كان عليه نداء أيوبَ عليه السلام وهو يستجير بربّه تعالى:

---

(١) سورة ص، الآيات: ٤١ ـ ٤٣.

﴿ربّي إني مسَّنِيَ الشيطانُ بنُصبٍ وعَذَابٍ﴾، أي: يا ربِّ! هذا الشيطان قد أضرَّني فأتعبني، ووسوس لي فعذّبني، فأسألك وأتضرّع إليك يا ربِّ أنْ تصرفه عني، فأنا عبدُكَ وراضٍ بحكمك عليّ.. وأنا فقير إليك، وصابر على ابتلائك، ومحتسبٌ جميلَ صنعك بي يا رؤوف، يا رحيم..

وهنا يبرز صدق الإيمان عند العبد، ومنتهى ثقته بـربّه تعالى، فأيوب عليه السلام كان صابراً على البلاء، ولكن ما كان يزيد في آلامه النفسية والجسدية تلك الوساوس من الشيطان، وهذا اللعين يجهد بأنْ ينتزع من نفسه صبرَها، وأنْ ينفث في قلبه من سموم اليأس ما يوهن احتماله، وذلك بكيدٍ تحريضيٍّ حتى ينقم على ربّه ـ تعالى الله علواً كبيراً ـ لأنه سلب منه الصحة والمال، وحرمه الولدَ والذريَّةَ، فلم يبق له شيء إلا المرض والعذاب!. فأولاده على كثرتهم قد ماتوا، وأمواله وأرزاقه على وفرتها قد تبددت، وأنعامه ومواشيه على كثرة قطعانها قد ضاعت.. ولكن، وعلى الرغم من كل ما حدَثَ له، ولا سيما ذلك المرض العضال الذي أضناه منذ أعوامٍ، فقد ظلَّ أيوب عليه السلام صابراً على البلاء العظيم، لا يني عن ذكر ربّه الحميد المجيد، والدعاء إليه بأنْ يرحمه، ويقوّي في نفسه الاحتمال على تلك الشدائد.. وهذا ما جعل الشيطان يزدادُ حقداً عليه، وإصراراً على الكيد له، والإيقاع به، وهو يراه على ذلك الصبر الجميل؛ فانصبَّ كيده على دسّ الوساوس الخبيثة في نفسه، والتي ظنَّ أنَّ من شأنها دفعه إلى اليأس، والقنوط من رحمة ربّه.. إذْ كان يزيّن له ما كان يعيش فيه من الثروة والغنى، وما كان يأنس به من الأولاد والأحفاد، الذين هم أعزُّ من المال والجاه والسلطان عند المؤمن.. ثم يعود ليصوّر له حجم المأساة التي وقع

بها، وقد ذهب عنه كل ذلك إلى غير رجعة. . ودون أنْ ينسى مصابَهُ في نفسه، وما يعاني من آلام المرض الشديد، والبلاء العظيم! . . أما ما كان يطمع إليه الشيطانُ اللعينُ فهو أن يُزِلَّ هذا العبد من عباد الله المخلصين، الذي اجتباه ربُّه لحمل الرسالة، ثم أوقعه في البلاء ليكون إيمانُهُ بالله، وصبرُهُ على الإبتلاء مثالاً يحتذي به المؤمنون على مدى الأزمان من بعده، ولذلك قَعَدَ له الشيطان مستميتاً في صرفه عن التوجه إلى الله، وهو يسلك إلى ذلك طريق التضجُّر، والتبرُّم من الحالة التي كان عليها النبيّ الصابر. . ولكن خسئ الشيطان الرجيم، وخابت كل جهوده، فما وجَدَ، في نهاية المطاف، إلّا عبداً صابراً، محتسباً، مستسلماً لأمر الله تعالى، ومسلّماً بقضائه وقدره . .

وقيل في عمل الشيطان إنَّه لم يكتفِ بوسوسته لأيوب عليه السلام إبَّان اشتداد المرض عليه، بل زيّن لبني قومه الابتعاد عنه، فكان لا يزوره، أو يقدم له العون أحدٌ منهم؛ لا بل وكان يحرّضهم على أنْ يجافوا امرأته حتى لا تدخل عليهم في بيوتهم، إنْ كانت ترغب بالبقاء على خدمة زوجها، ومواساته من دون سائر أولئك الناس. . وهذا ما جعل أيوب عليه السلام يتأذّى كثيراً من ضرر الشيطان له، ومن الألم الذي يناله بسببه، في حين أنه لم يتأفف، ولم يشْكُ من آلام المرض التي هي ابتلاءٌ من الله تعالى له. .

وصَبَرَ أيوبُ عليه السلام على عذابه وألمه سبع سنين، كان طوالها لا ينفكُّ عن مقاومة الشيطان، وطرد وساوسه من نفسه، والاستعاذة بالله تعالى منه، محيلاً وساوس هذا العدو المبين إلى دعاء صادق للمبتلين، ودسائسه إلى نداء صارخ للعابدين، علَّ ربَّهُ السميع البصيرَ يخلّصه من تسلّط الشيطان عليه، فيبعده عنه، وينجّيه ـ برحمته

الواسعة ـ من فتنته وإضلاله.. وكانت الاستجابة من الله الرحمن الرحيم إلى عبده أيوب، فأوحى إليه أن «اركض برجلك» حيث يجعلك هذا الضرب برجلك، من حيثُ أنت مقعد، ترى الماء يتفجّر عند رجليك؛ وهو ماءٌ طهورٌ باردٌ، إذا اغتسلت به، وشربت منه تشفى بإذن الله.. وتحققت مشيئة ربّ العالمين، إذ ما كاد أيوب عليه السلام يشرب، ويغتسل بذلك الماء حتى ذهب عنه كلُّ أثرٍ للداء، وعادَ معافىً، موفور الصحة بأحسن مما كان عليه من قبلُ..

ثم يظهر، بعد ذلك، الفضل العظيم الذي امتنَّ به الله تعالى على عبده الصابر أيوب عليه السلام، بأنْ وهب له أهله ومثلهم معهم، كما أعطاه كلَّ ماله الذي تبدَّد ومثله معه، وبذلك عوَّض عليه من أولاده الذين ماتوا ضعفهم، ومن الأنعام والأرزاق أضعاف ما كان يملك، وكل ذلك رحمة منه تعالى ونعمة، وعظةٌ لأولي الألباب الذين يتفكرون في حياة ذلك النبيّ الكريم، فيجدونها مليئةً بأحداث جسيمة، هي ـ في الحقيقة ـ آيات مبيّنات على أنَّ الله على كل شيء قدير، وأنَّ تلك الأحداث ليست مقصورة ـ بالضرورة ـ على النبي أيوب وحده، بل ويمكن أن يكون لها مثيل ـ يظهر بوجوه أخرى ـ في حياة كثيرٍ من عباد الله الصالحين، الصابرين الذين لا ينقطعون عن عبادة ربّهم وشكره، مهما تألّبت عليهم الظروف، أو داهمتهم الخطوب..

وتتأكد تلك الاستجابة لأيوب مرة أخرى بقوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۞ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾(١).

---

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٨٣ و٨٤.

وهنا في سورة «الأنبياء» كما في سورة «ص» نجد نفس المعاني التي تشير إلى الحالة التي كان عليها النبيّ أيوب، وإلى رحمة الله التي حلَّت به. والقرآن الكريم يكرر قصته في أكثر من سورة توكيداً على عظاتها ومراميها، بحيث تجتمع في النصوص البلاغة، وصوغ الألفاظ لتؤدي المعاني المطلوبة تارة بالإِطناب والإِسهاب، وتارة بالاختصار والتقليل في اللفظ، ليكون في ذلك عبرة لذوي الأفهام، وتنبيهاً إلى ذوي الأبصار، وهو: أنَّ الكتاب الذي يأتي بمثل هذا الأسلوب، ويستعمل هذه الطريقة في الأداء ليس من تأليف البشر... لأنَّ البشر لا يقدرون على تبيان نفس المعاني بصيغ مختلفة وبألفاظ تكثر في موضع، وتقل في موضع آخر، ويكون لها في كل مرة الوقع والجرس اللذان يبرزان المعنى، ويؤديان نفس الأثر في القلوب.. فالقصة هي عينها، والأداء والأسلوب هو ذاته، وغالبية الألفاظ تكاد تكون نفسها، وفي آيتين من كل سورة بلا زيادة أو نقصان. وكذلك هي المعاني التي تدلّ الناس على أنَّ الله هو الذي يعطي ويهب النعمة، وهو الذي ينشر رحمته الواسعة على عباده بلا حدود ولا قيود. وأما ما يصيب العباد من الضرِّ والبأساء، أو من الشدة والبلاء، فإنها عوارض يمحّص الله بها القلوب، ويثيب العابدين الصابرين بما يستحقون من الأجر والجزاء.. وليس أعظمُ مكرمةً لأيوب عليه السلام في دنياه من أنْ يشفيه ربُّهُ من مرضه العضال.. وليس أوسعُ رحمة تنزل به من أنْ يعيد له ربُّه زوجَهُ أكثر شباباً وحيوية.. وأن يعوِّضه عن أبنائه الذين ماتوا، جميعاً، بل ويأتيه مثلهم عدداً.. وليس أكبر نعمةً يتلقّاها من أنْ يفيض عليه الرزّاق الكريم من الأرزاق والخيرات أضعاف ما كان عنده قبل الابتلاء..

وذلك ـ وهنا العظة البالغة ـ لأنَّ أيوب عليه السلام لم ييأس ولم يقنط من رحمة ربّه، ولم يخضع لوسوسة الشيطان ونزغه، بل صبر على حكم الله تعالى وتوكّلَ عليه، فلم ينقطع قلبه ولسانه عن ذكر الله، وعن عبادته، وشكره والثناء عليه في الضرّاء، كما كان حاله في السرّاء، فاستحق تلك الرحمة المباركة العظيمة لأنه من عباد الله الصابرين. وإنَّ في مَثَله لذكرى للعابدين فإنْ صبروا مثل صبره، فسوف يثابون بالأجر مرتين: مرةً على إيمانهم الصادق بالله تعالى، والثقة بربّهم الكريم، ومرةً على صبرهم في الابتلاء والشدّة، وذلك هو الفوز العظيم.

٤ ـ العلم اللَّدُني الذي يهبه الله تعالى لأنبيائه، ومثاله تأويل النبيّ يوسف الأحاديث.

يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(١).

العلمُ اللَّدُنيُّ، هو من علم الغيب الذي لا يعلمه إلَّا الله تعالى، لأنه عالم الغيب والشهادة، وقد جعل غيبَهُ سراً مكنوناً، محجوباً عن خلائقه، إلَّا من اصطفى من عباده، فيعلّمه من لَدُنْهُ ـ سبحانه ـ شيئاً من غيبه، بما قد يدلُّ على أمرٍ خفّيٍ، أو على حدثٍ مستقبليٍّ، أو حادثةٍ معينة غير متوقعة في الزمان والمكان..

ومن علم الله المغيب، ما علَّم يوسف بنَ يعقوب عليه السلام من تأويل الأحاديث، أي تعبير الرؤيا، التي تحصل في المنام، كما يدلُّ

(١) سورة يوسف، الآية: ٦.

عليه قول يعقوب عليه السلام لابنه: «وكذلك يجتبيك ربُك»، أي يصطفيك مثل ما اصطفى آباءك من قبل، ويعلمك من تأويل الرؤى ما لم يستطع غيرك أن يفقَهَ سرَّهُ وغيبَهُ؛ ويتمُّ، من ثمَّ، نعمته عليك بالنبوة، وعلى آل يعقوب عليه السلام كما أتمَّ هذه النعمة العظيمة على أبوَيْكَ من قبل إبراهيمَ وإسحاقَ[1]، لأنَّ ربَّك عليمٌ بخلقه، ومن هم أحقّ بالاجتباء، حكيم في صنعه بهم، بما يهبهم من المؤهلات التي تمكّنهم من حمل أعباء النبوة وأثقالها. .

ومن المعروف في سيرة يوسف عليه السلام أنَّ إخوته قد تآمروا على قتله، وهو ما يزال فتى يافعاً. . وبعد مشاورات ونقاشات كثيرةٍ آثروا، بدل أنْ يقتلوه، أنْ يلقوه في بئر مملوءة بالماء، علَّه يموت غرقاً، إلَّا أن مشيئة الله تعالى كانت أقوى مما يظنون، فأنجاه إلى صخرة آوى إليها في جانب البئر. . .

وصادف مرور قافلة للتجارة، فأرسلوا من يرد الماء ليستقوا منه، فتعلق يوسف بحبل الدلو، ليأخذه أولئك التجار إلى مصر، ويبيعوه عبداً إلى عزيز مصر، أي الوزير الأول لدى فرعون. . وقال هذا الرجل لامرأته: أكرمي مثواه، بإقامته عندنا، عسى أنْ ينفعنا أو نتخذه ولداً ـ لأنهما لم يرزقا أولاداً ـ.

وهنا يعودُ التوكيد في النصوص القرآنية على تعليم الله عزَّ وعلا ليوسف من تأويل الأحاديث، الذي سيجعل له شأناً عظيماً في مقبل

---

(١) من ولد إبراهيمَ عليه السلام إسحاق، ومن ولد إسحاق عليه السلام يعقوب، ومن ولد يعقوب عليه السلام يوسف عليه السلام، أي أنَّ إبراهيم وإسحاق كانا جدَّين ليوسفَ من أبيه، ولذلك قال عنهما القرآن «أبويْك». .

أيامه، فيقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(1)، أي وكما نجيّناه من القتل، ومن أخطار البئر، وأكرمنا مثواه لدى عزيز مصر وامرأته، ومثل ذلك مكّنا له في أرض مصر، ولنعلمه من تأويل الأحاديث، ليكونَ هُوَ - أي يوسفَ - عزيزَ مصرَ، وحافظَ خزائن الملك.. والله تعالى يختار ما يشاء، فلا يعجزه شيء، لأنَّ أمره السنيَّ هو الغالب دائماً على كل أمرٍ أو مشيئة، ولكنَّ أكثر الناس من الكافرين لا يعلمون ذلك..

ودارت الأيام، وأودع يوسفُ السجن حفاظاً على سمعة عزيز مصر، بعد أنْ افتضح أمر زوجته، عندما راودته عن نفسه، فاستعصى بفضل الله تعالى، الذي شاءَ أنْ يعصمه، ويصرف عنه السوء والفحشاء ليكون من عباده المخلصين..

وأمضى يوسف في السجن بضع سنين مع فتيين أُودِعا نفس الغرفة التي حبس فيها؛ وكان أحدهما قد رأى حلماً بأنه يعصر خمراً، ورأى الآخر حلماً بأنه يحمل على رأسه خبزاً تأكل الطير منه، فطلبا منه أن ينبئهما بتأويلِ رؤياهما قال: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾(2). ثم قال لهما: أمّا أحدكما فيخرج ويعود إلى خدمة سيده، فيسقيه خمراً. وأما الآخر فيصلب، فتأتي جوارح الطير وتحط على رأسه لتأكل منه.. هذا تأويل رؤياكما، مما علّمني ربّي وألهمني من تأويل الرؤى .. وقال يوسف للذي ظنَّ أنه ناجٍ منهما: أذكرني عند سيدك، فإني محبوس ظلماً..

---

(1) سورة يوسف، الآية: ٢١.

(2) سورة يوسف، الآية: ٣٧.

ثم كانت الرؤيا الفاصلة، والحاسمة في حياة يوسف، عندما رأى الملك في منامه سبعَ بقراتٍ سمانٍ يأكلهن سبعٌ عجاف، وسبعَ سنبلاتٍ خضرٍ وأخرَ يابسات..

وطلب الملك من الملأ حوله أنْ يفسّروا له ما تعني تلك الرؤيا، فقالوا: هذه أضغاث أحلام، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين.

وتذكَّر، بعد مدةٍ، ذاك الذي نجا من السجن، أنَّ يوسف قادر على تأويل الرؤى، فأرسلوه إليه في سجنه، فلما قصَّ عليه رؤيا الملك، قال يوسف: تزرعون سبعَ سنين، فيرزقكم الله خيراً وفيراً، فما حصدتم فاتركوه في سنابله لئلاَّ يفسد، إلَّا ما تدرسون لتأكلوه.. ثم تأتي سبع سنين مجدبة، فيكون لكم ما ادخرتموه من السبع المخصبات عوناً على اجتياز أزمة ذلك الجدب، ثم يأتي من ذلك عام يُغاث فيه الناس بالمطر، والزروع الفائضة..

قال الملك: ائتوني به استخلصه لنفسي، فلما جيء به قال له: إنك اليوم لدينا ذو مكانة، وأمين على أمرنا، فماذا ترى؟

قال يوسف: إجعلني على خزائن أرض مصر وإني حفيظ للأمانة، عليم بتدبير الأمور.

وأولاه فرعون ما طلب، بأنْ جعله مكيناً، يأمر بما يجب، وينهى عمّا يحرم، حفاظاً على مكانة الملك، ومصالح الناس. وبفضل ما علَّمَ الله تعالى يوسف من لدنه، أي بما كشف له من غيبه، كان هذا العلم سبباً لبلوغه تلك المكانة المرموقة التي يدلُّ عليها قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾[1]، أي

(١) سورة يوسف، الآية: ٥٦.

وكما أنعمنا عليه بتأويل الأحاديث والخلاص من السجن، كذلك مكّنا له الحكم في الأرض، ينزل منها أيّ منزل حيث يشاء، فلا معارض له، ولا دسيسة عليه. . . وذلك كله بفضل الله ورحمته التي يصيب بها من يشاء من عباده، بحيث لا يضيع أجر المحسنين، ومنهم يوسف الصدّيق.

وعندما حلَّت سنوات القحط والجدب جاء إخوة يوسف من فلسطين إلى مصر لشراء الميرة، فأنزلهم منزلة حسنة من غير أنْ يعرّفهم بنفسه، ولكنّه بذكائه وحسن معشره، استدرجهم ليعرف أخبار أهله، ولا سيما ما جرى مع أخيه الأصغر «بنيامين»؛ فلمَّا جهَّزهم بجهازهم، أخبرهم بأنه لن يكيل لهم مرةً أخرى، ولم يعطهم ميرةً إنْ لم يأتوه بأخيهم الأصغر ـ الذي أخبروه عنه، أثناء مسامرته لهم ـ. وكانت حجتُهُ أنه إنّما يريده، ليرى ما فيه من صفات، جعلت أباه يحبه ويؤثره، وأخاه يوسف، عليهم. .

وعاد إخوة يوسف مرةً أخرى إلى مصر، ومعهم أخوهم «بنيامين»، فأنزلهم كراماً لديه، ثم أعلم شقيقه «بنيامين» بحقيقة أمره، وطلب إليه أن يكتم السرَّ عن إخوتهما، فلما جهز بضاعتهم، أمر بوضع صاع الملك في رحال «بنيامين»، حتى يقال عنه إنه سارق، فيستبقيه لديه. . وعندما نادى المنادي بأنَّ صواع الملك قد سرق من أصحاب العير، وحاول أعوان يوسف اتهام إخوته، تدخل عندها وقال:

فما جزاء السارق، إنْ كشف أمره، وتبيّن أنه أحدكم وقد غرَّهُ الشيطان أن يفعل ما فعل؟!

﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[1]؛

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٧٥.

وكان عقاب السرقة لدى فرعون الضرب، وتغريم السارق مثليْ المسروق، بينما في حكم آل يعقوب كان السارقُ يُسترَقُّ، وذلك بأن يعمل عبداً لدى من سرق له، بمقدار قيمة ما سرق، ويظلّ عبداً له إلى أنْ يستردَّ حقَّه كاملاً. . وهذا ما يدلّ عليه قولهم: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي مثل ذلك الاستعباد هو العقاب الذي نجزي به السارقين في شرعتنا ومنهاجنا. . وكل تلك الأحداث كانت بمشيئة ربّ العالمين يديرها وييسّرها، تمكيناً ليوسف عليه السلام. . فقد ألهمه ربّه تعالى الوسيلة التي يأخذ بها أخاه «بنيامين» تحت طائلة الرقّ، ليستبقيه عنده، ثم يعود ويطلع فرعون على حقيقة أمره، وما جرى له مع أخوته، وما عانى أبوه يعقوب عليه السلام من ألم وحسرةٍ على غيابه، كما نستدل عليه بقول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[1]. . وفوق كل ذي علم من البشر من هو أعلم منه، وفوق علوم هؤلاء البشر، ذلك العلم اللدني الذي يهبه الله لعباده المخلصين، وكل ذلك لا يعدو كونه نزراً يسيراً من علم الله تعالى، الذي أحاط بكل شيء علماً.

الفقرة الرابعة ـ الموتُ والقيامةُ والبعثُ

أولاً ـ الموت

من الناس، بل وكثيرٌ من أهل الكتاب ـ بالذات ـ من يعتقدون بأنَّ الموت دخيل على الحياة البشرية، بمعنى أنه لم يكن مكتوباً في اللوح المحفوظ، عندما خلق الله تعالى آدم؛ بل خلقه وأراد ابتلاءه

(١) سورة يوسف، الآية: ٧٦.

حتى يعلم علم ظهور ما يكون منه!.. فارتكب آدمُ الخطيئة، وهي التي جرَّت بدورها إلى خطيئة الجنس البشريّ عامة ـ باعتبار أنَّ جميع البشر هم أبناء آدم ـ فكان الموت عقوبةً على الخطيئة، بعد أنْ يسلك الإنسان (بصفته ابن آدم) رحلة العذاب على الأرض، تكفيراً عن الخطيئة التي يرتكبها، والتي تعود بدورها إلى خطيئة أبيه، عندما أغواه إبليس اللعين.

والحق، أنَّ الموت ليس دخيلاً على حياة البشر، وأنَّ الإنسان لم يخلق ليبقى في الحياة الدنيا خالداً مخلَّداً، بل إنَّ الله تعالى قد خلقه وجعل له مصيراً محتوماً، بحيث تنتهي حياته الأولى بالموت، كما أنه تعالى قد خلق الحياة لتكون بلاءً، يختبر به الخالق عباده على الصبر، والاحتمال، والاستمرار في طاعة ربّهم، فلا يعبدون إلهاً غيره، ولا يشركون بعبادته ربّاً سواه.

يقول الله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾(١). ويقول تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾(٢).

أجل إنَّ الله هو مالك السماوات والأرض، وله الملك ـ مطلقاً ـ فلا يشاركه أحدٌ في ملكه؛ فتبارك الذي بيده الملك، وهو على كل شيء قدير، يتصرف بملكه خلقاً وعبيداً كيف يشاء، ويقدِّر لهم ما يشاء، فلا يعجزه شيء في ملكه.. ولا يجوز لأحدٍ أن يجادل في هذه الحقيقة، التي تدل عليها طبيعة الوجود كله في خضوعه لخالقه، وانقياده للسنن والنظم التي أوجدها هذا الخالق العظيم، لتسيير وتدبير هذا الوجود..

---

(١) سورة الملك، الآيتان: ١ و٢.

(٢) سورة الرحمان، الآيتان: ٢٦ و٢٧.

ولأنه سبحانه تفرَّد بالخلق، فقد خلق الموت والحياة، بل وجعل الموت سابقاً على الحياة ـ كما يدلُّ عليه النص الكريم ـ ليدرك الإنسان بأنه ما خلق إلَّا ليموت. والحياة في الأصل تحتّم عليه الحركة والعمل، وذلك ضمن الاختيار الذي أعطيه كخاصّية من خصائصه البشرية، والتي بمقتضاها يملك العقل والإرادة اللذين يجعلانه يختار بين أنْ يعمل بطاعة ربّه ـ عزَّ وجلَّ ـ ويمتثل لأوامره ونواهيه، وبين أنْ يكفر بعبادة ربّه، ويرتكب المعاصيَ والذنوبَ التي تجسّد معاني الكفر، والبهتان، والضلال البعيد..

وأما الحالات التي يمرُّ فيها الإنسانُ، عادةً، من الصحة أو المرض، والغنى أو الفقر، والسعادة أو الشقاء.. وكل ما يمكن أنْ يندرج تحت هذه العناوين الكبرى من حالات.. فذلك كله ابتلاء، يمتحن فيه الله عباده ليمحّص الطائعين من العاصين، فتكون العاقبة الحميدة لمن أحسن عملاً، وعاقبة السوء لمن ساء عملاً.. على أنَّ ذلك كله رهنٌ باعتقاد الإنسان أنّه ميّتٌ، وأنّه محاسبٌ، ولا ريب، بعد الموت على ما فعل في الحياة الدنيا..

ويدلُّنا الواقع ـ بالشواهد الحسية، والبراهين العقلية ـ على أن الموت والحياة هما من سنن الله في خلقه، أي من السنن الثابتة، التي لا يطرأ عليها أي تحويل أو تبديل.. فلا يكون، والحالة هذه، للخطيئة التي يرتكبها ابن آدم، ولا لأي شيء يصدر عنه من خير أو شر، أيّةُ علاقة بحدوث فكرة الموت، وأنّه ليس سنة ثابتة في الوجود البشري!.. فالموت من سنن الله التي لا دخل فيها للإنسان، لا من قريب ولا من بعيد.. وما دام الأمر كذلك، فإن المعاصي التي يرتكبها الإنسان، أو الطاعات التي يقوم بها، ليست هي سبباً للموت، بل هي المحور الذي

تترتب عليه النتائج والآثار التي يتقرر على ضوئها مصيره بعد الموت، في يوم الحساب. ولذلك جعل الله الموت والحياة ابتلاءً، ليميز بين عباده أيّهم أحسن عملاً.. فعندما خلق البارئُ المصورُ الإنسانَ، ونفخ فيه من روحه ليكون بشراً سوياً، فإنما قضى له حياة في دار الدنيا، وقضى له أجلاً مسمّى يموت فيه، ثم يحييه تارة أخرى لتكون له الحياة الأبدية.. وتلك الحياة الأخرى لا بد وأنْ تسبقها القيامة والبعث حتى يتحقق أمر الله وقضاؤه.. وهذا ما يثبت بأنَّ مسار الخلق البشريّ إنما يبدأ بالنشأة الأولى، التي هي ولادة كل كائن من بني البشر، ثم يعقبها الموت.. وعلى هذا النحو، أي موتٌ وحياةٌ، تستمر عجلة الحياة البشرية إلى أنْ تقوم الساعة، ويبعثُ الله من في القبور، وهي النشأة الثانية. ثم يكون الحسابُ في يوم القيامة، لتكون لكل إنسانٍ حياة أبدية إمّا في الجنة، أو في النار.. فما معنى الموت، وما معنى يوم القيامة، وما هي الأدلة والبراهين على البعث والحساب؟

الموت، في الحقيقة، هو هذا الفاصل بين دار الحياة الدنيا التي هي البلاء والاختبار، وبين الدار الآخرة التي هي دار البقاء والحياة، لقول الله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[1] أي لو كان الناس يعلمون ذلك حق العلم، وهو أن الحياة الأخرى هي الحياة الدائمة والأبدية، لما آثروا الحياة الدنيا التي هي بمثابة اللهو الطارئ، واللعب العاجل الذي لا يلبث أن ينقضي ويذهب سريعاً، ولذلك كان من فضل الله تعالى على المؤمن أنه كلما ازداد إيمانه عمقاً وتصديقاً، كلما حسن عمله بطاعة الله، وكثر شوقه إلى لقاء ربّه.. يقول الرسول الأكرم ﷺ: «لا راحةَ

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٤.

لمؤمنٍ إلّا بلقاءِ ربّه»[1].. وليس شوق المؤمن إلى الموت سبباً في هروبه من متاعب الحياة، بقدر ما هو خوف من لهوها ولعبها الذي يجرُّ إلى معصية الله، لأنَّ الإنسان خلق ضعيفاً، وضعفه قد يحرفه عن الطاعة إلى ارتكاب الآثام والذنوب، إذا ما غلب عليه هوى النفس، إذ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾[2]..

ولذا نرى أنَّ حب الموت عند المؤمن إنما يبقى منضوياً تحت مفهوم الدعاء المأثور: «اللَّهُمَّ... اجْعَلِ الحياة زيادة لي في كل خير واجعل الموت راحة لي من كل شر[3]»، أو منضوياً ضمن إطار الدعاء الطيب: «اللَّهُمَّ أَحْيِنِي ما كانت الحياةُ خيراً لي، وتَوَفَّنِي إذا كانَتِ الوفاةُ خيراً لي»[4].

وكما يفرح المؤمن بلقاء الموت الذي يخلّصه من دار الابتلاء والشقاء، فإنه يستبشر بيوم القيامة، لأن القيامة انتصار على الموت، والانبعاث إلى حياة الخلود.

على أنَّ الموت، في واقع الأمر، يبقى حقاً مرهوباً، وحقيقة مخوّفة، فالمؤمن قد يخاف من الموت إن قصَّر في الطاعة، فيتمنَّى أنْ يمدَّ ربُّهُ بأجله حتى يعوّض عما فاته.. أما الكافر فإنه يخاف الموت لأنه يحرمه من مطامعه وأهوائه في الدنيا، ويسلبه متاعها وزخرفها..

وعلى الرغم مما في الموت من مرارة وقهر، فإنَّ من تعاليم الإسلام الأصيلة ما تنبئُنا به الآية الكريمة، في قول الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا

---

(١) سنن الترمذي، رقم ٩٧٨.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٥٣.
(٣) صحيح مسلم، حديث رقم ٤٨٩٧.
(٤) البخاري، حديث رقم ٥٨٧٤.

﴿بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾[1]، وهؤلاء المؤمنون هم رجالُ الله، الذين أسقطت المفاهيمُ الإسلامية معانيَ الخوف من الموت في نفوسهم، فكانوا أولئك المجاهدين الذين لا يخافون على أيِّ جنبٍ في سبيل الله قُتِلوا.. ومن المؤمنين أيضاً الصدّيقون، والأولياء الذي يثقون بـربهم، وبرحمته التي وسعت كل شيء، فلا يجزعون من مرض، أو هرم قد يؤدي إلى الموت، ما دامت نفوسهم مطمئنة إلى وعد ربّهم بالعفو والرحمة..

أما الذين يخشون الموت فعلاً ـ وبكل ما تحمل هذه الخشية من معاني الرهب والرعب ـ فهم الذين يقلقون على مصيرهم يوم القيامة، من جراء الظلم والإثم والعدوان، وشتى الجرائم التي يكونون قد ارتكبوها في حياتهم الدنيوية. ومثلهم الكافرون بيوم القيامة الذين يرهبهم الموت ليس خوفاً من بعث وحساب ـ لا يؤمنون بهما أصلاً ـ بل طمعاً بهذه الدنيا التي يسلبهم إياها الموت، ويودي بهم إلى الفناء، بينما كانوا يطمعون ببقاء طويلٍ في الدنيا، حتى يستنفدوا كل رغباتهم ومطامعهم.. في حين أنَّ مجرد التفكير بالبقاء طويلاً على هذه الأرض، إنَّما هو ضربٌ من الوهم الخادع، والأمل الزائف لو كانوا يعقلون.. ولا نظن أحداً يخدع نفسه ولو بمثل هذا البقاء الطويل في الحياة الدنيا، إلا أنْ يكون الشيطان قد زين له ذلك فأوقعه في المسّ، أو العتَهِ، أو الحلم المكذوب!.. أمّا الاحتجاج بأنَّ آدم، وهو أبو البشرية، قد وقع في الغواية بسبب فكرة الخلود فتلك حجة القاصر عن إدراك الحكمة الإلهية من خلق آدم، وذريته من بني البشر جميعاً على هذه الأرض.. ولكن، لا ريب، أنّها كانت فلتةٌ من أبينا آدم عندما

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

غافله الشيطان عن نفسه، وزيَّن له الخلود، إذا ما أَكَلَ هو وزوجُهُ من الشجرة التي نهاهما ربّهما عن الاقتراب منها. إلَّا أن آدم سرعان ما عاد إلى نفسه، وعلم أنَّ الشيطان قد أزلّه، وأغواه، فتاب إلى ربّه وأناب. من هنا كان الصراع في الحياة ما بين الخير والشر ـ بصورة مطلقة ـ، إنما أساسه وسوسة الشيطان لبني آدم، منذ أنْ أخذ العهد على نفسه بإغوائهم أجمعين، إلا عباد الله المخلصين، فإنه لا سبيل له عليهم.

ولذلك، كان لزاماً علينا أنْ نوضح إحدى أهم القضايا الفكرية والإيمانية، ألا وهي قضية الخلود التي أزلَّ بها الشيطان آدم، فعصى، والتي ترتبط بها قضية الموت، وما وراءه من قيامةٍ وحساب.. فعندما خلق الله تعالى آدم، إنما خلقه ليعيش على الأرض، في حياة بشرية ودنيوية، ومن ثَمَّ ليقوم بمهمة الاستخلاف في هذه الأرض، والدليل مصداق قول الله تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(١).

والخلافة تكون في المكان الذي يستخلف فيه الإنسان، لا في مكانٍ آخر؛ فالذي يخلف ملكاً، تكون خلافته على أرض مملكته لا على أرض مملكةٍ أخرى لا يمتُّ إليها بصلة؛ وقد بيّن الله تعالى للملائكة أنَّ مكان استخلافَ آدم وذريته هو الأرض ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾؛ وهذا يعني أنَّ آدم لم يخلق ليعيش، أو لتطأ قدماه جنة الخلد، قبل أنْ يؤديَ مهمة الاستخلاف في هذه الأرض، وإلَّا لو كان الأمر بخلاف ذلك لما وجب أنْ يكون هذا الاستخلاف لعمارة الأرض، ولما وجب أنْ يكون الابتلاء لآدم وذريته في هذه الحياة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

الدنيا، ولما وجبَ كذلك أنْ يحق عليهم الموت والنشور، ليكون من ثَمَّ الثواب في جنة الخلد، والعقاب في النار السرمدية.. وبما أنَّ آدم لم يتقابل وإبليس اللعين في جنة الخلد ـ قطعاً ـ فقد استطاع إبليس أن يغويَهُ بالحلم الجميل، حلم الخلود، الذي ابتدعه إبليس من عنده، كما يخبرنا الله تعالى بقوله العزيز: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[1].

وكان على آدم أنْ يتنبَّه إلى أنَّ الشيطان عدوه، وقد حذَّره ربّه السميع العليم من ألاعيبه الماكرة بقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[2].. فقد أُعِدَّتْ تلك الجنة، وبتلك المواصفات خصوصاً، ليعيش فيها آدم وزوجه زمناً، ثم لتكون المنطلق للفتنة الأولى التي يقعان فيها، قبل الهبوط إلى ناحية أخرى من الأرض؛ والملفت أنَّ الله تعالى لم يقل لآدم أنك لن تموت فيها، ولذلك كان الموت مكتوباً ـ منذ بدء الخليقة ـ على آدم وزوجه، وعلى كلِّ ابن آدمَ من نسلهما...

أما لماذا نسيَ آدمُ عداوة الشيطان حتى أغواه وأزلَّهُ، فذلك لأنَّ ضعفه البشريّ قد غلب عليه حيال فكرة الخلود. وفي حالة هذا الضعف يغيب ـ عادة ـ عن الإنسان تفكيره المستنير، وإدراكه الواعي، فيقع في المحظور، تماماً كما حصل مع أبينا آدم.. بل هو الضعف الذي جعله يؤخذ بفكرة الخلود، فنسي أنَّ هذا العدو اللعين لا يمكن الوثوق بشيء يقوله، إذْ لو كان يعرف سر الخلود

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٠.

(٢) سورة طه، الآيات: ١١٧ ـ ١١٩.

لاحتفظ به لنفسه، وما دلَّ عليه آدم وزوجه قطّ، لأنَّه عدوٌّ لهما!.

وبذلك يتبيّن أنه لولا الضعف الذي تنطوي عليه النفس البشرية لما عصى آدمُ ربَّهُ، فغوى.. ولكنه سرعان ما ندم، هو وزوجته، على تلك المعصية، فتابا إلى ربهما، وتضرعا إليه بطلب العفو والمغفرة والرحمة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[1]. فاستجاب لهما ربُّهما لأنَّه ربُّ العفو والمغفرة، ثم اجتبى آدمَ ربُّه وهداه، فجعله نبياً لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[2]. فزالت بذلك عن آدم عليه السلام أعراض تلك المعصية التي أزلَّهُ بها عدوه إبليس، ونشط للطاعة بما يرضي الله عزَّ وجلَّ.

وهنا تبرز حقيقة أخرى هامة، وهي أنَّ المعصية التي ارتكبها آدم - قبل النبوة - كانت بلاءً وامتحاناً من ربّه، ولكنه خرج فائزاً مرضياً - بإعمال العقل الذي هداه إلى الصواب - ليسلك سبيل عمارة الأرض - وهنا محور القضية - هو وذريته من بعده، وليكون من هذه الذرية أقوام مهتدون، وأقوام كافرون..

فأما المهتدون فهُمْ: إما تلك الثلة المختارة من النبيين والمرسلين الذين عصمهم الله تعالى عن الخطيئة، وإما هؤلاء المؤمنون بالله ربّهم، الذين قد يرتكبون المعصية، ولكن سرعان ما يتوبون، ويؤوبون إلى ربهم العليّ القدير، نادمين مستغفرين.

وأما الكافرون من بني آدم فهم الذين اتخذوا سبيل الشيطان - بدلاً من سبيل الله - فكانوا أعواناً له ولقبيله في بذر الشر في

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٣.

(٢) سورة طه، الآية: ١٢٢.

النفوس، ونشر الفساد في الأرض، فكان محتوماً أنْ يوجد الصراع في الأرض، وأنْ يكون هذا الصراع بين أهل الديانة الواحدة، أو بين أهل الديانات والمعتقدات المتعددة، ناهيك عن الصراعات على مطامع الدنيا ومتعها وغرورها. . وكل ذلك مرتبط بوجود الإنسان على هذه الأرض، وبالغاية من الاستخلاف فيها وهما: عبادة الله تعالى، وعمارة الأرض. . مما يدل على أنَّ آدم عليه السلام قد خُلِق ليعيشَ وذريتُهُ على الأرض، قبل الانتقال إلى الدار الآخرة.

والأدلة التي تهدينا إليها النصوص القرآنية على أنَّ آدم عليه السلام لم يخلق ليعيش شطراً من حياته الأولى في جنة الخلد ـ لأنَّ هذه الجنة قد أعدَّت لما بعد الحياة الدنيا، أي لما بعد النشأة الثانية ـ فهي كثيرة، ومنها:

١ ـ طمع آدم بالخلود، عندما أطمعه فيه إبليس اللعين. وهذا يعني أنَّ آدم كان يعلم أنَّ له أجلاً مسمّىً، وأنه ميت، لا محالة، عند حلول ذلك الأجل، فتوهَّم أنَّ إبليس قد يكون عالماً بالسر الذي يمنع الموت، وأنه ربما يكون في تلك الشجرة التي نُهِيَ عنها. . ولكنه سرعان ما تبين له أنَّ سنة الله في خلقه تقضي بالموت، فتاب واطمأنَّ إلى وعد ربّه وهُداه. .

٢ ـ أنَّ الجنة التي يكون فيها الخلود هي الدار الآخرة، أي الجنة التي عرضها السماوات والأرض أعدّت للمتقين، جزاءً وفاقاً على إيمانهم، وعملهم للصالحات. ولكنَّ ذلك يحتاج إلى اجتياز الحياة الدنيا بكل ما تحفل به من البلاء، والكدّ، والنصب، والصبر، والاحتمال. فالحياة كلها ابتلاء، والمعوَّل عليه دائماً هو قهر النفس لترك المعصية، واتباع سبل الطاعة لله ورسوله. .

٣ ـ أنَّ الجنة في الآخرة هي التي وصفها الرسول الأعظم بقوله ﷺ : «ما لا عَيْنَ رأتْ، ولا أُذُنَ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَر»[١].

وفي هذا القول الكريم نجد «لا النافية» لكل عين، ولكل أذن، ولكل قلب، بما فيها عين، وأذن وقلب آدم عليه السلام.. وسوف نتبيّن فيما بعد، عند الحديث عن الجنة، بعضاً من مواصفات جنة الخلد، كما وردت في القرآن الكريم، وهي المواصفات التي عناها الرسول بحديثه الذي ذكرناه.. مما نستنتج معه أنَّ الجنة التي عاش فيها آدم وزوجه لم يكن فيها شيء من مقومات الخلود، وأنَّ ما حصل مع آدم كان تجربةً حَيَّةً أراد الله بها أن يبيّن له، ولذريته من بعده، كيف يمكن أنْ يتسلَّط الشيطان عليهم فيغويهم، وكيف يمكن للغفلة أن تطغى على النفس فتستجيب للغواية، وكيف أنَّ ذلك العدو ـ الذي يختفي عن الأنظار ـ ماكر، مخادع، يمنّي الإنسان ويعده ليوقعه في معصية ربّه ليس إلاَّ..

٤ ـ أنَّ القرآن يقدِّم البرهان اللغويّ، والمثال الحسيّ على أن لفظ «الجنة» الذي ورد في آياته المبيّنة لم يطلق على جنة الآخرة وحدها، بل اشتمل على وصف كل مكان ظليل تتوافر فيه المياه والثمار والحياة الطيبة. وهو ما يعرف في اللغة بـ«الحديقة ذات النخل والشجر»[٢]، والعنب، و«الفردوس الأرضيّ»[٣]. وهذا

(١) صحيح البخاري، جزء٦، ص٢٣٠.
(٢) معجم البستان اللغوي، جزء ١، لفظة «الجنة»، ص٤١٧. طبعة ١٩٢٧، بيروت.
(٣) المرجع السابق.

الفردوس الأرضيّ هو الذي عناه القرآن الكريم، وأطلق عليه لفظ «الجنة»، كما في قول الله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾[1]؛ وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾[2]؛ وقوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[3].

٥ ـ أنَّ الجنة التي التقى فيها آدمُ بإبليسَ (أو الشيطان) كانت نوعاً من الفردوس الأرضيّ، لأنها لو كانت ـ فرضاً ـ جنة الخلد، لما أمكن للشيطان دخولها لأنها محرَّمة عليه أصلاً منذ أنْ عصى ربَّه، عندما أمره أنْ يسجد والملائكةُ لآدم، فامتنع وأبى، لما زينت له نفسه من الكبرياء.. ولو أنه كان يعلم بأنَّ الشجرة التي دلَّ عليها آدم هي فعلاً شجرة تمنح الخلود، لأكل منها فصار خالداً، وهذا ما يتنافى ويتناقض تماماً مع طلبه إلى الله بأن يبقيه حياً إلى يوم الدين، كي يتمكن خلال مدة إمهاله تلك، من أنْ يغوي بني آدم، إلا عباد الله المخلصين، الذين ليس له سلطان عليهم. وهذا كله يثبت معرفته بأنه ميت في نهاية المطاف، وإقراره بأنه ميت دليل إضافيّ على عدم دخوله جنة الخلد،

(١) سورة الكهف، الآية: ٣٢.
(٢) سورة سبأ، الآية: ١٥.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦٦.

ويؤكد ذلك أيضاً أنَّ خلق آدم كان من الطين الذي منه تكوين هذه الأرض ـ كما يدلنا عليه القرآن الكريم ـ مما يعني أنَّ آدم قد خلق في مكانٍ ظليل على وجه هذه الأرض الطيبة، وليس في جنة الخلد مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾(١).

٦ ـ أنَّ كلَّ مخلوق على هذه الأرض ميّت وفانٍ، ولا يبقى فيها أحدٌ حياً على الإطلاق، تصديقاً لقول الله العزيز: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾(٢).

من هذه الأدلة يتبيّن لنا أنَّ الجنة التي خلق فيها آدم كانت إحدى جنات هذه الأرض أي هذه الأرض، التي فيها كل العناصر التي تمكّن من حياة البشر عليها، فخلقه ربُّهُ في إحدى بقاعها حيث يكثر النخل، والعنب والشجر، والمياه، والزروع والأزهار، مما يجعلها بقعة طيبة فيها من كل الثمرات والريحان.. وهي غير جنة الخلود التي وعد الله تعالى بها الذين آمنوا وعملوا الصالحات من عباده المتقين. إنّما العبور إلى تلك الجنة سبيله الموتُ، ثم القيامة والبعث والحساب..

وننتقل إلى الآيات القرآنية، ولاسيما التي تحتوي الأمثال، لتبيان يوم القيامة، وحيرة الناس بشأنها، وما تكون عليه الأحوال في ذلك اليوم المخوف الهائل.

ثانياً ـ يوم القيامة

يقول الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا

(١) سورة طه، الآية: ٥٥.

(٢) سورة الرحمن، الآيتان: ٢٦ و٢٧.

يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۞ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾(١).

إنه النذير من ربِّ العالمين عن اقتراب الساعة، ويوم القيامة. .

وقد حمل النبيّ الأعظم ﷺ هذا النذير المبين، فآمن به من آمن، وظلَّ الكافرون معرضين، لا يريدون أنْ يستمعوا للنذير، ولا يرغبون في تقبل الموعظة. فقد كانوا يعيشون في غفلةٍ عن الآخرة، وعن يوم الحساب، لأنَّ الحياة الدنيا قد شغلتهم، فانساقوا وراءها، ووقعوا في الغفلة والإعراض عن كل دعوة للهدى والإيمان، وعدم الاكتراث للنذير الذي يحمله قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾.

وما يَلفِتُ إليه القرآن الكريم هو تعاقب النذير الذي كان يتنزَّل به الوحي من الله تعالى، وبلاغُ النبيّ ﷺ للناس بما يبيّن ما سوف يحلُّ بهم من فناءٍ دنيويٍّ، وما ينتظرهم من بعده من حسابٍ أخرويٍّ. . وكانوا يستمعون إلى النذير المبين، ولكنَّهم يتخذونه هزواً، ومدعاةً للهو والتفكهة، دونما أي اعتبارٍ لجديته أو أهميته، لأنَّ قلوبهم لاهيةٌ عن سماع الحق، وعن التأثّر بالوعيد، إذ غلب عليهم الكفر والوثنية، فلم يروا وراء هذه الدنيا داراً آخرةً.

وعلى الرغم من أنَّ الكفار والمشركين كانوا يفقهون مدلولات الذكر الحكيم، الذي يتلوه عليهم النبيُّ ﷺ آياتٍ بيّناتٍ، بل وكانوا يتذوقون ما فيها من حلاوة وطلاوة، لأنهم أهل بلاغة وفصاحة!. وعلى الرغم من أنهم كانوا يستشعرون تأثير تلك الآيات في نفوسهم،

---

(١) سورة الأنبياء، الآيات: ١ ـ ٣.

إلّا أنهم جحدوا بها، كما يهدينا إليه قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾(١).. (تماماً كما كان يفعل بنو إسرائيل ظلماً واستكباراً عن الإيمان بما جاء به موسى عليه السلام)، ولذلك لم يصدّق أهل الجاهلية محمداً ﷺ، ولم يؤمنوا بأنه رسول الله، وحجة هؤلاء أنه بشر مثلهم، فلا يمكن أنْ يكون نبياً ولا رسولاً، لأنَّ النبيَّ أو الرسول الذي يبلّغ عن ربّه يجب أن يكون ـ بحسب ظنّهم ـ من الملائكة وليس من البشر..

وزيادة في الجهالة، والتجنّي على هذا الرسول الكريم ﷺ، فقد كانوا يتواصون باتّهامه أنه ساحر، وأنَّ ما يأتي به لا يعدو السحر، فلا يجوز لهم أنْ يذهبوا إلى مجالسه، أو أنْ يتّبعوه، وهم يعلمون أنَّ ما يقوله لهم هو السحر، أو ما يشبه السحر ـ بحسب ظنونهم وأهوائهم ـ.

وكان الذكر الحكيم يحمل النذير تلو النذير، لعلَّ المشركين والكافرين يرعوون، ويعودون عن الغيّ الذي يملأ نفوسهم.. وإلّا فالعذاب الأليم آتٍ، وسوف تُجزى كل نفس بما كسبت، كما يبيّنه قولُ الله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ۝ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾(٢).. فهو أيضاً الخطاب إلى النبيّ ﷺ لكي ينذر الناس بأنَّ يوم القيامة آتٍ لا ريب فيه، وأنه يحمل العذاب للذين ظلموا أنفسهم بالكفر، أو الشرك بالله تعالى، وإنَّ عذاب الآخرة لكبير لو كانوا يعلمون..

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.

(٢) سورة إبراهيم، الآيتان: ٤٤ و٤٥.

وعظمة القرآن بأنه يصوِّر للناس الأحوال التي يكونون عليها يوم القيامة ـ وهم ما زالوا في هذه الحياة الدنيا ـ تصويراً دقيقاً يجعل كل من يقرأ هذا الكتاب، ويعي معانيه، كأنه يشهد يوم القيامة ماثلاً أمام عينيه، وأمامه جموع الناس قد احتشدت في الحشر، وكلهم خائفون، خاشعون، ينتظرون الحساب، فيقول الكافرون (وقد استحقوا الأمر، وعلموا يقيناً أنه مقضيّ عليهم بالعذاب) ما مؤداه:

ربَّنا أخِّر عنا العذاب، وأرجعنا إلى الدنيا، ولو إلى أجل قريب، بحيث لا يطول بنا المقام فيها من جديد، ولئن أُرجعنا، نُجبْ دعوة الحق، ونشهد بأن لا إلّهَ إلا أنت سبحانك، ولا نعبد إلا إيَّاك، ونؤمن بما آتيتنا على رسلك، ونتبع سبل الهدى والرشاد التي يدعو إليها هؤلاء الرسل!!.

ولكن أنّى لهم ذلك وقد صاروا في مشهد ذلك اليوم العظيم؟!..

فقد جاءهم النذير من قبلُ، وهم في الدنيا، بأنَّ الساعة آتيةٌ لا ريب فيها، وأنَّ الله يبعث من في القبور، أي أنه يبعث كلَّ البشر الذين خلقوا على هذه الأرض منذ آدم عليه السلام وحتى خاتم النبيين محمد ﷺ وإلى يوم القيامة.. وقد ذهب الأقوامُ، وذهب معهُمُ الرسلُ، وبقيت تعاليم دين الله التي تنذر بالعذاب الأليم لمن كفر بربّه، وحادَ عن تلك التعاليم حتى لا يكون للناس على الله حجة.. ثم جاءت صحف إبراهيم، والتوراة والإنجيل وغيرها من الكتب السماوية، حتى نزل القرآن، وكلُّها تقول للناس بأنَّ يوم القيامة آتٍ، وكان أكثرها ـ ولا ريب ـ بلاغةً وتبياناً القرآن، لأنه يتضمّن من أنباء الساعة، والبعث والحساب ما يكفي من الآيات البيّنة الواعظة، بحيث لا يكون بعدها

لأي إنسانٍ أنْ يحتجَّ، أو أنْ يطلب رجوعاً إلى دار الدنيا، وقد وقفَ بين يدَيْ العزيز الجبار، للحساب، لاسيما وأنَّ الناس جميعاً، قد أنذروا بطريقةٍ أو أخرى، مباشرةً أو مقاربةً، وعلى مرّ الزمن، بوجوب الاستعداد لذلك اليوم المشهود!...

والحقيقة أنه ليس في دنيا الواقع، ولا جاء في الكتب السماوية أيُّ شيءٍ عن رجوع إلى هذه الحياة الدنيا، بعدَ الموت؛ فقد خلق الله تعالى الموتَ والحياةَ، وأخبرَ الناس، على لسان الأنبياء والمرسلين، وفي كتبه التي أنزلها، وبخاصة في هذا القرآن المبين، أنَّ الموتَ حقٌّ، وأنَّ البعثَ حقٌّ، وأنَّ يوم الحساب حقٌّ، وأنَّ العاقبة الحسنى ـ في الجنة ـ للذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ وأن العقاب ـ في النار ـ للذين ظلموا أنفسهم باعتناق عقائد فاسدة، والقيام بأعمال ضالّة ومضلّلة.. فهذه القضايا، وإنْ كانت من أمور الغيب، إلَّا أنها من السنن الإلهية التي بيَّنتها، وأكَّدتها الرسالات السماوية كلها.. فيكون، والحال كذلك، ضرب من المحال أن يطلب الظالمون إعادتهم إلى الحياة الدنيا، ولو لأجل قريب!.. ولكن، يبدو أنَّ الهول من رؤية العذاب يومئذٍ، هو الذي يدفعهم إلى طلب الرجوع، فيأتيهم الجواب حاسماً: أنْ لا رجوع.. بل وتقول لهم الملائكة ـ تبكيتاً، وتأنيباً على ما فرَّطوا في حياتهم الدنيا ـ ما يبيّنه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ۝ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[1].. فالملائكة يعيدون على مسامعهم ما كانوا هم يقسمون به في حياتهم

(١) سورة إبراهيم، الآيتان: ٤٤ و٤٥.

الدنيا، وأَيمانهم تلك محفوظة في سجلاتهم، التي فيها جميع أقوالهم، يأتونهم بها لتُنبئهم عمَّا كانوا يحلفون به من الأيمان الغليظة، أنه ما لهم من زوالٍ إلى حياةٍ أخرى بعد الموت، لأنهم لا يؤمنون بالآخرة، ولا بالقيامة، أو الحساب.. ولذلك تفتح الملائكة سجلاتهم، لتقرأ عليهم ما كانوا يقسمون به، وقد أحصيت في الزمان والمكان، وبنفس الحديث واللفظ، ثم حفظوه لهم إلى يوم الحساب، لئلَّا يكون لديهم أية حجةٍ للإِنكار!...

والعجيب من أمر أولئك الكافرين أنَّ أَيمانَهم، وما كانوا يقسمون به، ما كانت إلّا عناداً واستكباراً!.. فالحياة البشرية تدلهم، وعلى مدى الزمان، أنَّ البشر، أفراداً وجماعات، وشعوباً وأمماً، كانت كلها تعيش وتزول، وأنهم هم أنفسهم يعيشون في أماكن كان غيرهم قد سبقوهم إلى إعمارها. وهم يعلمون أيضاً أنَّ تلك الأقوام قد حلَّ بها الفناء والدمار. بل وهم يعلمون أنَّ الله العليّ القدير قد دمَّر على الأمم والشعوب من الماضين قراهم، وأهلكهم بالعذاب في الحياة الدنيا، قبل العذاب في الحياة الآخرة.. وأنه تعالى قد بيّن لهم كيف فعل بأولئك الأقوام السابقين ليكونوا عبرة ـ لو كانوا يعتبرون ـ وشواهد على ما يفعل الله تعالى بالعباد، عندما يلجّون في الكفر، ويتمادون في الضلال! وجميعها تبقى مثلاتٍ دائمة، ومتجددة يضرب بها الله تعالى للناس أمثالهم في كتابه المجيد، لتكون تلك الأمثال حيَّةً، وتتجدد معانيها مع تجدد الحياة في كل يوم!.. فكم من أحياء قد ماتوا! وكم من أحياء قد ولدوا، وكم من أجيال تذهب وأجيال تأتي.. وكم من أممٍ قد هلكت، وبدَّلها الله تعالى بأمم غيرها، وكلها ممَّا عبَّرتْ عنه الأمثالُ التي يضربها الله للناس.

إنه القرآن، الكتاب الحقُّ الذي يحمل النذير المبين لكل من أساءَ عملاً. . وفيه بيان ليوم القيامة، وتهديد ووعيد بالعذاب للذين ظلموا أنفسهم! . ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾(١).

والقرآن عندما يبيّن لنا ماذا يحدث يوم القيامة، نجد أننا أمام انقلابٍ شاملٍ في الكون الذي يحيط بنا، سواء في السماء أو الأرض. ويبدو أنَّ هذا الانقلاب كان هماً يشغل بال الكافرين، ويفزعهم في قرارة نفوسهم، على الرغم من جحودهم، وعدم الاعتراف ـ في ظاهر الأمر ـ بحقيقة الوحي الذي يحمل الآيات الدالة على ذلك الانقلاب الكونيّ، ولذلك كانوا يسألون النبيّ ﷺ، ويلحون عليه في السؤال، عن الساعة، ومتى يكون وقتها! . . وهذا ما تبيّنه بوضوح بعض أمثال القرآن الكريم.

١ ـ سؤال النبيّ ﷺ عن الساعة

يقول الله عز وجل: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾(٢).

والسؤال: لِمَ كان الكافرون يستهترون ـ ولو ظاهرياً ـ بما حفلت به الكتب السماوية من الدعوة إلى الإيمان بيوم القيامة، بينما هم لا ينفكّون عن السؤال عنها، وهم يرددون القولَ: متى تكون الساعة؟ وكيف يكون حدوثها؟ وهل هي واقعة فعلاً؟! .

---

(١) سورة القمر، الآية: ٥١.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٧.

والجواب، يقيناً، أنَّ المشركين في زمان النبيّ محمد ﷺ ما سألوه عن القيامة إلاَّ لإحراجه، وإظهار عجزه، وبالتالي اتخاذ ذلك حجة عليه لإبعاد الناس عنه.. فإذا أنذرهم بالعذاب الأليم، يوم تقوم الساعة، لجأوا مباشرة إلى أسلوبهم المعتاد قائلين: ومتى هي، ومتى يكون وقتها؟ وهذا ما يبيّنه قول الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾، أي متى وقوعها؟

والجواب من الوحي: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾.. فالساعة من علم الغيب الذي لم يطلعه الله تعالى على أحدٍ من خلقه، فلا يعلم متى تكون الساعة إلّا هو سبحانه، فهي من غيب السماوات والأرض الذي تفرد به العليم الحكيمُ، ويمتنع على عباده العلمُ بها قبل حدوثها ولذلك يقصّر علمهم عن الساعة حتى يجلّيها ربّها، ويظهرها في وقتها، وفي الميعاد الذي قدَّره لها منذ خَلَقَ السماوات والأرض..

وإنَّ تغييب علم الساعة عن العباد إنما هو رأفة بهم ورحمة، لأنَّ علمها يثقل حمله ـ ولا ريب ـ على أهل السماوات والأرض، لعظيم الهول مما يحدث فيها: كطيّ السماوات والأرض كطيّ السجل في الكتب، وانتثار النجوم، وتكوير الشمس.. وما إلى ذلك من انقلاب في الكون (كما سنرى بعضه في آيات أخرى).. فما يقع يوم القيامة لا قِبَلَ للعقلاء، والمدركين على حمل علمه، ومعرفة دقائقه لأنه يصبح من الهموم التي ترزح تحت عبئها قلوبهم، وقد لا تقدر هذه القلوب على تحمل هذا العبء، فتنفجر.. فكان أدعى للعباد، وأصلح لهم ألّا يعلموا وقت الساعة، وألّا يسألوا متى وقوعها، بل الأولى لهم أنْ يبادروا إلى الإيمان وعمل الصالحات، وأن يقوموا على طاعة الله عزَّ

وجلَّ، والابتعاد عن معصيته، حتى يكونوا مهيّئين، ومستعدين لها، حتى لا تأتيهم بغتةً، وهم في غفلةٍ، لاهيةً قلوبُهم عن وقوعها. ومن عظيم رحمة الله بالعباد، وحتى لا يبقوا في مثل تلك الغفلة، فقد أورد القرآن الكريم ذكر بعض الأَمارات التي تسبقها، وذلك تنبيهاً للاستعداد لها!..

وعلى كل حال، فإن ربَّ العزة والجلال قد قضى بألَّا يعلم العباد وقت الساعة، رحمةً بهم. ولكنه سبحانه يحذّرهم بأنها سوف تأتي فجأة، وإنَّما بعد أنْ يظهر لهم من أَماراتها والدلالات عليها ما يفترض بهم أنْ يصدقوا بها.. وأما إذا ألحَّ الناس، والمشركون بسؤالك عنها يا «محمد»، وكأنك حفيٌّ[1] عنها، أي تسأل دائماً عن وقتها، حتى تكون عالماً بها، فقل لهم تكراراً، وتأكيداً:

﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.. فهو سبحانه قد جعل علم الساعة عنده وحده من دون العباد. ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون بأنَّ ما اختص الله به نفسه من علم، لا يجوز لعباده أنْ يعلموه، فهو الله في السماوات والأرض، وهو ربّ السماوات والأرض، فهل يمكن أنْ يُشرك بعض عباده بعلم جعله لنفسه وما خلقهم إلا ليعبدوه؟! إذاً فلا يجوز لهؤلاء العباد أنْ يسألوا عن الساعة، لأن علمها عند الله تعالى وحده..

وفي سورة أخرى من القرآن الكريم نجد نفس الموقف الذي كان يلحُّ به الكفار على النبيّ ﷺ بالسؤال عن يوم القيامة، ومتى تكون ساعتها، فيقول الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝ فِيمَ أَنتَ مِن

---

(١) الحفيّ: العالم الذي يتحرّى العلمَ بالاستقصاء.

﴿ذِكْرَىٰهَآ * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ * إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾[1].

يسألونك أيها النبيّ عن الوقت الذي يحل به يوم القيامة، ومتى يكون وقوعها، ولماذا أنت تكثر من ذكرها على مسامعهم، طالما أنه ليس عندك علم عنها، وطالما أنَّ منتهى علمها إلى ربّك فلا يعلمه غيره!..

فقل لهم ـ كي يعلم يقيناً هؤلاء الكفار الذين لا يؤمنون بالساعة ـ إنما أنت تكثر من ذكرها لتنذر من يخافها، ويخشى عواقبها من المؤمنين بها، وإن كانوا هم لن يؤمنوا بهذا النذير مهما بيّنت لهم من أهوالها، وما قد يكون عليه يومئذٍ مصيرهم.. والأمر الأكيد أنَّ الساعة آتية لا ريب فيها، وسوف يعتقدون، يوم يرونها بأم العين، كأنهم لم يبقوا في قبورهم ـ أو كأنهم لم يبقوا في حياتهم الدنيا كلها ـ قبل وقوعها إلا عشيةً، أو ليلةً واحدة وما أعقبها من الضحى، لأنَّ الزمن يُطوى في أذهانهم، وحسبانُهُ عصيٌّ عليهم، وهم يرون أهوال تلك الساعة تحفُّ بهم من كل جانب..

ويقيناً أنه عند قيام الساعة سوف يحقُّ العذاب على من كان في دنياه لا يخشاها، ولا يقيم لها وزناً، على الرغم مما قدَّم القرآن من آيات، وما أعلن الرسول ﷺ من عظات تؤكد حقيقتها..

٢ ـ حدوث الانقلاب الكونيّ يوم القيامة.

يقول الله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ * وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ * أَيَحْسَبُ

---

(١) سورة النازعات، الآيات: ٤٢ ـ ٤٦.

﴿...ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ * بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ * بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ * يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾(١).

يقول الله تعالى أنه لا يقسمُ بيوم القيامة، ولا يقسمُ بالنفس اللَّوامة.. لأنَّ يومَ القيامة من الحقائق الكائنة والأكيدة التي لا تحتاج إلى القسم، والناس سوف يرون ذلك اليوم المشهود، بعد أن يبعثهم الله مِنَ القبور.. وكذلك الأمر بالنسبة للنفس اللّوامة فالله تعالى لا يُقسم بها، لأنها أيقنت بيوم القيامة، فدأبت على تذكير صاحبها ألّا ينخدع بمظاهر الحياة الدنيا، وألّا يتوانى عن مراجعة أعماله، وتصرفاته وأقواله، ليتبيَّن أيها من الصالحات فيداوم على العمل بها، وأيها من السيئات فيندم عليها، ويسعى لأنْ يعوِّض عنها بخير منها.

وقد جاء في التفسيرات عن النفس اللوامة أحاديث كثيرة، ومنها قول حسن البصري: «إنَّ المؤمن، والله، ما تراه إلّا يلوم نفسه. ما أردت بكلمتي؟ ما أردت بأكلتي؟ ما أردت بحديث نفسي؟ وإنَّ الفاجر يمضي قدماً ما يعاتب نفسه». وعن عكرمة: «تلوم على الخير والشر: لو فعلتُ كذا وكذا!». وعن ابن عباس: «هي النفس اللؤوم. وعنه أيضاً: اللوامة المذمومة». وعن مجاهد: «تندم على ما فات وتلوم عليه». وعن قتادة: «الفاجرة». والأشبه بظاهر التنزيل، أنها النفس التي تلوم صاحبها على الخير والشر، على الخير من حيثُ التقصير، وعلى الشرِّ من حيث الندم على فعله. وهي النفس الصالحة لأنَّ الله سبحانه يلوّح بالقسم بها، إذ لو لم تكن عظيمة بصلاحها لما كان هذا التنبيه للقسم الإلَهي بها...

وهذا التلويح بالقسم والتعالي عنه، إنما هو للتأكيد على أنَّ

(١) سورة القيامة، الآيات: ١ ـ ٦.

البعث آتٍ، يوم القيامة، ولا ريب فيه، وأنَّ الله تعالى سوف ينشز عظام الإنسان، ويكسوها لحماً ليخرجَ الناس من القبور، ويقفون للحساب. . فإذا كان الإنسان يحسب أنَّ الله تعالى لن يقدر أنْ يجمع عظامه، بعد أنْ رمَّت وبليت، إذاً ليكن مثل هذا الإنسان على يقين بأنَّ الله قادر على أنْ يسوي كلَّ عظامه، ويعيدها كما كانت تماماً، حتى بنانه، وهو طرف أصغر الأصابع في يديْهِ ورجلَيْهِ، وأنه تعالى قادر على إعادة تركيب عظامه في مواضعها كاملة، لا ينقص منها شيء حتى أدق عظم فيه. . وأما ذكر «البنان» خصوصاً فلأنَّ في أطراف الأصابع تلك البصمات التي تثبت هوية كل إنسان، وتميّزه عن غيره، والتي ثبت علمياً، وبصورة نهائية، عدم وجود بصمات متشابهة أو متماثلة عند اثنين من الناس، إذ لكل واحد من هذه المليارات من البشر، ولكل واحد ممن سبقهم، أو سوف يلحق بهم. . لكل واحد بصماته الخاصة به، التي تعرّف عنه، وتدل على شخصه. .

وهذا البيان القرآني بأنَّ الله تعالى قادر على أنْ ينشئ الإنسان من جديد، إنما هو للردّ على الإنسان المجرم الذي يحسب أنْ لن يجمع الله عظامه، لأنه يريد أنْ يمضي قدماً في فجوره، ولا يريد أنْ يؤمن أو يصدّق بأنَّ هنالك حساباً وعقاباً. ولذلك تجد المجرمين يستهزئون من فكرة القيامة، والبعث، على الرغم من أنهم يرون الموتَ حقيقة راهنةً، وأنهم يحاولون أن يفرّوا من فكرة الموت!. . ولكن أنّى لهم ذلك والموت سوف يلاقيهم، أينما توجهوا، وأينما كانوا، حتى ولو كانوا مختبئين في بروجٍ مشيَّدةٍ!. .

ثم تبرز الأهمية التي يوليها البيان القرآنيّ لوصف يوم القيامة، فلعلَّ الإنسان الفاجر، السادر في غيّه، يتأثر بهذا البيان فيعود إلى ربّه

تعالى تائباً، نادماً، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾(١).

فالقارعة اسم من أسماء يوم القيامة، وقد جرى اختيار اللفظ بما يتناسب مع ذلك الجوّ الذي يخرج فيه الناس من الأجداث سراعاً، وأقل ما يقال فيه أنه يقرع القلوب بالفزع والهلع. والتأكيد على قرع القلوب يأتي بتكرار اللفظ على شكل الاستفهام والتعجّب: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ تعظيماً لشأنها، واستهجاناً ممن ينكرها! والثابت في الذكر الحكيم أنْ لا أحد من البشر يعلم وصفاً مجملاً أو مفصَّلاً ليوم القيامة على وجه الدقة، والأحداث التي تقع فيه تماماً. وكذلك لا أحد يعلم ما تكون عليه أحوال الناس في ذلك اليوم العظيم، لأنها فوق تصوراتهم.. إنما يقف علمهم عند حدود الوصف الذي يأتيهم به البيان القرآنيّ من حيث إنهم يكونون كالفراش الذي ينتشر، لكثرته، بكثافة في أرجاء واسعة فيغطيها. والتشبيه للناس بالفراش للتدليل على ما يكونون عليه يومئذٍ من الضعف والوهن، ومن الحساسية والرهافة، بحيث لا يقدرون على شيء، وهم يساقون إلى مصائرهم، كالفراش تماماً في ضعفه وقلة حيلته، وهو يتداعى على النار، ويتهافت على الضوء، فيحترق، دون أنْ تكون له القدرة على الإفلات بعد الوقوع في النار، التي يشده إليها انبعاث ضوئها. هذا عن الناس..

أما الجبال، فإنها تقتلع يوم القيامة من أماكنها، وتصبح هباءً متراكماً فوق بعضه كالصوف المندوف، الذي نفش بعد معالجته من

---

(١) سورة القارعة، الآيات: ١ ـ ٥.

قبل المنجِّد!.. وهذا المشهد قد نتصوَّرُهُ عندما نتطلع من كوة الطائرة فنرى الغيوم تمرُّ من تحتنا متراكمة على بعضها والريح تثيرها وتسحبها كسفاً إلى حيث يشاء الله تعالى.. وهذا المشهد للغيوم قد يقرّب إلى أذهاننا فكرة الصوف المندوف المنفوش، الذي يشكل كتلاً كبيرة تبدو لناظريها كالجبال، التي اقتلعت من أماكنها، فجرَّتها الرياح في الفضاء، دون أن تقوى على مقاومتها بشيء!..

وفي وصف آخر لما يحدث في الكون يوم القيامة يشير القرآن المبين إلى السماء، والجبال وأحوال الناس؛ فيقول الله العليُّ العظيم: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾[1]، ويقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ * وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾[2].

إنَّ المشهد الأول الذي يمكن أن نتصوّره أو نتخيّله، كما توحي به النصوص هنا، هو أن السماء تصبح كالأديم الأحمر، على خلاف ما يشهده الناس، ولاسيما رواد الفضاء، من اللون الأزرق للأرض، إذ تصبح في أجزاء منها على شكل الوردة الحمراء، وهذا يعني أنّ السماء يوم يحدث الانقلاب الكوني لا تعود على حالها بل تتحول إلى أشكال جديدة لا يعلمها إلّا الله تعالى.. أما المشهد الآخر فيكون مختلفاً تماماً فالسماء ـ كما هو معلوم ـ مملوءة بالنجوم والكواكب، وبعضها يشكل كتلاً نارية، مثل الشمس، التي تستمد منها أمنا الأرض النور والحرارة باعتبارها أحد الكواكب في النظام الشمسيّ.. فيوم القيامة، وعندما يحدث الانفجار في تلك الكتل النارية الملتهبة، فإنها سوف تذيب كل ما يصل إليه لهيبها وإشعاعاتها، وهذا ما يجعل السماء تبدو

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٣٧.

(٢) سورة المعارج، الآيات: ٨ ـ ١٠.

كالزيت المغليّ (المهل) أو كالمعادن المذابة، بعد ذوبان الكواكب من حرارة الانفجار.. ولعلَّ هذا التشبيه للسماء في ذوبان كواكبها، أو للجبال في انتثارها وتجميع غبارها فوق بعضه البعض كأنه الصوف المنفوش، إنما هو لإفهام الناس عمّا يطرأ من التغييرات على ظواهر الكون يوم القيامة، وانتقال الناس إلى وضعٍ جديد يتوافق وتلك التغييرات.. إنه - ولا شك - وضع عسير، وشاق جداً على الناس، بحيث إنَّ الأهوال التي يرونها، ومشاعر الخوف التي تعتريهم، تجعل كل واحد معنيّاً بنفسه، ومهتماً لحاله، فلا يخطر على باله قريب ولا صديق، ليسألَ عنه، بل ولا يسألُ أيُّ محبٍّ محبًّا آخر، عمَّا هو عليه حاله في ذلك اليوم، بسبب الهلع، والفزع، والجزع الذي يطغى على كل إنسانٍ فلا يفكر بشيء، ولا يشعر بقريبٍ، أو يهتّم لأمرِ حميمٍ، لأنَّ أهم شيء عنده في ذلك اليوم طلبُ النجاة لنفسه، والخلاصُ من فزع الأهوال التي تحيط به..

ويتبين لنا كيف اختار القرآن لفظ «حميم» للتعبير عن قرابة الرحم، وصلة المودة والشفقة، وعلى الرغم من ذلك فلا القرابة، ولا الصداقة مهما كانت حميمة وقوية، يمكن أنْ يكون لها أثر في تلك الساعة!.

ولا يُفوّتُ البيانُ القرآني تفكُّكك الأرض يوم القيامة بعد أن كانت كتلة متراصَّة، فيقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا * إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾[1].

وكما يحدث في السماء يوم القيامة، كذلك يحدث في الأرض،

(١) سورة المزمل، الآيات: ١٤ ـ ١٦.

يوم ترجف، وتضطرب فيتفكّك كلُّ ما عليها ـ ولعلَّ الزلازل هي المثال الحسيّ على اضطراب الأرض، وما قد تحدث من الدمار والقتل ـ ويوم ترجف الأرض في تلك الحركة التي تقوّض أركانها، وتبدّد تماسكها، ترتجف معها الجبال وتتفكك بدورها، وقد نسفت نسفاً، فلا يبقى شيء منها، بل تنهال من مواضعها، حتى تصير مثل كثبان الرمل الذي تذروه العواصف العاتية.

وعندما يضعنا النص القرآنيّ في مثل ذلك الجو الذي يخيّم فيه الخوف الشديد على القلوب، يعود ويذكر الناس عامة ـ والكافرين والمشركين خاصة ـ بعدم الاستجابة للرسل، ولكنه تذكير يحمل التقريع والتوبيخ، ليكون تأثيره في النفوس أقوى وأفعل، وذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولًا﴾ من أنفسكم أيها الناس، هو «محمد بن عبد الله»، يهديكم إلى الإيمان، واعتناق الإسلام، وهذا الرسول سوف يكون يوم القيامة شاهداً على أمته، وعلى صدق الأنبياء والمرسلين جميعهم، بأنَّهم أدُّوا ما عليهم من البلاغ، لكل الناس الذين بعثهم الله لهدايتهم.. ولقد أرسلناه بالهدى، ودين الحق، ليردكم عن الغيّ والضلال، كما أرسلنا من قبله إلى فرعون رسولنا موسى، لكي يدعوه إلى الإيمان بالله الذي لا إلّه إلا هو، وينهاهُ عن طغيانه بادعاء الألوهية والربوبية الباطلة، فعصى فرعونُ أمرَ الله تعالى الذي يحمله رسوله الكريم، وتكبّر، بل وازداد طغياناً في الإثم، فأخذه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أخذاً وبيلاً، وعذبه عذاباً شديداً، وذلك بسبب عصيانه، وعدم الامتثال لدعوة الحق المبين.. وهكذا أَخْذُ الله العزيز الجبار لكل عاصٍ ومتكبر، حيث ينتظره العذاب في جهنم، وبئس المصير.

٣ ـ المُعرِضُ عن ذكر الله يحشر يوم القيامة أعمى، ليكون جزاؤه مثل جزاء من لم يؤمن بآيات ربّه تعالى

يقول الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ * وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾[1].

هذا ما يقرره القرآن الكريم، بأنّ من اتَّبع هدى ربّه فلا يضلّ ولا يشقى، لا في الحياة الدنيا، حيث الاطمئنان في نفسه يريحه من الأتعاب مهما بدت شديدة، ولا في الحياة الآخرة، حيث يوفّى جزاءَ إيمانه وأعمالِهِ الصالحة، ويدخله ربُّه جنات عرضها السماوات والأرض. .

وهذا التقرير بأنَّ من اتَّبع هدى الله عزَّ وجلَّ لا يضلُّ ولا يشقى هو أهم علاج للنفس البشرية، لأنَّ الضلال يلازمه دائماً الشقاء، ولأنَّ الضلال يُبعد الإنسان عن الطريق المستقيم، وعن تحقيق الغايات والأهداف والمثل العليا التي يرومها المؤمن؛ والتي يضلُّ الكافر أو المشرك عن سبلها القويمة، وعن طرائقها السوية، فيقع في الحيرة والقلق، ويلازمه الهم والنكد، وكلها من ضروب الشقاء. . وعلى عكس هذا الضلال، فإنَّ الهدى من الله تعالى، هو النور الذي يشرح الصدور للحق، ويضيء للنفوس دروب الخير. ولكي يتحقق لنا هذا النور الهادي، فإنَّ علينا القيامَ بالطاعة لـربِّ العالمين، والعمل بما يرضيه. ولا طاعة، ولا عمل فيه رضىً، أو صلاحٌ ما لم يصاحبه ذكر

---

(١) سورة طه، الآيات: ١٢٤ ـ ١٢٧.

الله تعالى في التهليل، والتكبير، والتسبيح، والحمد، والثناء عليه (جلت عظمته). وهو ما سماها القرآن الكريم: «الباقيات الصالحات». وقد جاء توضيحها عندما سألوا رسول الله ﷺ: وما هي الباقيات الصالحات يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «هِيَ سبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إلَهَ إلا اللَّهُ، واللَّهُ أكبر»[1].. فهي تشتمل على كل ما في الوجود، وعلى كل شأنٍ للإنسان في الحياة الدنيا، وفي الحياة الآخرة..

وأما من أعرض عن ذكر الله الواحد الديان، فإنَّ له معيشة ضنكاً، قوامها التعب والألم والشقاء. والإعراض عن ذكر الله يعني قطع أية صلة للإنسان مع ربّه، وبالتالي اتّباع الشيطان، الذي يلازم الإنسان الضالَّ عن الإِيمان الصادق بالله ربّه، ويدفعه إلى ارتكاب المعاصي والآثام، بما يزيّن له من متع الدنيا ومطامعها، وبما يغويه من الوقوع في المحرمات، التي هي - في حقيقتها - همومٌ وأعباءٌ أكثر منها متعاً وملذات.. فتأمل مثلاً الغنيّ كم يتعبه جمعُ الثروة.. أو تأمل الحاكم كم يشقيه حكمه وخاصةً إذا كان مصبوغاً بالظلم والنفاق، والفساد والإفساد!.. أو تأمل أي إنسان شدّته الدنيا إلى متاع الغرور فراح يلهث وراءها بالعرق والكد، وقد انعدم في قلبه الشعور بالخوف من الله، فوقع في الضياع والشقاء!..

فالراحة والسعادة تنبعان، مبدئياً، من النفس المطمئنة، النفس التي امتلأت بالإيمان بالله، والسير على هداه. وإلَّا فإنَّ أي تصور غير ذلك يكون من عمل الشيطان وغروره، وهو عدو للإنسان، ولا يمكن للعدو أنْ يأخذ بيد عدوه إلى ما يفيده أو يسعده. بل إنَّ العداوة كلما

(١) سنن أبو داود، رقم ١٤٨٠.

اشتدت ـ ولا عدو أشد على بني آدم من الشيطان ـ أورثت مزيداً من الهموم والمتاعب، وأوقعت في التعاسة. ولذلك فقد كان محكوماً على كل ابن آدم، إذا ما اتّبع غواية الشيطان، أنْ يعيش حياةً ضنكاً، ملؤها الشك، والحيرة، والقلق على مطامع الدنيا وملذاتها، ومتاعها الزائل!.

وهذا بخلاف المؤمن الذي يذكر الله قياماً وقعوداً، وعلى أي جنبٍ كان، وعلى أي حال كان.. فيتفكر في الخلق، بما يجعله يحقق إنسانيته بصورة متفاعلة مع الوجود، لأن تفكيره وإيمانه يهديانه إلى الحق الذي بموجبه خلق الله السماوات والأرض. وهذا ما يهدي إليه قول الرحمن: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[1].

وعن ابن عباس ﷺ أنه قال: «ضمن الله ـ سبحانه ـ لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أنْ لا يضلَّ في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة..» لأنَّ القرآن هو الذكر الحكيم، وهو النور المبين، وهو الكتاب الذي لا ريب فيه هدى للمتقين، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من لدن عزيز حكيم.

إذاً فمن ذَكَر الله ربّه، وسار على هدي قرآنه المبين لا يضلُّ ولا يشقى.. ومن أعرض عن ذكر الله ربّه، فإنَّ له معيشةً ضنكاً، ويحشره الله تعالى يوم القيامة أعمى، فلا يهتدي إلى الصراط المستقيم.

وقد يسأل ربَّهُ يوم القيامة: ربِّ لم حشرتني أعمى وقد كنت في الدنيا بصيراً، مفتَّح العينين، أنظر إلى ما أُريد، وأفعل ما أُريد؟...

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.

فيأتيه الجوابُ الحقُّ: كذلك يحشرك الله أعمى أي مثل هذا الحشر يحشرك الله، لأنَّ آياته العظمى الدالة على حقيقة وجوده سبحانه، والداعية إلى عبادته قد أتتك على صفحة الكون، وفي نفسك وحياتك، وعلى لسان الأنبياء والمرسلين. . وكل ذلك لم تأبه له، بل نسيته، وجحدت بآيات الله، واستكبرت، أو اتخذتها سخرياً. . فكما بعدت عن آيات الله، وألهتك عنها الدنيا حتى نسيتها تماماً، فكذلك اليوم تُنسى، وتهمل في صفوف الذين لا يشملهم الله تعالى برحمته الواسعة، لأنهم لم يقدموا لأنفسهم شيئاً يستأهلون عليه عفو الرحمن الرحيم، وغفران ربِّ العالمين. . ومَنْ حُكِمَ عليه بالنسيان من رحمة الله يوم القيامة، فإنَّ مصيره أن يُترك في جهنم خالداً في العذاب الأليم، فكأنما خلوده الدائم هذا، هو الذي يجعله بمثابة المنسيّ، فلا يرجو عتقاً من النار. .

٤ ـ ولو أنَّ للظالمين ملك الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة

يقول الله العزيز الحكيم: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾(١).

لو أمعنا النظر وأطلنا التفكير، ونحن نتصوّر ما في هذه الأرض من أموال وثروات، وكنوز ظاهرة ودفينة، وما في بحارها وأنهارها من خيراتٍ، وما على ظهرها من العمران، والأشجار، والنبات، وما

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٧.

جعل الله تعالى فيها من أمم لأجناس الحيوانات والطيور والحشرات، وكيف قسَّم الله تعالى، المدبر الحكيم، الأرزاق فيها على تلك المخلوقات الحية، لتبين لنا أنَّ ما خلقَ الله في الأرض، وما جعل فيها من الأموال والأرزاق، أبعد من أنْ يحصى ويعدّ، مهما كثرت الأبحاث والدراسات والإحصائيات. .

ولو تخيّلنا أنَّ كل ذلك جُمِعَ في ملكية خاصة لبعض الناس، فملكوا ما في الأرض جميعاً، وزيادة عليه ضعفه أو مثله، وحلت اللحظة الحاسمة التي تجعلهم مستعدين لأنْ يقدموا ذلك كله فداءً لهم من العذاب الأليم، لافتدوا به أنفسهم من سوء ذلك العذاب! . .

وهذه هي الحال التي يكون عليها يوم القيامة أولئك الذين ظلموا أنفسهم في الدنيا، بسبب كفرهم وشركهم بالله تعالى، فلو أنَّ لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به أنفسهم من العذاب، الذي أُعدَّ لهم في ذلك اليوم الرهيب. . لماذا؟ لأنه بدا لهم من قضاء الله على عباده ـ بالعدل والحق ـ ما لم يكونوا يحسبونه واقعاً فعلاً، وحقيقة دامغة لا مناص من الإقرار بها، ومواجهة ما ترتب على إنكارها يوم كانوا في الحياة الدنيا. . فهم كانوا يكذبون بحقيقة يوم القيامة، والبعث والحساب، فقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا نحيا ونموت فيها وما نحن بمبعوثين، فكان بانتظارهم خلاف ذلك كله. . فقد وجدوا يوم القيامة حقاً، ووجدوا الحساب حقاً، فحق عليهم سوء العذاب بما كانوا يظلمون. .

والقرآن الكريم يسوق هذا النوع من التصور عن الفداء، للخلاص من عذاب يؤمئذٍ، حتى يستشعر الناس مقدار ذلك العذاب،

وكم هو شديد وأليم.. وحتى يقدِّروا أنَّ يوم القيامة لا يُقبل فيه تعويض، ولا فداء، بل يكون الجزاء الأوفى على ما اكتسب الإنسان في حياته الدنيا، وحتى يعلموا أنَّ الخلاص من ذلك العذاب إنما يبدأ من هنا على هذه الأرض، بالإيمان الصادق، والنوايا الحسنة، والأعمال الصالحة.. ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[2]، فهو سبحانه ﴿لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[3].

روي عن محمد بن المنكدر أنه جزع عند الموت، فقيل له: أتجزع؟ قال: «أخذتني آية من كتاب الله، قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾[4].. والله ،لقد أخذتني هذه الآية، وأخاف أنْ يبدوَ لي من الله ربّي ما لم أكن أحتسب»..

وهذا العذاب الذي يواجه الظالمين يوم القيامة، قد وردت عليه نصوص كثيرة في القرآن المبين، من مثل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[6].

---

(١) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧ و٨.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

(٣) سورة النساء، الآية: ٤٠.

(٤) سورة الجاثية، الآية: ٣٣.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٣٦.

(٦) سورة الرعد، الآية: ١٨.

في هذه النصوص جميعاً يظهر الهدف الواحد، والغاية الواحدة، أي إبراز ما ينتظر تلك الفئات من الناس، من عذابٍ أليمٍ..

فقد استعمل في سورة الزمر، الآية: ٤٧ عبارة ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾..

وفي سورة المائدة، الآية: ٣٦، عبارة: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾..

وفي سورة الرعد، الآية: ١٨ عبارة: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا﴾..

فأولئك الذين ظلموا، والذين كفروا، والذين لم يستجيبوا لربّهم وهم في الحياة الدنيا.. ما هي أغلى، وأعظم أمنيّتهم يوم يواجهون ذلك العذاب؟!

إنَّ أبعد ما يتصوره خيالُ أولئك الناس أنْ يتوهَّموا بأنَّ لهم ما في الأرض جميعاً، وأنهم يملكونه ملكية تامة لهم، تخوّلهم حق التصرف المطلق فيه كيف يشاؤون.. ومن عظيم المعاني، وعميقها في القرآن أنْ يجاري كتاب الله مثل ذلك الوهم ولكن على سبيل الفرض ـ ليس إلّا ـ.. فيقول: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا بِهِۦ﴾.. إذْ مع هذه الـ«لو»، التي تدل على مجرد الأمنية، وافتراض الملكية، فإنَّ هذا الافتراض غير قابلٍ لأنْ يكون حقيقة، أو أنْ يتحول إلى حقيقة، لاستحالته أولاً، ومن ثَمَّ لأنَّ الافتداء من عذاب يوم القيامة غير واردٍ، بل ولا يمكن أن يتقبَّل منهم، وعدم تقبّله حتى لا يكون خلافاً للعدل الإلهي الذي تقوم عليه السماوات والأرض؛ ففي يوم القيامة، وحَدَه ميزان الأعمال هو الذي يكون في الحسبان، وهو لا يقبل اعتراضاً ولا يقبل معذرةً، ولا يقبل فداءً لا بالأنفس، ولا بالأموال، ولا بالممتلكات، ولا بكل الأشياء التي يمكن أنْ يفتدى

بها.. لأنَّ العدلَ ليس سنةً في الوجود البشري، وفي حساب البشر يوم القيامة وحسب، بل وسنة كونية لانتظام واعتدال الكون كله.. وبما أنَّ الله تعالى قد جعل السنن غيرَ قابلةٍ لأي تبديل أو تحويل: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾(١)، فكان من مقتضيات السنن الإلهية، بل ومن مقتضيات العدل الإلٰهي ألّا يُتقبَّل أي افتداءٍ لأعمال الظالمين، والكافرين والمعرضين عن الاستجابة لدعواتِ الإيمان بالله، لأنه لا شيء يمكن أنْ ينجيهم من عذاب يوم القيامة..

وعن النبيّ ﷺ أنه قال: «يُقالُ للكَافِرِ يومَ القِيَامَة: أَرأَيتَ لَوْ كانَ لَكَ مِلْءُ الأرضِ ذَهَباً أكُنتَ تَفْتَدِي به؟ فَيقولُ: نعم. فيُقالُ لَهُ: لَقَدْ سُئِلْتَ أيسَرَ مِنْ ذَلِكَ وأَقَلَّ منه في الدُّنيا فَلَمْ تَفعَلْ، فاليومَ لا يَنْفَعُكَ إنفاقٌ لمالٍ أو تَضحِيَةٌ بسُلْطانٍ. ولَنْ يَفيدَكَ ما تُقدِّمُ مِنَ الفِداءِ عَنِ العَذابِ الذي جلَبْتَهُ لنفسِكَ بسببِ كُفْرِكَ وعِنادِكَ»(٢).

موعظة: الإيمان بيوم القيامة عزاءٌ وجزاءٌ

والحق أنَّ الإيمان بيوم القيامة فيه عزاء حقيقيّ لكلّ المحبين من الآباء، أو الأبناء، أو الأخوة، أو الأقارب، أو الأصحاب، أو الأصدقاء، أو الخلّان.. فلو كان أمر الإنسان ينتهي عند الموت، ولا قيامة بعد هذا الموت، لكانت صلتنا بأحبائنا الذين فارقونا قد انتهت إلى الأبد، ولم نعد نأمل بلقائهم ورؤيتهم إطلاقاً.. وهذا من شأنه أن يُتعب القلب، ويسبب الحسرةَ الكبرى، والأسى الدائم، ولكنَّ عزاء

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

(٢) صحيح مسلم، جزء٥، رقم ٢١٦.

المحبين ـ من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ هو أنهم سيلاقون أحباءهم بعد القيامة. وفي سيرة الرسول الأعظم ﷺ المثال الواضح على هذا العزاء. فقد اسْتُشْهِدَ سعدُ بن زرارة ـ أحد سادة المدينة المنورة ـ في معركة «أحد». فلما عاد الرسول ﷺ والمسلمون من تلك المعركة، وجدوا الناس في المدينة يبكون قتلاهم بمرارة وحزنٍ شديدين. وقد لفتَ الرسولَ الرحيمَ بالمؤمنين، وقعُ جلل المصيبة على أم سعد، فقال لها: «**أبْشِرِي، وبَشْرِي أهلِيهِم يا أمَّ سعدٍ، إنَّ قَتلاَهُمْ قَدْ تَرَافَقُوا فِي الجنَّةِ جميعاً**». فقالت أم سعد: «رضينا برسول الله ﷺ سالماً، وليس من يبكيهم بعد هذا يا رسول الله»[1]، أي ليس من يبكيهم بعد هذا الاطمئنان عليهم في الجنة، أحياء يرزقون.. ولكنها عادت فسألت الرسول ﷺ أن يدعو لمن خلّفوا، فقال ﷺ: «**اللَّهُمَّ أذْهِبْ حَزَنَ قلوبِهِمْ، واجْبُرْ مُصيبَتَهُمْ، وأَحْسِنِ الخُلْفَ على مَنْ خَلَّفُوا**»[2].. فالقيامة تجمع بين أهل الإيمان والصلاح في الجنة، بعد أنْ يكون الموت قد فرقهم في الدنيا، وفي هذا الاجتماع يكون العزاء لبني البشر، لأنهم يعرفون مسبقاً، بأنَّ أحباءهم بانتظارهم، إذا كانوا على شاكلتهم بما عملوا من الطاعة والأعمال الصالحة التي تؤدي إلى الخلود في جنة النعيم؛ مما يوحي لنا بأنْ نكون صادقين في إيماننا، وفي خوفنا من غضب ربنا، وفي تعاملنا مع الآخرين، حتى نحرص على لقاء الأحباء الصالحين من إخواننا، وأهلينا وأزواجنا وذرياتنا، وإلّا كان الموت سبباً لفراقنا الدائم عنهُمْ.. مما يفترض بنا أنْ نحاصر هؤلاء الأحباء بالتوجيه والإرشاد،

---

(١) السيرة الحلبية ج٢ ص٢٥٤.

(٢) المصدر السابق.

وبالتوعية والنصيحة، والموعظة الحسنة حتى نبعدهم عن المعصية، فيكون سبيلنا وإياهم واحداً إلى اللقاء الدائم ـ إن شاء الله تعالى ـ في جنة الخلد. .

وكما أنَّ الإيمان بالقيامة يحمل العزاء للقلوب المحبّة، فإنَّ من شأنه أيضاً أنْ يحوّل أنظار المؤمنين إلى عالم آخر غير هذا العالم الفاني، فتتصاغر في أعينهم متع الحياة الزائلة، وشهواتها الفانية، كما تتضاءل عندهم كل تلك الأطماع في المناصب، والثروات، واستحلال المحرمات التي طغت على أهل الدنيا، ولا سيما على أتباع الشيطان الذين أغواهم، وأوقعهم في الإثم والعدوان، حتى يعصوا ربّهم كما عصى ربّه، واستكبر عن السجود لآدم عليه السلام.

وأهمية الإيمان بيوم الآخرة أنه يجعل ذلك اليوم ـ المغيَّب عن أعين الناس ـ كأنه حقيقةٌ راهنةٌ، لا تفارق أذهان المؤمنين، فيستعدون له، ويتهيأون لملاقاته، وذلك بالقيام على طاعة الله تعالى، والامتثال لأوامره ونواهيه، فلا يشغلهم عن ذكر الله شاغل، ولا يلهيهم عن عبادته لهوٌ، ولا لاهون. . إنهم يعيشون في معترك الصراع، الصراع مع النفس الأمارة بالسوء، والصراع مع الناس في أطماعهم، ورغباتهم وأهوائهم، والصراع مع الحياة في تطاول الشر على الخير، والباطل على الحق. . ويبقى هؤلاء المؤمنون على عهدهم مع ربّهم، وعلى صلتهم بخالقهم، فلا ينكثون العهد، ولا يقطعون ما أمر الله تعالى به أنْ يوصل. .

ولو لم تكن القيامة حقاً، لما وجدنا المؤمنين من عباد الله الصالحين يتميزون عن الكافرين والمشركين.

ولو لم تكن القيامة حقاً، لتهالك الناس جميعاً على مطامع

الدنيا، فاتخذوا أهواءهم آلهة من دون الله، ولذهبت مع تلك الأهواء معاني القيم الأخلاقية، والمثل العليا، ولبطلت معاني الحق والخير، وحلّت في دنيا الناس، بديلاً عن ذلك كله، مادية جائرة قاتلة، أقلّ ما يقال فيها أنها تودي بكرامة الإنسان إلى الحضيض!..

ولو لم تكن القيامة حقاً، لما وُجدت النفوس المطمئنة التي تثق بأنها سوف ترجع إلى ربّها راضية مرضية.. ولكان الناس من ذوي النفوس الأمارة بالسوء هم ـ وحدهم ـ الذين يعيثون فساداً في الأرض.. فالحمد لله الذي جعل يوم القيامة حقاً، وجعل جنة الخلود للمؤمنين وعداً صادقاً.. ومثل هذا الإيمان هو الذي يجعل هؤلاء الأبرارَ يشتاقون إلى ما هو أكبر، وأعظم شأناً من كل هذا العالم الدنيويّ، وإلى ما هو أثمن من كل ما يحوزون، أو يجمعون أو ينالون.. لأنَّ متاع الدنيا، ومهما كان كبيراً، لا يُدخل في النفس المؤمنة أيَّ نوعٍ من الشعور أو الطمأنينة التي ترجوها بلقاء ربّها، والفوزَ برضوانه في الآخرة. ولذلك كان التوق عظيماً في نفوس المؤمنين الصالحين إلى رحمة الله تعالى وإلى فضله وإحسانه عليهم بالعفو والمغفرة يوم الحساب.. ولذلك نجدهم قد نظروا إلى الأرض كمكان غربة موحشة، فاعتبروا أنفسهم غرباء، في عالم متصارع قد مُلئ بالحقدِ والتنابذ والفساد!. فكان، بمقابله، شوقهم إلى العالم الآخر، عالم الطهر والنقاء، وعالم الود والأمان.. عالم الخلد في جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين..

ثالثاً ـ البعث والحساب

من الأمور الأساسية والجوهرية التي تقوم عليها عقيدة التوحيد

الإيمان بإحياء الناس يوم البعث، ومحاسبتهم على أعمالهم في الحياة الدنيا، لكي يتقرر مصيرهم في الحياة الآخرة إما إلى الخلود في الجنة، أو إلى البقاء في النار خالدين فيها إلّا ما شاء الله تعالى.. ولذلك سوف نحاول هنا تبيان الأمثال القرآنية التي تدل على حقيقة البعث، لنعود في الفقرة اللاحقة إلى معرفة أوصاف الجنة التي أعدها الله تعالى للمتقين.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1].

ألا إنَّ لله ما في السماوات والأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً. فهو مالك الملك، القادر على أنْ يتصرف بملكه كيفما يشاء، العزيز في خلقه، الحكيم في صنعه، وضع السنن، وقسَّم الأقدار والأرزاق، فلا يفلت شيء في الوجود كله مما قضى به في علمه الواسع الأزليّ، فكان وعده لعباده بالبعث حقاً يقيناً.

من هنا يستقيم المعنى في أذهاننا من أنَّ وعد الله بالبعث والجزاء حق، ويكفي الدليل على أحقيته أنه قول الله الحق، ومن أصدق من الله قيلاً! ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك لعلة في النفوس، وهي عدم التصديق بالبعث، لأنهم لا يؤمنون بأنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ سوف يحيي الخلائق يوم القيامة، وأن الأموات سوف يعودون أحياء، كما كانوا في هذه الحياة الدنيا، ولذلك ترى كل جاحد للبعث، ومنكر لهذا الحق، يسأل متعجباً:

وهل سوف أبعث فعلاً من بعد موتي؟ وكيف يمكن أنْ أعود من

(١) سورة يونس، الآيتان: ٥٥ و٥٦.

جديد - بعد هذا الفناء والانحلال في القبر - إلى ما كنت عليه وأنا حيٌّ، وقد فني جسدي، وبليت عظامي، وصرت تراباً أو هباءً منثوراً؟ وهل حقاً وصدقاً أنَّ وراءَ بعثي حساباً فيه ثواب وعقاب؟

ولكن لو فكر مثل هذا الإنسان بطريقة أخرى، وانصبَّ اهتمامه على وجوده الحقيقيّ، على وجوده الماديّ المحسوس في هذه الدنيا، لظهر له أمران ثابتان:

الأول: أنَّ وجوده الحسيّ لا يمكن إنكاره، فهو كائن حيّ يروح ويجيء، ويتحرك بكامل تكوينه من جسد ونفس وروح.

والثاني: أنَّ موته حتميّ، كما يُثبت له ذلك الوجودُ البشريّ، بل ووجود الكائنات الحية كلها التي لا بدَّ أن يطالها الفناء والزوال.. فمثل هذا الوجود الفعليّ للإنسان، وإدراكه له، وإحساسه به كحقيقة راهنة، وكذلك موته الحكميّ، ومعرفته اليقينية به، هما من الحقائق التي يهتم القرآن الكريم بتبيانها لما يترتب عليها من نتائج سواء في الحياة الدنيا، أم في الحياة الآخرة. ومن أجل ذلك، فإنَّ هذا الكتاب المبين يقدم للإنسان البرهان العقليّ على البعث، وهو أنَّ الذي خلق الإنسان أول مرة، وأحياه عمراً ثم أماته، لقادر على أنْ يحييه مرةً أخرى، لأنَّ القادر على النشأة الأولى، قادر على النشأة الثانية، كما يحكم العقلُ بذلك.. فأنت أيها الإنسان عندما تصنع شيئاً من نتاج عقلك، وبعد أنْ يصبح موجوداً فعلاً بين يديك، أو أمام ناظريك، فإنك إذا فككته أو دمرته يكون أهون عليك أن تعيد صنعه مرة ثانية.. فإذا كانت هذه قدرتك وأنت المخلوق، فما ظنك بالله الذي خلق السماوات والأرض جميعاً، وجعلك من مخلوقاتها، أليس بقادر على أنْ يُعيد إحياءك من جديد؟

ثم لو أخذنا الأمر من زاوية القانون الذي يحكم العلاقات بين الناس، والذي يقر بوجود عدالة هي التي تقضي وتفصل، لوجدنا أنَّ هذه العدالة هي الأساس لصلاح المجتمع البشريّ. . فعدالة الأرض، وما يقتضي لها من القوانين والمحاكم والقضاة، هي الوسائل التي من شأنها أن تحفظ الحقوق، وتصون الحياة، وتفرض النظام والاستقرار. وإلا لو خلت الحياة البشرية من العدالة، لاضطربت أحوال البشر، وسادت الفوضى، وعم الفساد، وعاش الناس في مثل شريعة الغاب، يأكل القوي الضعيف بلا رادع، ولا حساب. . وهذا مع الإشارة إلى أنَّ العدالة في الأرض لم تكن كاملة وشاملة يوماً. ولم يحقق العدل كامل أهدافه زمناً!. . بل أفلت من قبضته كثيرون بفعل استباحة حرمته، وخرق قوانينه ونظمه، والتعدي على سلطانه. بل وقد يحصل أنْ يصبح الجاني هو الذي يحاسب الناس بدل أنْ يحاسبوه، وأنْ يكون هو الذي يدينهم بدل أنْ يدينوه. . وكل ذلك باسم «العدالة» وتحت سمعها وبصرها. . وعلى الرغم من ذلك كله، فإنَّ أي مجتمع بشريّ لا يمكنه العيش بلا سلطة قضائية يُناط بها أمر العدل.

ولكن السؤال: هل يمكن للذين أفلتوا من قبضة العدالة في الحياة الدنيا، أنْ يهربوا من الجزاء بصورة مطلقة؟!

إنَّ الذين يوقنون بحقيقة البعث، يرون بأنَّ الجزاء الذي لم يتحقق على الأرض، لا بد أنْ يتحقق في الآخرة يوم الحساب. . إذ لو تسنَّى للمجرمين أَنْ يفلتوا من عدالة هذه الأرض بالمكر والخداع، أو بالباطل والقوة، أو بأية وسيلة من وسائل الظلم التي قد تتاح لهم هنا. . فإن العدل الإلّهيّ سوف يكون بانتظارهم للحساب، وإحقاق الحق، وإنصاف المظلوم من ظالمه. .

وإلّا لو قلنا بخلاف ذلك، وأنكرنا البعث، ومن ثم أنكرنا العدل الإلّهيّ، لكان الشيءُ وضدّه سواءً. فيكون الصادق كالكاذب، والظالم كالمظلوم، والعادل كالجائر، والعالم كالجاهل، والمؤمن كالكافر.. ولانتفى أصلاً التمييز بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، وبين الفضيلة والرذيلة.. ولو كان ذلك لما قامت السماوات والأرض!.. لأن ذلك مما يخالف منطوق الحياة البشرية، بل ومنطوق الوجود بأسره. ولو أقررنا ـ جدلاً ـ بعدم وجود العدالة في الأرض، وبعدم وجود العدل الإلّهيّ في الدنيا والآخرة، لكان أساس الحياة، وأساس الوجود قائميْنِ على الخطأ، وعندها لا يستقيم شيء أبداً، لأنَّ ما بني على فاسدٍ فهو فاسدٌ حكماً. إلا أنَّ العقل، والقلب والوجدان في الإنسان، بل وإن طبيعة الوجود، ونظام الكون كله يقول بخلاف ذلك، لأنَّ كل ما في حياة الإنسان، وكل ما في الكون وكل ما في الوجود مبنيّ وفق نظام محكم، قائم على الحق والصواب، ومرتكز على سنن ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، وعلى منهج مستقيم متكامل يجعل الانتظام الشامل حقيقياً وفعلياً في كل شيء. وهذا ما نجده في حسّ الناس أنفسهم، إذ يميزون بين بعضهم البعض، فترى حكمهم بالبداهة يشير إلى أنَّ فلاناً عادل، وفلاناً جائر، وأنَّ فلاناً يتحلى بالصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة، بينما غيره تغلب عليه الصفات الذميمة والأخلاق الفاسدة.. مما يدلُّ على أنَّ الحياة البشرية قوامها ـ في الأصل ـ الحق والانتظام..

ثم أليس من الحقائق البديهية أنَّ حياة كل إنسانٍ لا بدَّ أنْ يعقبها الموت، وأنَّ هذا الموت لا بدَّ أنْ يترتب عليه أحد أمرين: إمَّا فناءٌ نهائيّ وينتهي معه الإنسان، وينتهي معه كلُّ ما فعله في حياته.. وإما حياة أخرى

بعد الموت، وفيها يحاسب الإنسان على ما قدَّم في الحياة الأولى، وهذا هو الحق الذي قالت به الرسالات السماوية منذ عهد الخليقة!..

ودليل آخر على البعث ما نجده في الإنسان نفسه من حيث تركيبه النفسانيّ: ذلك أنَّ خالقه العظيم قد أودع فيه خصائص معينة هي التي ميّزته على الكائنات الحية الأخرى.. وأهمها خاصية التعقل، وآلةُ الإدراك والتميز. وفي مقابل هذه الخاصية فقد ألزم الخالقُ هذا الإنسان بعبادته وطاعته، بل وما خلق الله تعالى الجن والإنس إلا ليعبدوه.. ولذلك كان التكليف، للإنسان العاقل المميز، بالعبادة والطاعة، وعدم ارتكاب المعصية والإثم. وعلى أساس هذا التكليف كان البعث والحساب والجزاء، ليعلمنَّ الله الذين صدقوا، فكانوا من الطائعين الذين يؤمنون بالغيب، وبالآخرة هم يوقنون، وليعلمنَّ الله الكاذبين الذين كفروا فلم يؤمنوا لا بالغيب والحساب، ولا بالآخرة والجزاء..

فالبعث هو نتيجة حتمية للوجود البشريّ، وإلا كان هذا الوجود عبثاً، لا حكمة فيه، بل ولا غاية له.. فإذا أقررنا بأنَّ خلق الإنسان لم يكن عبثاً ولا مصادفة، كان لزاماً الإقرار بضرورة البعث، حيث تنتصب الموازين الحق، لمحاسبة الناس على ما عملوه في الحياة الدنيا. والإقرار بحقيقة البعث يسبقه الإيمان بحقيقة وجود الله تعالى، وبأنه إلّهٌ واحد أحد، لا شريك له؛ فهو الديّان يوم القيامة، لتوفّى كل نفس ما كسبت، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[1].. وليس وحدهم أتباع الرسالات السماوية الذين يؤمنون بالآخرة وبيوم الحساب، بل إنَّ أقواماً كثيرة من الأمم الغابرة قد اعتقدت

(١) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧ و٨.

بحياة أخرى بعد الموت، كما دلت عليه اكتشافات الآثار حيث يجد العلماء في قبور الموتى: الأدوات، والحليّ، بل وأواني الطعام والشراب التي كانوا يودعونها مع الميت، لتكون حاضرة، فيستعملها بعد أنْ يحيا ثانيةً (والمثال عليها قبور الفراعنة في مصر)..

ولئن كانت الرسالات السماوية جميعاً قد جاءت بالنصوص التي تقول بحقيقة البعث، وبالبراهين العقلية عليه، فإن القرآن الكريم ـ الذي حمل الرسالة السماوية الخاتمة إلى الناس كافة ـ امتلأت نصوصه بالآيات التي تتضمن الأحكام، والأدلة العقلية، والبراهين الحسية والأمثال التي تؤكد أنَّ البعث حقيقة لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

ومن الأدلة والبراهين التي يسوقها القرآن الكريم على البعث نجد:

١ ـ أنَّ أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام سأل ربَّه أنْ يُريه كيف يُحيي الموتى، فأمره الله تعالى أنْ يذبح أربعة من «الطير» ويفرق أجزاءهنَّ على الجبال من حوله، ثم يدعُوهنَّ إليه، فيأتينه أحياء. كما يبيّنه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

ويمكن أنْ نستدلَّ من مقاصد هذه الآية الكريمة أنَّ إبراهيم عليه السلام قد فعل ما أمره به ربُّهُ تعالى، أي أنه أمسك بأربعة من الطير،

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

فذبحهنَّ، وقطَّعهنَّ أجزاءً، ثم خلط أجزاءهنَّ ووزعها على عدة جبال، ثم عادَ إلى حيث كان، ودعاهُنَّ إليه، فأتته تلك الطيور، على نفس الحال الذي كانت عليه قبل ذبحها وتقطيعها، نابضةً بالحياة، وذلك بإذن ربّها العلي القدير؛ فكانت البرهان لاطمئنان قلب إبراهيم عليه السلام على أنَّ الله تعالى عزيز لا يعجزه شيء، حكيم في تسيير مخلوقاته، وأنه يحيي الموتى، وهو على كل شيء قدير. ولو لم يكن الأمر يتعلق بإقامة البرهان على ذلك، لما خطرت القضية أصلاً على قلب أبي الأنبياء، ولما طرأ أيُّ شيءٍ على وجدانه يمكن أنْ يغيّر بصدق إيمانه، إذ كما هو ثابت وأكيد في القرآن المبين أنَّ إبراهيم عليه السلام كان على نفس العهد مع ربّه: إيماناً، وطاعةً، وتسليماً، واحتساباً وتوكلاً، فقال الله تعالى عنه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1]...

ثم إنَّ من مصاديق آية الطيور الأربعة أنَّها توحي بأمرين:

الأول: أنَّ اطمئنان قلب العبد لربّه العزيز الحكيم هو سبيله إلى الرشد، الذي يمكن أن يرقى به إلى المرتبة التي وصل إليها أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، فيكون إماماً قدوةً، سواء في طاعته، أو في فعل الخير بكافة وجوهه ومقاصده..

والثاني: أنَّ الله عزَّ وعلا قريب مجيب، واستجابته لعبده فيها رضى، ومكرمةٌ لهذا العبد في سعيه لمعرفة الحقائق، دونما تجديفٍ على أمانة العلم والمعرفة..

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٠.

فما أعظم مدلولات آيات القرآن الحكيم، وما أسمى مثل ذلك العطاء من ربٍّ عزيزٍ حكيمٍ لنبيٍّ من الصالحين..

٢ ـ أن «سورة البقرة»، وهي أكبر سور القرآن الكريم، قد سميت بهذا الاسم لأنها تضمنت واقعةً حسية ملموسة أحيا فيها الله تعالى ميّتاً.. فقد سبق أن ذكرنا قصة ذلك الرجل من بني إسرائيل الذي قُتِل، ولم يُعرف قاتله، مما أدّى إلى بوادر فتنةٍ بينهم، لولا أنْ تدارك نبيُّ الله موسى الأمر، ودعا ربّهُ أنْ يبيّن لبني قومه القاتل، فأمر الله نبيَّه موسى عليه السلام أنْ يذبحوا بقرةً، ويضربوا القتيل ببعضها، فلما فعلوا، أحياه ربّنا العزيز الحكيم فدلَّ على قتلته.. فكانت تلك الواقعة في عالم الشهادة، وعلى مرأى من بني إسرائيل مصداقاً لقول الله العزيز: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1] أي مثل إحياء ذلك القتيل يحيي الله الموتى في البعث ويريكم الله آياته رؤية العين التي تنظرون بها إلى الأشياء المحسوسة من حولكم، ومن تلك الآيات رؤية هذا القتيل الذي أحياه كما رأيتم، وشاهدتم بأم العين إحياءه من الموت، وعودته كما كان قبل موته ليشهد على حادثة القتل كيف وقعت، وعلى المجرمين الذين قتلوه...

٣ ـ أن عيسى ابن مريم عليه السلام كان يحيي الموتى بإذن الله، مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٣.

ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ* قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ* وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ* وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡۖ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾[1].

وفي الأثر، أنَّ عيسى عليه السلام قد أحيا صديقاً له اسمه عازر، وأحيا ابنَ العجوز، وابنةَ العاشر، فعاشوا وولد لهم، وأحيا سام بن نوح ومات في الحال[2].

وهذه الشواهد القرآنية كافية بذاتها للتدليل على البعث. إلا أنَّ آيات القرآن الكريم تجذب القلوب المؤمنة إلى نورها الوضاء، فتطلب الاستزادة من علم الله الواسع. ولذلك سوف نحاول أنْ نستشفَّ من آيات هذا الكتاب المجيد بعضَ الذي يثبت في أذهاننا حقيقة البعث، مسترشدين بالآيات التي ضُرِبت فيها الأمثال على هذه القضية، وذلك حيثما وردت لفظة «مَثَل» أو «كاف التشبيه» ـ كما أشرنا في مقدمة هذا الكتاب ـ فتكون هذه الأمثال سبيلاً آخر من سبل القرآن التي نطمع أنْ تهدينا إلى ما فيه نجاتنا وفوزنا يوم الدِّين.

ومن تلك الأمثال القرآنية التي نستدل بها على البعث ـ بعد الموت ـ الأمثال التالية:

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ٤٥ ـ ٤٩.

(٢) تفسير الجلالين، الآية ٤٩ من سورة آل عمران.

١ ـ مثلُ العزير في إماتته وبعثه، آيةٌ دالةٌ على حقيقة البعث

يقول الله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(١).

إنَّ مصداقية حقائق القرآن تتجلى بما تقدَّمُ من الأدلة والبراهين التي تخاطب عقل الإنسان وقلبه على السواء، فعندما يتناول الذكر الحكيم قضية من القضايا التي قد تشغل بال الإنسان وتفكيره، نجده يستعمل الألفاظ والمعاني التي من شأنها أنْ تطمئِنَ قلبه، وتذهب عنه هواجس القلق والهم التي كانت تؤرقه وذلك بما تحمل من العلاج الشافي لكل تساؤلاته حول هذه القضية، كما يبرز ذلك في قصة ذاك الإنسان المؤمن الذي مرَّ على قرية فرآها خاوية على عروشها، لا أثر فيها للحياة، فقال في نفسه: أنّى يحيي هذه الله بعد موتها؟ فكان أنْ أماته الله تعالى مائة عام، ثم أحياه، ليجعله آيةً للناس على حقيقة البعث وإحياء الموتى..

إذاً فالمقاصد التي تتوخاها النصوص هنا ليست مجرَّد الإخبار عما قاله مؤمن يريد أنْ يعرف كيف يحيي الله الموتى، وما حصل معه بالذات فزاده إيماناً ويقيناً بحقيقة البعث، بل ليكون في خبره برهان

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.

مؤكد، وآية للناس في كل زمان ومكان، يستدلون بها على أنَّ الله تعالى يحيي ويميت، وسبيلهم للإستدلال هذا القرآن الذي يقدم لهم الأدلة الحسية، والبراهين العقلية على قدرة الله تعالى في الإِحياء والإماتة، وهو كتابٌ قائم أبداً بين أيديهم، يهدي إلى الحق، لأنه الحق تبارك وتعالى. .

فهذه الآية الكريمة تخبر أنَّ الرجل المؤمن (وهو العزير، بإجماع المفسرين) كان في نفسه توق لاطمئنان قلبه من قضية البعث، وإحياء الموتى، فساقه ربُّهُ القدير، الذي يعلم ما في الصدور، إلى بيت المقدس، وهي يومئذٍ مهدومة، محروقة بفعل غزوها من بختنصَّر، ملك بابل. فلما رآها على تلك الحالة «خاوية على عروشها» قال: «أنّى يحيي هذه الله بعد موتها». .

ولعلَّ في الاستطراد هنا ـ ولو قليلاً ـ ما يدل على بعض جوانب التفكير عند كثير من الناس، ولو كانوا مؤمنين، كما كانت الحال مع العزير. إذ لم يكن في نفسه ـ وهو مؤمن صادق ـ أي شك أو ارتياب بالحق الذي يؤمن به، وهو أنَّ هنالك حياة أخرى غير الحياة الدنيا، ولكنه كان يريد لقلبه أنْ يطمئن، لا سيما وأنَّ يوم القيامة، وبعث الناس من القبور، والوقوف بين يدي ربّ العالمين، كلها من أمور الغيب، التي قد تراود الإنسان بعضُ التصورات عن كيفية حدوثها، من دون أنْ يجدوا ما يشفي غليلهم، إلّا أنْ يكون أمامهم برهان ساطع على ذلك. . ومثل هذه التصورات قد تخطر على بال كل واحد منا. وليس ذلك عجباً، أو شكاً ـ لا سمح الله ـ فهي تصورات وأفكار قد خطرت مثلاً على بال أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ـ كما رأينا ـ وخطرت على بال العزير ـ الذي نحن بصدد قصته ـ ولذلك

أتى القرآن المجيد بالآيات المبيّنة لتعطينا البراهين والأدلة، فتطمئن بها قلوبنا، ونفوسنا..

أجل، إنَّ هذا التوجه في القرآن الكريم، إنْ دلَّ على شيء، فإنَّما يدل ـ وعلى امتداد التاريخ البشريّ ـ أنَّ في نفس الإنسان دافعاً قوياً بأنْ يحصل لديه علم يقينيّ بحقيقة البعث عن طريق الواقع المحسوس، لأنَّ العلم الاستدلاليّ ربما تعتوره الشبهة، ومن أجل إزالة هذه الشبهة من العقول، يسوق القرآن الكريم شواهده، وأمثاله مما حصل في الماضي، لتكون عبرة للحاضر والمستقبل، فيستدلّ بها الإنسان على البعث، بما يؤيدُهُ البرهانُ الحسيّ الذي يمكن أنْ يستقيه من الواقع، وهذا مع العلم بأنَّه ليس ضرورياً أنْ يحصل العلم دائماً عن طريق الواقع المحسوس، أو لكل قضية من القضايا، ما دام للإنسان قدرة على التفكير، وتمحيص الوقائع والأحداث الماضية التي يمكن أن يستدل بها على القضية التي يريدها، أو على الحقيقة التي يبحث عنها، فيكون العلم الاستدلاليّ، والنظر الفكريّ كافيين لإقناعه. فإذا ثبتت له القضية أو الحقيقة بالعلم الاستدلاليّ ولم يقتنع كان عبء المسؤولية على عاتقه. وبمعنى آخر إنَّ أحداث التاريخ، أو الأحداث السابقة تبقى شواهدَ للإنسان، وبيّنات لإقناعه عن الشيء الذي يريد معرفته، والتيقن منه، وإلا فلا معنى للتاريخ البشريّ إنْ لم يكن لنا فيه مثالٌ أو عبرة.. فالعزير قد تفكَّر في البعث، وأراد الاهتداء إلى البرهان الذي يثبت حصول البعث.. ولكنه وهو يفكر، ويسأل نفسه عن ذلك، لم يدر في خلده أنه سيكون الشاهد على نفسه بنفسه لإثبات حقيقة البعث، وأن الله تعالى سيجعله آية ـ برهاناً ـ لكل من تؤرّقه فكرة البعث من بني آدم..

لقد أراد العزيرُ أنْ يعلم، ففكَّر. . ثم أخذته الغفوة وكانت، في الحقيقة، إماتته وكأنها نوم طويل غيّبه عن الزمن. .

وأفاق بعد تلك الغيبة عن الزمن، وهو لا يعلم شيئاً. . إلَّا أنَّهُ كان بكامل الوعي والإدراك، فجاءه الوحي من ربّه قائلاً له:

«كم لبثتَ»؟ أي على تلك الحالة التي كنت عليها. .

قال: «لبثتُ يوماً أو بعض يوم». . ظنّاً منه أنه كان نائماً في نوم عادي، وقد لبث فيه بضع ساعات ليس إلا!.

ولكنَّ الوحيَ قال له: «بل لبثت مائة عام» وأنت في نفس المكان، وعلى ذات الهيئة، وبنفس الثوب الذي تلبس، فانظر إلى حالك هل ترى من تغيير؟ أبداً، لم يطرأ عليك، كما ترى، أي تغيير خلال هذه المائة عام. ثم البرهان الآخر أمامك «فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنَّه»، فلم تفسدهما عوامل الطبيعة، بل بقي الطعام على حاله، من الطعم واللون والرائحة، صالحاً للأكل، وكذلك بقي ماؤك، وعصيرك الذي تشرب على حاله فلم يتبخَّر، ولم يأسن، وهو صالح للشرب. .

ثم تابع الوحي يريه العبرة الّدالة والمؤكِّدة: والآن «فانظر إلى حمارك» الذي كان يقف بقربك عند موتك، فهل ترى له من باقية إلَّا بعض عظام بالية؟ فلو نمتَ يوماً أو بعض يوم فهل كان يبلى ويفنى على نحو ما ترى؟ ثم انظر إلى بقية هذه العظام، كيف يعيد الله تعالى منها إنشاء عظام الحمار بكامل شكلها وتركيبها، وربطها ببعضها البعض، ثم كيف يكسوها لحماً، ثم يبعثه حياً من جديد. .

وكان العزير يرى بالعين المجردة كيف تم ذلك كله، وكيف

استوى حماره حياً كما كان قبل مائة عام، وقد حدث ذلك كله كلمحِ بالبصر. فلمّا تبيّن له الأمر قال: «أعلم أنَّ الله على كل شيء قدير»، وأنَّ أمره إذا أراد شيئاً أنْ يقول له: كن، فيكون..

لقد علم الله سبحانه وتعالى ما في نفس عبده العزير من توقٍ لمعرفة حقيقة البعث، فأتاه الدليل الحسيّ في نفسه، وفي حماره، أي الدليل الذي ينبثق عن كلمةٍ واحدةٍ: «كن» وهي كلمة التكوين والإنشاء وإعادة الإنشاء! وهي التي جعلت «عزيزاً» يستيقن من ثلاث حقائق: الخلق، والموت، والبعث؛ إذْ تبيّن له بعد أنْ هدأ روعه، أنَّ الزمن قد مرَّ طويلاً عليه منذ وصوله إلى بيت المقدس، لأنَّ معالم الأشياء كلها قد تغيرت من حوله، وأصبحت بيت المقدس وجوارها ـ في البنيان والعمارة وحركة الناس ـ على غير الحالة التي رآها فيها من الهدم، وندرة الحياة والأحياء، قبل أنْ يميتهُ الله تعالى..

وهذا برهانٌ آخرُ على حقيقة البعث: حادثةٌ يعيدها القرآنُ من غابر الزمان، ويحفظها آية للناس ـ كما شاءها الله العليّ القدير ـ ليستدل بها أهل الفكر، مهما طال الزمن، أو تعاقبت الأجيال، على أنَّ البعثَ حقيقة مؤكدة، وليعلموا، كما علم العزير: «أن الله على كل شيء قدير».

٢ ـ كما أنَّ الله تعالى خَلَقَ السماوات والأرض فهو قادرٌ على أنْ يخلق مثل هؤلاء الناس..

يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ

ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[1].

إنها جولة جديدة من جولات الجدل في الحرب النفسية التي كان المشركون يشنونها على النبيّ ﷺ وعلى دعوته، والتي كان الرد عليها يأتي من الله ـ جلت عظمته ـ بآيات قرآنية تستقي البراهين للناس من أنفسهم، ومما يشاهدونه في السماوات والأرض، كما في هذه الوخزة اللاذعة للضمير والوجدان التي تذكِّر المشركين بأصل خلقهم من ماءٍ مهين. فلعلَّ في هذا التذكير ما يعيد الوعي إلى نفوسهم، ويزيل تلك الغفلة التي تبعدهم عن النظر في هذا الخلق، فيمتنعوا عن مخاصمة النبيّ ﷺ في جدالهم العقيم حول إحيائهم بعد الموت، وبعثهم من جديد.

ولذلك يأتي النص القرآنيّ، وفيه التعجب والاستغراب من موقف هذا «الإنسان» الذي ينصِّب نفسه خصيماً للحق، فلا يجادل إلَّا بالباطل، ليسأل: أولـمَ يرَ الإنسان أنَّ الله ربَّه قد خلقه من نطفةٍ من منيٍّ يُمنى، ثم سوَّاه بعد هذا الخلق من الماءِ المهين، في أجمل صورة وأحسن تقويم.. فبدلاً من أنْ يرى في خلقه نعمة عظيمة تستدعي الاعتراف بفضل خالقه عليه، وحمده وشكره على ما جمَّله فيه وحسَّنه، إذا به ينسى أصلَ خلقه من ماءٍ مهين، وما فيه من الوهن والضعف، ثم يستقوي في جداله وخصامِهِ لإنكار البعث، بما يضرب

---

(١) سورة يس، الآيات: ٧٧ ـ ٨٣.

من مَثَلٍ بهذه العظام التي تبلى، فيقول: «مَنْ يُحيي العظامَ وهْيَ رَمِيمٌ؟».

فهو يظن أنَّ حجته قوية ـ وفقاً لمنطوق تفكيره المحدود ـ عندما يرى ماذا يحلُّ بالإنسان بعد الموت، وكيف ترمُّ عظامه وتتفتّت.. فلا يصدّق إمكانية إعادة تركيبها، وإحيائه من جديد تماماً كما كان في حياته الدنيا، وقد أشرنا سابقاً إلى أنَّ المشركين كانوا يأتون بالعظام الرميمة ويسألون النبيّ ﷺ إنْ كان الله يحييها ويعيدها بشراً سوياً كما فعل العاص بن وائل.. وهو الأمر نفسه، على ما ورد في الروايات، من أن «أبيّ بن خلف اقترب من النبيّ ﷺ، وهو على الصفا، يدعو الناس للدخول في الإسلام، وفتَّ عظماً في كفه، ثم نفخه وقال: يا محمد! أيبعث الله هذا بعدما أرمّ؟ فأجابه النبيّ ﷺ: نَعَمْ، يَبْعَثُ الله هَذَا، ثم يُمِيتُكَ، ثُمَّ يُحْيِيكَ، ثم يُدْخِلُكَ نارَ جهنَّمَ»[1]. وقد استند النبيّ ﷺ في رده على ذلك المشرك اللعين، وعلى جميع من يكفرون بأحقية البعث، على أمر ربّه الذي تنزَّل عليه في الذكر الحكيم بقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[2]. وإلّا فمن يحيي العظام وهي رميم غير الله تعالى الذي أنشأها أول مرة من ماءٍ مهين؟ فهو سبحانه بكل خلق عليم، وليس الخلق مقصوراً على الناس من مختلف الأجناس والألسن، ولا على الحيوانات أو الطيور أو الحشرات من مختلف الأنواع والأشكال، ولا على الأشجار والنباتات من شتى الأصناف والألوان.. بل إنَّ الخلق يشمل أيضاً كل ما في السماوات والأرض من خلائق لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدي (تفسير الجلالين).

(٢) سورة يس، الآية: ٧٩

في تكويناتها، وخصائصها، وسننها، وارتباطها فيما بينها، وصلتها بخالقها. . أجل فكلها من خلق الله، وهو تعالى عليم بها جميعاً. .

لذلك، ومن حيث إنّ الله تعالى قد أحاط بكلِّ شيء علماً، ومن حيث إنه بكلِّ خلقٍ خلَقَهُ عليمٌ، فإن النصوص القرآنية تتعدى البيان عن إعادة إحياء العظام إلى بعض من الأشياء الحسية ذات التأثير المباشر على حياة الإنسان، لتضرب بها المثل على «أنَّ الله على كل شيء قدير»، فكما أنه هو الذي يحيي الإنسانَ بعد الموت، فهو الذي جعلَ للناس من الشجر الأخضر ناراً فإذا هم منه يوقدون. . ولكن لماذا هذا التدليل بالشجر «الأخضر»، وما علاقة ذلك بالإحياء بعد الموت؟

قد يكون الجواب البديهيّ أنه عندما نقطع الشجر الأخضر، نتركه حتى ييبس، ثم يصبح وقوداً للنار. . ولكن العبرةَ أبعدُ من ذلك بكثير وهي ما دلَّنا عليه العلم في اكتشافاته الحديثة التي ارتكزت على الاخضرار في الشجر، الذي يوجّه القرآن الكريم أنظارنا إليه باستعمال تعبير «الشجر الأخضر». . أجل لقد بيّن العلم أنَّ الشجر الأخضر فيه خاصية امتصاص الطاقة الشمسية والاحتفاظ بها، وهذه الطاقة هي التي تولد النار عند الاحتكاك أو الاحتراق، ولو لأقل شرارة؛ ولذلك تحصل الحرائق في الغابات الخضراء، بحيث يصعب السيطرة عليها، في بعض الأحيان، قبل أنْ تقضي على مساحات شاسعةٍ من الأشجار. . أي أنَّ الطاقة الشمسية التي تُختزنُ في الأوراق الخضراء اليانعة هي التي تنفجر لمجرد أي سبب، ثم تستعر النار على ما نرى في تلك الحرائق هنا أو هناك. .

وإنَّ الذي أودع هذه الخاصية في الشجر الأخضر (أي امتصاص الطاقة الشمسية والاحتفاظ بها) هو الذي أودع في الخلية التي يحملها السائل المنويّ تلك الطاقة التي يتولَّد منها الإنسان بقواه الظاهرة والخفية. من هنا يربط الذكر الحكيم ما بين خلق الإنسان من ماءٍ ضعيف مهين، الذي تكمن فيه الطاقة التي تجعله بشراً سوياً، وبين الشجر الأخضر الرطب ولا سيما الأوراق الملساء الناعمة التي تكمن فيها الطاقة الشمسية التي تولد النار بقواها العاتية.. كما يربط النصُّ القرآنيُّ - هنا - بين إعادة إحياء الإنسان بعد موته، وإعادة إحياء الشجرة المحترقة إلى رونقها إذا ما تركت جذورها في الأرض، وجرى الاعتناء بها من جديد.

وتهدينا النصوص القرآنية إلى أعظم من ذلك شأناً في الخلق، بقول الله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ﴾؟ أي مِنْ ﴿مثلهم﴾؟ مِنْ مِثل هؤلاء الأناسيّ الصغار في الخلق والحجم بالقياس إلى السماوات والأرض.. ذلك أنَّ الذي خلق السماوات والأرض، مع عظيم هذا الخلق، لما تحتويان عليه من الأشياء، والطاقات والقوى - التي لا يعلمها إلا الخالق وحده - لقادر على أنْ يخلق مثل هؤلاء الناس الذين يخاصمون، ويشتدون في خصامهم بإنكار البعث.. ولو كانوا يتفكّرون، لعلموا أن الذي خلق السماوات والأرض لقادرٌ على أنْ يهلكهم، ويفنيهم، وأنْ يخلق أناساً مِنْ مثلهم في الهيئة، ولكن يكونون على خلافهم من حيثُ أنهم مؤمنون، يقومون على عبادة الله وطاعته، فلا ينكرون البعث، ولا يخاصمون بحقيقته، مع أنه حق، مثلما أنهم ينطقون.. أليست هذه حقيقة يستشعرها الإنسانُ في وجوده؟ بلى، لأنَّ الخلّاق العليم، القادر

على مثل هذا الخلق العظيم، إنما أمرُه إذا أراد أن يخلق شيئاً أن يقول له: كن، فيكون، أي فيوجد في الحال لمجرد الأمر.

ولو وعينا هذه الحقيقة وحدها، فتدبرتها عقولنا، وانفتحت لها قلوبنا لوجب أنْ نعيش في عبادة دائمة لله تعالى، وفي تسبيح لا ينقطع للخالق العظيم، والربّ الكريم. فسبحان الله الذي بيده ملكوت كل شيء: الموت، والحياة، والبعث، «وإليه ترجعون»، في الآخرة.. ومستحيل أن يكون هذا الرجوع إلى الله إلّا بالبعث.

٣ ـ الأمثال التي يضربها الضالّون لإنكار بعثهم خلقاً جديداً

يقول الله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا* وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا* قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا* أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا* يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

إنه مشهد آخر من مشاهد الجدال بين النبيّ ﷺ والمشركين، حول قضية البعث.. ولكنَّ الجديد في هذه الآيات الكريمة أنها تحمل التحدي الذي يجبههم، والذي يثبت أنَّ الله تعالى قادر على بعثهم، سواءٌ كانوا أناساً، أو حجارةً أو حديداً، أو أي خلق آخر من أشكال وأجناس مخلوقاته، أو أي شيء أوجده، ثم أزاله من الوجود. ولذلك يتوجه الوحي في مخاطبة النبيّ ﷺ بما معناه:

(١) سورة الإسراء، الآيات: ٤٨ ـ ٥٢.

انظر يا «محمد» كيف ضربوا لك الأمثال وهم يشبهونك ـ كما يحلو لهم الافتراء عليك ـ برجلٍ مسحورٍ ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾[1] أو يشبهونك بشاعر، أو كاهن وما إلى ذلك من الأكاذيب التي يبتدعونها للنيل منك!.. ولكنهم ضلُّوا بتلك الأمثال التي يضربونها، أو التشبيهات التي يطلقونها عليك، ومن غير أنَّ يقدموا البرهان عليها بأي شيء، لأنهم عاجزون عن هذا البرهان، ولأنهم يوقنون في أنفسهم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2]، بعيدٍ عن أية شبهة. وإنَّ ضلالهم عن تدبّر الآيات التي تبين حقيقة البعث، هو الذي يبعدهم عن الاهتداء إلى السبيل الذي يوصلهم إلى هذه الحقيقة، كما في قولهم: أإذا كنا عظاماً نخرة، ورفاتاً هشة ـ بعدما حلَّ الفناء في أجسادنا وتحللت إلى تراب ـ فهل نبعث ونعود خلقاً جديداً؟

قل لهم: كونوا على أية حال تتصورونها: بشراً عقلاءَ، أو حجارةً قاسيةً، أو حديداً صلباً، أو أيَّ شيء يصعب تفتته، مما لا يعقل، أو خلقاً آخر مما قد ترونه كبيراً، من مثل تصوراتكم عن عمالقةٍ أو جبابرةٍ أشداءَ، أو أي خلقٍ أعظم من البشر.. فأياً ما كنتم، وأياً ما كان خلقكم، فسوف تبعثون!..

فسيقولون: ولكن من يبعثنا ويعيدنا أحياءً من جديد؟

قل لهم: الذي خلقكم أول مرة، ولم تكونوا شيئاً. لأنَّ القادر على إنشائكم ابتداءً، قادرٌ على إنشائكم ثانيةً بعد الموت، وبعثكم خلقاً حيّاً جديداً. لأن القادر على البدء قادر على الإعادة بل هي أهون عليه..

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٧.

(٢) سورة القلم، الآية: ٤.

وحيال هذه الحجة البالغة، التي لا يستطيعون مقارعتها لا بحجةٍ أو برهانٍ، يصور النص القرآنيّ ردة الفعل لديهم التي تدل على العجز:

﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ؟﴾.. هكذا وعندما يُعييهم الردُّ، فسوف يحركون رؤوسهم، ويلوونها فوق رقابهم إشارة على عدم الاقتناع، ثم، وباستهزاءٍ واستخفافٍ، يقولون: ومتى هو هذا البعث الذي تعدنا به؟!

فقل لهم: «عسى أنْ يكون قريباً».. إنه منتهى رجائي بقربه، حتى يتبيّن الصادق منا والكاذب!.. ولكنْ ذكّرهم، أيها النبيّ، بأنَّ الساعة علمها عند ربّي، ولا يجليها في ظهورها لوقتها إلّا هو سبحانه وتعالى.. أما ما أقوله لكم، فإنَّما هو وحيٌ، يوحى إليَّ من الله، على أنَّ البعث لا ريب فيه، يوم ينفخ إسرافيل عليه السلام في الصور، فتهبّون من الأجداث، ملبّين مسرعين، وأنتم تسبّحون بحمد الله، والثناء عليه، وتظنون أنكم كنتم في سباتٍ، وإنْ لبثتم فيه إلّا زمناً قليلاً!..

ومن كلام للحسن عليه السلام حول حقيقة أنَّ كل آتٍ قريبٌ، مهما كان بعيداً، قوله: «كأنك بالدنيا لم تكن، وكأنك بالآخرة لم تزل».

٤ ـ حَلَفُ الكافرين يوم البعث كمثل إفكهم في الدنيا

يقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ * وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ

ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ * كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾(١).

في مطلع هذه النصوص الكريمة تبيان لمراحل النموّ التي يقطعها بنو البشر، منذ ولادتهم وحتى مماتهم، وهو ما يعبّر عنه القرآن الكريم بلفظة «الأطوار»، كما في قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾(٢)؛ وهذه الأطوار لا تحتاج إلى براهين وأدلة، لأنها باتت علماً يقينياً، ويؤكده وجودكم الحسيّ في هذه الحياة، وأنتم تنتقلون من طور إلى طور..

والطور الأول الذي خلقكم الله فيه، هو الضعف الذي يكمن في نطفة المنيّ، التي هي عبارة عن ماءٍ مهين، ولكنها النطفة التي تحمل بذور وجودكم، ومن ثم حالات الضعف التي تكونون عليها، وأنتم أجنّة في بطون إمهاتكم، ثمّ وأنتم أطفالاً.. وكلها حالات تدلُّ بذاتها على الضعف، وقلة الحيلة.. ثم يأتي بعد مرحلة الطفولة طور القوة، في أيام الفتوة والشباب، التي يبلغ فيها الإنسان اكتمال نضوجه الجسدي والنفسي، حسبما قدر الله تعالى لكلٍّ من بني آدم..

ثم، يبدأ الرجوع إلى الضعف، بحيث ينتقل الإنسان، بصورة تدريجية، ومع مرور السنين، إلى طور الكهولة ومن ملامحها هذا

---

(١) سورة الروم، الآيات: ٥٤ ـ ٦٠.

(٢) سورة نوح، الآيتان: ١٣ و١٤.

الشيب الذي يغزو رؤوسكم، لتتسرّب معه عوامل الشيخوخة، وأكثرها تأثيراً ضعف الخلايا الحيوية، وموتها شيئاً فشيئاً، إلى أنْ يصير الإنسان في حالةٍ من التعب والوهن في الجسد والحركة، وتراخي الأعصاب، وهجوم الأمراض، التي تجعله في أشدّ حالاته ضعفاً.. بل ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾[1]، لأنَّ الضعف الذي يعتري قواه الجسدية والفكرية يفقده ما كان عليه من إدراكٍ، وتمييز وعلم، وهذا هو التنكيس، لقوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾[2].

وهذه الأطوار التي يمرُّ فيها الكائن البشري لها مدلولات كثيرة، وأبرزها فكرة الفناء، حتى يتفكّر الناس ـ ولاسيما الجبارون والظالمون ـ في أنفسهم، فيستبقون الوصول إلى المرحلة المتأخرة من عمرهم، ويرتدّون عن بغيهم وغيهم، وعمّا هم عليه من التسلط والاستكبار، لأنهم في تفكّرهم، إنّما يعلمون أنَّ مصيرهم إلى زوالٍ من هذه الحياة، فلا يبقى لهم من أثر إلّا ذكرهم الطيب أو السيء!.. ثم إنَّ فكرة الفناء هذه يجب أنْ تكون الدافع لوجود الصلة التي تربط الناس بخالقهم، والتي يجب ألّا تنقطع، وألّا تغيب عن الأذهان بتاتاً، ما دامت الكهولة والشيخوخة تنتظرهم، لتقول لهم: بأنَّ رجوعهم إلى ربّهم تعالى قد بات قريباً، لأنَّ حالة التنكيس التي وصلوا إليها إنّما تعني النذير المبين لمفارقة هذه الدنيا!.. أمّا إنْ كانوا لا يؤمنون بالبعث والحساب، فإنَّ وجودهم الماديّ، ومن ثَمَّ بلوغهم ذلك الضعف من أهم الأدلة على زوالهم، ولكن إلى أين؟ وإلى أي مصير؟

---

(١) سورة النحل، الآية: ٧٠.

(٢) سورة يس، الآية: ٦٨.

لو كانوا يعقلون!. . وقبل الإجابة عن المصير الذي ينتظر مَنْ ينكرون البعث، لا بدَّ من الانتباه إلى أنَّ النصوص القرآنية توجِّه عناية الإنسان إلى أنَّ الله ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾(١)، فهو سبحانه، ومن خلال تلك الأطوار في حياة الإنسان، يخلق ما يشاء من هؤلاء البشر، فمنهم الضعفاء والأقوياء، ومنهم الصمّ والسمّاعون، ومنهم العميُ والمبصرون، ومنهم البكم والفصحاء!. وهذا التقدير في الخلق البشري لا يكون إلَّا عن علمٍ وحكمة، لأن الله تعالى، هو «العليم»، ولا يكون إلَّا عن مشيئةٍ وقدرةٍ لأنه هو «القدير» على الخلق، وعلى تدبير شؤون هذا الخلق، بدليل أنَّ كلَّ مخلوقاته، في السماوات والأرض، بحاجةٍ إليه، إذ ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾(٢) من شؤون تلك المخلوقات. .

وبعد أنْ تقرّر النصوص القرآنية أنَّ أمرَ الخلق، وعلى تلك الأطوار، والحالات لأبناء البشر، هو شأن لله تعالى، تنتقل إلى تبيان حال المجرمين وحال المؤمنين يوم تقوم الساعة، ويبعث الله من في القبور. أي يوم يُحيي الله تعالى البشر جميعاً، الذين مروا على هذه الأرض منذ آدم عليه السلام وإلى آخر خليقة منهم. . أمَّا يوم تقوم الساعة ـ القيامة ـ ويدرك المجرمون (الكفار والمشركون) أنهم كانوا أمواتاً، ففي تلك الساعة يصيبهم الذهول من عودتهم أحياء، ولكن يغلب عليهم إجرامهم فيقسمون أنهم ما لبثوا في موتهم، وهم في القبور، غير ساعة واحدة من الزمن. . أي كما يُصرفون عن الصدق في حلفهم ـ يومئذ ـ كذلك كانوا يؤفكون في الدنيا وهم يكذبون بالبعث. . فهذا

---

(١) سورة الروم، الآية: ٥٤.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٢٩.

شأن المجرمين دائماً، إذ يطغى عليهم البهتان، حتى وهم قيام من رقادهم الطويل، فلا يصدقون بأنَّ الموت قد لفَّهم دهوراً طويلة لا يعلم مداها إلَّا ربّهم الذي أماتهم، ثم أحياهم عند البعث..

أما الذين آتاهم الله العلمَ والإيمانَ من الملائكة والبشر فيقولون للمجرمين: لا داعي اليوم للإنكار، بلى والله، لقد لبثتم في موتكم الزمن الذي قدَّره الله تعالى لكم في سابق علمه، وجعله مكتوباً في اللوح المحفوظ، الذي خطت فيه الأقدار لجميع الخلائق، وقد بقيتم أمواتاً إلى يوم البعث، فهذا يوم البعث الذي كذّبتم به، ولكنكم كنتم لا تعلمون أنه حق، وأنه واقع فعلاً، فلا يهمُّ بعده إذا كنتم لبثتم في ظلال هذا الموت طويلاً أم قصيراً، وها قد تحقق اليوم الذي كنتم توعدون..

وهنا أيضاً تقرر النصوص حقيقة أخرى من الحقائق التي ترافق يوم البعث ـ وليت الناس يقفون عند هذه الحقيقة ويعتبرون بها ـ فيومئذٍ لا ينفع الذين ظلموا أنفسهم ـ بالكفر أو الشرك بالله ـ أعذارٌ يبدونها، ولا أحد يعاتبهم، أو يطلب لهم العُتبى على إنكارهم للحق في دنياهم! فيومئذ لا تنفع معذرتهم بشيء، كما أنهم لا يستعتبون أصلاً. وعدم قبول أعذارهم، وعدم استعتابهم، فذلك لأنَّ الله جلَّ جلاله قد بعث النبيين والمرسلين بالأنباء والرسالات التي تهدي، فكذبوا بها جميعاً، ولا سيما هذا القرآن الذي ضرب الله فيه للناس من كل مثل، وقصَّ فيه من كل قصص، ليتجنّب الناس الكفر والتكذيب، وليسيروا على الطريق السويّ، طريق الإيمان والتصديق، ولكن قست قلوب كثير منهم، وأصمّوا أسماعهم عن قبول فكرة الآخرة، ويوم البعث، فلم يعبأوا بأمثال القرآن، وقصصه، وأحكامه وعظاته، ولم يقروا بدعوة رسول الله ﷺ لاعتناق عقيدة التوحيد التي يحملها

القرآن، فكان أنْ وصلوا إلى ما وصلوا إليه يوم البعث حيث ﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

وبعد البيان لما يكون عليه حال المجرمين يوم البعث، ولما يقوله لهم الذين أوتوا العلم والإيمان، يخاطب الله تعالى ـ ربُّ العزة والجلال ـ نبيَّه محمداً ﷺ بقوله الكريم: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾.. فأية حجة مهما كانت بالغة، وأي برهان مهما كان ساطعاً، وأي دليل مهما كان واضحاً يأتيهم به رسول الله ﷺ ـ بل ولو جاءهم بالمعجزة الباهرة ـ فإنَّ الكافرين لن يصدقوه، ولن يؤمنوا بما أنزل إليه من ربّه تعالى.. ولا يقف كفرهم عند حدود عدم التصديق، وعدم الإيمان، بل يتهمونه وأتباعه بأنَّ ما يرشدونهم إليه ليس إلَّا أباطيل، إذ يقولون لهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾.. ولكنَّ هذا الاتهام هو بحد ذاته الحجةُ التي يحملها القرآن ضِدَّ كلِّ من وَصَلَ إليه هذا الكتاب أو علم به، ولم يؤمن بأنه كتاب الله الحق، وأنه وحي الله الذي نُزِّل على محمدٍ ﷺ، وكذلك كلِّ من لم يتّبع ما فيه، فإنَّ الحجة قائمة عليه إلى يوم القيامة، وسوف يلقى عاقبتها أمام ربِّ العالمين.. وهذا ما يؤثّر على الحقيقة الأصيلة والثابتة التي يهدينا إليها القرآن المبين وهي: إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرهم رسول الله ﷺ في زمانه أم لم ينذرهم، وسواء أأنذرهم الدعاة للإسلام من بعد الرسول ﷺ أم لم ينذروهم، وسواء اهتدوا بالقرآن أم آثروا نبذه وراء ظهورهم، فإنهم لا يؤمنون!.. لا يؤمنون: لأنَّ الله العزيز الحكيم ختم على قلوبهم، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، ولهم عذاب عظيم.. كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون، ولا يريدون أنْ يعلموا الحق الذي جاء به القرآن،

ولا أنْ يعتنقوا عقيدة التوحيد التي يدعو إليها هذا الكتاب المبين.

وتاريخ الدعوة الإسلامية يشهد كم كان يؤذي رسولَ الله ﷺ ويؤلمه عدمُ الاستجابة لتلك العقيدة التي يحملها القرآن، هدىً للعقول، ونوراً للقلوب، لأنه كان ﷺ أحرص الناس على هدايتهم إلى صراط الحميد المجيد، ولذا يخاطبه ربُّه تعالى داعياً إيَّاه إلى الصبر.. «فاصبر» على أذى الكفار، وإصرارهم على عنادهم وتكذيبهم واعلم أنَّ وعد الله بإنزال العقاب الشديد بهم حقّ لا مراءَ فيه، ولا يستفزَّنَّك هؤلاء الذين لا يوقنون بالبعث، ولا يغيظنَّك هؤلاء الذين لا يصدقون بالوحي الذي يُنزَّل عليك، إذ آخرتهم إلى زوالٍ، وحسابهم آتٍ لا ريب فيه، وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلبٍ ينقلبون..

٥ ـ كما يحيي الله تعالى الأرض الميتة بالماء كذلك الخروج من القبور

يقول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾[1]. ويقول تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[2].

فسبحان الله القادر المقتدر الذي يوجه أنظار عباده إلى ما خلق في

(١) سورة ق، الآيات: ٦ ـ ١١.
(٢) سورة الروم، الآية: ١٩.

السماء والأرض من آيات تشهد على أنه الخلاق العليم. ومن آياته بناء السماء من فوقكم بلا عمدٍ ترونها، أيها الناسُ.. والسماء ليس ما يصل إليه البصرُ، وحسبُ من العلو المترامي فوقهم، أو ما استطاعوا اكتشافه في أبعاد الكون الفسيح، بل السماء تتسع لتشتمل على سبع سماواتٍ طباقاً، يعلو بعضها فوق بعض بتماسكٍ متينٍ وإحكامٍ في البناء شديدٍ، حتى لا يتخللها عيبٌ أو تشقق يُفسد بناءَها، وإنها لتظلّ على متانتها وفق سنن ثابتةٍ، وأنظمةٍ دقيقةٍ يؤلف بينها روح التناغم الذي أودعه الخالق العظيم في بنيانها.. وإلّا لولا هذا الإحكام والإتقان لدهمها طائف القدم والوهن، فما بقيت سماء، ولا أرض ولا حياة.. ومن آيات الله العظمى ليس الإحكام وحده، ولا الإتقان وحده في هذا الكون الكبير الواسع، بل وأيضاً ما نراه من جمال هذه النجوم والكواكب التي تملأ صفحة السماء، وهي تتلألأ بالأضواء، وتشع بالأنوار لتكون زينةً للناظرين، أما مصادر تلك الأضواء والأنوار فهي مجالٌ آخر للنظر الفكريّ. وحسب أهل العلم تقدُّماً، أنْ تبيّن مراصدهم سعة الكون بأبعاده الهائلة، وهي تلتقط الأضواء الآتية من ملايين السنين الضوئية لتذهب إلى غاياتها، كما قدَّر لها الخالق العظيم.

وكما في خلق السماء آيات مبيّنات، فكذلك في خلق هذه الأرض التي نحيا عليها.. فهي وإنْ كانت كوكباً صغيراً يسبح في فلك النظام الشمسيّ، إلّا أنَّ في بنائها ما يستدعي النظر والتفكير، إذْ جعل الله تعالى فيها سهولاً ممتدة، ونصب فيها جبالاً رواسيَ، ثابتة لتُحكم تماسكها، وتوازنَ بين تضاريسها فلا تميد أو تضطرب أطرافها.

ومن جمال هذه الأرض ما أنبت فيها خالقها من كل زوج بهيج. وقد كنَّى عن الأصناف التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى مما أنبت فيها

بالـ«زوج» لأنَّ كلاً منها قائم على نظام التذكير، والتزاوج، إذ عندما يحصل اللقاح تبدأ عملية الإنشاء التي تكتمل بأجمل الحلة والرونق، والتي فيها متعة للعيون، وبهجة للقلوب، فتتكامل الآيات في الصنع والجمال ما بين الأرض والسماء..

كل ذلك قد جعله تعالى تبصرةً، وعظة لكل عبدٍ مؤمن يُرجع كل أمر، وكل شأنٍ إلى ربّه تعالى، فيعبده حق العبادة، ويطيعه حق الطاعة، لأنه يعلم ما للخالق من الفضل على عبادِهِ.. إذْ يكفي النظر إلى ما خلق لهم من مقومات للحياة، وسبل للعيش على هذه الأرض حتى يسبّحوه ويقدسُّوه، فلا يَنُوا في ذكره وتمجيده ما دامت الحياة، وما دام الليل والنهار. بل والحكمة تبين للناس ما في تكوين أمهم الأرض من إحكام وتكامل بين مختلف أطرافها، وما أمدَّها الخالق به من عناصر تكوينية تجعلها وحدها صالحة للحياة، من بين مختلف الكواكب السيارة في النظام الشمسي...

وتذكرة أخرى للناس جديرة بالتبصّر والإيقاظ من الغفلة: فهذا الماء الذي ينزله الله من السماء هو سبب الحياة على الأرض، إذ به يحيي الأرض بعد جفافها ويباسها، ويحيي أهل كل بلدةٍ فلا يموتون عطشاً أو جوعاً. فهذا الماء الذي يُنزله الله من السماء مباركاً، هو الذي يجعل الأرض ترتوي وتهتزَّ، وهو الذي ينبت به الله تعالى الجنات من الأشجار المثمرة وغير المثمرة، والحقول والسهول التي تمتلىء بالحبّ الحصيد، الذي يأكل منه الناس والأنعام، وهو الذي تغنى به الحياةُ بالخيرات والأرزاق على اختلاف أزهارها وأنواعها، ومثاله هذا النخل الذي تتراكب عناقيده فتعطي الناس أشهى الثمرات، وأكثرها

فائدة.. وذلك تقدير العزيز الحكيم، الذي خلق كل شيء فقدَّره تقديراً..

وكما يحيي الله تعالى الأرض الموات، أو البلدة المجدبة بالماء المبارك الذي ينزله من السماء، كذلك يحيي الأموات، ويخرجهم من القبور يوم البعث، يقول تعالى: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًاۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾(١).

فإذا دخلت الشبهة عقول الكافرين حول إحيائهم، وخروجهم من القبور، فتلك هي الشواهد من فوقهم، ومن تحت أرجلهم، ومن حولهم، بهذا الماء، وبهذا الإنبات من كل زوج بهيج، وبهذا الرزق الوفير من كل الثمرات.. وكما يموت النبات ويحيا من جديد في المواسم، وخلال الفصول، وفي المواقيت المحددة له، كذلك تخرجون أيها الناس من القبور بعد أنْ كنتم أمواتاً، لتحشروا إلى ربكم، يوم تقوم الساعة التي لا ريب فيها، والتي لا يعلمها إلَّا الله تعالى، وحده.. وإنّ في إنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض بعد موتها، تذكرة متجددة لذوي الألباب، فلا يغيب عن بالهم مشهد الخروج يوم القيامة، بل يستعدون له كما يحثنا على ذلك القرآن الكريم، من خلال التبصّر بآياته وما تحفل به من التعاليم والمفاهيم حول أمور الدنيا والآخرة كما يهدي إليه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾(٢)؟!..

ويؤكد القرآن على هذا الجانب الطبيعيّ الذي تتفاعل به الحياة على الأرض، بآيات أخرى عن الرياح والسحاب، وتأثيرهما في إنزال

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ١١.

(٢) سورة محمد، الآية: ٢٤.

المطر، وإخراج النبات والثمار، لتكون الدلائل المعبرة لنا عن كيفية إخراج الموتى..

يقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۞ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾[(١)].

ويقول تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾[(٢)] وهنا أيضاً في هذه الآيات المباركة بيانٌ لأهمية الماء الذي ينزله الله تعالى من السماء، ولكن مع ذكر بعض العوامل الطبيعية التي تؤثر في سقوط المطر، ومنها قوة الرياح التي تحمل السحاب الثقال (أي المليئة بالماء) إلى ناحية معينة في فضاء الأرض، حيث تتوافر لها عوامل البرودة فتنزل مطراً ـ بإذن الله ـ يحيي الأرضَ العطشى الجافة، ويروي الأشجار والمزروعات فتعطي من كل الثمرات رزقاً طيباً للعباد.

واللفتة القرآنية في هذا السياق تدلُّ على أنَّ قوى الطبيعة ما كانت لتجتمع، وأنَّ الماء ما كان لينزل لولا رحمة الله بالناس، فهو ـ جلّت قدرته ـ الذي يرسل الرياح ليستبشروا بها على نزول المطر، وهو الذي يأمر هذه الرياح أنْ تهبَّ وتنقل السحاب الذي يتكاثف من بخار المياه الناتج عن حرارة الشمس، وهو الذي يأمر المطر أنْ ينزل فوق بلدٍ أرضه جفاف ومواتٌ، فترتوي وتخرج النبات، لتربو فيها

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ٥٧ و٥٨.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٩.

الخيرات من كل الأنواع والأصناف رزقاً حسناً للعباد. فكما يحيي الله تعالى البلد الميت بإنزال المطر عليه، كذلك يخرج سبحانه الموتى من الأجداث.. والقرآن الكريم يسوق لنا هذا المثل عن إنزال الماء، وإحياء الأرض لعلّنا نتذكر البعث يوم القيامة، كلما رأينا المطرَ يهطل، والأرضَ تنبت، فلا يغيب عن بالنا ذلك اليوم العظيم، فنستعد له بالإيمان، والطاعة وطلب المغفرة والرحمة..

ولا بد هنا من الربط ـ وبوحيٍ من آيات أخرى في القرآن الكريم ـ بين النفخ في الصور الذي يجعل الحركة تدبّ بين الأموات، وبين الرياح وهي تحرّك السحاب الذي يحمل المطر، بحيث تنشأ من الحركة حياة جديدة في الحالتين: ففي حركة الرياح والسحاب حياة الإنسان والنبات والكائنات الحية الأخرى، وفي حركة البعث حياة الأموات من الناس، وذلك هو «النشور»

ونجدُ لفتةً أخرى من لفتات هذا النص المجيد تؤشّر على تبيان الأرض الطيبة من الأرض الخبيثة، للتدليل على الفوارق بين الاعمال الصالحة والأعمال السيئة. فالبلد الطيب الذي يكون تراب أرضه صالحاً يخرج نباته بسهولة ويكون نامياً زكياً؛ بينما البلد الذي يكون ترابه فاسداً، لا يخرج منه إلا نبات خبيث لا ينفع بشيء.. والناس كذلك ـ وهم من طين الأرض ـ فإنَّ منهم المؤمن الصالح، والكافر الفاسق، وكل بحسب استعداداته الذاتية في نفسه، وتربيته في بيئته، فيأتي التشبيه القرآنيّ ليـمثل بالنبات الطيب لأعمال المؤمن الصالحة، والنبات الخبيث لأعمال الكافر الفاسدة. وإنَّ في هذا التشبيه الحسيّ دافعاً قوياً للإنسان للعودة إلى نفسه، فيجعلها وعاءً للخير كالأرض

الطيبة، بدلاً من أنْ يجعلها وعاءً للشر كالأرض الخبيثة.

﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾، أي وعلى هذا النحو من الشواهد الحسية يبيّن الله تعالى الآيات الدالّة لقومٍ يشكرون نعمته وفضله.. فتلك الخصائص التي تكمن في الرياح والسحاب، وفي ماء المطر، وما تؤدي إليه من إخراج الثمرات، وتبيان الفوارق ما بين الأرض الطيبة، والأرض العقيمة في الإنبات - وكلها مما يؤثر على الحياة - إنما هي أدلة وشواهد لأناسٍ يعلمون حقيقة النعمة، ويشكرون ربّهم على ما آتاهم من الأرزاق والخيرات.

والشكر لربّ العالمين، لا يكون، عادةً، إلا من المؤمن، فكما يحيي الذكرُ الحكيمُ القلوبَ المؤمنةَ، فلا تنفك عن الحمد والثناء للخالق العظيم، كذلك يحيي الماءُ الأرضَ فتغنى بالنبات والثمرات.. وبمثل هذا التبيان القرآني يمكن التوكيد على أنَّ صلاح الحياة لا يكون إلا من صلاح القلوب، وطيب الحياة لا يكون إلَّا من طيب الشكر.. والأمر أولاً وآخراً للّهِ المنعم الكريم.

٦ - الله تعالى قادر على أنْ يبدل أمثالنا وينشئنا خلقاً آخر.

يقول الله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

لقد بات واضحاً أنَّ من صلب تعاليم العقيدة الإسلامية الإيمانَ

---

(١) سورة الواقعة، الآيات: ٥٧ - ٦٢.

بالبعث، ولكنَّ بعض العقائد الأخرى قد لا تعبأ بحقيقة البعث، إنْ لم تنكره بصورة مطلقة، ولكي يبين لنا القرآن الكريم أثر الاعتقاد بالغيب، ومنه الإيمان بحقيقة الآخرة، فإنه يسوق لنا ـ كما أبرزناه مراراً ـ البراهين العقلية من واقع حياتنا، ومن حقيقة خلقنا مما لا يمكن تجاهله أو إنكاره..

وأول ما ينبِّه إليه القرآن هنا مخاطبةُ ربّ العالمين للناس بقوله الكريم: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾.. إذ لا أحد ينكر أنَّ في هذه الحياة حقائق كثيرة، وكثيرة يعايشها الناس كل يوم، بل وكل ساعة، ومنها ما يُعدُّ مسلماتٍ يقينيّةً، لا تعود موضع تفكير، بحكم العادة التي ألفوها في معايشتهم لها، ومنها ما يكون موضع اختلافٍ بحكم العقائد التي يعتنقونها، وما ينبثق عن تلك العقائد من نظرةٍ إلى الأشياء من حولهم، وإلى ما يريدون، أو يطمحون إليه في وجودهم. ومن القضايا الخلافية بين الناس قضية الخلق!.. فالمؤمنون على يقين بأنَّ الله تعالى هو الخلّاق العليم، وهو الذي خلق كلَّ شيء فقدَّره تقديراً. بينما الذين ينكرون بأن الله هو الخالق، إنما يعزون الخلق إلى تفاعلات كيماوية وبيولوجية، أو غيرها من التفاعلات، ويسمون ذلك حسب نظرياتهم «تطور الكائنات الحية».. ونحن نحيل هؤلاء إلى العلم الحديث الذي يبحث في تكوين الإنسان، وقد ثبت لديه، بما لا يقبل الشك، أنَّ النظام البيولوجيّ الدقيق، الذي يقوم عليه خلق البشر، هو نفس النظام الذي حدَّد أطواره القرآنُ منذ ما يزيد على ألف وأربعمائة عام، فكان حقاً أنْ يتنزَّل في هذا الكتاب الاحتجاجُ، بل وهذا الإيقاظ لعقول الذين لا يؤمنون، ولا يصدقون

بأنَّ الله جلت عظمته هو الخالق، وأنّه هو الذي خلقهم، وذلك بقوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾. أما البرهان فمن أنفسهم بالذات، من هذا المنيّ الذي يضعه الرجل في رحم المرأة، فيلتقي ماء الرجل الذي يأتي من صلبه (من ظهره) مع ماء المرأة الذي يأتي من صدرها، ليبدأ التفاعل الذي يؤدي إلى الحمل ثم تكوين الجنين، ومن ثم الولادة.. ويأتي هذا البرهان على شكل السؤال الذي يحمل التوبيخ والتقريع: أفرأيتم هذا المنيّ الذي تمنون - أيها المنكرون - ءأنتم تخلقونه أم الله تعالى هو الذي يخلقه في عجيب تكوينه؟! ولو كنتم تعقلون الحقائق النابعة من الأنفس البشرية بالذات، لرأيتم أنَّ هذا المنيّ نفسه قد يكون عقيماً أحياناً، فمن جعله كذلك عقيماً عند هذا الرجل، وقابلاً للإنجاب عند الآخر؟ ومن جعل هذه المرأة عقيماً وغيرها صالحة لأن تلد من البنين والبنات ما يشاء الله تعالى؟ أفرأيتم هذا المنيّ الذي تمنونه ءأنتم تخلقونه، أم الله هو الذي خلقه؟ والجواب: أنكم لستم أنتم الذين تخلقونه فكان من خلق الله، فهلاَّ تصدقون بهذه الحقيقة الراهنة؟!

وحقيقة أخرى في حياتكم: وهي الموت. فهذا الموت قد جَعَلَهُ الله قَدراً مقدوراً على الإنسان. وقدَّر لكل إنسانٍ أجلاً يموت فيه، ولا يمكن لأحدٍ أنْ يفلت منه، لأن كل نفس ذائقة الموت، إنما أمرُهُ متى يكون، وكيف تحصل الوفاة، فذلك من شأن الله، وهو جلَّ جلاله غير عاجز، وغير مسبوق بأنْ يميت من يشاء، وساعة يشاء، بل ولا شيء يعجزه عن أنْ يميت الناس جميعاً، وأنْ يستبدلهم بآخرين غيرهم. وقد يأتي بالآخرين من مثل خلقكم، وعلى نفس النظام الذي خلقكم

بمقتضاه، أو قد يكون خلقاً آخر مختلفاً، فهو أمرٌ لله تعالى، وعباده عاجزون عن معرفة أسراره، لأنه يدخل في علم الغيب الذي اختصَّهُ الخالق لذاته القدسية، ولم يشرك به أحداً من مخلوقاته.

إذاً هذه أدلة لا تحتاج إلى براهين: تبدأ بالمنيّ، ثم تتعاقب أطوار الخلق البشري. لتنتهي بالموت.. فهذه النشأة الأولى من المنيّ، التي يعلمها الناس حق العلم، جديرة بأنْ تذكّركم بالنشأة الثانية بعد الموت، لأنَّ القادر على النشأة الأولى، قادر على النشأة الثانية يوم القيامة، فلولا تذكَّرون نشأتكم الأولى فتؤمنون بالنشأة الثانية يوم البعث!..

ومن قول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: **«عَجِبتُ لِمَنْ آمَنَ بالنشأةِ الأولى كيفَ يُنكِرُ النشأةَ الأُخرَى»**.

٧ ـ مشهد الجموع في خروجها من القبور كأنهم جراد منتشر

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ * خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ * مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾(١).

لقد كان النبيُّ ﷺ يتلقى الوحي، الذي يحمل أخبار الأمم التي كذبت رسلها، وفيها زجرٌ ونهيٌ عن العناد والضلال اللذين يجعلان الكافرين يعرضون عن دعوته، ويلجّون في عتوٍّ ونفورٍ على عدم تصديقه، فجاءه الخطاب من ربّه تبارك وتعالى أن يتولَّى عنهم، فلا

(١) سورة القمر، الآيات: ٤ ـ ٨.

يجهد نفسه مع المستكبرين عن دعوته، لأنْ لا فائدة ترجى من هديهم، ولا أمل في نصحهم، فيوم الحشر ينتظرهم، وسوف يُلاقُون حاضراً ما كانوا ينكرون!

ولو تأمّلنا، وأمعْنا التفكير في هذه الآيات المبيِّنة، لتراءى لنا المشهد الذي تصوره لأولئك الكافرين المجرمين، الذين ما إنْ يسمعون الصيحة الكبرى، يوم يدعو الداعي ـ وهو المَلَكُ إسرافيل المكلف من ربّه العزيز بالنفخة في الصور ـ لإيقاظ الناس من موتهم، حتى يخرجوا من قبورهم دفعةً واحدة، كأنهم جراد منتشر في رقعة واسعة. . ولكثرة أعداد الناس يأتي النصُّ ليقرب لنا التصور عن مقدار جموعها، بمشهد الجراد الذي ينتشر بكثرة في الفضاء الذي يحوم فيه، ثم يحط على ناحية فيكسوها. . ومثل هذا المشهد قد يعبّر عن كل أولئك البشر الذين خلقوا على الأرض ـ والذين لا يعلم عددهم إلا خالقهم ـ عندما يهبون من الأجداث، ويسرعون باتجاه الصوت الذي دعاهم، وهم يمدون رؤوسهم إلى الأمام، وأبصارهم خاشعة من الذل، ومن الخوف الذي يعتري النفوس، وقد أيقنوا أنَّ ساعة الحساب قد حلت، وأنْ لا مفرَّ لكل نفس من أنْ تنال جزاءها، على ما كسبت في دنياها.

ثم يرسم لنا التعبير القرآنيّ مشهداً آخر للكافرين الذين لم يؤمنوا ـ من قبل ـ بيوم الحساب وهم يقولون: «هذا يوم عسر». . فلم يعد من مجال لأنْ ينكروا البعث ـ وقد بعثوا فعلاً ـ ولم يعد سهلاً أنْ يتقوَّلوا ما يريدون، فالهول يطغى على نفوسهم، والفزع يأخذ بمجامع قلوبهم. . فكل شيء يدلُّ على أنه يوم عسير وشاق عليهم، إذ ليس من إيمان يعصمهم من الفزع الأكبر، وليس من خير قدموه لأنفسهم،

هو محسوبٌ لهم في ذلك اليوم، فكل ما عملوا للدنيا بقي في دنياهم، ولكن وجدوا عاقبته السيئة محضرةً يوم بعثهم، فحق أن يكون عسيراً عليهم ذلك اليوم، كما يعبرون هم عنه، وهم يقولون: «هذا يوم عسر»..

ولعلَّ في هذا التصوير لأحوال الكافرين، يوم يدعو الداعي إلى شيءٍ نكر (لما فيه من الأهوال) ما يعظ الناسَ في دنياهم، ويرشدهم إلى الإيمان بالله تعالى، وبالبعث والحساب، فيستعدوا، ليجعلوا ذلك اليوم يوماً سهلاً، بدل أنْ يجدوه يوماً عسيراً عليهم!..

وفي سورة أخرى من القرآن الكريم، يأتينا نفس المشهد ليوم الحشر، وما يكون عليه حال المجرمين، وهم يتخافتون بينهم عن مدة بقائهم في الحياة الدنيا، فيقول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ❁ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ❁ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾[1].

«ومن أصدق من الله قيلاً».. إنَّه سبحانه يتحدث عن حشر المجرمين، تبعاً لتلك الأعمال الإجرامية التي أتوها في حياتهم الدنيا، وهي على كثرتها وتنوعها، قد تراكمت على أكتافهم أثقالاً، يحسون بمقدار ثقلها وعبئها في يوم الحشر فقد ارتكبوا المعاصي، وتجاوزوا الحدود التي حدَّها الله تعالى، وفرَّطوا بحقِّ ربّهم جلَّ جلاله وبحق أنفسهم، وبحق العباد، حتى صارت بمثابة الأحمال الثقيلة التي تنوء أكتافهم وظهورهم بحملها!..

---

(١) سورة طه، الآيات: ١٠٢ ـ ١٠٤.

ذلك أنهم كفروا بربّهم وأعرضوا عن ذكره، وملأوا حياتهم الدنيا بالإثم والعدوان، ولم يراعوا إلاً ولا ذمةً في الناس، فاعتدوا عليهم، وسلبوهم حقوقهم، ولذلك كانت أعمالهم جرائم يحاسبون عليها، وينالون العقاب الذي يستحقون!..

فكيف يكون حال أولئك المجرمين يومَ يحشر الناس للحساب؟

ما إنْ ينفخ في الصور، ويأتيهم نداء الاستفاقة، حتى يهبوا من الأجداث بقلوبٍ يملأها الهلع!.. وما إنْ يصلوا إلى المحشر حتى تكون وجوههم قد غطاها الشحوب، والسواد فبدت من شدة الصدمة بتلاميح جديدة يغلب عليها الازرقاق، تماماً كما نرى مثل هذه الآثار على وجوه الخائفين، المصدومين عندما يسيطر عليهم القلق أو الفزع، إما من جراء المرض، أو من جراء ضبطهم بالجرم المشهود.. وفي محاولة يائسة من أولئك الكافرين للتسرية عن أنفسهم، يقولون، بصوت خافت، يكاد لا يسمع لشدة ضعفه: كم لبثنا في الحياة الدنيا؟!

فيقول بعضهم: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ أي إنْ هي إلا مدة وجيزة، لا تتعدى عشرة أيام.

ولكن لماذا مثل هذا الظن، أو الوهم بأنَّ حياتهم الدنيا كانت قصيرة، حتى أنها لا تتجاوز أياماً معدودات؟

إنه تأثير يوم الحشر عليهم، فكأنما يريدون اختصار حياتهم كلها على الأرض بليالٍ قليلة، لتكون ذنوبهم قليلة، إذ كلما سيطر عليهم الوهم بأنَّ حياتهم كانت قصيرة، كلما غلب عليهم الظن بأنَّ جرائمهم كانت معدودة ولا تحتمل العقاب الشديد. وعلى العكس كلما أحسوا

بأنَّ أعمارهم كانت طويلة، تراءى لهم عديدُ المعاصي والآثام التي ارتكبوها في دنياهم، وحاقت بهم مشاعر العذاب من جرائها! . .

ويصور لنا النص أنَّ ما يتمنونه في قرارة نفوسهم، وما يقولونه لبعضهم البعض، يريدونه سراً فيما بينهم، حتى لا يسمع أحدٌ ما يقولون، أو يعلم بما يتهامسون، وذلك على نفس الدأب الذي كانوا يسلكونه في الحياة الدنيا، وهم يعدّون لجرائمهم، ويحيكون لمكائدهم في السرّ، والخفاء! . .

ولكن أليس ذلك منتهى الضلال والغباء؟! إنهم، حتى في الحشر، لا يريدون أنْ يقروا بأن الله هو العليم الخبير، وهو يعلم السّر والنجوى، ويعلم ما تخفي الصدور، وما تنطق الألسن. . ولذلك كان التوكيد على أنه سبحانه وتعالى يعلم ما يسرون لبعضهم بقوله العزيز: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾.

ويبدو أنَّ أمثلهم طريقةً في التمويه والغباء، وأمثلهم أسلوباً في الحنكة والدهاء قد شطَّت به أمانيه الكاذبة إلى أقصى ما يمكن أنْ يخفف به عن نفسه، وعن المجرمين أمثاله من ثقل الأوزار التي يحملونها، فيقول: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾.

فتلك أمانيه وأمانيهم. . لا يريدون أنْ يكون الحساب عسيراً عليهم، فيأملون ـ وهماً وظنّاً ـ بألا يكون مكثهم في الحياة الدنيا أكثر من عشرة أيام، بل أكثر من يوم واحد! . .

ولكن كذبوا وغرّتهم الأمانيّ الباطلة، فهم في يوم الحشر؛ وهم وقوف بين يدي ربّ العالمين، ولكلٍّ كتاب وحساب! . .

فهل يكفي الناسَ ما يرشدهم به الذكرُ الحكيم عن يوم البعث،

حتى يوقنوا به، ويعودوا إلى ربّهم الغفور الرحيم، ولا يبقوا سادرين في الغيّ والضلال؟

٨ ـ مقولة إنكار البعث مثل مقولة الأولين

يقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ * قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾[١].

هذه هي الحقيقة التي يجب أنْ يؤمن بها الناس إيماناً صادقاً، وهي أنَّ الله تعالى هو الذي خلقهم في الأرض، ثم قدَّر لهم التزاوج والتكاثر، فكانت هذه الأمم، والشعوب والقبائل والجماعات باختلاف ألسنتها وألوانها. . وكانت هذه العمارة في الأرض على الرغم مما يتداخلها من أعمال الخير والشر، والحق والباطل، والتقوى والفجور، وغيرها. . وغيرها. . ممَّا يجعل الحياة في هذه الحركة الدائبة التي تعبِّر عن مسيرة الجنس البشري بكل معانيها وآفاقها. .

والحقيقة الأخرى التي يثيرها النص القرآني هنا، هي أنه بعد الموت الذي يطوينا، لا بدَّ أنْ نحشر إلى الله تعالى، الذي ذرأنا في الأرض، ليكون حسابنا بين يدي الواحد الديَّان، فنلقى جزاء أعمالنا، وما كسبت أيدينا. والقرآن المبين يهدينا بأنَّ الله تعالى هو الذي خلق الموت والحياة، بقول الحق تبارك وتعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾[٢]. . ومن بديهيات الأمور أنَّ الذي يخلق الموت والحياة هو

---

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ٧٩ ـ ٨٢.

(٢) سورة الملك، الآيتان: ١ و٢.

الذي يحيي ويميت، طبقاً لما يؤكده كثير من النصوص القرآنية، كما هي الحال في سورتي «المؤمنون» و«الملك». . ليكون للنصوص في كل من هاتين السورتين المباركتين مضامينها وإيحاءاتها التي تدل على أنَّ الله على كل شيء قدير. . ومن تلك المضامين والإيحاءات أنَّ الله عزَّ وعلا قد خلق الموت والحياة ليكون فيهما ابتلاء واختبار لعباده، وأيهم أحسن عملاً في دنياه. . وما أمره تعالى في اختلاف الحياة والموت وهما يتعاقبان على الناس، إلّا كأمره في اختلاف الليل والنهار، وتعاقبهما بين الظلمة والنور، والطول والقصر، تبعاً لدورة الأرض حول نفسها في هذا النظام الكونيّ المتكامل، بحيث يكون لنا في تعاقبهما دليلٌ، وبرهانٌ على الحياة والموت. . وهنا يبدو الربط فائق الروعة بين ما يعنيه النهار من الحركة والحياة، وما يعنيه الليل من السكون والموت. . وذلك بما ينطبق تماماً على واقع الناس حيث يدبّون في نهارهم وينشطون للعمل والكد، فلا يأتي عليهم الليل إلا ويأخذهم النوم حيث تتوفى فيه الأنفس فعلاً، فيمسك الله (جلت عظمته) الأنفس التي قضى عليها بالموت، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمّى. . وذلك كله تقدير العزيز الحكيم، أفلا نعقل هذا التقدير فنعتبر، وندرك هذه الحكمة فنوقن؟

وعلى الرغم من هذه الأدلة العقلية، والبراهين الحسية فإنَّ الكافرين لم يأخذوا منها عبرة أو عظة. . بل قالوا مثل ما قال الأولون من آبائهم وأجدادهم، ومن هم على شاكلتهم في الكفر والإلحاد. قال الأولون: أإذا كنا تراباً وعظاماً أئِنّا لمبعوثون؟ فكيف يكون منهم مثل هذا الاستغراب، الذي يدفعهم للقول بأنه يستحيل أنْ نموتَ، وتبلى أجسادنا، فتصبح تراباً، وليس منها إلا بعض عظيمات بالية، ثم نعود

ونحيا من جديد؟! إلّا أن يكون إنكارهم للحقائق وتكذيبهم للأدلة والبراهين الدامغة مجرد عنت واستكبار، وذلك هو الضلال المبين..

الفقرة الخامسة: الإيمان بالجنة والنار

من الملاحظ في حياة الإنسان نزعته إلى الطموح، وسعيه الدائم إلى رغد العيش والراحة والأمان. فنراه يكدّ، ويجهد، ويتوسل بجميع القوى الفكرية، وبالوسائل المادية التي يستطيع بواسطتها تحقيق أهدافه، التي تختلف، عادةً، بين إنسانٍ وآخر، تبعاً لاختلاف الدوافع لدى كل واحدٍ من الناس.. فقد يكون الدافع مثلاً وراء إحسان المحسن ابتغاء كسب الأجر، ونيل رضوان الله تعالى، ولذلك فهو يؤثر مساعدة الفقراء والمحتاجين، ومدَّ يد العون لأصحاب الحاجات والمحرومين، والقيام بأعمال البر والخير، دونما حب للظهور، والتعالي على غيره، ودونما طمعٍ في مكاسبَ دنيويةٍ..

وعلى خلاف ذلك فقد يكون الدافع لدى الإنسان مادياً بحتاً، فنرى جهوده منصبّةً مثلاً على تحقيق الغنى، أو الجاه أو السلطان، أو غيرها من مطامع الدنيا.. وقد لا يتردد كثيرون عن استعمال أية وسيلة لنيل مطالبهم، حتى ولو كان الأمر على حساب الآخرين، أو هضم حقوقهم، أو القضاء على مصالحهم المشروعة.. فكل شيء عند طلّاب الدنيا مبرَّر، طالما أنه يحقق رغباتهم وأمانيهم!!.

وقس على هذين المثلين جميع المطالب التي يعمل من أجلها الناس، فهناك دوافع متنوعة، وهناك غايات متعددة ولكنها تظهر بالأعمال التي يأتيها الناس.. وهذه الأعمال هي التي تحدد نوعية حركتهم في الحياة الدنيا، وهي التي تحدد سعيهم للآخرة، على قاعدة

إيمانهم ـ أو عدم إيمانهم ـ بالثواب والعقاب، وما يعقبهما من الدخول إلى الجنة أو النار. .

أولاً ـ التمثيل على الجنة والنار بالأشياء الأرضية:

يقول الله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾(1).

ويقول تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾(2).

الأعمالُ بنتائجها وآثارها. . وأعمال الناس ـ طبقاً للمفاهيم الإسلامية ـ هي الطريق التي تقرر مصائرهم في الآخرة، وذلك بحسب الغايات التي ارتضوها، والخيارات التي ارتأوها. وهذا ما يبيّنه لنا القرآن الكريم، بوضوح، وبصورة مسبقة قبل الوصول إلى الآخرة: فأما المؤمنون الصادقون فقد وعدهم ربّهم الكريم بالفوز بالجنة حيث النعيم المقيم، بينما توعَّد الكافرين والعاصين بالخلود في النار حيث العذاب الأليم.

وبما أنَّ الجنة والنار هما من القضايا الغيبية التي لا يعلم إلَّا الله تعالى حقيقتهما، وكيفية خلقهما وصفاتهما، فقد شاء ربُنا أن يقرب صورتهما للأذهان عن طريق الأشياء الحسية التي تلامس حياة الناس، في شتى مظاهرها، ولا سيما الأشياء التي تؤثّر عليهم مباشرة من مأكل أو ملبس أو مسكن، أو سعادة وشقاء إلخ. . فضرب لهم المثل عن

---

(1) سورة محمد، الآية: ١٥.

(2) سورة الرعد، الآية: ٣٥.

صفات الجنة بهذه الأشياءِ التي يرونها في الأرض، وأهمها ـ على الإطلاق ـ هذا الماء الذي جعل الله منه كلّ شيءٍ حيٍّ، بحيث لا تقوم للإنسان، أو لأيّ كائنٍ حيٍّ، حياة من دون الماء. . ولذا نجد القرآن الكريم يركِّز دائماً على ذكر الماء في معرض الحديث عن الجنة، وعن الحياة، وعن الكائنات الحية. فذكر فيما خصَّ الجنَّة الأنهارَ، وأكثر من تبيان أنواعها وأوصافها بما تحتويه من الملذات والمتع، ومن الفوائد والحسنات ولا سيما ما تبعث عليه من الراحة والسعادة، وذلك حتى تظهر لنا الجنةُ نعيماً مقيماً، وملكاً واسعاً لا يبلى، وخلوداً دائماً لا ينقضي ولا يفنى، كما نستدل على ذلك من الآيتين الكريمتين، في مطلع هذه الفقرة، حيث تبدأ كل آية بوصف الجنة، وذلك باستعمال عبارة «مَثل الجنة» أي أن صفة الجنة هي «كذلك». . أي ما فيها من تلك الأشياء، التي يجري الحديث عنها، والتي تتميز بخصائص، غير أشياء هذه الأرض التي تعرفونها أيها الناس؛ فالجنة فيها أنهارٌ من ماءٍ غير آسنٍ، أي من ماءٍ نقيٍّ طاهرٍ، فيه كل مقومات الصحة والسلامة، وهذا الماء، وبتلك المواصفات فيه تعبير أيضاً عن الفيض والوفرة، والتدفق، والاستمرارية في العطاء بدون انقطاع. . وتعبير عن الطهارة، والنقاء والصفاء في الأبدان وفي الأنفس، بخلاف أنهار الأرض التي قد يخالطها الفساد لكثرة ما تمتلئ به من القاذورات، والمخلفات الصناعية وغيرها من مسبِّباتِ التلوث الذي يحدثه الإنسان. .

ومن الأمثال على أوصاف الجنة أنَّ فيها أنهاراً من لبنٍ لا يتغيّر طعمه، فلا تعتوره حموضة أو فسادٌ أو غيرهما من العوارض التي تصيب لبن الأرض. وكذلك الأنهار من الخمر[1]، التي تنشرح لها

---

(١) إنَّ ما تجدر الإشارة إليه هنا هو أنَّ ذكر الخمر في القرآن الكريم لا يجوز أنْ يُتَّخذ حجةً أو استنتاجاً على إمكانية استباحة شرب الخمر في هذه الحياة، كما يظن البعض أو كما يؤوله =

الصدور فتكون لذة للشاربين، أي على غير ما نعهد في خمر الأرض التي غالباً ما يرافق شربَها القيءُ والخفةُ، وفقدانٌ للوعي. هذا فضلاً عما يتسبب به إدمانها من أمراض جسدية ونفسية. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الأنهار من العسل المصفّى، الخالص من الشوائب التي لا تتغير خواصه، وطعمه ولونه، كما في عسل الأرض الذي قد يخالطه الغش والفساد، مما تصنع أيدي الناس.

وفوق تلك المقومات للحياة من الماء واللبن والخمر والعسل، يُضاف إلى طيبات الجنة كلُّ الثمرات على اختلاف أنواعها وألوانها، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.. وذلك تعبير عن كل نتاج ذي فائدة وخير، فضلاً عن أنها الثمرات المبرَّأة من كل خبث قد يصيب ثمار الأرض.. وكلُّ ما تسوقه النصوص القرآنية ليس إلّا أمثالاً على مقومات الحياة، وما يعين على توفير السلامة الجسدية، والصحة النفسية والعقلية في الحياة الدنيا.. وهذا ما يجعلنا نتفكر في أوصاف الجنة، حيث كل شيء مختلف عن دنيانا هذه، ولكنه يقود إلى اليقين بحياة الخلود والنعيم المقيم. وتلك الجنة «أكلها دائم» أي للتدليل عمّا يؤكل، و«ظلها» دائم، فـ«لا يرون فيها شمساً ولا

= البعض الآخر، في محاولة خبيثة لتحليل محرَّمٍ خبيثٍ.. فالقرآن يذكر الكفر والشرك والنفاق وغيرها من القضايا أو الأمور أو الأشياء المحرّمة، فهل ذكرها يجعلها مباحة؟! طبعاً لا، بل يذكرها لتبيان ماهيتها، وتأثيرها على حياة الناس في الدارين.. وهذا ما يطيح بكل التأويلات الخبيثة التي تهدف للنيل من القرآن المجيد.. وفيما يتعلق بذكر خمر الجنة فإنَّ كلَّ أطايب الجنة وخيراتها لا ندرك كنهها ولا نعرف عنها شيئاً، وإنما كان التمثيل عليها بالأطايب التي يعرفها الإنسان، والتي تغريه نفسياً، لتقريب المعاني المرادة إلى أذهاننا، ولا سيما معنى السعادة الدائمة التي تنتظر الناس في الجنة، وذلك من خلال الصور الحسية التي ألفوها في حياتهم الأرضية، ورغبوا في التمتع بها، إلّا أنَّ الأحكام الشرعية حرَّمت عليهم بعضها، كما هو الحال بالنسبة إلى الخمر. ولذلك كان التوكيد في الكتاب والسنة على تحريم الخمر تحريماً قاطعاً وجازماً.

زمهريراً»[١] ولا يعرفون تقلبات للطقس، ولا اختلافات في المناخ، «وذللت قطوفها تذليلاً»[٢] فلا كدَّ أو تعب، ولا قلق أو شقاء . . . مما يوحي بكل أجواء السعادة، والنضرة، والسرور، وبكل ما يتناسق ويتناسب مع أسباب النعيم والخلود.

أما مدى اتساع تلك الجنة، فيقول ربّنا تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[٣]، ويقول تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[٤] فالعرض في الآيتين يعني: السعة. . أي أنَّ الجنة سعتها سعة السماوات والأرض لو وصلت أجزاؤهما ببعضها، وتلك الجنة قد أُعِدَّت للذين آمنوا بالله تعالى ورسله الكرام، واتقوا الله بالطاعات وترك المعاصي. . وتلك الجنة، مفتاحها هنا على هذه الأرض، فلا تفتح أبوابها لأحد إلّا بالمغفرة التي يحثّ الرحمن عباده للإسراع، بل وللتسابق إليها، قبل أنْ يدهم الموتُ هؤلاء العباد، ولم يكونوا قد تابوا إلى ربّهم، ونالوا مغفرة منه ورحمة!.

أجل تلك الجنة، التي عرَّفها الله تعالى بتلك الملامح والصفات والخصائص، هي التي وُعِد بها المتقون من عباده، الذين اجتنبوا الكفر والشرك والنفاق، وانتهوا عن المعاصي والذنوب والخطايا، فساروا على طريق التقوى، والعمل على نيل رضوان ربّهم تبارك وتعالى لا تغريهم الدنيا وأفانينها، ولا يلهيهم شيء عن ذكر الله عزَّ

(١) سورة الإنسان، الآية: ١٤.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ١٤.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

(٤) سورة الحديد، الآية: ٢١.

وجلَّ، حتى استووا أناساً متطهرين، مؤمنين، صادقين، لا يلتفتون إلى عرض الدنيا، بل يتوجهون إلى الله خالقهم وبارئهم بالإيمان الصادق، والنية الخالصة، والعمل الطيب، فحقَّ أنْ يكون لهم الفوز بالمغفرة والرحمة ـ من الغفور الرحيم ـ وأن تكون عقباهم في الجنة. .

وبالمقابل: هل مَنْ هو خـالدٌ في مثل ذلك النعيم المقيم، مثل مَنْ هو خالد في نار الجحيم؟ وأي نـارٍ هي تلك النارُ التي يذكرها القرآن الكريم، والتي نستشعر منها اللهب وهو يتلظَّى، والحريق وهو يشتعل، والحمم وهي تتطاول لتأكل كلَّ شيء تلقفه أَلْسِنَتُها؟. . هل نتخيَّلُ مشاهِدَ النيران التي تندلع في الغابات مثلاً وما يكون لها من فعل؟ أَم نتصوَّرُ تلك الطاقة المحرقة التي تدفع بالصواريخ إلى الفضاء وما لها من قوة؟ أم نتذكر ثورة البراكين ونحن نرى حممها تسيل فوق سطح الأرض كـالأنهار، فلا تبقي ولا تـذر؟ فكما نـدرك آثـار هذه الأشياء الحسية عن النار في حياتنا الدنيـا، فالأولى أنْ نتصوَّر ما يمكن أنْ تكون عليه نارُ جهنم، وما سوف تكون عليه حال كل كافر جاحد، وكل منافق عنيد، وهو يتلظَّى في أتون تلك النـار، فيطلب الماء فلا يُسقى إلا ماءً حميماً، ما إنْ يصل إلى أمعائه وأحشائه حتى يقطّعها لشدة غليانه. . ولنا أنْ نستقيَ من واقعنا المحسوس مثالاً بسيطاً على ذلك من الماء المغليّ الذي قـد يصيب بعضٌ منه جلودنا، وما يحل بها على الفور من جرائه. . أمـا إذا شربنا مثل هذا المـاء الذي يغلي، فتلك هي الكارثة التي تحلُّ بأجوافنـا، لأنه سـوف يقطع أمعاءنا وأحشاءنا بلا جدال. . فهل لنـا أنْ نتذكَّر ـ ولو مجرد تذكّر ـ النار في الآخرة، وفي وسطها وقعرها أناسٌ، وكيف تكون حالهم، إذاً، وهم وقود لهذه النار؟!. .

ثانياً ـ حياة أهل الجنة وحياة أصحاب النار

. . . وتلك الصور الحسية، وما يماثلها عن النعيم في الجنة، أو عن العذاب في النار، ترد في مواضع عديدة من القرآن الكريم، وقد تجيء معها صور معنوية أو مجردة، أو قد تجيء وحدها منفردة في صور حسيّة وواقعية، وكلها يسوقها القرآن ليعرِّفنا على الفارق بين حال أهل النعيم، وحال أصحاب الجحيم، في حياة باقية، خالدين فيها أبداً . .

والله الذي خلق البشر جميعاً، يعلم المتقين من العاصين ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾(١)، فهو يعلم من خلق، ويعلم ما يؤثر في نفوسهم، وما يُصلح أحوالهم. . ومن أجل ذلك فقد أنزل في كتابه المبين الآيات التي تربيهم تربية سليمة، إن هم ساروا على تقوى الله ومنهاجه القويم . .

ولقد كان خلق الناس على الفطرة التي فطرهم الله تعالى عليها، أي التي تصلح لحياتهم الدنيوية والآخروية، والتي من شأنها أن تهدي الإنسان السبيلَ ليكون إما شاكراً وإما كفوراً؛ فهو في الخيار بين أنْ يقوّي استعدادات الخير في نفسه فيكون من أهل التقوى، أو أنْ يغلِّب عليها استعدادات الشر فيكون من أصحاب المعصية. فأما الذين هُدوا إلى التقوى، فآمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، وآمنوا بالغيب، وأقاموا الصلاة فأولئك على هدى من ربّهم، وأولئك هم المفلحون، وصدق فيهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا﴾(٢).

---

(١) سورة الملك، الآية: ١٤.

(٢) سورة مريم، الآية: ٩٦.

ولذلك كانت الصور الحسية التي يرسمها القرآن الكريم والتي تبين صفة الجنة، تتوافق مع تربيتهم الإسلامية، وتتلاءم مع طباعهم اللينة، التي اكتسبوها بفضل تصديقهم وإيمانهم.

وأما الذين اختاروا الضلال على الهدى، والكفر على الإيمان، والنفاق على الصدق، فأولئك الذين ساروا وراء الشيطان فأغواهم، وأوقعهم في المعاصي والرذائل، فأفسدوا في الأرض، ونشروا الفسوق والعصيان، ولذلك لم تتقبل نفوسهم طاعة الرحمن، ولم يكن لديهم تصور عن الحساب، أو عن الجنة والنار، فحق عليهم وعيد الله، بقوله العزيز: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ* إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ* تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ* قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ* وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ* فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾(1).

ولا تقتصر الحياة في الجنة على المتقين وحدهم، بل على أزواجهم كذلك ومن صلح من ذرياتهم مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ* هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾(2).

فأصحاب الجنة، أولئك الذين دخلوها بما قاموا به من الطاعات والعبادات، حق لهم أنْ يكونوا في شغلٍ هنيءٍ وسعيدٍ، ناعمين في كنف الرحمن الذي وهبهم حياة الخلود في نعيم مقيم، وملكٍ كبير. تصديقاً لوعده تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾، وأولئك الذين،

---

(1) سورة الملك، الآيات: ٦ ـ ١١.

(2) سورة يس، الآيتان: ٥٥ و٥٦.

وهم في الحياة الدنيا، كانوا يخشون ربّهم ويخافون مقامه في غيبه المكنون، فسوف تكون لهم جنتان في الآخرة مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[1].

أما شغل أصحاب الجنة (حيث لا شغل ولا نصب ولا تعب وفقاً لمفهومنا الأرضيّ) فهو التسبيح، والتهليل والتكبير.. لا يفترون عن ترداد الباقيات الصالحات: «سبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إلّه إلّا الله، والله أكبر»، كما وردت على لسان رسول الله ﷺ.. فهم في شغل بالحمد، والثناء على مولاهم الكريم، وربّهم الحليم. وهم في شغل بالتفكير في آلائه، وبآياته العظمى، التي كلما انتهوا إلى مقام معينٍ من علمهم بها، ارتقوا إلى درجة أعلى في الجنة، لقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[2]. فالذي يخاف مقام ربِّهِ، هو من عرف ربَّهُ جلَّ جلاله حق المعرفة، فعبده، وأطاعه، واتّقى غضبه، فبوّأه ربُّهُ الكريم المقامَ الذي يليق به في دار النعيم..

ومن فضل الله أيضاً على المتقين تلك السعادة التي ترافقهم باجتماعهم مع أزواجهم، ومن صلح من ذرياتهم، الذين ينضمون إليهم إكراماً لهم على صلاحهم في الحياة الدنيا، بحيث يعيشون مجتمعين سويّاً، في الظلال الوارفة، وعلى الأرائك الفخمة في مساكن أليفة، وفي متناولهم كل أطايب المأكولات والثمرات، وكل ألوان السعادة التي يستأهلونها، حقاً وصدقاً.

ومما يزيد في حبور المؤمنين المتقين، الزوجات الطاهرات،

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٤٦.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٤٦.

عفيفات الشعور والنظر، اللواتي لا تمتد أبصارهن إلى غير أزواجهن، ولا يرين أحداً أحسن أو أجمل منهم، فهنَّ في جنة الخلد كما وصفهنَّ الله تعالى في قرآنه المبين بقوله الكريم:

﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾(١)، ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾(٢)، كذلك ﴿وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾(٣)، بحيث إنَّ من بين المزايا التي تليق بأهل الجنة ما روى أبو ذر الغفاريّ ﷺ عن رسول الله ﷺ: من أنها تقول لزوجها: **«وعزّةِ ربّي ما أرى في الجنة شيئاً أحسنَ منك، فالحمدُ لله الذي جعلني زوجتَك وجعلك زوجي»**(٤)، لذلك كانت الزوجات في الجنة هنَّ المباركات من الحور العين، ذوات الجمال الخالص، وهنَّ الطاهراتُ المصونات اللواتي لم يطمثهنَّ(٥) إنسٌ ولا جانٌّ قبل أزواجهنَّ، توكيداً على بكارتهنَّ وعفافهن، وزيادةً في إكرام أهل الجنة من الرجال والنساء..

ومن أوصافهنَّ - للتدليل على حُسنِهِنَّ - أنهن كالياقوت والمرجان، كما نتصوره في صفائه، ونقائه وبياضه، وكاللؤلؤ المصون الذي لم يتعرض للمسّ أو للنظر، فلم تثقبه يدٌ، ولم تخدشه عين.. هكذا هنَّ الحور العين بجمالهنَّ، الذي صُبغ بجمال جنة الخلد.

وفي وصف المرأة باللؤلؤ قال الشاعر:

وَهْيَ زهراءُ مثلُ لُؤْلُؤَةِ الغوَّا ... صِ، ميزتْ مِنْ جَوهرٍ مكنونِ

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٥٦.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ٥٨.
(٣) سورة الواقعة، الآيتان: ٢٢ و٢٣.
(٤) سنن ابن ماجه، رقم ١٨٥٣.
(٥) لم يطمثهنَّ: لم يفتضَّهُنَّ.

ومثل هذا الوصف يورده القرآن الكريم للغلمان الذين يطوفون على أهل الجنة، وهم يقدمون لهم الأطايب والاشربة التي يتلذذون بها، يقول الله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾(١)، ويقول تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾(٢).

على أن كلَّ تلك الأوصاف للزوجات، كناية عن معانٍ حسية لنفسيات لطيفة، طيبة زكيةٍ، ينشئهنَّ الله تعالى في الجنة إنشاءً. كما أنَّ في معاني الآيات الكريمة دلالة هامة أتى بها القرآن المبين وهي أن الجنيَّ يغشى كما يغشى البشريّ في الاجتماع ما بين الذكر والأنثى، لأنَّ تلك المواصفات للحور في الجنة جاءت في آياتٍ من «سورة الرحمن» التي تخاطب معشر الجن والإنس وهذا يعني أن الله - سبحانه وتعالى - كما يهب المؤمنين، المتقين من الإنس زوجاتٍ طاهراتٍ، لم يطمثهنَّ أحدٌ من قبلهم، فكذلك يهب المؤمنين من الجنِّ زوجاتٍ عفيفاتٍ، لم يطمثهن جنٌّ من قبلهم.. وهذا ثناء عظيم على المؤمنين، ووعْدٌ بما ينالون من فضل ربِّهم، ونِعمِهِ على عباده الصالحين.

وعن الحالة المعنوية لأهل الجنة، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾(٣).

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾(٤).

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

(١) سورة الطور، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الإنسان، الآية: ١٩.
(٣) سورة المطففين، الآية: ٢٤.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٤٧.

هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

ذلك أنَّ أهلَ الجنة - وهم منعَّمون فيها - إنَّما يرفلون بثوب الصحة والسلام والأمان، ويعرف ذلك من وجوههم التي تطفح بالنضرة، والوسامة والبشر، والتي تعبِّر عما يعتمر في صدورهم من الطهارة والنقاء، وقد نزع الله تعالى منها كل غِلٍّ أو حِقْدٍ أو حسدٍ، فتآخوا في الدار الآخرة على المحبَّة والود الخالصين، كما تآخوا في الدنيا على الإسلام، الدين الروحانيّ السامي الذي ميَّزهم عن غيرهم في الدارين.. ثم إنَّهم على نفس جوهر الإيمان الصادق، الذي يزيدهم في الآخرة اعترافاً وامتناناً بفضل ربهم الكريم عليهم، فلا تكفُّ ألسنتهم عن ذكر الله تعالى، يسبِّحونه ويمجِّدونه، ويحمدونه على ما هداهم إليه في حياتهم الأولى من فهم لدينهم، وما وفقهم إليه من اتِّباعٍ للحق، حتى فازوا بهذا النعيم الخالد المؤبَّد.. فذلك النعيم الذي يرفلون فيه، مردُّه إلى هداية الله تعالى، وفضله عليهم بأنْ جعلهم من المهتدين. ولولا فضل الله وتوفيقه، لَما كانت لهم هذه الهداية، ولما كان لهم ذلك الفوز العظيم. يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2] أي ومثل ذلك الجزاء، نجزي المحسنين، إنْ في الدنيا، بأنْ نهديهم سواء السبيل، وإنْ في الآخرة، بأن ندخلهم الجنة.. وكل ذلك لأنهم من الذين أحسنوا الإيمان والطاعة، كما أحسنوا القول والعمل، فكان ذلك جزاؤهم من ربهم الكريم.. ومثل هذا الجزاء ما تفضل به الله تعالى على نبيه نوح عليه السلام

(١) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.
(٢) سورة القصص، الآية: ١٤.

والذين آمنوا معه بما أنجاهم من الغرق، لقوله الكريم: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1]، أي كما أنجينا نوحاً والذين آمنوا من عذاب الهلاك بالطوفان، كذلك نجزي المحسنين.. وهو نفس الجزاء الذي وهبه تعالى للنبي «آل ياسين» بقوله المبين: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2]، أي كما جزيناه ومن آمن معه، كذلك نجزي المحسنين.. وهو جزاء المتقين، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ * كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3].

فهلَّا أدركنا معاني الآيات في القرآن الكريم، وسرنا بما يُرضي ربَّ العالمين، حتى يهدينا سبحانه إلى الصراط المستقيم، فنكون من المحسنين، ومن المتقين في جنات النعيم؟!..

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٨٠.

(٢) سورة الصافات، الآيتان: ١٣٠ و١٣١.

(٣) سورة المرسلات، الآيات: ٤١ و٤٤.

الفصل الثاني

أصناف الناس في الأمثال القرآنية

الفصل الثاني

أصناف الناس في الأمثال القرآنية

لعلَّ من المزايا التي تفرَّد بها القرآن المجيد، ما نجد فيه من تصنيفٍ للناس بحسب قبولهم للهدى والتقوى، أو إعراضهم عن ذكر الله، وإيثارهم للكفر والشرك على عقيدة التوحيد ومقوماتها الإيمانية. . ولذلك حفلت أمثالُهُ بما يوجِّه المؤمنين ويرشدهم إلى ما فيه خيرهم وفلاحهم. . في جانب. . وبما يبيّن صفات الكافرين، ومواصفات المشركين والمكذبين بآيات الله، ويدلهم على طريق الهدى، والتخلي عن معتقداتهم الضالة والمضلّلة، وبما يعدهم ربهم من قبول التوبة والمغفرة، أو يتوعدهم به من العذاب الأليم، إذا ظلّوا على غيّهم، واستكبارهم، وجرائمهم. .في جانب آخر. . ليُظهر، من ثمَّ، الآثار والنتائج التي تترتب على معتقدات وأعمال هؤلاء وهؤلاء في الدارين. . وعلى هذا فإننا سوف نبحث في هذا الفصل:

- ملامحُ من التوجيه والإرشاد القرآني للمؤمنين.
- عبادةُ الكافرين لآلهةٍ مدعاة.
- أعمالُ الكافرين تذهب يوم الحساب طرائقَ قِدَدا.

ـ الفوارقُ بين المؤمنين والكافرين.

ـ الشرك وظلم المشركين لأنفسهم.

ـ النفاقُ ومواصفاتُ المنافقين وفعالُهم.

ـ إخلادُ المكذّبين بآياتِ الله إلى الأرضِ واتّباعُهُمُ الأهواءَ.

الفقرة الأولى ـ ملامح من التوجيه والإرشاد للمؤمنين

الدين نور يُضيء القلوب، وشعلةٌ تهدي العقول. فمن آمن بدين الله، وهو الحق، اهتدى ونال الفوز في الدنيا والآخرة.. ومن ضلَّ عن هذا الدين فقد كفر بالله، وباء بالخسران، فحق عليه العذاب في الآخرة..

ولا يحسبنَّ أحد أنَّ متاع الحياة الدنيا وزخرفها، وما يمكن أن يحوز الإنسان من الغنى والثروة، أو ما ينال من النفوذ والسلطان، أو يتمتع به من اللذة والمرح.. يمكن أنَّ يُعدَّ غايةً قصوى بذاته، بل إنَّ رضوان الله تعالى هو أسمى الغايات، وأجلُّها على الاطلاق. فكل الأعمال، والتصورات، والقيم والمثل تكون باطلة وعقيمة إنْ لم تؤدِّ إلى رضى الله وطاعته.. وكل القلوب، والضمائر، والعقول والنوايا تكون ضالّة وحائرة إنْ لم تتوجَّه إلى الله تعالى، وتهتدي بهداه.. ولا يظنَّنَّ أحد أنَّ شقاء الحياة وهمومها، والتصدّع الذي يعصف بالكيان البشري من القهر، والقلق، والعذاب، والمرض، والجوع! . يمكن أن يحيد بالإنسان المؤمن عن الطريق المستقيم الذي يسلك، وعن الحق الذي يتّبع، فكل ما يصيبه من الابتلاء يزيده إيماناً، ورجاءً واحتساباً، لأنَّ إيمانه مبنيٌّ على التسليم والانقياد لخالقه، وعلى اليقين

بأنَّ الله يفعل ما يشاء، ويحكم بما يريد ـ بالحكمة والعدل ـ وهذا هو معنى الإسلام.. وهذا الإِيمانُ والاستسلام لمشيئة الله له آثار نفسية هامة من شأنها أنْ تخفّف عن المؤمن تأثير المعاناة التي قد يواجهها، وتُصبِّره على الابتلاء الذي قد يقع فيه!.

وإلى جانب هذا الرضى والتسليم بقضاء الله وقدره، فإنَّ ميزة المؤمن على غيره، استدامته على الحمد والشكر لربه تبارك وتعالى، بل وفضل المؤمن على غيره أنه لا يحمد ربه على ما آتاه وحده، بل وعلى ما يغدق على جميع خلقه وعباده من واسع الفضل وجزيل النعمة التي لا يمكن للناس عدُّها أو إحصاؤها، وبالتالي عدم إمكانية تصوّر مقدارها، تصديقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾[1]. ولا شيء يمكن أنْ يمنح الإنسان مثل هذا الإيمان أكثر من العقيدة الدينية، وعقيدة التوحيد على وجه الخصوص، فهي وحدها التي تجعل جوانب الحياة كلها مضيئة بالنور والهداية، وهي وحدها التي تملأ النفوس زكاةً، والقلوب اطمئناناً، وهي وحدها التي تنير العقول وتحثها على استيقان الحقائق، وهي وحدها التي تزوِّد المؤمنين بالطاقة على العمل، والصبر على الاحتمال، حتى ينشروا الخير والصلاح بين الناس.

ومن النظر إلى واقع الحياة البشرية، يبدو لنا جلياً أن نفوس الناس ليست على مستوى واحد من الهداية والإيمان، ومن الضلال والكفر. بل إنها تتباين تبعاً لما تعتنق من العقائد الدينية، وتتقبل من الأفكار والمفاهيم، التي تتآلف وهذه العقيدة أو تلك، وما لذلك كله

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

من تأثيرٍ على مدارك وميول وأهداف الناس، وعلى ما يتعلق بمسار حياتهم، ونمط العيش في البيئة المجتمعية التي يتواجدون فيها. وهذا ما يجعل النفوس على أنواع مختلفة، حيث نجد النفوس الزكية المؤمنة، المُسْلِمَة لله الواحد الأحد، وبمقابلها النفوس العاصية الكافرة، والنفوس الفاسقة الفاجرة، أو النفوس المادية الماجنة.. وبين هؤلاء وهؤلاء هناك النفوس المنافقة المذبذبة التي تتخبَّط بين إيمان ظاهرٍ، وكفرٍ باطنٍ، فلا تستقرَّ على منهجٍ لأيٍّ منهما!..

على أن النفوس البشرية، ومن حيث إن الله تعالى قد ألهمها فجورها وتقواها، فإنها لا تخرج في تصورنا، ووفقاً لاسترشادنا بالقرآن المبين، عن كونها:

- إمَّا نفوساً على صلة بالله تعالى وهي النفوس المؤمنة، المهتدية والتقيّة حقاً..

- وإمَّا نفوساً قطعت كل صلة بالله تعالى وهي النفوس الكافرة، أو المشركة، والضالّة فعلاً.

ويبقى حكم الله العزيز الحكيم، فهو الذي يهب النفوس الهداية أو الضلال، فيضل من يشاء، ويهدي من يشاء، لأنه أعلم بعباده، ومن يبتغي منهم الضلال، أو يكون أهلاً للهداية..

ولقد ثبت على مدى التاريخ البشري، أنَّ مسيرة الأنبياء والمرسلين لهداية الناس وصلاح حياتهم، كانت مسيرةً مباركة عبر العصور، بحيث توالت تلك البعثات لا يخلو منها زمان، حتى كان بعث خاتم النبيين محمد بن عبد الله رحمةً مهداةً للناس، وكان الكتاب الذي أنزل عليه هو هذا القرآن الذي يحمل الشفاء للنفوس مما علق فيها

من الوثنية، أو ران عليها من الشرك، أو ما قد داهمها من الأمراض التي تزيدها فجوراً أو نفاقاً. . فهذا الكتاب المجيد، وبحركته العلاجية التي تلامس شغاف النفوس الصافية، إنما يزيد المؤمنين إيماناً وتقوىً، ويجعل نفوسهم مطمئنة إلى مصيرها في الدنيا والآخرة، وهذا في الوقت الذي يقدِّم العلاج لمن تاهوا عن الإيمان، كي يردهم إلى رحاب التوبة والمغفرة، ويحيي قلوبهم بنور الله التوّاب الرحيم. . ولكنَّ الشرط في الحالتين معرفة القرآن، والقبول ـ عن قناعة ـ بكل ما أودع فيه ربُّ العالمين من آياتٍ تهدي للتي هي أقوم!. . وهذا ما يستدعي لفت نظر الناس إليه، ولا سيما الذين يعرضون عن القرآن بالهجران أو الاستهتار، أو الذين يؤثرون استنكاره بالتعصّب أو الاستكبار، وكان إعراضهم عن كتاب الله عمداً، أو تعصُّباً أو تقصيراً!. . . فهؤلاء جميعاً يحملون أوزاراً كبيرةً، وسوف يلاقونها يوم الدِّين، لأن مصيرهم ـ وجميعِ العباد ـ إلى الله ربهم، وهو العزيز الحكيم، الذي يحاسبهم على كل حياتهم الدنيا سواء ما تعلق منها بالعقيدة، أو ما اتصل بها من الأعمال، والأقوال والنوايا، فضلاً عن كل ما يمت إلى الآخرة بصلة. . فكل ذلك يترتب عليه آثار ونتائج يلاقيها الإنسان في الآخرة، والعاقبة يومئذٍ للمتقين. . مما يعني أنَّ الناس بالخيار أمام أمرين لا ثالث لهما: إما أنْ يسترشدوا بالقرآن الكريم، لأنه كتاب الرسالة السماوية الخاتمة إلى العالمين، وقد أمرهم الله تعالى أن يسيروا على نوره؛ وإمّا أنْ يمضوا بغير هدى من الله ونور مبين، والحكم في الآخرة للواحد الديّان، الذي يحاسب كل نفس على ما كانت عليه في الحياة الدنيا، بحيث يكون لها ما كسبت من الحسنات، وعليها ما اكتسبت من السيئات، وكان الله عليماً حكيماً.

وقد يسأل البعض: إذا كان القرآن ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1]، فلماذا نجد بعضاً من آياته قد نسخت؟

والجواب: أولاً أنَّ هذا الأمر شأنٌ إلَهيٌ فلا يجوز للإنسان أن يناقش فيه، فإذا قضى الله تعالى أنْ ينسخ بعض آيات من كتابه القرآن، أو ينسها، ليأتي بخير منها أو مثلها، فذلك من أجل مصلحة العباد، لأنه يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العُسر.. ثم ليعلم الإنسانُ أن هذا الكتاب هو قول الله، وهو وحده - جلّت مشيئته - من يملك أنْ يتصرف بآياته، بينما لا أحد في العالمين يقدر أنْ يبدِّل فيه ولو حرفاً واحداً، وما يشاعُ أحياناً - عن قصد أو غير قصد - من وجود أكثرُ من قرآنٍ واحدٍ، وفيها اختلاف، فتلك ترهات، وأقاويل مضلِّلة، وهي محضُ دسٍّ وافتراء لإشاعة الفرقة بين المسلمين، فلا يجدر بمؤمنٍ أنْ يأخذ بها، ولو من باب الظنّ. فالقرآن هو، هو، قرآنٌ واحدٌ كما أنزله ربُّ العالمين، وكما أبلغه الرسول الأمين ﷺ، وكما جمعه الصحابة الأخيار في عهد الخلافة الراشدة.. وكلنا، نحن المسلمين، نقرأ هذا القرآنَ، ونهتدي بهديه، فليذهب الذين يريدون الإدخال عليه، أو التزوير في بعض نصوصه إلى الجحيم، لأنَّ الله تعالى الذي أنزله - بأحرفه، وكلماته، وآياته ورسمه - قد حفظه، وسيظل محفوظاً إلى يوم الدين. ولذلك كان النسخ في القرآن من الشواهد على قدرة الله تعالى، مصداقاً لقوله المبين: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]. وهذا يعني أنَّ الله تعالى هو وليُّ الأمر والتدبير، ومنه أمر التبديل، والتغيير، ليس في قرآنه

---

(1) سورة البقرة، الآية: ٢.

(2) سورة البقرة، الآية: ١٠٦.

وحسب، بل وفي كل شيءٍ في الوجود؛ ولذلك أنزل الآية المباركة لتبيّن لنا أنَّ ما ينسخ الله تعالى أو ينسي من آيةٍ، أو من حكم، إنما ليأتينا بخيرٍ منها أو مثلها، ولكن بصيغةٍ أخرى، ونصٍّ آخر، زيادةً في النفع والتسهيل لنا. فالأحكام أنزلت في القرآن لصالح العباد، وقد يكون بعضها ممّا لا يطيقونه، فعندما يُنسخ، أو يُجعل منسياً، حكمٌ من تلك الأحكام التي قد ترهقهم، فإنَّ اللطيف الخبير يعوّضهم عنه بخير منه، أي مما يطيقونه، ويقدرون على احتماله، وهذا منتهى التيسير الذي يريده المولى الكريم لعبادة، ليس لأنه خيرٌ لهم وحسب، بل ولأنه أيضاً تربيةٌ للمؤمنين على الطاعة والخضوع لحكم ربهم بقبول الحكم الأكثر عسراً، والتمسك من ثم بالحكم الأكثر يسراً واتباعه والعمل به.. وهذه من أهم جوانب التربية للنفس حيث ترى في النسخ رحمة إضافية، ولطفاً زائداً من ألطاف ربّـها الكريم لكي يحثّ الأنفس المؤمنة على تقبّل الأحكام جميعاً، سواء التي ترغّبها بالمحلَّلِ، أو تنهاها عن المحرَّم.

على أنَّ النسخ، أو التغيير الجزئيّ في الأحكام، إنما كان يقع مع تنزيل آيات القرآن لطفاً بالعباد، ولمقاصد تربوية ـ كما قلنا ـ فإذا ما أمر الله سبحانه وتعالى بنسخ[١] آية، أو إلقائها في عالم النسيان أتى بخير منها، أو مثلها أياً كان الحكم أو الشأن الذي تنزَّلت به الآية المنسوخة أو المنسيّة. والقرآن الكريم قليلٌ من آياته قد نسخ، وقد دلَّ عليها القرآن نفسه، ثم بيّن الآيات المنسوخة ليكون هذا الكتاب بعد انقطاع الوحي، قد اكتمل بصيغته النهائية والثابتة التي لا تقبل أي

(١) النسخ لغة يعني إبطال شيء أو إلغاؤه وإقامة آخر مكانه. يقال: نسخت الشمس الظل أي أذهبته وأحلّت محلّه الضياء والنور.

تعديل أو تبديل، ولا أي نسخ أو نسيان، باعتبار أنه لا وحيَ بعدها ولا تنزيل، لأن «محمداً» هو خاتم النبيين، فلا نبيَّ بعده كما يثبته قول الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[١]. وهو أيضاً ما يشير إليه النبيّ ﷺ، أثناء سفره في غزوة العسرة، في قوله لابن عمه عليّ بن أبي طالب: «ألاَ تريدُ أنْ تكونَ مني بمنزلةِ هارونَ مِنْ موسَى إلَّا أنه لا نبيَّ بعدي»[٢].

وثبات الصيغة النهائية للقرآن الكريم يدلُّ يقيناً على أنه خيرُ ما يصلح للناس في شؤون دينهم ودنياهم. وكان من أمر ربنا العزيز أنْ يحفظ هذا الكتاب من عبث العابثين، ليبقى المعين الذي يمدُّ الحياة على الأرض بالرحمة الربانية والإنعام على العباد، وقد بيّن لنا حفظ القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[٣]، فلا يقدر أحدٌ أن يمسَّ آية من آياته بأي تحريف أو تبديل، أو أن يشوّه جمال أية لفظةٍ من ألفاظه بأي تزوير أو تعديل.

ويبقى أنْ نؤكد على أنَّ ذلك النسخ الذي حصل على بعض من آيات القرآن، إنّما هو برهانٌ يريد أنْ يقدِّمه القرآن ليوقر في أذهان الناس «أنَّ الله على كل شيء قدير». . فهو الذي ينزِّل الآيات، وهو القادر على نسخها أو إثباتها، تماماً كما هو القادر على أنْ يفعل ما يشاء، وكيفما يشاء، ومتى يشاء، وأنّى يشاء، لأن أمره إذا أراد شيئاً أنْ يقول له: كن، فيكون. والإيمان بهذه الحقيقة من المسلمات في عقيدة التوحيد. . فهلاَّ آمن الإنسان، وأيقن بالحق المبين: «أنَّ الله

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤٠.
(٢) سنن ابن ماجه، ص١٢١.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٩.

على كل شيء قدير»، وأن القرآنَ منزَّلٌ من رب العالمين؟!.. وهذا الإيمان هو السبيل كي نستشفَّ ما في هذا القرآن من مزايا للمؤمنين، وما وُضِعَ على عاتقهم من تكاليف، وما انتدبوا إليه من المهمات والأعباء.. وجمعيها قد جعلتهم يوصفون بـ«المؤمنين»..

ويمكن أن نستدل على بعض من تلك الخصائص والسمات للمؤمنين من خلال الآيات المباركة التي وردت فيها الأمثال المجيدة، ومنها الأمثال التالية:

١ ـ خوف مؤمن آل فرعون أنْ يحلَّ بقومه مثلُ الذي حلَّ بالأقوام السابقين.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ * يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ * وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾[1].

في هذه الآيات الكريمة قصة رجل مؤمن من آل فرعون (قيل هو ابن عمه أو وزيره) كان يكتم إيمانه بالله عن الناس، فلما أبى فرعونُ دعوةَ النبيّ موسى ـ عليه السلام ـ للإيمان، وراح ذلك الطاغيةُ يتشاور مع بطانته، ويعدّون العدة لقتل هذا النبيِّ الكريم، لم يقف الرجل المؤمن من آل فرعون متفرجاً، ولا ساكتاً لأنَّ من صفات

---

(١) سورة غافر، الآيات: ٢٨ ـ ٣١.

المؤمن في أي زمانٍ أو مكانٍ وُجد، ألَّا يخاف في الله لومةَ لائم، وألَّا يتورع عن قول الحق، ولو كان فيه حتفه، ولذلك نجده، بصدق إيمانه، قد تصدَّى لفرعون وملئه بالنصح، كي يكفّوا عن التآمر على قتل موسى عليه السلام فقال لهم:

كيف تقتلون رجلاً «أنْ يقول ربيَّ الله»، وقد جاءكم بالمعجزات الظاهرات على صدق إيمانه. فإنْ يَكُ كاذباً فيما يقول، فإنَّ كذبه سوف يكشف في نهاية الأمر، وسوف يتحمل وزر كذبه وحدَه، لأنَّ الله تعالى لعن من هو مسرف كذاب، فلا يلاقي في نهاية المطاف إلّا عاقبة كذبه. . وإنْ يَكُ صادقاً، فإنَّ في تلبيتكم لدعوته خيراً لكم، إذ هو يعدكم العفو والمغفرة من الله، ونيل الأجر والثواب، فاتبعوه حتى لا يحل بكم العذابُ الذي يعدكم به، لأنَّ الله لا يهدي من هو كافرٌ، مسرفٌ في شركه وفي كذبه على الله ربّه! . .

ثم يتابع الرجل المؤمن نصحَهُ لقومه قائلاً: يا قوم أنتم اليوم تملكون، وتحكمون أرض مصر، وأنتم غالبون في الملك والحكم في الأرض، فمن ينصرنا ومن ينجينا من عذاب الله، وشدّة بأسه، إنْ جاءنا هذا العذابُ لاستكباركم عن دعوة الإيمان بالله تعالى، أو قتلكم النبيَّ موسى وأنصاره؟ فإنه لا ناصِرَ لكم يومئذٍ من عذاب الله، فاسمعوا قولي وأطيعوني! . .

فهذا المؤمن يذكرهم، وينصح لهم خوفاً عليهم، ورأفة بهم. . ولكنّ فرعون تأخذه العزة بالإثم، فيقول للملأ من حوله: لا تنصتوا لهذا الرجل، ولا تصدقوه، ما أريكم إلّا ما أرى، وهو «الصواب»، وما أهديكم إلّا سبيل «الرشاد»، وهو مجدكم، وعزكم في حياتكم!.

ولم يسكت مؤمن آل فرعون، بل يرد على الطاغية ومَلَئه، ليزيد في تخويفهم وتحذيرهم، وهمُّهُ أنْ يوفر لهم السلامة والنجاة، لشدة ما يخاف أنْ يصيبهم مثلُ ما أصاب الأقوام السابقة التي تحزَّبت ضد أنبيائها، فرمتهم بالكذب والاستهزاء، أو أقدمت على قتلهم بدون حق، فحلَّ بهم الهلاك، والدمار والاندثار.. وأعطاهم المثلَ عما أصابَ أقوام نوحٍ وعادٍ وثمودَ، وغيرهم الذين جاؤوا من بعدهم، إذ حاق بهم غضب الله، من جراء إصرارهم على الكفر والشرك، لأنه لا ظلم أشد على النفس البشرية من كفرها، أو شركها بـالله تعالى. ولو عقلت تلك الأقوام الحقائق التي جاءتها على لسان النبيّين والمرسلين، لأدركت، قبل فوات الأوان، أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يريد ظلماً للعباد، بل إنه ـ سبحانه ـ منزَّه عن الظلم، ولكنَّ وعدَهُ بإنزال الهلاك بالأقوام الكافرين هو الحق، فكان العذابُ الذي حلَّ بهم من جنس الفعل الذي ارتكبوه.

ولم يكن نصح ذاك المؤمن من آل فرعون وحده الذي حفظته أمثالُ القرآن، بل ونصح النبي شعيب ﷺ لبني قومه.. فقد أبان لهم أنَّه لا يريد من دعوته لهم إلَّا الإصلاح، فإنْ أصرّوا على عنادهم ومخالفتهم له، فإنَّ عاقبة ذلك هلاكهم، مثل الهلاك الذي أصاب أقواماً غيرهم، وهذا ما يهدي إليه قول الله تعالى، على لسان شعيب عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾[1] وذلك الهلاك الذي أصاب أولئك الأقوام يخبر القرآن الكريم، وفي آيات عديدة، أنَّ من

(١) سورة هود، الآية: ٨٩.

آثاره ما يبقى شاهداً في الأرض ليعتبر الناس به، وذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾(١)، أي وللكافرين أمثال عاقبة من كانوا قبلهم. . ويخلد موقف النبي شعيب عليه السلام، وموقف مؤمن آل فرعون، على التاريخ مثالاً على صدق الإيمان، وشاهداً على أحقية النصح والتوعية للناس. وهذا ما يسري على جميع المصلحين عندما يقفون في وجه الظلم والاستبداد، ومناصرة قضايا الحق والعدل، وغيرها من القضايا المحورية مثل قضية الإيمان أو الكفر، كما هي الحال اليوم حيث الناس بأشد الحاجة إلى وجود المؤمنين الصادقين ـ كأتباع الرسل، ومثالهم مؤمن آل فرعون ـ الذين هم وحدهم مؤهلون لأنْ يحملوا لواء التغيير والإصلاح، وأنْ يشهروا سلاح التوعية، ومحاربة كل ما يحيط بالحياة من المظالم والمفاسد، أو ما تحفل به الدنيا من الشرور والمعاصي، حتى يتوقف هذا التدهور الذي ينحدر الناس إليه في علاقاتهم مع بعضهم البعض، بعدما باتت أحوالهم أشدّ سوءاً وفساداً، عما كانت عليه الحال أيام الطاغية فرعون، الذي كان يصرُّ على قتل موسى عليه السلام، لا لشيء إلّا «أن يقول ربّي الله».

ويقيناً أنه إذا بقي الناس على هذه الأوضاع التي نشهدها مما تمتلئ به الأرض من الجور والظلم والإلحاد، ومما يشيع في النفوس من الجفاء للإيمان، والابتعاد عن الحق، والانقياد وراء الباطل، فإن الهلاك الجماعيّ آتٍ لا محالة، والعذاب الساحق حالٌّ بلا ريب، وقد يكون أقرب بكثير مما يتوهم الناس أو يظنون.

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٠.

وهذه دعوة للتحذير، فليتدارك الناس ما هم فيه، وما هم عليه، قبل أنْ يفوت الأوان.. ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

٢ ـ نهي المؤمنين عن أنْ يكونوا كالذين يسمعون قول الله ولا ينتفعون به.

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۝ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾(١).

البارز في هذه النصوص القرآنية مخاطبة العليّ العظيم للمؤمنين مباشرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.. والميزة في الخطاب أنه تقديرٌ من ربّ العالمين للذين آمنوا، وتفضيل لهم على سواهم، من هؤلاء الذين لا ينعمون بشرف هذه المخاطبة، ولا يستأهلونها لأنهم ليسوا بمؤمنين...

أما فحوى الخطاب فإنه أمرٌ بالطاعة لله تعالى: طاعة صدق، وتقوى واهتداء.. والطاعة لرسوله محمد ﷺ: طاعة تصديق، واتباع، وإخلاص، ومن ثَمَّ عدم التولي عنه، أو تركه، وعدم مخالفته في أمر، أو رأي، أو قول، أو سنّةٍ صدرت عنه..

وفي هذا الأمر من الله تعالى، بألّا يتولوا، أو يعرضوا عن رسوله، فرضٌ دائمٌ على المؤمنين جميعاً، أينما وجدوا في كل زمان ومكان. فالرسول ﷺ قد بلَّغ القرآن المجيد، وخلَّف سنته الشريفة،

---

(١) سورة الأنفال، الآيات: ٢٠ ـ ٢٣.

وكلاهما ـ القرآن والسنة ـ متلازم مع الآخر. فكان الفرض على المؤمنين بعدم الإِعراض عنهما أو تركهما، بل التمسك بهما، فهما العروة الوثقى التي لا انفصام لها.

ويرافق هذا الأمرَ بالطاعة، والنهيَ عن الإعراض، التحذيرُ.. أي تحذيرُ المؤمنين بألَّا يكونوا كالمشركين، والمنافقين الذين يقولون: سمعنا من «محمد» ما يتلو من الآيات، وما يعظ به الناس!.. وهم ـ في الحقيقة ـ «لا يسمعون»، لأنَّ سماعهم يكون سطحياً وظاهرياً، وليس سماعَ تدبّرٍ وانتفاعٍ، أي من النوع الذي يتاح له مجال للنفاذ إلى القلوب، وملامسة النفوس في الأعماق.

أجل، يحذر ربُّ العالمين المؤمنين بألَّا يكونوا مثل أولئك الناس.. مثل أولئك الذين يقولون سمعنا، بينما هم، في حقيقة الأمر، أبعد ما يكونون عن السماع الذي فيه التدبّر، والاتّعاظ، والعلم بالدعوة، مما يجعل سماعهم خلواً من أي فهم أو اقتناع، حتى صار مثلهم كالدواب الصمّاء التي تسمع أصواتاً مبهمة، ولكن لا تدرك معانيها، والبكماء التي تطلق الأصوات، ولكنها لا تمتلك لغة النطق والبيان، لأنها بطبيعتها عاجزة عن هذا النطق والبيان، وغير مؤهلة له في خلقها، فكانت من شرِّ الدواب عند الله، أي أدناها مرتبة بين الدوابّ التي خلقها سبحانه وتعالى.

فإذا كانت تلك البهائم والحيوانات عجماء لا تسمع، ولا تعقل، ولا تنطق، ومن أجل ذلك كانت شرَّ الدواب ـ بالقياس للإنسان ـ كما وصفها الخلَّاقُ العليم، فما بال الإنسان الذي يدبُّ ويسعى في الحياة، وهو يتمتع بنعمة العقل والإدراك، وبنعمة النطق والإفهام، مثلما يتمتع بنعمة السمع والبصر. أجل، ما باله في امتناعه عن استعمال تلك

المدارك والملكات، في سبل الخير، والحق والصواب حتى يحقق إنسانيته؟ إنه في عدم سماعه للحق، وفي عدم اتباعه الحق، وقول الحق، يتدنّى إلى مرتبة تلك الدواب ليصير مثلها، وكأنه قد فقد الملكات والخصائص المميزة له ـ والتي جعلته في الأصل إنساناً ـ فلم يعد يختلف عن شرّ الدواب عند الله بشيء، إلّا بصورته البشرية الظاهرة..

ومثل هؤلاء الناس، الذين خلت نفوسهم من أية استجابة للحق، من المحتوم ألّا يرجى منهم خير، ولو علم الله فيهم ذرةً من خيرٍ، أو استعداداً لقبول رشد، لكان هداهم إلى السماع المفيد، الذي يحمل التمييز والانتفاع!.. ولو أسمعهم الله تعالى سماع اليقظة والتدبّر، والاتعاظ، ثم خلّاهم إلى سبيلهم، كي يأتي الاختيار منهم، فإنهم سوف يُعرضون عن ذلك، لا لشيء إلّا عناداً وجحوداً من عند أنفسهم.! ومن أجل ذلك نجدهم يصرّون على الاستكبار، والإعراض عن دعوات الأنبياء والصالحين، فيخرجون بإرادتهم عن طاعة ربّهم، مؤثرين غواية الشيطان، والركض وراء متع الحياة وغرورها، بدلاً من نعيم الآخرة وخلودها، فكانوا لا خير فيهم، وكانوا من الأخسرين مآلاً.

٣ ـ عدم موالاة قومٍ غضب الله عليهم يئسوا من ثواب الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور.

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾[1].

---

(١) سورة الممتحنة، الآية: ١٣.

إنها دائماً الحال نفسها مع المشركين والكفار، الذين ابتعدوا عن الإيمان بحقيقة وجود الله تعالى، وخرجوا عن عبادته بطواعية واختيار، فباؤوا بالغضب القاتل.. ولذلك ينزل التحذير للمؤمنين مرة جديدة، بألّا يتولوا قوماً غَضب الله عليهم.. وعدم موالاتهم تكون بألّا يتخذوهم أعواناً، ولا أصدقاء ولا حلفاء بشيء أبداً.. والسبب في ذلك أنه لا يمكن أنْ تأتلف النفوس المؤمنة، مع نفوس المغضوب عليهم من ربّهم، والضالين عن هدايته.

وهذا منتهى الرحمة بالعباد المؤمنين، فالأمر إليهم بألّا يتخذوا أعداء الله، وأعداء الإنسانية، وأعداءَ أهل الإيمان أولياءَ لهم، فهذا الأمر يقوم في جوهره على رعاية المؤمنين والحرص عليهم، لأن مثل تلك الموالاة تُفسدُ عليهم دينهم، وتقودهم إلى طريق الشر والباطل، فيقعون في التهلكة التي وقع فيها أصلاً أولئك الأولياء الأدعياء.. ذلكَ أنَّ قوماً غضب الله عليهم يكون مصيرهم ميؤوساً منه، وعاقبتهم سوءاً وبلاءً، فهم قد يئسوا من النجاة في الآخرة ـ مع يقينهم بها ـ كما يئس الكفار من أصحاب القبور، فلا ينبئونهم بشيء عن الآخرة، وما إذا كان فيها جنة ونارٌ.. أو كما يئس الكفار الأموات، بعدما صاروا في قبورهم، وعرفوا أن الحساب آتٍ ولا ريب، من أن يكون لهم أدنى حظ في الجنة. أو ـ ربما يكون المعنى ـ أن الكفار قد يئسوا، وهم في قبورهم، من العودة إلى الحياة الدنيا مرة أخرى، حتى يسيروا على طريق الهدى، ولكن أنّى لهم العودة إلى الدنيا بعد الموت، وسنة الله في خلقه، ألّا يعقبَ الموتَ إلّا النشور والحساب، ثم الخلود في الجنة أو في النار.

فما أروع هذا المثل القرآنيّ الذي يدلنا على مصير الذين غضب

الله تعالى عليهم، ويبيّن لنا ما قد يحيق بهم من العذاب، بعد أن سدّوا بأيديهم، على أنفسهم، جميع سبل الأمل والخلاص.

٤ ـ دعوة المؤمنين ليكونوا أنصاراً لله، كما كان الحواريون أنصارَ الله

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾(١).

وهذا النداء هو أيضاً نداءٌ مباشرٌ للمؤمنين من ربّهم بأنْ يكونوا أنصاراً لدينه القويم.. علماً بأنَّه ـ سبحانه ـ هو القادر المقتدر، وهو القوي المتين، فلا يحتاج إلى معونة أو مساعدة من عباده، لينصروه على أي أمر، لأنه الوليُّ والمتصرّف الذي يعود إليه كلُّ أمر، وكل شأن.. بل وفي قبضته السماوات والأرض، يأمر بما يريد، ويفعل ما يشاء.. ولكنَّه النداء للمؤمنين بأن يكونوا أنصارَ الله باعتناق عقيدة التوحيد، وما تلزمهم به هذه العقيدة من أمانة في أعناقهم، وهي نصرةُ الأنبياءِ والمرسلين، والدعاةِ من بعدهم لحمل دينه القيّم، مشاعلَ هداية في آفاق الأرض، ومناهجَ عمل في مجالات الحياة، حتى يعمَّ الخير والصلاح بين البشر.

وفضلاً عن ذلك فإنَّ هذا النص الكريم يوحي بأنَّ الإيمانَ أمر جوهريّ في الحياة، ولكنه وحده لا يكفي إنْ لم يقترن بالعمل الصالح، وبالجهاد في سبيل دين الله، وبخاصة عندما يدعو الواجب المقدس إلى مثل هذا الجهاد لمحاربة الشر والفساد، والقضاء على الظلم، والفسوق والعصيان.

---

(١) سورة الصف، الآية: ١٤.

وهذا الأمرُ الربانيُّ للمسلمين الذين اتبعوا النبيّ ﷺ كي يكونوا أنصاراً لله، فيعملوا على نشر دينه الإسلام، إنما يحمل في طياته نفس الدعوة التي أطلقها السيد المسيح، عيسى ابن مريم عليه السلام إلى الحواريين[1]، عندما قال لهم: «من أنصاري إلى الله»؟

«قال الحواريون: نحن أنصار الله»!. فقد آمنّا بك عبداً لله، ورسولاً لبني إسرائيل. وقد آتاك الله الكتاب والحكمة، وجعلك نبياً، وجعلك مباركاً أينما كنت، وأوصاك بالصلاة والزكاة ما دمت حياً.. فهذا ما قلت لنا، وقد صدَّقناه، وآمنا به. وها نحن نجنّد أنفسنا بين يديك لننصرَ دين الله الذي تحمله نوراً وهدىً، ونذبّ عنه، ونحميه من عبث العابثين، وسفاهة المستكبرين والمنكرين..

فأولئك الحواريون هم أصفياء عيسى ابن مريم عليه السلام، الذين لبُّوا دعوتَهُ إلى الإيمان بالله الواحد الأحد، وإلى نصرة دينه، فكانوا حقاً، أنصاره إلى الله سبحانه وتعالى.

ومن المعلوم أنَّ بني إسرائيل قد اختلفوا في بعث النبيّ عيسى عليه السلام، فآمنت طائفة منهم ـ وهم الحواريون ـ بأنَّ المسيح عيسى ابن مريم هو عبدُ اللَّهِ ورسولُهُ، وكفرت طائفة أخرى بصدق رسالته. ووقع القتال بين الطائفتين: المؤمنة والكافرة، فأيَّد الله تعالى المؤمنين بالنصر، بما منحهم من قوة وبأس، فأصبحوا على أعدائهم ظاهرين..

ويتكرر نفس المشهد عند بعثة محمد ﷺ، إذ آمنت به فئةٌ قليلة

---

(١) الحواريون ـ من الحور ـ هم الذين امتازوا بالبياض الخالص في لباسهم، وحسن طريقة عيشهم؛ وقيل سُمّوا كذلك لأنهم كانوا يحوّرون الثياب، أي يبيضونها.

من اليهود، فدخلوا في الإسلام طائعين مختارين، بينما أنكر أكثر اليهود نبوته، فكفروا برسالته، ولم يصدقوه بدعوته إلى الحق. . وكان من تبعة هذا الكفر الذي أظهره اليهود جهراً وعلانية، أنْ نقضوا عهد رسول الله، وآزروا المشركين في عداوتهم له. ثم كان إقدامهم على مقاتلة المسلمين. ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ أيَّد المؤمنين بنصره، فكانت لهم الغلبة على اليهود والمشركين في مختلف النزاعات، ومشاهد القتال التي وقعت في تلك الحقبة من حياة الدعوة الإسلامية.

وها هي الحالة اليوم، وبعد انقضاء ما يزيد على ألف وأربعمائة وثمانٍ وعشرين سنة، كمثلها بالأمس، تنعكس بهذه العداوة من اليهود للمسلمين. إذْ يبدو أنَّ الحقد قد ظل يملأ قلوبهم على الإسلام وأهله منذ بزوغ فجر هذا الدين القويم، فجهدوا حتى أقاموا دولةً لهم في قلب العالم الإسلاميّ هي «دولة إسرائيل». . . ثم بدأت منذ قيام تلك الدولة ـ وبتأييد من الغرب النصراني ـ حروبهم الظاهرة والخفية لقتل المسلمين واستلاب ثرواتهم. بل وما زالوا يعملون، ويستجدون العالم ليمدهم بالمال والسلاح، والدعم في المحافل والمنابر الدولية، وتقديم كل ما يوفّر لهم القوة والتسلط، وهمهم إخضاع المسلمين وإذلالهم، بل واجتثاث مقومات وجودهم من الجذور حتى لا تقوم لهم قائمة!!. . وقد أمكنهم تحقيق الغلبة عليهم في أكثر القضايا وأغلب الظروف، وكل ذلك بفعل مخططاتهم الجهنمية في محاربة الإسلام حتى يبعدوا الناس عنه!. . أما ما أصابَ المسلمين من الضعف والهوان فيكمن في عدم تطبيق الإسلام روحاً وشكلاً، وارتمائهم في أحضان أعدائهم، يلتمسون منهم العون وطلب المساعدة. وهذا ما أبعدهم عن أن يظلوا أنصاراً لله. لا بل إنَّ التخلّي

عن فكرة الجهاد، بمختلف أشكاله المعنوية والمادية، هو الذي جعلهم تابعين لمن يريدون شراً بهم وبدينهم، ويخضعون لأوامرهم، وينصاعون للمواقف التي يتخذونها ضدهم بكل صلافةٍ وكبرياء!. فأين هم المؤمنون، بين المسلمين، الذين يدعوهم ربُهم العليّ القدير ليكونوا أنصاراً له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ فينهضوا مجدداً من حالة السبات إلى حالة الوعي واليقظة التي ينصرون فيها دينهم القويم؟ وأين هم أولئك المؤمنون الذين يحضّهم القرآن، كتاب الله الخالد، على إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة؟ لا، لن تيأس أمة الإسلام، أمة «محمد» ﷺ، من رحمة الله، على الرغم من كل ما يحيق بها من ظلم العالم وعدوانيته عليها، ولا سيما في تعهده كلياً لليهود بالنصرة والدعم!. حتى ليبدو هذا العالم وكأنه نسيَ الله تعالى.. ولا بدَّ أنْ تعود أمة التوحيد إلى أصالتها، فتنزل عن أكتافها أثقال التفرقة والانقسام، وأسبابَ الضعف والهوان، لترفعِ من جديد راية «لا إلَهَ إلَّا الله محمدٌ رسولُ الله» خفاقةً: نيةً وقولاً وعملاً، مستجيبة لدعوة الداعي، وأبناؤها الأبرار يهتفون: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾..

٥ ـ من جاء بالحسنة من المؤمنين فله عشر أمثالها.

يقول الله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾(١).

كما أنَّ كلَّ شيءٍ، وكلَّ شأنٍ، وكلَّ أمرٍ محصيّ في اللوح المحفوظ، كذلك كل عمل يقوم به الإِنسان مكتوبٌ، ومحصيّ عليه

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

من قبل ملائكة مكرمين، أوكلهم الله تعالى أنْ يلازموه في رحلة عمره، ويثبتوا كل شيء يصدر عنه من خير أو شر، حتى تكون أعماله حاضرة يوم الدِّين، فيقرأ يومئذ كتابَ أعماله، وتشهد من ثَمَّ جوارحه على ما دُوِّن في هذا الكتاب من الحسنات والسيئات.. وإنَّ من واسعِ رحمة الله بعباده، أنه جلَّ وعلا ذو فضل على الناس، فيما يضاعف للمؤمنين من الحسنات، بحيث تكون الحسنة بعشر أضعافها، فلا يأتي مؤمنٌ حسنةً إلا وتكتب له عشرُ حسناتٍ من مثلها. وهذا منتهى الجود، والكرم والرحمة من ربّ العالمين.

أما السيئة التي يرتكبها الإنسان المسيء فلا تكتب عليه إلَّا سيئة واحدة. ولا يكون العقاب إلَّا على قدرها فقط، وهذا منتهى العدل، والإنصاف والرأفة بالعباد.

والحسنات التي يكون عليها الحساب يوم القيامة أكثر مما تُعدُّ أو تحصى، فتدخل فيها النية ما بين الإنسان ونفسه، مثلما يدخل فيها إحياء النفس المحترمة.

وعلى ذلك فإنَّ من الحسنات: الطاعات على أنواعها، وأعمال البر والخير على أي شكلٍ أتت.. فمن قام بصلاة، أو صوم، أو صدقةٍ، أو زكاة، أو حج.. كانت له فيها حسناتٌ.

ومن أعان مسكيناً، أو يتيماً أو أسيراً، ومن أطعم جائعاً، أو سقى عطشانَ، أو كسا عريانَ، أو زار مريضاً.. كانت له في ذلك حسنات.

بل ومن رأف بحيوان فأطعمه، أو سقاه، أو داواه، أو حماه فله فيه حسنات.. وحتى من أبعَدَ حجراً عن طريق فله فيه حسنة.

ومن أجلّ الحسنات وأسماها، اعتناق عقيدة التوحيد، وهذي الآخرين إلى الإيمان بحقيقة وجود الله تعالى، والجهاد في سبيل الله، والإنفاق في سبيل الله، والإيمان بالغيب، ومخافة الله في السر والعلن. . ولا يقلُّ شأناً عن تلك الحسنات وسمّوها، مما يحبّبُهُ إلينا الإسلامُ، أو يأمُرنا به من مثل: طلب العلم والتعلّم، وسؤال أهل الذكر، وتقصّد المعرفة، والتفقه في الدين، ومتابعة قراءة القرآن، والقدوة برسول الله ﷺ من خلال السيرة النبوية الشريفة. . .

أضف إلى ذلك مكارم الأخلاق كلها مثل: التواضع، والتراحم، والصدق، والإيثار، والرأفة، والحياء، والنظافة، والضيافة، والكياسة، وحسن الصحبة، وحسن المعشر، وعدم النميمة، وعدم الغيبة، وكراهية الكذب، وكراهية الفسق، وكراهية الفساد. . فهذه كلها من الحسنات التي تكتب للإنسان. .

والحسنات جميعاً هي توفيق من الله تعالى، يهدي إليها عباده المؤمنين الصادقين، والعابدين الطائعين. .

فكان جديراً بالإنسان أنْ يدرك ما هي الحسنات، صغيرها وكبيرها. . ولو علمها الإنسان لعَبَد الله ربه حق عبادته، لأنه (جلَّتْ عظمتُهُ) أهل للعبادة كما تهدينا إليه صفاته الإلَهية، وتدلنا عليه أسماؤه الحسنى. ثم إنه سبحانه وتعالى، بالإضافة إلى ما يمدُّ به عبادَهُ، وخلْقَهُ ـ حتى العاصين والمنكرين ـ من نعمةٍ، وعطاءٍ وفضلٍ، فإنه يجعل لهم من الحسنة الواحدة التي يأتونها في الدنيا عشر حسناتٍ يوم الحساب: فمن قام بصلاة حسبت له عشر صلوات، ومن صام شهراً حسب له عشرة أشهر، ومن أنفق درهماً حسب له عشرة دراهم. .

وهكذا كل حسنة مادية أو معنوية يضاعفها الجواد الكريم بعشر أمثالها، بينما بالمقابل لا يجازي على السيئة إلا بمثلها أي بقدرها، دون زيادة أو نقصان.

ولو شاء الغفور الرحيم أنْ يغفر السيئات، لامّحت جميع ذنوب المؤمنين، ولكنه العدل الإلّهيّ الذي جعل السيئة بمثلها فقط، لئلا يشعر المسيءُ، بأنه ظُلِم أو لحق به إحجافٌ، وهذا منتهى الرحمة، من ربّه الكريم، إذ لو شاء ربُّنا أنْ يحسب السيئة ـ مثل الحسنة ـ بعشر أمثالها، فمن يقدر من عباده على معارضة أمره، أو الاحتجاج عليه، فهو الخالق القادر، وهو المقدِّر والمدبّر، وإليه يرجع الأمر كله فلا شأن لعباده بتقديره أو بقضائه، وليس لأحدٍ من عباده أنْ يعترض، ولكنه سبحانه وتعالى قد وَسِعَ عبادَهُ رحمةً ومغفرَةً، فجعل الحسنة بعشرة أمثالها، والسيئة بمثلها فقط. فلا ظلم لعمل، ولا ضياع لحق. فالله تعالى منزَّه عن الظلم، كما وصف نفسه في كتابه المجيد، وكما يعرفه عبادُهُ الصالحون. وهو سبحانه يكره الظلم، ويتوعد الظالمين بالعقاب الشديد، فهل يعقل أنْ يكون هناك أيُّ ظلم للعباد إذا جعل ربُّهم جزاء السيئة مثلها، وجزاء المعصية مثلها، وجزاء الذنب مثله؟ حاشَ لله أنْ يكون في عدله ظلم، وهو الذي حرَّم سبحانه وتعالى على نفسه الظلم..

ولو أدرك العبد هذا العدل الإلّهيّ على حقيقته، لبادر، ومن ساعته، إلى الإتيان بالحسنات حتى تضاعف له أضعافاً مضاعفة.. بل ولأبعد الظلم عن نفسه بصورة قاطعة، ولم يظلم غيرَه ولو مقدار شعرة واحدة، وبذلك يكون له الجزاء الأوفى يوم الحساب، وهذا ما أشار

إليه أبو ذر الغفاريّ ﷺ بقوله: «حدَّثني الصادقُ المصدَّقُ أنَّ الله تعالى قال: الحسنةُ عَشْرٌ أو أزْيَدُ، والسيئةُ واحدةٌ أو أغْفِرُها»[1].

الفقرة الثانية ـ ظلم الكافرين لأنفسهم وجحودهم بأنعم الله

ونردد، ونكرر بأنَّ كلَّ شيء في الكون يدل على حقيقة وجود الله تعالى، وعلى أنه هو الخالق العظيم، والمدبر الحكيم. ولكنَّ أهل الجهل والغفلة أنكروا أنْ يكون للسماوات والأرض إلَهٌ واحد يسيرهما وفق السنن التي قدَّرها، وجعلها ثابتة لا يطرأ عليها أي تبديل أو تحويل. كما استكبروا أنْ يكون للعالمين ـ من الإنس والجان ـ ربٌّ واحد، يرقبهم من عليائه، ويحصي عليهم كل حركة أو سكنة، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

وبسبب ذلك الجهل، والإنكار والاستكبار كانت عبادة أهل الكفر والضلال لآلهةٍ متعددة هي بدعة من خيالهم، أو تجسيد من صنع أيديهم، دون أنْ يسألوا نفوسهم، التي في صدورهم، إنْ كانت تقبل حقاً بعبادة مثل تلك الآلهة المزعومة، التي ليس لها أدنى قدرة على فعل شيء، بل ويستحيل عليها أنْ تفعل أي شيء!. ومِثْلُها أيضاً الآلهة الوهمية التي تصوّروها موجودةً في السماء، وجعلوها نوعاً من الغيب بينما هي في الحقيقة لا تعدو أن تكون ضرباً من الخيال الذي لا يمت إلى الواقع بصلة، والأمثلة عليها تلك الآلهة التي كان اليونان أو الرومان وغيرهم من الأمم الغابرة، يؤمنون بها.. ومثلها الكواكب التي عبدها الناس. لأنهم رأوا فيها قوىً تفوق قواهم، وألَقاً يسيطر

(١) مسند أحمد بن حنبل، حديث رقم ٢٠٥٨٤

على مداركهم!.. ومثلها كذلك تلك الأشجار، أو الحجارة، التي نحتوها تماثيل بأيديهم، ثم جعلوها آلهة، مع أنهم يرون بأم العين، ويدركون بالواقع المحسوس أنها مجرد جوامد لا حركة فيها، ولا وجدان لها، وهي لا تنفع ولا تضر بشيءٍ!..

أما الآلهة البشرية التي قدسوها مثل النمروذ في العراق، أو الفرعون في مصر، أو الأمبراطور في روما، أو في بلاد الصين وفارس.. أو غيرها من البلدان التي عبدت أرباباً متفرقة من البشر، فلم يكن لها من الألوهية إلّا الاسم، بينما في الواقع تجسدت بأشخاص مثل سائر الناس، استطاعوا بفعل ما يمتلكون من سطوة، وقدرة ونفوذ أنْ يبغوا على الآخرين من بني جنسهم، وأنْ يحكموهم بالظلم والطغيان، فانقادوا لهم، وأذعنوا لسلطانهم.. وذلك كله دون أن يكون لأولئك الأشخاص، الذين نصبوا أنفسهم آلهة، أدنى قدرة على الإتيان بشيء يخرجهم عن صفتهم البشرية ضعفاً، أو يجعلهم فوق مستوى البشر قداسةً!..

... فكل تلك العبادات كانت ضروباً من الكفر، والشرك، والجهل، والضلال.. لأنها عبادة الطواغيت والأهواء البشرية، أو عبادة الانحراف عن الحق، تماماً كما هي اليوم عبادة المال، أو عبادة الأوثان، أو اعتناق الآراء والنظريات الفلسفية الجاحدة، وغيرها من المعتقدات المادية، والشيطانية التي تخالف الفطرة البشرية، وتجافي الطبيعة الإنسانية، لشدة آثارها السيئة على مسيرة الإنسان في الأرض..

ومن هنا كان العجب في الإنسان عندما يعتنق هكذا عقائد زائفة وباطلة، ثم يجعلها موضع عبادة وتقديس!.. فكم يكون العمى ضارباً

على بصر وبصيرة من ينكر حقيقة وجود الله تعالى، ويتّخذ من دونه آلهةً حتى يوقع نفسه في الكفر، أو الشرك، أو الإلحاد، أو النفاق؟!.. أفلا يرى اسمَ الله موقعاً على كل صفحة من صفحات الكون، وآياتِه باديةً في كل مخلوق من مخلوقاته، وآثارَهُ مرسومةً على كل صغيرة وكبيرة في الوجود كله؟

وكم يكون الضلال قوياً في النفوس حتى لا يؤمن الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله، كما فعلت القرون السابقة، وذلك عندما وقف أهل الكفر والشرك - وفي جميع عصور الظلم والإجرام - في وجه الأنبياء والمرسلين الذين كانوا يُبعثون من ربّ العالمين بالرسالات الهادية، والتعاليم الصادقة.. وقد ضرب الله تعالى المثل على فعالهم الباطلة، وأكاذيبهم المضلّلة بما دأب عليه آل فرعون ومن قبلهم، كما يبيّنه قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ﴾[2]...

وكما ضرب الله تعالى المثل بآل فرعون على الذين كفروا، وكذّبوا بآيات الله، فكانوا ظالمين، كذلك ضرب الله تعالى المثل بـ«عادٍ» التي لم يُخلَق مثلُها في البلاد، إذ كان طول الواحد منهم أكثر من مائة ذراع، و«ثمودَ» الذين حفروا الصخور في واديهم واتخذوها بيوتاً لهم، و«فرعون» ذي الأوتاد الذي كان يأمر أنْ يوتدوا قضبان الحديد أو الخشب، فإذا أراد أن يعذب أحداً شدّوا يديْه ورجلَيْه إلى

(١) سورة الأنفال، الآية: ٥٢.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٥٤.

أربعة أوتاد.. فأولئك ضرب الله تعالى بهم المثل على ما طغوا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[1].. و لم يكن الطغاة في مكة، ومن آزرهم من أهل الجزيرة، أفضل من تلك الأقوام، فيما أنكروا على محمد ﷺ نبوته، وبعثه رسولاً للناس كافة، وتكذيبهم بآيات القرآن التي كان يتلوها عليهم!.. فجاء القرآن المجيد يبين الآثام، والجرائم التي كان يرتكبها الطغاة، والمفسدون في البلاد في أي عصرٍ عاشوا، ولأي جماعةٍ بشريةٍ انتموا، من خلال الأمثال التي تصور أحوالهم وأوضاعهم بصورة مجملة، أحياناً، أو بصورة مفصّلةٍ، أحياناً أخرى. ومن قبيل تلك الأمثال القرآنية:

١ ـ ادعاء الكافرين بأنهم لو يشاؤون لقالوا مثلَ آياتِ القُرآن

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ۙ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[2].. تلك هي الكذبة التي اختلقوها حتى كادوا ليصدّقوها، إذ كان النضر بن الحارث يأتي من بلاد فارس وغيرها بالكتب التي تتحدث عن الأساطير والخرافات الموهومة، فيجمع الناس من حوله، ويحدثهم بها، ثم يقول لهم: أرأيتم إلى الآيات التي يتلوها عليكم «محمد»، إنْ هي إلّا أساطير الأولين!.. ونحن الأسياد في قريش، ولغتنا لغة الضاد، قد سمعنا ما يتلوه علينا من الآيات، ولو نشاء لقلنا مثلها..

---

(١) سورة الفجر، الآيات: ٦ ـ ١٤.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣١.

ولكنْ ألم يكونوا كاذبين في قولهم هذا؟! بلى، وأول ما يدحض أكاذيبهم تلك أنهم جرّبوا كثيراً، وجمعوا حولهم عتاة الفصاحة والبلاغة، ولم يقدروا على أنْ يأتوا بأي شيءٍ من مثل القرآن!.. فكانت كل تخرّصاتهم مجرد افتراء على هذا القرآن المبين، الذي أنزله ربّ العالمين على محمد ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وينقل العباد من مآسي الكفر والضلال إلى رحاب الإيمان واليقين، بما يملأ النفوس رجاءً وطمأنينة، ويشيع في البلاد الصلاح والإصلاح..

ولم يكن ذلك الصلف والتعنّت من المشركين في شبه الجزيرة، وفي مكة خاصة، وذلك الدهاء والمكر من اليهود، الذين كانوا يغذّون روح الاستكبار الأجوف في نفوس أولئك الطغمة من قريش، وقد تحالفوا جميعاً، سرّاً وعلانيةً، على العداوة للنبي ﷺ!. أجل، لم يكن ذلك إلا حلقةً من حلقات التآمر، ومناورةً من المناورات التي ليس لها هدف إلّا صرف الناس عن آيات القرآن.. في حين لو كانوا صادقين مع أنفسهم، ومع ما عندهم من باعٍ في اللغة العربية، لأقرّوا بأنَّ هذه الآيات إنما تتنزَّل حقاً من الله، قولاً مبيناً وذكراً حكيماً لمخاطبة النفس البشرية كي يجلوها من الصدأ الذي علق بها، وينقيها من الأدران والخبائث التي غلبت عليها، فيعود الإنسان إلى فطرته السليمة، ويتشوَّف الحق الذي يكمن في أعماقه، فينقاد طوعاً إلى الإيمان بالله، ويهتدي إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم في الدنيا، والآخرة على السواء.. وهذا بالفعل ما كان يؤرق أولئك المشركين، لأنهم وجدوا في الدعوة للإيمان بالإسلام الذي يقوم على شهادة أنْ «لا إلَهَ إلّا الله وأنَّ محمداً رسول الله»، دعوةً

لطرح فكرة الآلهة المتعددة، واعتناق عقيدة ربانية تؤسس لعهد جديد في البشرية، قوامه الإخلاص لله الواحد الأحد، والتصديق ببعث «محمد» ﷺ رسولاً لكافة الناس.. إذاً فالدخول في الإسلام واعتناق عقيدة التوحيد إنما يُمثِّل قبل كل شيء إعلاناً للتمرد على سلطان البشر الجائر، والخروج من حاكمية العباد جملة وتفصيلاً، والفرار إلى الله تعالى، وإلى عدله في عباده. وهذا ما لم يكن شياطين قريش يريدونه، لأنَّ من شأنه أنْ يبدل أوضاعهم الجاهلية، وأنْ يُذهب بكل ما يملكون من السلطان، أو النفوذ الذي أولاهم السيادة على كل قبائل شبه جزيرة العرب، فضلاً عن أنَّه يحرر الضعفاء والفقراء من استغلالهم، واستعبادهم لهم!.. ولذلك كانت حرب قريش، ومن حالفها من اليهود، والقبائل الأخرى ضد النبيّ ﷺ، وضد الإسلام على ذلك النحو من القذارة، وهي تتوسل لها مختلف الأدوات، ولاسيما المكر بالنبيّ، ذلك المكر الذي اعتمدوه منذ البداية، ومن ثم التمويه على عامة الجماهير من العرب بالكذب والخداع، كما نلاحظ في هذه الجولة من ادعائهم بالباطل، أنهم قادرون، لو يشاؤون، قولَ مثل هذا القرآن..

ولعلَّ تلك الاتجاهات لدى كبار المشركين في مكة، هي التي جعلتهم دهاة في الكذب، ودهاقنة في خداع الناس، وقد برز من بينهم ذلك الخبيث، النضر بن الحارث.. فقد كان من عادته الاتجار مع الحيرة، فكان يشتري هناك الكتب التي تحمل أخبار العجم، وأخبار غيرهم من الأمم، وجلها من أساطير الأولين، ثم يعود، ويحدث بها أهل مكة، موهماً إياهم بأنَّ ما يتلوه «محمد» ﷺ من آيات قرآنية إنما هو مأخوذٌ من تلك الكتب. وكانوا يصدقون النضر، بل ويجعلون الناسَ

يصدقونه بسبب الدوافع الخبيثة التي كانت تطغى على نفوسهم، والتي فرضت عليهم تحريف الحقائق من أجل تكذيب النبيّ ﷺ، وإنكار الوحي. .

والحقيقة أنَّ النبيّ ﷺ ما كان ليبلّغ آيةً واحدةً إلا عن ربّه تبارك وتعالى، وما كان ليقرأ على الناس إلا قول الله عزَّ وجلَّ. وكان بإمكان أهل البلاغة والفصاحة من قريش ـ وهم يومئذٍ كثيرون ـ أنْ يجروا مجرد مقارنة بسيطة بين ما يتلوه عليهم محمد ﷺ من آيات القرآن، وبين ما يجلب لهم النضر بن الحارث من كتب الأساطير والخرافات، حتى يجدوا الفرق بعيداً، والبون شاسعاً بين حقائق القرآن، وخرافات تلك الكتب التي يحملها النضر، لأن القرآن ـ ولا ريب ـ هو قول الله الحق، فلا يمكن لأقوال البشر أنْ تدانيه مهما علت في الفصاحة والبلاغة والحكمة، لا سيما وأنَّ القرآن سمته الإعجاز الذي تحدَّى به الثقلين، والذي لا يمكن لأي كتاب غيره في الأرض أنْ يتصف بإعجازه. . إذاً فكيف يجوز لمشركي قريش، أو غيرهم، أنْ يقولوا: قد سمعنا آيات القرآن، لو نشاء لقلنا مثل هذه الآيات؟! إلَّا أنْ يكون قولهم محض كذب وخداع، وتلك هي الحقيقة. . فقد أرادوا أن يطفئوا نور القرآن ـ الذي هو من نور الله ـ بأفواههم، والله متم نوره ولو كره الكافرون. . وها هو القرآن ما يزال نوراً مبيناً يضيء القلوب، ويهدي النفوس، وما يزال المعجزة التي فرضت نفسها على الرغم من أنوف المدعين في مشارق الأرض ومغاربها. ولكن الشرك طغى على النفوس، واستمرأ عُتُوَّهُ أهلُ البغي والطغيان، فكان لا بُدَّ أنْ يغلب عليهم شركهم من أجل الحفاظ على مصالحهم. . وهذا لا يكون إلا بمحاربة القرآن، فانبروا لتلك الحرب، حتى انتصر عليهم القرآن في النهاية.

وكذلك كان الوليد بن المغيرة من بين أولئك الكفار الماكرين في مكة، الذين أجمعوا على إسكات صوت الحق الذي يقض مضاجعهم، إذْ لم يجدوا بعد نقاش طويل في دار الندوة خيراً من الوليد يدفعونه للذهاب إلى النبيّ ﷺ كي يفاوضه على التخلي عن دعوته، مقابل أنْ يقدموا له ما يريد من المال والملك والسلطان.. فلما جاءه، أخذه الرسول الأعظم ﷺ باللين، والموعظة الحسنة، وهو يتلو على مسامعه من آيات القرآن ما يحمل عظيم المعاني والدلالات التي تقشعر لها الجلود، وتوجِفُ منها القلوب، مما أخرَسَ الوليدَ، وجعله عاجزاً عن التفوه بأية كلمة حول المهمة التي كلف بها، إذ لم يُبدِ - وهو بين يدي رسول الله ﷺ - أية معارضة للقرآن، ولا للدعوة التي يحملها النبيّ ﷺ، بل ظل ساكتاً، وملء قلبه الوجل والخوف، حتى قام من مجلسه، وذهب مسرعاً إلى المتزعمين من قريش، ليخبرهم بحقيقة ما جرى معه، وعدم جرأته على مفاوضة «محمد» ﷺ.. وكما كان منتظراً، فقد واجهوه بالاستنكار، واتهموه بالجبن على موقفه، فانبرى أبو جهل ينفث حقد غضبه، وهو يزعق كالغراب في وجه الوليد قائلاً له:

- يا عمّ، إنَّ قومك قد جمعوا لك المال، وأعدّوا لك النصرة لتذهب إلى «محمد» وتغريه كي يتخلّى عن دعوته، أو لتفنّد آراءه، وتدحض افتراءاته... ثم جئت لتقول إنك خرجت من عنده دون أنْ تُحاجَّه بشيء، أو تفاوضه على السكوت عن أمره؟!

فقال له الوليد: لقد علمت قريش أني من أكثرها مالاً!..

فقال له أبو جهل: فقل في «محمد» قولاً يبلغ قومك أنك منكر له، وكاره!.

فقال له الوليد: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم مني بالشعر، ولا برجزه أو قصيده، فوالله ما يشبه الذي يقوله «محمد» شيئاً من هذا. ووالله إنَّ لقوله لحلاوةً، وإنَّ عليه لطلاوةً، وإنه لمنيرٌ أعلاه، مشرقٌ أسفلُهُ، وإنه ليعلو وما يُعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته..

وهذا ما جعل أبا جهل اللعين ينتفض مثل الطير المذبوح، وهو يقول للوليد: وهل نتركه وشأنه؟ فوالله لا يرضى عنك قومك حتى تقول في «محمد»!..

قال الوليد: فدعني أفكر...

وجلس الوليد بن المغيرة يقدح زناد فكره حتى يقولَ بشأن «محمد» قولاً ترضى عنه قريش.. ويصفُ الله تعالى ـ وهو الذي يعلم ما في صدور الناس، ويعلم ما يبدون وما يخفون ـ ذلك القرشيّ الماكر، بآياتٍ بليغةٍ، فيها منتهى الدقة والتصوير لتعابير وجهه التي تدل على ما في نفسه من انفعال، وما في قلبه من حقد على النبيّ ﷺ، ومقدارَ التأثر الذي يبدو عليه، وهو يقدح زناد فكره بحثاً عما يقوله ويوافق أهواءه، وأهواء قريش، حتى ولو خالف بذلك حقيقة ما وجده في النبيّ، وما سمع منه من بليغ القول، وعظيم معناه. فجاء وصفه في هذه الآيات المبينة التي تظهر تلك الحالة للوليد بن المغيرة بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾[1].

إنه حكم الله الكبير المتعال على ذلك الكافر اللعين بالقتل. ثم

---

(١) سورة المدثر، الآيات: ١٨ ـ ٢٥.

بالقتل ـ مكرراً ـ لما فكَّر وقدّر من التقوّل على القرآن المجيد بما ليس فيه، ومن ادّعائه زوراً وكذباً بأنَّ الآيات التي يتلوها «محمد» على الناس إنما هي سحرٌ مأخوذ من أقوال الساحرين.. ومثل هذا العقاب لذلك الكافر الحاقد، الوليد بن المغيرة، إنما كان لعلمه ـ تمام العلم ـ أنَّ القرآن ليس من عند «محمد» ﷺ، وليس من عند أحدٍ من الناس، لأنَّه ليس لبشر أنْ يقول مثله، خصوصاً وأنَّ الوليد قد شهد هو على نفسه بأنه يعرف لغة العرب: صحيحَها من مدخولها، وبليغَها من ركيكها. وقد أقرَّ ـ أمام أغلظ المشركين وأشدهم عتواً من بني قومه ـ بأنَّ ما سمعه من محمد لقولٌ «يعلو وما يعلى عليه»، فكيف يجيز لنفسه أن يتنكَّر لهذه الحقيقة، وألَّا يعلن على ملأ قريش أحقية القرآن، وصدق «محمد»، وأن يقول بخلاف الحق الذي عرفته نفسُهُ؟!.

وفي تصوير أمارات وجهه، وحركاته، يبرز ذلك الحاقدُ حائراً، مرتبكاً، وكأنه كلما لاحت له فكرة نظر إلى القوم من حوله يريد أنْ يقولها، ثم لا يلبث أنْ يتركها، ليعود من جديد إلى العبوس والتجهم، مع ما يرافق عبوسه من انقباض وكلوح.. ثم يغرق مرة أخرى في التفكير، ثم يعبس ويبسر، فيزيده ذلك انقباضاً وكلوحاً.. ويظل على هذه الحالة من التأزُّم في نفسه حتى يجد الفكرة الخبيثة، التي تجعله مُدْبِراً عن الإِيمان، مستكبراً عن اتباع الحق، فينطق بكفره وكذبه، مُدَّعياً أنَّ ما يقوله «محمد» إنْ هو إلَّا سحر يؤثر عن السحرة، إنْ هو إلا قول البشر!!..

ذلك كان تقدير الوليد بن المغيرة، كما قاده إليه تفكيره. ولكنَّ حكم القادر المقتدر كان، في علمه السابق، قد صدر عليه بالقتل،

وقتله سوف يكون، كما أخبر العليُّ العظيم بقوله الحق: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ * وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾[1].

أجل إنه حكم الله الحق، من الحق تبارك وتعالى، على كاذبٍ من عتاةِ قريش. لأنَّ كُفرَهُ بالقرآن كان صُراحاً، وتكذيبه لنبيّ الله كان بَواحاً. وإنه الحكم الذي يستحقه كل مكذب بآيات الله تعالى، وبقرآنه المجيد، ولا يؤمن بنبوة رسوله الكريم محمد (عليه أفضل الصلاة والسلام).

وليس أعظمُ، ولا أشدُّ بلاءً على الكافرين والمشركين، الذين جاءهم الحق من ربهم فكذبوه، من العذابِ الأليم يخلدون به في نار جهنم المحرقة. ذلك العذابُ الذي يشبِّهه القرآن الكريم بالقتل، تدليلاً على شدته وقسوته، لأنه ليس شيء أقسى على الإنسان من القتل. وما توكيد الآيات على نوع الجزاء إلا لتبيان ماهية جهنم ذات الشأن العظيم، التي لا تبقي على شيء، ولا تذر شيئاً يدخل فيها إلّا جعلته شِواءً، إذ تلتهمه التهاماً، لتحيله وقوداً لنارها، ولكن من غير أنْ يستحيل فيها إلى رمادٍ وينقضي، أو أنْ يحترق بجمرها وينتهي، بل كلما نضج جلده عاد كما كان، وعاوده عذاب القتل حرقاً، كأشد ما كان.

(١) سورة المدثر، الآيات: ٢٦ ـ ٣١.

أجل إنَّ نار جهنم تشوي المفترين على آيات الله، وعلى رسله، كذباً وعناداً، إذ يتقلّبون فيها بعذاب دائم، لا يحول ولا يزول. . ومن أجل ذلك كان لسقر (جهنم) ذلك الشأن العظيم وهي تقتل الكافرين على ذلك النحو الأليم!!. .

وتبيّن الآيات الكريمةُ أنَّ الله تعالى جعل على جهنم تسعة عشر خازناً، أي حارساً. وقد سمَّاهم ـ سبحانه ـ أصحابَ النار، وهم من الملائكة. أما لماذا جعل عدتهم تسعة عشر، بهذا العدد المحدد، بدون زيادة أو نقصان، فلكي تكون هذه العدة فتنةً للذين كفروا، بحيث يتيهون في البحث عن معرفتها، فلا يقعون إلا على القلقِ والتخبُّط. . وقد برزت فعلاً تلك الفتنة للكفار، بعد نزول هذه الآيات المبيّنات؛ فمنهم من أخذها على محمل الجد، وراح يتفكَّر في معناها، حتى أشقته، دون أنْ يبلغ ماذا أرادَ الله تعالى بها مثلاً؛ ومنهم من أخذها على محمل الهزء والسخرية لضآلة العدد، إذ اكتفوا بظاهر النص، دون عناء التفكير في مقاصده؛ ومن هؤلاء كان أبو جهل الذي قال: يا معشر قريش!. . يزعم «محمد» أنَّ جنود الله الذين يعذبونكم في النار، هم تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عدداً، فهل يعجز مئة رجل منكم عن رجل منهم؟

وقال آخر من قريش يُدعى أبا الأشد: يا معشر قريش! لا يَهُولَنّكم التسعة عشر، أنا سأدفع عنكم بمنكبي الأيمن هذا عشرة، وبمنكبي الأيسر تسعة. . مما يتبيّن معه بوضوح أنَّ عِدَّةَ خزنة جهنم إنما كانت فتنةً للكفار والمشركين، لأنهم احتاروا في تفسيرها، وتحديدها، بل وأخذتهم الخشية والرعب من فكرة المصير في الآخرة

التي يتهددهم بها القرآن، وهو يصوّر لهم «سقر» وما سوف تفعله بالبشر الذين ينقادون إليها راغمين..

هذا من ناحية مشركي مكة..

أما أهل الكتاب، فإنَّ ذكر أصحاب النار، وتحديد عدتهم لم يزدهم إلا استيقاناً بأحقية القرآن، لأنه يثبت ما جاء في كتبهم السماوية، ولعلَّ في هذا ما يجعلهم يعرفون الحق فيتبعوه، ويصدقون بعث النبيّ محمد ﷺ فيدخلوا في الإسلام، ويعتنقوا عقيدة التوحيد..

وأما المؤمنون، فإنهم لا يتوقفون عند العدد، لأنهم يعلمون أنَّه الحق من ربهم، بل ينصرف تفكيرهم إلى تصوّر شأن جهنم العظيم، وما أُعِدَّ فيها للكافرين من العذاب الأليم، بينما هم يعدُهم ربهم جناتِ خُلدٍ عرضها السماوات والأرض، أعدت للمتقين، فيزدادون إيماناً واحتساباً.. ثم إنَّ هذا العدد لا يرتابُ ولا يتخوَّف منه أهل الكتاب، ولا المؤمنون، بل يقولون: سبحان الله العليم الحكيم، الذي أوكل إلى ملائكته بتكاليف عظيمة لا يقدر عليها البشر، ولا يحتملون القيام بها... في حين أن الذين في قلوبهم مرضٌ، من أهل الشك والنفاق، ومن الكافرين يقولون: ماذا أرادَ اللَّهُ بهذا العدد مثلاً؟ مما يعني أنَّ عدد الملائكة، أصحاب النار يحيِّرهم ويجعلهم ضالّين عن الحكمة، التي يريدها الله تعالى من هذا المثل، بل وفي قولهم هذا ما يؤذن بحالة الضياع والضلال التي أوقعوا بها نفوسهم.. كذلك، أي مثل الفتنة التي توقعها عدة الملائكة في نفوس الكافرين، فتضلّهم عن حكمتها، ومثل الاطمئنان الذي يداخل قلوب المؤمنين فيزدادون إيماناً، كذلك يضل الله تعالى من يشاء، ويهدي من يشاء.. أما عدد جنود الله، سواء

الذين كلفوا بجهنم، أو بغيرها من شؤون الآخرة، أو الذين كلفوا بالعباد، وبشؤون الدنيا كافة، أو الذين أُعدُّوا لكل أمر يشاؤه ربَّ العالمين فلا يعلمهم، ولا يعلم عددهم إلّا هو سبحانه وتعالى. وما هذه الأمور جميعاً ـ سواء جهنم، أو خزنتها، أو فتنة الكافرين، واستيقان أهل الكتاب، وزيادة إيمان المؤمنين ـ إلّا ذكرى للبشر، من شأنها أنْ تستوقفهم للتفكّر والتدبّر..

فإذا سأل معترض: ولِمَ ورد القول: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ مع أن الاستيقان، وازدياد الإِيمان يدلاًن على انتفاء الارتياب؟ قيل له: لأنه إذا حصل لهم إثبات اليقين، ونفي الشك، زادهم ذلك تأكيداً، وثباتاً على دينهم، وكان أكثر نفعاً لسكينة نفوسهم، وراحةً لقلوبهم، فيكونون بخلاف المرتابين، والمشككين، والكافرين الذي تتآكل نفوسهم بفعل الريبة والجهالة، وتضعف كياناتهم بتأثير النفاق والضلال، وكلها فتنة وابتلاء..

وإذا سأل آخر: ولِمَ كان ذكر المنافقين، الذي وصفهم الله سبحانه و﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ مع أنَّ الآيات أنزلت في مكة، ولم يكُ فيها نفاق، كما ظهر في المدينة؟ قيل له: إنَّ النص يهدف إلى بيان حال أهل الريب، والشك والذبذبة في كل مكانٍ، ممن لا يُقبلون على الإِسلام، فهؤلاء يظلون فريسة للفتنة التي تؤدي إلى العقد والأمراض النفسية، فتكون هذه النصوص من القرآن الكريم ـ فوق أنها تدل على أحوالهم ـ من أهم العوامل التي تبعث في نفوسهم ميلاً إلى فهم الإِسلام، ومن ثَمَّ للدخول في رياضه الغنّاء، وبذلك يتخلصون من عقدهم، ويشفون من أمراضهم، وذلك كله من هدى الله، إن الله يهدي من يشاء..

٢ ـ ليس أظلم مِمَّنْ قالَ سأُنزِلُ مثلَ ما أنزل اللَّهُ من كتاب

يقول الله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۞ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾(١).

تبدأ هذه النصوص الكريمة بالتذكرة بحقيقة القرآن، وبأنه كتابٌ، أنزله الله تعالى، مباركاً، لتعمَّ بركاته الأرض وأهلها؛ وأنه مبارك أيضاً بتصديقه الكتب السماوية التي أنزلت من قبله هدىً ورحمةً.. وقد أنزله الله العزيز الحكيم على رسوله محمد ﷺ لينذر أم القرى ـ مكة المكرمة ـ حيث كان يعيش، وحيث نزل عليه الوحيُ وباعتبار أنَّ مكة قد جعلها الله فوق محور الأرض، أو تحتها نقطة الارتكاز للأرض، لينطلق منها الإنذار إلى مَنْ حولها من أهالي مناطق شبه الجزيرة العرب، ثم لتنطلق الدعوة إلى الإسلام فتصل المدى الذي يريده الله تعالى، ولتبلغ أسماع الناس جميعاً في مختلف أطراف المعمورة..

فالبدء بإنذار أم القرى ومن حولها له دلالات كثيرة، وأبرزها:

- أنَّ الكعبة الشريفة، هي أول بيت بني لعبادة الله في الأرض، فكانت أمَّ المساجد التي يؤمها المسلمون في المشارق والمغارب، بل وأمَّ أماكن العبادة كلها حيث يتعبَّد الناس لله ربِّ العالمين..
- أنَّ إبراهيم وإسماعيل ﷺ قد أعادا رفعَ قواعدِ هذا البيت

(١) سورة الأنعام، الأيتان: ٩٢ و٩٣.

العتيق، بأمر من ربهما، لمكانته المقدسة عندَهُ عزَّ وجلَّ.

- أنَّ محمداً ﷺ خاتم النبيين هو من أم القرى، وقد بعث نبياً فيها، عندما نزل الوحي عليه وهو يتعبَّد في غار حراء، الذي يقع على أعلى قمة جبل النور، من أرض مكة المكرمة.

- أنَّ الكعبة - أعزَّها الله - وكما أثبت أهل العلم تقع على محور الأرض، التي تدور حول محورها في حركتها الدائمة ليل نهار، وعلى مدار السنوات، وإلى أنْ يرث الله تعالى الأرض ومن عليها. فكان حقاً أنْ تكون أم القرى هي نقطة الابتداء للدعوة إلى دين التوحيد، كما أراد الله تعالى، عندما أُنزل القرآن على قلب محمد ﷺ في تلك البقعة المباركة من الأرض، فانبرى يبلّغه للناس، ويدعوهم للإيمان به، وبحقيقة ما يخبر عن الأمور الغيبية - مثل الآخرة - أو بما يأتي به من الفرائض - مثل الصلاة - أو غير ذلك من القضايا والأحكام والمواضيع والشؤون التي يتناولها القرآن، وبحيث يعتبر الكتاب الجامع الشامل الذي لا يترك شاردة ولا واردة إلا وذكرها بصورة مفصّلة أو مجملة كما شاءَ ربنا العزيز الحكيم. فالذين يؤمنون بالآخرة أنها حق، وأنَّ يوم القيامة حق، وأنَّ الحساب حق، يؤمنون بهذا القرآن الذي يقدم لهم البراهين والأدلة على حقيقة الآخرة بما يطمئن قلوبهم إلى الإيمان بها. ولذا تراهم يحافظون على صلواتهم، وعلى فرائضهم الأخرى جميعها، خوفاً من عذاب الآخرة.

وعلى خلاف هؤلاء المؤمنين، فإنَّ من الناس من يسعون ظلماً في العباد بشتى أنواعه، ومنها: الكفر، والشرك، والمعصية، وبخس

الناس أشياءهم. . فكل من يكون لديه واحدة من هذه المظالم، أو ما يماثلها، فهو ظالم. . ولكن ليس أظلم ممن افترى على الله بتكذيب آياته، وزعم أنَّ القرآن غير منزل من عند الله تعالى، كما يدّعي زوراً وظلماً كثير من المشركين والكافرين، وهم يقولون بأنَّ القرآن مفترىً! ولكنَّ الله عزَّ وعلا، يكذّب كل أباطيلهم وتزويرهم للحقيقة، أي الحقيقة الثابتة والمطلقة، وهي أنَّ القرآن هو كتاب الله، وقد أنزله هدى ونوراً، وإصلاحاً لحياة العباد، ولذلك لا تكتفي نصوص القرآن بتكذيب أهل الباطل، بل وتتحداهم أنْ يأتوا بسورة من مثله، على وجه الافتراء، إنْ كانوا يستطيعون ذلك، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]. .

وكذلك ليس أظلم ممن افترى على الله بادعاء النبوة، وقال بأنه أوحيَ إليه، ولم يوحَ إليه بشيء. . وكذلك ليس أظلم ممن افترى على آيات القرآنِ، المنزلة على رسول الله ﷺ وما لها من جليل القدر لأنها كلام الله العلي العظيم، وقال بأنه سينزل مثل ما أنزل الله من تلك الآيات المباركة التي أعجزت الثقلين على أن يأتوا بمثلها! . . .

فكل من يفعل شيئاً من ذلك يعدُّ عند الله كذَّاباً ومفترياً، وهو بالتالي أشدّ الظالمين، مع ما يحمل هذا الظلم من كراهية ومقت لصاحبه، إن مِنَ الله رب العالمين، وإن من عباده الأبرار المؤمنين. فالله سبحانه وتعالى يمقت الظلم، وقد حذر منه كثيراً، ونهى عنه نهياً جازماً

---

(١) سورة يونس، الآيات: ٣٧ ـ ٣٩.

في كتابه المبين. ثم أقر عباده، وخاصة أولئك الضحايا الذين يقع عليهم الظلم، أن يثوروا في وجه الظالمين، وبالفعل فإنَّ الثورات الكبرى إنما كانت بسبب الظلم والطغيان، وظهور الفساد في دنيا الناس، والتاريخ البشري خيرٌ شاهد على ذلك!. . ولذلك كان الظلم، بطبيعته، اعتداءً على حقوق الناس، فكيف إذا كان اعتداءً على قدسية ذي الجلال والإكرام، بنسبة الشريك أو الولد إليه وهو ربُّ جميع الناس وخالقهم، أو إذا كان اعتداءً على أمرٍ هو شأنٌ لله تعالى مثل الوحي الذي خصَّ به مِنْ عباده الصالحين مَنْ اختارهم، واصطفاهم لهذا الوحي. .

وقد قيل في أسباب نزول «ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله» كما أخرج ابن جرير عن عكرمة، أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان من كتاب الوحي للنبيّ ﷺ، فكان إذا أُمليَ عليه من مثل «عزيز حكيم»، يكتب: غفور رحيم. وأخرج عن السّدي نحوه، وزاد: أنَّ ابن أبي سرح كان يقول: إنْ كان «محمد» يوحى إليه، فقد أوحي إليَّ، وإنْ كان الله ينزله، فقد أنزلتُ مثلَ ما أنزلَ الله، قال محمد: «سميعاً عليماً»، فقلت أنا: عليماً حكيماً. . ولكن أمر ابن أبي سرح انكشف، فخرج عن الإسلام، ولحق بأهل الكفر من قريش، الذين كان همُّهُمُ الأكبر منع نور الإسلام من الانتشار، كما يثبته قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾(١).

ولم يكن ابن أبي سرح وحده كذاباً لعيناً، بل ومثله مسيلمة الكذّاب، الذي ادعى النبوة في مطلع سريان الدعوة الإسلامية في شبه الجزيرة. . ومن أجل محاربة مثل تلك الدعوات، أو الادعاءات، وفي أي زمانٍ أتت، فقد أحكم الله تعالى في كتابه المجيد الآيات البيّنات

---

(١) سورة الصف، الآية: ٨.

التي تحرم كل كذب أو افتراء على الوحي، وتعدّه من أشد أنواع الظلم عتواً..

والسؤال: ولكن ما مصير الظالمين، وأياً كان نوع ظلمهم؟

هذا ما يبيّنهُ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾[1] .. باسطو أيديهم للظالمين بالضرب، والتعذيب، وهم يقولون لهم: أخرجوا أنفسكم من هذا العذاب إنْ كنتم قادرين!.. ولكن لن تقدروا، ولن تستطيعوا الإفلات من العقاب الذي تستحقون بسبب ادعائكم الكاذب بأنه أوحي إليكم، وبما كنتم تقولون على الله غير الحق، وبما كنتم عن آياته الكريمة تعرضون، وتتعالون وتستكبرون. وهذا يومكم الذي كنتم توعدون، فما قدرتموه حق قدره، وما حسبتم أنكم تبعثون، وأنكم ستحاسبون على كل ما كذَّبتم وقلتم.. فاليوم تجزون العذاب الهون بما كنتم تكذبون.

فيا سبحان الله، كيف يعرف الناس هذا، ويغرقون في الظلم ـ من أي نوع كان ـ وهو محرَّم وممقوت مقتاً شديداً من الله عزّ وجلّ. أفلا يتدبَّرون القرآن الذي ينهى عن الظلم، وينتفعون بهديه، أم على قلوب أقفالها؟!.

٣ ـ مراد الكافرين أن يُؤتوا مثلَ ما أُوتي رسلُ الله

يقول العزيز الحكيم: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ﴾[2].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.

قد يشكل الغرور، في أحيان كثيرة، حالةً مأساويةً من شأنها أن تثير الشفقة، بخلاف ظاهر الحال التي يكون عليها المغرور!.. ذلك أن الغرور من الأمراض النفسية المتأتية للإنسان من جرّاء موروثاتٍ، أو مؤثرات، أو نوازع أشربت بها النفس، فجعلتها تنحرف عن جادة الصواب. وهذا المرض الخبيث الذي تألفه النفوس الشريرة ـ من غير أنْ تشعر بفداحته وخطره ـ كثيراً ما يصيب المستكبرين، الذين يظنون في أنفسهم علواً على غيرهم، ومقدرةً على الإتيان بعظائم الأمور، دون سائر الناس!.. ويبدو أن بعضاً من القرشيين قد فعل هذا المرضُ فعلَهُ في قلوبهم، فكانوا إذا جاءتهم آية من آيات القرآن، وتلاها عليهم رسوله الأمين، قالوا: لن نؤمن حتى ينزل الله علينا مثل ما أنزل على «محمّد» من الآيات.

وكان الوليد بن المغيرة المخزومي أشدَّ طغاةِ قريشٍ استكباراً واعتداداً بنفسه، إذْ كان يرى بأنه هو أهلٌ للنبوّة، وليس محمد بن عبد الله، لأنه أكبر منه سناً، وأغنى مالاً، وأكثر وجاهة؛ ولم يكن ليتورع عن المجاهرة بذلك، في مناسبات عديدة، منذ أنْ بدأ النبيُّ ينذر الناس، ويدعوهم إلى الإسلام.. وأمانيُّ النبوة كانت، على ما يبدو، بمثابة حلم لأصلاف قريش الآخرين، أمثال أبي جهل عمرو بن هشام، أو أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية، لأن ظهور نبيٍّ قد أطلَّ زمانه كان يرّوج له اليهود في شبه جزيرة العرب، لاعتقادهم بأنه سيكون من ظهرانيهم..

وكان جلُّ اهتمام أبي جهل وأبي سفيان الزعامةَ في قريش ورئاستها أولاً، والعمل لذلك بكل ما أوتيا من الجهد، والمال والجاه.. وكانا يحلمان أنْ تقترن الزعامةُ بالنبوة، وذلك هو المجد

التليد!.. وقد أفصَحَ أبو جهل عن نزعته تلك يوم أن قال لصاحبه الأخنس بن شريق: «لقد تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا. حتى إذا تحاذينا الركبَ وكنا كفرسيْ رهان، قالوا: منا نبيٌّ يأتيه الوحي من السماء، فهل ندرك مثل هذا؟ واللات والعزى لا نؤمن به أبداً، ولا نصدقه»(١).

لا بل إنَّ بعث محمد ﷺ بالنبوة والرسالة قد اتخذ منه رؤوس المشركين ـ ما بين مكة والطائف ـ قضيةً محورية، لأنهم لم يطيقوا أنْ يفلت هذا الأمر من أيديهم، أو على الأقل من أحد زعمائهم الكبار أمثال الوليد بن المغيرة المخزومي ـ في مكة ـ أو مسعود بن عمرو الثقفي ـ في الطائف ـ لما كان لهذين الرجلين من تأثير ونفوذ في نفوس القوم. وقد أظهر القرآن نزعتهم تلك، وفضحها على الملأ، بقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(٢).

أما أن يشترطوا هم على الله عزَّ وجلَّ، وأنْ يربطوا إيمانهم بوحيٍ يُنزَّل عليهم مثل رسل الله!.. فهذا منتهى الضلال، والاستكبار، والغرور، لأن: «الله أعلمُ حيث يضع رسالته».. فهو خالق العباد، وهو أعلم بحال كل واحدٍ منهم، ومَنْ هو أهل لحمل الأمانة، والقيام بأعباء النبوة والرسالة.. وإنَّ اصطفاء محمد ﷺ، أو من سبقوه من الأنبياء والمرسلين هو شأن لله وحده، فليس لعبادٍ ضِعافٍ، منكرين لنعماء الله عليهم، وجاحدين لفضله فيما آتاهم، أنْ يعترضوا، أو يدّعوا، غروراً وبهتاناً، ما ليسوا أهلاً له.. إلّا أنْ تزين

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص٣٣٧ و٣٣٨.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٣١.

لهم سفاهة أحلامهم مثل ذلك الاعتراض، أو أن تدّعي نفوسهم مثل ذاك الغرور والبهتان.. وكله باطل فاشل.. بل ومجرد اعتراضهم يُعدُّ جرماً فادحاً. وما عاقبة الذين أجرموا مثل هذا الجرم، إلا الصَّغارُ والذلُّ عند الله العزيز الجبّار، والعذاب الشديد بما كانوا يمكرون، ويتآمرون على نبيه محمّدٍ ﷺ، وهم يدَّعون أنهم أحق منه بالبعثة.

لقد آثروا الغرور والاستكبار، فرأوا ألّا يؤمنوا إلّا بحسب أهوائهم ونزعاتهم، وقياساً على مصالحهم، فتاهوا عن الهدى والصلاح.. أما وتلك حالهم فذلك شأنهم، ولكن حقت عليهم كلمة ربهم: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[1] وسينالون العذاب الشديد بما كانوا يمكرون ويدّعون..

أمّا ما يشاء الله تعالى من خير لعباده، ومن هداية للمؤمنين الموقنين، أو إضلال للمنكرين والمستكبرين فيُبيِّنُهُ قوله تعالى:

﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2].

من الحقائق المطلقة التي يقررها القرآن المجيد بقول ربّ العالمين: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَٰمُ﴾[3]، وهذه الحقيقة لا مجال لإنكارها، لأنها القولُ الحقّ، ومن الحقِّ تبارك وتعالى. فمن يُرِدِ الله أنْ يهديَ من عباده إلى ما فيه خيرُهُ، يشرحْ صدره لهذا الدين، فتمتلئ

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٩.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

به جوارحه، ويطمئن به قلبه، ثم يقوّي فيه دواعيَ الاستمساك به. وقد سأل الصحابةُ رسولَ الله: كيف يشرح الله صدره يا رسول الله؟ قال: «نورٌ يَقْذِفُهُ الله في قلبِ المؤمنِ فيَنشَرِح لَهُ ويَنْفَسِح». قالوا: فهل لذلك من أمارة يُعرف بها؟ قال: «الإِنابةُ إلى دارِ الخلودِ، والتَّجافي عَنْ دارِ الغُرورِ، والاستعدادُ للموتِ قبلَ لِقاءِ الموت»[1].

فهذا شأن من يريد الله تعالى أنْ يهديه إلى نور الإِيمان، الذي لا يكون إلّا بالإِسلام.

أما من يرد اللَّهُ تعالى أنْ يُضلّه، فإنه يجعل صدره ضيقاً عن استيعاب الإِسلام، فلا يتقبَّل هداه، بل وتغلب عليه وساوس الشيطان حتى تملأ صدره، وتضغط على قلبه، فيشعر ـ حقيقة وفعلاً ـ بأنَّ صدره قد ضاق من شدة هذا الضغط، وكأنما يقذف به في السماء صعوداً، وكلما ازداد في هذا الصعود ارتفاعاً، اشتد الضيق والحرج على صدره حتى يصير عليه أعسر من ساعة الموت عند قبض روحه.

وقد دلَّت الاكتشافات العلمية أنَّ الإِنسان، عندما يصعد في الفضاء، ويخرج من جاذبية الأرض، يكون أكثرُ شيءٍ حاجةً إليه هو الأوكسيجين الذي ينعدم وجوده خارج فضاء هذه الأرض. وبما أنه لا حياة للإِنسان بلا أوكسيجين، فإنَّ فقدانه يؤدي إلى موته اختناقاً، مع ما يصاحب هذا الاختناق من الشعور بضيق الصدر، وبالآلام المبرحة الناتجة عنه. ولعلَّ من تصيبه أزمة قلبية أدرى بهذه الآلام من غيره.. فهكذا هي حال من يضلّه اللَّهُ تعالى إذ يسلط عليه الوساوس، والهموم، والقلق والاضطراب، فتتأزم نفسه كأنما يصعّد في الفضاء

---

(١) شرح تفسير الجلالين للآية ١٢٥ من سورة الأنعام؛ وسنن الدارمي، فضائل القرآن، ص١٠.

بلا أوكسيجين يمدُّهُ بالحياة. وقد شاء الله أنْ يبين لنا بهذا المثل أن الإِسلام هو الحياة للإنسان، وهو قوام هنائها وراحتها الحقيقين، وبدون الإِسلام فإنه لا مجال إلَّا لضيق الصدور، وقلق القلوب، وملازمة الشقاءِ والبؤس للناس. من هنا كان الدليل على أنَّ القرآن لم يُنزَّل إلى جيل، أو إلى أمة أو إلى مجتمع.. بل أنزل هذا الكتاب الكريم لكل الناس، ولكل العصور.. ولذلك كان الإسلامُ نور هداية ورشاد، ومصدر علم ومعرفة لكل من أرادَ أن يستقيَ من معين نور الله.

وكما تحل الآلام والعذاب بالإنسان في هذه الدنيا من شدة الضلال حتى تجعل صدره ضيقاً عن استيعابها، وغير قادر على احتمالها، كذلك سيكون عذاب الآخرة.. ولكن أشدَّ إيلاماً على من لا يؤمنون بالإسلام الذي أُنزل على قلب محمد ﷺ، لأنه وحده الدين الذي يُخرج الناس من الظلمات إلى النور. أما قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(١)، فالرجس هنا يعني: العذاب، فيكون المعنى: ومثل ذلك الضيق والحرج في الصدور، يجعل الله تعالى العذاب على الذين لا يؤمنون بالإسلام، بعدما جاءهم الهدي، فأبوا إلَّا كفوراً، وما كانت عاقبة كفرهم إلَّا الضلال البعيد.. ويقول الله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٢)، أي هل ينتظر الكفار إلَّا الملائكة تأتي لقبض أرواحهم، أو يمهلون إلى أن يأتيهم عذاب الله، إنْ في الدنيا، أو يوم

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.
(٢) سورة النحل، الآية: ٣٣.

القيامة؟!. وكما يفعل هؤلاء الكفار، فقد فعل الذين من قبلهم من الأمم أو الجماعات السابقة، عندما كذّبوا رسلهم فأخذهم الله بالعذاب الأليم، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون..

٤ ـ الكافر كمن مَثَلُهُ في الظلمات ليس بخارج منها

يقول الله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(١).

يرسم لنا هذا النص القرآنيّ صوراً حسّية شتى: الموت والحياة، والنور والظلام.. أربع صور لا تخلو منها حياة الإنسان، ولكل منها تأثيره البالغ عليه. ففي الموت يفنى جسده وينعدم نهائياً من هذه الحياة الدنيا، وفي الحياة يتجسَّدُ وجوده بكل ما يمتلئ به من الحركة، والنشاط، والحيوية، وذلك منذ تكوينه في بطن أمه، وإلى نهاية عمره، وحلول أجله الذي لا مفرَّ منه..

أما النور فإنَّ فيه دلالة على عيش الإنسان في حركته الدائمة، من الصحة والنشاط والعمل، ومن التأثر بما يحيط به، أو التأثير الذي يحدثه في محيطه، والذي ينطلق، عادةً، من البوتقة الفردية إلى البيئة العائلية، ومنها إلى المجتمع الذي ينتمي إليه، وربما يتسع تأثيره حتى يصل إلى رحاب الإنسانية، وهي حال الأفذاذ والنوابغ الذين يخلفون من الآثار، ما قد يُؤثر على حياة الناس أجمعين..

وأما الظلام فهو على عكس النور، لأنه يعني السكون، وعدم

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

وجود المقومات التي تمكّن من الحركة أو الإنتاج أو التأثير، أي أنه من أهم معوقات الإنسان عن العطاء الذي يمكّنه من التفاعل مع الحياة، في كل شيء قد يصل إليه، أو يحتكُّ به. .

ولعلَّ أهم ما يُريد النص القرآنيّ أنْ يوجهنا إليه من هذه الصور الأربع، وتأثيراتها علينا، هو التمييز بين الكفر والإيمان، مع إثبات صورة عجيبة في أذهاننا وهي إعادة ميت إلى الحياة، وسعيه بين الناس بأفضل مما كان عليه قبل موته. وهذه الصورة المقصود منها الإنسان الكافر، الذي يكون بمثابة الميت في كفره، فيهديه ربُّهُ العليّ الكبير إلى الإيمان، وفي إيمانه تكون حياته. ولكي يظل على هذا الإيمان، فإنَّ الله تعالى قد جعلَ له نوراً دائماً يهديه من عثرات الحياة، وهذا النور هو القرآن المبين بما فيه من العلم، والحكمة، والموعظة، وبما فيه من راحة للأبدان، وشفاء لما في الصدور من الأمراض التي تعتري النفوس، وتسبب باستحكامها فيها الشقاء للإنسان حتى لتحيل ـ أحياناً ـ حياته إلى جحيم لا يطاق. فالقرآن هو هذا النور الهادي، الشافي، وقد جاءت تسميةُ القرآن بـ«النور» في أكثر من آية، كما في قول الله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(1)، وهذا النور ـ أي القرآن ـ يمكن أن يحمله المؤمن في قلبه، وعلى لسانه، وبين يديه، ويمشي به في الناس، تالياً آياته، مستوعباً معانيها، ناشراً أحكامها وعظاتها. . ولكنَّ السؤال هو: هل يمكن أنْ يكون مَثَلُ المؤمن الذي رضي الله تعالى عنه، فأخرجه من الظلمات إلى النور ـ أي من الكفر إلى الإِيمان ـ كمثل من يبقى في ظلمات الجهل والكفر لا يخرج منها؟

---

(1) سورة التغابن، الآية: ٨.

لا، فإنَّ من بديهيات القول أنَّ الظلمة هي عكس النور. وقد وردت في القرآن الكريم تسمية الجهل بالظلمة، مثلما وردت تسمية الإِيمان بالنور.. فيكون الكافر إذاً، هو الجاهل الضال، القابع في غياهب الظلمات لا يبصر عِلماً ربانيّاً، ولا يرى نوراً إيمانيّاً، فلا يهتدي بالتالي إلى حقائق الأشياء، بما يرضي الله تعالى..

وبالمقارنة ما بين المؤمن والكافر، ووصفهما، بالحي والميت، أورد القرآن الكريم هذا الوصف في آيات عديدة، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[(١)].

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾[(٢)].

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾[(٣)].

ومن هنا كان التعبير عن القرآن، والإِيمان، والعلم، بـ«النور» الذي هو الإِبصار والاهتداء. كما كان التعبير عن الكفر، والجهل، والضلال بـ«الظلام» الذي هو بمثابة العمى والتيه، ولذلك سمَّى القرآنُ الكريمُ الكافرَ بـ«الأعمى» الذي تغطي الظلمة بصره وبصيرته، كما في قوله تعالى:

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾[(٤)].

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾[(٥)]، أي مثل من هو أعمى عن هذه الحقيقة الساطعة؟!..

---

(١) سورة النمل، الآية: ٨٠.
(٢) سورة يس، الآية: ٧٠.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٢٢.
(٤) سورة فاطر، الآية: ١٩.
(٥) سورة الرعد، الآية: ١٩.

ولذلك كان الإِيمان ضد الكفر. وكان المؤمنون غير الكافرين في كل شيء.. وكما زُيّن للمؤمنين الإِيمان والطاعات، فكذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون من المعاصي والذنوب.

والله تعالى هو الذي يجعل الإِيمان يعمر قلوب المؤمنين، فكانوا راضين مرضيين؛ بينما تحيط شياطينُ الإِنس والجن بالكافرين، فتوقعهم في الضلال والبهتان، فيعصون الرحمنَ بأقوالهم وأفعالهم، ليعيشوا في الدنيا ضالّين، ومفسدين، وهم في الآخرة من الخاسرين.

٥ ـ المعرضون عن ذكر الله كالحُمر الوحشية التي فرَّت من أسد

يقول الله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ * بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً * كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ * كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾[1].

يبدو جلياً لكل عاقل منصف أنَّ القرآن الحكيم هو الكتاب الذي يهدي الناس إلى الصلة الحق، التي يجب أنْ تربط العباد بربهم وخالقهم، من خلال تبيان العبادات والفرائض التي تؤمن لهم هذه الصلة، وتعينهم على اجتياز الحياة الدنيا بأمانٍ إلى الدار الآخرة.. كما يحدّد لهم، في الوقت نفسه، قواعدَ السلوك الفردية، ومناهج العلاقات العائلية، والمجتمعية والإنسانية التي يريدها مبنيَّةً على روح التآخي، والتآلف والاستقامة بعيداً عن كل ما يسيء إلى الكرامة الشخصية، أو يضر بالحياة البشرية في مسيرتها الدائبة، وفي توجُّهها إلى الله تعالى، بحيث يشكل ذلك كله نسيجاً متكاملاً للحكم بما أنزل

---

(١) سورة المدثر، الآيات: ٤٩ ـ ٥٦.

الله، دون سائر أحكام أهل الأرض.. وعلى الرغم من ذلك فإنَّ معظم الناس يعرضون عن «التذكرة»، أي عن القرآن الذي تُذكِّر آياتُهُ، وتعظ بما هو حق للإنسان، وبما هو واجب عليه، ومن غير أن تنفع مع أكثر الناس هذه التذكرة بشيء!.. فكان لا بدَّ أنْ يلاقوا جزاء إعراضهم - وما يجرُّ إليه - في الآخرة، حيث يتوعّدهم ربُهم العزيز الحكيم بأنَّ أبواب سقر (جهنم) سوف تُفتَّح لهم يوم الدين!.. ولو سئل - يومئذ - أصحاب النار: ما أدخلكم في سقر؟ فسوف يكون جوابهم:

﴿قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾[1].

﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾.. أي حتى أتانا الموت، ثم بعثنا للحساب، فوجدنا ما كفرناه، وكذبنا به، حقاً يقيناً!..

ولكنْ ما نفع استيقانهم بعد الموت، ويوم الحشر بالذات؟! ولماذا لم يعودوا إلى الرشد، قبل الوصول إلى ذلك اليوم، بحيثُ لا يبقون معرضين عن الصلة التي تربطهم بالله تعالى، وهو أهل التقوى والمغفرة، لاسيما وأنَّ القرآن قائمٌ بين أظهر الناس جميعاً، ويمكنهم أنْ يستفيدوا مما يعظهم به من العاقبة الحسنى للذين آمنوا وعملوا الصالحات، ومما يذكّرهم به من أحقيّة البعث الذي هو حق مثلما أنهم ينطقون.. وزيادة في العظة والتبيان، فإنَّ هذا القرآن يشبّهُ حال المعرضين عن آياته، وتدبّر أحكامها ومقاصدها، بالحمير الوحشية

(١) سورة المدثر، الآيات: ٤٣ - ٤٧.

التي تستنفر لمجرد رؤية الأسد، وتفرُّ منه خوفاً على حياتها؛ فهم في إعراضهم اليوم في الدنيا عن الإيمان بالله، وعدم اعتناق الإسلام، مثل الحمير الوحشية تماماً في هروبها، خوفاً من الأسد الذي يفترسها. .

وهذا التشبيه يعتبر من بديع القياس التمثيلي، لأن الإعراض عن آيات الله في قرآنه، هو دليل على الجهل والضلال، فكما أنَّ تلك الحيوانات البرية المستوحشة ـ التي لا تعقل ـ تقودها غريزتها إلى الفرار من الخطر، هكذا، هم، الذين يعرضون عن القرآن، وكأنهم يجدون فيه خطراً على وجودهم، فيستنفرون كلَّ جهودهم لتغييبه عن حياتهم، وحياة غيرهم من الناس! . . وهذا يعني، بطريقة اخرى، أنَّ المعرضين عن ذكر الله ـ وهم أصحاب العقول التي فيها الإِدراك والتميز ـ أضلُّ من تلك الحيوانات العجماء، فهي تهرب من الخطر كلّما داهم غريزتَها شيءٌ منه، بينما هم يعرضون عن القرآن الذي ينقذهم ـ لو اتّبعوه ـ من آثام الدنيا، وعذاب الآخرة. .وهذا، بالإضافة إلى أنَّ تعبير «المستنفرة» أبلغ من «النافرة»، لأنه يعني أنها لشدة خوفها يستنفر بعضُها بعضاً، ويحثه على الهرب، تماماً كما هو حال المعرضين عن الذكر الحكيم، الذين يتواصون، ويحضّون بعضهم بعضاً على الإعراض عنه، ثم ينفرون من ذكر آيات الله بصورة جماعية.

ولكن لماذا هذا التعنت وعدم الإقرار بصدق القرآن، ومن ثم الاستكبار على ما فيه من «التذكرة» والموعظة؟ وماذا يريد أهل الكفر والإلحاد، وأهل النفاق والضلال من كتاب لا يحمل إلا الحق، ولا

يهدي إلّا إلى الصراط المستقيم؟ هل يريد كل امرئ منهم أنْ ينزَّل عليه كتاب من السماء يدعوه إلى الإيمان؟ أم يريد كل واحد منهم أنْ تتنزَّل عليه صحيفة في البراءة، والعفو من العقاب حتى يوحِّد الله، ويكون مسلماً لربّ العالمين؟ أم يطمع كل امرئ أنْ يكون رسولاً يوحى إليه؟ ومحال أن يكون شيء من ذلك، أو أن يُعطى كل امرئ ما يريد، ووفق هواه!.. فالقضية هي أنهم لا يؤمنون بالآخرة، ولا يخافون عذابها، على الرغم مما يذكِّرهم به القرآن بشأنها، وفي كثير من آياته، وسوره.. فإن أعرضوا، وأنكروا «التذكرة» فالذنب يقع على عاتقهم، وسوف يستيقنون من عذاب الآخرة يوم ينالون الخسران المبين، لأن الحق حق، والقرآن هو حق، وهو «تذكرة» لكل عبد منيب، فمن شاء آمن به واتخذ إلى ربّه سبيلاً.. على أنَّ الأمر في نهاية المطاف لا يعود للمعرضين، ولا للناس جميعاً، بل الأمر لله تعالى وحده. ولا يمكن أن يذَّكَّر الناسُ، أو يتذاكروا في أمور الآخرة، وفي حكمة القرآن وعظته، إلّا أنْ يشاء الله لهم ذلك. فهو ـ سبحانه ـ غنيّ عن عباده أجمعين، وهو أهل التقوى والمغفرة. ولا يستأهل أحدٌ من هؤلاء العباد عفو ربه عنه، ومغفرته له، إلا من تنفعه الذكرى لقول الله الكريم: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ * سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ * وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ * قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ * بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ * إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾(1).

---

(1) سورة الأعلى، الآيات: ٩ ـ ١٩.

٦ ـ ومثل الذين كفروا كالسوائم التي لا تعقل

يقول الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾(١).

وهنا تتجلّى أيضاً بلاغة المثل القرآني وهو يجسّد، بالصورة الحسيّة، عدم استجابة الذين كفروا لعقيدة التوحيد، وركونهم إلى التقليد، مصمّين آذانهم عن دعوة الرسل، فمثل الذين كفروا كمثل الراعي الذي يقود قطيعاً من الأنعام، فلا تسمع منه إلّا صراخاً ونعيقاً، ولا ترى منه إلّا تهويلاً بالعصا، أو رشقاً بالحجارة.. إلّا أنها لا تفهم من ذلك كله شيئاً، لأنها مخلوقات غير مزودة بملكة الإدراك والتمييز.. هكذا هم الذين كفروا، صمٌّ عن نداء الإيمان، بكم عن النطق بكلمة الحق، عميٌ عن التبصّر بآيات الله تعالى.. إذن فهم لا يعقلون الحقيقة، ولا يتبيَّنونُ الطريق السويَّ الذي يجب أنْ يسيروا عليه، بل انقادوا لدعوات الضلال، والباطل، فحق عليهم قولُ الله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

٧ ـ لا يدخل الكافرون الجنة حتى يدخل الجملُ في ثقب الإبرة، وكذلك جزاء المجرمين

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾(٢).

يجزم هذا النص القرآني، وبصورة قاطعة، أن الذين كذَّبوا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧١.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٤٠.

بآيات الله، واستكبروا عن اتباعها، لا تُفتَّح لهم أبواب السماء ـ التي تفتح للأرواح والنفوس التي يرحمها الله تعالى ـ عندما يعرج الملائكة بها حال الموت، لأنَّ أولئك كانوا من أخبث الأنفس، إذْ أنكروا الحق لمَّا جاءهم، واستكبروا عنه، فحقت عليهم اللعنة. . فعن البراء بن عازب: إن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر، وأنه يُصعد بها إلى السماء، فلا تمرّ على ملأ من الملائكة إلَّا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان (بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا)، حتى يُنتهى بها إلى السماء الدنيا، فيُستفتح له، فلا يُفتح له. . ثم قرأ رسول الله ﷺ: «**لا تفتَّح لهم أبواب السماء**»(١).

وبما أنَّ أبواب الرحمة في السماء لا تُفتَّح للكافرين، فصار من المستحيل عليهم دخول الجنة. وهنا يضرب الله تعالى أدقَّ المثل على ما هو مستحيل، وغير قابل للتحقق إذ يقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾. . فسَمُّ الخِياط هو ثقب الإِبرة، وهو ما يضرب به المثل عن ضيق المسلك، فيقال «أضيق من خرم الإِبرة»؛ كما أنَّ جسم الجمل هو مثال عن كبر الأجسام الحية، فيقال: «أجسام الجمال وأحلام العصافير». . والروعة التي تتبدى في هذا المثل القرآنيّ أنه يحيل مفهوم «الاستحالة» من فكرة مجرَّدة إلى واقع محسوس، وليس أدلَّ على ذلك من استحالة دخول الجمل، بجسمه الكبير، في ثقب الإِبرة الصغيرة، التي نخيط بها ثيابنا، فشرط الاستحالة غير قابل للتحقق على الإطلاق، إذ لو تصوَّرنا مشهد الجمل أمام ثقب هذه الإِبرة، ولو تصوَّرنا أنه حين يتسع هذا الثقب لاستيعاب الجمل، فحينئذٍ يمكن أنْ نتصوَّر بأنَّ أبواب الرحمة في السماء يمكن

(١) شعب الايمان للبيهقي حديث رقم ٤٢٣

أن تفتَّح للذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها، وحينها فقط يقبل دعاؤهم أو تقبل توبتهم، فيدخلون الجنة. . أما الآن، وإلى أنْ يصير ممكناً دخول الجمل في سَمِّ الخِياط ـ وهذا محال قطعاً ـ فإنَّ الكافرين سوف يمتنع عليهم دخول الجنة، مما يعني أنهم سوف يقبعون في النار، وسوف يخلدون فيها، لأنَّ شرط الاستحالة مطلق، وغير قابل للتحقق أبداً. . .

وكما يكون جزاء الذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها عدم دخولهم الجنة، كذلك يجزي الله تعالى المجرمين على اختلاف أصنافهم، وفعالهم الجرمية، سواء أكانوا كافرين أو مشركين، منافقين أو ظالمين، فاسقين أو فاسدين ومفسدين. . فكلّ يؤخذون بذنوب إجرامهم، الذي يحرّم عليهم دخول الجنة، ليكون، بالتالي جزاؤهم النار، وبئس المصير وهو ما يتأكّد في موضع آخر من القرآن بقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾[1]. . وهنا الطامة الكبرى التي يذوقون فيها طعم العذاب ومرارة الكفر، فهم لا يقضى عليهم، فيموتوا، ويعودوا تراباً، أي إلى الأصل الذي خلقوا منه، ولا يخفف عنهم شيء من عذاب النار الذي هو جزاء كل كفور، ممَّن مردوا على الكفر والظلم، فيبقون في النار خالدين فيها ما شاء الله تعالى. .

٨ ـ وعيد الله تعالى بالتدمير على الكافرين أمثال الذين من قبلهم

يقول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٦.

﴿قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا۞ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾[1].

لا حاجة للتكرار بأن الجماعات والأقوام البشرية التي مرَّت على هذه الأرض منذ خلق آدم عليه السلام، كانت كثيرة، ومتعددة الأجناس، والعقائد، والمذاهب الفكرية، وطرائق العيش... ولكن وفقاً للتبيان القرآنيّ، فإنَّ الدَّمار والهلاك كانا دائماً يحلّان بالأقوام الذين يكذِّبون الرسل والنبيين، ويصرّون على الكفر والضلال.. لأنَّ المعركة الفعلية في هذه الحياة الدنيا هي المعركة القائمة بين الإيمان والكفر، هكذا كانت، وستبقى ما دام في الأرض أناس مؤمنون، وآخرون كافرون.. وهذا ما تلفتنا إليه الآيتان الكريمتان، وهما تشيران إلى الكافرين عندما وقفوا في وجه الدعوة الإسلامية، يحاربونها ويحاولون القضاء عليها، متوسلين لذلك كلَّ ما لديهم من قوى النفوذ، والاستكبار والقهر، وكلَّ ما يملكون من المال، والسلاح والعتاد.. بحيث تأتي النصوص لتنقضَّ على أولئك الكافرين الذين يظاهرون على أهل الإيمان بالقوة، وهي تشد أنظارهم إلى تلك المعالم الباقية من مواطن الذين من قبلهم، فيروا آثار ما حل بهم من الهلاك، والإفناء تحت ركام التدمير الذي أصابهم، ثم تعود لتقرّر أنَّ المصير ذاته سوف يكون للكافرين ـ ولكل الذين كرهوا ما أنزل الله ـ إنْ هم أصرُّوا على الكفر، وعلى محاربة الله ورسوله، من خلال حربهم على المؤمنين، أي أنهم سوف يلاقون عاقبة الذين من قبلهم، وهم الذين ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾.

---

(1) سورة محمد، الآيتان: ١٠ و١١.

وفي نفس السياق من الآيات المبينة في «سورة محمد» نجدُ الوعدَ للمؤمنين بالنصر، قد سبق على التهديد والوعيدَ للكافرين بالإضلال وإبطال أعمالهم، يقول الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ * أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾[1]، فالنتائج المترتبة على أعمال الذين آمنوا: النصر، شرط أن ينصروا دين الله، ويجاهدوا في سبيله.. وبالمقابل، فإنَّ النتائج المترتبة على أعمال الذين كفروا: التعاسة، وخيبة الأمل من جراء إحباط أعمالهم، أي إبطالها، وإبطال كل ما كان لها من مفاعيل الكراهية لما أنزل الله تعالى من الأحكام، والتكاليف، أو الدعوة للإصلاح..

ولكن لماذا ينصر الله المؤمنين، ويقهر الكافرين ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[2] وهنا ظهر الحق الذي يعلو على الباطل فيدمغه؛ فمن كان مؤمناً، كان الله مولاه، فهو إذاً في عين الله، والنصر له من الله؛ بل والحكمة توجب «بأنَّ الله مولى الذين آمنوا»، لأنهم هم الذين يحملون دينه، ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيل نصرة هذا الدين. أما الكافرون فلا مولى ولا نصير لهم، إلَّا من أنفسهم، ومن أجل مؤازرة قضاياهم لبعضهم بعضاً، كما يدل عليه قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[3]، أي

(١) سورة محمد، الآيات: ٧ ـ ١٠.
(٢) سورة محمد، الآية: ١١.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢٩.

كما متَّعنا عصاة الانس والجن بعضهم ببعض[١]، كذلك نجعل الولاية، والسلطان لبعض الظالمين على بعض بما كانوا يكسبون من المظالم والمعاصي. . أما معبوداتهم فهي أقل، وأحقر شأناً من أنْ تكون عوناً لهم، أو تمدَّهم بالنصر. .

وهذا هو منهج الحق الثابت: أن يكون الله تعالى هو مولى الذين آمنوا، كي يعزَّهم، ويرفع شأنهم، وأنَّ الكافرين ليس لهم مولى قادراً على أنْ يحقق لهم أية عزَّةٍ أو رفعةٍ، لأنَّ العزّة لله جميعاً، وهو يعزّ من يشاء، ويذل من يشاء، مصداقاً لقوله الكريم: ﴿ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢].

الفقرة الثالثة ـ النتائج المترتبة على أعمال الكافرين يوم الحساب

١ ـ مثل البعوضة امتحان للعباد

لعلَّ من البديهي القول بأنَّ الأعمال التي تصدر عن الناس، غالباً ما تنبىء عن صفاتهم وتوجهاتهم، وعمّا تنطوي عليه نفوسهم؛ فأعمال الإنسان هي التي تدل عليه إنْ كان كافراً أو مؤمناً، بخيلاً أو كريماً، جباناً أو شجاعاً، عادلاً أو ظالماً، حكيماً أو جاهلاً. . الخ. .

ولكي يمكن أنْ نتبين المؤمنين من الكافرين، فإنَّ الله تعالى

---

(١) كما سبق بيانه في الآية ١٢٨ من سورة الأنعام بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.

يضرب مثلاً ما، بالبعوضة، فأمَّا الذين آمنوا فيعلمون أنه المثل الحقُّ من ربِّهم، وليس فيه ما يدعو للغرابة أو الاستهجان، طالما أنَّ البعوضة من خلق الله، وكلُّ ما خلق الله يمكن أنْ يكون مضربَ مثلٍ، ولا غرابة في ذلك؛ وأما الذين كفروا فيضلّون عن الغاية التي يرمي إليها هذا المثل، فيقولون: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾؟

يقول العزيز الحكيم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾(١).

وإنَّ من المدلولات لهذا المثل ما نجد في الحياة من حولنا، والذي يدلنا على أنَّ صغار الأشياء قد يكون لها فوائدها العظام!.. فهلاَّ تفكرّت، مثلاً، في هذه العين التي هي في الوجه كم تبدي لك من مشاهد، ولولاها لكانت الحياة ظلاماً دامساً؟ وهلَّا تفحصت هذه الإبرة الصغيرة، كم تخيط من أثواب وألبسة للناس ولولاها لكادوا أنْ يكونوا حفاةً عراةً؟ أم هل عرفت بأنَّ في الورقة الخضراء من الشجر والنبات يكمن التمثيل الكلوروفيليّ، الذي ينتج عن تفاعله غاز الأوكسيجين الضروريّ لحياة الكائنات الحية؟ فهذه الورقة الصغيرة هي التي تعطينا الأوكسجين وتمتصّ ثاني أوكسيد الكربون أثناء النهار، فتخفّ أضراره عن الناس وهم يروحون ويجيئون إلى معايشهم، ثم هي نفسها التي تنفث، ذلك الغاز السام في الليل ـ وهم في حال نيام

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦. (ولقد أتينا على ذكر هذا المثل من قبل، للتدليل على أنه إذا كان المراد من المثل كشف المعنى، وبيان الغرض، فلا شيء يحول دون التمثيل بأصغر المخلوقات).

وسكون ـ لتأخذ بديلاً عنه الأوكسيجين فتبقى على اخضرارها. . أليس في ذلك آية كبرى لقوم يعقلون؟ أم هل رأيت إلى هذه الزهرة الجميلة، كم هي على صغرها، فوّاحةً للعطر، بهيجةً للنظر، باعثةً للراحة في النفوس؟ أم هل تأملت النحلة ـ الحشرة الصغيرة ـ التي تصنع عسلاً صافياً فيه لذة وشفاء للناس؟ أم هل تلمَّست عمل النملة، وهي أصغر بكثير من النحلة، لتعرف كيف تُقيم مجتمعاً منظَّماً يدهش العقول؟

وقِس على ذلك كلَّ الأشياء الصغيرة التي يمتلئ بها المحيط من حولنا، فإنَّ لنا فيها منافع كثيرة، وهي عظة بذاتها على أهمية هذه الأشياء، ولذلك كانت مدارَ اهتمام الناس، فضربوا بها الأمثال للتدليل على أمور هامة، أو على معاني تلك المنافع في حياتهم، كما فعل الفرزدق حين ضرب المثل على الذلّ باليربوع الصغير، فقال:

وهل شيء يكون أذلَّ بيتاً من اليربوع يحتفر الترابا؟

وإذا كان الله العليم الحكيم قد جعل لكل شيء قيمة وقدراً، فلا ينبغي للإنسان أنْ يستهين بشيء هو من خلق الله تعالى، لا سيما وأنه جعل في كل خلق حكمةً بالغةً، قد نهتدي إليها، وقد لا نعرفها أبداً. . ولذلك كان التنزيل المبين وفيه المثل بالبعوضة، على الرغم من ضعفها ووهنها، كي نستدل به على ما أراد الله بهذا مثلاً!.

ومن هذه الدلالات، إحدى الحقائق التي يطلقها القرآن الكريم، وهي أنَّ الخالق العظيم لا يستحي أنْ يضرب مثلاً ما، بشيءٍ من مخلوقاته، حتى ولو كان من أصغر الأشياء وأضعفها.

ذلك أنَّ الحياءَ من طبيعة المخلوقات، حتى ليقال بأنَّ بعض النبات، ولاسيما الورود، تشعر بالحياء، وكذلك الحيوانات الأليفة

والمتوحشة، فكيف بالناس والمؤمنين بالذات، من عباد الله، الذين يرون بأنَّ الحياء فرض، بل و«شعبة من شعب الإيمان» كما كان يقول رسولهم الكريم ﷺ؟

فالمؤمنون يعتقدون، يقيناً، بأنَّ ربَّهم تبارك وتعالى هو السميع لجميع أقوالهم، العليم بكل فعالهم، فلا يأتون بشيء إلّا ويرجون فيه رضى مولاهم العزيز، واجتناب غضبه، فكان حياء المؤمنين من ربّهم، أهم العوامل المانعة، بل والرادعة لهم عن ارتكاب المعاصي والذنوب. وما ذلك إلا لأن الاستحياء هو الانقباض عن الشيء، فإذا ما أحسَّ المؤمن بالحياء من فعل هذا الشيء الذي ينهاه ربُّه عنه، أو من عدم فعله لشيء يأمره ربُّه القيام به، انقبض عما هو مأمور بتركه، وأقدم على ما هو مأمور بفعله، وإلا شعر في قرارة نفسه بأنه ارتكب مخالفة لأوامر الله تعالى ونواهيه، أو مخالفة للنواميس أو القوانين، أو الأعراف والنظم التي يريده تعالى أنْ يسير عليها، أو يتآلف مع تناسقها في بناء الحياة والكون.. وهذا كله لا ينطبق على الله (جلت عظمته) لأنه خالق السنن، والنواميس والأعراف والقوانين والنظم، وهو الذي يسيّرها، ويديرها ويدبرها لقوام الوجود كله وانتظامه.. وهذا ما أراد اللَّهُ ـ جلَّ جلاله ـ أن يبيّنه لنا، منزّهاً نفسه عن الاستحياء، فهو لا يستحي أن يضرب مثلاً ما، أيّاً كان هذا المثل، ولو كان بالبعوضة الصغيرة، الضئيلة، أو بما هو أكبر، أو أجلّ شأناً منها.. وأما الغاية من هذا المثل فلكي يجعله امتحاناً للعباد، فيتميز به المؤمنون عن الكافرين..

إذاً فالعبرة في التمثيل بالشيء لا علاقة لها بشكله أو حجمه أو نوعه، بقدر ما تستهدف صفاته ومعانيه، لأن الأمثال، أصلاً، وسائل

للتنوير والتبصير، وليس في ضربها ما يعيب الضارب، أو أنْ يحقر الشيء المضروب به. . واللَّهُ تعالى يريد بهذا المثل (البعوضة)، اختبار القلوب، وامتحان النفوس؛ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ﴾، لأنَّ إيمانهم بربّهم يجعلهم يتلقون كل ما يصدر عنه بالقبول واليقين والتسليم، فهو الأمر من صاحب الشأن، فكان إيمانهم نوراً في قلوبهم، وتفتحاً في مداركهم. ويدخل في هذا الإِيمان، التصديقُ بمحمد ﷺ رسولاً من الله، وبشيراً ونذيراً للعالمين، والتصديقُ بالقرآن الذي نزل على محمّدٍ من ربه جملةً وتفصيلاً، لا الإيمان ببعضه، وعدم الإيمان بالبعض الآخر، كما كان يفعل اليهود وهم يؤمنون ببعض التوراة ويكفرون ببعضها. . هذا من ناحية المؤمنين. .

أما الذين كفروا فيقولون: ماذا أراد الله بهذا مثلاً؟

إنه سؤال من لا يرجون لله وقاراً! . . (أستغفر الله)، ولا يتأدَّبون بالأدب اللائق بالعباد تجاه مقام ربّهم العليّ العظيم، ولا يتبَّينون حكمته في ضرب المثل بالشيء الصغير أو الكبير. . يقولون قولهم ذلك ـ بجهل وقصور ـ في صيغة الاعتراض والاستنكار، كأنما يريدون أنْ يزرعوا التشكيك، في نفوس المؤمنين، بصدور مثل البعوضة عن الله تعالى، وما ذلك إلَّا لعدم تدبرهم للمثل، وإنكارهم للحق، لأنَّ كفرهم يضّلهم عن إدراك حكمة الله من هذا المثل. .

ويأتيهم الجواب ـ على شكل التهديد والتحذير ـ بما وراء المثل من أمرٍ بالتفكّر والتدبُّر: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

فالهدى والضلال من أمر الله. . وهو تعالى يضرب للناس

أمثالهم، فتزيد المهتدين هدىً، وتزيد الضالين ضلالاً.. فأما الذين آمنوا فيعلمون أنَّ المثل من ربّهم هو حقٌّ، لأنه صادر عن الحق تبارك وتعالى، وهو هداية لأنه ينشىء حقيقة قد تكون خافية على الناس.. وأما الذين كفروا، فهم، في الأصل، لا يؤمنون بآيات الله، فإذا ورد مثل ما في سياق بعض الآيات، فإنهم يثيرون حوله الاستنكار والاستهجان، حتى ينفروا الناس عن الحقّ، أو الحكمة، أو العظة التي يتوخّاها المثل القرآني.. والدليل أنّه لما أنزل الله تعالى المثل بالذباب،[(١)] أو المثل ببيت العنكبوت،[(٢)] قال الكفار، والمنافقون واليهود: ماذا أرادَ الله مثلاً بهذه الأشياء الخسيسة؟! ورداً على استنكارهم أنزل الله تعالى، قولَهُ المبين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ﴾..

ولكي يكون نهج المثل القرآني واضحاً في الدلالة والمعنى، جاء التعقيب بقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.. فالله سبحانه يضلُّ بهذا المثل كثيراً من الذين لا يقبلون ما يأتي به الله، فهم في الضلال والنفاق والكفر يعمهون، فيزيدهم المثل ـ بالأشياء الصغيرة ـ ضلالاً.. ويهدي سبحانه بهذا المثل كثيراً من الذين يدركون حكمة الله تعالى وعظته، فهم في الهدى والتصديق والإيمان ينعمون.. وما يضلُّ به إلّا

---

(١) قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ [سورة الحج، الآية: ٧٣].

(٢) قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة العنكبوت، الآية: ٤١].

الفاسقين، الذين فسقت قلوبهم من قبل، فخرجوا عن طاعة ربّهم، وعن الطريق المستقيم الذي يهدي إليه قرآنه الكريم. أما صنعة هؤلاء الفاسقين، فيبيّنها قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾(١).. فأولئك الفاسقون الذين يتصفون بمثل هذه الصفات الخبيثة، هم الخاسرون، لأنَّ مصيرهم إلى النار في الآخرة.. ثم إنَّ من الدلالات التي يحملها هذا المثل القرآني تبيان قدرة الله في الخلق، فالبعوضة، وإن كانت حشرة صغيرة طائرة، إلّا أنها مثال للعارفين الذين يستدلون ممّا في المخلوقات من الآيات والأدلة التي توحي بأنَّ الله تعالى هو الخلّاق العليم، فقد روي عن جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «إنما ضرب اللَّهُ تعالى هذا المثل لأنَّ البعوضة على صغر حجمها، خلَقَ الله فيها جميع ما خلق في الفيل مع كبره. فأراد الله تعالى أنْ يُنبّه بذلك المؤمنين على لطيف خلقه، وعجيب صنعه، وعظيم قدرته».

٢ ـ أعمال الكافرين كرمادٍ تذروه الرياح في يومٍ عاصف

يقول الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾(٢).

لا ريب بأنَّ الأعمال هي خير ما يعبّر عن شخصية الإنسان، ولا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١٨. [لقد سبق البحث في هذا المثل لبيان التأثير الذي تحدثه الأمثال القرآنية في النفس].

سيما لناحية ارتكازها على الإيمان أو الكفر، فإنْ كان الإنسان مؤمناً، أشاعَ الخير بين الناس، بينما تنعكس أعمال الكافر عليهم شرّاً محضاً..

وكما أنَّ الأعمال هي مرآة للنفس، وتعبير عن أفكار الإنسان ومفاهيمه، وبخاصة العقيدة التي يؤمن بها، فإنها أيضاً طريقه إلى الآخرة، وسبيله إلى المصير الذي ينتظره.. فكيف تتبدَّى أعمال الكافرين يوم الحساب، حيث يقف جميع الناس لرب العالمين؟!

لقد ضرب الله تعالى المثل على أعمال الكافرين بالرماد الذي تذروه الريح في يوم عاصف، فتبدّده هباءً منثوراً، وكأنه لم يكن موجوداً من أصله. وهذا يعني أنَّ كلّ عملٍ، أو سعيٍ أو جهدٍ لا يقترن بنيَّة الإخلاص لله تعالى، فلا نتائج إيجابية له في الآخرة، لأنه سوف يقع في نهاية المطاف في ميزان العدل الإلَهي، والله تعالى وحده، هو الذي يحاسب الإنسان على أعماله..

وتظهر الصورة في هذا المثل نقيةً وجليةً، كما في سائر الصور التي تحدد أطرها ومضامينها الأمثال القرآنية؛ فالرماد بطبيعته هشٌّ وخفيفٌ، لا يصمد أمام حركة من الإنسان، أو عامل من عوامل الطبيعة، فكيف إذا فَجَأَهُ يوم عاصفٌ لا تترك رياحه العاتية أيّ شيءٍ تقع عليه إلّا هدمته، أو اقتلعته، أو بدَّدته، فهل يبقى شيء من هذا الرماد، أم تذروه تلك الرياح في طريقها، وتحيله إلى ذرّاتٍ مبعثرةٍ، تقذفها إلى بعيدٍ بعيدٍ، حتى تصير وكأنها في عدم؟!.. فأعمال الكافرين كمثل هذا الرماد.. فقد تتكاثر وتتنوّع، وقد يكون لها آثارها الإيجابية أو السلبية في الحياة الدنيا، ولكنها تبقى بلا أدنى فائدة أو نفع يوم الحساب، لأنها إن كانت إيجابية فهم قد نالوا جزاءهم عليها في الدنيا من الشهرة أو

الجاه، أو المال. . أما في الآخرة، فهم لا يقدرون ممّا كسبوا في دنياهم أن ينالوا أيَّ شيءٍ من أجرٍ، أو ثواب، لا بل وترتدُّ عليهم أعمالهم السيئة، يومئذٍ، خسراناً مبيناً، باعتبار أنَّ الكسب الحق، والفوز العظيم الذي يرجوه الإنسان من أعماله، لا يكون إلّا ثواباً من الله تعالى، وهو سبحانَهُ، الذي يكافىء به عباده الصالحين. والمعنى أنَّ أعمال الكافرين التي تقوم على عدم الإيمان بما جاءت الرسالات السماوية به، وتكذيبها، ومناهضتها، هو ما يجعلها أعمالاً إجرامية، مما يُرتب على عاتق أصحابها العقاب الذي يستحقون يومَ الحساب. . وبذلك تتبدّد كل نتائج إيجابيةٍ لأعمال الكافرين التي قاموا بها في الدنيا، وتذهب جهودهم معها عبثاً، كما يبدّد الريح في يومٍ عاصف الرمادَ الهشَّ الخفيف. . ولو أنصف الإنسان نفسَهُ من نفسه، لوجب عليه أن يتبصَّر بالمردود لأي عملٍ يقوم به تجاه نفسه، أو تجاه الآخرين؛ فما كان من أعماله خالص النية لوجه الله تعالى، موافقاً لشرعه، كان مقبولاً، ونال الثواب عليه؛ وما كان منها لغير الله عزَّ وعلا، بل كان مقصوراً على طلب متاع الحياة الدنيا وغرورها وحدها، فهو غير مقبول عند الله، أصلاً. . ومثل تلك الأعمال التي يُضلُّ بها الكافرون غيرهم، ويكون من شانها الإفساد بين الناس عموماً، والمؤمنين خصوصاً، هي التي تضع على عاتق أصحابها أعباءً ثقيلة من الخطايا والذنوب وتجعلهم مسؤولين يوم القيامة عمَّا كانوا يفترون به على الناس مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾(1).

---

(1) سورة العنكبوت، الآيتان: ١٢ و١٣.

فهلاّ وقف الإنسانُ وقفة تفكيرٍ وتقييم للإعمال التي يقوم بها، ثم تأمَّل في المصير الذي سوف يؤول إليه؟!..

وخلاصة القول أنَّ هذا المثل ينطوي على الأساس العقائدي وعلى نتيجة كل ما يقوم به الإنسان، فما كان عملاً غير مبنيّ، على قاعدة من الإِيمان بالله تعالى، ولا يتمسَّك بالعروة الوثقى التي تصل العمل بالباعث، وتصل الباعث بالله تعالى، يكون عملاً مفككاً كالهباء والرماد، لا قوام له ولا نظام، إذ ليس المعوَّل عليه هو العمل وحده، ولكنَّ الباعث على العمل هو الأهمّ والأجدى، لأنَّ العمل حركة آلية، لا يختلف فيها الإِنسان عن الآلة إلّا بالباعث والقصد والغاية، فإذا كان الباعث على العمل هو الإيمان بالله كان جزاؤه في الآخرة فوزاً عظيماً، أما إذا كان الباعث على العمل لا صلة له بالله، فإنه يذهب أدراج الرياح، ويؤدي في الآخرة إلى الخسران المبين. ومن هنا كان التعقيب على أعمال الكافرين بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ أي الضلال عن إدراك الحقيقة، والضلالُ عن الإِيمان، والضلال عن الإصلاح الذاتيّ والإصلاح بين الناس وكل ذلك من الضلال البعيد الذي يوقع في المهاوي السحيقة.

ألا، فليتأمّل الإنسانُ مشاهِدَ وصورَ القرآن الكريم، ليتبيَّن له الرشدُ من الغيّ، وليهتدي إلى طريق الخلاص قبل فوات الأوان.

٣ ـ أعمال الكافرين كسرابٍ بقاعٍ يحسبه الظمآنُ ماءً، أو كظلماتٍ بعضها فوق بعض

يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ

ٱلْحِسَابِ ۞ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾[1].

وهذا مثال آخر، يسوقه القرآن الكريم لإظهار أعمال الكافرين من حيث اعتبارها عديمة الجدوى كالسراب الخادع، أو من حيث الإطار الذي تتجسَّدُ فيه وكأنها تُزاول وسط ظلمات تراكمت بعضها فوق بعض، لا تتيح النفاذ منها لأدنى بصيص من نور، فيأتي التشبيه مطابقاً للنتائج التي أفرزتها تلك الأعمال.

ولكي يمكن استيعاب ما يرمي إليه المثل القرآني هنا، لا بدَّ من الإشارة إلى النصوص التي تسبقه، والتي تبيّن بعضاً من صفات المؤمنين، وذلك بقول الله تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۞ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۞ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2].

.. فالمؤمنون رجال يدأبون على ارتياد المساجد، التي أذن الله تعالى أنْ ترفع بيوتاً للعبادة، والطاعة والطهر، يذكر فيها اسم الله، فيوحّدونه، ويقدّسونه، ويسبحون بحمده في أوقات الغدو والآصال، لا تلهيهم مشاغل الدنيا مهما عظم شأنها، ولا تلهيهم تجارةٌ أو بيع مهما بلغت مكاسبه، ولا غير ذلك من المتاع والزينة.. لا شيء من ذلك يليهم عن ذكر الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، يخافون يومَ

---

(١) سورة النور، الآيتان: ٣٩ و٤٠.

(٢) سورة النور، الآيات: ٣٦ ـ ٣٨.

القيامة الذي تتقّلب فيه القلوب والأبصار بين الخوف، والرجاء، متطلّعين إلى رحمة الله الكريم، ليجزيهم في ذلك اليوم أحسن ما عملوا في الدنيا، بل ويزيدهم من فضله أجراً وثواباً وذلك هو الفوز العظيم. . .

أرأيت أيها الإنسان ما يوّرث الإيمانُ الصادق بالله، والاعترافُ بهباتِهِ ومِنَنِهِ، والالتزامُ بأوامره ونواهيه، والاستدامةُ على ذكره تعالى، وحمده وشكره. . من فضلٍ يناله الذين آمنوا وعملوا الصالحات؟. فالله سبحانه وتعالى يكفّر عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيئاتهم ويجزيهم أحسن الذي كانوا يعملون. . وهذا ما يرجوه المؤمنون من ربهم تبارك وتعالى يوم الدين. .

وأمّا الذين كفروا فأعمالهم خادعة مضلّلة لهم، لا نفع يرتجى، ولا غاية تؤمل منها، إلّا الغاية التي يبلغها الظمآن باندفاعه إلى سراب خادعٍ، حيث لا يجد إلّا انعكاس الشمس، في فلاةٍ جدباء مقفرة، يركضُ فيها لاهثاً وراء قطرة ماءٍ يبل بها ريقه؛ ولكنَّه لا يجد شيئاً، إلا ذلك السراب الذي خدع حواسَّهُ، وقاده إلى الفراغ، وخيبة الأمل. وقد اختار المثلُ القرآنيُّ الظمآنَ ليبيّن عطش الذين كفروا للحصول على المكتسبات الدنيوية، التي سرعان ما تزول بموتهم، ليلاقوا، من ثمَّ، ثمرة أعمالهم خسراناً مبيناً في الآخرة. فهم يلهثون وراء متاع الحياة الدنيا، ويكدون، ويجهدون أنفسهم في الركض وراء الأعمال، وحيازة الأموال والممتلكات، وكثيراً ما يكابدون المشقات والأتعاب في سبيل ذلك. . وقد يشاء العزيز الحكيم أنْ يعطيهم ويملي لهم فوق ما يحتسبون. إلّا أنَّ ما يملكون من الدور والقصور والمزارع، وما يتّجرون به من المواد، وما يستثمرون من الاموال في البورصات

والمصارف، ليس حقيقةً في صالحهم، لأنه تعالى عندما يعطي الكافرين، فإنما يفعل ذلك كي يمدَّهم في طغيانهم يعمهون. . ولكن عندما يأتي الحساب يوم القيامة، فإنهم لن يجدوا شيئاً من كل مكتسباتهم وإنجازاتهم في الدنيا، لأنها ذهبت منذ خلَّفوها وراءهم، بل ووجدوا عواقبها الوخيمة حاضرة بانتظارهم لأنها كانت جميعاً أعمالاً مبنية على الكفر بربِّهم، فوفَّاهم ربهم جزاء ما كانوا يعملون، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[1].

فالحساب آتٍ لا ريب فيه، والله سريع الحساب، فلا يشغله حساب عن حساب، بل يحاسب جميع خلقه، وعباده في حالة واحدة. . وقد سئل أميرُ المؤمنين عليٌّ عليه السلام: كيف يحاسبهم اللَّهُ في حالة واحدة؟ فقال: «كما يرزقهم في حالة واحدة». .

فأعمال الكافرين لا يؤمل منها خيرٌ ينفعهم يوم الحساب، لأنَّ مثلها كسراب الماء الخادع، الذي لا يحظى منه الظمآن، وهو يلهث وراءه في قاعٍ خاوٍ من الأرض، إلا على الإرهاق وزيادة الظمأ، وربما الهلاك. .

وكي تزيدنا النصوص القرآنية بياناً عن أعمال الكافرين، فإنها تشبهها ـ بالإضافة إلى السراب الخادع ـ بالظلمات الداكنة في أعماق بحر لجيّ، هبت عليه الرياح العاصفة فجعلت أمواجه تتلاطم، ويعلو بعضها بعضاً وسط ليلٍ حالك الظلام، فلا يُرى فيه شيء، ولا يسمع إلّا أصوات الأمواج المتلاطمة، ومن فوقها سحاب متراكم، هو أيضاً

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

قاتم الظلمة لشدة سواده. . فهذه الظلمات في جوف البحر، وعلى سطحه، وفي ثنايا أمواجه، وفي السحاب من فوقه تجعل الجو كله ظلاماً بظلام، تستحيل معه الرؤية، وتجعل التائه في وسط هذه الظلمات يعاني من الخوف والمرارة والألم ما لا يطاق، حتى أنه لا يكاد يرى يده لو حاول أنْ يرفعها ويقربها من ناظريه، من شدة الظلمة، مما يفقده كل أملٍ بالنجاة. . ولو أمعنا النظر في دقة التركيب لهذه النصوص القرآنية لاستحال على أي تصور ذهنيّ أن يجسّد هذه الحالة الرهيبة من الظلمات العاتية التي تجمعت لتحيل المساحات الشاسعة التي احتلتها إلى ليلٍ حالكٍ، قاتم السواد، تتصارع فيه الحركات، كتصارع الأمواج المتلاطمة في ظلمةٍ، فوق ظلمة، فوق ظلمة! . .

وعلى هذا النحو تقدم لنا هذه النصوص المجيدة مثلَيْنِ عن أعمال الكافرين، فهي لا تقف عند تشبيهها بالسراب الخادع من حيث آثارها وعاقبتها عند الله تعالى، بل وتقذفُ بأصحابها في ظلمات الكفر والضلال التي تغشى العيون وتعمي البصائر، فلا يعود الكافرون يرون شيئاً من نور الحق المبين، الذي كان كفيلاً بأنْ يهديهم إلى الحق والصواب فيما لو اتبعوه.

﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾، ومن لم يهده اللَّهُ تعالى فما له من هادٍ. . وهكذا يضربُ اللَّهُ تعالى لنا مثلين للتدليل على المعرضين عن نور الحق، وهدي الإيمان. .

فالمثل الأول يبيّن حال من يظن نفسه أنه على شيء، ولكنه عند انكشاف الحقائق يجد أنه كان ضالاً مضلّلاً، وأنَّ ما اتبع من العقائد الفاسدة، وما قام به من الأعمال المبنيّة على عقائده كانت بدعاً وأهواء

في ميزان العدل الإلٓهيّ. لذلك يشبهها القرآن بالسراب الذي يظنه الظمآنُ ماءً.

وكما هي أعمال الكافرين، كذلك سائر الأعمال التي تخالف شرع الله، فهي لا تنتج إلّا الحسرةَ والخسران يوم الحساب، لأنَّ الجزاء الذي سوف يلاقيه أصحاب تلك الأعمال هو العذاب المهين..

أما المثل الثاني فينطبق على حال الذين عرفوا الحق، ولكنهم آثروا عليه الباطل، فتاهوا في ظلماتٍ ثلاث: ظلمة الجهل، وظلمة النفس، وظلمة المصير.. فهم لم ينتفعوا بعلمهم الذي تعلّموه، فغدوا شرًّا من الجاهلين. وصار مثلهم كالتائه في بحرٍ لُجيّ، تكتنفه الظلمات، ومن فوقه السحب السوداء الداكنة، المتصلة بظلمات البحر حتى تسد عليه كل منافذ الرؤية أو النور، فكانت تعبيراً عن ظلمات النفس التي يشتد فيها الكفر حتى لا تعود قابلة لأية توبةٍ، أو طلب مغفرة، أو الرجوع إلى الإيمان..

وفي المثلين أيضاً دلالات أخرى عظيمة ومفيدة.. فذكر الماءِ وحاجة الظمآن إليه، يوحي بأهمية الماء للكائن الحيّ. وذكر البحر يبين مدى أهميته ـ في خواصه وعناصره التي يحتويها ـ في توفير الخير والرزق للإنسان. ومن هنا كان الماء هو أصل الحياة على هذه الأرض، كما يبّينه ربّ العالمين: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾. أما مثل السراب فيجعلنا نتصوّر الفراغ الذي يملأ قلب الإنسان؛ وكذلك مثل الظلمات التي نتصوَّر معها الشقاء الذي يحيق بالإنسان. وكلاهما ـ الفراغ والشقاء ـ عاملان مهمان من العوامل التي تُعجّل في فناء

الإنسان.. مما يعني بالنتيجة أنَّ للحياة مقومات لا تستوي بدونها، وذهاب تلك المقومات إنما يؤدي إلى الانقلاب على الحياة بذاتها.. وبتقابل استواء الحياة والانقلاب عليها، تتقابل أعمال المؤمنين والكافرين، فالمؤمنون يمدهم الإِيمان بالنور الذي تنبعث منه الحياة، والكافرون يعانون من ظلام الكفر الذي يفرغ كل معنى للحياة. أما الغاية النهائية فإنها تتعلق بالمصير في الآخرة حيث يكون الخلود للمؤمنين في حياة النعيم، في مقابل الخلود للكافرين في ظلام الجحيم..

فلنتأمل عظيم المدلولات والعظات التي يمدنا بها المثل القرآنيّ لكي يقرب إلى أذهاننا ما يترتب على أعمالنا من نتائج ومصائر..

٤ ـ مثل القرية التي كفرت بأنعم الله تعالى

يقول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾(١).

لا غرو بأنَّ الأمان والاستقرار والعدل تعدُّ من الضرورات، والحاجات الأساسية لأيّ مجتمع بشري، ولا يقل أهمية عن تلك المقومات، الشعور بالسلامة، والاطمئنان في نفوس أبنائه؛ فإذا أوتي الناس ـ مع كل تلك النعم ـ الرزقَ الوفير والرفاهيةَ في العيش، فذلك فضل من الله عظيم على هذا المجتمع، مما يوجب على كل فردٍ من

---

(١) سورة النحل، الآية: ١١٢. [لقد تطرقنا إلى هذا المثل سابقاً للتدليل به على «المثل القياسي»].

أناسه عبادة الله تعالى، وطاعته، والسير على هداه، فضلاً عن حمده وشكره في الغدوّ والآصال. .

ولا يقل واجب الحمد والشكر من الجماعة، عن واجب الأفراد فيها، وهي ترى الرزق الوفير يتدفق عليها من كل مكان. . وإلّا فإنَّ كفران النعم الربانية سوف يجرّ على المجتمع وعلى أهله ـ جماعةً وافراداً ـ الويل والثبور، وعظائم الأمور. ولكي تتبيَّن لنا عاقبة الكفر بأنعم الله، فإنَّ القرآن يضرب لنا هذا المثل عن قريةٍ كان الأمن يشيع في ربوعها، والاطمئنان يعمُّ أرجاءها، وتتدفق عليها الخيرات والأرزاق من كل مكان، مما جعلها تنعم بحياةٍ ملؤها الرغد والازدهار، بعيداً عن العوز والجوع، وعن الخوف من غائلة الدهر، وضيق العيش.

ولكنَّ هذه القرية، بدل أن تجعل أنوارَ الإِيمان تتلألأ في ساحاتها، وأناشيد الثناء والحمد تصدح في أرجائها، تتحول عن ذلك كله إلى الكفر بأنعم الله عليها، وجحود رزقه وعطائه، حتى يجيئها حكم الله العليّ القدير، فيبدِّل رزقها بالحاجة، وكفايتها بالجوع، وأمنَها بالخوف، وطمأنينتها بالشقاء، جزاءً لأهلها بما كانوا يصنعون. .

ويظهِّرُ المثلُ القرآنيُّ الجوعَ والخوف بالصورة الحسية، فكأننا نراهما يتلبَّسان الناس في تلك القرية كما يتلبَّسُ الثوبُ الجسمَ، لا بل وتتبدّى الصورة بشكل أوضح بالألبسة التي صاروا يرتدونها، والتي تنمُّ عن الفقر والعوز والحاجة، وكل ذلك لكي يجعلهم الله تعالى يتذوقون طعم الجوع والخوف والفقر، كما كانوا يذوقون طعم الطمأنينة،

والغنى، والرزق الرغيد. فلعلَّ في لذع مثل هذا الحرمان، وتأثيره في النفوس، ما يجعلهم يشفقون على أنفسهم، فيخافوا من سوء مغبة هذا التحوّل الذي حلَّ بهم، ويغيّروا ما بأنفسهم، علَّ الله يغيِّر ما بهم من سوء الحال.

وَمَثلُ هذه القرية كَمَثل مكة عند بعث «محمد» ﷺ؛ فقد جعل اللَّهُ فيها بيته الحرام، وجعلها بلداً حراماً، وبلداً آمناً مطمئناً، لا يقع عليها شيء مما كان يقع على القرى المجاورة لها، بل وعلى أهل شبه الجزيرة جميعاً، حيث كانوا عرضةً للغزو والسلب والنهب، والعيش في أسوأ الظروف والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية. كما أن الرزق كان يتدفق على مكة من كل مكان، مع الحجيج الآتي لزيارة الكعبة، ومع القوافل التجارية التي تقدم إليها من بلاد الشام واليمن وهي تحمل البضائع من شتى الأنواع والأصناف.. ومع أنَّ وجودها في وادٍ غير ذي زرع، وأرض جدباء لا نماء فيها ولا ثمار، إلّا أنه لم ينعدم، ولم ينقطع عنهم رغد العيش، وثمرات الأمن والاستقرار منذ دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام الذي يثبته القرآن الكريم بالقول الحقّ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[1].. فكان حرياً بأهلها، وقد جاءهم رسولٌ من أنفسهم، حريص عليهم، يبشر بالدين الحق، ودينُه دينُ إبراهيم الذي أعاد وابنُهُ إسماعيل عليهما السلام بناء البيت المحرَّم الذي ينعمون بجواره بالأمن والطمأنينة.. نعم كان حرياً بأهل مكة أنْ يصدِّقوا هذا النبيَّ الأمين، وأنْ يؤمنوا بدينه

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

ويناصروه!.. إلَّا أنهم، بدلاً من ذلك، كذَّبوه، وعارضوه، وافتروا عليه بالادعاءات الباطلة، وأنزلوا به، وبمن اتبعوه الأذى ظلماً وعدواناً. فكان أنْ حاق بأهل مكة الذل، ونزل بساحتهم الهوان، حتى كسرت شوكتهم واضطُرَّ معظمهم إلى التصديق بنبوة محمد ﷺ! والدخول في الإسلام، فعادت مكة آمنةً مطمئنةً، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان..

ذلك هو المثل الذي ضربَهُ لنا القرآن الكريم عن القرية التي كانت آمنة، مطمئنة، فكفرت بأنعم الله حتى حاق بها الجوع والخوف.. وهو المثل الذي ينطبق في كل زمانٍ، على أي بلدٍ ينعم بالأمن والسلام، فتبطرُهُ النعمة، ويغرّه متاعُ الحياة الدنيا، حتى ينسى ذكر اللَّهِ، ويكفر بأنعمه.. فكان لا بدَّ أن يذيقه الله ـ جلّت قدرته ـ لباس الجوع والخوف، فتحل به الأزمات الاقتصادية، ويعم في أرجائه الخوف، وينتشر فيه الفسق والفساد، وذلك بما يصنع أهله، حتى يصيروا على تلك الحالة المزرية من السوء والشقاء.

الفقرة الرابعة ـ الفوارق بين المؤمنين والكافرين

١ ـ من كان مؤمناً ليس كمن كان فاسقاً

يقول الله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ۞ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾(١).

(١) سورة السجدة، الآيات: ١٨ ـ ٢٠.

من القواعد والسنن التي بنيت عليها الحياة وجود الأضداد، فمثلاً نجد الحق وبمقابله الباطل، والخير وفي مواجهته الشر، والعمل الصالح وعكسه الفسق والفجور، والنور وضده الظلام.. إلخ. وذلك لكي يتبيّنَ للإنسان العاقل، الباحث عن الحقيقة، الطريقُ المستقيم، فيسلكه، ويحقق معاني الاستخلاف في الأرض، وفق شرع الله وعدله.. فكان طبيعياً، وفق منطوق الحقيقة إيَّاها، ألّا يكون المؤمن كالفاسق، وألّا يكون الذين يعملون الصالحات مثل الذين يعملون السيئات، وألّا يكون بالتالي نفس المصير لهؤلاء وهؤلاء، فلكل مأوى يأوي إليه، جزاءً وفاقاً بما كانوا يعملون.. فالذين آمنوا وعملوا الصالحات، دأبهم العمل على طاعة الله تعالى، والاستقامة على الشرع القويم، ولذلك فإنهم يختلفون كلياً عن الفاسقين، المنحرفين عن طاعة الله سبحانه، الشاردين عن شرعه.. واختلافهم يكون بيّناً في الطباع، والشعور، والتفكير والسلوك، وبالتالي فلا يستوون في الجزاء لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا تكون مصائرهم واحدة في الحياة الآخرة، لأنها هي الحياة الأبدية، والتي قال عنها الله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾(١). فأما المؤمنون الذين عملوا الصالحاتِ فلهم جنات المأوى نزلاً، وهي مما يُعَدّ، عادةً، للضيوف من منازل، تكريماً واحتراماً، وزيادة لهم في الاعتبار. وأما الذين فسقوا، وعاثوا في الأرض فساداً، فمأواهم النار التي كلما همّوا بالخروج منها، في محاولة للفرار من حريقها، أعيدوا فيها، ورُدُّوا إلى قعر الأتون من

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٤.

جحيمها، وقيل لهم: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾[1]، مع ما يحمل ذلك من التقريع والتوبيخ، ومن الدفع والتعذيب.. فنتصورهم وقد أُمْسِكَ بهم، لمنعهم من الهرب والإِفلات، ثم يُقذفون في المهاوي السحيقة من نار جهنم وبئس المصير.

أمّا قولُ الله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ فقد نزل بحقِ علي بن أبي طالب ﷺ والوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط، في كلام كان بينهما (افتخر فيه الوليدُ على عليٍّ)[2].

وكما ميزت النصوص القرآنية بين الذين يعملون الصالحات وبين الفاسقين، كذلك ميزت بين المتقين والفجار؛ فقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾[3]؛ وقيل إنَّ هذه الآية نزلت عندما قال كفار مكة للمؤمنين إنّا نُعطى في الآخرة مثل ما تعطون.. ولكنها في الوقت نفسه آيةٌ تحمل سنةً إلَهيةً هي تعبير عن الحكمة فيما قضى الله تعالى، بألّا يكون المؤمنون كالمفسدين، ولا المتقون كالفجار، لأنَّ المنهج الذي يسير عليه هؤلاء وهؤلاء مختلف في منطلقاته ومقاصده، فالمؤمنون والمتقون يسيرون على منهج الله، والمفسدون والفجار يسيرون على المناهج التي يبتدعونها خدمة لأهوائهم، التي تحوم دائماً حول الفساد

---

(1) سورة السجدة، الآية: ٢٠.

(2) مصحف الشروق، مختصر تفسير الإمام الطبري، دار الشروق، القاهرة، ص٤٦٩، ط٢٧ شوال ١٣٩٧ هجرية.. وفي تفسير الجلالين: «أخرج الواحدي وابن عساكر من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال الوليد بن عقبة بن أبي معيط لعلي بن أبي طالب: أنا أحدُّ منك سناناً، وأبسط منك لساناً، وأملأ للكتيبة منك، فقال له علي: اسكت فإنما أنت فاسق، فنزلت: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ سورة السجدة، الآية: ١٨.[انظر أسباب النزول، في ص٥٦٣ من تفسير الجلالين دار العلم للجميع، بيروت، لبنان].

(3) سورة ص، الآية: ٢٨.

والفجور! فكان من حكمة الله السنيَّة ألّا يجعل المؤمنين كالمفسدين في الأرض، ولا المتقين كالفجار...

٢ ـ الكافر كالأعمى والأصمّ، والمؤمن كالبصير والسميع

يقول السميع العليم: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(١).

إنَّ من يتتبَّع النصوص التي سبقت هذه الآية الكريمة في «سورة هود» يجد تبياناً لبعض صفات الكافرين عن صفات المؤمنين.. فالكافرون هم الذين يصدون عن سبيل الله ـ وهو الإسلام ـ ويطلبون السبل المعوجة ـ وهي الكفر والضلال ـ ومن ثم فهم بالآخرة يكفرون.. أما المؤمنون فهم الذين يعملون الصالحات، والذين هداهم ربهم إلى الحق المبين، فاطمأنت قلوبهم إلى رحمة الله ورضوانه.. وزيادة في التوضيح والإفهام فقد جاءت هذه الآية المعبّرة لتدل على الاختلاف بين الفريقين من خلال ما يختلف به الأعمى والأصمّ، عن البصير والسميع، مما هو واقع ومشاهد في الحياة من حولنا، حيث نلتقي يومياً ببعض المعاقين العاجزين عن النظر أو السمع، والذين يختلفون تماماً عن الأصحّاء من ذوي الأبصار والأسماع، فلا يستوون في الصورة والشعور، ولا يتماثلون في الحركة والعمل..

فالأعمى والأصم هما المثال عن الكافر الذي عميت بصيرته عن الاهتداء إلى طريق الإِيمان، وسدت أذناه عن سماع الحق المبين.

---

(١) سورة هود، الآية: ٢٤.

والبصير والسميع هما المثال عن المؤمن الذي اهتدى إلى نور الإيمان، وامتلأت نفسه من سماع الحق. فكلاهما لا يستويان في الصفات والمزايا مثلما لا يستوي الأعمى الأصم، والبصير السميع في الخلقة والتكوين، وفي الحركة والسلوك.

فإذا كان هذا ما يراه الناسُ في حياتهم مثلاً حسيّاً ومشاهداً، أفلا يتذكَّرون إذاً قول القرآن وما ضربَ الله تعالى فيه من مَثَلٍ، لينبّه ويحذّر من مغبة الكفر الذي يجعل الكافر كالأعمى والأصمّ؟ ومتى عرف الكافرون ذلك فكيف يستمرون على كفرهم، وآثارُهُ على مصيرهم في الحياة الأخرى أعظمُ بلاءً من العمى والصَّمم في هذه الدنيا؟ ولكنَّ كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون، فلا يتذكَّرون ولا يتَّعظون.

٣ ـ مثل رجلَين أحدهما يجحد نعمة الله وينكر الساعة وصاحبه يعظه ألّا يكفر بالله الذي خلقه.

يقول الله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا* كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا* وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا* وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا* وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا* قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا* لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا* وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا* فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا* أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ

طَلَبًا * وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا * وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا * هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾[1].

من الواضح أنَّ مطلع هذه الآيات الكريمة يحمل الخطاب للنبيّ ﷺ بأنْ يضرب مثلاً لأولئك المشركين الذين سألوه أنْ يطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه[2]، وللمؤمنين القائمين على ذكر الله تعالى، وتسبيحه ودعائه يريدون رحمته ورضاه، أجل، أن يضرب الرسولُ الأكرمُ ﷺ للمشركين والمؤمنين، على حدٍ سواء، مَثَلَ رجلينِ، جعل الله لأحدهما جنتين غنّاءتين بالأشجار المثمرة، والزروع اليانعة، والمياه المتفجرة من نهر بينهما، بينما الآخر قد لا يملك شيئاً من ذلك كله، ولكنْ لديه ما هو أعظمُ شأناً، وأجلُّ قدراً، ألا وهو الإيمان الصادق بالله ربّه.. لكي يتبيّن من هذا المثل ما يترتب على موقف كلّ من الرجلين من الآثار والنتائج التي تلاصق حياة الناس جميعاً في معتقداتهم. بل ولعلَّ المحور الأهم الذي يُبنى عليه سياق هذه الآيات الكريمة من سورة الكهف هو تبيان مصدر الرزق للناس، باعتباره أهم الأمور الرئيسية والحيوية في حياتهم، وما قد يتميزون به عن بعضهم البعض في التفكير والاعتقاد تجاه واهب الرزق ومعطيه..

وإذا كان في الأمثال القرآنية تصويرٌ لنماذج مختلفة عن الناس، حيث نجد صوراً للمحسن والمرابي، والصادق والكاذب، والمؤمن

---

(١) سورة الكهف، الآيات: ٣٢ ـ ٤٤.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [سورة الكهف، الآية: ٢٨].

والمنافق إلخ. . فإنَّ في هذا المثل نموذجاً لمن غلب على طبيعتهم الغرور، والاعتزاز بالامتلاك والثروة، حتى ظنّوا أنَّ كل ما لديهم كان من صنع أيديهم، دونما أدنى تفكيرٍ بأنَّ الذي خلقهم هو الذي أمدَّهم بالعزم، وهو الذي بيّن لهم سبل العمل والامتلاك، وهو الذي جعل حدائقهم وجناتهم تغنى بالخيرات. . . ولو أنّهم قرأوا القرآن لتبيّن لهم أنَّ الذي يبسط الرزق لعباده ويضيق عليهم هو الله تعالى، بل وهو الذي جعل بسط الرزق أو تضييقه آياتٍ لقوم يؤمنون، مصداقاً لقوله تعـالـى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(١).

وهذا ما يعظنا به القرآن الكريم، ويمدّنا بالتوجيه والتربية عندما يضرب للناس مثلاً عن رجلين، أحدهما أغناه الله ربُّهُ من ملكه، لأنه هو مالك الملك، فظن أنَّ غناه من عنده، أي من تفكيره وجهده، والآخر ملأ ربُّهُ الكريمُ قلبه بالإيمان، فسار على نورٍ وهدىً، لا تغرَّنَّهُ الحياة الدنيا، ولا يشرك بعبادة ربّه أحداً؛ فكان لا بدَّ أن يكونا مختلفين اعتقاداً، وتفكيراً، وتوجّهاً. .

ويبدو من سياق الآيات أنَّ الصحبة كانت تجمع بين ذينك الرجلين، على الرغم من التمايز الكبير بين أوضاعهما المادية، إذ كان لأحدهما ـ كما أشرنا إليه ـ جنتان تحفلان بالحدائق الغناء، والنخيل، والأعناب، والزروع، والمياه المتدفقة، وهذا ما جعله يزهو بنفسه، ويفاخر بملكه. . . وفي أيام عزّ الموسم جاء بصاحبه المؤمن، وراح يطوف به في أرجاء هذا الملك الواسع، ليريه ما حقق من «إنجازات

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٧.

كبيرة»؛ وهنا يبدأ الحوار الذي يكشف عن طبع كل من الرجلين.. فقال لصاحبه وهو يحاوره:

ـ لعلك ترى إلى هاتين الجنتين وما تغنيان به من الشجر المثمر على أنواعه، ومن النخل المعطاء الذي يحفُّهما، والزروع المنبسطة بين أرجائهما.. وانظر إلى الظلال الوارفة، وتنشق من أريج الزهر الفوّاح، واملأ جوفك من ماء هذا النهر الذي يتفجَّر خلالهما، فيروي هذه الحدائق وما فيها من الشجر، والزرع على اختلاف أشكاله وأنواعه.. فكل هذا الملك هنا، وما عندي من الدور والأموال غيره، إنما كان بهمتي وعزيمتي، وما بذلت فيه من أموال طائلة، ومن جهد، وعلم وخبرة واسعة.. وهذا ما يجعلني، يا صاحبي، أكثر منك مالاً، وأعزَّ نفراً[1]، بل صاحب الغنى الواسع، والأملاك الكثيرة..

ثم انعطف ذلك المتباهي ليدلف بصاحبه من ناحية إلى أخرى، ويدور به من نُضرة إلى نُضرةٍ.. فيقف هنا، ويمشي إلى هناك، وهو لا يكفُّ عن الوصف، والشرح بما يزيده زهواً وخيلاءً، إلى أن غلب عليه ظَنُّهُ الواهم، وظلمه لنفسه، فقال:

ـ ما أظن أنْ تبيد كلُّ هذه الممتلكات والثمار والزروع أبداً؛ وما أظن الساعة قائمةً وفيها بعث وحساب، بل إنه البقاء الدائم في هذه الأرض، وهل يمكن لكل هذا الجنى في الجنتين، وهذا الرونق والجمال الذي يحفّ بهما، أن يتلفَ، ويذهب بدداً؟!

---

(١) أعزّ نفراً: أكثر أولاداً، وأكبر عشيرةً.

ثم أخذته العزة بالإثم، وطغى عليه غرورُ الملك أنْ رأى نفسه استغنى، فأردف قائلاً:

ـ ولئن كانت قيامة ونشور ـ فرضاً ـ ورددت إلى ربّي ـ بحسب زعمك ـ لأجدنَّ ملكاً أوسع، وأكثر خيراً من هذه الحدائق في منقلبي هناك! . . لأنني كما قدرت على أنْ أمتلك، وأثرى هنا في هذه الدنيا، فلماذا لا أقدر على ذلك في حياة أخرى؟ وأنا صاحب الفكر، والإرادة، والعزم، وهي المقومات التي تجعلني أحقق ما أريد، وأرغب، حيثما كنت، وكيفما كنت! . . أجل يا صاحبي، لأجدنَّ بعد الموت الذي تحدثني عنه، خيراً من دنيايَ منقلباً! . .

وكان صاحبه رجلاً مؤمناً، ويعلم يقيناً بأن الملك لله تعالى، والرزق منه وحده، فلا يتأتّى لإنسانٍ أن يمتلك عقاراً أو نقداً، ولا ينال عِزّاً أو منصباً إلا أنْ يشاء الله، فالملك لله، والعزة لله جميعاً، وهو جلَّ جلاله يرزق من يشاء بغير حساب، ويجعل الرزق أو الملك أو السلطان تجربةً وابتلاءً لعباده، بقدر ما يجعله نعمةً ومنّةً عليهم. .

ولذلك، ومن منطلق إيمانه، قال لصاحبه:

ـ أكفرت وجحدت بأنعم ربِك الكريم عليك؟ ألا تعلم، يا صاحبي، بأنَّ الله تعالى قد خلقك من ترابٍ، ثم من نطفةٍ، ثم سوّاك رجلاً على هذه الصورة التي أنت عليها، ووهبك من قوة الفكر، وملكة الإرادة، وحرية الاختيار، وأمدَّك بكل الأسباب التي جعلتك تنشئ ما تنشئ، وتجني ما تجني؟! وفضلاً عن هذا الملك الذي أقامك عليه وكيلاً، فقد وهبك ربك الأهل والأولاد الذين تقرُّ بهم عينك،

وتستوي بوجودهم حياتك؟ فهل فكَّرت بأنّ كلَّ ذلك من عطاء الله القدير، ومن فضل ربّك الكريم؟!.

أجل يا صاحبي إنَّ كل قواك الفكرية والجسدية، وكل قدراتك وطاقاتك هي من خلق الله تعالى، وكل ما أنت عليه هباتٌ تمنَّنَ بها عليك، فإن ظننت أنك قد أوتيتَه على علمٍ منك، فأنت واهمٌ ومخطئ، وكافرٌ بالنعمة وجاحدٌ للفضل!.

ثم تابع الرجل المؤمن يعظ صاحبَهُ قائلاً:

ـ لكن، أنا، هو الله ربي، آمنتُ بالله إلهاً واحداً أحداً، فرداً صمداً، ولا أشرك بعبادة ربّي أحداً، لأنه لا شريك له في الملك، وهو على كل شيء قدير.

فيا صاحبي، لولا إذْ دخلت جنتك هذه وقلت: ما شاء الله قد أعطاني، ولا قوة لعبدٍ إلا بالاستعانة بالله، فهو القوي المتين، ويهب القوة لمن يشاء من عباده. ولو لم يمنحني ربّي قوة، وصبراً واحتمالاً ما مكَّنني من شيء، وما كنت أنشأت حرثاً، ولا غرساً، ولا سقاية.. فلا أحد يملك قدرة على تفكيرٍ أو عملٍ إلا بإذن الله ربّه.. أجل، لو دخلت وقلت ذلك، لكان خيراً لك وأبقى، ولكنك ـ ويا للأسف ـ لم تفعل لأنك لم تؤمن بأنَّ الله ربّك، وربَّ العالمين هو الذي يعطي ويمنع!..

ثم يخلص هذا المؤمن بالقول لصاحبه:

ـ «وإنْ تَرَنِ أنا أقلَّ منك مالاً وولداً» فهذا من أمر ربّي، فهو سبحانه الذي قدَّر لي رزقي، وخلق لي ذريتي. ولا أملك إلا الحمد والشكر والثناء على ربي لما قدَّر لي، ووهبني من عطاءٍ جزيلٍ، ونعمةٍ

كريمةٍ، فعسى أنْ يؤتيني ربي خيراً من جنّتيك في عاجل دنياي، فالغنى ليس حكراً على أحد، ولا الفقر ملازماً لأحد، إلّا أنْ يشاء الله تعالى..

وما أدري ما أقول لك بعدُ يا صاحبي! فأيُّ إنسانٍ يظنُّ بأنَّ ما لديه هو من كدّه وجهده، وأنْ ليس لله تعالى فضل عليه، فليحذر غضب الله، فهو وحده يرزق من يشاء ويقدر. فإنْ كنت تدَّعي بأنَّ هذه الجنائن لن تبيد، فما ظنُّك بربِّ العالمين، وهو القادر على أنْ يرسل عليها الصواعق الماحقة، فتصبح جرداء كأنها لم تغن بالأمس، وأنْ يجعل أرضها صلدة ملساءَ لا يستقر فيها ماء، ولا ينبت فيها ثمار؟! ثم ما ظنُّك بالله تعالى الذي يسمع تحاورنا، وهو إنْ يشأ يأمر هذا النهر فيختفي في باطن الأرض، فمن يأتيك إلّا الله ربُّك بنَهرٍ غيره إنْ أصبح ماؤه غوراً، ولا أثر له!..

فاتقِ الله ربي وربَّك، وارجع إلى نفسك، فحاسبها على ما فيها من الغيّ والغرور، وإلا وقعتَ في المحظور!..

... ذلك كان ظنُّ الكافر بأنعم ربه، الجاحد بفضله عليه!..

... وذلك كان نصح المؤمن له!..

ولعلَّ الكافر لم يفلح معه نصح ولا إرشاد، بل ظلَّ ـ على ما يظهر ـ معانداً، مكابراً بأنَّ علمه وفنَّه ومقدرته هي التي أنشأت تلك البساتين والحدائق، وجهده هو الذي جعلها تؤتي أكلها.. ولكن ها هو يرى بأم العين عاقبةَ سوء الظن بربّه العزيز القدير... إذ بين عشية وضحاها كان الهلاك قد أحاط بكل ما يملك، وما ظلَّ شيءٌ منه قائماً، لأنَّ الله القادر الجبار أرسل على أملاكه حسباناً من السماء، أي

صاعقةً أحرقتها ولم تذر منها شيئاً. . فلما رأى ما حلَّ بثمره، أخذ يقلب كفيه، نادماً، متحسِّراً على ما أنفق من مالٍ، وما بذل من جهد في سبيله! . . أما أشدّ ندمه فكان مما فرَّط بحق ربّه تعالى وهو يقول: «يا ليتني لم أشرك بربّي أحداً»، فقد جعلته المأساة المروعة يدرك أنَّ ادعاءه بقوته، وغروره بماله، هو شرك بالله تعالى، وأيقن أنَّ الأمر لله في الأولى والآخرة، وعدم التصديق بهذا اليقين هو الشرك بعينه. .

وطبعاً لم يكن لديه، لا هو، ولا أحدٍ من الناس أية إمكانية على أنْ يعوِّضه خسارته الفادحة، فلا الأبناء الذين كانوا مدعاة مباهاته، ولا الأهل أو العشيرة أو غيرهم من الذين كانوا يبجّلونه على غناه، كانت لديهم الاستطاعة على شيء من ذلك. . بل ولم يكن لأية فئة من الناس أن تملك ما يمدُّه من الأسباب التي تمكِّنه من استعادة ما فقد، لأنَّ الأسباب بيد الله تعالى، وهو وحده الذي يقدر على تسخيرها لخدمة عباده. ولذلك لم تكن لذاك الكافر الجاحد بأنعم ربّه «فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً» في النهاية. .

وللتدليل على أهمية هذا المثل الذي ضربه الله تعالى للتمييز بين تفكير المؤمن، وتفكير الكافر، فإنَّ الإمام جعفر الصادق عليه السلام قد وقف على معانيه السامية فقال: «عجبت لمن خاف كيف لا يفزع إلى قوله سبحانه: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾(1). فإني سمعت الله تعالى يقول بعقبها: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾(2). وعجبت لمن اغتمَّ كيف لا يفزع إلى قوله سبحانه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى

---

(1) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.

(2) سورة آل عمران، الآية: ١٧٤.

كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]. فإني سمعت الله تعالى يقول عقبها: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]. وعجبت لمن مُكِرَ به كيف لا يفزع إلى قوله تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[3]. فإني سمعت الله عزَّ وجلَّ يقول بعقبها: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾[4].. وعجبت لمن خاف من زوال النعمة وأحبَّ بقاءها، أو لمن أراد سَعَةَ الرزق كيف لا يفزع إلى قوله تعالى: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾[5]، فإني سمعت الله عزَّ وجلَّ يقول بعقبها: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾[6].

وهكذا يتبين لنا مما تقدم أنَّ من مقاصد الأمثال في القرآن الكريم تربية الإنسان إيمانياً، وتهذيب خُلُقِهِ إنسانياً، فلا يأخذه الغرور بادّعاء العلم والمعرفة، ولا يسلبه الملك نعمة الاعتراف بفضل ربّه عليه، وذلك مهما زيِّنت له هذه الحياة الدنيا من علمٍ واسع أو ملك عامر. فمن الخير للإنسان أنْ يحمد ربّه تبارك وتعالى، ويشكره على ما يمدُّه به من النعم، أو يفيض عليه من العطاء، وأنْ يؤمن أنه وحده تعالى هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وهو سبحانه الذي يجزي ويثيب على النوايا والأفعال. فالدنيا دار ابتلاء وفناء، والولاية والملك لله الحق. فسبحان الله، وجلَّ شأنه عما يدَّعي الجاحدون والمنكرون.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٨.
(٣) سورة غافر، الآية: ٤٤.
(٤) سورة غافر، الآية: ٤٥.
(٥) سورة الكهف، الآية: ٣٩.
(٦) سورة الكهف، الآية: ٤٠.

٤ ـ لا يجعل الله المؤمنين كالمفسدين، ولا المتّقين كالفُجّار

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ * كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

. . . فهل أدرك الإنسانُ ـ فعلاً ـ حقيقة خلق السماء والأرض، وكلَّ ما فيهنَّ، وما بينهنَّ؟! وهل أيقن الإنسان أنَّ كل شيء محكوم بأمر الله العزيز القدير؟!

قد يكفي للتدليل على أحقية وعظمة خلق السماء والأرض، أنْ نسوقَ ما توصل إليه علم الفلك، من اكتشاف حديث مذهل وهو التقاط النور الآتي من مسافة اثني عشر مليار سنة ضوئية، حتى ندرك ما معنى خلق السماء والأرض، وحتى نعلم ما معنى خشوع القلب لذكر الله الخالق العظيم. .

ومن الحقائق التي يستيقنها العقل، ولا تدحضها الأدلة والبراهين العلمية، بل وتؤكد صدقيتها، أنَّ الله هو خالق السماوات والأرض، وأن قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ﴾ هو القولُ الحقّ، الذي لا يحتمل تأويلاً أو جدالاً، وذلك بخلاف ظنِّ الذين كفروا، وهم يدَّعون بأنَّ خلق السماء والأرض وما بينهما، إنما كان مصادفةً!. . أما كيف جاءت هذه المصادفة، وكيف لها أنْ تستوي في هذا الخلق العظيم، فهذا ما لا يأتونَ عليه ببرهانٍ أو دليلٍ!. . مما يجعل ظنَّهم عبثاً، وباطلاً بطلاناً مطلقاً، وذلك بخلاف التوكيد

---

(١) سورة ص، الآيات: ٢٧ ـ ٢٩.

القرآني، وهو أنَّ الله سبحانه وتعالى ما خلق السماءَ والأرض وما بينهما باطلاً، بل بإرادته السنيَّة التي أنشأتهما من العدم إنشاءً، وابداعاً بلا مثيل سابقٍ لهما.. وهذا التوكيد القرآني هو ما ينفي، ويدحضُ زَعْمَ أولئك الكافرين، وظنَّهم الماكر الخبيث، بل ويهدّدهم على هذا الظن الكاذب بالعذاب في النار، وما يحيق بهم في قعر جهنم من العذاب المهين..

وكما لم يخلق الله تعالى السماء والأرض وما بينهما باطلاً، فكذلك لم يجعل سبحانه المؤمنين مثل الكافرين، فكان حقاً ألّا يكون مصيرُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات كمصير المفسدين في الأرض. وألا يكون مصير المتقين كمصير الفجّار!... ذلك بأنَّ الله تعالى خلق الأنفس، ووهبها الاستعدادَ، وقابلية التمكين في الأرض، ليعرّضها بعد ذلك للمنافع العظيمة بالتكليف.. وعلى أساس هذا التكليف أعدَّ لها الثواب والعقابَ، فكلُّ نفسٍ بما كسبت رهينة.. فصارَ من المستحيل أن يجعلَ المولى الكريم أولئك الذين انتفعوا بما أودع فيهم من نفوس خيرة وعقولٍ نيّرة، أقبلت على الإِيمان، وعلى عمل الخير، كالذين تاهت نفوسهم عن الحق، فعاثوا في الأرض فساداً، وزرعوا الشرَّ في كل مكان.. كما أنه صارَ من المستحيل أن يجعل المولى العزيز عبادَهُ المتقين، الذين يسيرون على دروب التقوى والهدى، كالذين اتخذوا لأنفسهم الفجور والفسوق والعصيان منهجاً لا يحيدون عنه، فلا يطيعون اللَّهَ ورسله، ولا ينشرون العدل والخير بين الناس، بل دأبهم الركض وراء أهوائهم ومصالحهم، وتأمين مقاصدهم وغاياتهم حتى ولو كان الطريق إليها القهر والتسلط والجحود، وكل ما يخالف سنة الله في خلقه.. ولذا فإنَّ الله سبحانه وتعالى قد أنزل

القرآن كتاباً مباركاً، لا ريب فيه، هدىً للمتقين، بحيث يكون المجالُ مفتوحاً أمام جميع الناس ليقرأوه، ويفهموه، ويتفكَّروا بآياته، وما تدل عليه من السنن والأحكام والعظات، والقيم التي تقود إلى خيرِ الناس في الدنيا والآخرة.. وليذَّكر أولو الألباب، ويُذكِّروا الناس بما تحمل الأمثال في القرآن من دلالات ومقاصد، فلا يتوقفون عند ظواهرها، بل ينفذون إلى أعماقها فتهديهم جميعاً سواء السبيل، وإلّا كان مثل أهل الذكر والعلم كَمَثَل من له بقرة درور لا يستدرُّها، أو مهرة نَثور[1] لا يستولدها.. أو كمثل من له خيرات وممتلكات وأرزاق وفيرة لا ينتفع بها، بل يقيم نفسه حارساً عليها، ويترك للآخرين جنيَ ثمارها وفوائدها..

وعن الحسن بن عليّ ﷺ أنه قال: «قد قرأَ هذا القرآنَ أُناسٌ لا علمَ لهم بتأويله. حفظوا حروفَهُ، وضيّعوا حدودَهُ حتى أنَّ أحدهم ليقول: واللّهِ لقد قرأتُ القرآن فما أسقطتُ منه حرفاً؛ وقد واللّهِ أسقطَهُ كلَّهُ، ما يُرى للقرآن عليه أثرٌ في خُلُقٍ ولا عمل».

اللهّمَّ اجعلنا من العلماء المتدبرين، ومن القراء الموقنين. والحمد لله ربِّ العالمين..

٥ ـ مثل الذين كفروا امرأة نوحٍ وامرأة لوطٍ، ومثل الذين آمنوا امرأة فرعونَ، ومريم بنت عمرانَ

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا

(١) نثور: كثيرة الإنجاب.

مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ * وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾[1].

من المتعارف عليه في الحياة أنَّ الصحبة الطيبة تورث العشرة الطيبة، وأنَّ الصحبة السيئة تورث العشرة السيئة، ولكنْ يبقى هنالك كثير من الحالات التي تشذّ عن هذه القاعدة، بحيث لا ينفع بعضَهم العشرةُ الطيبة، ولو كانت مع النبيين والمرسلين، ولذلك أوصى الله تعالى زوجات النبيّ محمّد ﷺ، في آياتٍ كريمة من كتابه المبين، ألّا يكنَّ كباقي النساء لصحبتهنَّ من رسول الله ﷺ، بل، وإكراماً لهذا الرسول، وإكراماً لهنَّ، فقد أعطاهن الله تعالى مكانة مرموقة بأن جعلهنَّ أمهات المؤمنين والمؤمنات.. وتوكيداً لهذا الأمر مع ما يستتبع من تبيانٍ لفضل المرأة في الإسلام، فقد ضربَ الله تعالى ـ في الآيات الكريمة (١٠ ـ ١٢) من سورة التحريم ـ مثلاً للذين كفروا امرأة النبي نوحٍ، وامرأة النبي لوطٍ، ومثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون، ومريمَ بنت عمران لما يحمل كلُّ مثلٍ من هذه الأمثال من أبعادٍ ومرامٍ، يأتي في طليعتها نفي كل شبهة قد تخالط الأذهان حول مصاحبة الأنبيّاء والمرسلين، التي لا تغني شيئاً، إنْ لم ينتفع بدعواتهم وإرشادهم الإنسان، لأنَّ المقياس في النوايا والأفعال هو الإيمان والطاعة. وهذا يعني أنَّ قرابة النبي أو الرسول مع معصية الله، أو مخالفة مبعوثيه، قد تكون عاقبتها أشد ويلاً وهلاكاً، مهما كانت صلة القربى، حتى ولو كانت الزوجة أو الابن، أو العم أو الخال، أو غيرهم من ذوي الأرحام

(١) سورة التحريم، الآيات: ١٠ ـ ١٢.

وقرابة النسب.. وبالمقابل فإنَّ مصاحبة الكافر مع طاعة الله ورسوله لا تحجب رضوان الله تعالى ومغفرته، بل قد تزيد في أجر الإنسان وثوابه، ولا سيما إذا رافقها الألم والعذاب..

ولبيان أنَّ العيش مع رسل الله أو ملازمتهم، حتى في البيت الزوجيّ، قد لا تغني الإنسان من عذاب الله، فقد ضرب الله تعالى للناس مثلاً امرأتين كافرتين، كانتا زوجتين لرسولين من رسل الله، ومثلاً آخر امرأتين مؤمنتين كانت إحداهما زوجاً لكافر، والأخرى أمّاً لنبيّ كريم، وذلك ليكون تأثير المثل في النفوس أقوى، ودلالته في المصاديق أوضح.. فالمثل للذين كفروا امرأة نوحٍ، وامرأة لوطٍ، اللتان خانتا زوجَيْهما في الدين، فلم تؤمن كل منهما بدعوة زوجها النبيّ، ولم تقبل منهاجه في العقيدة والعمل؛ بل وعمدت كل منهما للوشاية بزوجها عند بني قومه، الذين يقاومون دعوته إلى دين الله. فامرأة لوطٍ عليه السلام تآمرت مع الملأ من قومه، على أنْ توقد النارَ على سطح المنزل كلما أتاه غريبٌ عنهم، وذلك للحؤول دون هداية الناس على يديه، وبالتالي إفشال دعوته!. وهذا ما حصل بالفعل عندما بعثَ اللَّهُ ثلاثة من الملائكة على صورة رجال، لكي يحققوا أمره تعالى في قوم لوط المفسدين. فما إن دخلَ أولئك الملائكة على لوط ضيوفاً، حتى سارعت امرأته وأوقدت نارها، علامةً للقوم بالهجوم على بيت زوجها، والاعتداء على ضيوفه. وكان ما كان وأُهلك أولئك القوم في تلك الليلة بالذات. ومثل هذا الفعل من امرأة لوط عليه السلام وصفه ربُنا تعالى بأنه خيانةٌ، لأنه كان يصبُّ في مساعدة الكافرين ضد النبيّ المرسل، فهو خيانة للدعوة إلى الله، وبذلك كان كفراً صراحاً، وليس خيانةً من نوع البغي أو الزنى مع رجلٍ آخر، إن حاول أحد أنْ يفسّر

الأمر على هذا النحو دسيسةً وافتراءً. فالخيانة، في مفهوم القوانين الوضعية، والشرعية لها مدلولات عديدة، فيقال الخيانة العظمى ويقصدون بها خيانة الوطن، ويقال خيانة الواجب الوظيفيّ، ويقال خيانة السر (أي بإفشائه) ويقول الله تعالى في سورة الأنفال ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾[1]، ويقولُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2]... وغيرها من مدلولات الآيات التي تدل على الخيانة، وهي مدلولات صحيحة في أعراف الدين وأهل الدنيا. وبهذه المدلولات - بل وأبعد أثراً - كانت خيانة امرأة النبيّ نوح، وخيانة امرأة النبيّ لوط عندما خانتاهما في أمر الدعوة التي يحملان؛ أي لم تؤمنا بعقيدة التوحيد، وبقيتا على الكفر. ولذلك ضرب الله تعالى بهما مثلاً للذين كفروا.. وإنَّ زواجهما من النَّبيَّيْنِ لم يغنِ عنهما شيئاً، بل على العكس زادَ في ذنوبهما وآثامهما، لأنه كان الأَولى بهما أنْ تؤمنا بدعوة زوجيهما، وتعيناهما على نشر هذه الدعوة، كما فعلت خديجة بنت خويلد ﵂ التي كانت أول امرأة آمنت بنبوة زوجها محمد ﷺ، وبذلت كل ما تملك من الأموال، واستعملت كل ما كانت تتمتع به من النفوذ للوقوف إلى جانب زوجها النبيِّ المبعوث ﷺ، والإيمان بدينه والعمل على نشر هذا الدين.. وذلك الكفر من امرأة نوح، وامرأة لوط عاقبته حكماً العذاب الشديد. وسوف يقال لهما يوم الحساب: ادخلا النار مع الداخلين.

وضربَ اللَّهُ تعالى مثلاً للذين آمنوا «امرأة فرعون»، آسية بنت

(١) سورة الأنفال، الآية: ٥٨.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٧.

مزاحم، التي اهتدت إلى الإسلام، فعبدتِ الله تعالى مسلمةً، طائعة مختارة، بعيداً عن ترهات ووثنيّة زوجها فرعون، وكفره، هو والملأ من قومه. فقد عاشت في بيت ذلك الطاغية الجبار، الذي ادَّعى بأنه «ربهم الأعلى»، ولكنها كانت في قرارة نفسها تهزأ من ادعائه الربوبية، وتسخر من سفاهة أحلامه، حتى ظهرت حقيقتها لزوجها فرعون، فنهاها عن ذلك، مدَّعياً أنه لا يريد قتلها لأنها من سلالة العائلة المالكة، وشريكته في الملك. إلّا أنها لم تأبَهْ بتهديداته، فإيمانها بالله تعالى كان راسخاً وثابتاً، ولا يمكنها بالتالي، وهي المؤمنة الصادقة، أنْ تتخلَّى عن عبادة الله العليّ العظيم، من أجل مُلْكٍ زائل، ودنيا فانية. ولذلك فقد ثبتت آسية بنت مزاحم ﷺ على يقينها وإيمانها بربها تعالى.. وهذا ما أغضب فرعون وأخافه فبادر إلى قتلها! وقيل إنه ربط يدَيْها ورجلَيْها بالحبال، وشدَّها بأربعة أوتاد، وأمر بإلقائها في حرِّ الشمس اللاهب، وعلى صدرها صخرة كبيرة. فلما أحسّت بدنو أجلها، وأيقنت بأنها ستموت في العراء، قالت: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فاستجابَ اللَّهُ تعالى لدعوتها، وأماتها على الإسلام، وطاعة الله، ونجّاها من فرعون وعمله، ومن القوم الظالمين من الملأ الذين كفروا، أجرموا بحق تلك المؤمنة، وغيرها من عباد الله الذين كانوا ينزلون بهم أشدَّ أنواع المظالم..

ثم إنَّ في هذا المثل قطعاً واجتثاثاً لطمع كل مَنْ ركب المعصية، وهو يأمل أنْ ينفعه صلاحُ غيره من الأنسباء أو الأقرباء، لا بل وجعلَ الله تعالى معصيةَ الجبابرة من العباد واجباً على المؤمنين، إذْ يوم الحساب لا ينفع مال ولا بنون، ولا صحبة، ولا أي شيء، إلّا من

أتى الله بقلبٍ سليمٍ، ملؤه الإِيمان بالله، والطهر من النفاق، وكان قد عمل صالحاً في الحَياة الدنيا.

والمثل الآخر للذين آمنوا يتبدّى بحياة «مريم بنت عمران» التي أحصنت فرجها، وعاشت في الطهر والقداسة والعبادة، حتى حلَّ أمرُ الله، فخلق سبحانه ابنَها عيسى في بطنها من غير أب، ونفخ فيه من روحه ليكون رسولاً كريماً.. ومكانة السيدة مريم عليها السلام رفيعة عند الله عزَّ وعلا، فقد صدَّقت بكلمات ربها، وآمنت بشرائعه وكتبه المنزَّلة، فكانت من القانتين المطيعين، الدائبين على طاعته، وتقديسه في عليائه..

إذاً فالآيات الكريمة في سورة التحريم اشتملت على ثلاثة أمثال: مثلٍ للذين كفروا، ومثلَيْن للذين آمنوا.. فأما المثل للذين كفروا فينطوي على أنَّ الكافر يعاقب على كفره، وعداوته لله ورسله، ولا ينفعه، مع كفره، ما كان بينه وبين المؤمنين من لُحمة نسب أو صلة مصاهرة، أو أي سبب من أسباب الصلة أو القرابة.. لأنَّ جميع الأسباب تتقطع يوم القيامة، إلا ما كان منها متصلاً بالله وحده، أو على يد رسوله ﷺ. فلو أنَّ القرابة أو المصاهرة أو الزواج، مع عدم الإِيمان، وعدم العمل الصالح، ينفع في شيء، لكانت نفعت الصلة التي كانت قائمة بين نوحٍ ولوطٍ عليهما السلام وبين امرأتيهما، أي صلة الزوجية. ثم إنَّ صلة الأبوّة لم تنفع ابن نوح عليه السلام الذي عصى أباه وغرق في الطوفان؛ كما لم تنفع صلة العمومة أبا لهبٍ عمَّ النبيّ محمد ﷺ، الذي أبى إلَّا الكفر برسالة ابن أخيه، فابنُ نوحٍ وأبو لهب ظلا على كفرهما، ولم يؤمن الأول بدعوة أبيه، ولا آمن الثاني بدعوة ابن أخيه شيئاً، ولم يُغنِ نوحٌ عن ابنه شيئاً، ولم يُغنِ محمد ﷺ عن عمه شيئاً، كما لم يغنِ كلٌّ من نوحٍ ولوطٍ عليهما السلام عن امرأته شيئاً..

وأما المثلان للذين آمنوا فهما: مثلُ امرأةِ فرعون، ومثلُ مريمَ ابنة عمرانَ.

أما المثل الأول فيبيِّن أنَّ اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئاً إذا فارقه في كفره وعمله، فمعصية العاصي لا تضر المطيع شيئاً في الآخرة، وإنْ تضرر بها في الدنيا. كما يحدث، أحياناً كثيرة، في اتصال الإِنسان مع الكفرة الفاجرين. وهو الاتصال الذي يعتبر بحد ذاته ضرراً للمؤمن، على أن يكون في قرارة نفسه مؤمناً حقّاً، وأن يعمل بوحي هذا الإِيمان، كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً، أي كلما لم يكن فيه أذيةٌ من الكافرين.. كما هو الحال مع امرأة فرعون، فقد كانت ترى كفر زوجها، وطغيانه وشروره.. ولكنها في قرارة نفسها كانت مسلمة صادقة الإِيمان، فاتصالها به لا يضرها شيئاً طالما أنها لم تفعل فعله. هذا مع الإشارة بأنَّ الإسلام الذي بلّغه محمد ﷺ للناس قد منع على المرأة المؤمنة المسلمة أنْ تبقى على عهدة زوجها الكافر، وأتاح لها مفارقته حتى تحفظ إيمانها ودينها، وهذا ما حاولت امرأة فرعون المؤمنة أنْ تفعله، فكان جزاؤها القتل على يد زوجها الكافر..

وأما المثل الثاني للذين آمنوا فكان مريم بنت عمران عليها السلام. التي لا زوج لها مؤمناً كنوح أو لوط عليهما السلام، ولا زوج كافراً كفرعون..

فيكون السياق القرآنيّ قد بيّن الصلات التي يمكن أن تقوم بين الناس، وأهمها الصلة التي يقيمها الإنسان بينه وبين ربه وتأتي من ثَمَّ صلاتُ القرابة والرحم والمصاهرة وما إلى ذلك.. ويبرز ذلك في الأمثال القرآنية على النحو التالي:

١ ـ المرأة الكافرة التي لها صلة بالرجل المؤمن الصالح.

٢ ـ المرأة المؤمنة الصالحة التي لها صلة بالرجل الكافر.

٣ ـ المرأة المؤمنة العذراء التي لا صلة لها بأحد من الرجال، لا من المؤمنين ولا من الكافرين، بل علاقتها بربّها تبارك وتعالى.

فالأولى لا تنفعها صلتها وسببها. والثانية لا تضرها صلتها ولا سببها. والثالثة لا يضرها عدم وجود صلة لها بالعباد، طالما صلتها بالله تعالى هي الأوثق..

وفي هذه الأمثال من الأسرار البديعة ما يربط العلاقات الإِنسانية كلها ـ تقريباً ـ بالإِيمان، فضلاً عمَّا في هذه الأسرار من القضايا التي تتناسب وسياق السورة بكاملها، حيث سبق الأمثالَ ذكرُ أزواجِ النبيّ ﷺ وتحذيرهنَّ من تظاهرهنَّ عليه، وأنهنَّ إنْ لم يطعن اللَّهَ ورسوله، ولم يُردنْ الدار الآخرة، فلن تنفعهن صلتُهنَّ برسول الله ﷺ، كما لم تنفع امرأتَيْ نوحٍ ولوطٍ صلتهما الزوجية بالنبيَّيْن الكريمين.

الفقرة الخامسة ـ الشرك وظلم المشركين لأنفسهم

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِابْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1] وهذا الشرك بالله، أو هذا الظلم العظيم جاءت الأمثال في القرآن المجيد لتبيّنه بأروع الصور التي تأخذ بمجامع القلوب. وقد وردت في الآيات المباركة التالية:

١ ـ من يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق

يقول الله تبارك وتعالى:

(١) سورة لقمان، الآية: ١٣.

﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[1].

إنه تحذير من ربِّ العالمين لعباده المتَّقين، بل هو الأمر المطلق بالنهي التام، الجازم عن الرجس، الذي هو دنسُ النفس ـ بصورة مطلقة ـ ومنه عبادة الأوثان التي هي نجسٌ نفسي وجسدي في آنٍ.. ومن صوره ما كان المشركون يفعلونه في شبه جزيرة العرب من تعبدهم للأصنام، وتقديم النذور، وذبح الأضحيات عندها!.. وهذا هو الرجس أي الشرك وما يماثله من عباداتٍ، وهو الرجس أو الشرك الذي يأمر الله تعالى باجتنابه!..

و«اجتنبوا قول الزور»، أي الكذب، وتزوير الحقيقة لإظهارها على غير واقعها التي هي عليه، حتى تكونوا بهذا الاجتناب ـ إن فعلتم ـ سائرين على الطريق المستقيم، الذي هو سبيل الله الذي لا عوج فيه، غير مشركين به، لأن الشرك بالله ـ وعلى أية صورة أتى ـ دنسٌ يصيب العقول، ويلوّث القلوب، ويشوب نقاء النفس وطهارتها، تماماً كما تشوب النجاسةُ الثوبَ والمكان.. فكل شهادة غير شهادة «لا إلَهَ إلا الله»، وكل عبادة غير عبادة الله الواحد القهار، وكل كذب على الله، أو تغيير للحقائق التي يريدها الله، وإظهارها على غير واقعها.. فأيُّ شيءٍ من ذلك يكون افتراءً على الله، وشركاً به.. وكذلك فإنَّ كل اعتقاد أو تفكير أو مقولة بخلاف عقيدة التوحيد إنما هو ضربٌ من الشرك المذموم، الذي يزلُّ الإنسان باتِّباعه زللاً فادحاً، ويرتكب من جرائه أكبر خطيئة أو معصية في حياته، لأن الشرك بالله

(١) سورة الحج، الآيتان: ٣٠ و٣١.

لظلمٌ عظيم للنفس، وعظيم جداً. . من أجل ذلك يشبّه النصُّ القرآنيُّ الإنسانَ الذي يشرك بالله فكأنما سقط من شاهقٍ، من هذا السماء فوقنا، الذي لا أحد من الخلق يعرف مدى علوه وأبعاده، فتتلقَّفُهُ الطيورُ الجوارحُ، لتمزّق لحمه إرباً إرباً، وتكسّر عظامه قطعاً قطعاً، ثم تبتلعه في حواصلها، أو تذري أجزاءه في كل ناحية.

قال ابن عباس: «يريد تخطف لحمه». . وقال الزجاج: «أَعلَمَ اللَّهُ سبحانه أن بُعْدَ من أشرك بعبادته عن الحق كبُعْد من خرَّ من السماء فاختطفته الطير، فتمزَّق مِلَعاً في حواصلها».

ثم تأتي الصورة الثانية لمن يشرك بالله، فكأنما عصفت به الريح الهوجاء العاتية، وهوت به في مكان عميق، بعيد الغور لا قرار له، فلا يكون له ثمة أملٌ في نجاة، لأنَّ الهلاك محتومٌ عليه عندما تهوي به الريح في مكان سحيق.

فالآية الكريمة ترسم لنا مشهداً مرعباً لمن يشرك بالله جلَّ وعلا. وتتبدَّى في هذا المشهد سرعة الحركة مع عنفها وتعاقب خطواتها، وخاصة عند بدء اللفظ (بالفاء) وعند عرض المنظر (بسرعة الاختفاء)، وهي صورة قرآنية صادقة لحال من يشرك بالله، فيهوي من أفق الإِيمان السامق إلى حيث لا قرار له، ولا نجاةَ، بل ضياع في العدم كأنه لم يكن أبداً.

فتأمل صدق هذا المثل ومطابقته لحال من يشرك بالله، ويعبد سواه، ويستعين بغيره. . ثم انتبه إلى أنك تجد في هذا التشبيه أمرين:

أحدهما: أنه تشبيه مركّب لأنه يُشبِّه من يشرك بالله تعالى بالرجل الذي تسبب في هلاك نفسه هلاكاً لا يرجى معه نجاة، ولأنه يصور

حاله بصورة من خرَّ من السماء فاختطفته الطير في الفضاء ثم مزقته مزقاً في حواصلها. أو عصفت به الريح، وهوت به في أوديةٍ سحيقة، بعيدة الأعماق.

وثانيهما: أنه من التشبيه المفرق، فيقابل كل واحد من أجزاء الممثَّل بالممثَّل به. وعلى هذا يكون قد شبَّهَ الإِيمان والتوحيد في علوهما وسعتهما وشرفهما بالسماء، ثم ربطهما بها لأنها هي مصعدهما ومهبطهما.. ثم شبه تارك الإِيمان والتوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين، من حيث وقوع الهلاك، ومن حيث تأكد الخسران. وقد كنَّى بالطير التي تخطف أعضاءه وتمزقها كل ممزق عن الشياطين التي تغريه وتقوده إلى مظانِّ هلاكه. فكل شيطان يستولي على جزء من تفكيره واعتقاده، كما لكل طير مزعة من لحمه وعظامه. أما الريح التي تهوي به في مكان سحيق فهي هواه الذي يحمله على إلقاء نفسه في أسفل مكانٍ، وأبعده عن الحق، وهو المكان الدون الذي تغطيه ظلمة الكفر والشرك. يقول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾[1]، أي مثل إضلال الذين لا يجتنبون عبادة الأوثان، أو لا يجتنبون قول الزور، بسبب الشرك، كذلك يضل الله كل مشركٍ، مسرفٍ في شركه، متجاوزٍ بكذبه كل ما شهدت به البيّنات على صدق دعوات الأنبياء والرسل...

٢ ـ ضعف الذين يعبدونهم من دون الله مثل الذباب في ضعفه

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ

(١) سورة غافر، الآية: ٣٤.

ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ۞ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(١).

إنه النداء والنفير العام، الذي يشمل كل آفاق الوجود الإنساني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾! فلئن أصاخَ الناسُ السمعَ، لوجدوا أنهم أمام مَثَلٍ ضُرب لهم للعظة، والتذكرة، والتنبّه من الغفلة في جوهر معتقداتهم، وأساس وجودهم، وليس للتمثيل على حالة خاصة، أو مناسبة حاضرة. وهذا المثل الذي يدعوهم نداء الحق تبارك وتعالى لأنْ يستمعوا له، يضع قاعدة، ويثبت حقيقة: فأما القاعدة فهي أنَّ الحق حق، والباطل باطل، فعبادة الله تعالى هي الحق، وعبادة غيره من مخلوقاته هي الباطل. وأما الحقيقة فهي أنَّ تلك المعبودات، من دون الله، لا تقدر على أي خلقٍ، مهما كان شأوه، كبيراً أو صغيراً، حتى ولو كان ذباباً.. وكلاهما ـ القاعدة والحقيقة ـ يقررهما القول الصادق المبين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾..

يا أيُّها الناس: إنَّ مَن تدعون من دون الله، من تلك المعبودات المدَّعاة، التي لا شأنَ لها ولا قدر، من أصنامٍ وأوثانٍ، أو من بشرٍ، أو من كواكب سيارةٍ، أو من آلهةٍ مختلقةٍ في السماء.. أو غيرها ممّا تزعمون أنها تمدُّكم بالعافية، أو السلطان، أو تعينكم في طلب الرزق، أو أيِّ شيءٍ قد تبغونه!... فإنَّ دعواتكم لها، وطلب عونها كله باطلٌ، ولا جدوى منه، لأنَّ تلك المخلوقات، أو بعضها لا يقدر على

(١) سورة الحج، الآيتان: ٧٣ و٧٤.

شيءٍ إلّا أنْ يشاء الله؛ والدليل أنَّ تلك الأرباب المتفرقة، التي تطلقون عليها ـ جزافاً ـ تسمية آلهة، ليس لديها أدنى قدرة، أو أدنى إمكانية على خلق ذباب ولو اجتمعوا له، وتعاونوا عليه، مع أنَّ الذباب من الكائنات الحية الأقل صغراً في دنيا الأرض. . .

ولكن ليس الأمر في الخلق منوطاً بالصغر والكبر من حيث الأحجام والأشكال، إذ الذي خلق الذباب الصغير من الحشرات، هو الذي خلق الإبل، والفيل، والزرافة، والثور الوحشي، وأصغر دودة في صخرة، أو في بطن ثمرةٍ، أو في طعامٍ أو شرابٍ عفن؛ بل وهو الذي خلق هذا الإنسان الذي اتخذ من دون الله أنداداً. . أما تلك الأنداد المخلوقة ـ أصلاً ـ فلا تقدر على الخلق، لأنَّ الخلق من صفات الله الخلّاق العليم، وقد تفرَّد سبحانه بسرّ الخلية التي ينشيء منها الكائنات الحية جميعاً، وهو السرّ المعجز الذي يهب الحياة، فسيّان في خلقه الذباب أو النملة، وسيان في خلقه الحيوان أو الطير أو الإنسان، أو السماوات والأرض، فكلُّها في سرّ الخلق سواء، وفقاً لمشيئة الخالق العظيم. . وهذا ما يثبت أنَّ المخلوقات، أياً يكن جنسها أو نوعها، عاجزة عن خلق أي كائنٍ حيٍّ، حتى ولو كان ذباباً، مما يبرز الحكمة في اختيار المثَل القرآني للذباب الصغير، الضعيف من أجل إظهار ذلك العجز، وعدم الاستطاعة؛ فالعجز عن خلق كائن مثل الذباب في صغره وضعفه، يؤكد انعدام الصفة لمن يتوهم لديه القدرة على الخلق. . وهذا من بديع الأسلوب القرآني العجيب، بل ومن روعة الإِعجاز في المثل القرآني. .

ويخطو التعبير القرآني خطوة أوسع في إبراز الضعف المزري لمعبوداتهم، وذلك عندما يقول الله تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا

يَسْتَنقِذُوهُ مِنْـهُۚ﴾. . فتلك الآلهة المزعومة لا يقف وهنها، وعجزها عند عدم استطاعتها خلق الذباب، بل وينعدم شأنها بتاتاً إنْ يسلبها هذا الذباب شيئاً بحيث لا تملك أية قدرة أو وسيلة على استنقاذه أو استرجاعه منه. . وهذا ما يوحي بأنَّ هذا الكائن الخفيف، الطري والهزيل هو أقوى من تلك المعبودات لأنه يغلبها في استلاب أشيائها، وتعجز عن استنقاذها منه. . ولعلَّ المراد بقوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ هو أنَّ الذباب قد يكون سبباً لبعض الأمراض، أو للقضاء على الحياة، لما يحمل، أحياناً، من ميكروبات السل أو «التيفوئيد»، أو «الديزنطاريا»، أو رمد العيون، أو غيرها، من الأمراض التي قد تؤذي مَنْ تصيبه، أو قد تقضي عليه. . أفرأيت لماذا اختار المثل القرآنيّ (الذباب بالذات) ولم يستعمل مثلاً لفظة «السباع» بدلاً من الذباب، لأنه لو قال: «وإن تسلبهم السباع شيئاً لا يستنقذوه منها» لأوحى ذلك بالقوة بدل الضعف، وبالثقة بدل الانهزام، وهذا مع العلم أنَّ السباع قد لا تسلب شيئاً أعظم مما قد يسلبه الذبابُ، فأيُّ منهما قادر، بخاصيته، على أنْ يسلب من الإنسان الحياة، وذلك بافتراسه من السباع، أو بالمرض الذي يسببه له الذباب!. . ولكنه الأسلوب القرآنيّ العظيم، فتأمَّل!!. .

ويسترسل المثل القرآنيّ في التصوير الموحي عندما يقول معقّباً: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ فكلاهما في منتهى الضعف: الآلهة المدّعاة، والذباب على حدٍّ سواء. . فإذا كانت الآلهة التي يعبدونها من دون الله عاجزة عن إنقاذ ما يسلبها الذبابُ، وهو الكائن الحقير المعروف بهزاله وضعفه، فمعنى ذلك أنَّ تلك الألهة أشدُّ ضعفاً منه. وهذا أدلّ شيء على هوانها وحقارتها. . ويروى عن ابن عباس أنَّ

المشركين كانوا يطلون أجسام آلهتهم (الأصنام) بالزعفران، ورؤوسها بالعسل، ثم يغلقون عليها الأبواب، فيدخل الذباب من الكوى، فيأكله.. ولعلَّ في هذا الربط من ابن عباس بين النص القرآني وما كان يفعله المشركون ما يظهر الصورة الحسية كيف أنَّ الذباب كان يهزم أولئك المشركين أنفسهم، حتى عندما كانوا يريدون إظهار التقديس لتلك الأوثان التي يتعبَّدون لها، فيأتي الذباب ويسلبهم كل مظاهر ذلك التقديس.. دون أنْ يجعلهم ذلك يتفكرون بمهانة تلك الآلهة التي لا تردُّ عنها غائلة حشرة ضئيلة!.. فكان حقاً أن يكونوا وآلهتهم ضعافاً لا يقدرون على شيء من دون الله العليِّ القدير؛ وإنَّ عدم إدراكهم لمن يملك حقاً ويقيناً القوة، والقدرة والمشيئة جميعاً هو ما أدَّى بهم إلى ذلك الانحطاط الفكري والشعوري، فجعلوا من تلك الآلهة المهينة شركاء لله تعالى، وبلغ من سفاهة أحلامهم أنهم ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ بما هو أهل للتعظيم، والتقديس والإجلال والإكرام؛ وبما يتصف به سبحانه من الصفات العليا، والأسماء الحسنى التي لا تكون إلَّا لله ربِّ العالمين.. وكل ذلك إنما يدلُّ على مدى الجهالة، والضلال، وعلى مدى الشرك الذي طبع على قلوب أولئك المشركين والكافرين الذين يدعون من دون الله عزَّ وعلا آلهةً لا تقدر على خلق ذباب، ولو اجتمع المشركون وتلك الآلهة على هذا الأمر!.. وهذا ما يجعل اختيار الذباب أروع مثل ينطبق عليهم، وعلى معبوداتهم التي لا تنفع ولا تضرّ بشيء..

٣ ـ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً هو أوهن البيوت

يقول الله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ

ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ❁ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ❁ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ❁ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

إنَّ هذا المثل، فوق أنه يعبّر عن الدقة والواقعية في التصوير (كما أشرنا إليه في مقدمة هذا الكتاب)، فإنَّ من يتأمل نصوصه بإمعان يلفته استعمال «أولياء» التي تدلُّ، عادةً، على النصرة؛ فالوليُّ ـ عرفاً ـ هو المتولي للنصرة، فهو، إذاً، أبلغ من الناصر، لأنَّ الناصر قد يكون ناصراً بأمر غيره، في حين أنَّ الولي هو الذي يتولّى النصرة بدافعٍ من نفسه، وهذه النصرة هي ما كان المشركون يرجونها من آلهتهم الصنميّة. . وهذا يعني أنَّ الذين اتخذوا من دون الله تعالى أولياءَ، لن يحصلوا من هؤلاء الأولياء على أيةِ نصرةٍ أو عونٍ، لأنها مجرد مخلوقاتٍ جامدة، لا حسّ فيها ولا حراك، فلا تنفع ولا تضر بشيء. . بل واعتقادهم بولايتها هو مجرد وهم، ودليلُ ضعفِ ووهنٍ على ما في نفوسهم. . فكان مثلهم بذلك كمثل العنكبوت التي تبني بيتاً تأوي إليه، ليكون سبيلها لتلافي الخطر؛ ولكنه، في الحقيقة، عبارة عن نسيج رقيقٍ وخفيفٍ، قابلٍ للتمزق من مجرد ملامسةٍ بسيطةٍ، بحيث لا يردُّ عنها خطراً، ولا غائلةً من برد أو حرٍّ؛ إلَّا أنها بحكم طبيعتها ـ وهي العنكبوت ـ تنسجه، وتأوي إليه، لأنه لا حيلة لها على بناء بيت أشدَّ متانةً وحمايةً. . وهذا المثل إنَّما ضربه الله تعالى للتدليل على سفاهة أحلام أولئك البشر الذين يرتجون من مخلوقات ـ عاجزةٍ عن حماية كياناتها ـ أنْ تمدَّهم بالحماية أو العون والنصرة!. . وأهمية

---

(١) سورة العنكبوت، الآيات: ٤١ ـ ٤٤.

دلالة هذا التمثيل القرآني أنَّه يبيّن هشاشة المعتقدات الباطلة، فكما أنَّ بيت العنكبوت أوهن البيوت، فكذلك آلهة المشركين المزعومة هي أوهن من أنْ يتخذوها أولياءَ، يلجأون إليهم وقت الحاجة، أو حين الضرورة.. ولو أدرك المشركون هذه الحقيقة، وهذه البيِّنة الواضحة التي يدلهم عليها القرآن الكريم لما استداموا على اتخاذ الأصنام والأوثان من دون الله تعالى أولياء لا يستطيعون لهم شيئاً... وإنَّ الله سبحانه وتعالى يعلم ما يدعون من دونه من تلك الأشياء، ويعلم ما يحيط بهم، وبأوليائهم، لأنه هو العزيز في ملكه، وهو الحكيم في خلقه..

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾. نعم إنَّ مثل المشركين في عبادتهم لآلهة موهومة، واتخاذها أولياء يدعونهم للنصرة ـ كما يتوهمون ـ هو منتهى الضعف في الاعتقاد والعبادة، فمثلهم في ذلك كمثل العنكبوت في بناء بيتها الذي هو غاية في الضعف والهوان. وتلك الأمثال يضربُها الله للناس حتى يتبين لهم الحق من الضلال، والأصالة من الزّيف، ولكن لا يعقل تلك الأمثال إلّا العالمون بحقائق الأشياء، الذين قدروا اللَّهَ حق قدره، فعبدوه حقاً ويقيناً، ولا يشركون بعبادة ربّهم أحداً.

وتبقى الأمثالُ في القرآن المجيد تذكرةً لجميع الناس، وإنْ كان لا يعي التذكرة إلّا من يعلم وجه الشبه بين المَثَل والممثَّل به.. ولذلك استهزأ المشركون بهذا المثل إذ استعصت الحقيقة على عقولهم وأفهامهم، ولم تدخل إلى قلوبهم، فقالوا: «إنَّ ربَّ محمدٍ يتحدث عن الذباب والعنكبوت». وفي هذا منتهى السخف، لأنَّ التشبيه لم يهزَّ مشاعرهم، والتمثيل لم ينبّه عقولهم، وما ذلك إلّا لأنهم لا

يعقلون، فهم أقلّ حظّاً من الأنعام وأضل سبيلاً. وهو شأن أهل الشرك والضلال في كل زمان ومكان، لا يعقلون أمثال الله تعالى، ولا يعلمون عظاتها البليغة!.. وعلى خلافهم يكون أهل الإِيمان وأصحابُ دعوة الحق، إذ يقفون أمام الأمثال التي يضربها الله تعالى في القرآن خاشعين، مصدقين، عارفين بحقيقة تلك الأمثال، وما تهدف إليه من النهي عن الشرك والإلحاد، وعن مغريات الدنيا وإغواءاتها؛ أو ما ترمي إليه من بيانٍ للقوى ومصادرها، ووجوب العمل وفق السنن الثابتة في استخدام هذه القوى، وكل ذلك حتى يتبيَّن ـ دائماً ـ الحق من الباطل، والإِيمان من الشرك، والعقيدة الصحيحة من العقائد الفاسدة..

٤ ـ مثل المشرك في تعدد معبوداته كَمثلِ رجلٍ يمتلكه شركاء متشاكسون

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

القرآن الكريم هو كتابُ الله المبين. ولقد ضربَ فيه سبحانه للناس من كل مثل يبصِّرهم بأمور حياتهم، وبكل ما يتعلق بالمبدأ والمعاش والمعاد، فيسيرون على نوره الهادي في دينهم ودنياهم. ولذلك كان المأمول من الناس، وممَّن يتّبعون القرآن ـ بالذات ـ أنْ يتذكروا ذلك، فيتدبروا ما فيه من أمثالٍ جامعة، شاملة، ذات معانٍ ومدلولاتٍ تحيطهم علماً بكل ما تناولته هذه الأمثال..

---

(١) سورة الزمر، الآيات: ٢٧ ـ ٢٩.

وهذا القرآنُ أنزلَهُ ربُّ العالمين على قلب محمد ﷺ النبيِّ الأمي العربي، الذي بعثه خاتماً للنبيين وسيداً للمرسلين، فكان محتوماً أنْ يكون القرآنُ بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، وكان محكوماً، كما هو مقدر في اللوح المحفوظ، أنْ يكون قرآناً لا عوج فيه، لأنه يحمل أكمل الرسالات السماوية، وأتَّمها نعمةً للناس كافة، بل وأعظم من ذلك أنه قول الله الحق، أنزله بالحق، ويهدي إلى الحق، ليَقرَأه محمدٌ ﷺ على الناس باللسان العربيّ الفصيح، فيجدوا فيه حسن السبك والصياغة، وعظيم المبنى والمعنى، مما يقرّر إعجازه، ويقود إلى تقوى الله، التي تُبعد الناسَ عن المعاصي، وخاصة الشرك، والكفر والإِلحاد..

ومن الأمثال التي ضربها الله للناس في هذا القرآن، والتي تُبيِّن سوء الشرك، هذا المثل عن رجلٍ يملكه شركاء عديدون، يخاصم فيه بعضهم بعضاً، بينما هو محتار بينهم، لا يعرف كيف يوزع نفسه ليقومَ على خدمتهم. وقد يكون الخدم في البيوت أقربَ من يجسِّدون هذا المثل القرآنيّ؛ فالخادم قد يتلقى الأوامر والتعليمات من سيدة المنزل، ومن رب الأسرة، ومن الأولاد والأحفاد.. وكلٌّ قد يكون له طلبات، وعلى الخادم تلبيتها، وكلٌّ قد يكون له طريقته في توجيهه للقيام على خدمته شخصياً، أو على خدمتهم جميعاً.. مما يجعل هذا المسكين يضيع بين أهوائهم المتضاربة، ونزعاتهم المختلفة، لا يعرف كيف يتصرف، ولا يدري ماذا يفعل، الأمر الذي يجعله عاجزاً عن إرضاء أحدٍ منهم، لأن خلافاتهم حول خدمتهم، فرَّقت اتجاهاته، فصار بلا نفع.. ولكن هذا الخادم، أو هذا الرجل الذي يتشارك في إعطائه الأوامرَ أشخاصٌ عديدون ـ قد تختلف طباعهم وأهواؤهم ونزعاتهم

إلى حدّ المشاكسة ـ لا بدَّ أنْ تختلف حياته، وطريقة سلوكه عن رجل آخر مثله، إلّا أنه يخضع لإرادة سيد واحد، هو الذي يطلب منه ويكلّفه، فيعرف ما يُطلب منه، وما يكلف به، فيؤدي واجبه بأمانة وسرعة، لأنه على منهج واحدٍ في المأمورية والتسيير. فهل يستوي هذا الرجل المنقطع إلى سيد واحد، مع ذلك الرجل المشتت بين أسيادٍ كثيرين متنافرين؟ وهل يكون مثلهما واحداً في واقع الحياة؟ إنهما لا يستويان، بكل تأكيد، مثلاً. . وهذان الرجلان يمكن أنْ يمثل بهما على المؤمن والمشرك، اللذين لا يستويان في العقيدة والعبادة والتوجّه. فالمؤمن بحقيقة وجود الله تعالى، وملائكته وكتبه ورسله يسير على هدي الدين القويم، فتكون نفسه مطمئنةً، ويكون قلبه مرتاحاً، لأنه يؤمن بإلّه واحدٍ أحدٍ، ويعبد ربّاً واحداً، وبذلك فهو لا يضل ولا يشقى. وأما المشرك فهو الذي تتوزعه الأهواء والشكوك، وتتقاذفه الشياطين والأبالسة، وتتنازعه الرغبات والشبهات، فيضيع بينها جميعاً، ويصير مهووساً، قلقاً لا يجد راحة في التوجيه، ولا سلامةً في الطوية، ولذلك يكون محكوماً عليه بالضلال والشقاء.

أجل هذا هو الفارق بين حال المشرك الذي تتلبسه الشياطين فتقذفه إلى أتون الشرك، ليضيع في الأهواء المتضاربة، والرغبات الجامحة، وبين حال المؤمن الذي يستقيم على عبادة الله الواحد الأحد، وقد هداه ربُّهُ إلى اليقين والطاعة، فكانت له من إيمانه نعمة كبرى تستحق الحمد والثناء على ربّه تعالى الذي هداه، وأنعم عليه. . . فـ«الحمد لله» حمداً دائماً، إذ لطفَ بنا فعبدناه وحده، وأخلصنا له الإِيمانَ والتوحيد. وهذه هي النعمة السابغة علينا وعلى جميع المؤمنين الصادقين، الذين وفقهم اللَّهُ تعالى لحمده، وشكره

والثناء عليه. ولكنَّ أكثر الناس لا يقرون بهذه النعمة العظيمة، فيجحدون فضل الله تعالى عليهم، ويلوذون إلى أربابٍ موهومة، فيعيشون في القلق والشقاء.. ثم إنهم يجهلون مصيرَهم في العذاب الذي ينتظرهم على عبادتهم الضالة، وجحودهم المنكر. ولذلك كان منهاجُ القرآن هو الطريقُ الواضح للهدى والاستقامة، إذْ يبيّن بأمثاله حال المؤمن، وحال المشرك، ويميّز بأحكامه حقيقة الإِيمان وبطلان الكفر، ولكنَّ أكثر الناس غافلون عن هذه الحقائق، لأنهم لا يلجأون إلى القرآن، حتى يهتدوا بهداه، ولا ينيبون إلى الله تعالى، حتى يحتموا بحماه..

٥ ـ ضرب الله مثلاً للناس من أنفسهم

يقول الله العزيز الحكيم: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(١).

من يقرأ سورة الروم ـ في القرآن الكريم ـ يجد في أوائل هذه السورة الآيات التي تحث الناس على أنْ يتفكروا في أنفسهم، وفي خلق السماوات والأرض. كما أنها تبيّن أنَّ الله جلَّت عظمته ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق، وأجلٍ مسمّىً، وأنه هو الذي يبدأ الخلق البشري، ثم يعيده، في النشأة الأخرى، حيث يرجع الناس إلى ربّهم للحساب، والحياة الآخرة.. ومثل هذه الدعوة للتفكير، والتأمل في ظواهر الحياة البشرية، وظواهر الكون إنما ترمي

(١) سورة الروم، الآية: ٢٨.

إلى توطين النفوس على الإيمان بالله تعالى، وأنه هو الخالق العظيم، الذي خلق كل شيء في السماوات والأرض. . .

وهذه الحقيقة التي يجب أنْ تستقر في الأذهان، تستدعي من الناس الإقرار بوحدانية الله تعالى، وأنَّ من الأدلة والبراهين على الألوهية المطلقة، والربوبية المطلقة لله عزَّ وعلا، أنه هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، بحيث يكون الناس جميعاً، خاضعين في إيجادهم وإنشائهم، وفي تدبير شؤونهم وتقرير مصائرهم إلى رّبهم العلي القدير. . وهذا ما تهدينا إليه آيات القرآن المبين ـ سواء التي وردت أو لم ترد فيها الأمثال ـ التي تتحدث عن سنة الله في خلق بني آدم. . ولكنَّ المشركين في شبه جزيرة العرب كانوا يرفضون ، في بداية الدعوة، التصديق بما تثبته هذه الآيات بالأدلة العقلية والحسية واللغوية، ولذلك لم يذعنوا للحقّ الذي كان يبلّغهم إيّاه النبي ﷺ من أنَّ القرآن هو كتاب الله المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، بل ولم يؤمنوا ببعث النبيِّ محمّدٍ ﷺ الذي كان يدعوهم إلى ترك معتقدات الشرك فأنزلت هذه الآية المباركة التي تضرب لهم المثل من أنفسهم، لإفهامهم ـ وإفهام الناس كافة ـ معنى الشرك في التعبّد لأرباب متفرقة، مع ما يحمل هذا المثل من الاحتجاج الصاعق، والتقريع لعقولهم، وهو يسألهم بتوبيخ: «هل لكم من ما ملكت إيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواءً؟!. . فأخبرونا، أيها المشركون، هل لكم من العبيد والأرقاء الذين تملكونهم من شركاء في ما رزقناكم من الأموال والمملتكات، فأنتم وإيّاهم متساوون في الشراكة حتى لتخافوا أنْ يقاسموكم أرزاقكم مثلما يتقاسم، عادةً، الشركاءُ الأندادُ الأموالَ المشتركة فيما بينهم؟ وقد فسَّر ابن عباس أنَّ ما

يرمي إليه النص، هنا، هو الإرث، فقال: «تخافون عبيدكم أنْ يرثوكم كما تتوارثون أنفسكم بين بعضكم بعضاً». . أم أنَّ ما تملكون، أيها المشركون، هو خالص لكم، فلا تريدون أنْ يشاطركم، أو ينازعكم فيه أحد؟! بل وقد تكرهون أحياناً المشاركة مع أناسٍ أمثالكم، لأنَّ كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض، فإذا كان الأمر كذلك مما تأباه نفوسكم، بحيث تأنفون حكماً، وتستنكفون أنْ يشارككم أحدٌ من عبيدكم بشيءٍ مما تملكون أو تورثون. . فكيف تشركون، إذاً، في عبادة الله بعض مخلوقاته وعبيده، وقد أخذ عليكم الميثاق ألّا تشركوا بعبادة ربكم أحداً؟ أم كيف تجعلون ممَّن خلَقَ شركاء له في ما رزقكم فقلتم: هذا لله وهذا لشركائنا؟![1].

وتظهر روعة المثل عندما يقول الله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي أنه تعالى ضربَ لهم مثلاً بمواليهم، وعبيدهم، وهم بشر مثلهم، فكان المثل من أنفسهم، أي من جنسهم، ومع ذلك يستعظمون أنْ يكون هؤلاء المماليك شركاء لهم في أشياء مادية، ثُمَّ لا يستعظمون أنْ يجعلوا بعض الأشياء الجامدة، الحقيرة شركاء لله تعالى، فيتخذونها آلهة وأرباباً تقربهم إلى الله زلفى، أو ربما يتعبَّدون لها، من دون الله!. . إنهم لا يجيزون أنْ يشاركهم عبيدهم في أرزاقهم، ويجيزون لمخلوقات الله عزَّ وجلَّ أنْ تشاركه في بعضٍ من صفاته!. . فأي حكم خاطئ هو هذا؟! وأي نظر قاصرٍ هو ما ينظرون به إلى حقائق الوجود؟!.

---

(١) مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٣٦].

وهذا من جميل الأمثال التي تفصّلها الآيات لأصحاب العقول النيّرة، المتحررة من ربقة الجهل والضلال، ومن آصرةِ التبعية والتقليد، بحيث يهبهم الله تعالى معرفة الحقائق الثابتة، وإدراك النتائج الصحيحة التي يسعون إليها. . ولذلك كان ضرب الأمثال في القرآن الكريم، مما يدخل في تفصيل الآيات لقوم يعقلون معانيها، ويقفون على أبعادها ومراميها، كي يتدبروا ما فيها من الحكمة، والموعظة، والتوجيه والإرشاد. .

٦ ـ للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السَّوء ولله المثل الأعلى

يقول العزيز الحكيم: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ * لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(١).

لقد بات واضحاً أنَّ من أهم الأهداف التي يتوخاها القرآن الكريم تصويب المعتقدات، والتصورات والمفاهيم الخاطئة التي تسيطر على الناس، وتقودهم، فعلاً، إلى الضلال والخسران. كما هو الحال في كثير من المعتقدات، والعادات في الجاهليات القديمة، أو في الجاهلية الحديثة التي يعيشها الناس في أسوأ وأبشع مظاهرها! . . ومن قبيل ذلك ما كان يفتري به المشركون في شبه الجزيرة العربية من كذب على الله تعالى وذلك بنسبة الشريك له أو الولد! . . إذ كانوا يتوهمون بأنَّ الملائكة هم بنات الله، بينما الملائكة هم عبادٌ لله مكرمون يعملون بأمر ربهم، ولا يعصونه، بل هم دائمون على تقديسه، وعلى عبادته، لا يملون، ولا يفترون. .

---

(١) سورة النحل، الآيات: ٥٧ ـ ٦٠.

وقد نزَّه الله سبحانه وتعالى نفسه عما كانوا ينسبون إليه من تجسيد، فهو جلَّ جلاله لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له وليّ من الذل، فتعالى الله عما يصفون علواً كبيراً، وخسئ من ينسبون للخالق العظيم ما ليس من صفاته، وما لا يليق بعزته وجلاله، والذي لا يعدو أن يكون دليلاً على تقديرهم الجاهل، وعلى ما يتحكم بهم من البلاهة وسوء الظن بالله تعالى، وإلّا كيف يصل بهم الحال إلى أنْ يجعلوا لله سبحانه البنات، ولهم ما يشتهون من الذكور؟! ولا يعفيهم من تلك التبعة الجسيمة أن يقروا ذلك الاعتقاد الخاطئ إلى العادات القبيحة التي ورثوها، وأنماط العيش السيئة التي كانوا يعيشونها، والتي حملتهم بالتالي على كراهية البنات، وعدم الرغبة في إنجابهنَّ، كما كان يظهر في سلوكهم، بحيث أنه إذا بشّر أحدهم بأنثى وُلدت له، اكفهرَّ وجهه حتى بدا أسودَ كالحاً من سوء البشرى، وما ولَّدت في قلبه من الغيظ، وفي نفسه من الحنق على حظه التعيس العاثر..

ولشدة ما كانت ولادة الأنثى تغيظ المشرك، وتحزنه، فقد كان يتوارى من القوم، خجلاً، حيث يختلي بنفسه، بعيداً عن الأنظار، وهو حائر، متردد بين أنْ يترك وليدته حيَّةً فيربيها، أم يدسُّها في التراب، ويتخلَّص منها!.. وهذا ما يصوّر أشقى الحالات النفسية، الناتجة عن موروثات اجتماعية، كان يعيشها المشركون في الجاهلية، وكانت تدفع أكثرهم لأن يئدوا المواليد الجديدة من الأناث!.

أما تلك الموروثات الجاهلية فمردها إلى حياتهم التي كانت تقوم على الغزو، والسلب، مع ما يرافقهما من سبيٍ للنساء والبنات، وهو الأمر الذي كانوا يخافون من عاره، أكثر من خوفهم على

حياتهم، فيؤثرون وأد الأنثى حين ولادتها، لئلا تجرَّ عليهم ذلك العار المشين يضاف إلى ذلك أنَّ حياتهم في الصحراء القاحلة، التي تقوم على شظف العيش، وعلى الفقر والعوز، قد جعلتهم يرون في البنات عبئاً إضافياً على العائلة، لأنهنَّ لا يكدحن ـ غالباً ـ في طلب الرزق، ولا يقاتلن، مثل الرجال.. أما ما وراء ذلك كله، والذي يشكل العنصر الفكري الأساسي، بل والانحراف الاعتقادي الذي قادهم إلى وأد بناتهم، فقد كان الشرك، كما يبيّنه قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾[1]..

ولا يستقيم المعنى إلَّا إذا ربطنا بين هذه الآية، والآية التي سبقتها في سورة الأنعام[2]، والتي يتبيّن منها أنهم كما جعلوا للأصنام التي يتعبَّدون لها نصيباً من الحرث والأنعام، بحيث يصرفونه إلى سدنتها، الذين زينوا لهم تلك القسمة ما بين حق الله تعالى ونصيب أولئك السدنة، كذلك، أي ومثل ذلك ما زين لهم شركاؤهم الكافرون، من الإنس والجن، قتل أولادهم البنات ليهلكوهم في دنياهم وآخرتهم، فلا يعلمون من الدين إلَّا الشرك بالله، وهذا الشرك هو الذي يجعلهم يتوهون عن استدراك بشاعة تلك الجريمة التي يرتكبونها بوأد بناتهم، ولا يؤمنون بأنَّ الله تعالى الذي خلقهنَّ، هو الذي يتكفَّل سبحانه بعيشهنَّ مثل ما يتكفَّل بالرزق لجميع مخلوقاته الحية...

---

(1) سورة الأنعام، الآية: ١٣٧.

(2) قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٣٦].

ولذلك فإنَّ أسوأ ما عرفه حكم الجاهلية وأد البنات، وتفضيل الذكر على الأنثى، خلافاً لسنة الله تعالى في خلقه. فهو سبحانه قد خلق الناس جميعاً من نفس واحدة، فخلق الأنثى كما خلق الذكر، ولولا خلق البشر من ذكر وأنثى لما استمرت حياة الناس على الأرض، ولولا نظام الزوجية الذي يجمع ما بين الذكر والأنثى في العائلة الواحدة، لما بقي وجود للرجال أو للنساء، ولانتفت بذلك كل غاية من خلق البشر!.. مع أن من غايات خلق هؤلاء البشر وتكاثرهم ما يبيّنه قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾(١). فجوهر هذا النظام في الخلق يقوم على الذكر والأنثى. ومن مميزاته ألا يكون تفاضل بين المرأة والرجل، ولا بين الرجل والرجل، أو بين المرأة والمرأة على أساس الجنس أو اللون أو العرق، بل على أساس التقوى. فأكرم خلق الله عند الله سبحانه وتعالى أتقاهم في عبادته، وطاعته، والامتثال لأوامره ونواهيه.. وهذا فضلاً عن أنَّ المولود الجديد ـ ذكراً كان أو أنثى ـ يجب أن ينظر إليه على أنه خير، وبركة، بل ونعمة إلَهية، يجب إعطاؤها ما تستحق من الاهتمام والرعاية، كما يشير إليه، بل ويهدينا إليه القرآن الكريم، عندما استعمل، تعبير البشارة كدليل على الخير القادم، إذ قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾... وذلك كله مما كان الجاهليون بعيدين عنه في المعرفة والإدراك، فاحتكموا إلى سوء معتقداتهم وإلى قساوة عيشهم، فأكرموا شأن الرجل، وحقَّروا كيان الأنثى، حتى جاء الإسلام وأعاد الأمور إلى نصابها، عندما فرض الحفاظ على حياة الإنسان، وصون كرامته، ورعاية حقه بما أمر الله

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

تعالى به، وذلك بتحريمه قتل النفس المحترمة، واعتبار ذلك جريمة منكرة، يُعاقَبُ عليها الجاني، وفقاً للحدود التي تقررها الأحكام الشرعية. فكان من فضل هذه الأحكام القضاء على جريمة وأد البنات، واحترام الحق بالحياة لكل مخلوق من بني آدم، بل والحفاظ على الكائنات الحية الأخرى التي تغني الناس بالأرزاق والثمرات، وتغني البيئة الطبيعية بالجمال، وبالكثير من الموارد الحياتية..

فالإسلام هو العقيدة التي تعصم من الزلل، ومن مآثره أنه يدل الإنسان على أنَّ الرزق من الله تعالى، فهو يرزق جميع مخلوقاته، بل ويرزق من يشاء بغير حساب.

ومن مآثر الإسلام المجيدة أيضاً أنه ينظر للإنسان ـ دونما تفريق بين الذكر والأنثى ـ على أنه مخلوق كريم على ربّه الذي خلقه، فسوّاه، فعدله؛ كما ينظر للأنثى على أنها صنو الرجل، وشطر نفسه، وهي ركن أساسي في بناء الإنسان، وبناء المجتمع، مثلما هي عامل جوهري في تحقيق إنسانية الإنسان.

هكذا يريدنا الإسلام أنْ ننظر إلى وجودنا الإنساني الذي لا يستقيم إلَّا بوجود الرجل والمرأة، وعلى أساس روابط المودة والتراحم في الحياة الزوجية التي تجمعهما وفقاً لشرع الله، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١).. فهل أقبل الناس على الإسلام ليروا كيف يبني العلاقة الزوجية، من حيثُ أنَّ الله تعالى قد جعلها علاقة السكن والاطمئنان، وعلاقة الإلفة

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.

والرأفة، بل وجعلها علاقة تقوم على المحبة والرحمة، بحيث تتحد مشاعر الزوجين فكأنهما نفس واحدة في جسدين.. ولا تستقيم هذه النظرة للوجود الإنساني إلّا بتقوى الله، والإيمان باليوم الآخر، ولذلك جاء البيان القرآني بعد الحديث عن السوء الذي يسّببه الشرك من قتل الأولاد، بقول الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ فالذين لا يؤمنون بالآخرة لا يعبأون كثيراً إنْ جاءت أعمالهم حسنة أو سيئة، أو جاءت كلمتهم طيبة أو خبيثة، فهم لا يرتقبون حساباً ولا آخرة، ولا ثواباً أو عقاباً، ولذلك لا يسوؤهم أنْ يقدموا على وأد البنات، على هذا الفعل الشنيع الذي يُعدُّ عند المؤمنين أشدَّ الأعمال سوءاً وقباحةً، وأكثرها جهلاً وضلالاً، لا بل هو في نظر الإسلام دليل على عمى القلوب وقساوة المشاعر.. وليس وأد البنات إلّا مثالاً على أعمال السُّوء التي يمكن أنْ يقوم بها كل إنسانٍ، وفي أي زمانٍ عاش، إذا لم يؤمن بالآخرة، كما هو حال الكافرين والمشركين والملحدين عبر التاريخ البشري برمته!.. فكان حقاً أنْ يكون لهم مثل السَّوْء، وكان حقاً أنْ يكون لله تعالى المثل الأعلى، أي الكمال المطلق في الصفات العليا والأسماء الحسنى التي تفرَّد بها سبحانه وتعالى؛ وكان حقاً أنْ يكون سبحانه العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه، الذي لا يمتنع عليه شيء، بل هو سبحانه الذي يضع الأشياء في مواضعها، ووفق ما هو حق وعدل وصواب. ومن أجل ذلك فقد عاب الله عزَّ وجلَّ على المشركين ذلك السوء الكبير بإضافتهم إليه ما لا يرضونه لأنفسهم؛ فإذا كان الإنسان يكره إضافة القبيح إلى نفسه للمقتضى الذي يراه فيه، فكيف يجوز له أنْ يضيفه إلى الله ذي الجلال والإكرام؟ سبحانه وتعالى عما يشركون..

٧ ـ المشركون يتعبَّدون لعبادِ أمثالهم

يـقـول الله تـعـالـى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾[1].

تسوق هاتان الآيتان الكريمتان بعض الحجج القاطعة على المشركين، وهي تخاطب عقولهم وضمائرهم بأنْ يعوا، ويدركوا أنَّ ما يعبدون، من دون الله تعالى، إنْ هم إلَّا عبادٌ أمثالهم، ومخلوقات في عداد مخلوقاته، فكان وجوباً أنْ تكون تلك المعبودات خاضعةً لمشيئة خالقها، ولو كانت مخولة بالنطق لأفصحت عن ذلك بذلٍّ وخشوعٍ. وهذا الخضوع هو ما يعرف بحكم التعبيد، أي التذليل (ولذا يقال: طريق معبَّد، أي طريق موطوء).

ويدلُّ عليه أيضاً مخاطبة النبي موسى عليه السلام لفرعون مصر، عندما يقول له بأنَّ ما فعله ببني إسرائيل إنما كان تعبيداً لهم، وذلك بإذلالهم، وتسخيرهم لخدمته وخدمة بطانته، كما يبيّنه قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[2].

وتستبين الحجة، وتصبح أقوى بتوكيدها على عبودية تلك المعبودات لله تعالى، من خلال عدم استجابتها لأية دعوة يدعو بها المشركون. . إذ لو كانت آلهةً كما تزعمون يا مشركين، فادعوهم،

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٩٤ و١٩٥.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢٢.

فليستجيبوا لكم إنْ كنتم صادقين بأنها آلهة؛ ومن الطبيعي ألَّا يجيبوا، أو يستجيبوا، لأنهم في حقيقة تكوينهم، ليسوا أكثر من جماداتٍ بلا روحٍ تبعث الحياة فيهم، أو أشياءَ معدومةٍ من الإدراك الذي تمتازون به عن غيركم من الكائنات في الأرض، مما يجعل معبوداتكم ـ حتى ولو توهمتموها في السماء ـ دونكم في الرتبة والمقام اللذين فضل بهما الخالق بني آدم على كل تلك الكائنات، وهذا ما لا يستقيم معه معنى العبادة لها، لأنَّ المعبود يجب أنْ يكون أعلى شأناً، وأجلَّ قدراً من عابديه، وفقاً لما يحكم به العقل؛ إلَّا أنْ تكونوا قد أذهبتم عقولكم وخصائصكم سدىً، وهذا سببه الكفر والشرك!..

وبعد الحجج العقلية، يأتي البرهان الحسّي على هوان ما يزعمون أنها آلهة، فيسأل القرآن المشركين، وبصيغة التقريع والتأنيب: هل لآلهتكم التي تدعون من دون الله تعالى أرجل يمشون بها؟ أم هل لهم أيدٍ يبطشون بها؟ أم هل لهم أعين يبصرون بها؟ أم هل لهم آذان يسمعون بها؟ فهذه حواس وأعضاء قد جعلها الخالق في الإنسان، وزوّدها بوظائف تجعله قادراً على الإدراك والتمييز فيتحرك على ساحة الحياة، ويتفاعل مع كيانه ووجوده الإنساني؛ ومن البديهي القول أنْ ليس للآلهة التي تدعونها تلك الملكات مثلكم، مما يجعلها أقل منكم شأناً، وأدنى مرتبة، فيكون من عجيب أمركم أنْ تتعبَّدوا لمن كان أدنى منكم قيمةً ومكرمةً، وأعجب منه أنْ تدعوهم من دون الله العزيز الحكيم، أولياءَ ترجون منهم المدد والعون!.. وأنتم ترونهم على تلك الحالة المهينة من الخلْق، وعلى تلك الصورة الوضيعة من العجز، ومن غير أنْ تستدركوا ما حباكم ربكم الكريم من خصائص

جعلتكم في أحسن تقويم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[1].

وما يجدر الانتباه إليه أنَّ الله سبحانه وتعالى عندما يلقي الحجة على المشركين بأنْ ليس لآلهتهم أرجلٌ، أو أيدٍ، أو أعينٌ أو آذانٌ فذلك للتوكيد على أنهم مخلوقاتٌ مثل سائر المخلوقات الأخرى التي جعل لها مثل هذه الحواس من الإنسان والحيوان والطير، دون أنْ يكون لذلك أدنى علاقة بالتجسيد الذي يدّعيه من يزعمون أنَّ الله تعالى خلق الإنسانَ على صورته؛ فما يدّعي المشركون من وجود آلهةٍ فإنه لا وجود لها أصلاً، لأنه «لا إلَه إلّا الله» إلَهٌ واحد في السماوات والأرض، فلا شبيه له ولا مثيل، وهو «ليس كمثله شيء». . فليحذر إذاً من يعتقدون بفكرة التجسيد، لأنها زيادة في الكفر والشرك، ونحيلهم ليكونوا على يقين بوحدانية الله، وألوهيته وربوبيته المطلقة إلى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾[2].

أما وقد ثبت بالبرهان العقلي والدليل الحسيّ أنَّ ما يدعون من دون الله مجرَّد أوهام ضالّة وعقائد فاسدة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا

---

(١) سورة التين، الآية: ٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

﴿يَعْلَمُونَ﴾[١]. . . فإنَّ ما يفضح هوانَ المشركين، وهوانَ آلهتهم على السواء، الأمر الجلل لرسول الله محمد ﷺ بأنْ يتحدَّى المشركين، وذلك في محاولة جديدة، لإبطال مزاعمهم وادعاءاتهم، إذ يقول له ربُّه تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ . . قل لهم يا محمَّدُ: هؤلاء المخلوقات أمثالكم الذين تدعون من دون الله عزَّ وجلَّ وتسألونهم المدد والنصرة والمنفعة، ولاسيما عندما تقدمون لهم الأضاحي تذبحونها عند أقدامهم، أو نذور الحلية والكسوة تلبسونها هياكل أجسادهم، أو عندما تجعلونهم شركاء لكم في أموالكم وأرزاقكم[٢]. . فادعوا هؤلاء الشركاء ـ وتعاونوا وإيّاهم ـ أنْ يهلكوني، ولا تمهلوني في ذلك طرفة عين، فهل يمكن أن يستجيبوا لكم؟! أبداً، كما يدلُّ عليه خلقهم، وكما يثبت واقعهم!. . ولكن أقول لكم كما قال أخي لوط من قبل: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾[٣] يدرك معاني الحق الذي أدعوكم إليه، ويصدقكم قولي، بأنَّ ما تشركون في عبادة الله لا يقدرون على خلق ذبابٍ ولو اجتمعوا له؛ فكيف إذاً تتعبَّدون لهم من دون الله القوي العزيز؟ أما أنا، فإني عبد الله، ورسوله، ولا أشرك بعبادة ربّي أحداً. ولذلك أقول لكم أيضاً، كما قال أخي شعيب لقومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾[٤]، أي فارتقبوا سوء عاقبة أمركم، إني معكم منتظرٌ أمرَ ربّي

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٠.

(٢) تراجع الآية ١٣٦ من سورة الأنعام.

(٣) سورة هود، الآية: ٧٨.

(٤) سورة هود، ٩٣.

الذي يحلُّ لكم! . . وإلى أنْ يأتي أمر الله تعالى فإني عامل بما بعثني به سبحانه من البلاغ المبين، وإنّي والله على يقينٍ بأنه سوف ينصرني، وأنتم لا ناصرَ لكم من دون الله، وما كيدكم إلّا في تضليل! . . وهكذا فإنَّ المثل القرآني يبيّن أنَّ تلك الوثنية عند المشركين العرب ـ مثل سائر الوثنيات الأخرى ـ ليست إلّا وثنيةً جاهليةً حقاً، خالية من أية قيمة أو اعتبار بذاتها؛ بل وتصورها نصوص القرآن على أنها وثنية منحطة في ميزان العقل البشري، ولذلك تأتي مصاديق آياته الكريمة لتخاطب عقول المشركين وتوقظهم من الغفلة، وتحضّهم على التخلّي عن الإصرار والعناد في متابعة الشرك بالله تعالى، ومن ثمَّ لتبيّن لأولئك المشركين على أنهم عبادٌ لله، وأنَّ الله رؤوف رحيم بعباده، ولكنه سبحانه لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. . . فلعلَّ في ذلك كله ما يخلّصهم من العادة التي ألفوْا عليها آباءهم، فهم على آثارهم يهرعون، بحيث ينتهون عن التعبّد لتلك الآلهة التي يصنعونها بأيديهم، أو التي يتوهمونها في مخلوقات أخرى، ويقيمون من ثَمَّ العبادة الحقَّ التي لا تكون إلا لله الواحد القهار! .

٨ ـ لا يُنبئ عن خذلان الآلهة المدعاة مثل خبير بعباده

يقول الله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾(١).

ودائماً ينصبُّ التوكيدُ في آيات القرآن الكريم على هوان عقائد المشركين باتخاذهم آلهةً مزعومة، ولذلك تخاطب آيات القرآن

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٤.

المباركة الإنسان، لتقول له: ولِمَ لا تضع، أيها الإنسان العاقل مثل تلك العقائد تحت مجهر العقل، وتتفكَّرَ في ماهيتها ومنطلقاتها ومقاصدها؟! ولو فعلت لوجدت أنها عقائد فاسدة حقاً، ولثبت لديك أنَّ تلك الآلهة لا تعدو أن تكون في حسبان العقل والشعور ـ ولدى الملايين من الناس الذين يؤمنون بحقيقة وجود الله تعالى ـ مجرد مخلوقات، اقتضت الحكمة الإلهية إيجادها لاكتمال عناصر هذا الوجود، إلَّا أنَّ الإنسان تجنَّى عليها، كما تجنَّى على نفسه، فاتخذها أولياءَ من دون الله، وذلك عن جهلٍ وضلال، وخلافاً للفطرة التي فطر الله الناس عليها!.. من هنا تطرح هذه الآيةُ البيّنةَ على المشركين ألَّا يجعلوا من تلك المخلوقات آلهةً يدعونها من دون الله، إذْ على سبيل المحاكاة أو التشبيه، فهي لا تسمع كلامهم، ولا تعي دعاءهم ـ كونها جمادات صمّاء، بكماء، عمياء ليس لها أدنى حظٍ من حياة الإنسان ـ ولو سمعت، افتراضاً، دعاءَ من يدعونها، فهي لا تستجيب لهم بشيء.. لا بل إنها يوم القيامة، يوم ينطقها ربُّ العالمين، تتبرَّأ من عبادتهم لها، ومن إشراكهم إيَّاها مع الله عزَّ وعلا في العبادة. بل وإنها لتستهجنَ كيف وصل، بأولئك المشركين والكفار، السفهُ والضلالُ إلى ذلك الحد من الانحطاط الفكري والشعوري حتى عبدوها من دون الله جلّت عظمته!...

وتوكيد القرآن على تنكّر معبودات المشركين لهم، وتبرُّوئهم منهم ومن عبادتهم يوم القيامة، هو، في الأصل، من علم الله المغيب، ولكنه سبحانه وتعالى، أخبرنا به في قرآنه المجيد، بقوله المبين: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ

﴿يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1] . . وإخبارنا عن ذلك حتى يستيقن الناسُ جميعاً، ولا سيما الكافرون والمشركون، أنّ الله تعالى خبيرٌ بكل شأنٍ من شؤون عباده، سواءً وهم في الدنيا، أو في الآخرة، وأنَّ مصائر هؤلاء العباد محكومة بأمره تعالى، فكان الإخبار من لدنٍ خبيرٍ عليمٍ، ولا ينبئك، أيها الإنسان، مثل خبيرٍ بخلقه، لعلّك تدرك وتتّعظ، فيكون لك هداية وصلاح.

٩ ـ قول المشركين، لولا يكلمهم الله أو تأتيهم معجزة، هو مثل قول الذين من قبلهم

يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[2].

. . لعلَّ من الأمور التي تثير العجب ذلك الكيد من «الذين لا يعلمون»، أي من الأميين المشركين في مكة، بعدم تصديقهم أنَّ الله تعالى قد أرسل محمداً ﷺ بشيراً ونذيراً للعالمين. . ويتبدَّى ذلك في تلك الحرب الإعلامية التي شنُّوها ضدَّ النبي ﷺ، وتابعوها بكل صلافةٍ وشراسةٍ، حتى يظهروا عجزه، ويبعدوا الناس عنه، فتتوقف دعوته، كما كانوا يتوهمون. . وكان أبرز وجوه حربهم تلك، ما كانوا يطالبون به النبي ﷺ من المعجزات، كما في قولهم «لولا يكلمنا الله» ويخبرنا بأنه هو الذي بعثك، لكنّا نصدق بأنك نبيُّ الله ورسوله! . . .

(١) سورة البقرة الآيتان: ١٦٦ و١٦٧.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١١٨.

أو قولهم: لولا «تأتينا آية» من الآيات (المعجزات) التي نراها بأم العين، وقد تكون سبيلاً لنؤمن بما تدّعيه!. . .

والواقع أن الآيات التي كانوا يطلبونها هي من المعجزات التي لا لا يقدر عليها البشر. . وهذا، بالفعل، ما كانوا يتقصّدونه، بل وما لجّوا في طلبه، طوال المدة التي كان يتنزَّل فيها الوحيُ على النبيّ ﷺ وهو ما يزال في مكة!. . .

ومن المعجزات التي كانوا يطلبونها، والتي تدلُّ على عنت وخبث أولئك المشركين، في عداوتهم للنبي الأكرم، ودعوته، ما يثبته القرآن الكريم، في عدد من السور الشريفة، ومن قبيل ذلك:

- أنْ طلبوا من النبي ﷺ أنْ ينزل الله عليه كتاباً في رقٍّ فيلمسوه بأيديهمم (ليكون أنفى للشك). . ولكن الله عزَّ وعلا رد عليهم بقوله الحق: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾(١).

- أن قالوا: لولا أنزل عليه ملك يشهد له بالنبوة. . فردَّ الله تعالى عليهم بقوله المبين: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾(٢)

- أن قالوا: لولا أنزل عليه كنز من ربه حتى يجعله غنياً، فلا يحتاج إلى عمل مثل سائر الناس، وإلّا فلن نصدق بأنَّ الله بعثه نبياً رسولاً. . فجاءته المواساة من ربّه تعالى، بألّا يضيق صدره، وألّا يكون في حرج مما يتلوه عليهم من الآيات، مصداقاً لقوله تعالى:

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٨

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾(١).

بل وغالوا كثيراً في طلبات المعجزات، وتحدّيهم المنكر للنبي ﷺ، واستخفافهم بما يتوعدهم به من العذاب، حتى بلغت بهم الوقاحة والسفاهة إلى الحد الذي يطلبون أن يروا الله جلّت عظمته والملائكة معه مقابلةً وعياناً.. وتدلّ على مغالاتهم تلك هذه السلسة من المطالب الإعجازية، كما حفظتها «سورة الإسراء» في كتاب الله المجيد، حتى تكون شاهداً على مدى الجهل والضلال اللذين يطغيان على عقول وقلوب الكافرين والمشركين، فلا يرجون لله عزَّ وعلا وقاراً، ولا للنبوَّة مقاماً!!..

يقول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ۞ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ۞ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۞ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾(٢).

على أنَّ ما كان المشركون الأميون في مكة يقولونه للنبي ﷺ، أو ما كانوا يطلبون منه من المعجزات ـ وكان ذلك في أغلبه بإيعاز من اليهود في يثرب ـ لم يكن جديداً في عهود الرسالات السماوية، فقد قال منْ قبلُ مثل قولهم أحبارٌ من اليهود للنبي موسى عليه السلام: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾(٣)، أو مثل ما قال الحواريون لعيسى بن مريم عليه السلام: ﴿إِذۡ قَالَ

---

(١) سورة هود، الآية: ١٢.

(٢) سورة الإسراء، الآيات: ٩٠ ـ ٩٣.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٥٣

﴿ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾! . .[1] إذاً فقد قال مثل قول المشركين من عرب شبه الجزيرة أقوام قبلهم، فتشابهت قلوبهم ـ جميعاً ـ في عدم الإيمان بالله تعالى، وتصديق أنبيائه ورسله، أو بسبب ذلك الضعف في إيمان الحواريين، الذي اعترى قلوبهم في لحظات من الشك، وكان يمكن أنْ يودي بهم إلى الكفر والهلاك، لولا أنْ تداركهم الله تعالى برحمته، وثبتهم على إيمانهم، فأنزل عليهم المائدة التي سألوها نبيَّهم. . ولكنْ بمقابل ذلك، توعدهم سبحانَهُ بأنَّ من يكفر منهم بعدها، فسوف يعذّبه بعذابٍ، لا يعذبه أحداً من العالمين، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2].

ولقد أثبت القرآن المبين أنَّ الله تعالى كان يؤيّد مبعوثيه بالآيات الدّالة، والمعجزات الظاهرة، حتى تكون البراهين الحاسمة على صدق الدعوات إلى سبيل الله القويم؛ وقد انقضت تلك المعجزات بانقضاء تلك العهود، ولم يبقَ منها إلّا بعض من آثارها في الأرض، إلّا أنَّ أخبارها حفظت في القرآن الكريم لتبقى شواهد حيّة ـ على مدى الأزمان ـ لكلّ من يريد أنْ يتّعظ، ويهتدي إلى نور الحق المبين. .

وهنا لا بد من تكرار التوكيد، ولو على عجالة، على أنَّ المعجزة الحسيّة الدائمة، التي لن تنقضي، ولن تغيب عن الأسماع والأبصار إلى يوم القيامة، هو هذا القرآن الكريم وما فيه من الآيات التي تحمل

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٢

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٥.

الأدلة والبراهين على نبوّة محمد ﷺ، بما يجعلها يقيناً في القلب السليم، والنفس الصافية. ولكن ما نفع ذلك مع المشركين الذين ضلوا عن اليقين، وحرموا طعم حلاوة الإيمان؟ وإن الذي يجد راحة اليقين في قلبه، يجد في آيات القرآن الكريم مصداق يقينه، ويجد فيها طمأنينة نفسه، وراحة ضميره، فالآيات لا تنشئ اليقين، إنما اليقين هو الذي يدرك دلالتها، ويطمئنُّ إلى حقيقتها، ويهيّئُ القلوب للتلقي الصحيح، وذلك كله على عكس ما هم عليه المشركون الذين ضلوا عن الاهتداء إلى اليقين بنبوّة سيدنا محمد ﷺ، وتاهوا عن الإيمان بالله العلي العظيم، حتى حرموا من نعمة الشعور بطمأنينة القلوب، والعمل بضمائر حيّةٍ. . ولذلك كان بيان الآيات لقوم يوقنون. . .

١٠ ـ إنذار المشركين بعذاب صاعقةٍ مثل صاعقة عاد وثمود

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ * ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ * فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[1].

إنه خطاب من الله تبارك وتعالى لرسوله محمد ﷺ بأن يحذِّر المشركين من الكفر الذي هم عليه، فيقول لهم بلهجة الاستهجان والاستنكار ما مؤدّاه:

---

(١) سورة فصلت، الآيات: ٩ ـ ١٣.

أئنكم لتكفرون بالله، وهو الخالق العظيم، وتجعلون له شركاء في هذا الخلق، وهو الذي تفرَّد بالألوهية والربوبية؟ فما بالكم لا تعتبرون مما في أنفسكم، ومما تشاهدون في حياتكم من عجائب الخلق، وبديع الصنع، وانتظام الوجود كله مما ترون في الأرض والسماء؟! ألا ساء ما تحكمون!..

ألا تعلمون بأن الله جلت قدرته قد خلق الأرض في يومين، وجعل فيها الرواسيَ من الجبال التي تحفظ توازنها فلا تميد بكم. وبارك فيها وأنزل من السماء ماءً طهوراً جعل منه كلَّ شيءٍ حيٍّ.. ومن هذا الماء ما فيه عذوبة تشربونه، وتسقون به زروعكم وأنعامكم، ومن هذا الماء ما فيه ملوحة تصطادون منه أقواتاً لكم، وحلْيَ تتزيَّنون بها وتتَّجِرون!.. فكانت هذه الخيرات الوفيرة التي بها تنعمون.. وكلها تدلُّ على ما بارك في الأرض ربُّ العالمين. فقد بارك فيها بأنْ خلقكم من ترابها ليكون فيها قوامُ حياتكم، وقدَّر فيها الأقوات لتهتدوا إلى سبل عيشكم وطرائق أرزاقكم، ولاسيما من خلال العلاقات والمبادلات التي تنشأ بين الأمم والشعوب، التي يجب أنْ تتضافر جهودها لما فيه خير الناس ونفعهم... كل ذلك ممَّا قدَّره العليم الحكيم في أربعة أيام سواء للسائلين، أو المتعجبين من كثرة هذا الخلق وتنوعه، ومن عجيب تدبيره وتقديره.

أما مدلول هذه الأيام الأربعة، من حيث الطول أو القصر، أو المدة الزمنية التي استغرقتها، فهذا في علم الله تعالى!.. لأنَّ مقاييس أهل الأرض عن الزمن إنما هي ناشئة عن دورة الأرض حول نفسها التي تولِّد الليل والنهار، وعن دورتها حول الشمس التي ينتج عنها اختلاف الفصول والأحوال الجوية.. وهذه المقاييس لا علاقة لها

بالزمن الذي تكونت فيه الأرض، ولا بالزمن الذي تكونت فيه السماوات السبع. ودليله ما قال أهل العلم من أنَّ تكوين الأرض، بعد انفصال كتلتها عن الشمس قد استغرق أزماناً طويلة حتى بردت قشرتها وتصلَّبت، ثم مرت عليها عصور جيولوجية كثيرة حتى استقرت على وضعها الراهن.

وأما عن المواد التي تتألف منها هذه الأرض، وما فيها من الأقوات، فيقول أهل العلم: إنَّ الأرض كرة تلفها قشرة من صخر، وتلف أكثر الصخر طبقة من ماء، وتلف الصخر والماء جميعاً طبقة من هواء، وهي طبقة من الغاز سميكة لها أبعاد معروفة ومقدرة. ونحن، بنو البشر، ومعنا الحيوان والطير والنبات، نعيش جميعاً في هذه الأجواء التي جعلت الأرضِ صالحة للحياة.. فمن «أوكسيجين» الهواء نستمد أنفاسنا التي تدلُّ على بقائنا أحياءً.. ومن كربون الهواء يبني النبات جسمه. ونحن نأكل النبات، ونأكل الحيوان الذي يأكل بدوره النبات وغيره، ومن هذا النبات ولحم الحيوان نبني أجسامنا.. فهذا كله يشير إلى تقدير الأقوات، ووفرة الخيرات والبركات التي قسَّمها الخالق، وجعلها أنواعاً وأجناساً لا تعد ولا تحصى، ووزعها بين مختلف أصقاع الأرض بحسب المناخ والتربة المتناسبين مع كل نوع منها. وقد تمَّ ذلك كله في الأيام الأربعة التي لا يعلم مقدارها ومعناها إلا الله تعالى.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾.. والاستواء هنا لا يعني التجسيد والحركة، ولا احتواء الزمان والمكان ـ كما هي الحال في تقدير كثيرٍ من بني البشر ـ وإنما يعني القصد والإرادة، أي ما شاءَ الله تعالى، أنْ ينشئ ـ وعن حكمةٍ وتقديرٍ ـ في كل سماء، من السنن التي تجعلها

منتظمة مع منظومات سنن السماوات الأخرى، حتى يتكامل انتظام الكون بأسره، في تسييره وتدبيره وفقاً لمشئية الله تعالى الذي أنشأه.. وعلى ذلك فإنَّ عبارة ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ﴾ لا توحي بأنَّها جاءت للترتيب الزمنيّ، ولكن للارتقاء المعنويّ، لأن السماء في الحسّ أرفع وأرقى..

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.. وهذا ما يؤكّد انقياد الكون كله إلى خالقه بالطاعة، والاستسلام. ولا يشذُّ عن الطاعة وعن الخضوع لربّ السماوات والأرض إلّا هذا الإنسان في إعراضه عن عبادة ربّه تعالى، واتخاذه أولياءَ يجعلهم شركاء له في العبادة، ثم في عدم قبوله دعوات الأنبياء والرسل لهدايته، وهذا ما يجعله ينحرف عن الحق الذي قامت عليه السماوات والأرض، ويلجُّ بالتالي في الكفر والإلحاد والجحود!.. ولذلك كان الخطاب للنبيّ ﷺ: «فإنْ أعرَضُوا فقُلْ: أنذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَة عادٍ وثَمُودَ»، وهو الإنذار الذي يتوعَّدُهم على شركهم وكفرهم، وعدم قبولهم بالحق، بأن يحلَّ بهم العذابُ الذي أخذ تلك الأقوام الغابرة، وجعلها كالحصيد الهشيم.. فإن لم يُلاقِ أهل مكة، ومن تبعهم على الشرك، هذا العذاب في دنياهم، (لأنَّ الله تعالى قضى بألّا يعذبهم ما دام النبيُّ ﷺ قائماً فيهم، وبين ظهرانيهم، وما دام هنالك المؤمنون الذين يستغفرون الله، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾(1)).. أجل، إنْ لم يعذّب الله الناس كرمى للنبي الأعظم ﷺ واستجابةً لاستغفارهم، في الحياة

---

(1) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

الدنيا، فإنَّهم سوف يلاقون العذاب ـ ولا ريب ـ في الآخرة. وسيعلم الذين ظلموا أنفسهم ـ بالكفر والشرك ـ أيّ منقلب ينقلبون.

١١ ـ ما يعبد المشركون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل

يقول ربنا تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾[1].

إنه توجيه، ولكنه يحمل الإيناس من الله اللطيف الودود، لرسوله محمد ﷺ، بألّا يكون لديه أدنى شكٍّ ممّا يعبد بنو قومه من الأصنام والأوثان، بدعواهم أنها تقرّبهم إلى الله زلفى.. والعلّة أنَّ هؤلاء ما يعبدون إلّا مثل ما كان يعبد آباؤهم من قبل، فإن اختاروا وثنيةً صنميّة، خلافاً للهدى الذي تدعوهم إليه، أيّها النبيّ، فلا تذهب نفسك عليهم حسراتٍ؛ وإنّا لموفّوهم نصيبهم في الدنيا من متاع الغرور الذي يلهثون وراءه ـ ممّا قضى به ربُّك في اللوح المحفوظ ـ وكذلك إنّا لموفّوهم نصيبهم غير منقوص في الآخرة من العذاب، على فعالهم وأعمالهم الظالمة، بما أشركوا بالله، وبما لم يتّعظوا بآيات الله، التي تبين لهم ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[2]...

١٢ ـ طلع شجرة الزقوم التي يأكل منها الظالمون كأنه رؤوس الشياطين

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ * إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ * بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ

---

(١) سورة هود، الآية: ١٠٩.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٣.

وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ * أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ * فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ * فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ * وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ * قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ * أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ * فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ * قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ * أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ * إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ * وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ * فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾(1).

تقرّر هذه الآيات البيّنات ما يفعله الله العليُّ القديرُ بالمجرمين، الذين إذا دعوا إلى دعوة الحق والتوحيد، وقيل لهم: «لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» يستكبرون عن هذه الدعوة، ويتبرّمون، ويستخفّون بالدعاة، لأنهم لا يريدون التخليَ عن الوثنية والشرك؛ متذرّعين بما يعتدّون أنه إرث موروث، إذ يقولون: أنترك آلهتنا، وما كان يعبد آباؤنا، لشاعرٍ مجنونٍ لا يقيم لها اعتباراً، ويريد أن يستأصلَ عبادتها من حياتنا؟!.. فتلك كانت مقولتهم الباطلة عن النبي الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ في

(1) سورة الصافات، الآيات: ٣٤ ـ ٧٤.

استكبارهم عن عقيدة التوحيد، واستنكافهم ترك آلهتهم «الشاعر مجنون» كما اتهموه ـ ظلماً وعدواناً ـ لا شيء إلّا لعدم قبولهم بالحق الذي جاء به. .

ولكنَّ مثل ذلك الاستكبار، وتلك التهمة الكاذبة، فكلاهما على قباحتهما، ووقاحة المشركين، ما كان ربُّ العزة والجلال ليذرهما يمرّان دونما تصويب، لبطلانهما المطلق عنده سبحانه، وهذا كافٍ بذاته لمن أراد أنْ يلقي السمع وهو شهيد، لاسيما وأنه مدعوٌّ لأن يستمع إلى قوله جلَّ وعلا: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. .أبداً أيها المستكبرون والكاذبون، ليس «محمد» ﷺ مدّعياً، ولا مجنوناً، ولا شاعراً!. . بل إنَّه نبيُّ الله، وقد جاء بالحق من عند ربّه، يتلوه قرآناً عربياً غير ذي عوجٍ لقوم يعلمون، فيهتدي به الناس إلى الشريعة الإسلامية الحق، دون غيرها من الشرائع والعقائد الفاسدة. . ومن أصول الدعوة التي يحملها هذا النبي الكريم ﷺ، وأبرز وجوهها الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، دونما تفريق بين أحد من النبيين والمرسلين الذين توالوا في الأرض على مختلف الأزمنة، منذ آدم عليه السلام وحتى بعثه، هو، خاتماً للنبيين. . فإذا كان «محمد» ﷺ قد جاء بالحق، وصدَّق المرسلين الذين خلوا من قبل، فهل يجوز اتّهامه بدعاوى باطلة لا أساس لها من الصحة، إلّا أنْ يكون سوءُ حكمكم عليه، ولذلك يأتيهم السؤال الإنكاري بقول الله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[1]؟!

من أجل ذلك نزلت هذه الآيات الكريمة، التي لا تقف آثارها

---

(1) سورة يونس، الآية: ٣٥.

عند نفي أية تهمة عن النبي محمد ﷺ وحسب، بل وليكون فيها حكم الله على أولئك المجرمين، بما يصفع وجوههم، ويقرر مصيرهم في العذاب الأليم ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ على ما كنتم تستكبرون، وتقولون، وعلى كل ما كنتم تعملون في دنياكم.. ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾.. فأنتم، وبما تشاقّون الله ورسوله، من جرّاء فعالكم تلك، وكلها فعال جرمية في ميزان العدل والحق، فلذلك ستصلون العذاب الأليم؛ إنَّا مثل ذلك نجازي المجرمين بالعذاب على جرائمهم المنكرة.. وهذه هي عدالة الحق التي لا يمكن أن يهرب منها أحدٌ من المجرمين، وهي ستطالهم، كما قضى بذلك ربُّ العالمين، إذ أمرَ بالعدل في دنيا الأرض، وعدم الطغيان من الناس على الناس من أجل إحقاق الحق، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾[1]، أجل إنه ميزان العدل والقسط الذي قامت عليه السماوات والأرض، وهو ميزان الحساب للأعمال جميعاً، ولو كان العمل مثقال ذرةٍ من خيرٍ أو شرٍّ؛ فكان من مقتضيات العدل الإلٓهي أن يكون جزاءُ المستكبيرن المجرمين العذابَ الأليم، على مقدار ما أتوا من الشرور، وما ارتكبوا من الجرائم...

وبعد هذا البيان لحال المجرمين، يعود القرآن الكريم ليصور أحوال المؤمنين من عباد الله المخلصين، وما ينالون في دار الخلود على إخلاصهم في عبادة الله الواحد الأحد، وطاعة أوامره ونواهيه: فهؤلاء عن العذاب مبعدون، ولهم رزق معلوم، فواكه من كل الطيّبات التي لا عهد لهم بها في دنيا الأرض، كرَّمهم بها مولاهم العزيز

(١) سورة الرحمن، الآيتان: ٧ و٨.

الحكيم، وهم يرفلون بالحبور والسرور في جنات النعيم المقيم، متكئين على سرر وأرائك ناعمة، متقابلين بوجوهٍ ناصعة مشرقة، حتى يكون تقابلهم ـ بذاته ـ راحةً وطمأنينة، واجتماعهم مع بعضهم أماناً وسلاماً.. وفي ذلك المقام الكريم يطاف عليهم بكؤوس من خمر، تُملأ من معين أنهار جارية، ظاهرة للعيان أمامهم؛ وإنها لخمرة نقية صافية مثل البياض الناصع، لذة خالصة للشاربين، فلا يعتورها أيُّ شوب قد يجعل النفس تتقزَّزُ منها مرارةً وكراهةً، كما لا غول فيها مما يغتال العقول، ويفقد الوعيَ والإدراك، أو يسبب صداعاً في الرأس، وأوجاعاً في البطن[1] كما هي الحال في خمر الدنيا.. ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ بالقيء لشدة السكر.. فلا شيء في خمر الجنة مما تعرفونه من خمر الدنيا (وقيل: إنَّ فيها أربعَ شوائب من سكرٍ، وصداعٍ، وقَيْءٍ وكثرةِ بولٍ).. بل إنه خمرٌ أعِدَّ شراباً لأصحاب الجنة، يتلذَّذون به كما تلذُّهم مختلف الطيبات والأرزاق الوفيرة في النعيم الكبير..

ومن أنعم الله تبارك وتعالى على أهل الجنة أنَّ عندهم كذلك زوجات طاهرات، قاصرات الطرف على أزواجهن، فلا تحيد أنظارُهُنَّ عنهم لشدة حبّهن لهم، ولحسنهم عندهنَّ، فلا يطرف لهنَّ جفنٌ، أو تميلُ نظرةٌ إلى غيرهم من عيونهن الواسعة، التي يتكامل جمالها مع جمال الهيئة، وحشمة الأنس والمعشر، فكأنهنَّ بيضُ النعام المستور بريشها الناعم، فلا يصل إليه شيء من غبار أو ريح، أو ما قد يشيبه بشائبة ـ فالمكنون هو المصون ـ. وقد جاءَ هذا التشبيه لزوجات أهل الجنة، ليدلَّ على مقدار ما هنَّ عليه من الجمال

---

(١) يقال للوجع غول، لأنه يؤدي إلى الهلاك.

المصون، الخالي من كل عيبٍ أو خلل، وبما يتوافق مع الأنس والإلفة، والأدب والاحترام. وكل ذلك انسجاماً مع حياة الجنة بما فيها من الطهارة والعفاف، والسموّ والرقيّ.

تلك هي حالُ عباد الله المخلصين، وهم في جنات النعيم. وإنهم لعلى تلك الحال، إذ يُقبل بعضهم على بعض، يتساءلون عما مرَّ بهم في الحياة الدنيا من مغريات شتى!.. وكيف هداهم الله تعالى لطاعته، فساروا على الصراط المستقيم، ووصلوا إلى هذا الفوز العظيم.. وفيما هم يتذاكرون ويتساءلون عما حلَّ بأهل الكفر والشرك، قال قائل منهم: إنّي كان لي صاحبٌ في الدنيا، ينكر البعث والحساب، فكان يبكّتني ويقول: أإنك لمن المصدّقين حقاً بالبعث والنشور؟ وكيف؟ أخبرني، أإذا ما متنا، وصرنا تراباً، وعظاماً نخرةً مفتتةً، تعود أجسامنا هذه إلى ما كانت عليه، ونحيا من جديد لنحاسبَ، وندان على ما فعلنا في هذه الدنيا؟ لا، لا أعتقد أنَّ هذا ممكن حدوثه، لأننا بعد الموت نفنى، ونزول، فلا بعث ولا حساب.

ثم يتابع صاحب الجنة قائلاً لإِخوانه: هل أنتم مطّلعون معي إلى الجحيم، علّنا نرى ما حلَّ بذلك القرين في الدنيا، على ما كان يكذّب بآيات الله تعالى ووعيده؟

ولا تبيّن النصوصُ القرآنية ما قاله أصحاب الجنة لأخيهم، ولكن يُفهم بأنْ لا شأنَ لهم بأصحاب الجحيم، الذين لاقَوْا ما وعدهم الله به حاضراً، فنالوا ما يستحقون من الجزاء على إنكارهم، وتكذيبهم، وعلى ما سعوا في الكفر والضلال في دنياهم...

ولكنَّ أخاهم أراد أنْ يتبيّن بالمشاهدة مآل ذلك الصاحب، فاطّلع

ـ من مكانٍ يمكّن من رؤية أصحاب النار ـ فرآه في سواء الجحيم، يتقلّب في وسط نارها بالعذاب المهين. . فناداه وقال له: تالله، إنك كدتَ لترديني معك، وتهلكني في هذه النار؛ ولولا نعمة ربّي بما هداني إلى الحقّ، لكنت معك من المحضرين إلى هذا المصير المقيت. .

وفيما هذا المؤمن يذكّر قرينَه بحياتهم الدنيا، وما كان عليه كلٌّ منهما من خلاف في العقيدة والعمل والنهج، وما صار إليه كلٌّ منهما في الدار الآخرة، تراءى له مشهد الأموات، يوم كانوا يُحملون، كلٌّ إلى مثواه الأخير، فأدرك ما يعني الموت، الذي يتجسَّد بذلك الانتقال من الدار الفانية إلى دار البقاء، حيث لا موت، بل حياة أبدية في الجنة أو في النار. . فانطلق في معاودة تسبيحه لخالقه، وبارئه، وهو يقول: الحمد لله الذي هدانا في دنيانا إلى صراطه الحميد المجيد، والحمد لله الذي أماتنا وأحيانا، فوالله ما نحن بميتين بعدُ بفضل الله، إنْ هي إلَّا موتتنا الأولى التي أعقبت حياتنا الدنيا، لتكون لنا هذه الحياة في دار الخلد، التي أسبغ علينا ربُّنا تبارك وتعالى فيها من رحمته الواسعة ما يجعلنا نتبَّوأ فيها ما نشاء. . ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، في مهاوي الجحيم، وهذا بفضل الله ورحمته.

وليس أوسعَ نعمةً يجزيها الله الكريم، وليس أعظمَ فضلاً يؤتيه العزيز الحكيم لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ في دار الدنيا ـ من هذا الرضوان منه تعالى، الذي أدخلهم الجنة. . ولذلك يجيءُ هذا التأييد لهم وهم يسبحون بحمده تعالى بقوله المبين: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، و﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾. . وقد تكون هذه لفتةٌ من أروع اللفتات التي وردت على لسان أهل الجنة، وهم يعترفون بفضل الله عليهم. . كما يمكن أن تكون نقلةٌ ينقل بها النصُّ القرآني المؤمنين،

وهم ما يزالون في الدنيا، إلى أجواء النعيم، فتكون لهم الوعدَ الحقَّ الذي يرجونه، فيزدادون إقبالاً على عبادة الله، وعلى طاعته، ولا يفترون عن ذكره تعالى في الحمد والثناء عليه، إلى ما هداهم من صدق الإيمان، والعمل الصالح، ومناصرة الحق ومحاربة الباطل، حتى ينالوا فعلاً رحمة الله تعالى بالهداية والفوز العظيم.. فكان حقاً وصدقاً وعدلاً: ولمثل هذا الفوز العظيم فليعمل العاملون، الذين يريدون أنْ ينالوا الجزاء الأوفى في دخول الجنة. ثم، وعلى سبيل المقارنة: أذلك النعيم المقيم يكون خيراً نزلاً ينزلون به أعزَّاء ومكرَّمين، أم شجرة الزقوم التي أعدت لأهل النار جزاءً موفورا؟.

وما شجرة الزقوم؟ إنها كما يقال من أخبث الشجر المرّ الذي ينبت في أرض تهامة، وقد مثَّل بها اللَّهُ سبحانه وتعالى على كل خبيث يستقبح الإِنسان مرآه، فكيف إذا كان مجبراً على الحاجة إليه وأكله؟! إنَّ هذه الشجرة الخبيثة قد جعلها الخبير العليم فتنة للظالمين، تحيرهم بطلوعها وسط النار، فيقولون: إنَّ النار تحرق الشجر، فكيف إذاً تنبتها؟!.. ولذلك جاء التأكيد القرآنيّ: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾. أي أنها تنبت من قعر نار الجحيم، وترتفع حتى تبلغ طول ألسنة تلك النار المستعرة، وتظل على حالها، لا يصيبها أي احتراق.. أمَّا طلعها، أي ثمرها، «كأنه رؤوس الشياطين»، التي يمكن أنْ نتَّخيلها مثل رؤوس الثعابين الكريهة السَّامة.. وما هذا التشبيه لطلع شجرة الزقوم إلَّا لإِثبات شدة بشاعته، وفداحة استقباحه في النفوس. فنحن عندما نتخيَّل رأس الشيطان، وما يبعث فينا من خوف وهلع، وبشاعة وتقزّز، فإننا نسارع إلى إبعاد تلك الصورة عن ذهننا، لأننا لا نطيق احتمالها!.. فكيف الحال إذا كان ذلك الطلع كرؤوس

الشياطين، هو طعام أهل النار، وكانوا محتاجين على قطفه بأيديهم، ليسدّوا به جوعهم الملهوف؟

أجل، إنَّ ذلك الطلع الذي تعطيه شجرة الزقوم الخبيثة هو ما جعله ربُّ العباد ـ الذي بيده الأقدار ـ طعاماً لأهل النار الآثمين، يأكلونه حتى تمتلئ منه بطونهم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾[1].

ويجدر بنا أن نتوَّقف ونتأمل في سياق النصوص القرآنية، فهي عندما تطرح التساؤل: أذلك النعيم في الجنة (مع ما فيه من فاكهة ولحم طري، وأنهار من عسل مصفًّى، وأنها من خمر لذة للشاربين وغير ذلك من الطيبات) خيرٌ نزلاً أم شجرة الزقوم؟! فإنَّها تهدينا مباشرة إلى حكمة الله تعالى في خلق هذه الشجرة بالذات، وذلك ليجعلها سبحانه وتعالى فتنةً للظالمين الآثمين في هذه الدنيا ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾.. وبالفعل، وكما ثبت في تاريخ الدعوة الإسلامية، إذْ لمَّا سمع رؤوس المشركين في مكة، الآيات التي ورد فيها البيان عن شجرة الزقوم، بادروا إلى تكذيب آيات الله، فقالوا: كيف تنبت هذه الشجرة في أصل الجحيم ولا تحترق؟ وزادهم أبو جهل سخريةً، فقال: يا معشر قريش، هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها «محمد»؟ إنْ هي إلّا عجوة يثرب بالزبد، والله لئن استمْكَنَّا منها لنمزّقنها تمزيقاً.. وفي الرواية أيضاً أنَّ أبا جهل كان يأتي بالزبد والتمر، ثم يقول: تزقَّموا، فهذا الزقُّوم الذي يعدكم به «محمد ابن عبد الله»..

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٦٦.

وهكذا وبعد تبيان الفارق العظيم بين طعام أهل الجنة وطعام أهل النار، وبعد تبيان الحكمة الإلهية من جعل شجرة الزقوم فتنة للآثمين، تأتي النصوص على التعريف بتلك الشجرة، من حيث منبتُها في وسط الجحيم ومن حيث بشاعة ثمارها، ومن حيث اضطرار أهل النار للأكل منها حتى الامتلاء. . .

ولكي لا تبقى «شجرة الزقوم» فكرةً مجرَّدةً في الأذهان، فإنَّ الله تعالى يضرب المثل الحسيَّ عليها ولكن في سورة أخرى من قرآنه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ * كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ * كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾[1].

فالطعام الذي يأكله الأثيم ـ ذي الإثم الكبير ـ من تلك الشجرة هو كالمهل، أي مثل درديّ الزيت الأسود المحمَّى، يغلي في البطون كغلي الماء على النار، فعندما ياكل منه الأثيم ويملأ بطنه، فإنه يظمأ ظمأً شديداً، فيسرع، فلا يجد إلّا ماءً أشدَّ حرارة من الحميم، فيشربه، وما أنْ يصل إلى جوفه اللاهب ويمتزج بالطلع الذي أكله حتى يصير خليطاً يقطع أمعاءه. . ويبدو، كما يستدلُّ من النصوص، أن ذلك الشوب من الحميم الذي يشربونه ليس في وسط الجحيم، بل في ناحية ما من جهنَّم يهرعون إليه، ثم يرجعون ـ بعد شربهم ـ إلى مكان مستقرّهم في أصل الجحيم، حيث النار المستعرة ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾[2]، وبذلك فإنَّ أهل النار يتقلّبون من سوءٍ إلى سوءٍ، أمَّا لماذا يتقلّبون في تلك الأهوال، والمصائب الشديدة، التي لا تنفكُّ

(١) سورة الدخان، الآيات: ٤٣ ـ ٤٦.
(٢) سورة الصافات، الآية: ٦٨.

عنهم أبداً ـ وذلك هو البلاء العظيم ـ فالسبب ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ* فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾[1].. لقد وجدوا آباءهم يعبدون الأصنام، وهي عبادة الضالّين عن الطريق المستقيم، طريق الله الحق، فبدلَ أنْ يدخلوا في الإسلام، ويهتدوا بهدي القرآن، ساروا على مثل ضلال آبائهم، ومضَوْا على تقليدهم الباطل، عمياً عن الحق، فهم على آثارهم في العبادة، والنهج السلوكي، يسرعون كأنما يدفعون إليه دفعاً.. ومثل هؤلاء قد ضلَّ قبلهم أكثر الأولين من الأقوام الماضية، فكان الأنبياء والرسل يأتونهم منذرين بالعقاب، ومبشرين بالثواب.. ولكنّهم لم يستجيبوا لدعواتهم، ولم يرعووا عن الكفر والشرك، ولم يرتدعوا عن الظلم والإجرام، فكانت عاقبتهم الوخيمة أنهم في النار خالدون كما يبيّنه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ* خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾[2].

أما عباد الله المخلصين ـ من بين تلك الأقوام الغابرة ـ الذين آمنوا، واتّبعوا النبيين والمرسلين، وكانوا، في كل زمان، قلةً قليلةً، فقد نجوا من الهلاك الذي كان يحلّ بتلك الأقوام، وذلك بما أخلصوا هم أنفسهم في الإيمان والطاعة، وبما أخلَصَهم لهما ربُّهم، ذو الفضل العظيم، فنالوا السلامة في الدنيا، والفوز في الآخرة..

١٣ ـ النبيُّ ﷺ بشرٌ مثل سائرِ النّاسِ

يقول المولى العزيز: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ

---

(١) سورة الصافات، الآيتان: ٦٩ و٧٠.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ١٦١ و١٦٢.

إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾[1].

هذا الأمر الإلٓهي للنبي محمد ﷺ، كان ردّاً على المشركين الذين عارضوه في دعوته، وشنّوا عليه تلك الحرب النفسية والدعائية كي يصدوا الناس عنه؛ وقد كان من أنواع المكر والخبث التي اتَّبعها أولئك المشركون أنْ كانوا يتقصَّدون الجأر أمام الناس بعدم قبول الاستماع إلى ما يبشرهم وينذرهم به رسول الله ﷺ، فكانوا يقولون له: قلوبنا مغلقة على مكنوناتها، ومغلّفة بأغطيةٍ فلا ينفذ إليها شيء مما تدعونا إليه، وفي آذاننا وقر، فلا نسمع شيئاً مما تقول، ومن بيننا وبينك خلاف في المعتقد، هو ما يحجبنا عنك، وعن دعوتك، فاعمل على دينك، إنَّا عاملون على نصرة آلهتنا، وهذا ما يهدينا إليه قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾[2].

وما كان ردُّ النبي ﷺ إلَّا بما أوحي إليه ربُّه، بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[3].. فقد كان عليه ﷺ أنْ يبيّن لهم الحقائق التي تكتنف حياته، ورسالته، وما يجدر بالإنسان أن يقوم عليه من عبادة الله الواحد، والعمل الصالح، وألّا يشرك بعبادة ربّه أحداً من الناس، أو شيئاً من المخلوقات.. أي بحيث تناول ردُّ النبي ﷺ ما فحواه: **إنّما أنا بشرٌ مثلُكم، فلستُ ملاكاً منزلاً من السماء، ولكنْ ربّي تعالى قد اختارني واصطفاني، ويوحي إليّ بالآيات القرآنية التي تهدي**

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٦.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥.

(٣) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

إلى دينه القويم، وتنكر عبادة مثل هذه الآلهة المزيفة التي قد تشترونها مثل أي سلعة، أو التي قد تصنعونها بأيديكم، وتنصبونها في بيوتكم، ثم تقومون على عبادتها!..

ومن هدي هذا الوحي الذي يتنزل عليَّ، أعظكم، أيها الناس، أنْ توقنوا بأنْ لا وجود لآلهةٍ متعددةٍ لا في الأرض، ولا في السماء، وإنما إلّهكم الله الذي لا إلّه إلّا هو، لا شريك له، فآمنوا بالله مخلصين له الدين، واستقيموا على عبادته وطاعته، لأنَّ من شأن هذه الاستقامة أنْ تجعل أبواب الرحمة تتفتَّح عليكم، وتأخذكم إلى الاستغفار مما أشركتم به، وستجدون الله غفوراً رحيماً.. أما إنْ بقيتم على شرككم، فويل للمشركين، أنتم وأمثالكم الذين قال عنهم الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾[1].. فويل لهم مما كسبت أيديهم، وويلٌ لهم ممّا ينتظرهم لو كانوا يعلمون!.. ولعلَّ في الآية (٦) من سورة (فصّلت) ما يبيّن مقدار المعاناة التي كان النبيّ ﷺ يلاقيها من الإعراض عن الدعوة، والإصرار من بني قومه على الشرك؛ وكان ذلك يتطلب منه الصبر، والاحتمال على الرغم من شدة تلك المعاناة، وأثرها على نفسه الزكية؛ إذْ كان عمله (صلوات الله عليه) خالصاً لوجه الله تعالى، فلا يروم إلّا إيصال الإسلام إلى عقول الناس وقلوبهم، لأنَّ في اتباع هذا الدين، والسير على هداه رحمةٌ ربانية، لا يقدّرها الظالمون، الذين تاهوا في غياهب الشرك والكفر على مدار العصور..

ونحن عندما نوقن بأنَّ الله تبارك وتعالى هو السميع البصير، وأنه

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦.

ينظر سبحانه إلى النبيين والمرسلين بعين العطف والرحمة، لما يلاقون من الاستكبار والعداوة، ولاسيما تلك المواقف التي تضغط على قلوبهم من عدم الاستجابة لدعواتهم.. فإننا ندرك أهمية زاد الصبر الذي كان ربُّهم الكريم يدعوهم للتجمّل به.. إذْ عليهم، وقد اصطفاهم سبحانه لحمل الأمانة، أنْ يصبروا، وألاَّ تضيق صدورهم من عنت المشركين، والكافرين، لأن طريق الدعوة هو طريق الصبر الجميل، وأول ما يستوجبه هذا الصبر ـ فيما ينشد من انتصار الدعوة ـ تحمل إبطاء النصر، وتأخر أماراته، وعدم انفتاح سبله، ثم التسليم لمشيئة الله، والرضى بما يقدرّ سبحانه وتعالى.. وكل ذلك ليوفَّى أصحاب تلك الثلة المختارة، أجرهم بغير حساب..

الفقرة السادسة ـ النفاق، ومواصفات المنافقين

لا بد قبل التعرف على الأمثال القرآنية التي تبين أفعال المنافقين، من التطرق إلى بعض السمات التي يتميزون بها، والتي تدل على ما تنطوي عليه نفوسهم من أمراض خبيثة لشدة ما يعشِّشُ فيها من النفاق، والغش والخداع، وما تنزع إليه من الكذب والإفساد في الأرض. فانظر إلى ما يصف به الله تعالى المنافقين بقوله العزيز: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾[1].

أربع صفات من السوء تصبغ المنافقين في أقوالهم وأفعالهم:

(١) سورة البقرة، الآيات: ٨ ـ ١٢.

ـ ما هم بمؤمنين. .
ـ يخادعون اللّهَ والذين آمنوا. .
ـ في قلوبهم مرض النفاق والكذب. .
ـ مفسدون في الأرض. .

فالمنافقون قد جُبلوا على حب الخداع والمراوغة، وعلى الفساد والإفساد في الأرض ، يتوهمون أنَّ ما يلجأون إليه، ويقومون به من المداهنة والتدليس، والتلبّس بالكذب والرياء، والتذبذب بين الأهواء والمطامع. . يتوهمون ذلك بمثابة عناصر رئيسة لحياتهم، تمدّهم بالطاقة والقدرة لتحقيق مآربهم، وغاياتهم، ونيل مطالبهم وشهواتهم!. . ولكنهم ما دروا بأنَّ ذلك كله مرضٌ في قلوبهم، وأن الله الذي خلقهم، ويعلم سرَّهم ونجواهم، يزيدهم على مرضهم في النفاق، مرضاً في الكفر، بحيث لا يعود لهم أي أمل في النجاة، إلّا أن يعودوا عن نفاقهم وكفرهم . . فقد يبدو لنا أن المنافقين على أتم الشكل والرونق، بحسب الطرق التي يعيشون بها. ولكن ذلك هو ظاهر حياتهم فقط، بينما هم في دخيلتهم من أقبح خلق الله ، إذ يكفي أنْ يمارسوا الفعال التي يمارسها الشيطان من أفانين التملق، والخداع، والمراوغة والكذب حتى ينقادوا إليه، ويصيروا من قبيله، ولكن في لباس بني آدم، كما تدلُّ عليه الآيات الكريمة بما تصفهم به من الصفات السيئة التي هي من صفات الشيطان فعلاً. . وليس للعباد المؤمنين، الذين يرون بنور الله ، إلا أنْ يتلمَّسوا أقوالهم، ويروا فعالهم حتى يدركوا حقيقة نوازعهم وأهوائهم، وحقيقة نفاقهم، وأنهم أتباعٌ للشيطان، بل ومن قبيله الفاسقين المفسدين!. . فمن تلك الصفات ما يزيدنا به القرآن الكريم تبياناً وذلك بقول الله تعالى: ﴿ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ

﴿وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(١).

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾، أي من نفس الطينة التي تجعلهم متشابهين في الصفات والخصائص كأبعاض الشيء الواحد، ومتشابهين في السلوك والحركة كالحرباءة في تلوّنها!.. ومن فعالهم التي تدل عليهم: أنهم يأمرون بالمنكر (كالكفر، والخداع، والكذب والفساد، وغيرها من الفواحش، والمعاصي).. وينهون عن المعروف (كالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وغيرها من الطاعات) ويقبضون أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله، وفي كافة وجوه البرّ والخير.. نسوا الله فأعرضوا عن ذكره وطاعته، ولم يتفكروا بقدرته وببطشه، فتخلّى سبحانه عنهم، وتركهم منسيين من لطفه.. وكل ذلك يجعلنا نستيقن ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(٢)، الخارجون عن حدود ما أنزل اللَّهُ تعالى، والذين يأتون النفاق والفساد كيفما داروا، وحيثما توجهوا، وهو ما يُقبِّح وجوههم، ونفوسهم!..

وبسبب ما هم عليه فإنَّ العزيز الحكيم يَعِدُ المنافقين بما يعد به الكفار، فهم سواء في نار جهنم، فيقول الخبير العليم: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾(٣).

هذا هو وعد الله عزَّ وعلا للمنافقين والمنافقات والكفار، بأن تكون عاقبتُهم ﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾..

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٧.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٦٧.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٦٨.

والوعد معناه هنا التحقق، لأنَّ وعد الله حق ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾[1]..

كما انه واضحٌ من النصّ القرآني أنه يضع المنافقين والمنافقات على مستوىً واحد مع الكفار في المصير.. مما يعني: كم يكون النفاق مذموماً، ومحرّماً عند ربّ العالمين، حتى يصبح أهله بنفس المنزلة مع الكفار!.

أما نار جهنم التي وعدهم الله حقاً بأن يخلدوا فيها، فهي حسبهم جزاءً وعقاباً، لأنه ليس وراءها عقابٌ أشدُّ، إذ يتناسب ذلك العذاب المقيم في جحيمها، مع ما قدمت أيديهم من الشرّ المستطير، الذي ظلموا فيه أنفسهم، مثلما ظلموا غيرهم من عباد الله الذين اكتوت حياتهم من شرِّ ظلمهم.. ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بإبعادهم عن رحمته التي وسعت كلَّ شيء، بعد أنْ طفح كيلُهم بالنفاق والكفر.. ولو أبقوا مساحةً صغيرةً، على الأقل، من عمرهم، لشيء من الإيمان، والتقوى، وفعل الخير، لما لحقت بهم اللعنة السرمدية، التي أودت بهم إلى ذلك العذاب المقيم، الذي ليس له دافع من الله ذي المعارج..

هذا ويبيّن القرآن الكريم أنَّ المنافقين والمنافقات، والكفار، في أي زمانٍ عاشوا، وإلى أية بيئةٍ انتموا، إنما هم مثل الذين من قبلهم، حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة، فكانوا هم الخاسرون، يقول الله تعالى: ﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم

(١) سورة الروم، الآيتان: ٦ و٧.

﴿بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[1].. ويوجّه القرآن الكريم نظر المنافقين والمنافقات، والكفار لأنْ يعتبروا بأخبار الأقوام الماضية، الذين أتتهم رسلهم بالآيات البينات التي تدعوهم إلى الإيمان، فكذبوهم، فأهلكوا، فما كان الله ليظلمهم بذلك الهلاك، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، باتباع النفاق والكفر، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[2].

هذا هو القرآن الكريم، فيما يبين من الشواهد والعظات لعلَّ الذين مردوا على النفاق والكفر، يأخذون العبرة من الماضين، وإلاَّ فإنَّ وعد الله جلّت قدرته آتٍ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

هذا ويسوق القرآن الكريم أمثالاً كثيرة عن المنافقين (والكفار وهم مثلهم)، كما يتبين من الآيات التالية:

١ ـ مثل المنافقين كمثل الذين تُركوا في الظلمات يعمهون، أو كمثل الذين أحاطت بهم الصواعق في يوم ماطرٍ مظلم

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۞ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۞ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٩.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧٠.

وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ*أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ*مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ*صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ*أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ*يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(١).

من يتحرّى تاريخ السيرة النبوية الشريفة، يجد أنَّ المجتمع في المدينة المنورة، بعد هجرة النبي ﷺ إليها، كان يضم أطيافاً متنوعة من الناس، الذين كانوا يختلفون في توجهاتهم، وتصرفاتهم انطلاقاً من اختلافهم في معتقداتهم؛ فكان منهم المستكبرون، الذين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ بالإسلام ديناً، ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ ويعنون بهم أصحاب النبي ﷺ، ولاسيما الضعفاء والمساكين، فردَّ الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله المبين: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾..

وكان في المدينة إلى جانب المستكبرين، أهل النفاق والشقاق، الذين لم يؤمنوا بالإسلام دين هدىً وتقوى، وشريعة صلاح وإصلاح، بل أسلموا، ولمّا يدخل الإيمان في قلوبهم، كما كانت تنبئ عنهم فعالهم: فإذا لقوا المؤمنين، تجدهم يداهنون بالقول: آمنا بالله ورسوله!. وإذا خلوا إلى زعمائهم من رؤوس الكفر والشرك، الذين وصفهم الله تعالى بأنهم «شياطينهم»، قالوا: إنَّا معكم في الدين

(١) سورة البقرة، الآيات: ١٣ ـ ٢٠.

والدنيا، إنّما نحن مستهزئون بأتباع «محمد» ﷺ، فندّعي إذا لقيناهم بأنّا آمنّا بدعوته، حتى نبقى في ظاهر الحال قريبين منهم، إلّا أننا في قلوبنا أشدُّ الناس حقداً عليهم وعلى نبيّهم!.. وهذا ما يجعل المنافقين بوجهين ولسانين: يبدون مودتهم للمؤمنين ـ نفاقاً وكذباً ـ ويظهرون العداوة والبغضاء لهم إذا اختلوْا بـ«شياطينهم»، وهم يقولون لهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ بأولئك «الصابئين» الذين أتوا من مكة، ومن تابعهم وناصرهم هنا في يثرب.. ولكنهم ما حسبوا أنَّ ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ عن الحق، ويوغلون في الباطل، بحيث يجعلهم مترددين، حائرين، لا يدرون ماذا يفعلون: أيستمعون إلى نداء الفطرة الذي يدعوهم للإيمان والإخلاص لله خالقهم.. أم يظلون على نفس الحال من النفاق، وبالتالي من الكفر، الذي يجعلهم ينقادون إلى زعمائهم، فيأتمرون بأوامرهم، وينصاعون لسلطانهم؟!

بئس مثل القوم الذين اشتروا الضلالة بالهدى، فاستحبوا الكفر على الإيمان. وبئس مثل القوم الذين تاجروا بالنقيض ونقيضه، فما ربحت تجارتهم في النفاق والتّردد، وما كانوا مهتدين إلى الحق، فدفعهم نفاقهم بعيداً عن نور الله، فكانوا من الأخسرين عملاً!..

ومَثَل هؤلاء المنافقين ـ وما يجرهم إليه النفاق ـ كمثل الذي استوقد ناراً في ظلمة دامسة، فلما أنارت ما حوله، فأبصر واستدفأ، وأمِنَ مما يخاف، انطفأت ناره فجأة، وحلَّ الظلام حوله من جديد، وذلك بأمرٍ من الله تعالى الذي ذهب بنور تلك النار، وتركه في ظلمات الرهبة المخيفة، لا يبصر شيئاً، ولا يهتدي إلى شيء.. (ونلاحظ في النص القرآنيّ أنه جمع الضمير مراعاة لمعنى «الذي»، فقال تعالى:

﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ وذلك حتى يكون المثل شاملاً لحال المنافقين جميعاً، الذين، بعد أنْ سطع نور الإسلام في المدينة المنوّرة، عادَ من عادَ منهم إلى جماعته من المشركين، وظلَّ مَنْ خافوا على وجودهم، في نفس الحالة من النفاق، يظهرون الإسلام، ولكنهم يعيشون، في حالة نفسية من الرعب، تحت وطأة المعاناة، والقلق، والحيرة والخوف، وشتى المشاعر التي تتآكل بها أحشاؤهم.. فكان ذلك ظلام النفاق الذي غطَّى نفوسهم الحائرة، المتعبة.. وهذا في الحياة الدنيا.. أما في الآخرة فسوف يقبعون في ظلمات الجحيم، وأسفل السافلين.. ولذلك وصفهم العليم الحكيم بأنهم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.. فهم صمٌّ عن سماع الحق، وعن الانتفاع بالحكمة والموعظة الحسنة، وسبل الهدى التي يقدمها الرسول الكريم في تبيان آيات القرآن المبين. وهم بكمٌ عن قول كلمة الحق، ومواجهة شياطينهم بها، حتى فارقتهم تلك الكلمة، فلا تنطق بها ألسنتهم. وهم عميٌ عن آيات الله تعالى، فلا يرون آثاره في ملكوت السماوات والأرض، وفي أنفسهم، وفي كل شيء من حولهم حتى ضلّوا عن طريق الهدى، فلا يتبعونه أبداً.. وفي هذا توكيد على أنهم لم ينتفعوا بالحواس التي خلقها الله تعالى لهم من سمع ونطق وبصر، حتى لكأنَّ تلك الحواس قد ماتت لديهم، فتعطَّل عملها لمعرفة الإِسلام الذي يأمرهم ربّهم العليّ القدير باعتناقه واتباعه. وبذلك سيطر الضلالُ على عقولهم، وعشش البهتان في نفوسهم، فلا يرجعون إلى نور أو هداية.

وهذا المثل ـ كما يقول بعض المفسّرين ـ ينطبق على حال اليهود في معاداتهم سيدنا ونبيِّنا محمد ﷺ. فقد كانوا ينتظرون بعث

النبيّ الأميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، من بني يهود، فلما بعثَهُ الله من أهل مكة، وأنزل عليه قرآناً عربياً، وتأكَّد لهم أنه هو النبيّ الموعود، كذبوه وحسدوه! أما لماذا شنَّوا عليه تلك الحرب الشعواء؟ فلأنه ـ وهذا الأهم ـ قد جاء بالشرع الذي فيه القصاص على السوء والفحشاء، وفيه الزجر والنهي عن الربا والخداع والدسيسة.. وغيرها من الأمور التي ألفوها في دنياهم، وجعلوها منهاجاً مرسوماً في حياتهم، وكل ذلك بخلاف ما تأمرهم به التوراة التي حُمِّلوها، ثم لم يحملوها، فصار مثلهم كمثل الحمار يحمل أسفاراً!.. ولا يختلف دور أولئك المنافقين على عهد رسول الله ﷺ عن الدور الذي يقوم به المنافقون اليوم لمناهضة الجماعات الإسلامية، وإعلان الحروب الصليبية على الإسلام والمسلمين، كما تظهر الأمور جهاراً!. والأدلة كثيرة من مثل خطاب الرئيس الأميركي آنذاك (جورج بوش) بعد أحداث ١١ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١م، ومنع المسلمات من ارتداء حجاب الرأس في المدارس والمؤسسات في فرنسا، والصور المسيئة للرسول الأعظم ﷺ في عدد من الدول الأوروبية، ومحاضرة البابا في ألمانيا، واحتلال أفغانستان، ثم من بعده احتلال العراق، ومحاصرة الشعب الفلسطيني كي يموت من الفقر، والجوع والمرض، وشن حرب إبادة على المقاومة الإسلامية وشعبها في لبنان، والتصدّي للجمهورية الإسلامية في إيران لمنعها من استكمال برنامجها النووي لأغراضٍ سلمية!.. وهذا كله في العلن، وبإصرارٍ واستكبارٍ!..

أما في الخفاء، فالأمور أدهى وأخطر!. بما يضعون من الدراسات والمخططات، وبما يحيكون من الدسائس والمؤامرات،

لإحداث الفتن والتفرقة بين البلاد الإسلامية، والتركيز خاصة على الشحن المذهبي الذي يعتمدونه كسلاحٍ أمضى، لصرف الأمة الإسلامية عن أداء واجبها المقدس في نشر الإسلام، وضرب وحدة كلمة المسلمين، وشق صفوفهم. . وعلى الرغم من كل ذلك تجد بين المسلمين من يتابعونهم على سياساتهم، ويسيرون في مخططاتهم، ولو كان فيها القضاء على الإسلام وأهله!! . .

وهذا ما يجعل الحاجة اليوم ملحة وضرورية، أكثر من أي وقت مضى، كي يتنبَّه المسلمون إلى جديّة الأخطار التي تنتظرهم ـ حكاماً وشعوباً ـ وألَّا ينزلقوا في موالاة أعدائهم ـ الحقيقيين ـ إلى مخالفة أمر الله عزَّ وعلا بقوله المبين: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾(1)، وحبل الله ـ كما تعلمون ـ هو دينه القويم الإسلام. . وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(2)، وقوله تعالى: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾(3). . وأما جزاء الذين يعتصمون بالله فهو جزاء عظيم، كما يبيّنه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾(4).

ومن أجل أنْ تزيدنا النصوص القرآنية إيضاحاً أكثر بأحوال المنافقين، فإنها تقدم لنا مثلاً آخر يكشف عن طبيعتهم، وتقلّبهم بين الإيمان والكفر. وتبدو صورة هذا المثل في المطر الذي ينهمر بغزارة

---

(1) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

(2) سورة آل عمران، الآية: ١٠١.

(3) سورة الحج، الآية: ٧٨.

(4) سورة النساء، الآية: ١٧٥.

في ليلة حالكة حيث يغطي الظلامُ الأرجاء كلها، فلا يُرى إلا البرق الذي يخطف الأبصار، ولا يُسمع إلّا الرعد الذي يقصف، والعواصف التي تزمجر؛ وأما أشدَّ الأهوال في ذلك المطر والظلام فتلك الصواعق التي تنزل لتحرق كل ما تقع عليه، وتقتل كل من تصيبه، وتبدّد كلَّ شيءٍ من حولها شتتاً. .

وتبرز الموعظة في هذا المثل عندما نتصوَّر بعض الناس في وسط تلك الشدائد، وقد أحيط بهم من كل جانب، وهم يضعون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت من دويّ أصواتها، وشعلة نارها وهي تنقضّ من السماء على الأرض، فلا تذر شيئاً، ولا تصل إلى شيء إلا وتقضي عليه. فحالهم إبّان تلك الظلمات، والشدائد القاتلة والمدمّرة، كحال المنافقين الذين أحاطت ظلمات الكفر بقلوبهم، بعد أنْ ملأتها بالضلال والبهتان، وبالخداع والكذب، والفساد والفسوق، فلا يجدون راحة في البال، ولا طمأنينة في النفس، بل يقتلهم القلق والخوف على المصير. . وهذا كله من إضلال الله لهم، لأنه عزَّ وجلَّ محيط بالكافرين علماً ومقدرة، فلا يفوته شيء من أمرهم، مثلما لا يفوته شيء من أمر المنافقين في سرهم ونجواهم.

وعن معنى الإحاطة، قال الشاعر:

أَحَطْنا بِهِمْ حتى إذا ما تَيَقَّنُوا   بما قَدْ رأَوْا مَالُوا جميعاً إلى السَّلْمِ

. . فعندما يحيط قومٌ أشداء ـ كما يقول الشاعر ـ بقومٍ ضعافٍ، لا يقدرون على مواجهتهم، أوْ الإفلات من قبضتهم، فإنهم يستسلمون لهم وينزلون على حكمهم وإرادتهم. . إذاً فما بال الكافرين

والمنافقين لا ينزلون على حكم الله، وحكم رسوله، والله تعالى محيط بهم من جميع الجوانب؟ أو لا يرون بأنه هو القويّ المتين، وهو القاهر فوق عباده.. وهم الضعفاء، العاجزون، التائهون في ملك الله وسلطانه؟!. فما بالهم لا يفقهون، ولا يستسلمون لله العلي العظيم، فيتخلوا عن الكفر والنفاق، ويعودوا إلى رحاب الإيمان؟! وما لهم لا يهتدون بهدي الله، ولا يردعهم وعيده؟! فكان لا بدَّ لمشهد القابعين وسط ظلمات المطر الغزير ببرقه ورعده وصواعقه، أن يعطينا صورة حسية للشدة التي يحيط بها الله تعالى الكافرين والمنافقين في الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، لربِّ العالمين...

أما عن فعالهم الملتوية التي لا تستقرُّ على منهج واضح، وطريق مستقيم في تعاملهم مع الآخرين، فيصورها النص القرآنيّ بتلك الحركة الحذرة التي تنم عن الخوف والقلق في كل خطوة يخطوها أولئك الذين أحاطت بهم الظلمات الدهماء. إذ نجدهم بين دفعات الخوف من البرق الذي يكاد يخطف أبصارهم، وبين دفعات الرجاء الذي يلوح كلما أضاء لهم الطريق مشوا فيه بضع خطوات، وإذا انقطع البرق، وعاد الظلام فأطبق عليهم، وقفوا مسمَّرين في أماكنهم لئلا يسيروا على غير هدى، فيهبطوا في المهاوي السحيقة، ويلفهم الضياع النهائيّ..

وتلك الأمثال يضربها الله للناس ـ عن المنافقين والكافرين ـ حتى يتبيّن لهم مقدار ما يوقعهم به النفاق، أو الكفر، من القلق والحيرة، ومن الشدة والبلاء، علَّهم يتعظون، لاسيما وقد وهبهم خالقهم المدارك والحواس التي من شأنها أن تفتح أمامهم السبل لسماع الهدى ورؤية الحق.. إلّا أنَّ النفاق، ومثله الكفر، غالباً ما

يطغى على تلك الملكات فيعطلها، بل ويشلّها تماماً، ليحيلها بلا جدوى. ولو شاء الله العزيز القدير لذهب بسمع المنافقين والكافرين فلا يسمعون شيئاً، وببصرهم فلا يبصرون شيئاً، إنَّ الله على كل شيء قدير. فهو سبحانه قدير على أنْ يذهب، ليس بحواسهم وحدها، بل وأنْ يبدلهم، بصورة كاملة، من حال إلى حال، وفق ما يشاء، وما يريد... فسبحان الله القادرُ على أنْ يوجد المعدومات، كما هو قادرٌ على أنْ يعدم الموجودات!.

وهذا المثل في الآيات القرآنية، من سورة البقرة، يحتمل كثيراً من المعاني الأخرى: فقد يكون عنى بالظلمات، الكفر الذي أغلق على قلوب المنافقين حتى صارت مظلمة لا يصلها شيء من نور الإيمان.. وقد يكون عنى بالرعد، التخويف والوعيد بالعذاب على النفاق والكفر.. وبالبرق، الإيمان بالقرآن الذي ينير القلوب ويهديها.. بينما المنافقون كانوا إذا سمعوا القرآن أعرضوا ونأوا مخافة أنْ يتعظوا به، أو أنْ تدخل حلاوة تلاوته إلى قلوبهم، فكانوا يهربون من سماعه، ولكنه سبحانه ختم على آذانهم وقلوبهم بسبب تلك الكراهية للقرآن؛ ولو شاء لأسمعهم وهداهم، ولكن عدم قابليتهم للهدى جعلتهم على تلك الحالة من النفاق، فكرهوا القرآن، وعصوا الرحمن!..

ونحن نرى في الآيات الكريمة مثلين: أحدهما عن النار المستوقدة، والآخر عن المطر الذي ينهمر من السماء.. ففي النار: نورُ إضاءة وإشراق للأسماع والأبصار، وفي الماء: حياة للناس والأَحياء، لأنَّ النار، في أصلها، مادة للنور، والماء مادة للحياة. فيكون في الوحي الذي أنزل في القرآن من ربّ السماء استنارةٌ للقلوب وحياتها، قَبِلَ البرق الذي ينزله سبحانه من السماء ومنه النور الذي يضيء الظلمات!، ولذلك وردت

تسمية الوحي في القرآن الكريم، «روحاً» و«نوراً»؛ وفي النور دائماً قابلية الحياة، وبغير نور لا يمكن أنْ تستقيم حياة أو تستمر لأي مخلوق، حتى الجماد فإن استمرار الظلمة عليه قد يجعله يتفتت، ويذهب بفعل الرطوبة، وغيرها من عوامل الطبيعة. .

ويكون التقدير أن حظَّ المنافقين من الوحي الذي أنزل به القرآنُ، كمثل من استوقد ناراً لتضيء من حوله وينتفع بها. وهذا لأنهم دخلوا في الإِسلام فأحسّوا بنورانيته، وبالانتفاع من الانضمام إلى الجماعة الإسلامية، ولكنْ وبما أنَّ الإِيمان لم يلج إلى قلوبهم ويملأها، فقد ذهب الله بنورهم ـ ولم يقل «بنارهم»، لأنَّ في النار الإِضاءة والإِحراق، فإنْ ذهبت الإِضاءة بقي الإِحراق الذي قد ينتفعون به ـ بينما إذا ذهب النور الهادي للقلوب، لا تبقى للإِنسان أدنى فائدة من شيء، لأنَّ كل شيء، باطلٌ بدون هذا النور، ولذلك عقّب بقوله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾، أي في ظلمات الكفر والجهل والظلم التي تعمي الأبصار والقلوب. .

وهؤلاء المنافقون الذين تحدثت عنهم الآيات القرآنية الكريمة، نجدهم متفاوتين في كل عصرٍ وآنٍ، فهم ليسوا على شاكلة واحدة في الزيغ، والمروق، والخروج على المحجة والتعاليم. فمنهم من استقى من نبع الإِيمان الصافي ثم ارتد إلى الوحل يعبّ الماء الآسن الراكد. ومنهم من ظل هائماً، صادياً، سادراً في غوايتهِ، تائهاً في ضلاله بعد أن ازورَّ[1] عن المنهل العذب، وهو منه جدّ قريب. .

وفي المنافقين قال النبيّ ﷺ: «مَثَلُ المنافِقِ مِثْلُ الشَّاةِ العائِرَةِ[2]

(١) ازورّ عن الشيء ازوراراً أي عدل عنه وانحرف.

(٢) الشاة العائرة: الحائرة بين قطيعين لا تعرف أيهما تتبع.

بين الغنمين، تَتَرَدَّدُ بينَهُما مرةً إلى هذه ومرةً إلى هذه»[1]. وقال ﷺ: «مَثَلُ المنافِقِ مِثْلَ رجُلٍ في نهرٍ يسبَحُ فيه، فلَّما بَلَغَ أَنْ يَقْطَعَهُ نودِيَ مِنَ الجانبِ الآخرِ، فَرَجِعَ إلى ذلك الصَّوت، ثم نُودِيَ من هاهُنا فأجابَ، ثم رَجِعَ، فبينما هو في تردُّدِهِ، إذْ عَلاَ آذيٌّ[2] فأَغْرَقَهُ»[3].

٢ ـ نهي المؤمنين عن مجالسة الذين يكفرون ويستهزئون بآيات الله حتى لا يكونوا مثلهم

يقول الله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾[4].

لقد نزَّل الله تعالى أمره الجلل على المؤمنين، ينهاهم فيه عن مجالسة من يسمعونهم يكفرون بآيات الله ويستهزئون بها، سواء أكانوا يفعلون ذلك عن قصد، أو على سبيل التسلية؛ أو كانوا يتحدثون عن الإسلام بأيِّ حديث من هذا القبيل الذي فيه إثمٌ وعدوانٌ.. فقد نهاهم الله تعالى عن مجالستهم، حتى يخوضوا في حديث غيره، وإلَّا كانوا مثلهم في الإِثم..

ومن وحي هذه الآية نهي رسول الله ﷺ بقوله الشريف: «مَنْ كانَ يُؤْمِنُ باللّهِ واليومِ الآخِرِ فلا يجلسْ على مائدةٍ يُدارُ عليها الخمرُ.

---

(١) صحيح مسلم، رقم ٢١٤٦.
(٢) الآذيّ: الموج الشديد.
(٣) صحيح مسلم، رقم ١٤٩٨.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٤٠.

وإنّ مجالسة الكفّار والمنافقين تجعلُكُمْ مِثلَهُمْ في الإِثم، لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾»[1]. .

وفي القرآن الكريم آيات أخرى بهذا المعنى، وكلها تفيد بأنَّ القعود مع الكافرين والمنافقين، أو الاجتماع بهم، عندما يكونون على شيءٍ ممّا يحرم الإسلام، منهيٌّ عنه شرعاً، إلّا إذا كان الجلوس من أجل رفع ذلك الحرام عن المجلس، أو تعريف المجتمعين بدين الله، وهدايتهم إلى هذا الدين، فهذا مما يثاب عليه المؤمن، لأنه من أجل الحقّ الذي أمرَ به ربُّ العالمين، وشرَّعه لصالح الإنسان. . وكذلك فإنَّ التعامل أو التداول مع الآخرين لأيّ شأنٍ أو غرضٍ يهم المسلمين، أفراداً أو مؤسساتٍ، كالبيع والتجارة، أو المشاركة في العمل أو المال، أو إذا كان لعقد المعاهدات والمواثيق التي يرجى منها تأمين مصالح للمسلمين ـ كبلد أو أمةٍ ـ ، فكل ذلك مما يوجب على المسلمين القيام به في سبيل الصالح العام، وبخاصة ما يتعلق باحترام العقد الاجتماعي الذي ينضوي تحته المسلمون مع أبناء وطنهم الواحد، لأي دين أو معتقد انتموا، أو فيما خص احترام القوانين والأنظمة، والحفاظ على حقوق الآخرين عندما يعيشون في مجتمعات أجنبية، غير المجتمعات الإسلامية. . المهم ألَّا يقعد المسلمون في مجالس فيها اعتداء على حقّ الله تعالى، وحقوق عباده، ولاسيما حقهم في المعتقد الديني، فإذا فعلوا، وسكتوا عن إبداء التذمر، أو الاحتجاج على الكافرين والمستهزئين بآيات الله، فإنَّهم يكونون مثلهم في الإثم، لأنَّ واجبهم الديني يحتّم عليهم أنْ يجانبوا أولئك الناس من

---

(١) صحيح مسلم، رقم ١٠٩١.

أهل الكفر والنفاق، إذْ أُولى مراتب النفاق أن يجلس المؤمن مجلساً يباح فيه الكفر بآيات الله، أو الاستهزاء بها، ثم يسكت، ويتغاضى، ويسمّي ذلك تسامحاً، أو حرية رأي، أو حِلْماً، أو سعة صدر في تقبّله، والصبر عليه!.. ولكنْ، في الحقيقة، هي الهزيمة الداخلية، تدبُّ في أوصال المؤمن، فيموّه على نفسه بتلك الذرائع الواهية، بينما يكون متلبّساً بالضعف والهوان!..

إنَّ الحمية لدين الله هي من مقومات الإيمان، فإذا ما فترت هذه الحميّة، إنهار بعدها كل موقف أو مناعة في مواجهة أعداء الدين. وقد تكبت هذه الحمية في أول الأمر لمصلحةٍ ما، أو تحت ذريعة معينة، لكنها تهمد وتتلاشى بعد ذلك.. فكان على كل مؤمنٍ ـ أو مؤمنة ـ يسمع التطاول على دينه، أنْ يدافع عن هذا الدين، وأنْ يجادل الآخرين ولاسيما أهل الكتاب، بالتي هي أحسن، إلّا الذين ظلموا منهم ـ بإشهار الحرب النفسية أو الإعلامية أو غيرها على الإسلام ـ فإذا وجَدَ إصراراً على مثل هذا الظلم، كان عليه أنْ يقاطع المجلس وأهله، لا أنْ يسكت وينصاع، لأنَّ مثل هذا السكوت يعتبر أول مراحل الهزيمة للحقّ الذي يؤمن به، وهو المعبر بين الإِيمان والكفر على جسر النفاق.. وإلّا لو لم يكن كذلك لما أمر الله تعالى عباده المؤمنين أنْ يهاجروا من البلاد التي لا تتيح لهم عبادة الله، والحفاظ على دينهم، إلى أرض الله الواسعة، حيث يتسنى لهم ممارسة إسلامهم وفقاً لأوامر الله ونواهيه، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾[1].

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٥٦.

وإنَّ في نهي الله تعالى المؤمنين عن القعود مع الذين يكفرون بآيات الله ويستهزئون بها، دلالةً على وجوب إنكار المنكر مع القدرة، وزوال المعذرة. ومن ترك هذا الموجب مع القدرة عليه فهو مخطئ آثم؛ كما أنَّ في النهي دلالةً على تحريم مجالسة الفسَّاق والمنافقين، لأي جماعة كانوا، ما أظهروا الفسق والنفاق، حتى لا يكون المؤمنون شركاء لهم في الإثم..

وعلى كل حال، فقد توعَّد ربُّ العزة والجلال أنْ يقتصَّ من الكافرين والمنافقين جميعاً؛ إذْ كما اجتمعوا في الدنيا على الكفر بالقرآن، والاستهزاء به، فقد قضى سبحانه أنْ يجمعهم كلَّهم في جهنم، حيث العقاب الشديد على ما كانوا يعملون..

وها نحن نجد ـ في الآية التي تلي مباشرة نهي المؤمنين عن مجالسة أهل الفسق والنفاق ـ تحذير العلي العظيم للمؤمنين مما قد يمارس عليهم الكافرون والمنافقون من الغيّ والبغي، وذلك بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾(١).

وهذا وجْهٌ آخر من وجوه النفاق الذي كان يلبسه الكافرون والمنافقون؛ فقد كانوا ينتظرون النتائج التي يسفر عنها أي قتال يدور بين المسلمين وأعدائهم، فإن كان للمسلمين نصرٌ من الله تعالى، قالوا: ألم نكنْ معكم في هذا الدين، نجاهد على طريقتنا، ونحمي عيالكم وأرزاقكم، فأعطونا نصيباً من الغنيمة!.. وإذا حلَّت بالمسلمين هزيمة، انقلبوا إلى أعدائهم يفاخرون بما كانوا يعملون في

(١) سورة النساء، الآية: ١٤١.

السرّ لإلحاق تلك الهزيمة بالمسلمين، فيقولون: ألم نحطكم بالعون فنحمي ظهوركم؟ ألم نراسلكم بأخبار «محمد» وأتباعه؟ ألم نجهد في تخذيلهم، والإيقاع بينهم؟ فنحن وإيَّاكم سواء في كل أمورنا، وعسى أنْ تظفروا بهم يوماً، فنرتاح منهم، ومن هذا الدين الذي جاء به نبيّهم!..

إنَّه حال الكافرين والمنافقين في كلِ زمانٍ ومكان، ولكن مهما بلغوا من العنت، والضلال والمكر فإنَّ الله جلَّت عظمته سيحكم بينهم وبين المؤمنين يوم القيامة، فيدخل المؤمنين الصادقين الجنَّة، ويدخل الكافرين والمنافقين النار...

وإلى أنْ يأتي يوم القيامة، ويتحقق العدل الإلَهي، فإنَّ أعداء الإسلام والمسلمين لن يتوقفوا عن حشد كل الطاقات والقدرات الفكرية والمادية لتطويع الحركات الإسلامية، أو القضاء على كل ما تقوم به في تصديها للمشاريع الخبيثة ضدَّها، ولا سيما ما تقوم به هذه الجماعات من نشر الوعي في صفوف الأمة الإسلامية، لتنفض عنها ثوب الضعف والتخاذل، فتنهض من جديد للقيام بدور الريادة للبشرية جمعاء؛ وهذا ما يعدنا به الله بقوله العزيز: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.. أبداً، لن يجعل الله العليُّ القدير للكافرين النصرَ والظهور ـ في نهاية المطاف ـ على المؤمنين، ولا سبيلاً أخيراً إلى قهرهم، واستئصال قواهم، ما أطاع المؤمنون أوامر الله ونواهيه، وجاهدوا لنصرة دينهم.. فلا يغترنَّ أعداء المؤمنين بما يملكون من الأسلحة، والثروات، وما يرسمون من المخططات، ويعدّون من الجيوش والأجهزة الأمنية، فكلها هباءٌ في تقدير ربِّ العالمين، وسوف يجعل الغلبة لدينه الذي بعث به محمداً ﷺ ولو كره أعداء هذا

الدين، وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[2] ومن ناحية أخرى، فإنَّ الله سبحانه وتعالى يبيّن توهُّمَ المنافقين الخاطئ بما يخدعون به أنفسهم، وذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾[3].

قد يتوهم المنافقون بأنهم يخادعون الله عزَّ وعلا بإظهار غير ما يبطنون، كأن يدَّعوا نصرةَ دين الله، بينما هم يؤلّبون جماعةً على جماعةٍ إسلامية أخرى مثلاً، أو يبدون الاهتمام بقضايا المسلمين بينما يكون همُّهم الحقيقي الحفاظ على مصالحهم الشخصية، أو قد يتخذون المواقف غير الواضحة في كثيرٍ من الحالات، ثم يختلقون الأعذار، والحجج لتبرير تلك المواقف، حتى قد يصل بهم الأمر إلى التواطؤ مع أعداء الأمة لقاء وعودٍ كاذبة!.. وكلها أنماط من الخداع لأنفسهم، بينما يظنون أنهم يخادعون بها الله عزَّ وجلَّ.. ولكن، وهم يقرأون القرآن، أو يسمعون آياته، ألا يصغون إلى قوله تعالى بأنه عليم بذات الصدور، يعلم ما في نفوسهم، وما تنطوي عليه قلوبهم، بل وأنه تعالى يعلم السرَّ وأخفى؟!.. فإذا كانوا لا يسمعون، سماع تدبر واتّعاظ ما يقول ربُّهم العزيز الحكيم، أفلا يفطنون إلى أنّه سبحانه

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٣.

(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٨.

(٣) سورة النساء، الآيتان: ١٤٢ و١٤٣.

يتركهم يفعلون ما يفعلون ـ سرّاً أو جهراً ـ ليكون ذلك استدراجاً لهم، وجزاؤه زيادة في الإثم والجرم؟! وهذا كتاب الله يبيّن بوضوح، وفي أكثر من آيةٍ، أنَّ مما يجازيهم الله به هو افتضاح أمرهم في الدنيا، ولذلك كان الوحيُ يتنزَّل على الرسولِ الكريم ﷺ، ويطلعه على ما يبطن المنافقون في سرائرهم، وما يتآمرون به في خلواتهم، كما كان يظهر ذلك في مجمل حركاتهم وسلوكهم المشين: فإذا قاموا إلى الصلاة ـ مع المؤمنين ـ قاموا كسالى، متثاقلين؛ بل ولا يذهبون للصلاة إلّا مراءاة، ومداهنة وخداعاً. ولا يذكرون الله تبارك وتعالى إلا قليلاً، ليظهروا على أنهم مؤمنون، وما هم بمؤمنين، بل هم من الحائرين بين الكفر والإيمان، لا ينتسبون إلى الكفار، ولا إلى المؤمنين.. أو هم من الحائرين بين الحرص على مصالحهم الشخصية وبين الظهور بمظهر المؤمنين، يتلوَّون في مسيرتهم كما تتلوى الأفاعي، ويتلَّونون في أقوالهم كما تتلون الحرباءة، وليس في نفوسهم إلا النوازع الشيطانية المضلّلة. فكان حكم الله تعالى عليهم بالضلال، ومن يضلل الله فلا هادي له، بل ولا سبيل يمكن أنْ يرده إلى الإيمان، لأنَّ الهدى هدى الله ـ لمن كان أهلاً له ـ والإضلال منه سبحانه وتعالى للذين يسلكون طريق الشيطان!، وقانا الله، ووقى الأمة من نفاقهم!...

٣ ـ تشبيه المنافقين بالخشب المسنَّدة

يقول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ* ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ* ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ* وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ

﴿خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾(١).

في هذه الآيات البيّنات يحذّر ربُّ العالمين رسولَهُ محمداً ﷺ مما تنطوي عليه نفوس المنافقين من الخداع والكذب، كما يُستدلُّ من هذه النكتة الدهماء، التي يحملونها إذا جاؤوه - حيث يظهرون بألسنتهم خلاف ما يبطنون في قلوبهم - و﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾!.. ولكنَّ هذه الشهادة، وإنْ كانت تلامس الحقيقة التي سطعت أنوارها منذ أنْ أعلنَ رسول الهدى ﷺ، أنَّ الله تعالى أرسله بالهدى ودين الحق، إلّا أنها شهادة تحتاج إلى تصويب، لأنَّها صادرة عن المنافقين، وقد جاء البيان لهذا التصويب بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ﴾.. وعلم الله بأنَّ محمداً ﷺ رسول الله هو كائن، ولا يخاصمُ به إلّا كافرٌ أو منافق، بل وعليه يجب أنْ تنعقد القلوب، وتستيقنه الضمائر، ويستقر في الأذهان.. واللَّهُ جلَّ وعلا يعلم إنَّك - يا محمَّدُ - لرسوله، وهذا أمرٌ، هو، في الأصل، خارج عن طوع المنافقين وأمانيّهم، فلا يحتاج إلى شهادتهم، لأنه يتعلق بالمشيئة الإلّهية، وما أرادَهُ تعالى في علمه الأزلي.. ثم إنَّ هؤلاء المنافقين هم أقلُّ شأناً، وأدنى مقاماً من كون شهادتهم ذات قيمة أو اعتبار في حسبان الله تعالى، لأنه عليم بما يبطنون من الحقد، والضغينة عليك - يا محمد - وعلى دينك، ويكفيهم مقتاً أنَّ الله جلَّت عظمته يشهد إنَّ المنافقين لكاذبون.. فقد كرهوا ما أرسلك الله به، ولكنَّهم اتخذوا إيمانهم، وكلَّ ما يحلفون به من العظائم.. اتخذوا

(١) سورة المنافقون، الآيات: ١ - ٤.

ذلك جُنَّةً يستترون بها، لكي يأمنوا ـ قبل كل شيءٍ ـ على أنفسهم وأموالهم، وليتَّخذوا هذا التستّر، من ثمَّ، بمثابة الغطاء لما ينشطون به في الخفاء، وهم يصدّون الناس عن سبيل الله ـ عن الدخول في الإسلام ـ والافتراء على هذا الدين بشتى الأقاويل من الكذب والتجنّي، وبثّ الإشاعات، وإثارة الشكوك، وما إلى ذلك من الفِعال التي تدخل في دائرة السوء، والتي تورثهم ـ ولا ريب ـ الهوان في الدنيا، والخسران في الآخرة.. فالمنافقون قد بنوا أعمالهم على خلفية سوء النوايا، ذلك بأنهم آمنوا بدايةً، ثم كفروا عملاً وفعلاً، بما بدا من أفاعيلهم المشبوهة، إذ كانوا يبدون الاستعداد لمناصرة رسول الله، والخروج معه في غزواته، أو في السرايا التي يقودها المؤمنون، ثم لا يلبثوا أنْ يذهبوا ويكيدوا له مع أعدائه!.. بل وكانوا يتعمَّدون أنْ يخذّلوا المؤمنين، ويحرّضوهم على التقاعس عن القتال بما يخوّفونهم به من القتل، وإيتام الأولاد، وترك الأهل لغوائل الزمان.. ومرادهم، من وراء ذلك كله، بث روح الردّة في نفوس المؤمنين، ونشر الفرقة والشقاق بين صفوفهم، لعلَّ في مثل هذا التآمر، ما يصرفهم عن واجبهم في الجهاد، كما كان المنافقون يتوهمون!.. أما المعصية الكبرى التي ارتكبوها، وكانت أسوأ ما يعملون، أنهم آمنوا بدايةً بالإسلام، ثم كفروا بهذا الدين، وراحوا يتآمرون عليه: يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم!.. وذلك ليس نفاقاً وحسب، بل ومدعاة للكفر والضلال؛ لأنهم قد كرهوا في الأصل ما أنزل الله!.. ولكن كان حكم الله عزَّ وعلا، وهو الحقُّ بما يتناسب وكفرهم، فطبع على قلوبهم بالخاتم الذي يغلقها على كفرها، فلا ينفذ إليها الإيمان.. ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ معاني هذا الإيمان الذي تبيّنه آيات الله تتلى على

الملأ؛ ولا يستمعون إلى القرآن سماع تدبّر، ولا يطيعون الرسول ﷺ بما يأمرهم به طاعة صدق، وذلك كلّه بخلاف ما يعلنون، أو ما يظهرون فيه من أقوالٍ منّمقةٍ خادعة.. فإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، لأنها من صنع الخالق العظيم، وإذا حدّثوا يبرعون برونق الكلام وذلاقة اللسان، بما يجعلك تستمع لأقوالهم! على أنَّ كلَّ ما يعجب فيهم، أو كلَّ ما يحاولون القيام به لتحسين صورتهم، ليس إلّا مظاهر خادعة، فالله الذي خلقهم وهو «أعلم بمن خلق» يشبّه أولئك المنافقين بالخشب المسنَّدة إلى الحائط؛ تبدو للعيان ملساءَ، مصقولةً بعناية، وجسامها صلبة متينة، ولكنْ ما أنْ تتفحَّصها حتى تكتشف مدى هشاشتها، وخواء جوفها، قد نخر السوس داخلها، فلا تكاد تحرّكها إلّا وتتشقّق ضلوعها تحت يدك، ثم تترنَّح معلنةً مدى قابليتها للتفتّت!.. وهذا التشبيه لأحوال المنافقين «بالخشب المسنَّدة» أصدق ما يعبّر عن ظاهرهم وباطنهم، بدليل ما يتوجسون به من خوفٍ وقلقٍ لأية حركة جماعية يقوم بها المؤمنون، أو لأي استعدادٍ للخروج والقتال؛ إذْ يحسبون كلَّ شيءٍ من ذلك بمثابة نداءٍ لقتالهم، وأنهم هُمُ المستهدفون للقضاء عليهم، وهذا إنْ دلَّ على أمرٍ، فإنَّما يدلُّ على قلقهم النفسي، ومدى ما يتآكل قلوبهم من الهواجس، مثلما يتآكل قلب الخشب من السوس.. أمَّا أكثر ما كان يؤرّقهم فهو الجزع من الموت، فلا يسمعون نداء النفير، إلّا ويشعرون بأنَّ أفئدتهم هواء، فيسارعون إلى التلطّي في مخابئهم، أو يتذرعون بالانشغال في شؤونهم، لأنهم يريدون الابتعاد عن القتال بشتى الوسائل، ولاسيما الاعتماد على الكذب والمخادعة، بل ويندفع شياطينهم، وهم رؤوس النفاق، إلى الإلتجاء عند إخوانهم الكافرين، متخفين عن الأنظار حتى

لا يظهروا بمظهر الجبن لمجرد سماع التهيُّؤ للخروج إلى القتال!..
مما يجعل كلَّ فعالهم في شك مريب، ويجعل القول بأنَّ: «المريب خائف» منطبقاً عليهم تماماً.. ولذلك كانوا «هُمُ العدوُّ» كما قال عنهم الله تعالى، ونبَّهَ سبحانه رسوله والمؤمنين إلى هذا العدوّ المستخفي بالنفاق، كي يحذروهم، وألَّا يأمنوهم بشيء.. ولكن مع التعقيب الذي يحمل التوبيخ والتقريع للمنافقين بقوله العزيز: ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾. وهذا هو الجزاء الذي يستحقون، كما قضى به جبار السماوات والأرض، لأن من قاتله الله فهو مقتول لا محالة، ومن غالبه الله فهو مغلوب حتماً. وقد حق عليهم القتل، والغلبة والقهر بما كانوا يؤفكون، وبما كانوا يتوسلون من الرياء والنفاق.

٤ ـ مثل المنافقين في نصرة إخوانهم الكافرين كمثل الشيطان عندما يتبرّأ من الكافر

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ* لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ* لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ* لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ* كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًاۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ* كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَـٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ* فَكَانَ

عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ❁ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ❁ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ❁ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ❁ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1].

في كثير من السور القرآنية، وآياتها المجيدة يأتي الذكر الحكيم على تبيان المزايا والصفات النبيلة التي يتحلّى بها المؤمنون، والتي تصهرهم في رابطة الأخوة الإسلامية التي تشدهم إلى بعضهم البعض، عبر سلسلة الزمان، مهما تمادى في السنين والآجال، فيَسْمُونَ بعقيدة التوحيد، والإخلاص لله ورسوله.. بل ومن الأهداف التي تتوخاها الآيات القرآنية، فضلاً عن تبيان خصال وسجايا المؤمنين، إظهار الفوارق والاختلافات البعيدة ـ في الجوهر والشكل ـ بينهم وبين الكفار والمنافقين؛ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات، ساروا على هدىً من ربهم، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وقد حملوا الإسلام مشعل هداية للحقّ، لأنه الدين الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم تبارك وتعالى.. أما أهل الكفر والشرك، فهم على نقيضٍ من ذلك تماماً، إذ أنّهم، ومنذ ظهور الإسلام في مكة، تألّبوا ضد النبي ﷺ وراحوا يتصدون له ـ شخصياً ـ ولدعوته، بكل الوسائل المتاحة التي كانوا يملكونها في ذلك الحين؛ فلما كانت الهجرة، وظهر النفاق في المدينة، تعاهد المنافقون والكفار على نصرة بعضهم

---

(١) سورة الحشر، الآيات: ١١ ـ ٢١.

البعض: المنافقون يأخذون دور الرياء والمخادعة حتى يكتشفوا أسرار المسلمين، والكفار يدبّرون المؤامرات التي يمكن أن ينفذوا منها للقضاء عليهم!.. على أن يتكاتف المنافقون والكفار، ويقفون جنباً إلى جنبٍ ساعة يحين قتال المسلمين. فكان الذكر الحكيم يتنزَّل على رسول الله ﷺ مبيِّناً تآمر أولئك الأعداء، وما كان المنافقون ـ خاصة ـ يتوسّلون به من الوعود الكاذبة، والأمانيِّ الخادعة التي يُمَنُّون بها إخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب في نصرتهم ضد المسلمين، كما في هذه الآيات الكريمة ـ التي نحن بصددها ـ والتي توجّه الرسول الأكرم ﷺ إلى أقوال وأفعال المنافقين واليهود من أهل الكتاب..بما مؤدّاه:

ألم ترَ، يا «محمد» إلى الذين نافقوا (من الأوس والخزرج) فدخلوا في الإسلام، لا حباً بالهداية، وإنما طمعاً في الترقب إلى أنْ تتّضح الأمور بينك وبين أعدائك، فيعلنون الموقف الذي يتناسب وأغراضهم الدنيوية؟!

ألم ترَ إلى هؤلاء الذين نافقوا، يقولون لإخوانهم من بني النضير، وهم من أهل الكتاب، من اليهود الذين كفروا بدينك: اثبتوا على مكانتكم، فلا يغرَّنكم هؤلاء المهاجرون والأنصار من أتباع «محمد» بمظهر قوتهم وتماسكهم.. لئن أخرجتم من دياركم لنخرجنَّ معكم، لأننا لا نطيق حكم «محمد» علينا، ولا نطيعه فيكم أبداً.. ولئن قوتلتم لننصُرَنَّكم، ونمدَّنَّكم بالمال والسلاح والرجال، فنحن وإياكم سواء في السرّاء والضراء!..

وتلك أقوالهم بأفواههم لأنهم كاذبون ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾

بما يغدقون على إخوانهم من يهود بني النضير، من الوعود الخادعة!.

وشهادة ربّ العرش العظيم بكذبهم هي ـ والله ـ الحق المبين.

فلئن أخرجوا من ديارهم، لا يخرجون معهم، ويتركون ديارهم التي عاشوا فيها.. ولئن قوتلوا لا ينصرونهم، ولئن نصروهم ـ على سبيل الظهور لا غير ـ ليولُنَّ الأدبار، حين يرون بأس المسلمين، ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ لأنَّ مجرد هروبهم هو الهزيمة بعينها.. ذلك أنَّ أولئك المنافقين، والذين كفروا من اليهود، كانوا يعلمون في قرارة نفوسهم، أنهم لا يقدرون على المواجهة مع المسلمين، فإذا أضيف إلى الجبن ـ الذي يعتبر من سماتهم ـ حرصهم على وجودهم في يثرب حيث يتمتعون بالملك والثروة، فإن ذلك من أهم الدواعي التي تجعلهم لا يخرجون مع بني النضير، إذا أخرجوا من ديارهم.. ولئن وعدوهم بأنهم سوف يقفون معهم في القتال، فذلك مجرد خداع، إذ ما أنْ يبدأ القتال حتى يولوا الأدبار، ويذهبوا لمداهنة أعدائهم حتى يأمنوا على حياتهم وبقائهم في أرضهم..

أما من ناحية بني النضير، فهؤلاء لا يمكن أنْ ينتصروا بقوتهم، وبأسهم لوحدهم؛ أمَّا النصرة التي وعدهم بها إخوانهم، فلا تتعدى ـ في أي حال من الاحوال ـ مجرد النفاق... إذاً فهم، على مختلف الوجوه، لا ينصرون..

وهذا ما حصل بالفعل، كما تبيّنه الآيات الكريمة، حول الأحداث التي جرت بين المسلمين وبين بني النضير من يهود المدينة المنورة..

إذ لمَّا وقع المسلمون في الضائقة، بعد معركة أحد، وما عقبها من الأحداث، رأى المنافقون واليهود في المدينة، أنَّ الفرصة باتت

مؤاتيةً لتوجيه ضربةٍ قاضيةٍ إلى «محمد» ﷺ وأتباعه، فدبروا مؤامرةً لاغتياله، إلا أنَّ ربَّه تبارك وتعالى أوحى إليه بخبرهم، فبعث إليهم رسولُ الله ﷺ الأمر بالخروج من المدينة، لأنهم نقضوا عهده، وقطعوا الميثاق الذي أمَّنهم فيه.. ويبدو أنَّ صلافة بني النضير كانت أكبر من أنْ تجعلهم يطيقون الرضوخ لأمر «محمد» ﷺ، وخاصة بعدما حرَّضهم عبد الله بن أبيّ بن أبي سلول على عدم الخروج، ووعدهم بأنْ ينصرهم مع بني قومه من الخزرج في مقاتلة المسلمين، إذا أقدموا على قتالهم.. وحاصرهم المسلمون في ديارهم، فلم يقدِّم لهم ابن سلول ـ وكان رأس النفاق في المدينة ـ ولا أبناءُ ملتهم من اليهود، أيَّ عون أو مساعدة لفك الحصار عنهم، فلما وجدوا أنفسهم وحيدين، ولا نصرة لهم من أحد، نزلوا على حكم الله ورسوله، وخرجوا من ديارهم وخلّفوا وراءهم جميع ممتلكاتهم..

وهذا الحادث الذي حصل في تلك الحقبة التاريخية هو ما تثبته الآيات القرآنية في سورة الحشر، لتنفذ منه إلى تبيان أوضاع المنافقين، والذين كفروا بالإسلام من أهل الكتاب، وخاصة اليهود في المدينة، وشبه الجزيرة كلها.

وكان العامل الأساسي لخروج بني النضير، كما يتبيّن من تلك الآيات البيّنات، الخوف من المسلمين، إذ كانوا يرونهم أشدَّ رهبةً في صدورهم من الله عزَّ وعلا؛ ولعلَّ تلك الرهبة قد سيطرت على نفوس اليهود، جرّاء ما كانوا يجدون في المسلمين من وحدةٍ وتماسكٍ، ومن إقدام على الموت والشهادة في سبيل الله، وذلك عن إيمانٍ، وطيب خاطر. فطلب الشهادة في سبيل الله، وما يتبعه من رفع الظلم عن الناس، وإحقاق الحقّ، يُعدُّ من أهم السمات التي تميّز بها المؤمنون

عبر التاريخ؛ وذلك أنَّ من لا يخاف الموت من أجل العقيدة التي يؤمن بها، فإنه لا يخاف بعده شيئاً أبداً، إلّا خوفه من الله تعالى، وخوفه من الذين يعبدون الله، لأنهم أهل الله وأحباؤه.. فالمؤمن الذي يكون على هذا المثال، هو ـ بذاته ـ طاقةً وقوةً من شأنها أنْ تبعث الخوف والرعب في قلوب أعدائه، حتى يصبح أشدَّ رهبةً ـ في النفوس الضعيفة ـ من الله القوي الجبَّار!.. وقد كانت للمؤمنين مثل هذه الرهبة، حقاً، في صدور أعداء الإسلام من الكافرين والمنافقين، والعلة الكامنة وراء تلك الرهبة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ معنى القوة الحقيقية، ولا يدركون بأنَّ القوة لله جميعاً، ووحده جلَّت قدرته هو الذي يهب القوة، والمنعة، والعزة لمن يشاء من عباده،إمّا تمكيناً لهؤلاء العباد حتى يقيموا الحق والعدل إن كانوا مؤمنين؛ وإمَّا استدراجاً لهم حتى يزدادوا جرماً، وإثماً إن كانوا كافرين أو منافقين.. فالذين لا يخافون من الله الواحد القهار، بقدر ما يخافون من عبادٍ له، أولئك ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[1] فوقعوا في الضلال البعيد؛ ولذلك تجدهم ضعاف النفوس، إلّا أنهم يعتمدون على القوة المادية في إعلان مواقفهم،وشنّ حروبهم، كما كان عليه حال اليهود في المدينة المنورة، وفي خيبر، إذْ لم يكونوا يقاتلون المسلمين إلّا في قراهم المحصنَّة، أو من وراء جدران سميكة تحيط بتلك القرى، ظنّاً منهم أنَّ حصونهم حامية لهم، ومانعتهم من وصول المسلمين إليهم.. وها هي نفس الصورة يجسّدها اليهود اليوم بجدار الفصل العنصري الذي أقاموه بينهم وبين الفلسطينيين، وبالجدران من الأسلاك الشائكة،

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩١.

وكاميرات المراقبة التي تلفّ الحدود بينهم وبين الدول العربية المجاورة..

ومن مظاهر ضعف اليهود، وهوان نفوسهم أنَّ يكون ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ فيتباهون بالقوة، وكثرة السلاح والعتاد، ويتشدَّقون بالخطط والأساليب العسكرية، بما يجعلك تحسبهم قوةً جامعةً مانعةً، وقوماً ذوي بأسٍ وشدةٍ، لا يقهرون!.. أو لعلَّ هذا ما يتوهمون في أنفسهم، كما يظهر من وسائلهم الإعلامية، وما يحاولون إقناع العالم به!... ولكنَّ مظاهرتهم تلك بالقوة، إنَّما تنمُّ عن ادّعاء أجوف، لأنهم يريدون أن يخفوا حقيقة تفرق قلوبهم، واختلاف أفكارهم وآرائهم حول أساليب السيطرة على غيرهم، وكيفية التحكم بمصائر الآخرين، فضلاً عن شدة أهوائهم في طلب الدنيا، والحرص على متاعها وزخرفها، بعيداً عن أي التزامٍ ديني أو أخلاقي.. وهذا ما يجعلهم يعيشون على النفاق والتكاذب حتى فيما بينهم.. بل ومن غريب أمرهم أنهم يستكبرون حتى على من يمدُّونهم بالمال، وبكل أسباب القوة، من خلال إقناعهم بأنهم وحدهم مؤهلون لأنْ يجعلوا العداوةَ مستحكمةً دائماً بين العرب ـ والمسلمين عموماً ـ وبين دول الغرب، وأنَّ على العالم ـ في الغرب والشرق ـ أن يمدَّهم بالدعم في كل ما يطلبون حتى يبقوا على جهوزية تامة لضرب أعدائهم المسلمين، إمَّا ساعة يشاؤون هم ـ اليهود ـ وإمَّا ساعة يُطلب منهم ذلك!. أما لماذا يربطون وجودهم، وحياتهم بالمكر والخداع، وبالغطرسة والاستكبار، فذلك ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ السنن التي تقوم عليها حياة الأمم والشعوب والجماعات البشرية، ومن مقتضاها أنَّ كلَّ أمة، مهما بلغ شأوها، لا بدَّ أن تبدأ في الانحدار عندما تصل

إلى أعلى مستوى قدراتها؛ ولا يقتصر انحدارها على نفسها وحدها، بل وعلى غيرها من الأمم أو الجماعات التي ترتبط بها؛ كما أنَّهم ﴿قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾ لأنهم يتجاهلون أيضاً، السنن التي يربط بها الله تعالى على قلوب المؤمنين، ويوهن بها كيد الكافرين والمنافقين. ومن تلك السنن ما وَعدَ الله عزَّ وعلا المؤمنين بالنصر، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1].. وهو وعدٌ إلَهيٌّ ثابتٌ بإهلاك الكافرين، ونصر المؤمنين.. وهذا يفسّر ما حصل لبني النضير من اليهود في المدينة المنوَّرة؛ فقد غرَّتهم أنفسهم بادِّعاء القوة والغنى، وزادهم غروراً، وُعودُ عبد الله بن أبي بن أبي سلول ـ رأس النفاق ـ بالنصرة لهم، إلَّا أنَّه خذلهم، كعادة المنافقين عندما يجدُّ الجد، ويحين اتخاذ الموقف، فإنهم يتخلون عن حلفائهم، ويذرونهم وراء ظهورهم يلاقون العثرة التي أوقعوهم فيها بأنفسهم!. وهذا الواقع الذي لم يفهمه بنو النضير كان من بين عوامل أخرى عديدة أدت إلى إخراجهم من المدينة، دون أن يعتبروا بما حلَّ بإخوانهم من بني قينقاع من قبل، الذين نقضوا عهد رسول الله ﷺ لهم بالأمان، فاضطُر إلى إجلائهم، وكان ذلك قبل إخراج بني النضير بزمنٍ يسيرٍ!..

ولم يترك الحقُّ سبحانه وتعالى ذلك المنافق، عبد الله بن أبي بن أبي سلول، يعيث فساداً في نفاقه، فضرب المثل الذي يخزيه في الدنيا بقوله الحكيم: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فقد كان مثل ذلك المنافق في وعوده لبني النضير بالنصرة، كمثل الشيطان فيما يمنّي الإنسان بالوعود

(١) سورة الروم، الآية: ٤٧.

الخادعة، حتى إذا أغواه، وأوقعه في المعصية، تخلّى عنه، وتركه لمصيره.. تماماً كما فعل الذين كفروا من أهل الكتاب، والمنافقون من العرب، بما أوغروا به صدور بني النضير من الحقد على رسول الله ﷺ والمسلمين، وأغروهم بإعلان العداوة لهم، ثم خذلوهم بعد أنْ أوقعوهم في البلاء، والخروج من ديارهم وممتلكاتهم لأول الحشر؛ فخرجوا أذلاّء مقهورين، والحسرة تكاد تأكل قلوبهم.. إلّا أنَّ ما وقع قد وقع، وكان من صنع أيديهم، وما سوَّلت لهم أنفسهم من الخيانة والغدر ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

ولكي يكتمل مشهد النفاق في المدينة، الذي كانت تصرفات ابن أبي سلول تجسّده كمثالٍ حيٍّ على الخبث والدهاء، فلا بدَّ أن نستشهد بالتاريخ، حيث جاء في الروايات أنَّ رجلاً من بني إسرائيل، كان يُدعى «برصيصا»، قد ذاع صيته بقوة إيمانه، وزهده في الدنيا، والانقطاع عن كل شيءٍ إلّا العبادة لله تعالى، وإرشاد الناس، وقد بلغ به الإيمانُ أنْ يشفي المرضى، ولاسيما المجانين، بإذن الله ـ كما تقول الرواية ـ .. ولعل هذا ما أثار حفيظة الشيطان عليه، لأنّه لا يطيق أنْ يرى مؤمناً ويتركه على حاله، فشدَّ العزم ليوقعه في أكبر الكبائر التي من شأنها أنْ تصرفه عن طاعة رب العالمين، وتؤدي به إلى الكفر!.. وكانَ مما نصب الشيطان حبائله لـ«برصيصا» أنْ أتَوْهُ بامرأةٍ، علَّهُ يشفيها من الجنون، فاتخذ الشيطان من جمال هذه المرأة وسيلةً لغوايته، فزيّن له مواقعتها، فحملت منه.. وبدل أن يسترَ عليها، ويتزوجها بالحلال، ليحفظها ويحفظ جنينها، أقدم على قتلها، وإخفاء أثرها، ظناً منه أنه قادر على طمس معالم جريمته.. ثم ادَّعى هروبها، وجهله بمكانها.. ويشاءُ الله تعالى أنْ يكشف فعله

الإجرامي، ليكون مثالاً عن الكافرين والمنافقين، فحُكِمَ عليه بالصلب والقتل. . وهنا أمكن للشيطان أنْ يضربَهُ الضربة القاضية، فوسوس له أنَّ نجاته، وخلاصَهُ من العذاب والموت أمرٌ سهل، فما عليه إلَّا أنْ يُعلن كفره بالله، والعودة إلى طاعة الملك، واتّباعه على دينه ـ في الكفر ـ!. . فراح «برصيصا» يصرخ على الملأ بما يظهر كفره الصراح!. . ولكنَّ أحداً لم يأبَهْ لصراخه وندائه، فالحكم قد صدر عليه، وطاعته للحاكم لن يعيد المرأة إلى الحياة!. . ويبدو أنَّ الشيطان لم يكتف بكل ما فعله، بل دفعه خبثه لأن يعلن لـ«برصيصا» عداوته له، والشماتة به، وهو يقول له: مت أيها الإنسان على كفرك: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. . ولكنْ ماذا كانت عاقبتهما، ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ﴾. . أما الشيطانَ، وكما هو ثابت في الرسالات السماوية جميعاً، فقد عصى أمر ربِّه، وكان من الكافرين، فكان جزاؤه اللعنة الأبدية، ثم يوم القيامة، إدخاله النار خالداً فيها. . وأما «برصيصا» فقد اقترف معصية الزّنى، وارتكب جريمة القتل العمد، ثم أعلن كفره بالله صراحاً. . فكان عاقبته، يوم القيامة، كعاقبة الشيطان، أنه معه في النار، خالداً فيها. . وذلك جزاؤهما، وجزاء الظالمين لأنفسهم بالكفر، وما يجرُّ إليه من المعاصي والذنوب.

ومن سمات الأمثال القرآنية أنها تتعدى في الزمان والمكان الأحداث الجماعية والفردية التي تربطها بها أسباب النزول، أو بعض التفسيرات، لتنطبق على الناس ـ جماعاتٍ وأفراداً ـ على مدى الحياة، إذ ليس الخداع الذي وقع على بني النضير من المنافقين واليهود، الذين كفروا بدين «محمد» ﷺ، وكان عاقبته إخراجهم من

المدينة، أو خداع الشيطان للإنسان الذي كفر وكان عاقبته أنّه خالد في النار.. أجل ليس ذلك إلّا للتدليل على عاقبة الناس الذين يعصون الله تعالى، فيتبعون غواية الشيطان، وقبيله من أهل الكفر، والشرك، والنفاق.. فالإنسان المنافق ـ مثل الكافر أو المشرك ـ شيطان بشري يغوي نفسه، ويوقعها في السوء، ثم يمدُّ إغواءه إلى الآخرين، ليحرفهم عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ويدسَّ في نفوسهم الفساد، والفسوق والعصيان.. وتبدأ غواية الإنسان بما يزيّن له الشيطان من الأفكار، والأعمال الإجرامية، وتهوين أمرها عليه، والفوائد التي يجنيها من ورائها.. حتى إذا وقع العاصي في أول جرم، شدَّه إلى جرمٍ غيره، ويتوالى تقلّب الإنسان بين وخز الضمير الذي تحرّكه الفطرة، وبين استمراء حلاوة الأعمال التي يقوم بها، حتى تموت بذور الخير والصلاح في نفسه، وعندها تهون عليه أية معصية، أو إثم، أو جريمة يرتكب.. ولا يصل الإنسان إلى هذا الدرك إلّا إذا قطع كل صلة بالله خالقه، فلا ينيب إليه بأمره، ولا يركن إلى حماه بحركته، ولا يلجأ إليه باستغفاره.. وقد يتمادى به الانصياع لغواية الشيطان حتى يوقعه في اليأس من رحمة الله، فيكون قد حكم على نفسه بالكفر، الذي مصيره الهلاك الأبدي، مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[1].. فهؤلاء الكافرون، هم الذين يغلب على أكثرهم حبُّ الدنيا، بحيث يصيرون عبيداً لرغباتهم وشهواتهم، منقادين لأطماعهم وأهوائهم، وذلك لأنهم غفلوا عن حقيقة نفوسهم، فجعلوها مرتعاً للشيطان، يوسوس فيها ما

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٧.

يشاء.. أو أنَّ هؤلاء قد نسوا أنَّ الشيطان هو العدو المبين الذي أخذ على نفسه العهد بأنْ يغوي بني آدم.. أو أنَّ هؤلاء اتخذوا الشيطان ولياً، فعبدوه عن قناعة، وأنشأوا الجمعيات السرية التي تنشر هذه العبادة، ولاسيما في صفوف الفتيان والشباب بشتى وسائل الإغراء والفحشاء والمنكر.. فكلُّ هؤلاء الكافرون قد اتخذهم الشيطان مطية، فزعموا لأنفسهم أنَّ لديهم من الطاقات، والقدرات الفكرية، والشعورية والجسدية؛ وأنهم يملكون من القوى المادية ما يمكّنهم أن يكونوا «أسياد العالم» فيفرضوا المبادئ والمعتقدات التي يريدون، والتي تخدم أطماعهم الشخصية، «ومصالح بلادهم الحيوية» كما يدّعون!.. وهذا ما أوصل العالم اليوم إلى هذه المادية الرعناء، التي حلَّت بديلاً عن القيم والمثل الإنسانية، وفرضت على الناس ،من حيث لا يدرون، أن يتهالكوا على متاع الحياة الدنيا بأشكاله وأفانينه جميعها.. والسبب الحاسم وراء ذلك كله عدم الإيمان الصادق، فالكافر الذي لا يؤمن بحقيقة وجود الله تعالى، والمشرك، أو المنافق الذي غلبت عليه دواعي الشرك أو النفاق... فهؤلاء لا بدَّ أنْ يكونوا جميعاً أعواناً للشيطان، بل وهم قبيل الشيطان من الإنس، الذين يعيثون في الأرض فساداً..

ولو تنبَّهَ الناس لهذه الحقيقة لعلموا أنَّ خيرَ ما يعينهم للعودة إلى فطرتهم البشرية، وأصالتهم الإنسانية هو الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى، والعمل بأوامره ونواهيه، لأنَّ تعاليم الله التي أنزلت على لسان الرسل هي وحدها سبل الخلاص من كل عوامل الضعف التي تطرأ على النفوس، لأنها تشكل القوى المعنوية الدافعة لمحاربة وساوس وإغراءات الشياطين من الإنس والجنّ.. ولكن ما العمل،

وقد ترك الناس الإيمان، فكان محكوماً عليهم أنْ يعيشوا هذه الفوضى العارمة من الظلم والفساد، ومن الجور والفسق، ومن الخداع والنفاق، ومن الكفر والشرك.. وبالتالي أن يحقق الشيطانُ وعده بإغواء الناس، إلَّا عبادَ الله المخلصين، الذين ليس له سلطان عليهم، فكانوا حقاً أهل التقوى والمغفرة..

وفي الحقيقة لو أنَّ الإنسانَ خاف ربَّهُ تعالى، وخشي وعيدَهُ، لما أطاع الشيطان وعصى الرحمن. وهذا ما يتبيّن من الآيات الكريمة التي تبدو فيها آثار رحمة الله تعالى بعباده واضحة، وذلك بقوله الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1]، فهي موعظة للذين آمنوا بأن يتَّقوا الله جلَّ جلاله، وتقوى الله تكون بالخوف من الإقدام، أو القيام بأي عملٍ قد يكون فيه معصية لله، وهذا الأمر الربَّاني لينظر كل امرئٍ ما قدَّم في هذه الدنيا لغده يوم القيامة من عمل الخير أو الشر، لأنه محاسب عليه يوم الدين، حيث الفوز العظيم أو الخسران المبين. ثم يأتي التوكيد على التقوى، والخوف من عدم الامتثال لأوامر الله تعالى ونواهيه بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فلا يعزُبُ عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. فالنوايا، والأقوال، والأعمال والأفعال يعلمها سبحانه جميعاً، وهو خبير بها، أَلَا إنه هو السميع العليم.

ثم يأمر اللَّهُ تعالى عباده الذين آمنوا بألَّا يكونوا كالذين نسوا اللَّهَ، بترك طاعته وعبادته، وأداء حقه، فأنساهم أنفسهم، فلا يقدِّمون

---

(١) سورة الحشر، الآية: ١٨.

لها خيراً ولا تزكية، ولا يجعلونها تنال حظاً من أجرٍ أو ثواب ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ لأنهم عندما ينسون الله تعالى، يقعون في المحظور، فيرتكبون المعاصيَ دون وجلٍ أو خوف من شيء، وهذا من نسيان النفس وإهمالها، لأنها هي التي يقع عليها الحساب والعقاب.. فالفاسقون الذين يخرجون عن طاعة الله، ومثلهم الكافرون والمنافقون، ليسوا كالمؤمنين الذين يطيعون الله ويعبدونه حق عبادته، فكان حقاً ألا يستووا مصيراً وجزاءً.. فلا يستوي أصحاب النار من الكافرين، وأصحاب الجنة من المؤمنين، إنَّ أصحاب الجنة هم الفائزون بالثواب الكبير، والنعيم الأبديّ. . إذاً، فالفرقُ عظيمٌ بين الفريقين: المؤمنين الذين يخشون الله تعالى، وغيرهم ممَّن لا يتّقون غضب الله، ولا يخشونه بشيء.. وها هي العبرة الكبرى بقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾.. فهذا القرآن المجيد هو كلام الله عزَّ وجلَّ، ولو أنزله سبحانه على جبلٍ لَرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله.. فالجبل، لا يعدو كونه من الجماد الأصمّ، بكل ما فيه من صخور صلبة، ومتانة تركيب، وشدة تماسك.. وعلى الرغم من ذلك، ومع كبر حجمه وارتفاعه، فإنه لو أنزل الله تعالى عليه القرآن، وآذن الجبل بفهمه وتكاليفه، ليعي الأمانة التي يحملها هذا القرآن، لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله.. وكيف لا يتصدع الجبل و﴿تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ﴾(1)، فتنشق كل واحدة فوق التي تليها من عظمة الله الكبير المتعال؟! فالجماد يخشع ويتصدع من خشية الله، وما أنزل

(1) سورة الشورى، الآية: ٥.

في القرآن، والناس من الكافرين والمنافقين لا يأبهون لهذا القرآن، ولا يخشون الله المنتقم الجبار! . .

وتلك هي أمثال وعظات وبراهين، يضربها اللَّهُ سبحانه للناس في القرآن، لعلهم يتفكرون بها، ويعتبرون، ويتدبرون، فيحتذون ـ على الأقل ـ بالجماد الذيَ ضُرب عَليه المثلُ بالجبل، ويخافون اللَّهَ تعالى ويخشونه، فيستقيمون، ويكونون مؤمنين صادقين. فالقرآن وحده طريق النجاة والخلاص، إذا أدرك الناس عظمة هذا الكتاب المجيد، وساروا على طريقه المستقيم، ونهجه القويم.

وفي نهاية المطاف، وبمناسبة هذه الآيات الكريمة التي تتناول ما حصل مع بني النضير في المدينة المنورة أيام رسول الله ﷺ، وما يعقبه من توجيه للمؤمنين، لا بد من التوقف عند أحوال اليهود اليوم، الذين ما يزالون على نفس الطبيعة والمنهج في عداوتهم للمسلمين، وشنِّ الحروب عليهم، ومقاتلتهم بأشدِّ أنواع الأسلحة وآلات الدمار التي يتحصّنون بها، ومن ثَمَّ يستكبرون عليهم بأقوى أفعال البغي والمكر والدهاء، فضلاً عن أنهم يخدعون بها دول العالم بأسره، ليتخذوا من قواها متاريس يحتمون وراءها، بدل تلك الحصون والجدر التي كانت لآبائهم وأجدادهم في شبه الجزيرة. . فها هُم، وكما نراهم اليوم، يستخدمون ضد المسلمين والبلاد الإسلامية، أقوى الدبابات والمدافع، وأحدث الطائرات والغواصات العسكرية، وأكثر الأساليب الحربية تقدماً وتقنية، وكل ذلك توفره لهم المساعدات والأموال التي تخصصها لهم الدول الحليفة والصديقة، وهذا فوق المفاعلات النووية والقنابل الذرية التي يحوزونها حتى صارت ترسانة

«إسرائيل» تختزن ما يزيد على مئتي قنبلة نووية، وهي ما تزال تصنّع بين عشر واثنتي عشرة قنبلة من هذا النوع في كل سنة. .

وإذا أمعنا النظر في الحروب الكبرى التي كان اليهود يشنونها ضد المسلمين من العرب، فإننا نجد أنَّ عنصر المباغتة والمفاجأة كان من أهم العوامل التي حققت لهم النصر، إذ كانت آلتهم العسكرية، والطيران بصورة خاصة، تحدث تدميراً شبه شامل لأسلحة وتحصينات العرب قبل بدء المعركة. . وهذا يعني اعتماد التخطيط الذي يمكّن لهم كسب الحرب بأسرع وقت ممكن، وبأقل كلفة ممكنة، وبالتالي فرض الشروط التي توفر لهم الهيمنة والسيطرة التي يريدونها من وراء تلك الحروب، وفقاً لمنظورهم التوراتي! . .

ولكن مهما بلغ اليهود من التفوق التقنيّ، والقوة العسكرية، ومهما أنتجوا، أو استجلبوا من الصواريخ المدمرة، والطائرات المتطورة، والبوارج والغواصات التي تحمل الرؤوس النووية فإنهم في حقيقتهم، وفي داخل نفوسهم قوم ضعفاء، جبناء ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ كما يصفهم ربّ العالمين.

الفقرة السابعة ـ عدم تصديق الرسل لأنهم بشر مثل سائر الناس

١ ـ مثل الذين كذّبوا بآيات الله كمثل الكلب اللاهث

يقول الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ۞ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ

يَلْهَثْ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۞ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾(١)

توحي هذه الآيات الكريمة بمصير الذين كذَّبوا بآيات الله، ولاسيما أولئك الذين آتاهم الله علم ما في هذه الآيات، حتى يعلّموها الناس، فتكون هدىً يخرجهم من الظلمات إلى النور، ولكنْ بدلاً من ذلك يتخَلّون عمَّا وهبهم ربهم من نعمة هذا العلم، ويخلدون إلى الأرض، وليس لهم مطمع إلَّا متاع هذه الدنيا وغرورها!... ولذلك كان العلم المبنيُّ على الإِيمان بحقيقة وجود الله تعالى، والذي يتوخى فيه الإنسان، قبل كلّ شيء، رضى الله، هو أسمى العلوم في ذراها الإنسانية، لأنَّ الخالق العظيم ما علَّمَ الإنسان شيئاً من علمه الواسع إلَّا لتكون العلوم أفضل نتاجٍ فكريٍّ لترقّي الناس، وتنظيم أوضاع المجتمعات، وتصويب مسار البشرية.. ولا تقتصر هذه المنافع على العلوم الدينية وحدها، كما يظن البعض، بل وتتناول كلَّ العلوم التي لا تتناقض في جوهرها مع شرع الله، وما جاءت به الكتب السماوية من الأحكام والتعاليم التي تهدي للتي هي أقوم..

ولكنْ على ما يبدو فإنَّ العلم شيءٌ، وتطبيقاته شيء آخر!.. فعلوم الطب، والاقتصاد، والمال، وعلوم الأحياء، أو الفيزياء، أو الكيمياء، وعلوم الجيولوجيا والفلك، والعلوم السياسية والاجتماعية.. وسائر العلوم الأخرى إنّما تتوخى في الأصل، خدمة الناس ونفعهم.. ومن هنا كانت المآخذ على العلماء، وعلى من يتولون تطبيق العلوم في مجالات الحياة، أنْ حوّلوا كثيراً من علومهم

---

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١٧٥ ـ ١٧٧.

إلى الإضرار بحياة البشر، بل والإضرار بالحياة البرية والبحرية على حدٍّ سواء..

ولعلَّ الشرَّ المستطير لا يكمن فقط بتسخير العلوم إلى مآرب مادية ودنيوية، ولو على حساب الناس، بل وفي المبادئ والأفكار التي تُنبت، وتُشيع العقائد الفاسدة، كالكفر والشرك، وعبادة الشيطان، أو تلك التي تبيح الإجرام، والقتل، والظلم، والفساد، والانحلال الأخلاقي، وكل ما يهدر كرامة الإنسان، ويزري بحياته إلى الحضيض!.. فكان لا بدَّ أن نرى الجوع، والفقر، والجهلَ، والقهرَ، والشقاء، والأمراض الجسدية والنفسية تستشري وتتعاظم في دنيا الناس!.. من هنا يمكن القول بأنَّ أيّ نتاجٍ فكريٍّ، علمياً أو ثقافياً كان، ويحمل في طياته الشرَّ والسوءَ للإنسانِ، إنَّما هو الباطل بعينه، وليس لصاحبه عند ربّ العالمين، إلَّا العذاب الأليم!..

أما الإسلام المجيد فقد جعل العلم جوهر الخصائص التي يتميز بها الإنسان على سائر المخلوقات في الأرض، وهذا ما يهدينا إليه القرآن الكريم، عندما نستدلُّ منه على أنّ قوام الوجود البشري ـ بأسره ـ ركنان أساسيان:

الأول: خلق الإنسان.

والثاني: تزويد الإنسان بملكة العقل، الذي به الإدراك والتمييز، وبهذا العقل عرف الله تعالى، فعبده، وبهذا العقل كانت العلوم والمعارف فعمَّر الأرض..

ويتجلَّى هذان الركنان بأنْ خلق الله تعالى آدم (أبا البشرية) في أحسن تقويم، ثم أنعم عليه، بعد مكرمة خلقه، بنعمة العلم، لقوله

تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[1] أي جميع المسميات من الكائنات والأشياء وخصائصها. .

وما يؤكد نظرةَ الإسلام إلى ما للعلم من أهمية في حياة الإنسان، هو أنَّ أول الوحي الذي أنزله الله تعالى على قلب نبيّنا محمد ﷺ، إنما كان يحمل أمرَهُ الجللَ بالتعلّم ـ ممَّا علَّم الإنسانَ من علمه الواسع ـ بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[2]. .

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾. . إقرأ يا «محمد» الآيات التي تتنزَّل عليك قرآناً عربياً مبيناً، وبالكيفية التي يُقرؤك إيَّاها أمين الوحي جبرائيل، واحفظها في جماع قلبك بألفاظها ومعانيها ومقاصدها كي تتمكن إبلاغها من الناس. . على أنْ يكون تعلمك وبلاغك للآيات القرآنية التي تتنزَّل عليك باسم ربك الذي خلق وقدَّر هذا الوجود، وكلَّ ما في هذا الوجود من المخلوقات، والذي خلق «الإنسان» من نطفةٍ أمشاج تعلق في جدار الرحم، ثم تتحوَّل هذه العلقة إلى مضغةٍ مخلّقةٍ يتكون منها الجنين، ليخرج إلى عالم الحياة والنور، بشراً سويّاً في أحسن تقويم، فتبارك الله أحسن الخالقين.

﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾. . وربُّك الأكرم بذاته القدسية، وبأنه الحيُّ القيومُ، ذو الجلال والإكرام، وسع كرسيُّهُ السماوات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العليُّ العظيم. . وربُّك الأكرم في فيوضات أنعمه وهباته ومكرماته على مخلوقاته، ومن جميل كرمه أنه تبارك وتعالى هو

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣١.

(٢) سورة العلق، الآيات: ١ ـ ٥.

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.. فقد هدى الإنسان إلى كيفية التعلّم، وأتاح له اكتشاف وسائل هذا التعلم بالمشاهدة والقراءة والكتابة (التي عبَّر عنها: بالقلم).. ثم خوَّله ـ بما أودع فيه من ملكات ـ لأنْ يحيط من العلم ما لم يكن باستطاعته أنْ يبلغه إلَّا إذا شاء الله ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾(1)..

وبمقتضى هذا الوحي، كان للعلوم ـ النافعة وليس الضارة ـ هذا الشأن العظيم في الإسلام..

وأكثر من ذلك:

فقد وضع الله تعالى العلماءَ في أعلى مراتب السمو على غيرهم من البشر، وذلك بما خصَّهم به من مزايا لم يتفضَّل بها على الآخرين من بني جنسهم، ومن تلك المزايا:

- أنَّ الله تعالى جعل ذاته القدسية، والملائكة، والعلماء شهوداً على وحدانيته، وتفرّده بالألوهية، وعلى قيّوميته بالقسط والعدل في الوجود كله، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(2).
- أنَّ الله تعالى قد بيّن لنا في قرآنه المجيد أنَّ العلماء هم العباد الذين يخشون الله تعالى حقاً ويقيناً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾(3)، فالعلماء الذين يدركون ما في هذا الوجود من السنن والأنظمة التي يقوم عليها الكون، وبمثل هذه

(1) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.
(2) سورة آل عمران، الآية: ١٨.
(3) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

الدقة من الصنع، والإحكام في التدبير والتسيير، يؤمنون بأنَّ ذلك لا يمكن أن يصدر إلَّا عن إلهٍ واحد، هو ربُّ السماوات والأرض، وأنه على كل شيءٍ قدير، وأنَّ من جلال قدرته أنه يرفع من يشاء من عباده درجاتٍ، ولا سيما في مراتب العلم.. وهذا ما يجعل العلماء كلما ازدادوا علماً، تتعمق خشيتهم من الله تعالى... وخشية العلماء لله تعالى، قد تحتمل في معانيها أنه كما يجد هؤلاء العلماءُ الاختلاف في الثمار والجبال،[1] وهذا التنوع في أشكالها وألوانها، وكما يجدون هذا الاختلاف في أجناس الناس[2]، والأنعام، والطيور والدوابّ، فإنَّهم، هم العلماء، وأكثر من غيرهم، يدركون عظمة الخالق في هذا الاختلاف، وفي هذا التنوع اللذين يدلَّان على قدرة الله تعالى، وعظيم خلقه، فكان ذلك من أسباب خشيتهم الله تعالى، أي الخشية التي ميّزتهم عن غالبية الناس الذين لم يروا شيئاً يلفت انتباههم، أو يشدُّ مداركهم إلى هذه المخلوقات من حولهم، فكان فضل العلماء على غيرهم بما حباهم ربُّهم العزيز الحكيم من الحكمة، والخشية، ومن المكانة الرفيعة، والتي عبَّر عنها الرسول الأكرم ﷺ بقوله: «.. **العلماءُ ورثةُ الأنبياء**»[3]..

هذه هي نظرة الإسلام إلى العلم وأهله... أما من أرادَ أنْ يحيدَ بعلمه عن غايته في منفعة العباد، أو من يأخذ المعادلات والنتائج التي

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [سورة فاطر، الآية: ٢٧].

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [سورة فاطر، الآية: ٢٨].

(٣) شعب الإيمان للبيهقي حديث ١٦٥٥.

توصل إليها العلماء ليطبقها في مجالات يغلب عليها الظلم والفساد، وتحقيق المطامع والأهواء، فمثله كمثل أحد علماء اليهود الذي آتاه الله علماً واسعاً بآياته، إلّا أنه لم يحفظها، بل انتزعها من عقله وقلبه، وتركها وراء ظهره، كما تنزع الحية جلدها عن بدنها، وتخلّفه وراءها ليس أكثر من قشرةٍ مرقّطة.. وفي الرواية أنَّ «بلعاء بن باعوراء»، كان من علماء بني إسرائيل الذين آمنوا بالنبي موسى عليه السلام، وكان لهم باع في فهم أحكام التوراة.. ويبدو أنَّ الفئة الطاغية من أحبار بني إسرائيل، قد اتخذت موقفاً معادياً من نبيهم الكريم بسبب حملته الشعواء ضد فسادهم ولاسيما أكل الرشاوى، وتسلّطهم على الناس، وخداعهم بالأضاليل.. فراحت تلك الفئة من الاحبار تعمل في الخفاء للنيل من نبيِّ الله؛ ونظراً للمكانة العلمية التي كان يتمتع بها «بلعاء»، فقد أغواه بعض الأحبار بالمال، والمنصب الرفيع، على أنْ يذكر موسى بالسوء، ويتهمه بالنعوت التي تؤذيه!.. وبدل أنْ يتصدّى لهم ذلك العالم الربانيّ ـ نظراً لما آتاه الله من علم بالتوارة، وفيها الآيات التي تدلُّ على مكانة نبيه موسى عليه السلام ـ فقد انقاد إلى العلماء الغاوين، حباً بالشهوات والرغبات الدنيوية، حتى انحدر إلى مهاوي الكفر، وغرق في أوضار الضلال...

ووجدَ الشيطان أمَامَه عالماً ينسلخ من علمه، ويسخر ضميره لأهوائه، فأتبعه بوساوسه المفسدة، حتى جعله تابعاً مطيعاً له، فكان من الغاوين..

وتبيّن الآيات القرآنية حكم الله تعالى على ذلك الغاوي، إذ لو شاء سبحانه لجعل «بلعاء بن باعوراء» ثابتاً على مكانته العلمية، ولرفعه بالعلم الذي آتاه إياه إلى مكانةٍ سامية!.. ولكن كان في علمه سبحانه

أنَّ هذا الرجل يغلّب استعدادات الشر على استعدادات الخير في نفسه، فما أنْ وقع في التجربة حتى هبط من شاهق الإيمان إلى مجاهل الكفر، فكان مثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث.

وإذا كان الكفر يعدُّ عنصراً طارئاً على النفس، لأنه يأتي من خارجها لمخالفته الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فإنَّ الكفر بآيات الله بعد استيقانها، والإيمان بها، يجعل الإنسان أدنى مرتبةً من الكلب، باعتبار أنَّ اللهاث خاصية في تكوين هذا الحيوان، وليس عنصراً طارئاً عليه؛ ويوضّح صاحب «تفسير المنار» اللهاث لدى الكلب، فيقول: «اللهث هو النفس الشديد مع إخراج اللسان، ويكون لغير الكلب من شدة التعب والإعياء والعطش. وأما الكلب فيلهث في كل حال، سواء أصابه ذلك أم لم يصبه، وسواء حملت عليه تهدده بالضرب أم تتركه آمناً وادعاً». ولقد ثبت في الطب البيطري أنَّ الكلب لا توجد في جمسه غدد عرقية إلّا القليل في باطن قدميه، فلا تفرز من العرق ما يكفي لتنظيم درجة حرارة جسمه، فيستعين عن هذا النقص، في وظيفة تنظيم الحرارة، باللّهاث، أي بزيادة تنفّسه عدداً من المرَّات تفوق التنفس الطبيعي لدى الحيوانات الأخرى، ويكون ذلك بتعريض مساحةٍ أكبرَ من داخل الجهاز التنفسي لتلقي الهواء ونفثه عن طريق اللسان، والسطح الخارجي من فمه.

ولعلَّ في خلق الكلب على هذا النحو من التكوين البيولوجي ما يشير إلى أنَّ لكل نوع من الكائنات الحية خصائص ذاتية تميّزه عن غيره من الأنواع الأخرى، كما أنَّ في تعدّد تلك الخصائص وتنوعها ما ينبيءُ عن قدرة وحكمة الخالق العظيم، وحاجة كل مخلوق ـ حتى الجماد ـ إلى خالقه؛ وهذا ما يستدعي من «الإنسان» التفكّر والتبصّر

بالخلائق من حوله، ولو فعل، لما أجاز أحدٌ لنفسه أنْ يركنَ إلى قواه الذاتية، ويتوهم أنَّ لديه القدرة على شيء، إلّا أنْ يشاء الله تعالى.. ومن لم يؤمن بهذه الحقيقة، التي هي من البيّنات على الخلق، فاغترَّ بنفسه، ومواهبه، وعلومه ـ عالماً كان أو غير عالم ـ فهو بشرٌ أخلد إلى الأرض، واتَّبع هواه حتى انطبق عليه المثل القرآني الذي يشّبهه بالكلب اللاهث، فلا يعيش إلّا تحت وطأة الإِعياء، والتعب، والقلق طلباً للاستزادة من أعراض الدنيا، واللهث وراء الرغبات، والشهوات إشباعاً لمطامعه وأهوائه؛ وقد ينسيه ذلك كله كينونته البشرية، وجبلّته الإنسانية، ويهوي به إلى مصاف الحيوان الضعيف، فلا يقضي من هذه الدنيا مطالبه، ولا تنتهي فيها مآربه، فحاله كما يقول الشاعر:

فَمَا قَضَى أحدٌ منها لُبَانَتَهُ ولا انْتَهَى أَرَبٌ[1] إلّا إلى أَرَب.

﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ﴾.. وهذا أغرب ما يمكن أنْ يتصورَّهُ الإنسان من الناس الذين يرتضون أن يهبطوا بإرادتهم من شاهق الإنسانية إلى مرتبة الحيوان. ذلك أنَّ القوم الذين كذبوا بآيات الله هم الذين لا يريدون التخلي عن المعتقدات التي ألفوا آباءَهم عليها، فهم على آثارهم يُهرعون.. وهم القوم الذين ساقتهم الأنظمة المادية إلى مغرياتها، فضربوا بالأديان وتعاليمها عرض الحائط، وأوغلوا في الضلال والكفر.. وهم القوم الذين يأنفون من عبادة الرحمٰن، وينصرفون إلى طاعة الشيطان..

والحال لو أنَّ الذين كذَّبوا بآيات الله، نظروا إلى هذه الآيات نظرة استبصار واستدلالٍ لوجدوا فيها الخيرَ كلَّ الخير، والطمأنينة

---

(١) الأرب: هو الحاجة.

والارتياح، والصلاحَ والفلاح،.. ولكنهم بدل أنْ يفعلوا آثروا تكذيبها، فكان حكم الله تعالى عليهم ـ ومن خلال آياته التي كذَّبوا بها ـ أنْ يكونوا مثل الكلب، الذي إنْ تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث..

أجل إنَّ آيات الله هي التي تحمل الحكم على المكذبين بها، بأنهم كفرةٌ فجرةٌ.. وهي أعلى وأسمى من أنْ تطالها ولو ذرة من تكذيبهم، لما تنضح به من البيّنات والعظات، وما تشع به من نور الهدى الذي يضيء جوانب النفوس وكوامنها بنور الله.. ويكفي أنَّها آيات منزلة من ربِّ العالمين حتى تكون حقاً وصدقاً .. ولكن ما العمل، والعيب ليس في آيات الله ـ نعوذ بالله ـ كما يجهلون، بل العيبُ، والجهلُ والضلالُ في نفوس المكذبين بآيات الله، الذين أخلدوا إلى الأرض، فلا تهتدي قلوبهم إلى الإيمان بالحق المبين، ولا تقبل نفوسهم أي تذكرة أو عظة للسير على الصراط المستقيم، فكان مثلهم في طلب الحياة الدنيا، واندفاعهم وراء متاع غرورها، كمثل الكلب الذي يلهث «تعباً وإعياءً وعطشاً» بصورة دائمة!..

﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.. فاقصص عليهم، أيها النبيُّ، ما أنزلنا عليك من الآيات التي تحمل الأخبار، وتروي القصص عن الغابرين، من الأقوام والشعوب والجماعات، الذين لم يصدقوا المرسلين، فحلَّ بهم الهلاك والدمار، لعلَّهم يتفكرون بما تحفل به هذه القصص من الحكمة، والعبرة والموعظة، فيحملهم تفكيرهم على إنكار التكذيب بآيات الله، والولوج إلى رحاب الإيمان، حيث الطمأنينة والأمان..

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾، فمثل

الذي انسلخ عن آيات الله كمثل الكلب في لهاثه، هو مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله وهو من أسوأ المثل، لأنَّ فيه الذم القبيح، والتشهير الصريح بهم؛ ولو شعروا بالكرامة الإنسانية لنفضوا عن أنفسهم هذا الذل والهوان الذي تصفهم به آيات الله، وأقبلوا يتفحَّصون هذه الآيات، ويقلبونها على مختلف وجوهها، وهي كفيلة، إذا استيقنتها نفوسهم، بأن تجذبهم إلى حلاوة تلاوتها وترديدها، وتدبر مصاديق معانيها، فيكونوا من الفائزين في الدنيا والآخرة، بدلاً من أن يكونوا من المكذبين بآيات الله، ومصيرهم الخسران المبين.

بل والقرآن الكريم يعظهم بأنْ يرجعوا عمَّا هم عليه من الغفلة، أو الغواية، أو الكذب، أو الكفر.. إلى رحاب الإيمان، لأنَّ في ذلك خيراً لهم، يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1]، أي كما بيّنا في الآيات التي تحمل الأمثال بعضاً من صفات الذين كذبوا بآياتنا، ومثل ذلك نبيّن في هذه الآيات ما سيؤول إليه مصيرهم من العذاب، لعلهم يرجعون عن تكذيبهم، فيكونوا من المؤمنين بآياتنا وما أنزل في هذا القرآن، فيتّبعوه، ثم يسألون ربّهم العفو والمغفرة عما أتوه من قبل.. والله تعالى هو الخبير بعباده، اللطيف بهم، إنْ يشأ يعذّبهم، وإنْ يشأ يكفّر عنهم سيئاتهم، ويدخلهم في عباده الصالحين.

٢ ـ تكذيب الكافرين من قوم نوحٍ دعوته لأنه بشرٌ مثلهم

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۞ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٤.

يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1].

لقد سبق هاتين الآيتين المباركتين، في سورة «المؤمنون»، الأدلة التي تأخذ الإنسان، عن طريق التفكير والتأمل، إلى الإقرار واليقين بأن الله تعالى هو الخالق، ومن تلك الأدلة:

- خلق الإنسان من الطين، ثم إنشاؤه خلقاً آخر حتى استوى بشراً سوياً ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾..
- خلق سبع سماوات تسلك فيها الملائكة الطرق والمعارج المعدَّة لها في الآفاق، لتحقيق أمر ربّها بما يشاء من تدبير وتسيير لهذا الكون، بكل ما فيه من الأجرام السيارة التي تدور في أفلاكها.
- أنَّ الله تبارك وتعالى أنزل من السماء ماءً فأنشأ به جناتٍ تمتلىء بالخيرات والبركات رزقاً للعباد.
- وأن الله جلَّ وعلا قد جعل في الأنعام عبرة للناس بما لهم فيها من منافع كثيرة..

وبعد تبيان تلك الشواهد العظام على الخلق والتدبير تأتي البيّنة على جحود العباد، وكفرهم بالله وأنبيائه، والمثال في قوم نوحٍ الذي أرسله ربُّهُ ليدعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد، إذ قال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.. وهي الدعوة الصادقة، والحجة البالغة على أنه لا إلَهَ إلا الله، وأنَّ العبادة له وحده، فلا شريك له في عبادته.. والأدلة تلك الآلاء التي تحيط بهم، وفيها أود حياتهم،

(1) سورة المؤمنون، الآيتان: ٢٣ و٢٤.

والتي لا يمكن إنكارها أو التغاضي عنها!.. ثم ماذا يخالف الفطرة عندما يقول لهم نوح: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلَهٍ غيره؟ وهل هي إلّا الكلمة الحق، والدعوة الحق التي يقوم عليها الوجود كله، ويشهد بها كل ما في هذا الوجود، عندما يكون مرتبطاً بربّه تعالى بصلة العبودية، والخضوع، والطاعة؟ ولكنَّ قوم نوح عليه السلام شذوا عن الكلمة الحق، ورفضوا الدعوة الحق، إذ قال الملأ الذين كفروا من قومه، وهم كبراؤهم وأسيادهم:

لا يا قوم، لا تصدقوا نوحاً، فما هذا الرجل إلّا بشر مثلكم، ولكنه يريد أنْ يتفضَّل عليكم بالقَدْر، والمنزلة والرفعة، فيدعي أنه نبيّ مرسل من الله. ولو شاء الله لأنزل ملائكة يدعوننا إلى عبادته. أما أن يبعث نوحاً بهذه الدعوة، وهو بشر، وليس ملاكاً، فما سمعنا بهذا في دين آبائنا من قبل، ولا في دين الأولين من الأقوام، والأمم السابقة..

وهنا كان قصور أولئك القوم، في تلك النظرة الضيقة التي تربط العقيدة بشخصِ رجلٍ مثلهم، دون أنْ يدركوا ما للدعوة إلى الله تعالى من الأثر العميق في صلاح نفوسهم، وإصلاح حياتهم وآخرتهم..

وأبعد أثراً من تلك النظرة الضيقة في ربط الإيمان بالشخص وليس باللّه تعالى، أنْ يقرّوا بحقيقة وجود الله عندما يقولون: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾، ثم يرغبون عن عبادته، وعن الإيمان بأنه لا إلَه غيره، دون أن يتقوا في ذلك غضب الله، أو يخافوا بطشه..

أمّا العلة وراء رفض تلك الدعوة من رسولٍ كريمٍ مع بيان الشواهد الحسية، إنما كانت تكمن في نوايا رؤسائهم وقادتهم، الذين استفحل الاستكبار في نفوسهم، فأبوا أن يكون رجل منهم، مثل نوحٍ رسولاً من الله، وأن تكون له المنزلة الرفيعة عليهم، لأن إقرارهم

برسوليته، إنما يعني ذهاب رئاستهم، وضياع نفوذهم، وهذا ما لا يرضون به أبداً. وتلك هي النظرة ذاتها لدى كل الذين يتولون مقاليد الشؤون العامة، فإنه لا يتبادر إلى أذهانهم، عندما تظهر دعوة إلى الصلاح والإصلاح، إلا شيء واحد، وهو أنَّ الداعية كاذب، وأنه لا يريد من وراء دعوته إلّا منافستهم على الزعامة، ومشاركتهم في القيادة والحكم، ومن ثم اقتسام الغنائم معهم، هذا إنْ لم يكن راغباً في إقصائهم، والاستئثار بكل شيء لنفسه!. وذلك ظنُّ الذين يحاربون ـ دائماً ـ دعوات التغيير والإصلاح، في حياة الناس، فمثلهم كمثل الذين كفروا من قوم نوحٍ، جاءهم نبيهم بالبيّنات فصدوا الناس عن عبادة الله، وكانوا من الظالمين!.. ولكن ماذا حلَّ بقوم نوحٍ من جرّاء كفرهم؟

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ * قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾[1].

... هذا ما جاء به الذكر الحكيم في «سورة هود» بعد تبيانه الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، وإعطاء الأمثال للتوضيح والاستدلال، إذ أعقب ذلك كله بذكر قصة النبي نوح مع قومه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾. وهو

(١) سورة هود، الآيات: ٢٥ ـ ٢٨.

الإخبار الذي يحمل فحوى الرسالة، وهدفها، بالقول الموجز والكلمات المعدودة. فالله تعالى هو الذي أرسل نوحاً إلى قومه ليعلن لهم، من غير مواربةٍ أو وجلٍ، بل بالقول الصريح: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾. والتعبير القرآنيّ يجعل المشهد الذي يقابل فيه نوحٌ عليه السلام قومَهُ وكأنه واقعة حاضرة، لا حكاية ماضية، فكأنما هو يقول للناس الآن: إنَّ أي رسالة سماوية تنذركم بوعيد الله، وتبشركم بوعده، إنَّما لتبيّن لكم طرق الهدى والاستقامة، وتنهاكم عمَّا تبغونه عِوَجاً.. فاتّبعوا، أيها الناس، ما يهدي إليه العقل الواعي، بتوفيقٍ من الله تعالى، وابتعدوا عن الأهواء الضالّة، بوسوسةٍ من الشياطين!.. فإنْ لم تفعلوا، فإنّي أخاف عليكم من عذاب يومٍ أليم، يوم يأتيكم العذاب من فوقكم ومن تحت أرجلكم، ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون، فهذا جزاء ما أشركتم بالله، وكنتم بكتبه وآياته تكذّبون!..

ذلك بعض التصوّر عما كان نوحٌ عليه السلام ينذر به قومه، وهو يدعوهم إلى الحق.. ولكنَّ الملأ من قومه، أولئك المتحكّمين برقاب الناس، رفضوا بإصرارٍ وعنادٍ تلبية دعوته للإيمان؛ وقالوا: ما نراك إلّا بشراً مثلنا، وما ينبغي أن يكون الرسل الذين يبعثهم الله من البشر، بل من الملائكة المقرّبين.. ولم يتوقفوا عند تلك الحجة التي اتخذوها أساساً لتكذيب نبيّهم، بل توالت احتجاجاتهم الواهية، فقالوا له: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾، أولئك الضعاف الفقراء، وليس لهم شأن أو مكانة بيننا، لا من مالٍ ولا جاهٍ، وما كان اتباعهم لك منذ بدأت بإعلان رسالتك، ونشر آرائك «بادي الرأي»، إلّا عن تهوّرٍ وعجلةٍ، ودونما تفكّر أو تقدير لمعرفة إنْ كنت، حقاً، رسولاً من الله!..

وبعد أنْ يئس أولئك الملأ من قوم نوح من المواربة، وتقديم الذرائع الواهية، التي لم تفلح في ثنيه عن متابعة دعوته، أعلنوا صراحةً تكذيبهم له، ولمن اتّبعه على دينه، فقالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾.

ففي اعتقادهم أن أصحاب الفضل والمنزلة في القوم هم الذين يملكون المال، والوجاهة والسلطان.. أمّا ما تنضح به ألسنتهم من كفرٍ وبهتانٍ، وما تنطوي عليه نفوسهم من أفكار شريرةٍ، وعقائدَ فاسدةٍ، وما تنطوي عليه قلوبهم من أهواء ونوازع خبيثة، فذلك لا شأن له في حسبانهم..

وتلك مقولة أكثر أهل الدنيا، فهم ـ عادة ـ يحتقرون المؤمنين، ويكذبونهم في معتقداتهم، ويذمّونهم بما ليس فيهم، بينما أهل الإيمان، في الحقيقة، هم أكرم خلق الله على الله، وأصدقهم عند الله، وأعلاهم شأناً بين عباد الله، فكان حقاً على نوحٍ أنْ يرفع التهمةَ عن نفسه وعن أتباعه، وأن يريهم الحق، وهو يعلن لهم:

يا قومِ! أرأيتم إنْ كنتُ على بصيرةٍ من ربّي، وآتاني سبحانه وتعالى النبوَّةَ رحمةً من عنده ـ بي وبمن اتبعني ـ أفلا أبادله بالشكر والحمد؟ ويا قومِ! أرأيتم إنْ كنت أدعوكم إلى الإِيمان بالله، وفيه خلاصكم من الكفر، ومن العذاب، وقد عُمّيت عليكم دعوتي، كما عُمّيت عليكم الرحمة الربانية التي تنزلت عليَّ فأنكرتموها، وكذبتموني أنا ومن اتبعني من المؤمنين، فهل نلزمكم بها، أو نجبركم على الانتفاع بها؟ لا، ليس هذا هو شأن النبيين، ولا أكرِهُ بني قومي على الدخول في دين الله إكراهاً، بل وما أمرت بذلك، لأنه «لا إكراه

في الدين». إنْ أحمل لكم إلّا الهدى، وإنْ أضعكم إلّا أمام البيّنة.. أنلزمكموها وأنتم لها كارهون؟!...

ولبث نوحٌ في قومه ألف سنةٍ إلّا خمسين عاماً، يزيِّن لهم الإيمان، ويبغض إليهم الكفر والفسوق والعصيان، ولكنهم لم يستجيبوا لدعوته، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون؛ فأنجاه الله تعالى وأصحاب السفينة، وقضي الأمر بهلاك القوم الكافرين، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾[١].

..فقد كان نوح عليه السلام لا يني، خلال تلك المدة الطويلة من الزمن، عن تقديم البيّنات لبني قومه، تدليلاً على صدق دعوته، وكانت بيّناته كفيلةً ـ لو كانوا يعقلون ـ بأن تهديهم إلى دين الله، واتباع رسوله، ومن قبيل ذلك أنه كان ينصح لهم بأنْ يستغفروا ربَّهم الغفَّار، لأنَّ من شأن هذا الاستغفار أنْ ينزل عليهم الغيث والبركة، كما يتبين من قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾[٢].. فأي قوم يعقلون ولا يسارعون للاستجابة إلى طلب الاستغفار من ربّهم، حتى تفيض عليهم كل تلك البركات، وتعم ديارهم وحياتهم كلٌّ تلك الخيرات، إلّا أنْ يكونوا ـ مثل قوم نوحٍ ـ كافرين..

---

(١) سورة هود، الآيتان: ٤٢ و٤٣.

(٢) سورة نوح، الآيات: ١٠ ـ ١٢.

ولمَّا لم ينفع معهم شيءٌ من ذلك، راح يحثهم على توجيه أبصارهم، إلى أطوار خلقهم من نطفةٍ من منيٍّ يمنى، ثم من علقة ثم من مضغةٍ مخلّقةٍ، ليخرجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً.. ثم يبين لهم تقلب أحوالهم بين الضعف والقوة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾(1)..

بل ومن البيّنات التي كان النبي نوح يلفت انتباه بني قومه إليها، هذا الخلق في السماوات والأرض، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۞ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾(2).. فهذه السماوات من فوقكم، وهذا القمر المنير، وهذه الشمس الوهاجة، وكلها ممّا تنتفعون بها، أليست من الأدلة الحسية على قدرة الله الخالق العليم؟ ثم ألا تتفكّرون كيف بسط الله الأرض، وجعل فيها هذه السهول الغنّاء لتأكلوا من خيراتها وثمارها وجعل فيها الطرق التي تسلكونها إلى معاشكم مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۞ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾(3).

وعلى الرغم من كل تلك الشواهد والبراهين على عظمة الخالق، الذي كان النبيُّ نوحٌ يدعوهم إلى عبادته، فإنَّه لم يجدهم نفعاً أيُّ شيءٍ منها، بل أصرّوا على كفرهم، واستكبروا عن الإيمان استكباراً، وهم يتداعون إلى نصرة آلهتهم من الأوثان والأصنام، كما يبينه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ

(1) سورة الروم، الآية: ٥٤.
(2) سورة نوح، الآيتان: ١٥ و١٦.
(3) سورة نوح، الآيتان: ١٩ و٢٠.

وَنَسۡرٗا﴾، وهي أسماء لأصنامهم التي اتخذوها آلهةً من دون الله، سبحانه وتعالى عما يشركون!..

ومن أساليب السفاهة التي كانوا يلجأون إليها، أنهم كلما مرّوا به، وهو يصنع الفلك، تعمّدوا السخرية منه ومن أتباعه، وذلك من جملةِ ما كانوا يكذبونه به، وما يمكرون باتباعه مكراً كبيراً، حتى ضاق بهم صدره، ولم يعد قادراً على الاحتمال، على الرغم من شدة صبره، واحتماله، وأناته طوال تسعماية وخمسين عاماً، كان يدعوهم فيها إلى عبادة الله!.. فدعا على قومه بالهلاك، وكانت دعوته بعد أنْ أوحى إليه الله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[1]؛ وكان توجّه قلبه إلى ربّه أن يهلك الكافرين، ولا يبقي منهم على الأرض ديّاراً، حتى لا يضلّوا عباده، ويظهر الكفرُ على الإيمان، ومن دعوته قوله: ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾[2].

وجاء أمر الله، وبدأت الأمطار تهطل بغزارة شديدة من كل صفحةٍ في السماء، وتصاحبها، في آنٍ واحدٍ، العيون وهي تتفجَّر في كل بقعةٍ من الأرض، حتى صارت الأمواج تتلاطم، وتتعاظم كالجبال العالية، فيتحقَّق أمر الله.. ويصوّر لنا القرآن ذلك الحدث الكوني بقوله تعالى: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ۝ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾[3].. وهو أمر الله العلي القدير الذي قضى بإهلاك الكافرين غرقاً، في طوفان غطى الأرض بأسرها...

---

(١) سورة هود، الآية: ٣٦.

(٢) سورة نوح، الآيتان: ٢٦ و٢٧.

(٣) سورة القمر، الآيتان: ١١ و١٢.

وكانت المعجزة الإلّهية، في ذلك الطوفان، سفينة نوحٍ وهي تجري بهم، وتتأرجح في الأمواج العاتية، لتكون أماناً للمؤمنين، لقوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ۝ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾(١).

والمشهد الإنساني المروّع، الذي يبرز لنا في خضم ذلك الطوفان، رؤية نوح وهو يقف على حافة السفينة، ملهوفاً على ابنه العنيد الذي أبى أن يركب معه، وهو يناديه أنْ يسرع قبل أنْ يدركه الموج فيغرقه، فيقول له: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾!..

وكان ابنه يتوهَّم أنَّ المياه لن ترتفع كثيراً لتغطّي الجبال، فقال لأبيه: ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾، وينجيني من الغرق.. وعاد الأب يُلحّ عليه أنْ يركب، قال يا بنيَّ: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾، ولا رادَّ لقضائه، ولن ينجو أحدٌ من الهلاك إلّا من رحم الله، وأرادَ له سبحانه النجاة، فلا جبال تعصم، ولا أراضين تأوي، ولا شيء اليوم يغني إلّا الإيمان بالله تعالى، فآمن يا بنيَّ بالله ورسوله، واركب معنا، يرحمك الله، ويكتب لك النجاة..

وتعاظم الموج حتى غطّى الأرض وجبالها، وحالَ الموج بين نوحٍ وابنه، فكان من المغرقين..

واللفتةُ القرآنية، هنا، التي تبيّن رحمة الله، قوله تعالى: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ فلم يعد أحدهما يرى الآخر أو يسمعه، حتى لا يرقب

---

(١) سورة هود، الآيتان: ٤٢ و٤٣.

نوحٌ تخبّط ابنِهِ في غرقه، فيزيد قلبه تفطراً وألماً، فجعل الرؤوف الرحيم الموج يحجبه عن ناظريه، رحمةً بهذا الأب الكلوم. .

وحكاية نوحٍ، سواء الأب المؤمن مع ابنه الكافر، أو النبي الهادي مع قومه الضالّين، هي نفسها حكاية المؤمنين في دعوتهم إلى الحق والإيمان، ومقابلة الكافرين لهم بالعداء والظلم. والقرآن الكريم إنما يسوق قصة قوم نوح، وغيرهم من الغابرين، حتى توحي لنا قصصهم بمشاهدها المرسومة، وكأنها حاضرة أمام انظارنا، في هذا الفساد الذي ظهر في البرّ والبحر بما كسبت أيدي الناس. . بينما المؤمنون ينادون للعودة إلى الدين، إلى طريق الله تعالى، وليس من يجيب! . .

٣ ـ إنكار عادٍ أن يكون رسولهم بشراً مثلهم، يأكل مما يأكلون منه ويشرب مما يشربون.

يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ * فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ * وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ * أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾(١).

تخبر هذه الآيات الكريمة عن قوم عادٍ، الذين أنشأهم الله تعالى من بعد قوم نوحٍ، ثم أرسل فيهم رسولاً من أنفسهم، أخاهم هوداً عليه السلام ليعبدوا الله الواحد الأحد، ما لهم من إلهٍ غيره، وأنْ يتّقوا الله في عبادةِ آلهةٍ صنميّةٍ لا شأن لها في ميزان العقل! . .

---

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ٣١ ـ ٣٦.

ولكنَّ الملأ (وهم الشيوخ والقادة في القوم)، الذين كفروا بالله، وكذَّبوا بلقاء الآخرة ـ فاتَّبعهم سائر القوم، فلا يؤمنون مثل أسيادهم ببعث، ولا حساب ـ أنكروا تلك الدعوة التي يحملها إليهم أخوهم هود، والتي من شأنها أنْ تخرجهم من الظلمات إلى النور، لأنها الدعوة من الحقّ، وإلى الحقّ تبارك وتعالى.. فقدَّم إليهم الحجج والبراهين من واقع حياتهم، ممّا يعيشون فيه من الترف والغنى، المتأتيان عن الخيرات والأرزاق الوفيرة التي أنعم بها الله تعالى عليهم، لأنه وحده مالك الملك ومصدر الرزق، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، وهو الذي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده، ويضيّق الرزق على من يشاء من عباده، وبقدر ما يشاء.. ولكن يبدو أنَّ قوم عادٍ، ومن جراء الغنى الواسع، الذي ظنوا أنه من صنع أيديهم، قد أعماهم عن الحقائق، لأنَّ الترف الذي ينقلب إلى الفحشاء والمنكر، قد يكون، في غالب الأحيان، عاملاً هاماً لأنْ يفسد الفطرة، ويغلظ المشاعر، ويفقد القلوب حسَّ التفكير السليم، وتلقّي دعوة الحق، والاستجابة لها.. ولذلك نجد الإسلام يضع الضوابط الشرعية التي تفرض على الناس الكسب الحلال، وتلزم الأغنياء بأن يؤدوا حقوق الله، وحقوق العباد من أموالهم، وذلك بإيتاء الزكاة، وإعطاء الصدقات، والإنفاق في وجوه البرّ والإحسان، كما يضع هذا الدين القويم الضوابط الأخلاقية التي تحرّم الفاحشة والمنكر، وغيرهما من الموبقات حتى لا تدخل على المجتمع الإسلامي، وتجعل الجماعة الإسلامية لاهيةً عن أوامر الله تعالى ونواهيه، إذ كلما كثر المفسدون، والفاسقون والمترفون داخلَ الجسم الاجتماعي المؤمن، كلما خرب هذا الجسم، لأنَّ هؤلاء وأمثالهم كالعفن يفسد

ما حوله، أو كالمستنقع الذي تسبح فيه الأوبئة والجراثيم.. ولعلَّ ذلك الترف الذي كان عليه قوم عادٍ، هو الذي جعلهم مثل سائر الأقوام التي تصدَّت، على مرّ الزمن، لدعوات المرسلين الإصلاحية، واعتبرتها دعواتٍ خارجة عن نطاق تصوراتها التي تهفو للحياة الدنيا بماديّتها، دونما أية اعتبارات روحية، وهذا ما ينأى بأناس تلك التصورات عن التفكّر بالحياة الآخرة، ومن مقوماته الأولى التقوى، وحبُّ العباد لله تعالى، والإيمان بالثواب والعتاب.. فكان غريباً على تصور قوم عادٍ أنْ يقوم رجلٌ منهم، ويدّعي أنه رسولٌ من الله إليهم، ثم هم يرونه يأكل ممّا يأكلون منه، ويشرب ممّا يشربون، فكيف يدعوهم إلى عبادة الله، واتّقاء غضبه وهو بشرٌ مثلهم؟!.. أبداً لم يستسغ أولئك القوم أن يكون أخوهم هود رسولاً من الله، فوقف الملأ منهم في وجه دعوته، يصدّون الناس عنه، معتمدين في حملتهم سلاح الباطل، وذلك بالتهديد والوعيد لكل من تسوّل له نفسه أنْ يؤمن به ويتّبعه، لأنه سوف يكون معرَّضاً لحرمانه من أمواله وممتلكاته!.. ومن الطبيعي لشعبٍ يعيش على الترف، ألّا يقبل بأنْ يتخلّى عن ذلك النمط من العيش الذي اعتاد عليه، مقابل وعودٍ من بشرٍ مثلهم، حول حياةٍ أخرويةٍ لا يدركون شيئاً عنها!.. إذ في ذلك مجازفة غير مأمولة العواقب!.. بل ومن الصعب وفقاً لتصورهم، أنهم إذا ما ماتوا وصاروا تراباً، وبقايا عظام رميمة، أن يحيوا من جديد، ويُبعثوا من القبور إلى حياةٍ أبدية لا موت فيها!.. وهيهات، هيهات أنْ يكون ذلك، فالحياة هنا في هذه الدنيا، ولا حياة بعدها!..

ولم يكن ذلك الموقف من المترفين إلا لانقطاع الصلة بين قلوبهم وبين النفحة العلوية التي تصل الإنسان بخالقه الكريم، فلا

يمكن أنْ يدركوا حكمة ربهم في خلقهم وتدبيرهم، للوصول إلى الغاية البعيدة التي لا تتحقق بكمالها في هذه الأرض؛ فالخيِّر لا يلقى جزاءه الكامل في هذه الحياة الدنيا، والشرير كذلك.. وإنما يستكملان هذا الجزاء هنالك يوم الحساب، حيث يصل المؤمنون الصالحون، بما قدموا لأنفسهم من خير، إلى الحياة الخالدة التي لا خوف فيها ولا نصب، فهي قد أُعِدَّت لهم، ولأمثالهم المتقين فلا يتحولون عنها أبداً.. بينما يصل كذلك الذين كفروا، وصدوا عن سبيل الله إلى الحياة الأبدية، فلا يتحولون عنها أبداً، ولكن ينتظرهم فيها عذاب السعير.. حتى ليتمنَّى الكافر أن يكون تراباً، لقول الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾(١).

إذاً فالحياة المادية، والتصورات الخاطئة هي التي حملت «عاداً» على أن يكذِّبوا أخاهم «هوداً»، ويواجهوه بحملات الافتراء عليه، وتشويه دعوته!.. وحيال ذلك لم يجد هذا النبيّ، في نهاية المطاف، إلَّا الاستنصار بـربّه تعالى فدعاه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾(٢).

وحلَّ وعد الله الحق بنصرة رسوله على القوم الكافرين، فأرسل عليهم ﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ التي لا تذر من شيء مرت عليه، إلَّا حولته إلى فتات بالٍ مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾(٣).

وهذا الوصف القرآني لتلك الريح ﴿ٱلْعَقِيمَ﴾ حتى يبيّن لنا مدى ما تحمل في طياتها من الأثر على حياتهم، إذ كما المرأة العقيم أي

---

(١) سورة النبأ، الآية: ٤٠.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٣٩.

(٣) سورة الذاريات، الآيتان: ٤١ و٤٢.

العاقر، التي لا تحمل ولا تلد، (وهذا بأمر الله، ليكون عبرةً للعباد، وليس للمرأة ذنب في ذلك) كذلك تلك «الريح العقيم» فإنها لم تكن تحمل مطراً، ولا تلقح شجراً، أو تذري حبّاً، بل كانت ريحاً مهلكة، ما تذر من شيء أتت عليه إلا أتلفته وهدمته وأحالته بالياً، يتفتَّت مثل نبات الأرض اليابس إذا ديس بالأرجل؛ أو كمثل العظم الرميم الذي يُفتُّ بالأصابع.. أما مصير «عادٍ» من جراء تلك الريح العقيم، فيبيّنه قوله الله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾(١).

إنها ريحٌ صرصرٌ: هوجاء، شديدة البرد - أو الحرّ - عاتية ما تأتي على شيء إلا وجعلته بدداً. وقد سخّرها أمرُ الله على قوم عادٍ، الذين كانوا يدّعون القوة والبأس، فأتتهم عاصفةً، هادرةً، مهلكةً لا طاقة لهم على احتمالها، أو ردِّها، مدة سبع ليال وثمانية أيام «حُسُوماً» أي تَحْسُمُ أثرهم وتقطع خبرهم، وذلك تشبيهاً لها - في استمرارها تلك المدة - بالكيّ الحاسم الذي يُكوى به الداء، مرة بعد أخرى، حتى ينحسم، أي حتى ينحسر فلا يبقى له وجود.. أو تشبيهاً لها بالشدة التي حلت بهم لتحسم أمرهم، وتستأصلهم من هذه الدنيا، فتراهم، من جرائها، قوماً صرعى، مطروحين في العراء كأنهم أصول نخل هوت، وسقطت مما أصابها من الخواء والاهتراء. ويتأكد هذا المشهد لقوم عاد في (سورة القمر) بقول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾(٢).

---

(١) سورة الحاقّة، الآيتان: ٦ و٧.

(٢) سورة القمر، الآيات: ١٨ - ٢٠.

لقد كذبت قبيلةُ عادٍ بآيات الله، فلم يفلح معها إنذار رسوله الكريم، وتوعده لها بالهلاك، فأرسل الله عليهم ريحاً صرصراً عاتية لمدة سبع ليال وثمانية أيام نحسة، مليئة بالشؤم القاتل، باعتبار أن النحس هو النذير الذي يجلب الويل، والقهر والعذاب.. ويبدو أنَّ أولئك القوم قد بادروا، لما رأوا تلك العاصفة تشتدُّ عليهم، إلى الاختباء في منازلهم وسراديبها، إلا أن قوة الريح كانت تنتزع مساكنهم من الأساس، وتذرها مبدَّدة، ومَنْ فيها، في الخواء، فترى القومَ صرعى، كأنهم أصول نخل اقتلعت من جذورها العميقة، وقذف بها خاوية، مهملة. وقيل إنَّ هذا التشبيه لقوم عاد بالنخل إنما مرده إلى ما كانوا عليه من طول في القامة، ومتانة في الأبدان، تمكّنهم من مواجهة البأساء والضرّاء..

أما (تأنيث) أعجاز النخل في سورة الحاقَّة ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ و(تذكيرها) في سورة القمر ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ فمراعاة لتناسب الفواصل عند البلاغيّين، ومراعاة للإيقاع عند الموسيقيين، في الموضعين[1]، ومن ثمَّ للتدليل على أنَّ الموت قد صرعهم جميعاً ذكوراً وإناثاً، على الرغم مما كانوا عليه من بسطةٍ في الأجساد، وقوة في الاحتمال.

وليست تلك الريح، وهي تفتك بقوم عادٍ، في حقيقتها، إلا

(١) كل جمع تكسير على وزن (أفعال) يجوز فيه التذكير والتأنيث كما في سورة «النحل» ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ ـ مذكر ـ؛ بينما في سورة «المؤمنون»: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ ـ مؤنث ـ ومثله في سورة فاطر: ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ و﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾.. فيكون القرآن الكريم قد راعى الإيقاع عندما ذكّر في مكانٍ، وأنّث في مكان آخر، وهذا من البلاغة الإعجازية في كتاب الله المجيد.

قوةً من قوى الطبيعة التي أوجدها جلَّت قدرته في هذه الأرض، وجعل لها من السنن والقوانين ما يدفعها ويسيِّرها إلى ما يشاء الله تعالى ويريد، لأنه هو صاحب الأمر والشأن. . وهذا يعني أنَّ القوى جميعاً، الطبيعية وغير الطبيعية هي ـ في المفهوم الإسلامي ـ جنود لله، يسخرّها بأمره كيف يشاء، فإذا أمرَ الريح أن تهلك «عاداً» فلا بدَّ أنَ تستجيب لأمر ربِّها، ولذلك جاءتهم تلك «الريح العقيم»، جنوداً لله، كي تستأصل وجودهم من جرّاء الكفر الذي آثروه على الإِيمان. .

٤ ـ هلاك قوم ثمود بالصيحة فكانوا كهشيم المحتظر

يقول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ * أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ * سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ * إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ * وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ * فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾(1).

يقص القرآنُ المبين في هذه الآيات خبر تكذيب قبيلة «ثمود» بالنذر التي توعَّدهم بها أخوهم صالح، الذي أرسله الله تعالى إلى بني قومه ليدعوهم إلى الإيمان والهدى. وقد خصَّ الخالق العظيم قومَ «ثمودَ»، كما خصَّ، من قبلُ، قومَ «عادٍ»، بالقوة والبأس وطول القامة. . فبدل أنْ يؤمنوا بالله تعالى ويشكروه على ما آتاهم من النعماء، كفروا وأنكروا على أخيهم صالح عليه السلام أن يُبعث رسولاً

---

(1) سورة القمر، الآيات: ٢٣ ـ ٣١.

إليهم، فقالوا: أرجلاً منا نتبعه، وبشراً مثلنا وحده يرسله الله، وليس معه من يصدقه؟! فلماذا لم يرسل الله منا رجالاً من ذوي المال، ومن أصحاب القوة والسلطان؟! لا، لن نتّبعه، ولئن اتّبعناه إنّا إذاً لفي ضلال وجنون! وهل صحيح أنه أنزل عليه الوحي من بيننا كلنا؟ لا! لا نصدقه! بل هو كاذبٌ، حاذقٌ في ادعائه النبوَّة، وهو أشرٌ، متكبرٌ بقوله إنه رسولٌ من الله!.

هكذا كانت تصورات قوم «ثمود»، التي جعلتهم يثيرون مثل تلك التساؤلات الاستنكارية الجاحدة.. فقد اشتبهوا في حقيقة التكليف، وتوهموا أنَّ الوحيَ لا ينزل على بشرٍ منهم، ويكون واحداً، بل يُلقى التكليف على عدة أشخاص، إنْ كان الأنبياء من البشر. ولذلك لم يصدقوا نبيهم عليه السلام، وكذبوا بما أنذرهم به من الآيات التي تحمل العذاب للكافرين.

ولم يكن مثل ذلك الاعتقاد الخاطىء ليسيطر على نفوسهم، لولا انعدام الإدراك لديهم، بأنَّ الرسالة لا يصلح لحملها إلَّا من يختاره الله تعالى لهذه المهمة السامية. فالقضية في هذا الاختيار لا تعني بني البشر، لأنها من أمره عزَّ وجلَّ، فلا يحق لهم الاستنكار بأنْ يكون أحدهم رسولاً!، ولا يحق لهم أنْ يجادلوا في عدد المرسلين، لأن البعث بالنبوة والرسالة محض تعبير عن إرادة الله المطلقة، فهو يصطفي من يشاء من عباده الأخيار الصالحين، لأنَّ في علمه الواسع، الذي أحاط بكل شيء، أنَّ هؤلاء الصفوة من البشر قادرون على تحمل أعباء الأمانة بصدق، وأنهم يستوفون شروط التكليف من الطهارة، وصفاء السريرة، وسماحة الخُلُق، والقدرة على حمل أعباء النبوة أو الرسالة. فالأمر، إذاً، ليس بيد البشر، بل الأمر لله تعالى

وحده، و﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[1] ولكنَّ قوم ثمود كانوا غير قادرين على استيعاب هذه الحقيقة، فثاروا في وجه الرسول المبعوث إليهم، يتهمونه بالكذب، والبطر، والافتراء بادعاء النبوة.. فتوعدهم عالم الغيب والشهادة بالعذاب على هذا الاتهام - إنْ أصروا عليه - كما توعَّدهم رسولُهُ بأنهم سوف يعلمون قريباً من هو الكذَّابُ الأشر، وحتماً لن يكون هو، هذا الرسول، لأنَّ الرسل لا يكذبون على الله ربهم، ولا يكذبون على الناس في دعواتهم إلى الحق..

وأمام عجزهم عن استيعاب الحجج التي ألقيت عليهم، والتي لم يستطيعوا البرهان على عكسها، تفتّقت أحلامهم عن طلب المعجزة، فقالوا لأخيهم النبيّ صالح عليه السلام: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[2] بأنك نبيٌّ مرسلٌ من الله.. والآية أو المعجزة التي ظنوا أنَّه لن يقدر على أنْ يأتي بها، كانت في طلبهم، أنْ تخرج من بين الصخور، في الهضبة عند ديارهم، ناقةٌ عشراءُ وبراءُ، ويكونوا، هُم، عليها من الشاهدين..

ويشاء الله، وهو على كل شيءٍ قدير، أنْ يقيم عليهم الحجة والبيّنة، فأوحى إلى رسوله بأنَّ المعجزة التي طلبوها سوف تتحقق. ولكنَّ تلك الناقة ستكون فتنةً لهم، ومحنةً تحلّ بهم إنْ لم يقروا بصدقه، بعد إرسالها.. وإلى ذلك الوقت الذي يشاؤه الله، فسوف لا يتوقفون عن أذيته، وعن السخرية منه، وعليه هو أنْ يرتقب ويصبر على ذلك: ﴿فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ﴾[3]، كما عليه أنْ يرقب ما سوف

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٥٤.
(٣) سورة القمر، الآية: ٢٧.

يصنعون بعد المعجزة، لأنهم لن يصدقوه، حتى ولو أرسلت لهم الناقة. فكان لا بدَّ له من الصَّبر على ما يلاقيه من عنتٍ وشدةٍ وتكذيبٍ، حتى يحين أمر الله، ويحكم بينه وبين قومه، وهو خيرُ الحاكمين.

وتحققت المعجزة ـ بإذن الله ـ وأرسلت الناقة. . فدعاهم النبيُّ صالح إلى تصديقه، فلم يفعلوا. .

إذاً فقد حلَّ وقت الفتنة والابتلاء. فأوحى إليه ربُّه تعالى أنْ يجعلوا الماء قسمةً بينهم وبين الناقة، يَرِدُونَه يومهم، فلا تقربه الناقة، فيسقون، ويغتسلون، ويحملون منه ما يشاؤون، وترِدُهُ يومها، فلا يجورون عليها، بالاقتراب من الماء، أو صدّها عنه. . وفي ذلك قسمة عادلة، بأنْ يكون لهم شربُ يومٍ من الماء، ويكون لها شرب يوم معلوم، مقابل تحقق المعجزة! . .

ولكن ماذا فعل قوم «ثمود»، بعدما رأوا تلك المعجزة بأم العين، ومثلما طلبوها تماماً؟ إنهم لم يتأثروا بها، لأنهم جاحدون منكرون، ولم تبعث الإيمان في قلوبهم، لأنهم قساة كافرون. . وكانوا أكثر ظلماً لأنفسهم، عندما دبروا مكيدة لقتل الناقة، فاختاروا واحداً من أشرارهم يدعى «قداراً»، وأوكلوا إليه تلك المهمة الشنيعة، فذهب هذا الشرّير الغرّير وملأ جوفه بالخمرة، ثم قصد الناقة، واستلَّ سيفه وعقرها، ثم ذبحها، كما طلب منه عتاة القوم! . .

ولكن كيف كان عذاب الله بعد ذلك العبث، بل والاستهتار بحكمه تعالى، وقد توعَّدهم بأشدّ العقاب إن خالفوا أمره؟ لقد أرسل عليهم ملائكة مأمورين، وقيل أَمَرَ جبريل الأمين عليه السلام ففاجأهم

بصيحةٍ واحدةٍ جعلتهم كأوراق الأغصان والأشواك التي توضع حول الحظيرة لحماية الأنعام من دخول الوحوش المفترسة إليها، فإذا يبست وتساقطت، داستها بقوائمها، حتّى صارت هشيماً تذروه الرياح أنّى ذهبت. . وتلك عاقبة «ثمودَ»، قوم صالح عليه السلام، إنْ كانت إلّا صيحة واحدة، فإذا هم خامدون، صرعى، محطَّمين كهشيم الحظيرة التي تؤوى إليها الأنعام، وصدق الله العلي العظيم بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾[1].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2]. إذ لم يؤمن من قبيلة «ثمودَ» إلا قليلٌ، هم الذين أنجاهم الله تعالى والنبيَّ صالح، من الهلاك. .

٥ ـ اتهام النبيّ شعيب بالسحر لأنه بشر مثل بني قومه

يقول اللَّهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ * قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[3].

---

(١) الهشيم المحتظر: هو اليابس من أوراق الشجر والنبات الذي يوضع للأنعام في حظائرها حتى تأكله، وتدوس ما تبقى منه، أو هو اليابس من الأغصان والأشواك التي توضع سياجاً حول الحظيرة لتحميها من الذئاب، أو غيرها من سباع الحيوان، فإذا داسته بقوائمها بعد يباسه تحول إلى هشيم تذروه الرياح. .

(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٥٨.

(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ١٧٧ ـ ١٨٨.

لقد أرسل اللَّهُ تعالى إلى مدين أخاهم شعيباً عليه السلام، يدعوهم إلى عبادة الله الذي لا إلّه إلّا هو؛ ويعِظهم بأنْ يتخلوا عن عاداتهم السيئة التي ورثوها، كالغش والخداع في معاملاتهم، وتجاراتهم.. ويحذرهم من عاقبة الفساد الذي يظهر بأبشع الوجوه في الأرض من مثل القتل، والزنا، والربا.. أضف إلى ذلك الفسق والفجور، وغيرها من القبائح والجرائم التي يألفها الكفار، ويستمرئون الولوغ في موبقاتها، كما كان يفعل أهل «مدين».. فقد كانوا يقطنون على مقربةٍ من الأردن، وقد اتخذ أكثرهم وسيلةً للكسب عمل الأدلّاء، لإرشاد القوافل التجارية التي تعبر تلك المنطقة في رحلاتها ما بين بلاد الشام ومصر، أو باتجاه الحجاز واليمن، وهذا ما جعلهم، مع الوقت، يتحكّمون بانتقال تلك القوافل، وابتزازها لزيادة أجورهم..

وبعد أنْ راحوا يتعاطون التجارة لحسابهم، تحوّلوا إلى نمطٍ جديد من سوء المعاملة، كان أبشعها فاحشةً التلاعب بالكيل والميزان، وأنْ يبخسوا الناس أشياءهم وحقوقهم، عن طريق شراء البضائع بأقل من أثمانها الفعلية، وتعمد السرقة في البيع والشراء على حدٍّ سواء، فإذا اكتالوا على الناس يستوفون حقهم، ويزيدون في الكيل لصالحهم، وإذا كالوا أو وزنوا للناس ينقصون الكيل والميزان، فكانوا من المطففين الذين توعدهم الله تعالى بالعذاب(١).. ثم زادت أفعالهم الجرمية، فصاروا يقطعون الطرق، ويسطون على القوافل، ثم يسلبون أحمالها، بعد أنْ يقتلوا من يقتلون من رجالها ـ بدلاً من حمايتها ـ

---

(١) مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ. ٭ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ٭ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ٭ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَبْعُوثُونَ ٭ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ٭ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة المطففين، الآيات: ١ ـ ٦].

ولذلك كان تحذير أخيهم شعيب لهم ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. . ولم تلاقِ دعوة النبي شعيب عليه السلام أيَّ صدىً في نفوسهم، فكانوا أنْ رفضوها رفضاً قاطعاً، لأنها تنهى عن الفعال الشنيعة، والعادات الذميمة التي ألفوها عن آبائهم، وتلزمهم باتّباع الاستقامة، وعدم البغي على بعضهم البعض، وعلى الناس الذين يمرّون بجوارهم. . ولم تنفع معهم دعوته لاتقاء غضب الله تعالى، والعمل بطاعته كما يهديهم إليه، بل لجّوا في عتوٍّ ونفورٍ، وهم يستهزئون به، فيقولون: أصلاتك يا شعيب تأمرك بأنْ نتخلّى عمّا كان يعبد آباؤنا؟! أم إيمانك يحملك على نهينا بألّا نفعل بأموالنا ما نشاء؟! . . إنما أنت رجل مسحور، وما أنت إلّا بشر مثلنا، وإن نظنّك لمن الكاذبين في دعواك النبوة. . فأْتنا بالعذاب الذي تعدنا، ينزل علينا قطعاً من السماء، إنْ كنت من الصادقين بأنك مبعوث رسولاً إلينا!.

لقد كذبوه، واتهموه بالسحر، ولكنه ألقى عليهم التبعة على عاتقهم، فذكرهم بما أصاب الأقوام التي سبقتهم، بقوله الذي يبيّنه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾[1]. . فقد كان تحذير النبيِّ شعيب لهم واضحاً وهو يقول لهم: يا قوم! لا يُكسبنّكم اختلافي معكم في الرأيِ الكراهيةَ، ولا تدفعنّكم المعارضة لنصحي وإرشادي إلى البغضاء، فإنْ لم تطيعوني ـ بما لا أسألكم عليه أجراً وإنما حُباً بهدايتكم، ورحمةً من ربّكم ـ فإني أخاف أنْ يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوحٍ من الغرق بالطوفان، وقوم هودٍ من الإهلاك

(١) سورة هود، الآية: ٨٩.

بالريح العقيم، وقوم صالحٍ من الموت بالصيحة، وقوم لوطٍ من الفناء بتدمير قراهم على رؤوسهم. وتلك منازل قوم لوطٍ بقربكم، وهلاكهم ليس ببعيد في الزمن عنكم.. فإنَّ في عذاب تلكم الأقوام الذين سبقوكم عظاتٍ بيّنات، فلا يصيبنَّكم ما أصابهم من العذاب!. وعلى الرغم من كل ذلك التحذير والوعيد، فقد أبوا واستكبروا، فحلَّ بهم عذاب يوم الظلَّة، الذي أخبر عنه الله سبحانه وتعالى بقوله العزيز: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾(1).

.. وكان عذاب «يوم الظُلّة»، كما ذهب المفسرون، عندما سلَّط الله تعالى عليهم أشعة الشمس، كأنها النار المحرقة، ثم بعث من فوقهم سحابة كبيرةً، نشرت ظلاًّ واسعاً، ظنّوا فيه الخلاص، فأسرعوا يستظلّون تحتها من شدة الحرّ الذي لا يطاق؛ ولكنهم ما أن اجتمعوا حتى بدأت تتساقط عليهم من تلك السحابة قطع كبيرة من دخانٍ كثيفٍ ـ رجَّح بعضهم أن تكون قطعاً من نارٍ ـ لا يصل إلى أحدٍ إلّا وصرعه اختناقاً أو حرقاً، فعذاب يوم الظلّة تلك ﴿كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.. وإنَّ في ذلك اليوم لآيةً تستدعي التأمُّلَ والتفكير، بما قد ينزل بكل قوم يكثر فيهم الكافرون على المؤمنين، مثلما نزل بقوم شعيب ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾..

٦ ـ استكبار فرعون وملئه عن الإيمان لبشرَيْنِ مثلهم.

يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ

---

(1) سورة الشعراء، الآيتان: ١٨٩ و١٩٠.

مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ (١).

قصة موسى عليه السلام، مع فرعون مصر قد ورد ذكرها في القرآن الكريم أكثر من قصة أيّ نبيٍّ آخر، ولكنّها أينما جاءت في السور، نجدها تصوّر حقيقة الدعوة للإيمان بأن الله تعالى إلٰه واحد في السماوات والأرض، وربٌّ واحدٌ لا شريك له في الملك.. إلا أنَّ فرعون وملأه كذَّبوا الدعوة وحاملها، ولم يقروا بما دعاهم إليه موسى وأخوه هارون عليهما السلام من الهدى والحق، لا سيما وأنَّ فرعون الطاغية قد جعل نفسه ربّاً للناس، فكان ـ والعياذ بالله ـ يقول لهم: «أنا ربُّكم الأعلى»!! أو يقول لهم كما يبيّنه قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ (٢).

... لقد جاءه موسى عليه السلام بالبيّنات الصادقة التي تدلُّ على أنه رسول الله، فلم يجد فرعون حيلةً إلا أن يوهم الناس بأنه ما جاء إلّا ليخرجهم من أرضهم بالسحر، ولذلك قال له: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ (٣)، من أجل أنْ تستولي أنت وبنو إسرائيل على ملك مصر وحكمها؟ ولكن لا، لن ندعك تفعل هذا، ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ (٤) فنحن قادرون على أنْ نأتيَنّك بسحرٍ مثل سحرك، بل ويفوقه، ولنبيّننَّ للناس مدى هوانك علينا، وعدم قدرتك على مجاراة سحرتنا، فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن، ولا تخلفه أنت، وليكن في مكان

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ٤٥ ـ ٤٨.
(٢) سورة القصص، الآية: ٣٨.
(٣) سورة طه، الآية: ٥٧.
(٤) سورة طه، الآية: ٥٨.

تستوي فيه الرؤية للناس جميعاً، ليروا عندئذٍ كذب ادعائك النبوة، وضعف سحرك الذي لا يجدي. .

وهذا ما يوحي بأنَّ فرعونَ كان مشوشاً في نفسه، خائفاً من حقيقة ما جاء به موسى عليه السلام . . ويظهر ذلك من خلال التفاوض الذي أجراه معه، وترك الأمر له بأنْ يعيّن زمان ومكان الاجتماع الذي تجري فيه مباراة السحر. كما يدل ذلك على أنه، ومنذ القدم، كان هنالك مباحثات تجري حول القضايا الهامة؛ وأنها كانت في بعض الأحيان، تحصل في اجتماعات عامة تعقد في زمانٍ ومكانٍ يتم تحديدهما والاتفاق عليهما من قبل الأفرقاء المتنازعة. .

ولم يكن لتلك المباحثات التي جرت ما بين موسى عليه السلام وفرعون وجهها الدينيّ فقط، بل كان لها كذلك وجهها السياسيّ بما له من تأثير على بني إسرائيل الذين كانوا يعيشون تحت سلطة فرعون، الذي كان يذلهم بشتى أنواع الإذلال، ويستعبدهم بكل ألوان الاستعباد خوفاً على ملكه من تكاثرهم وغلبتهم، وهذا هو شأن الظالمين والطغاة الذين يكونون في سدّة الحكم. . فهم لا يتحرَّجون ـ عادةً ـ من فعل أي شيءٍ للاحتفاظ بالسلطة، ولو أدّى ذلك إلى ارتكاب أشدّ الجرائم وحشية، وأشنعها بربرية بحق البشر والإنسانية. . تماماً كما كان فرعون يفعل في محاولاته الإجرامية لاستئصال بني إسرائيل من الوجود، وذلك بقتل مواليدهم الذكور، واستبقاء إناثهم أحياءً، وتسخير آبائهم وأمهاتهم في الشاقّ والمهلك من الأعمال، حتى جعلهم عبيداً له ولبني قومه. .

فلما أنْ جاءه موسى وأخوه هارون عليهما السلام بالبيّنات من ربهما، وسألاه أنْ يرسل معهما بني إسرائيل، ولا يعذبهم، قال فرعون

لموسى: أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى؟ وهذا يعني بنظره أنَّ إطلاق بني إسرائيل من العبودية، هو تمهيد للاستيلاء على الحكم والأرض في مصر.. ولذلك فإنه لمَّا جمع السحرة، كان جلُّ اهتمامه، هو وبطانته، منصباً على إيهامهم بأنَّ موسى وهارون إنّما يريدان حكم مصر وإخراجهم من أرضهم، كما يبيّنه قول الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾(١).

وكان ما كان من اجتماع فرعون بالسحرة، وتشدّده عليهم لكي يأتوا بكل أنواع السحر التي تمكّنهم من الغلبة على موسى.. ووجدها السحرة فرصةً مواتية للكسب الكبير، فسألوا فرعون أنْ يجزيهم أجوراً عالية، لأنه سوف يرى ما يُرضيه!! فوعدهم بجزيل العطاء، وبعلوّ المنزلة والتكريم عنده!. ولكن ماذا حصل في الحقيقة؟ لقد رأى السحرة آية الله الكبرى التي ظهرت لهم بتحويل العصا الجامدة، التي ألقاها موسى، إلى ثعبانٍ حيٍّ يلقف حبالهم التي جعلوا الناس يظنونها حياتٍ تتلوى أمام أنظارهم من قوة السحر. ولكنَّ السحر لا يمكن ـ مهما كان قوياً وشديداً ـ أن يحوّل الجوامد إلى كائنات حية.. أما وإنْ حصل في دنيا الأرض، فلا يكون إلا بمشيئة الله القادر المقتدر، كما في أمره الجلل الذي حوَّل عصا موسى الخشبية إلى حيةٍ حقيقيّةٍ تبتلع الحبال التي رماها السحرة، فآمنوا، وهم يرون المعجزة الخارقة، وسجدوا لربّ العالمين. أما فرعون والملأُ من قومه، فأصرّوا على كفرهم ولم ينفع معهم ذلك البرهانُ الربانيُّ، لأنهم كانوا

---

(١) سورة طه، الآية: ٦٣.

من الطغاة الذين يستمرئون حكم الناس بالظلم والجبروت!.. وكان ذلك ظاهراً باستكبارهم وتعاليهم، وبالسلطان والقوة، والثراء والبذخ، وسائر المظاهر المادية التي يتعالى بها الناس على بعضهم بعضاً!. ويبيّن النص القرآني جانباً من استكبار فرعون وملئِهِ إذ قالوا: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾؛ فهم يستكبرون أنْ يؤمنوا لبشرين مثلهم، وأنْ يكونا رسولين من الله، لأنهم ينكرون أصلاً حقيقة وجود الله تعالى، وألوهيته المطلقة!.. ثم كيف يؤمنون لرجلين من بني إسرائيل، وهم قوم عبيدٌ عندهم، يستخدمونهم بزراعة الأرض، وجمع الغلال، وفي المشاغل والمصانع، ويسخّرونهم بشتى أنواع التسخير لخدمة مصالحهم.. ثم لا يعاملونهم إلّا بالإِذلال، والقهر، والتعذيب والقتل، وكل ما يؤدي إلى هدر كرامة الإنسان، وحقه في الحياة!.. فكانت مشيئة الله تعالى، أن ينجي بني إسرائيل من ذلك العذاب، لأنهم وحدهم كانوا الجماعة المؤمنة في مصر، ويسيرون على ملّة آل يعقوب، فكان أنْ بعث سبحانه رسولين منهم إلى الطاغية فرعون، علَّه يرعوي عن طغيانه واستبداده، ويخلّي سبيل بني إسرائيل، فيخرجوا من مصر!.. ولكنَّ القوم الكافرين كذَّبوا الرسولين، ولم يؤمنوا لهما بشيء، فحقَّ عليهم العقاب، فكانوا من المهلكين!..

وقد ذكر الله تعالى كيف انتقم منهم بإغراقهم أجمعين، وذلك بقوله العزيز: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۞ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ﴾[1].

(١) سورة الزخرف، الآيتان: ٥٥ و٥٦.

وتلك كانت نهاية المطاف لذلك الظالم، الطاغية فرعون، ولملئه الذين اتبعوه على الضلال. فقد استطاع موسى عليه السلام أنْ يخرج بني قومه من مصر في جوف الليل.. ولكنْ سرعان ما وصل الخبر إلى فرعون، فأعلن من فوره النفير العام، ثمَّ جمع جنوده من كل أنحاء البلاد، وركب على رأس جيشه للّحاق ببني إسرائيل، وإبادتهم على بكرة أبيهم. ولكنَّ الله تعالى أهلكه وجنوده جميعاً بإغراقهم في اليم. وهذا ما يوجزه القرآن المبين في الآيتين (٥٥ و٥٦ من سورة الزخرف) بإعجاز رائع في أداء التعبير ودلالة المعنى. أما قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾، فمعناه: فلمَّا أغضبونا، ولكنَّ هذا الغضب الذي ينسبه تعالى إلى نفسه، إنما هو في الحقيقة تدليل على غضب موسى وأخيه هارون عليهما السلام، لأنه لا يمكن لمخلوق أنْ يغضب ربَّ العزة والجلال، وإنْ كان للمخلوق قدرةٌ على أنْ يغضب مخلوقاً مثله؛ ومن قبيل ذلك أنَّ إصرار الكافرين على كفرهم، والمشركين على شركهم كان يغضب ـ على الدوام ـ أنبياء الله، ورسله، وأولياءه الصالحين. وهذا الغضب كان يتبدَّى بانتقام جبار السماوات والأرض من أعدائه وأعداء رسله، وانتقامه سبحانه وتعالى لا يكون إلَّا لأجل الحق، ولأجل أوليائه الصالحين، لأن في رضاهم ما يرضي الله، وفي غضبهم ما يغضب الله تعالى، فلما كان ذلك الغضب من موسى وهارون عليهما السلام، كان الانتقام من الله تعالى بإهلاك فرعون وجنوده، فأغرقهم أجمعين. ثم جعل سبحانه هذا الهلاك، وبالطريقة التي يصفها القرآن، عندما انفلق البحر فكان كل فرقٍ كالطود العظيم، عبرةً للآخرين من الناس أجمعين، ومثلاً لكل من يقفون على خبرهم، علَّ في ذلك ما يردعهم عن غيهم، فلا يفعلون مثل فعالهم..

٧ ـ مَثَلُ أصحاب القرية التي جاءها المرسلون

قال الله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ * قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ * قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ * وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ * ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ * إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ * قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ * وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ * إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ * يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾(١).

في مطلع هذه الآيات خطابٌ من الله تعالى لرسوله محمد ﷺ بأن يضرب لكفار مكة ـ وللناس كافة ـ مثلاً عن أهل القرية ـ وقيل هي أنطاكية ـ إذ جاءها المرسلون بدعوة الإيمان، وترك الكفر.. فقد أُوحي إلى عيسى ابن مريم عليه السلام أن يبعث إلى تلك القرية اثنين من أنصاره الحواريين؛ ولكنَّ أهلها كذّبوهما؛ فعزَّزهما الوحيُ من اللهِ تعالى برسولٍ ثالث، يشدّ أزرهما ويقوّي موقفهما، فاجتمع الثلاثة

(١) سورة يس، الآيات: ١٣ ـ ٣٠.

على تبيان الدعوة التي أرسلوا بها، لصلاح أهل تلك القرية، علّهم يهتدون إلى الإيمان بعقيدة التوحيد، وينبذون الكفر والشرك، فيأتيهم الانعتاق من سيئات ما يحيط بهم!..

ولم يصدقهم أهل القرية بأنهم إليهم مرسلون، فقالوا: ما أنتم إلَّا بشر مثلنا، والمرسلون ليسوا من البشر، وما أنزل الرحمان من شيءٍ مما تدعوننا إليه، إنْ أنتم إلَّا تكذبون، فيما تزعمون من حمل الرسالة، والدعوة إلى الله..

ويبدو أنَّ اعتقاد أهل أنطاكية بعدم صلاحية البشر لحمل الرسالات السماوية، كان كاعتقاد غيرهم من الأقوام الماضين، وذلك للجهل بأنَّ اختيار الرسل من البشر إنَّما أمرٌ ربانيٌّ كي لا تلتبس على الناس الأمور؛ إذ لو كان الرسل من الملائكة لوجب أن يبعثوا على صورة البشر، فيحصل الالتباس، ثم إنَّ الرسالة السماوية عندما يحملها أحدٌ من البشر فإن ذلك يكون أدعى لتأثيرها في النفوس، وأجدى في إيصال آياتها ومفاهيمها إلى العقول والقلوب، لأنَّ المبعوثين أدرى بأحوال الناس أمثالهم، وبطرق تفكيرهم، وسبل معايشهم من الملائكة، الذين لا يعملون إلَّا بما يؤمرون..

وردَّ المرسلون على أهل أنطاكية قائلين: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[1]، وإنَّا لصادقون بما نبّلغكم عن لسان عبد الله ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام من الآيات التي تحمل الأدلة والبراهين على صدق وأحقية التعاليم التي يبشّر بها، ويدعو إليها. فإن اهتديتم فذلك خير لكم، وفيه صلاحكم في الدنيا والآخرة..

---

(١) سورة يس، الآيتان: ١٦ و١٧.

قال أهل القرية: إنَّا تشاءمنا بكم، فالمطر انحبس عنّا، وعمَّ الجفاف ديارنا، فلم يعد عندنا زروع تنمو، ولا مواشٍ ترعى وتحلب، بل واختلطت علينا أمور حياتنا كلها منذ مجيئكم، لئن لم تنتهوا عن دعوتكم، لنرجمنّكم وليصيبنّكم منّا عذاب أليم.

قال المرسلون: إنما شؤمكم، وتطيّركم معكم، ويلازمكم لأنكم قوم كافرون، وما انحباس المطر إلّا آية من أمر الله، علَّها تبعث فيكم التفكير على أنه هو القادر على إنزال المطر، وإحياء الأرض بعد موتها، وإلّا فمن يرسل الرياح مبشرات بين يدي رحمته، ومن ينشر السحاب في السماء فيجعله كسفاً، فيخرج الودق من خلاله؟!.. فهل إلّا الله الذي لا إلَه إلّا هو، ووحده القادر على ذلك؟ فهو سبحانه وتعالى الحق المبين، ومنه الخير، والبركة والرزق، ومنه الرحمة، والعفو والمغفرة.. أما الشؤم الذي تنسبونه إلينا فلا شيء منه يصاحب رسل الله، بل تتوهمه النفوس الكافرة التي لا تريد الاهتداء إلى الحق المبين.. ثم ما بالكم أإذا دُعيتهم لعبادة الله، وذُكِّرتم بفضله وإنعامه على عباده، تتهموننا بالكذب والشؤم؟!.. بل أنتم قوم مسرفون في الشرك، والعبادة لغير الله تعالى، وهو الذي يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم..

وثابر الكافرون على تكذيب المرسلين وتهديدهم، ودفَعَهم كيدهم لإنزال السوء بأولئك المرسلين.. فجاء أحد أبناء مدينتهم، ويدعى حبيب النجار، كان يقيم في طرفٍ بعيد من أطراف المدينة، يسعى مسرعاً إلى حيث تجمهر الناس في موجةٍ عارمةٍ من الغضب، ليعلن أمامَ الجماهير، إيمانَهُ بالله تعالى، ثم يقول: يا قوم، اتبعوا هؤلاء المرسلين، الذين يهدون للحق اليقين. اتبعوا من لا يسألونكم أجراً

على هدايتكم، وهم مهتدون. . يا قوم! قد تعلمون أنَّ ولدي قد أصيب بالجذام، وقد بذلت في شفائه للأطباء والعرافين أموالاً طائلة من غير نفع جاؤوني به، ويشاء الله ربُّ العالمين أنْ يأتيني هؤلاء المرسلون، وأنْ ينكبّوا على معالجة ابني، فيشفى بإذن الله من الجذام. وقد حاولت جاهداً أن أعطيهم أجرَ ما فعلوا، فردّوا عطائي بالمعروف، ودعوني إلى الإيمان بالله، والاهتداء إلى دينه القويم، فآمنت بالله إلَهاً واحداً، عزيزاً مقتدراً؛ فاقبلوا نصحي، واتبعوا هؤلاء المرسلين.

وحاجّوه في أمره، منكرين عليه التخلّيَ عن عبادة آلهتهم، والركون إلى عبادة الله!. .

فقال لهم: وما لِيَ لا أعبد الذي خلقني، وأنعم عليَّ فهداني. . وقد كنتم أمواتاً، فأحياكم، ثم يميتكم، ثم إليه ترجعون بعد الموت. . أأتخذ من دون الله آلهةً من الأصنام أو الأوثان، إنْ يُردني الرحمٰنُ بضرٍّ، فلا تستطيع تلك الآلهة المزعومة أنْ تشفع لي عنده، لأنه لا شفاعة لها، وهي أحقر وأذلُّ من أنْ يكون لها شفاعة عند ربّ العالمين، أو أن يكون لديها قدرة على الإنقاذ عند الشدَّة. . فإن لم يكن لهذه الأصنام شأن يذكر، أأتخذها آلهة موهومة من دون الله، ولئن فعلت، إني إذاً لفي ضلالٍ مبين. ولكن ولله الحمد ظهر لي الحق من الباطل، فاتّبعت ما أنقذني من الكفر والضلال. . إني آمنت بالله بربّكم، فاسمعوني وأطيعوني في دعوتي، لعلَّ خلاصكم يكون فيها، ويكتب لكم النجاة والفوز!. . وكانت نهاية الرجل المؤمن، الذي جاء من أقصى المدينة يسعى للذود عن رسل الله، أنْ رجمه الكفار بالحجارة (كما ورد في بعض التفسيرات) فخرَّ مضرَّجاً بدمائه، وقضى شهيداً لإيمانه، ودفاعه عن الحق. .

والقرآن الكريم لا ينبيء شيئاً عن حال أولئك المرسلين إلى أنطاكية، وهل كان مصيرهم القتل.. ولكن يفهم من السياق أنَّ أهل تلك القرية قد رجموهم وعذَّبوهم كما توعدوهم من قبل.. وكذلك لم يُخبر القرآن عن الكيفية التي قتل بها المؤمن، بل ينقلنا نقلةً سريعة توحي بأنه توفي، وأنه حُمل على أجنحةِ الملائكة إلى السماء، الذين بشّروه بالجنة «قيل ادخل الجنة»، هذا ما وعد اللَّهُ عباده الشهداء، على ما عاهدوا الله عليه من صدق الإيمان، والوفاء بعهده تعالى.. ثم نتبيّن مقدار الفوز العظيم الذي ناله ذلك المؤمن بوعد الله دخوله الجنة إذ يخبر القرآنُ عنه أنه قال: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾، من الصالحين الذين يستشهدون في سبيل الله، ونصرة دينه ورُسله.. فأي ثواب أعظم من مغفرة الله، وأي جزاء أوفى من مكرمته لعبده، بل وأي فوز أعظم من دخول الجنة؟ ولهذا فليعمل العاملون.

ومن الحقائق الأساسية التي يبيّنها لنا القرآن الكريم في هذه الآيات الكريمة، أنَّ الحياة الدنيا غير منفصلة عن الآخرة، بل هي تتصل بها في كل شيء يخص الإنسان، وأنَّ الموت ليس إلّا خطوة فاصلة تنقل المؤمن من ضيق الأرض إلى رحاب السماء، ومن ظلمات الجهل إلى نور اليَقين، ومن جور الباطل إلى طمأنينة الحق. أما الأثر المباشر، والأهم للموت فهو أنه ينقل الإنسان من عالم الفناء إلى عالم البقاء، حيث لا موت ولا فناء، بل خلود وحياة أبدية سرمدية: إما في النار، وإما في الجنة.. وما جزاء الإيمان الصادق، والاستشهاد في سبيل الله تعالى إلا الفوز العظيم في الجنة. وهذا حق اليقين مثلُ ما أنَّ الناس ينطقون. فلا يتوهمنَّ أحدٌ أنه لا قيامة، ولا دينونة!.. ولا يظننَّ

أحد بأنَّ له فضلاً عند ربّه تعالى، من كفر فعليه كفره، ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون. . فهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات في الحياة الدنيا، هم الذين يمنُّ الله عليهم بالفضل العظيم من الأجر والثواب، يوم الحساب. ولولا مغفرة الله عزَّ وجلَّ ورحمته التي وسعت كل شيء، لما كان حتى لهؤلاء المؤمنين من فوز، لأنَّ الإنسان ـ بطبيعته ـ قد يخطىء ويصيب، وقد يسيء ويحسن، ولكن ما يتميز به المؤمنون عن غيرهم، بأنَّ كفة حسناتهم ترجح على كفة سيئاتهم، فتشملهم رحمة الله، الذي يبدِّل سيئاتهم حسنات، إلَّا من شاءَ الله تعالى أن يدخله الجنة بغير حساب، ومن هؤلاء الشهداء الأبرار الذين قتلوا في سبيل الله؛ ولذلك كان قتل حبيب النجار، المؤمن من أصحاب القرية التي جاءها المرسلون، الفاصلَ الذي نقله سريعاً من دار الدنيا إلى رحاب الوعد بالجنة، لأنه استشهد دفاعاً عن الحق، وقال كلمة الحق، من غير أنْ يخاف في الله لومة لائم. ومن شدة فرحه بما آتاه ربُّه من الرضى والكرامة، يتمنى لو يعلم قومُهُ بما غفر له ربُهُ، وجعله من المكرمين. .

وما أنزل الله على قومه من بعد موته، ملائكةً من السماء (من جندٍ) يسومونهم سوء العذاب، وما كان جلت عظمته ليُنزلَ مثل هؤلاء الملائكة ليهلك الناسَ وهو اللطيف الخبير، أو ليروِّع أهل الأرض بجندٍ من السماء لا قبل لهم بملاقاتهم، إلَّا أنْ يشاء نصرة جنده من عباده المؤمنين، الذين يدافعون عن الحق في مختلف وجوهه، فهؤلاء يمدهم الله تعالى بجنود لا يعلمها غيره سبحانه وتعالى، وحكم هذا الإمداد أنْ يهلك القوم المجرمين. . تماماً كما حدث لأهل تلك القرية التي كذبت المرسلين، ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾. .

فقد أمر الله العزيز الجبّارُ جبريل عليه السلام بتلك الصيحة فأخمدت أنفاسهم، فماتوا وهم كافرون. .

. . فيا حسرة على العباد، كيف يتيهون وراء الباطل، وينسون بأنَّ الله هو العليّ القدير، ولولا كلمة منه بتأخير العذاب إلى يوم الحساب لما أبقى على هذه الأرض ديَّاراً. . فالعباد ضعاف في الحقيقة، بل وهم في منتهى الضعف، لأنَّ الصيحة الواحدة ـ بأمر الله ـ ترديهم صرعى، وتُنزل بهم الموت الزؤام!. ولم يفصِّل القرآن خبرَ هلاك أهل أنطاكية تحقيراً لشأنهم، وتصغيراً لقدرهم، ولكن كان مصيرهم مثل مصير أمم غابرة عديدة، وأقوامٍ كثيرين ممن سبقوهم من الأولين، كانوا مثلهم ما يأتيهم من نبيّ إلا كانوا به يستهزئون، فأهلكهم الله تعالى، وأهلك أشدَّ منهم بطشاً وطغياناً. ومضى هلاكهم مثلاً في الزمان على كل من يكذِّب رسل الله، ويتصدّى لدعوات الحق التي يحملونها للعباد، مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ۝وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ۝فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾(١).

وهنا نجد أنَّ النصوص الكريمة توحي، أيضاً، بأنه ما من عصر أو زمانٍ إلّا وبعث الله نبيّاً أو رسولاً يدعو بني قومه إلى اعتناق عقيدة التوحيد، والاحتكام إلى شرع الله تعالى. . ولكنَّ الأقوام كانوا يكذّبون بآيات الله، إمَّا بسبب الجهل الذي يسيطر على عقولهم وأفئدتهم، وإمَّا بسبب الاستكبار والعناد في قبول الحق من ربّهم تعالى، فكان حكم

(١) سورة الزخرف، الآيات: ٦ ـ ٨.

الله العزيز على تلك الأقوام من السابقين المكذّبين بقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾[1]، وكُلاً من أولئك الأقوام ضربنا له الأمثالَ لإقامة الحجة عليهم، ولم نهلكهم إلّا بعد الإنذار، وكان إهلاكنا إهلاكاً شاملاً لكل قومٍ إلّا الذين آمنوا واتبعوا المرسلين. . فكان بيان مصائر الأولين المكذبين ـ في هذه النصوص، وغيرها ـ عبرةً للناس عامةً، وموعظةً لأهل مكة، ومن تبعهم من عرب الجاهلية، لئلاّ يكذبوا النبيَّ المبعوث فيهم، وألّا يستهزئوا به، وإلّا حاق بهم ما حاق بالأقوام من قبل، وقد كانوا أشدَّ منهم قوةً وبأساً، وأكثر مالاً ومنعةً. .

ويمكن أن نستشفَّ من هذه الآيات المبينة، وما فيها من المثل، سنةً كونيةً تـرد القوى جميعـاً لله العلي القدير، فـلا يغتَرنَّ بعدها أهل الأرض بقـوةٍ أو بأسٍ، ولا يعتدُنَّ بسلطانٍ أو حصانة، وألّا يقولوا هذه دولة عظمى، وهـذه دولـة نـووية! . . إذ كم من فئة قليلةٍ غلبت فئة كثيرة بإذن الله، فالعاقبة الحسنة ـ في الحقيقة ـ ليست للقوة، ولاسيما إذا كانت هـذه القـوة ظالمةً وغاشـمة، بل بما تلتزم بـه هـذه الـدولـة أو تلك من قواعد العدل والإنصاف، ومن مقومات الحق والفضيلة، وبما يتحلى به هذا المرء أو غيره من إيمان صادق، وسلوك حسن وعملٍ صالح. . وما عدا ذلك، سواء على مستوى الأفراد، أو الجماعات أو الدول، فهو هراء، واستخفاف من العباد بما ينتظرهم يوم الحساب. .

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٣٩.

٨ ـ للذين ظلموا ذَنوبٌ مثل ذَنوب أصحابهم.

يقول الله وتعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾[1].

من الثابت في تاريخ الدعوة الإسلامية، ولاسيما في مراحلها الأولى، أنَّ قوى المشركين من أهل مكة، ومن تبعهم من الأحزاب من قبائل الأعراب، واليهود من أهل الكتاب، قد تضافرت في إعلان حرب همجية على النبي ﷺ وأصحابه، استخدموا فيها كل أفانين السياسة، والدعاية، ووسائل القتال، في محاولات يائسة للقضاء على الدعوة التي جاء بها محمد ﷺ من ربّ العالمين، لأنَّ هدفهم كان البقاء على الشرك، وأنماط العيش، ولاسيما تلك العادات الجاهلية السيئة التي كانت، في كثير منها، تحط من كرامة الإنسان، وكأنه لم يخلق إلَّا عبداً للأهواء والشهوات.. وهذا ما يجعل وصف «الظالمين» ينطبق على أولئك جميعاً، لأنهم كانوا من أهل الكفر والشرك.. فاليهود كفروا بدين «محمد» ﷺ، مع أنهم من أهل الكتاب، وأعلنوا للمشركين صراحةً أنَّ عبادتهم للأصنام أفضل من الدين الذي يدعو إليه «محمد» ﷺ!.. والمشركون من جانبهم، كانوا يتعبدون للأصنام والأوثان، فالتقوا جميعاً ـ اليهود والمشركون ـ على الكفر والشرك، وهو العامل الأساسي الذي دفعهم إلى التحزُّب ضد النبي ﷺ، ودعوته لاعتناق عقيدة التوحيد.. ووفقاً لأحكام القرآن المجيد ليس أكثر ظلماً في الحياة من أهل الكفر والشرك، فما من شيء محرّم في عرف هؤلاء، إذا رأوا فيه ما يخدم مصالحهم، وأغراضهم الدنيوية..

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٩.

لذلك كانت أعمالهم كلُّها، في شرع الله، ظلماً بظلم، وما يؤدي إليه الظلم - عادة - من الجرائم والمفاسد، التي هي محل للذنوب التي تتراكم في أعناق الظالمين.. وهذا ما يبيّنه النص القرآني عندما يقول الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾، أي فإن لهؤلاء الظالمين من مشركي قريش والأحزاب معهم، ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم في الكفر والشرك من الأمم قبلهم، وقد أهلكهم الله تعالى بذنوبهم، فلا يستعجل الذين يتصدون لدعوة النبي محمد ﷺ هذا الهلاك، لو كانوا يعلمون عواقبه الوخيمة، فهم سوف ينالون - إن لم يكن في هذه العاجلة - نصيبهم من العذاب غير منقوص في الآخرة، وإنْ بدا أنهم مستأخرون بأمر الله لآجالهم.. فالأجل آتٍ، ولا ريب، ويوم القيامة لن يُتركوا سدىً، وسيجزي الله تعالى الظالمين، يومئذٍ، بظلمهم، وبمقدار ما ارتكب كل ظالم من جرائم، وفسادٍ في الأرض. والتعبير القرآني ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ يوحي بأنَّ الظالمين هم صحبةٌ، كأنهم يُرون متلازمين مع بعضهم لارتكاب جرائم الظلم، إلى أي زمان انتموا.. وهذا فضلاً عن صحبة بعضهم بعضاً في نفس المصير الذي سيؤولون إليه في الآخرة.. فقد عبرت عصور وعصور بين الزمان الذي عاش فيه طغاة قريش والأحزاب معهم في شبه جزيرة العرب، والأزمنة التي عاش فيها الظالمون من قبلهم، ومع ذلك فإنَّ القرآن المبين يسميهم ﴿أَصْحَابِهِمْ﴾ لأنهم جميعاً من نفس الطينة الظالمة الطاغية!..

٩ ـ عدم اعتبار المكذبين بالمَثُلات التي خلت من قبلهم

يقول الله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن

قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾[1].

تبدأ سورة الرعد بالتأكيد على أَنَّ الآيات في هذه السورة، وأنَّ القرآن جميعَهُ، قد أُنزل على النبيّ ﷺ وهو الحق من ربّه تبارك وتعالى، ولكنَّ أكثر الناس لا يؤمنون بأنه من عند الله تعالى، الذي خلق السماوات بغير عمد يرونها؛ وأنه سبحانه استوى على العرش، وسخَّر الشمس والقمر، كل يجري في فلكه وفق تقدير العزيز الحكيم لما فيه صالح العباد؛ وأنه تعالى هو الذي بسط الأرض وأرسى فيها الجبال، وأجرى الأنهار، وجعل من كل الثمرات فيها زوجين اثنين لتمدَّ الناس بالخيرات والأرزاق الوفيرة التي تمكِّن لهم من العيش والبقاء أحياء؛ وأنه هو الذي خلق الليل والنهار، يتعاقبان بأمره ليسكن الناس ويخلدوا إلى الراحة في الليل، ويكدّوا في النهار وراء معايشهم وغاياتهم؛ وأنه هو الذي جعل في الأرض بقاعاً طيبة، فتنبت الزروع والثمار الطيبة، وبقاعاً تلاصقها وتجاورها، قليلة الريع فلا تنبت زرعاً، ولا تعطي خيراً. . .

وإنَّ في ذلك الخَلْق الكبير لآياتٍ وبراهينَ لقوم يعقلون، فيدركون عظمة الخالق، وأنه على كل شيء قدير. فإن لم يعقلوا فذلك غريب ومستهجن. وأعجب منه إنكارهم قدرة الله تعالى على البعث وإعادة إحيائهم من جديد، كما يتبيّن ذلك، في الخطاب للنبيّ من ربّه الحكيم، بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا

(١) سورة الرعد، الآية: ٦.

﴿لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1]، إذْ على الرغم مما في السماوات والأرض من الآيات التي تدل بنفسها على قدرة الله العليّ الكبير، في الخلق والتدبير، فإنه من العجب أنْ ينكروا البعث، وألّا يصدقوا بأن الله الذي خلق ذلك الخلق، قادر على إحيائهم من جديد، بعد أنْ يكونوا تراباً، وإعادتهم بشراً كما كانوا من قبل في الحياة الدنيا. والذين لا يؤمنون بأنهم سوف يبعثون في خلق جديد، أولئك الذين كفروا بربّهم، وأولئك الأغلال في أعناقهم، يجرُّون بها إلى النار، وهم فيها خالدون.

ويبدو أنَّ الكفار والمشركين كانوا يسخرون، ويهزأون مما يتوعدهم به الذكر الحكيم من ذلك العذاب، فكانوا يقولون للنبيّ ﷺ: إنْ كان ما تعدنا به يا «محمد» حقاً، فأنزل علينا كسفاً من السماء يكون فيها هلاكنا، وبعثنا في خلق جديد!..

أجل، بمثل هذا الهزء كانوا يستعجلون النبيّ ﷺ بالعذاب «ويستعجلونك بالسيئة».. من غير أن يعتبروا «بالمثلات»، أي بعقوبات أمثالهم من المكذبين الذين خلوا من قبلهم، والتي تنزَّل بها الوحي على النبي ﷺ، ليتلوها على مسامع الناس، مع ما تحمل من البراهين والأدلة، لعلَّها تكون عبراً وعظات تردهم عن غيِّهم وضلالهم. ولكنَّ المكذبين بآيات الله وقرآنه، لم ينفع معهم الوعيد، ولا الوعظ، بل لجّوا في عتوِّهم وظلمهم.. وعلى الرغم من ذلك فإن

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٥.

ربَّك ـ يا محَّمدُ ـ لذو مغفرة للناس على ظلمهم، ولولا رحمته بالناس لما ترك على ظهرها من دابةٍ، فهو سبحانه قابل التوب، غافر الذنب لمن أطاعوه، وهو سبحانه شديد العقاب لمن عصوه. . .

وروي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ ـ الآية ـ قال النبيُّ ﷺ: **«لَوْلاَ عَفْوُ اللَّهِ وتجاوُزُهُ لَمَا هَنَّأَ أحداً العيشَ، ولولا وعيدُهُ وعقابُهُ لاتَّكَلَ كلُّ واحدٍ على عَفْوِهِ ومَغْفِرَتِهِ»**[1] وقال ﷺ: **«لَوْ يَعْلَم الناسُ قَدْرَ رحمَةِ اللَّهِ وعفوِهِ وتجاوزِهِ عَنْ ظلمِهِمْ لأنفُسِهِمْ، لقرَّتْ أعينُهُمْ، وَلَوْ يَعْلَم النَّاسُ قَدْرَ عذابَ اللَّهِ وبأْسِهِ ونكالِهِ وَنَقْمَتِهِ، ما رَقَأَ لَهُمْ دَمْعٌ، وَلاَ قَرَّتْ لَهُمْ عَيْنٌ»**[2]. على أنَّ ما يلفت إليه القرآن الكريم هو أنَّ المكذبين لا يكتفون بأحابيل أكاذيبهم في الحياة الدنيا، بل ويخدعهم الضلالُ الذي لا يفارق نفوسهم، حتى بعد مماتهم، لأن يفتعلوا الكذب على ربّ العزة والجلال، فيحلفون له يوم البعث والحساب، كما كانوا يحلفون للناس في الدنيا، على أنهم مؤمنون، ويحسبون أنَّ حلفهم يومئذٍ قد ينفعهم في شيء، ولكنَّ السميع العليم يبيّن في قرآنه الكريم أنهم، ومهما حلفوا، هُمُ الكاذبون، وذلك بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾[3].

١٠ ـ نار جهنم ترمي المكذبين بشرر كالقصر

يقول الله تعالى: ﴿انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ * انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي

(١) سنن الترمذي، باب الديات، ص٥.
(٢) صحيح مسلم، رقم: ٢١٠٩.
(٣) سورة المجادلة، الآية: ١٨.

ثَلَٰثِ شُعَبٍ*لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ*إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ*كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ*وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾(١).

وهذا تبيان لما يقوله الملائكة المأمورون للمكذبين، يوم الحساب، ومؤدّاه: هيا انطلقوا إلى ما كنتم تكذبون به من عذاب النار، فاليوم تجدونها حقاً يقيناً، وترِدُونها عذاباً أليماً ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾(٢).

وبما أنَّ الانطلاق يعني، لغةً، العدو من مكان إلى آخر من غير مكث أو وقف، فيكون المعنى أنَّ الملائكة يدُعُّون الكفار إلى جهنّم دعّاً، ويزجرونهم زجراً للإسراع إلى مصيرهم المحتوم، في نار جهنم التي يتلظى سعيرها، فيتصاعد منها الدخان الكثيف حتى يصير ظلاً داكناً ذا ثلاث شعب، وذلك كناية عن الاتجاهات من أمامهم، وعن يمينهم وشمالهم، لأنهم خلّفوا الجهة التي كانوا فيها من ورائهم (وهي مكان الحساب) فلا يعودون إليها.. فهم كيفما التفتوا يرون ظلالاً داكنة، ولكنها ليست من الظلال التي ألفوها في الحياة الدنيا، والتي يلجأ الناس للتبرّد تحتها من وهج الشمس وشدة الحرّ، بل إنها ظلال من دخان متراكم بعضه فوق بعض، يتصاعد من نار جهنم، ولا يغني أو يردُّ عنهم شيئاً من اللهب المنبعث منها؛ وتلك النار التي تتلظى من الغيظ، غضباً على المسوقين إليها، ترميهم قبل وصولهم بشرر، كل شرارة كالقصر الكبير في بنائه وارتفاعه.. وفي وصف ذلك المشهد العظيم، لا تكتفي النصوص القرآنية بتبيان حجم الشرر الذي تقذف به

---

(١) سورة المرسلات، الآيات: ٢٩ ـ ٣٤.

(٢) سورة مريم، الآية: ٧١.

نارُ جهنم، بل تمثّل عليه بصورة حسيَّة أخرى إذ لا يكون لونه أصفر وهاجاً مثل لون الشرر، عادة، بل يشبه، لاختلاطه بالدخان الأسود المتصاعد، لون الجمال السود التي كانت العرب تسميها «صفرا»، لشوب سواد جلودها بصفرة؛ وتلك النار في الآخرة، هي مستقر المكذبين بآيات القرآن، والمنكرين للبعث والحساب.. ولو أنَّ هؤلاء وضعوا في تصورهم، أقلَّ احتمال ممكن لوجود بعث، يعقبه عذاب في نار جهنَّم، لأدركوا ما ينتظرهم، وهم يشاهدون هذه الحرائق التي تشبُّ أحياناً في الأبنية، أو الغابات، أو المنشآت النفطية، كيف يتصاعد منها الدخان الكثيف الأسود، وكيف ترتفع منها ألسنة اللهب الحارق، وما تؤدي إليه من زهق في الأرواح، والقضاء على الكائنات... فلو تأملوا في ذلك لوجدوا في هذه النيران عبرةً وعظةً، ولمَّا ظلّوا في غيّهم يعمهون!! فالنصوص القرآنية ترسم لنا صورة حسيّة للمكذبين وهم يُؤمرون بالانطلاق سراعاً إلى مستقرهم في النار، إذ يكونون بحالة مزريةٍ من الذل والهوان، وبنفوس ضعيفةٍ من الهلع والخوف. ويزيدهم قهراً وعذاباً ما يُداهِمُ وجوهَهم من سحاب الدخان الأسود الحار، وما يتطاير من شرر قاتل ينبعث من اللهب المتأجج، الذي يُرمون به، قبل أنْ يُقذف بهم في ذلك الأتون المستعر. فكان حقاً أنْ يلاقوا العذاب الأليم، والبلاء العظيم. فويل يومئذٍ للمكذبين، وتلكم هي عاقبتهم في نار الجحيم..

١١ ـ ليس عاقبة الذين لا يؤمنون إلّا مثل عاقبة الذين مضوا من قبلهم.

يقول الله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ۞ فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ... قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ۞ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وهذا توجيه من الله سبحانه وتعالى للتفكّر في خلق السماوات والأرض. وهو يأتي في سياق تنبيه الرسول الكريم ﷺ بأن يقول، للذين يطلبون الحجج والبراهين على صدق دعوته، ما معناه: انظروا ماذا في السماوات والأرض من الدلائل والعبر: ففي السماوات النجوم والكواكب المسيّرات بأمر الله في كونٍ بديع الصنع، متكامل التناسق والانتظام، وفيها الأفلاك والمدارات التي حبكت بأدق خلق وأعظم تقدير.. وفي الأرض: تعاقب الليل والنهار، والبحار الواسعة والأنهار الجارية، وفيها الجبال الرواسي، والأرض المنبسطة التي أخرج نباتها وأشجارها، وأطلع ثمارها وأزهارها، بل والتي خلق فيها من أنواع الطيور والحيوانات والحشرات ما لا يقع تحت حصر.. فانظروا وأحسنوا النظر في هذا التنوع والتعدّد، ثم تدبروا ما يقدر عليه القادر المقتدر.

والنظر في السماوات والأرض يمدّ العقل والقلب بزادٍ من المشاعر والتأملات عند ذوي البصر والبصيرة، وبزادٍ من الاستجابات والتأثرات عند ذوي التفكّر والتدبّر.. أي أن النظر[2] يدعو إلى الإيمان بالخالق إلّهاً واحداً، وربّاً معبوداً، وإلى الاستيقان بأنه العليم الحكيم. ولكن وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون!.. فالحجج

---

(١) سورة يونس، الآيات: ١٠١ ـ ١٠٣.

(٢) النظر: هو طلب الشيء وإدراكه بالفكر، كما يطلب رؤيته بالعين المجردة. وهو الثبات لتوقع ما يكون من الحال. فتقول: انتظرني حتى أتبعك؛ أمّا لو قلت: توقعني، فلم تكن قد أمرته بالثبات.

والبراهين المقدمة، والآيات المبثوثة في الكون، جميعها لا تغني ولا تفيد عند قوم لا يؤمنون بخالق السماوات والأرض ـ أصلاً ـ ولا يملكون استعداداً للهداية والإِيمان ـ تبعاً ـ ومهما تبدّى لهم من الأدلة والبراهين المؤكدة، ، ومهما ظهر لهم من الآيات في المخلوقات الحية والجامدة، فإن شيئاً من ذلك لا يؤثر في عقولهم الجافة، وقلوبهم المغلقة، ونفوسهم الجاحدة. . إنهم ينظرون إلى الآيات في الخلق بأم العين، ولكن من غير استدلال أو استنتاج، وكأنَّ ما يعنيهم فقط هو الإِعراض عن التبصّر والتفكّر بحقائق ودلالات هذا الخلق من حولهم، ومن فوقهم، فماذا ينتظرون، في النهاية، من هذا الإِعراض؟ بل وماذا يأملون في الآخرة، وهم يعرفون أنهم ميّتون، وقد أنذروا من قبل الرسل، فلم يرعووا للإنذار ولم يؤمنوا؟ ليس أمامهم إلّا العواقب الوخيمة التي تحل عليهم في أيامٍ مثل أيام الذين خلوا من قبلهم. هذا في الحياة الدنيا، أما في الآخرةً وحيث يلقون ربّهم بوجوهٍ مكفهرّة، وذنوبٍ مستقرّة، وآثامٍ مدانة فيوم الحساب عسير، وبعده أيام العذاب الطويل الأليم. . هذا ما ينتظرهم، ولعلَّه الشيء الوحيد الذي يستحقون! . . وذلك ما كان رسول الله ﷺ ينذر به، ويحذّر منه، وهو ذاتُهُ ما تبقى آيات القرآن ـ وعلى مدى الزمان ـ تنذر به، وتحذر منه. . فإن لم يستجبِ الذين لا يؤمنون فما على الرسول ﷺ إلّا أنْ يدعوهم للإنتظار بما سيكون من أمر الله تعالى، كما يأمره ربُّه بقوله المبين، أن يقول لهم: ﴿قُلْ فَانتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾. . فانتظروا أيها الكفار والمشركون، إني معكم من المنتظرين حكم ربّي، وقد جعلني شهيداً عليكم، وعلى أمتي، وجعل المؤمنين الصادقين من أمتي شهداء على الناس، وهذا وعد الله الحق، مصداقاً لقوله المبين:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾(١)، ومصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾(٢)، وخطابه للمؤمنين بقوله الحق: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾(٣)..

وهكذا يتبين من النصوص القرآنية المجيدة ما ينتظر القوم الذين لا يؤمنون، من أمر الله تعالى!.. ما ينتظرون ﴿إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾. أي مثل وقائع وأحداث أيام العذاب التي كانت تحل بهم.. وبخلاف هؤلاء فإنَّ التعقيب الذي جاءت به هذه الآيات يبيّن أنَّ رسل الله والذين آمنوا من أتباعهم هم ناجون من ذلك العذاب مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي مثل ذلك الإنجاء للرسل والذين آمنوا معهم، كان حقاً علينا أنْ ننجي المؤمنين، النبيَّ محمد ﷺ والذين آمنوا معه، ومختلف المؤمنين الذين أخلصوا لله بالطاعات، وعملوا الصالحات، فكانوا من المهتدين.. وقد جعل ربُّ العزّة والجلال هذا الإنجاء حقاً عليه سبحانه، لأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، إذْ كما يدافع الله تعالى عن الذين آمنوا في الحياة الدنيا، كذلك يتغمدهم سبحانه برحمته يوم الحساب، ليكونوا من الفائزين.

---

(١) سورة المزمّل، الآية: ١٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.
(٣) سورة الحج، الآية: ٧٨.

الفصل الثالث

معالجة الأمثال القرآنية لأهم القضايا المؤثرة في حياة الناس

الفصل الثالث

معالجة الأمثال القرآنية لأهم القضايا المؤثرة في حياة الناس

من الحقائق الثابتة في حياة الناس، كثرة وتنوع القضايا والمسائل التي تحيط بهم، سواء على المستوى الفردي، أو المجتمعي أو الدولي؛ وغالباً ما تكون تلك القضايا والمسائل مبنيّة على المعتقدات الدينية والفكرية المتأصّلة في نفوسهم، وتنعكس بالتوجهات والتطلعات التي يعملون لها، والتي تؤثر بدورها على المناهج والأنظمة التي ينشؤنها، وعلى العلاقات والمواثيق التي يقيمونها فيما بينهم..

وكما تناولت الأمثال في القرآن الكريم كلَّ ما يحيط بحياة الناس، فقد سبرت إلى أغوار الأنفس لتبيّن ما يدور في الصدور، وما ينعكس على سلوك وتصرفات الأفراد، والجماعات، وما يتحكّم بحياتهم، وذلك من خلال الصياغة، والأسلوب، والحكمة والموعظة التي جاءت بها، والتي من شأنها أنْ تضع الإنسان أمام الخيار بين القبول أو الرفض لقضية ما، أو اتخاذ الموقف المؤيد أو الرافض لمسألة دون أخرى.. كما أنَّ في الأمثال القرآنية ما يمدُّ الإنسان

بالمقومات السليمة التي تتوافق وصدقَ إيمانه بربّه الذي خلقه، والسير على هداه، وبما ينسجم ونزعته الإنسانية تجاه المثلِ والقيم والمفاهيم والتصوّرات الصائبة والسامية.. وذلك من غير أنْ تُغفِلَ هذه الأمثال الربّانيةُ تبيانَ ما قد يترتب على الخطأ في الاعتقاد، والاختيار في العمل أو الموقف، أو على المكابرة في التصدّي للحقيقة، من هناتٍ ومساويء وشرور، غالباً ما يجدها الإنسانُ ماثلةً في ضميره وبصيرته، أو سوف يجدها ـ ولا ريب ـ حاضرة بانتظاره يوم الحساب العادل، وملاقاة المصير الذي لا مناص منه، والذي يكون الإنسان قد صنعه بيَديْه، ههنا، في حياته الدنيا؛ وهذا ما يوجب النذير بالقول: فليحذر الذين ألهاهُمُ التكاثرُ حتى زاروا المقابر.. فليحذر الذين ألهاهم الحكم والسلطان بكثرة أفانينهما حتى أطاحوا بآخرتهم.. وليحذر الذين ألهاهم التكاثر في الأموال والبنين، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون، ولا جاه ولا سلطان إلّا من أتى الله بقلبٍ سليم!.. من هنا نضع بين أيدي الناس الأمثال القرآنية التي تعالج أهم قضاياهم ـ وفقاً لما ألهمنا الله تعالى لمعانيها ومقاصدها ـ علَّها تهديهم إلى سبل الرشاد والصلاح بإذنه تبارك وتعالى..

والأمثالُ القرآنية التي وفقنا الله عزَّ وعلا للاهتداء بها حول ما يمكن اعتباره أهم القضايا في حياة الناس، يمكن أنْ نجد بعضها مكرراً في أكثر من آية، وقد جاء هذا التكرار في كتاب الله عن قصدٍ وحكمةٍ، حتى يعطي مدلوله بصورة أوضح وأعمق، وفقاً للسياق الذي يرد فيه المثل القرآني فيكون عملنا مقصوراً على تبيان بعضٍ من معانيه ومراميه، والحكمة منه وبقدر ما يوفقنا مولانا لذلك ـ فعسى أنْ يلهمنا ربُنا الكريم إلى ما فيه الحقُّ والصوابُ خدمةً لعباده، علَّنا ننال فضلاً

من رضاه ورحمته، ألا إنَّه هو الجواد الكريم، وذو الفضل العظيم، ألا إنه هو الرحمٰن الرحيم.

الفقرة الأولى ـ الحق والباطل

١ ـ الباطلُ مثلُ الزبد الذي يذهب جُفاءً

يقول اللّهُ تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّاۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ۞ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾(١).

إنها معركة ضارية ولن تتوقف أبداً ما دام «الإنسان» حيّاً على هذه الأرض، وما دام الصراع قائماً بين الحق والباطل، وهو لن يتوقف إلى يوم القيامة!.. وقد وجدت هذه المعركة منذ بدء الخليقة، يوم أمرَ الله تعالى الملائكةَ أنْ يسجدوا لآدم، فسجدوا كلهم، أجمعون، إلّا إبليس(٢) ـ الذي كان بينهم ـ فقد أبى، واستكبر، وكان

---

(١) سورة الرعد، الآيتان: ١٦ و١٧.

(٢) إبليس ليس من الملائكة، بل هو من الجن كما يبيّن جنسَه القرآنُ في الآية ٥٠ من سورة الكهف: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾.
أما لماذا كان وجوده بين الملائكة، وهو من الجن، فهذا من علم الله تعالى. وليس علينا معرفة ذلك، إذ كان وجودنا الأرضي يقتضي منا أنْ نعلم بأنّ إبليس هو عدونا، وهو يوسوس لنا لإيقاعنا في المعاصي والذنوب، فكان الأولى أنْ نعمل بطاعة الله ورسوله حتى يمكن لنا غلبة الشيطان وقبيله من الإنس والجن، الذين يجهدون في غوايتنا، وغواية البشر جميعاً.

من الكافرين، لظنّه بأنَّ خلقه من نار، يجعله أفضل من آدم الذي خلقه الله من طين. . ومنذ ذلك الزمان والصراع بين الحق والباطل، وبين الخير والشر على أشدّهما؛ وقد بدأه إبليس (الشيطان) عاجلاً، عندما زيَّن لآدم وزوجه (حوّاء) الخلود، فأكلا من الشجرة التي نهاهما ربُهما عن الاقتراب منها، فغوى آدم، وبذلك أخرجه إبليسُ من حياة الرغد والطمأنينة، ليعيش وذريتُهُ تجاربَ الابتلاء والاختبار في هذه الحياة الدنيا، بل وكان قابيلُ ابنُ آدم أولَ ضحية بعد أبيه لمكر إبليس وخداعه، إذْ وسوس له أنْ يقتلَ أخاه هابيل، فقتله!. . فكانت تلك الجريمة بمثابة نقطة الانطلاق التي اندفع منها الشيطان؛ فجمع إليه قبيله من الجان، ومن هؤلاء الأناس الذين تفلّتوا من أي وازعٍ دينيٍّ أو ضابطٍ أخلاقيٍّ، ليدسَّ في نفوس، كلِّ بني آدم ـ إنِ استطاع ـ أفاعيل الغواية التي ينفذون من خلالها إلى استغفال بعضهم بعضاً، وبذر الفتن فيما بينهم، وإفساد حياتهم بما يبعدهم عن طاعة ربّهم عزَّ وجلَّ. . وبالفعل فقد صدق إبليس وعده، فكان من بني آدم من هم أبالسةٌ أكثرَ من إبليس وذريته من الجن، حتى ولو ظهروا بصورة البشر؛ لأنهم، في الواقع، لا يتورعون عن انتهاك أقدس مقدساتِ الإنسان، ولا عن ارتكاب أفظع الجرائم بحق البشرية، ولعلَّ مثالها الصارخ الجرائم المتعلقة بحقوق الإنسان، وسلب مقومات العيش للشعوب المستضعفة، وإخضاعها لإرادة السالبين ومطامعهم، كما تشهد على ذلك سيرة الإنسان عبر تاريخها الطويل، المليء بالغزوات، والحروب، والقتل، والاضطهاد، والظلم. . وكل أنواع البلاء الذي يحيق بالناس منذ وجودهم على هذه الأرض!. .

وسوف تبقى أعمال أهل الباطل والشر تلقي بظلالها وآثارها

على حياة الناس في مشارق الأرض ومغاربها! . . وهم كلما بعدوا عن الإسلام - الدين الذي ارتضاه الله تعالى لعباده - أوغلوا في الكفر والشرك والضلال، وظهر، من جرّائه الفساد، والفسوق والعصيان والظلم. . دونما روادع أو زواجر في أنظمة وقوانين وضعية، ودونما احترام أو تقيد بالمواثيق والمعاهدات الدولية إلّا من حيث الشكل، وفي بعض الأحيان فقط! . . ولن يسلم أو يفلت من الوقوع في حبائل الشيطان، وقبيله من الإنس والجن، إلّا من رحم الله تعالى. . ولكنْ ويلٌ للناس، وهم غافلون عن يوم البعث والحساب، فالحكم، يومئذٍ، لله الواحد القهار، ربّ السماوات والأرض، وهو القاهر فوق عباده، يثيب ويجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالفوز بالجنة، ويجازي الذين كفروا وأفسدوا في الأرض بالعقاب في النار؛ فالله هو السميع العليم، يسمع الأقوال، حتى الهمس، ويعلم الأعمال الظاهرة والخفيّة، بل ويعلم النوايا وما في دخائل النفوس، فيحاسب على الأقوال والأعمال والنوايا، وكل ما يصدر عن الإنسان في السرّ والعلن. .

ومن الآن وحتى تقوم الساعة، وإلى أنْ يقف الناس بين يدي ربّ العالمين، فإن المفسدين في الأرض سوف يبقون سادرين في غيهم، ويأتون بالأعمال الضارة لأنفسهم ولغيرهم. وهم بذلك إنما ينصرون الأبالسة والشياطين عليهم، هم أنفسهم، أولاً، ومن ثَمَّ على أهل الحق والإيمان! . . ولكنْ مسكين هذا الذي يقبع في حجرة مغلقة وهو يخطط للقتل، أو السلب، أو الاحتكار أو الاستغلال! . . ومسكين هذا الذي يتوهم أنه قادر ومقتدر، وصاحب مكانةٍ تخوله السلطة والصلاحية، ثم يتخذ قراراته بما يخدم نوازعه وأهواءه

الدنيوية!.. ومسكين هذا الذي ينصر الباطلَ ضد الحق!.. ومساكينُ.. جميع أولئك الذين نسوا ـ أو كذَّبوا ـ أنَّ الموت حق، وأنَّ القيامة حق، وأن الحساب آتٍ لا ريب فيه!...

وإنَّ الأعمال التي يظنونها مقْدِرةً، ومهارةً، وفناً من عند أنفسهم، هي التي سوف تجعلهم وقوداً للنار يوم الدين.. فقد تاهوا عن هذه الحقيقة، فأتوا ـ ويأتون ـ بالسيئات التي تتكثَّف بها سحب الباطل وظلاله، والتي تحجب أنوار الحق وأضواءه.. ولقد بعدوا عن ربّهم وخالقهم، فجعلوا نفحات الخير تنوء تحت لطمات الشر، وصالحُ العمل يتوارى من صولة الخبيث، وصوت العدالة يخفت من قرقعة الظلم.. حتى ليظن الناس، من سوء ما يحيق بهم، بأنَّ دولة الحق قد دالت إلى غير رجعة!.. هل هذا تشاؤم أم أنه واقع الحياة؟ العاقلون المنصفون يحكمون!..

ولكن رويدكم يا أصحاب تلك «الأعمال الموصوفة»!..

وليكن معلوماً لديكم أنه مهما استفحل الشر، ومهما بغى الطواغيت منكم، فلا بد أنْ يرى الناسُ نوراً ينبثق من خلال هذا الظلام الدامس، وسناءً يتألق من بين مادية هذا الضلال الجائر!..

رويدكم!. أجل رويدكم أيها الطواغيت، إذْ لا بدَّ أنْ يستجمع الحقُّ قواه، ويندفعَ المؤمنون الصادقون على دروب الانعتاق، وهم يحملون نور الله الهادي، فلا ترهبهم الأبالسة البشرية، ولو تمنطقت بكل أسباب القوة، وبقنابل الذرة و«الهيدروجين»، ولا تخيفهم أنظمة العولمة، ولو تسلّحت بكل أفانين «الكمبيوتر»، وبالمخططات الاقتصادية، والأنظمة السياسة وقوانين المال وغيرها مما تبتدعون، وتفرضونها على شعوبكم، بل وعلى شعوب العالم، تحت ستار

قواعد القانون الدولي! . . فالمؤمنون هم جنود الله، وهم أنصار الله، فهم ـ بحول الله ـ الغالبون في علم الله؛ بل ووعدهم الله جلت قدرته بالنصر على أعدائه، لأنَّ هدفهم واحد على الدوام، وهو إعلاء كلمة الله وجعلها هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى، فيقدمون على الشهادة والتضحية بغير حساب، وينشدون التغيير بغير مواربة. وإنهم وهم يقدمون على ما يقدمون عليه من الحقّ، لا يخافون في الله لومة لائم؛ فكان حقاً على الله ربِّ العزة والجلال أنْ ينصرهم لأنَّ من ينصُر الله ينصُرْهُ، ﴿وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾(١).

ومن إيماننا بالقرآن، وتصديقاً بوعد الله عزَّ وعلا فإنّا ـ والمؤمنون كافة ـ على يقين من أنَّ الحق ثابت وقائم، وأنَّ له ـ دائماً ـ أصحاباً وأنصاراً، بينما الباطل زاهق، زائل لا محالة، بقول ربّ العالمين: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾(٢). فمن سنن الله تعالى في خلقه أنْ يغلبَ الحقُ، في نهاية المطاف، وإنْ طال الزمن، لأنَّ للباطل جولةَ ساعةٍ، لكنّ جولةَ الحق تدومُ إلى قيام الساعة.

من هنا، فإنَّ الصور مهما تراءت قاتمة ومظلمة، أو بدت الأحداث عاصفة وقاهرة في مواجهة المؤمنين وأنصار الحق، فإنَّ الأمل يظل معقوداً على هذا «الإنسان» بأنْ يهتديَ ـ بالفطرة التي فطره الله تعالى عليها ـ إلى نُصرةِ الحق ومحاربة الباطل. والبداية تكون بالإيمان بما أنزل الله تعالى على عبده ورسوله محمد ﷺ من قرآن مبين يهدي للتي هي أقوم، ويبيّن للناس الحقائق التي تهديهم إلى

---

(١) سورة الروم، الآيتان: ٦ و٧.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨١.

الصراط المستقيم. . وبهذا الإيمان وحده يستطيع المؤمنون أنْ يتغلبوا على وسوسة الشيطان، وأنْ يتوافقوا مع نظرائهم في الإنسانية، ليكونوا كلهم أجمعون جنداً لله، ومن أنصار الله مخلصين له الدين ولو كره المشركون، ولو كره الكافرون.

وها هو القرآن الكريم يقدم لنا في الآيتين ١٦ و١٧ من سورة الرعد ـ اللتين نحن بصددهما ـ الأمثال التي تؤكد ثبات الحق وديمومته، وزوال الباطل وفناءه. ومن استشفاف معانيهما يتبين لنا أنَّ الله سبحانه وتعالى يأمر نبيه محمداً ﷺ بأنْ يسأل الكفار والمشركين: قل لهم: «مَنْ ربُّ السماوات والأرض»، ومن يدبّرهما، ويصرّف أحوالهما بما خلق من سنن وقوانين؟

وهذا السؤال ملقىً على عاتق كل مؤمن كي يسأله لأهل الباطل ويطلب منهم الجواب!. وطبعاً سوف يستعجم الجوابُ على أهل الباطل، اليوم، كما استعجم على الكافرين والمشركين عندما جابَهَهُمْ به رسول الله، لأنهم لم يستطيعوا ـ حتى الادعاء ـ بأن أصنامهم وأوثانهم التي كانوا يعبدونها هي التي خلقت السماوات والأرض. ولعلَّ أولئك المشركين كانوا أقلَّ سوءاً من الذين يظنون أو يعتقدون، اليوم، أو في أي زمانٍ آتٍ بأنَّ السماوات والأرض قد وجدت من العدم لمجرد مصادفة، أو بصورة تلقائية ذاتية، من غير أنْ يكون لها موجد قد أوجدها، إذْ مثل هذا الظنّ أو الاعتقاد محضُ تصوراتٍ مغلوطة، وأفكار خاطئة، تدل بنفسها على خطئها، وتحكم بذاتها على فسادها؛ خاصةً وأنَّ الذين ينكرون بأنَّ الله تعالى هو الذي خلق السماوات والأرض لم يقدموا أي برهان مقنع على إنكارهم، في حين أنَّ القرآن قد أثبت، وبكثير من الأدلة والبراهين القاطعة، والتي لم

تستطع، ولن تستطيع أنْ تدحضها مخلوقات السماوات والأرض وإن اجتمعت لذلك.. أجل لقد أثبت القرآنُ بأنَّ الله جلَّ وعلا هو ربّ السماوات والأرض، وهو خالقهما، ومدبرهما.. فإنْ لم يقرَّ المنكرون بهذه الحقيقة، علناً وجهراً، فقد استيقنتها، ولا ريب، نفوسهم!.. وسواء أكانوا يعلمون هذه الحقيقة ويكتمونها، أو كانوا يجهلونها، أو يضلون عنها لأنَّ عقولهم قد انحرفت عن الحق المبين، فلا بدَّ أن يواجهوا بها، وأنْ يُسألوا، بكل معاني التبكيت، والتقريع والتوبيخ: أفاتخذتم من دون الله أولياءَ تتعبدُّون لهم، وأنتم ترونَ أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً؟! بئس ما اتخذتم من أولياء، كما عبَّر عن ذلك أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام بقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[1].. أبداً لن يكون لكم يوم القيامة من وليٍّ ولا ناصر، بل التلاعن والنار مأواكم، وهي حسبكم!. ولو تبصَّرتم، أيها الكافرون والمشركون، حقَّ التبصرة، لوجدتم أنَّ العقل والقلب والسمع والبصر، كلُّ أولئك يحكمون بأنَّ الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً ليس لديهم أدنى مقومات الولي أو الناصر، في حين أنَّ من بيده ملكوت السماوات والأرض، هو من بيده النفع والضر، يعزُّ من يشاء بالغلبة والنصر، ويذل من يشاء بالقهر والهزيمة، فكان حقاً أنْ يكون هو الله جلّ وعلا، وكان حقاً أن يكون هو الولي والناصر، وكان حقاً أنْ يكون سبحانه مولى الذين آمنوا، وأنَّ الكافرين لا مولى لهم..

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٢٥.

ولكي يقرب القرآن الكريم هذه الحقيقة إلى الأذهان، فإنه يقدم البراهين الحسية بما يجد الناس من الفوارق ما بين الأعمى والبصير، وما بين الظلمات والنور، إذ كما لا يستوي الأعمى والبصير، كذلك لا تستوي الظلمات والنور؛ وقد كنّى التعبير القرآني عن الكافر بالأعمى، وعن المؤمن بالبصير.. فأما الكافر فإنه يعبد من دون الله، مجرد تصورات وهمية، أو تماثيل صنميّة، أو يتعبّد لأناسٍ أمثاله بالطاعة والخضوع؛ تبعاً لما قدَّمت للبشرية تلك المعتقدات الإلحادية، وجعلت الأهواء، والرغبات والشهوات تطغى على النفوس حتى يصير أصحابها عبيداً لها، كما تدلُّ عليه الآية الكريمة: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾، فانساق وراء هواه، على عمى البصيرة، حتى وقع في مهاوي البهتان!..

وأما المؤمن فإنه يعبد الله ربَّ العالمين، الذي يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعزُّ من يشاء، ويذلُّ من يشاء بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، ولذلك كانت عبادة المؤمن لربّه تعالى قائمة على نور البصيرة والهدى.

وزيادة في تنوير الأذهان، يضرب الله تعالى للناس الأمثال بالظلمات والنور، ويسألهم في قرآنه المبين هل تستوي الظلمات والنور؟ فهل هما من جنس واحد، ولهما نفس الخصائص، أم أنهما ضدان بطبيعتهما في نظام الكون الشامل؟ فإذا كانت الظلمات والنور لا تستويان، فلا يمكن أن تستوي، إذاً، عبادة الله التي يسير فيها المؤمن على نور وهداية من ربّه، مع عبادة أولياء، هم، في الحقيقة، عباد لله تعالى، إلّا أنهم يزيّنون لمن يتخذونهم أولياءَ من دون الله الكفرَ والضلال، وعبادة الأهواء والمطامع، وكلها من ظلمات الأنفس..

ثم تضيف النصوص القرآنية البرهان العقليّ والحسّيّ الذي لا يمكن دحضه بأية حجة أو بأي علم أو ظن، وذلك عندما يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾.. نعم هل من خالق غير الله؟ وهل الذين يشركونهم بعبادة الله قد خلقوا شيئاً مثل خلقه؟ وفي الواقع هل يقدر أحد على أنْ يخلق ثمرةً أو حجراً، أو أن يصنع ذباباً أو عنكبوتاً؟!.. وهل كل ما فعله الإنسان ـ وعلى الرغم مما توصل إليه من العلوم ـ إلّا مجرد اكتشافات لأشياء قد خلق الله أصلها، وأنظمتها وقوانين وجودها، لأنه هو الخالق؟ وهل يمكن التفكير أو القول بأن بعض الأشياء هي من خلق الله، وبأنَّ غيرها من خلق شركاء لله في خلقه، فتشابهت المخلوقات على المشركين فلا يعرفون خالقها؟

لم يعلم الناس أنَّ أحداً قد ادَّعى بأنه خالقٌ من دون الله. فهذا النفي المطلق هو من الحقائق الدامغة على أنَّ الله تعالى هو الخالق.. بل، أقرب من ذلك، فإن أحداً من الكائنات في السماوات والأرض لا يقدر على الادعاء بأنه قادر على أنْ يجعل الشمس تشرق من المغرب، أو تغيب في الشرق، أو أنْ يحيل النور ظلاماً، أو الظلام نوراً، أو أن يبدل الليل نهاراً، والنهار ليلاً! أي أنْ يغيّر ـ إجمالاً ـ بواحدةٍ من السنن الإلهية، التي يقوم عليها الكون كله! فإن كان الإنسان عاجزاً عن تغيير أو تحويل أية سنةٍ من السنن التي خلقها الله تعالى، فهل يقدر على الخلق؟!

فيا أيها الإنسان!

إنك، وإنْ حاولت أنْ تتنصَّل من الحقائق الدامغة، والبراهين

الساطعة، وتبتدع لنفسك أفكاراً أو عقائد أو نظريات تبعدك عن الإقرار بأنَّ الله هو الخالق، فلن تجد ما ينفعك في هذا السبيل!.

وإنك مهما فكرت، وقدَّرت، ومهما اخترعت واكتشفت، ومهما فعلت وصنعت!.. فإنَّ ذلك كله هو ممَّا شاءَ لك الله أنْ تؤتيه، وهو لا يعدو في أصله من خلق الله تبارك وتعالى. بل ولعلَّ في هذه الأشياء التي تتوصل إليها أو تحققها، أيها الإنسان، ما يوفِّر لك حافزاً للإيمان بحقيقة وجود الله تعالى، كما فعل كثير من أهل العلم، والفلسفة الذين قادتهم بحوثهم وتجاربهم، وطرق الاستدلال التي اعتمدوها إلى الإيمان اليقيني بالله تعالى.. ولذلك فإن من الشواهد في الحياة عن الحالات التي تدل على تدهور الصحة النفسية، أو الإصابة بالأمراض العصابية، أنَّ الناس يظلون في حالة فراغ روحي، وعدم استقرار داخلي ـ مهما أنشأت عقولهم، ومهما اعتقدت قلوبهم ـ إنْ لم يقروا إقراراً قاطعاً بأنه لا إلّه إلا الله، وبأنه لا وليّ للعباد غير الله، وبأنه وحده الخالق لكل خلق، والقاهر لكل من يدعي اقتداراً وامتلاكاً. فهو سبحانه قد خلق كل شيء، وجعل مجرى حياة الأشياء أو إيجادها خاضعاً لتقديره وقضائه. فكان جديراً بنا، ونحن من خلق الله، أنْ نعبده، ولا نشرك بعبادته أحداً. وكان خليقاً بنا أنْ ندرك معانيَ الأمثال التي يضربها لنا، في كتابه المبين، حول زيف عبادة الكافرين والملحدين، وبطلان ما يتخذون من أولياء من دون الله، وفساد ما يجعلون له من شركاء، في أي أمر أو شأن!..

ولكي يزيد هذا القرآنُ المجيدُ الإِنسانَ تبياناً فإنه يقدم له برهانَيْنِ آخرين للتمييز ما بين الحق والباطل، وهما المثل عن الماء الجاري وما

يعلوه من الزبد التافه، والمثل عن المعادن وما يعلوها أثناء ذوبانها، من زبدٍ لا نفع منه، فيقول الله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ﴾(١).

فالماء الذي ينزله الله تعالى من السماء مطراً غزيراً، فيتدفق في الأودية سيولاً جارفة، يحمل كل ما يكون في طريقه من التراب، والغثاء، والقش، والورق والحطب وغيرها.. وهذه السيول تحدث دائماً رغوةً، سرعان ما تتلاشى، وتنطفيء على شكل فقاقيع في الهواء لا خير فيها، مثلما هي الفضلات التي تجرفها معها ولا جدوى منها. ووحده الماء الذي يبقى متدفقاً في الأودية والفجوات هو الذي ينفع، حيث يذهب إلى الأنهار فيغذيها، وإلى الأرض فيرويها، فيحلُّ الخصب والنماء، ويكثر الخير والجنى.. ومثلُ زبد مياه الأودية الذي يختفي بلا نفع، كذلك زبدُ المعادنِ من الذهب أو الفضة التي يجري تذويبها فوق النار، لتصاغ منها الحليّ وأدوات الزينة، أو تلك التي تصنع منها أوانٍ وأدوات وآلات من الحديد والرصاص والنحاس وخلافها، فالمواد الخبيثة والأقذار، التي تعلو سائل هذه المعادن وقت ذوبانها، يجري طرحها والتخلص منها، بينما يبقى المعدن وحده، ومنه يكون الحلية والمتاع، وكل المعادن الصافية التي جرى استخراجها..

كذلك الحق والباطل في هذه الحياة. فالباطل قد يظهر، ويعلو ويبدو رابياً، ولكنه مثل الزبد لا بد وأنَّ يذهب جفاءً مطروحاً. في

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٧.

حين أنَّ الحق قد يبدو هادئاً وساكناً، وأنَّ أثره محدود، ولكنه هو الذي يبقى في النهاية، كما يبقى الماء الذي يحيي الأرض بعد موتها، أو المعدن الصافي الذي يصنع الناس منه حلية أو متاعاً.

قال قتادة: «هذه ثلاثة أمثال ضربها الله سبحانه وتعالى في مثل واحد: شبَّهَ نزول القرآن بالماء الذي ينزل من السماء، وشبه القلوب بالأودية والأنهار، فمن استقصى في تدبّر القرآن، وتفكَّر في معانيه، أخذ حظاً عظيماً منه كالنهر الكبير الذي يأخذ الماء الكثير، ومن رضي بظاهر معانيه أدّاه إلى التصديق بالحق على الجملة، وكان أقلَّ حظاً منه كالنهر الصغير. فهذا مثل.. ثم شبَّهَ الخطرات ووساوس الشيطان بالزبد الذي يعلو فوق الماء وذلك من خبث التربة لا من عين الماء، كذلك ما يقع في النفس من الشكوك فإنه يكون من ذاتها لا من ذات الحق. فكما يذهب الزبد باطلاً ويبقى صفو الماء، كذلك تذهب مخايل الشك هباءً باطلاً ويبقى الحق. فهذا مثل ثانٍ.. ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ﴾ إلى آخره.. فالكفر مثل الخبث الذي يطفو على المعدن وهو لا يُنتفع به، والإِيمان مثل المعدن الصافي الذي يُنتفع به. فهذا مثل ثالث».. كذلك يضربُ اللَّهُ تعالى الأمثال ويبيّنها للناس، فيلقيها على أسماعهم، ويعرضها لأبصارهم فتهتدي بها القلوب المؤمنة النيّرة، البعيدة عن ظلام الكفر.. فعندما يضربُ سبحانه المثل بالماء الذي أنزله من السماء لإِحياء الأرض، فتسيل به الأودية، إنما يريدُ بذلك القلوب التي تمتلىء بالحق والإِيمان. وكما يسَعُ الوادي الكبيرُ الماءَ الكثير، كذلك القلب المؤمن يسع العلم الوافر والهدى المنير.. وكما الوادي الصغير، فإن القلب الصغير لا يسع إلّا بحسبه.. فيكون معنى قوله سبحانه ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ أي أنَّ قلوباً

احتملت من العلم والهدى بقدر ما تستطيع حمله.. ولذلك فإنه كما يجرفُ الماءُ الذي أنزله الله من السماء ما يصادف في جريانه من الأوحال الآسنة وما يعلوها، ليبددها، فكذلك الهدى والعلم، عندما تمتليء بهما قلوب المؤمنين، فإنهما يقتلعان من النفوس كلَّ ما يخالطها من آثار الشبهات والشهوات ويطرحانها خارجاً، ليستقر في تلك القلوب الطاهرة، نور الإيمان وحده..

ولكنَّ التغيير في الأنفس، الذي يستتبعه الانتقال من ظلام الكفر إلى نور الإيمان، لا بد أنْ ترافقه عملية استئصال حتى يأتي العلاج شافياً. فكما أن الجرّاح قد يضطر إلى استئصال المرض بعملية جراحية، مع ما يرافق ذلك من الألم والمعاناة، فكذلك الهدى عندما ينفذ إلى القلب، لا بدَّ وأنْ يثير لدى الإِنسان الضيقَ والحرجَ في البداية ثم يقوى شيئاً فشيئاً، حتى يتغلب نورُ الله على الشبهات، ويطرحها خارج القلب.

وعندما يطمئن القلب بالإِيمان، وينتعش باليقين، فإنَّ الآثار تنتقل إلى سائر أعضاء البدن فتنشط للعبادة، وتسرع إلى الطاعة. وفي ذلك يقول الشاعر المؤمن:

وإذا حلَّتِ الهِدَايةُ قَلْباً   نَشَطَتْ للعِبَادةِ الأَعْضاءُ

إذاً فالمقصود بمثل السيل الجارف الذي يذهب زبدُهُ بلا طائل، وبمثل المعدن المذاب الذي يطفو زبدُهُ ويُرمى، الشبهات والشهوات التي يلفظها القلب المؤمن خارج الصدر، ليثبت فيه ـ بدلاً عنها ـ الإِيمان الخالص. وهذا الإِيمان ينفعُ صاحبه، وينفع غيره من المؤمنين. وعندما يكثر أهل الإِيمان، يقل عدد أهل الكفر، وكلما

اتسعت مساحة الحق، ضاقت رقعة الباطل، إلى أن يزهق اللَّهُ تعالى الباطلَ وأهله، وينصر الحقَّ وأهله..

والله تعالى عندما يضرب للناس الأمثال، إنما يريد بهم الخير، والرأفة، والرحمة لما تحمل لهم من دليل وعظة على ما قدَّر الله لعباده من مصائر؛ وما جَعَلَ للدعوات والاعتقادات، والنوايا، والأعمال والأقوال من أقدار..

٢ ـ مثل كلمة الحق الطيبة كالشجرة الطيبة، ومثل كلمة الباطل الخبيثة كالشجرة الخبيثة.

يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ * يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾(١).

الكلمة الطيبة هي كلمة الحق..

والكلمة الخبيثة هي كلمة الباطل..

ذلك أنَّ الله تعالى هو الحق، وقد خلق السماوات والأرض بالحق وأجلٍ مسمّى، فكان الوجود كله قائماً على كلمة الحق، وعمادها: «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن».. فكان كلُّ شيء في هذا الوجود مرتبطاً بالحق، وقائماً على صلته بالحق، وتناسقه مع

(١) سورة إبراهيم، الآيات: ٢٤ ـ ٢٧.

الحق، وهذا على مستوى الكون كله. . أما بالنسبة لنا نحن البشر، ونحن جزء من هذا الكون، فليس شيء أكثر تأثيراً في النفس البشرية من كلمة الحق، بها يشرح الله الصدور، ويطمئن القلوب، فتصير قادرة على التصدي للباطل، ومواجهة الضلال، حتى يستقيم الحق في مسيرته التي تنشيء الخير، وتنشر الفضيلة، وتشيع الصلاح في دنيا الناس، بل وفي الحياة كلها.

ومن هنا كان المثل، في القرآن الكريم، على الكلمة الطيبة ـ كلمة الحق ـ بالشجرة الطيبة، ذات الجذور الثابتة، في عمق التربة فلا تقوى الأعاصيرُ على اقتلاعها. وذات الفروع والأغصان المتشابكة، المتماسكة فلا تقوى الرياح على تكسيرها. وهذه الشجرة الطيبة هي التي تعطي ثمارها في كل حين، بإذن ربّها، حتى ينتفع الناس بخيرها ونتاجها.

وكما هي الشجرة الطيبة، تَنْبُتُ من البذور المعطاء وتعيش في الأرض الصالحة، ثم تعلو من فوقها بالظلال الوارفة، وبالثمار اللذيذة التي تنفع الناس بأكلها كل حين، كذلك الكلمة الطيبة، التي تملأ النفوس بالصدق والإخلاص، وتثبّتُ القلوب على الإيمان والطاعة، وكلُّ ذلك بإذن الله تعالى، وإلّا فسدت التربة وأشجارها، وعميت القلوب ومعتقداتها. .

أما الكلمة الخبيثة ـ كلمة الباطل ـ فهي التي تزرع الشر في النفوس، وتنشر الفتن بين الناس، وتناصر الظلم والطغيان والإلحاد، فلا بد ـ وهذه مواصفاتها ـ أن يكون مصيرها إلى زوال لمجرد احتكاك رياح الحق بها، بسبب الهشاشة والضعف الكامنين في

طبيعتها، وبسبب الأخطار والأضرار التي تحملها في مضمونها.. ومَثَلُها في القرآن كالشجرة الخبيثة التي قد تنشط فتهيج، وتمتدُّ فروعها وغصونها، حتى ليخيل إلى البعض أنها تطغى على ما حولها من الشجر والنبات، إلا أنها في الواقع تبقى هزيلة، وحين يأتي الوقت تراها قد اجتثت من فوق الأرض فلا يبقى لها قرار، ولا وجود.. كيف لا، والشجرة الخبيثة تنمو على الخبث، وعلى رخاوة الأرض التي لا تساعد الجذور على التشبث بالتربة، فتصير عرضة للاقتلاع لمجرد أن تهب عليها الرياح، أو لمجرّد أنْ يطرأ عليها أي عارض، حتى ولو كان تحريكها بيد الفلاح الذي غرسها.

ولا يقف المثل الذي يشبه الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، أو المثل الذي يشبه الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة عند حدود المثل، كما لا يقصد منه مجرد عزاء للطيبين وتشجيع للمؤمنين، إنما هو تصوير لأصل الحياة الذي يقوم على الحق، وليس على الباطل، لا سيما وأنَّ الحق الثابت والخير الأصيل لا يفنيان أبداً، وإن تراءى للناس أنَّ تحققهما بطيء، أو صعب المنال. فهما أصيلان في الوجود، ولا يمكنْ أن يطالهما زوال أو فناء. وإن تغلب عليهما الباطل والشر ـ بسبب فساد الإنسان نفسه، ومصادمته لقوام وجوده ـ فإن غلبة هذين سوف تكون إلى حين ثم يأتيهما التآكل من داخلهما، والفساد من طبيعتهما، فيذهبان إلى غير رجعة..

ثم إنَّ الكلمة الطيبة، وما تمثل من الحق والخير، هي التي تتجدد مع تعاقب الأزمان، لأنها تحتوي على الحقائق الثابتة. وقد تمثلت الكلمة الطيبة بأروع معانيها في الرسالات السماوية، وفي الدعوات الصادقة، وجميعها يستقي من عقيدة التوحيد القائمة على

حقيقة وجود الله تعالى إلهاً واحداً أحداً، والثابتة على الحق من ربّ السماوات والأرض، وخالق الكون والحياة والإنسان. فلا حقيقة إنْ لم يكن أساسُها الحق، ولا خير إنْ لم يكن مددهُ الحقُّ.

وهكذا نرى أنَّ القرآن الكريم عندما يضرب المثل عن الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، فإنما يعني بالكلمة الطيبة الإِيمان بالله تعالى، الذي جاءت به الرسالات السماوية جميعاً، كي تجعل الحياة طيبة بالإيمان والصلاح.. في حين يعني بالكلمة الخبيثة الكفر لأنه رجسٌ، وما يرادفه من الشرك والنفاق وخبائثهما، وهذا كله ممّا يبعد الإنسانَ عن ربَّه وخالقه.. ولما كان لا بد للشجرة من عروق، وساق وفروع، وورق وثمر، فكذلك الإِيمان تكون عروقُهُ العلمَ واليقين، وساقُهُ الإخلاصَ، وفروعُهُ الأعمالَ الصالحة، وثمرُه الآثارَ والنتائجَ المترتبة على الأعمال الصالحة من صفاتٍ حميدة، وأخلاق كريمة، ومعاملات طيبة، وغيرها من المزايا والخلال التي يحمدها اللَّهُ تعالى وعباده الصالحون. وهي جميعها مما يثبّت الله تعالى عليها الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

أما الكفر، أو الإِلحاد، أو الشرك أو النفاق فمثله كالشجرة الخبيثة التي تنبت في أرض خبيثة، وتحمل أوراق الأذى وثمار السم. وقد تتطاول الشجرة الخبيثة في النماء والعلو حتى يقيّض اللَّهُ تعالى من يستأصلها، ويطرحها لليباس والاندثار فيخلص التربة من تكاثرها، والأحياء من أضرارها.. إنها شجرة الخباثة، وكل خبيث مذموم وملعون. وإنَّ من اعتقد كفراً، أو اتخذ شركاً فقد اتبع الخباثة، فذمَّه الحق، ولعنه الخير فما له من قرار.. وأهل الباطل هم الذين يفعلون عادة الخبائث، ولذلك نجدهم يكرهون الحق وأهله، ويحاربون الخير

وفاعليه، فكانوا من الظالمين الذين أضلَّهم الله تعالى بسبب ظلمهم. ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فلا تكون لهم هداية على الإطلاق، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[1].. ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من إضلال الظالمين لأنه عليم بما تنطوي عليه صدورهم من الخبث، ومناصرة الباطل.. والمقابل ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من هداية المؤمنين إلى صراط الحق المبين، والعلم الصالح والسلوك القويم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[2]؛ ويظهر هدى الله عزَّ وعلا لهم في القول الطيب، والخلق الحسن، واتباع سبيل الحق القويم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾[3].

وقد سئل رجلٌ من أهل العلم عن معنى «الكلمة الخبيثة» فأجاب: «لا أعلم لها في الأرض مستقراً، ولا في السماء مصعداً إلّا أنْ تلزم صاحبها يوم القيامة»؛ وقد روي عن ابن عباس قوله: «إنَّ الشجرة الخبيثة لم يخلقها الله بعد، وإنما هو مثل ضربه بهذا الواقع الذي يدل على الخبث والضرر»؛ وبخلافها «الكلمة الطيبة»، وهي كلمة التوحيد بشهادة «لا إلَه إلّا الله»، التي كانت عهداً على بني آدم، وهم في الأصلاب[4]، وهي الكلمة التي يثبّت الله تعالى الذين آمنوا بالقول الثابت عليها في الدنيا والآخرة، فيكون سبيلاً إلى فوزهم بالجنة.

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢٩.

(٢) سورة الحج، الآية: ٥٤.

(٣) سورة الحج، الآية: ٢٤.

(٤) مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾.

٣ ـ الكافرون يتّبعون الباطل، والمؤمنون يتّبعون الحق، كذلك يضرب الله للناس أمثالهم.

يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَـٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَـٰلَهُمْ﴾(١).

من يقف على تاريخ الجماعات البشرية، ويحلل الأحداث بعين مبصرة، ويطّلع على الوثائق أو المعلومات التي أخفيت عن الناس، ثم ظهرت بعد حين من الزمن، يجد أنَّ العداوة والبغضاء، غالباً ما كانتا تتحكّمان في نفوس وتصرفات أهل الكفر بين بعضهم البعض، إنما يتناسون كل تناقضاتهم حول ما يفرّقهم من المصالح، عندما يتعلق الأمر بأهل الإسلام، ولذلك نجد أنَّ أهل الكفر هم، دائماً، على نقيض أهل الإيمان؛.. ولكنَّ حكم الله السميع البصير، يختلف عن كل ما يخطط ويعمل أهل الأرض، وها هو قرآنه المجيد يبيّن لنا بأنَّ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في عداوتهم، وحربهم على المؤمنين ـ الذين يدعون إلى سبيل الله وهداه ـ قد أضلَّ الله تعالى أعمالهم، فلا تقع على هدى أو خير، لأنها مخالفة، أصلاً وفرعاً، لشرع الله. أما الذين يدعون إلى سبيل الله وهداه، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نُزِّلَ على محمد ﷺ وهو الحق من ربَّهم، كفَّر ربُّهم عنهم سيّئاتهم وأصلح بالهم مصداقاً لقول الحق

(١) سورة محمد، الآيات: ١ ـ ٣.

تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾، فالذين آمنوا بصدق الرسالات السماوية وما فيها من الهدى والحق، وعملوا الصالحات بفعل ذلك الإيمان، ثم آمنوا بما نزل على محمد ﷺ من قرآنٍ كريم، وأقرّوا بأنه هو الحق من ربّهم، فهؤلاء كفّر الله عنهم سيئاتهم، وأصلح حالهم وشأنهم، فلا يرتكبون المعاصي التي تقلق البال، وتقضّ المضاجع.. وهذا يعني أنَّ الذنوب هي التي تؤرّق الإنسان، وتجلب له الهموم، حتى الذين يظلمون، غالباً ما يجدون في أنفسهم قلقاً وغمّاً بعد ارتكاب مظالمهم ـ وذلك بخلاف ما يظهرون به على أعين الناس ـ إلّا الظالمين الذين عميت قلوبهم في صدورهم، فلا يشعرون بأية مرارةٍ أو كآبة من جرَّاء أفعالهم، بل ينسابون وراء نجاحاتهم كانسياب الأفعى إلى وكرها بعد ابتلاع فريستها!.. أمَّا الذين آمنوا بالله تعالى، وجاهدوا أنفسهم لاتقاء غضبه وسخطه، فهم على نقيض أولئك تماماً، إذْ نجدهم ـ ولأي دينٍ انتموا ـ مرتاحين في مشاعرهم وتصرفاتهم، ويزيدهم الله تعالى من فضله، إذا آمنوا بما نُزِّلَ على «محمد» ﷺ وهو الحق من ربّهم، فهم ينتهجون ـ عندئذ ـ الاستقامة في التفكير والسلوك، وينشدون ـ دائماً ـ راحة القلب والضمير، فلا يعصون الله تعالى ما أمرهم. ونهج حياتهم دوماً قولاً وفعلاً، قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

وهذا أيضاً شأن أهل الإسلام من المتقين ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ

(١) سورة الأحقاف، الآية: ١٣.

﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[1] فهذه الآيات الكريمة لا تحتاج إلى بيانٍ أو تفسير، بما وصف الله تعالى المتقين من أهل الإسلام، وبما حباهم من سمات الإيمان واليقين والهدى وبما وعدهم من الفلاح.. إلَّا الذين ظلموا أنفسهم ـ من المسلمين ـ بارتكاب المعاصي، ولم يتوبوا إلى الله توبةً نصوحاً، فأولئك حسابهم على الله ربهم!..

وقيل إنَّ الآيات في مطلع سورة «محمد» ـ التي نحن بصددها ـ قد نزلت في أهل مكة، وفي الأنصار. فأكثر أهل مكة قد كفروا، وصدّوا عن سبيل الله فأضلَّ سبحانه أعمالهم تلك بأن بدَّد جهودهم في محاربة الدعوة، وهزمهم في قتالهم مع المسلمين.. وظلّوا كذلك إلى أنْ نصر الله الدعوة الإسلامية، وتَمَّ فتح مكة على يدي رسول الله ﷺ فدخلوا في الإسلام طائعين أو مكرهين.. أما الأنصار فهم الذين آمنوا بما نُزِّل على محمد ﷺ وراحوا يدعون للإسلام قبل هجرة النبيّ ﷺ إليهم في المدينة المنوّرة، بل وقد أخلصوا لله ورسوله، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، فكانوا أهل النصرة حقاً وفعلاً. وبسبب إيمانهم بما نزِّل على «محمد» ﷺ وهو الحق من ربّهم، فقد غفر لهم ربّهم سيئاتهم، وما سلف من ذنوبهم، وأصلح بالهم بما غيّر في أحوالهم من العداوة والقتال الدائمين، اللذين كانوا عليهما في الجاهلية إلى إخوة في الدين، دأبهم الصلاح والإصلاح، فاطمأنت نفوسهم إلى آخرتهم، وذلك بما وعدهم الله تعالى دخول الجنة، وهو الفوز العظيم..

والإضلال لأعمال الذين كفروا، مردّه إلى أنهم يتبعون

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ٣ ـ ٥.

الباطل.. وأما تكفير السيئات، عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وإصلاح بالهم، فمرده إلى أنّهم يتّبعون الحق، ويهتدون بالقرآن المنزّل إليهم من ربّهم.. ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أي وعلى هذا النحو يبيّن الله تعالى للناس أحوالهم من حيث الكفر والإيمان، وما يتبع أهل الكفر من الباطل، وما يتبع أهل الإيمان من الحق الذي أنزل من ربهم، ومن ثم ما سوف يؤول إليه مصيرهم في الآخرة، وهل هم من أصحاب النار أم من أصحاب الجنة.. أما الذين لا يعلمون، والذين استوى الباطل والحق عندهم، فتعساً لهم!.

٤ ـ تمنّي الذين يريدون الحياة الدنيا أن يكون لهم مثل ما أُوتيَ قارونُ من المال والجاه.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ * وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1].

(١) سورة القصص، الآيات: ٧٦ ـ ٨٢.

هنا يتجلّى التعبير القرآني بأروع التمثيل وأحسن التشبيه فيما يرسم لنا من صورة للإنسان الذي يجحد فضل ربّه، ويتنكر للنعمة التي أفاضها عليه من رزقٍ وفيرٍ، ومالٍ كثير... ولعلَّ مردَّ ذلك إلى غروره بنفسه، وتناسيه ما قد يُنزل به ربُّه العلي القدير من صروف الدهر.. فمثل هذا الإنسان هو الذي يدّعي ـ باطلاً ـ أنَّ ما عنده من مالٍ وغنىً، وما وصَلَ إليه من مكانةٍ ووجاهة، إنَّما كان بما ملك من علم ومعرفة، وبما تمتع به من حنكةٍ وذكاءٍ، وقدرةٍ فائقةٍ على استغلالَ الظروف لمصلحته.. حتى ليتوهم، أحياناً كثيرة، بأنَّ الذين قد يبلغون ما بلغ هم قلائل بين الناس!.. وفي مثل هذا الإطار النفسي والسلوكي يدلّل القرآن الكريم على شاكلة هذا الصنف من البشر بشخص قارون من قوم موسى (وقيل: ابن عمه).. فقد اختار قارون طريق الذين يتولّون أعداء الدين، ويجعلون من أنفسهم عملاء لهم، وذلك عندما سخَّر حياته كلها، ليكون تَبَعاً لفرعون، ووزيره الأول هامان؛ فأوكلا إليه مهمة التسلّط والتنصّت على بني إسرائيل ـ وهم أهله وعشيرته ـ وذلك بتوليته وظيفة فرض الجزية عليهم، وجمع حاصلها من الأموال والغلال، بحيث يؤدي النصيب المفروض لفرعون، وما زاد يوزّع جزءاً منه على بطانته، ويجمع الباقي في خزائنه!.. وهذا فضلاً عن مراقبة كل تحركات بني قومه، أفراداً وجماعات، بحيث لا يخفى عليه خافيةٌ من أمورهم!..

وقد اتخذ قارون لذلك كلَّ أسباب القوة والبغي ووسائل المكر والدسيسة، حتى يرضي أسياده، ويحقق مآربه؛ فجنَّد من بني إسرائيل من هم صنوه في الخساسة والنذالة، ليكونوا عيوناً على بني قومهم، وأوصى ـ بصورة خاصة ـ ملاحقة موسى عليه السلام والمقربين منه، حتى يتسنَّى له أنْ يرصدَ كلَّ ما يقومون به، أو يفعلونه!..

ويبدو أنَّ مطامع قارون لم تكن لتقف عند حدٍّ، فانبرى يجمع الثروات، ويمتلك الدور والأراضي دون وازعٍ من ضمير، أو خوفٍ من الله!.. فلم يقصّر في سرقة أموال بني قومه تحت أية ذريعة، ولم يتوان عن سلب ممتلكاتهم بشتى أساليب التهديد، وحرمانهم من أرزاقهم بمختلف أنواع الظلم، حتى بلغت ثروته حدّاً يصعب تقديره.. ولعلَّ ذلك الغنى قد أعمى بصيرة قارون، فلم يخطر بباله، ولم يدر بخلده، أنَّ ما يملك من الأراضي والبساتين والقرى، وما يجمع من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، وما يكدس من الغلال والأرزاق في المخازن والمستودعات التي كانت عصبة من الرجال تعجز عن حمل مفاتيح أبوابها.. أبداً لم يتفكَّر بأنَّ كلَّ ذلك من عطاء الله تعالى، وأنَّ ما آتاه إنما كان فتنة وابتلاءً، لأنه تعالى أعلم بما تنطوي عليه نفس هذا الرجل من الجشع والخداع، وما يبطن في قلبه من النفاق، وكفران النعمة..

ويبيّن لنا القرآن الكريم كيف أظهر قارون نوازع الشر الكامنة في نفسه، ليكون مثالاً للمستكبرين والمفسدين الذين يكذّبون دعوات المرسلين، ويتبعون الأهواء المضلّلة.. فقد عمدت عصبةٌ من بني قومه إلى نصحه ووعظه بألّا يكون أَشِراً ولا بَطِراً، وألّا يظلم ويبغي على الناس، إذ قالوا له:

يا قارون! لا تفرح بكثرة الأموال والكنوز، فإنَّ الله لا يحب الفرحين الذين يتباهون بالغنى، ويتطاولون على الناس بالسلطان. وابتغِ فيما آتاك الله، من هذا الجاه والمال، الدار الآخرة، فتتصدق على الفقراء، وتقدمَ العون للمحتاجين، وتساعدَ بني قومك على

تخفيف أعبائهم من العوز والجوع والمرض، وتريحَ أكتافهم ـ بقدر ما تستطيع عليه ـ من أثقال الهوان والذل، وأشكال المتاعب التي تحيط بهم من فرعون وملئه!.

بل وزادوا في نصحه، إذ قالوا: ولا يعني رجاؤنا، في الحدب على بني قومك، أنْ نحولَ بينك وبين ما أنت عليه من المكانة والثراء، ولكن نقول لك: إفعل الخير، ولا تنسَ نصيبك من الدنيا، فهي لك بملاذّها وأطايبها، فَكُلْ من طيبّات ما رزقك الله، وتمتع بحياتك، كما يتمتع به العاقل المؤمن، الذي يعمل لدنياه كما يعمل لآخرته، وإنْ كانت الآخرة خيراً وأبقى!.. وأحسن يا قارون، بالصدقات، كما أحسن الله إليك، فما أنت عليه من الملك، وما جمعت من الثروات في الأوعية، إنما هو مما أتاك الله من إحسانه وفضله، وقد جعل فيه نصيباً للفقراء، والمساكين، واليتامى، والسائلين والمحرومين، وغيرهم من العباد المحتاجين، فلا تقابل عطاء ربّك الواسع بالكبر والاستعلاء، ولكن بالجود، والعطف، والرأفة..

يا قارون، إنَّ الله تعالى يمقت أهل البغي والفساد في الأرض، فما استلاب حقوق الناس، واستغلال جهود المقهورين، والتحكم بالرقاب إلّا ظلم للعباد.. وما الدسيسة، وشراء الضمائر بالرشوة إلّا البغي على الناس! فهذا كله فسادٌ وإفسادٌ، والله جلَّ وعلا لا يحب الذين يعيثون في الأرض فساداً، ولا يحب الفرحين الذين أبطرهم الغنى والسلطان.

وكان جواب قارون على كل ذلك النصح ـ كما يبيّنه القرآنُ الكريم ـ أنْ قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾.

وهذا هو الضلال المبين الذي وقع فيه قارون، وهو يظن أنه

أُوتي المال الكثير، والجاه الواسع بخبرته وخداعه ومكره.. ولولا كفاءاته وقدراته ما أولاه فرعون ما أولاه، ولما كان له هذا النفوذ في بلاطه، وتلك الشهرة في أرجاء مملكته!.

ويبدو أنَّ جواب قارون القاطع لبني قومه إنَّما يعني بأنَّ الملك ملكه، والكنوز كنوزه، وليس لأحد أنْ يتدخل بأمر من أموره، أو شأنٍ من شؤونه.. فهو لا يريد أنْ يتصدق على الفقراء، أو يعطي المحتاجين، أو يساعد المحرومين.. لا بل وسحقاً لهم جميعاً، فهم قد جلبوا الشقاء لأنفسهم، لأنهم لم ينصاعوا لفرعون وأوامره!. فلماذا يحمل همومهم، ويُربِكُ نفسه بمشاغلهم، وهو غنيّ البال عن ذلك؟!.

وإنها لمقولة المغرور، الذي طبع الله على قلبه، ففُتِنَ بالمال، وعُمِيَ بالسلطان، فنسي مصدر النعمة، وحكمتَهُ تعالى في الإنعام على عباده!. ألم يعلم بأنَّ اللَّهَ تعالى هو الذي يرزق من يشاء بغير حساب، فإنْ رَزَقَ المؤمنَ فلكي يمتحنه، وإنْ رزق الكافر فليبتليَهُ؛ وما كان مالُ قارون إلّا ابتلاءً عظيماً من ربّه، ليكون مثالاً لكل جاحد متكبر، وليكون نموذجاً مكروراً في البشرية. فكم من الناس الذي يظنُّ أنَّ علمه وكدَّه هما وحدهما سبب غناه، وأنَّ له أنْ ينفق أو يمسك كما يشاء، وأنَّه غيرُ محاسَبٍ على ما يُفسد بالمال أو ما يُصلح!.. وهذا تفكير كلِّ مارقٍ من البطرين، الأشرين الذين لا يراعون في الناس إلّا ولا ذِمَّةً، ولا يراعون لله جلَّ وعلا حقّاً ولا فضلاً، لأنهم لا يؤمنون بأنه هو الرزّاق، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممَّن يشاء، بيده الخير، وهو على كل شيءٍ قدير..

لقد كان قارون يتوهم بأنه جمع ماله بعلمه، ولم يتفكَّر بأنَّ كثيرين ـ غيره ـ من السابقين، كانوا أكثر منه مالاً وغنًى وثروة، ولكنَّ اللَّهَ سبحانه أهلكهم جميعاً، هم، وثرواتهم..

وكان من عادة قارون أنْ يخرج، ومظاهر الزينة والخيلاء تحفُّ به من كل جانب، لكثرة مَنْ حوله من الأتباع، والموالي والحشم والخدم الذين يسخِّرهم لمآربه..

ومثل تلك المظاهر تبهر ـ عادةً ـ الذين يريدون الحياة الدنيا، فكانوا إذا اصطفّوا للتفرّج على خروجه بزينته قالوا: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون من المال والثروة، وهذه الوجاهة من المكانة والعزّة، ﴿إنَّه لذو حظٍ عظيم﴾!.. أما الذين آتاهم الله تعالى العلم والإِيمان، فكانوا يقولون لهم: ويلكم أيها المغترّون بالمال والجاه، ألا تعلمون أنَّ الغنى الحقيقي هو غنى الإيمان والطاعة؟! وأنَّ ثواب الله خيرٌ وأبقى، لمن آمن وعمل صالحاً، ولا يُلقَّى الجنة، بهذا الثواب، إلّا الصابرون على طاعة ربّهم، الهاربون من معصيته، وأنَّ الدّار الآخرة ـ واللَّهِ ـ لهي الحياة التي ينشدها المؤمنون، وهي خيرٌ مما أوتي قارون، وكلٌّ من هم على شاكلته من أهل الغنى، والبطر والفساد لو كانوا يعلمون!..

ويشاءُ اللَّهُ ربُّ العزة والجلال، أنْ يجعل من قارونَ مثلاً للذين يفسدون في الأرض من الجاحدين، والمستكبرين، والظالمين.. فيبيّن في قرآنه المجيد أنه خسف به، وبداره (وما فيها من الكنوز والثروات، ومن معه من الأتباع، الذين ساروا على دأب سيدهم المتكبر) حتى ابتلعتهم الأرض في باطنها، ولا يعلم أحدٌ مستقراً لهم إلاَّ اللَّهُ سبحانه وتعالى. فهل قَدِرَ قارون أنْ يدفع عن نفسه أمرَ الله لمَّا جاءه؟!.. وهل وجد مَن ينصره ويخلّصه من عذاب الله الذي حلَّ به

وبمن معه؟ كلًّا، لم يجد مَن يمنع عنه الهلاك، أو مَن يدفع عنه العذاب، وما كان قارون من المنتصرين بفعاله، ولا من الناجين من عقاب الله وعذابه! . .

وطلع الصباح على الذين تمنّوا بالأمس أن يكونوا مكان قارون في الغنى والجاه، فإذا هم نادمون، يقول بعضهم لبعض: ويلكم، وعجباً لأمركم، ألا ترون أنَّ الله تعالى بكل شيء عليمٌ، يوسع الرزق لمن يشاء، ويضيّق الرزق على من يشاء؛ فلو أنَّ الله منَّ علينا بمثل ما منَّ على قارون، ثم خسفَ بنا كما خسف به، لَكنَّا من الخاسرين. . وما لنا ألَّا نؤمن بالله تعالى ونرضى بعطائه ونعمه، فنبتعد عن الأهواء والشهوات التي تردي أهل الكفر، لأنه لا يفلح الكافرون، مهما كانوا عليه من النجاح في هذه الحياة الدنيا؟! أما في الآخرة، فسوف يصلون نار السعير التي أعدت للكافرين والمتكبرين، مثلما أُعِدّت الجنة للمؤمنين الذين لا يريدون علواً في الأرض، ولا يبغون فساداً بين العباد، والعاقبة للمتقين.

الفقرة الثانية ـ الجدال والحجاج

١ ـ لقد صرَّف الله في القرآن للناس من كل مثل، وكان أكثر شيء في الإنسان جدله.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[1].

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٤.

أول ما يجب أن يستوقفنا في هذه الآية الكريمة قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾، الذي يوحي بأنَّه تعالى هو المتصرّف بكل شيءٍ، وبمقتضى هذا التصرّف الذي ينمُّ عن مشيئته المطلقة، جعل في هذا القرآن للناس مثلاً - جنساً - من كل مثل، ليكون في هذه الأمثال «الأجناس» ما يهديهم إلى الحقائق، ويأخذ بيدهم إلى ما فيه صلاح حياتهم وآخرتهم.. ولذلك نجد في القرآن من كل مثل عن قضايا الخلق والحياة، وعن شؤون الناس وأحوالهم، وعن تقلبات النفس وأهوائها، وعن القيم والمثل الرفيعة وأضدادِها.. أي عن كل ما يتعلق بالأمور العقائدية، والفكرية، والشعورية والسلوكية التي تهمُّ الإنسان في مبدأه ومعاشه ومعاده، بالإضافة إلى ما تتناول هذه الأمثال من أمورٍ غيبيّة كالملائكة، والجنة، والنار، والقيامة، والحساب التي شاء ربُّنا تعالى أن يقرّبها إلى أذهاننا، فلا تبقى معاني مجردة، ومعجمة على أفهامنا بل مصوّرة ومجسَّدة بالمثل القرآني، فلا تعود تشغل بالَ الإنسان، ويريد أجوبة عليها، لأنه يجد في أمثال القرآن الكريم ما يشفي غليله حولها...

وبالفعل فإن من يقرأ القرآن، ويفهم معانيه، ويدرك بلاغته يجد فيه أمثلة كثيرة وجليلة تنطوي - في شموليتها ووضوحها، وأحياناً في تفاصيلها - على ما يتلاءم مع فطرة الإنسان السليمة في توافقها مع سنن الله تعالى التي من شأنها أن تزكي النفس البشرية، من خلال ما تدعوها للعودة إلى أصالتها، وما يمدُّها من الوسائل، وما يهديها إلى الطرق التي تقودها في درب الخلاص والصلاح.. بل وميزة الأمثال في القرآن أنها - بالإضافة إلى ما تقدم من البرهان

والدليل والحجة ـ إنّما تخاطب العقل والقلب على السواء، آخذة بعين الاعتبار ما قد يبلغ الإنسان من درجات في الفهم والعلم، وما قد يتفاعل في نفسه من تنوع في الشعور والإحساس. .

وعلى الرغم من عظمة هذه الأمثال فقد جادل فيها الإنسانُ، مثلما جادل في آيات القرآن كلها، في محاولةٍ ومسعى لمغالبة وقعها وأثرها على نفسه، والتنصل من مصداقيتها وحقيقتها في حياته، فكان في مسعاه، وكما وصفه خالقه ﴿أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾.

والهالة النورانية التي تنسجها هذه الآية الكريمة تتجلى بأنها تغطي مساحة السلوك الإنسانيّ بأسره، لأن الله تعالى قد صرَّف في كتابه المبين للناس من كل مثل، فلا يعرضُ شيء يتعلق بالكون والحياة والإنسان إلا ونجد عليه مثلاً في هذا القرآن. . أما المؤمن فيعلم أنه الحق من ربّه تبارك وتعالى، فيتّبعه، وينتفع به من غير أن يخاصم في مصداقيته. . وأما الكافر فيقوده ضلال نفسه إلى إنكار القرآن، كما أنكر من قبل جميع الكتب السماوية، فعارضَها، وجادل في آيات الله التي أنزلت في كتبه، كما كذَّب النبيين والمرسلين الذين كلِّفوا بإبلاغ الآيات عن ربّهم حتى كان ذلك الجدل من الكافر أكثر شيءٍ بروزاً في حياته، فلا يترك موقفاً أو مناسبة إلّا ويتصدَّى لما أنزلَ الله من آيات؛ ولا يتحرك في أي مجال أو ساحةٍ إلّا ويدافع عن معتقدات الكافرين والمشركين، فكان مقدَّراً أنْ يبقى على جداله وخصامه، وألّا يهتدي إلى طريق الله تعالى، بحيث لا ينتفع بآيات الله، مهما حملت من الوعد أو الوعيد! . . .

٢ ـ ما ضرب الكافرون عيسى مثلاً في عبوديته لله تعالى إلّا جدلاً

أ ـ مَثَلُ خلق عيسى عند الله كمثل آدم.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[١].

إنَّ خلق عيسى ابن مريم من غير أبٍ قد يبدو أمراً غريباً عند كثير من الناس؛ ولكنَّ المؤمنين يعلمون أنه أمرٌ سهل ويسير على الله العلي القدير؛ وقد جعله كذلك ليكون أقطع للخصومة، وأوقع في النفوس، إذ كما خلق الله آدمَ من تراب الأرض، من صلصال كالفخار، ثم قال له: كن، فاستوى بشراً سويّاً، وكذلك كان خلق عيسى من أمه الطاهرة مريم بنت عمران، ولم يمسسها بشَرٌ، حتى يكون خلقه بكلمة «كن» تعبيراً عن أمر الله، الذي يبيّنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٢]، فلا يعجبنَّ أحدٌ، إذاً، أن يكون خلقُ عيسى ابن مريم عليه السلام خلافاً لنظام الزوجية الذي جعله الله تعالى سنةً لتوالد البشر، باجتماع الزوجين الذكر والأنثى، لأنَّ خلقه (سلام الله عليه) من الأنثى وحدها، إنما هو تعبيرٌ عن مشيئة الله المطلقة، إذ لمجرد «كلمة: كن» فيكون الشيء، وبهذه الكلمة يكون الخلق والإنشاء، ويستوي التقدير والتدبير.. ويمكن أنْ نتبيّن هذا الأمر بوضوح في الحوار الذي دار بين الملك جبرائيل الأمين، والمصونة الطاهرة مريم بنت عمران عليها السلام، إذ لمَّا أرسل الله تعالى إليها جبريل: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[٣]

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

(٢) سورة يس، الآية: ٨٢.

(٣) سورة مريم، الآية: ١٧.

﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾[1].

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾[2].

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾[3].

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾[4]، أي قال لها جبريل عليه السلام: الأمر كذلك من خلق غلام منك من غير أب، وقد أرسلني لأهب لك غلاماً زكياً بالنفخة، وقد قال ربك هو أمرٌ عليه هيّن سبحانه وتعالى، وقد أراد أن يجعله آية للناس على قدرته، ورحمةً منه لمن آمن به؛ وكان أمره تعالى مقضياً ومحققاً.

أجل، كلُّ شأنٍ، وكلَّ أمرٍ هو على الله تعالى هيّنٌ، لأن الذي أبدع خلق السماوات والأرض، من غير مثالٍ سابق، أهون عليه أنْ يخلق بشراً من غير أب، أليس ذلك ما يقرُّهُ العقل والوجدان؟ بلى، لأنه تعالى هو الخلاق العليم، وأمره هو «كلمته» فإذا قال للشيء: كن، فيكون، وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[5]، وعلى هذا الأساس فلا يجوز أن نبني أمرَ الله تعالى، سواء في الخلق أو في غيره، ممّا تفرَّد به ربُّ العزة والجلال، على مقاييس الإنسان المحدودة، وقوانينه المتباينة،

---

(١) سورة مريم، الآية: ١٨.

(٢) سورة مريم، الآية: ١٩.

(٣) سورة مريم، الآية: ٢٠.

(٤) سورة مريم، الآية: ٢١.

(٥) سورة يس، الآيتان: ٨١ و٨٢.

وأنظمته المتقلّبة.. فلّله تعالى في خلقه شؤون تحكمها سننٌ مقدرة، ثابتة، لا تبديل فيها ولا تحويل إلّا أنْ يشاء هو سبحانه أنْ يبدّل أو يحوّل في سننه، وللحكمة والموعظة التي يريدها من ذلك.. ولقد كانت الحكمة والموعظة في خلق عيسى ابن مريم ما يثبته قوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً﴾...

وإذا كانت سنة الله في الخلق أنْ جعل في كل جنس من الأحياء نظاماً معيناً للتوالد والتكاثر، ويقوم على الزوجين الذكر والأنثى، فإنه نفس النظام الذي يقوم عليه خلق بني آدم، وذلك بالتزاوج ما بين الرجل والمرأة (الذكر والأنثى)، وإنَّ الخروج عن هذا النظام، محال أنْ يكون إلّا بأمر الله تعالى، كما كان أمره سبحانه عندما خلق عيسى ابن مريم عليه السلام من غير أب، ليجعله وأمَّه العذراء، آيةً للناس ورحمةً، بل وحجةً عليهم تذكرهم بأنَّ الله هو الخالق العظيم، وأمره في الخلق أن يقول للشيء: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾..

وكذلك فإنَّ من الخروج على المقومات التي أودعها الله تعالى في الرجل والمرأة للإنجاب، إحياء تلك المقومات بعد مواتها، في المرأة العقيم، لتعود فتحمل، وتلد.. وهذا هو الشأن مع زوجة إبراهيم عليه السلام، إذ كانت السيدة سارة قد بلغت من الكبر عتيّاً (التسعين من عمرها) عندما جاءتها وزوجَها البشارةُ على لسان الملائكة بأنَّ الله يبشرهما بغلام حليم، فأقبلت من مخبأها، والعجب يأخذها مما سمعت، كما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾[1]! . وكان جواب الملائكة من رسل الله: ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ

(١) سورة الذاريات، الآية: ٢٩.

قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1] أي مثل قولنا في البشارة، قال ربك: بشروها بغلام حليم، وما قال ربُّك هو الحق، وهو عليه هيّن، إلا إنه هو الحكيم في صنعه، العليم بخلقه..

ب ـ الجدال والمخاصمة في خلق عيسى ابن مريم عليه السلام

يقول الطبريّ: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ أنزل هذه الآية حجة لنبيه محمد ﷺ على وفدٍ من نصارى نجران الذين حاجّوه في عيسى عليه السلام.. وذلك أنَّ رهطاً من أهل نجران قدموا على النبيّ ﷺ فقالوا له: ما شأنك تذكر صاحبنا؟ فقال ﷺ: من هو؟ قالوا: عيسى، تزعم أنه عبدُ اللَّه!! فقال ﷺ: هو عبدُ اللَّه، وروحه وكلمته. قالوا: لا، ولكنه هو الله نزل من ملكه، فدخل في جوف مريم، ثم خرج منها، فأرانا قدرته وأمره. فهل رأيت قط إنساناً خلق من غير أب؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ﴾»[2].. الآية.

ويبدو أنَّ بعض المشركين الذين كانوا يعبدون الملائكة، قد أخذتهم البهجة عندما سمعوا بهذه الآية الكريمة، فقالوا: نحن أهدى من النصارى، لأنهم عبدوا آدمياً، ونحن نعبد الملائكة، فنزل قولُ الله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢاۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾[3].

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٣٠.
(٢) تفسير القرآن للطبري؛ صحيح مسلم رقم ١٥١.
(٣) سورة الزخرف، الآيات: ٥٧ ـ ٦٠.

لقد أشرنا من قبل إلى تصدّي المشركين، ومن حالفهم من الأحزاب، للدعوة الإسلامية منذ ظهورها، وكان من أبرز وجوه ذلك التصدي ما تمثل في معركة الجدال التي دارت على أشدّها بين النبي ﷺ في دعوته إلى عبادة الله الواحد الأحد، وبين المشركين الذين كانوا يعبدون الأصنام والأوثان أو الملائكة، أو غير ذلك!.. وفي خضم ذلك الجدال تنزَّلت الآيات التي تتوعد المشركين بأنهم سوف يكونون «هم»، وما يعبدون من دون الله ـ مما يعتبرونها «آلهة» ـ وقوداً للنار..

ويروى عن الكافر ابن الزعبري أنّه كان أكثر شيء جدلاً في آيات الله؛ فلما نزل وعيدُ الله، وتهديده للمشركين بقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1]، أجل لمّا سمع ذلك الكافر تهديدَ الله، جاءَ إلى النبي ﷺ، وقال:

ـ أهذا لنا ولآلهتنا ولجميع الأمم يا «محمد»؟!

وكان جوابه ﷺ قاطعاً:

هو لكم يا مشركي مكة، ولآلهتكم المزعومة، ولجميع الأمم التي كفرت بالله وآياته!..

قال ابن الزعبري:

ـ خصمتك يا «محمد» ـ وربّ الكعبة ـ أليس النصارى يعبدون

---

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٩٨ و٩٩.

عيسى ابنَ مريم، واليهودُ عزيراً، وبنو مليح الملائكةَ؟ فإنْ كان هؤلاء في النار، فقد رضينا أنْ نكون وآلهتُنا معهم!..

واتخذ المشركون من جدال ذلك الكافر اللعين مادةً للسخرية والتندّر، وفي ظنهم الموهوم أنَّ «محمداً» ﷺ قد أصبح في موقف حرج، فلا يستطيع أنْ يدفع جدالهم ومخاصمتهم!.. ولكن نسوْا أنَّ الله تعالى هو السميع البصير، فأنزل من الآيات القرآنية ما فيها النفي المطلق لآية شبهةٍ حول عيسى ابن مريم عليه السلام؛ وأنَّ كلَّ ما يتقوَّلونه حول هذا النبيّ الكريم ـ أو حول عزير، أو الملائكة ـ من اتخاذهم أرباباً أو آلهة من دون الله، إنّما هو باطل، ولا أساس له من الصحة، لأنهم جميعاً عباد لله تعالى، وسوف يُخاصمون ـ هم ـ كلّ من افترى عليهم بمثل ذلك الإدعاء الباطل يوم الحساب.. كما تبيّن الآيات القرآنية أنَّ ما توهمَّهُ المشركون حول هؤلاء العباد، وما جعلهم فرحين مستهزئين، فيضحكون ويصفّقون له، ليس إلَّا جدلاً ومخاصمةً للنبي عليه السلام، كما يبيّنه قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[1].

ويبدو واضحاً من ترابط الآيات الواردة في سورتي الأنبياء والزخرف، أنّها لا تتناول، لا من قريب ولا من بعيد، ما ضربوه مثلاً عن عيسى عليه السلام بقولهم: رضينا أن تكون آلهتنا مع عيسى، أو العزير أو الملائكة.. لأنَّ تلك الآيات الكريمة وإنّما تنزَّلت لدحض جدالهم، وإخراس ألسنتهم، ومن ثم لتؤكّد أنَّ المشركين، والآلهةَ الصنميَّة التي يتعبدون لها من دون الله تعالى، هم جميعاً وقود جهنَّم وهم لها

---

(١) سورة الزخرف، الآيتان: ٥٧ و٥٨.

واردون، كما قضى الله بذلك.. ولو كانت تلك المعبودات من الأصنام والأوثان «آلهةً»، كما يزعمون، لما كانت هي ومن يتعبَّدها من المشركين وقوداً للنار، خالدين في جحيمها المشتعل[1].. ولذلك وحيثما ورد في القرآن تنزيه النبي عيسى عليه السلام عن أية شبهةٍ حول ألوهيته وربوبيته، فإنَّ هذا التنزيه يجعل بذاته أقوال المشركين حول ما عَنَوْا به عن عيسى ـ أو العزير أو الملائكة ـ مجرَّد مغالطة فادحة تنمُّ عن المشاعر التي نفثها الشيطان في صدورهم، فأطلقوها صيحات للسخرية، وتصفيقاً وهزواً لكي يجعلوا مبرراً لأنفسهم في عبادة الأصنام، ولو كان المبرر مجرد تلك الأقاويل الباطلة، ومثل ذلك الضحك والتصفيق.. أما غايتهم الخبيثة فهي العمل على طمس الحقائق التي يتنزَّل بها القرآن؛ ولكنَّ آيات الله تعالى تفضح نواياهم، عندما تبيّن أنَّ المشركين ما ضربوا المثلَ للنبيّ محمد ﷺ عن عيسى عليه السلام بآلهتهم أي ما شَّبهوها وإيَّاهُ (سلام الله عليه) بالمصير، إلّا جدلاً وخصومة بالباطل، ليبعدوا فيه عن الحق.. فعندما يستعمل القرآن الذي نزل بلسان عربي مبين لفظة «ما» وهي لغير العاقل، التي وردت

---

(١) أمّا أن يكون الناس والحجارة وقوداً للنار في الآخرة، فهو أمر ربانيّ، وقد قضى به سبحانه مذ أنْ خلق السماوات والأرض، وهذا ما لا يدركه المشركون والكافرون!.. وقد أكد القرآن هذه الحقيقة الأخروية في أكثر من آية، كما هو بيّن في الآية ٩٨ من سورة الأنبياء، وكما هو بيّن في الآيتين ٢٣ و٢٤ من سورة البقرة اللتين تتحديان كل من يرتاب بصدق ما ينزّل الله تعالى على عبده ورسوله محمد من قرآن، أن يأتوا بسورة من مثله، وإنْ لم يفعلوا، وظلّوا على ريبهم، فليتقوا النار التي سوف يكون وقودها الناس والحجارة، يقول الله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة، الآيتان: ٢٣ و٢٤].

ومثل هذا التوكيد في القرآن ـ على أنَّ النار حقّ، وأنَّ وقودها الناس والحجارة أعدَّت للكافرين ـ حتى يستيقن الناس بأن الحقائق الغيبية التي تحدَّث عنها القرآن، هي من السنن الإلهية الثابتة التي لا تتبدل ولا تتحول؛ فكان دخول الكافرين والمشركين النار أمراً حتمياً، ومقضياً به من ربّ العالمين، بقوله المبين: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾ [سورة الإنسان، الآية: ٤].

بقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، فهي البرهان الساطع على أنَّها تتناول المشركين بقوله ﴿إِنَّكُمْ﴾، وتتناول أوثانهم وأصنامهم ومعبوداتهم من غير العاقل ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾، بحيث يستقيم المعنى عندما يأتي الوعيد منصباً عليهم (كمشركين)، وعلى آلهتهم (كأشياء جامدة): وكان يجدر بهم وهم أهل الفصاحة والبلاغة، أنْ يتبيّنوا هذا الفارق اللغوي، لكي يدركوا أنَّ الله جلَّ وعلا أراد أنْ ينزّه نبيَّه وعبده عيسى، عن كل ظنونهم، وادعاءاتهم الباطلة، بينما هم أرادوا أنْ يجعلوه مثلاً لمجرد الجدال والخصام، فكانت عاقبتهم، هم وآلهتهم، إلى النار خالدين فيها.. لا بل ويبيّن القرآن الكريم أنَّ ايَّ عبدٍ من عباد الله يدّعي الألوهية، ولو قولاً، فذلك يكون جزاؤه جهنم، بقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]، فأي مخلوق، أو كائن في الأرض أو في السماء، يقول: إني إلَهٌ من دون الله ربّ العالمين، يكون ظالماً، والله عزَّ وعلا يدخله جهنَّمَ وبئس المصير.. كذلك، أي مثل هذا الجزاء في جهنم، يجزي الله تعالى الكافرين، والمشركين. وكلَّ الظالمين من أمثالهم..

بل والظنُّ أو الاعتقاد بأنَّ عيسى ابن مريم عليه السلام هو الله، أو هو ابن الله فقد أبطله كثير من آيات القرآن المبين، ومنها آية المباهلة[2]، التي ما أن عرضها النبيُّ ﷺ على وفد نصارى نجران الذي جاء لمناظرة النبي ﷺ حول لاهوتية عيسى عليه السلام كما كان يدّعي ذلك

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٩.

(٢) وردت المباهلة في الآية ٦١ من سورة آل عمران، وذلك قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

الوفد.. أجل، ما أن عرض الرسول الأكرم عليهم المباهلة حتى امتنعوا عن الدخول فيها، لعلمهم الأكيد بما سيؤول إليه مصير المبتهلين إذا كانوا من الكاذبين!.. وما كان ذلك الرفض، إلّا لأنهم جاؤوا يجادلون النبيّ ﷺ لا أنْ يناظروه حول مسألةٍ أو حقيقةٍ ثابتةٍ وأكيدةٍ، وذلك لأنَّ المناظرة تكون ـ عادةً ـ بين فريقين، يرى كلُّ فريق نفسه على حقٍّ في المسألة التي تكون موضع نقاش، ولكنه يريد أنْ يبيّن الحقَّ ـ كما يراه ـ بطريقته ووسائله؛ أما الجدال فيكون بين وجهتي نظر مختلفتين، إحداهما تنطوي على حق، والأخرى على باطل، فيكون أحد الفريقين محقاً، والآخر مبطلاً. وما كان وفد نجران يريد ـ على ما يبدو ـ إلّا جدالاً، لا مناظرةً، فهربوا جميعاً من المباهلة، لأنَّ من شأنها في حال حصولها أن تبيّن الفريق الصادق من الفريق الكاذب، وأن تظهر الحقيقةَ التي تحقُّ الحقَّ وتزهق الباطل. وهذا ما تدلّنا عليه نصوص القرآن الكريم بما تحمل من أدلةٍ دامغة لكل من أراد أن يلقى السمع وهو شهيد.. وزيادة في بيان الحقيقة يذهب النص في «سورة الزخرف» إلى إظهار المشركين والكافرين على أنهم قوم خصِمون؛ فهم يجادلون في دفع الحق بالباطل، حتى يصيروا أخصاماً للحق وأهله مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾..

ثم تتجلّى مصاديقُ الآية الكريمة التي تلي، أي الآية (٥٩) من (سورة الزخرف)، في توكيدها على حقيقة عيسى عليه السلام «إنْ هو إلّا عبدٌ» من عباد الله أنعم عليه ربُّه بنعمة النبوة الكريمة، وجعله آية بيّنة ـ على قدرته تعالى ـ لبني إسرائيل، ولغيرهم من العالمين، وذلك بولادته من أمٍ دون أب، ﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، أي وجعله الله

شاهداً حيّاً يُضرب به المثل، للتدليل على قدرته تعالى في خلقه، وأنه سبحانه هو الخلّاق العليم، يخلق ما يشاء، وهو على كل شيء قدير.. بل وجعله الله تعالى آيةً فريدةً في خلقه لبني إسرائيل، فلا يخالطهم أيُّ شك في قدرة الله تعالى، ولا يلتبس عليهم أي أمرٍ في نبوّة عيسى عليه السلام لأنّه تعالى أعلم بما في نفوس تلك الفئة من الناس، ولذلك فإنَّ الحجة على بني إسرائيل لم تكن في ولادته الفريدة وحسب، بل وفي نطقه وهو ما يزال طفلاً في المهد، إذ لمَّا أتتْ به أمُّهُ تحمله، قام أحبار بني إسرائيل يصبّون عليها جام غضبهم، ويتهمونها بما ليس هي فيه؛ ولم تحاول الطاهرة التي اصطفاها ربُّها على نساء العالمين، أنْ تدفع عنها اتهامهم الباطل، بل أشارت إلى طفلها كي يكلموه، وكانت الآية الربّانية عندما نطق عيسى عليه السلام أمام الملأ من بني إسرائيل، مؤكداً عبوديته لله تعالى، وبعثه نبيّاً مباركاً، إذ قال لهم، وهو ما يزال طفلاً لم يبلغ أياماً من عمره، ما يبيّنه قول الله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا۝وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا۝وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾(١).. فتبارك الله الخالق العظيم، وتبارك القرآن الكريم الذي يبيّن لنا كيف جعل الله تعالى عيسى ابن مريم آيةً لبني إسرائيل، بل وآيةً ورحمةً للناس أجمعين، فيكون لديهم المثلُ الحيُّ، والدليل القاطع على قدرة الله تعالى، وعلى مشيئته المطلقة في خلقه، فيُقبلون على عبادة ربّهم حق العبادة، وعلى طاعته في الامتثال لأوامره ونواهيه.. ولكنَّ ذلك لم ينفع بشيءٍ مع بني إسرائيل، بل ظلَّ كثير منهم ينكرون

---

(١) سورة مريم، الآيات: ٣٠ ـ ٣٢.

نبوَّة عيسى ابن مريم عليه السلام كما ثبت عبر تاريخهم في تكذيب أنبياء الله ورسله!.. وكذلك لم تنفع آيات القرآن المشركين والكافرين، الذين كانوا أشدَّ الناس لجاجاً في الخصومة بالباطل، شأنهم في الجدال والخصومة، لنصرة الباطل على الحق، شأن إنسان هذا اليوم الذي يحاول أنْ يفسّر أكثر أمور الحياة وفقاً لنوازعه وأهوائه ومصالحه، بعيداً عن الحق. بل هو يعتمد في أكثر الأحيان على ما يسميه «المنطق الجدليّ» المؤيد منه بحجج وبراهين يستنبطها ويبتدعها لتحقيق المآرب الشخصية، أو المنافع الذاتية، ولو كان فيها تعدٍّ على حقوق الآخرين ومصالحهم!.. وشأن الفرد في ذلك شأن الدول التي تسعى لتأمين مصالحها بصرف النظر عن الوسائل، والأساليب، والطرق والاستراتيجيات التي تستعملها لذلك؛ إذ «إنَّ الغاية عندها تبرر الوسيلة»، حتى ولو أدت بها الأمور إلى إلحاق الضرر بالآخرين، وهدر حقوقهم، وقتلهم، كما يحصل في أحيان كثيرة، عندما تعمد الدول الظالمة إلى تنفيذ مخططاتها، وتحقيق مطامعها ومآربها!..
ومثاله في الأمس ما حصل في إقليم «كوسوفو» على يد الصرب الذين خططوا لاقتلاع المسلمين من تلك المنطقة، فشنوا عليهم أقذر الحروب التي يمكن أنْ يشنّها الكافرون على المؤمنين، حيث كان من «مآثرها» ـ غير المشرفة ـ، والتي تصمُ أصحابها بالعار على أبد الزمان، التعدّي على كرامات المسلمين وحرماتهم، وتدمير ممتلكاتهم، وتهجيرهم من قراهم ومدنهم!. وأسوأ من ذلك كله ـ على بشاعته ـ المجازر الجماعية التي أنزلها الصرب بالمسلمين من جراء العنصرية العرقية، والتعصب الديني، والحقد الدفين، وغير ذلك من الخبائث التي ملأت نفوس الصرب، وجعلتها خاوية من أية ميزة أخلاقية، أو

نزعة إنسانية. . فهل أشدُّ إيلاماً على المسلمين، وعلى كل أصحاب الضمائر الحرَّة في العالم من تلك الجرائم التي ارتكبها أولئك الصرب حوالي نهاية القرن العشرين، إلَّا ما استجدَّ في مطلع القرن الحادي والعشرين، والمثال ما يزال حيّاً، من الجرائم الإنسانية المتمادية التي يرتكبها الأميركيون ـ وقوات التحالف معهم ـ منذ احتلال العراق في آذار (مارس) عام ٢٠٠٣م، حتى قارب عدد الضحايا من العراقيين الذين سقطوا منذ بداية الغزو وحتى اليوم(١) ما يزيد على المليون إنسان من الأطفال والشيوخ والنساء، والشبان! وذلك إضافة إلى محاولات طمس معالم الحضارة في تاريخ العراق، ناهيك عن إثارة الفتن الطائفية والمذهبية وغيرها من المخططات الإجرامية التي يمارسها المحتلون الاميركيون وحلفاؤهم، بما يجعل صورتهم في العالم أشدَّ عتوّاً وظلماً وبشاعة من سورة البرابرة عندما احتلوا العراق في القديم. .

أما أقرب المثال على كيد الكافرين أو عداوتهم للإسلام وأهله، بعد غزو العراق واحتلاله، فيتبَّدى في العدوان الصهيوني (الإسرائيلي) على لبنان في تموز (يوليو) عام ٢٠٠٦م؛ ويكفي للتدليل على الجرائم الإنسانية التي ارتكبتها الدولة العبرية بحق اللبنانيين، أنَّها ألقت على الأبرياء من قنابل طائراتها ما يفوق قوة القنبلة الذرية التي ألقتها الولايات المتحدة الأميركية فوق هيروشيما، وفوق ناكازاكي، وأنَّها غطَّت أراضي جنوب لبنان بما يزيد على مليون قنبلة عنقودية، وذلك إمعاناً في الإجرام، وقتل الناس بصورة مستمرة، ولمدة طويلة، طالما بقيت تلك القنابل موزعة على الحقول والبساتين، التي تشكل مصدر عيشٍ لأهالي تلك المنطقة! ولعلَّ في غزو العراق واحتلاله، وفي

(١) أي تاريخ صدور هذا الكتاب.

الحرب الهمجية على لبنان وفي الجريمة المتمادية على الشعب الفلسطيني منذ عام ١٩٤٨م.. ما «يبشر» بما سيكون عليه العالم في القرن الحادي والعشرين!! لأنَّ مثل هذه الحروب التي يشنّها الكافرون على بلاد المسلمين ليست إلّا صورةً واضحةً، بل وتعبيراً مثالياً للخصومة التي يكنّونها للإسلام والمسلمين؛ ولكنها، في الحقيقة؛ تعتبر رسماً بيانيّاً دقيقاً لكل من كان خصيماً لدين الله، وعدواً لأتباع هذا الدين، كما نفهم ذلك من قول الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[1]، فالإنسان، وعلى الرغم من أنه مخلوق من نطفةٍ مهينة، من منيٍّ إذا يُمنى، وعلى الرغم من أنَّ يدَ خالقه اللطيف الخبير تنقله من طورٍ إلى طورٍ حتى يصير بشراً سويّاً، فإنه ينسى خلقه من تلك النطفة الواهنة، وينسى فضل ربّه تعالى عليه، وينسى هذه الصورة التي أوجده عليها في أحسن تقويم.. ينسى ذلك كله، أو أنه يتناساه، وبدل أنْ يشكر ربّه ويحمده، ويثني على نعمته، إذا به يخاصمه، ووسيلة خصامه مثل هذا الجدل الباطل في شؤون الدين (كراهية بالإسلام) وفي شؤون الدنيا (توهيناً للمسلمين).. والعلة أنَّ الجدل مستقر بالطبيعة البشرية لخصماء الحق، والتي تجنح بهم حتى تجعلهم أخصاماً مبينين الله رب العالمين..

أما قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾[2]، فدليل آخر على أنه جلت عظمته لو شاء لبدَّل أهل الأرض بملائكةٍ يطيعونه، ولا يعصونه في أمر.. وهذا يعني أنَّ الملائكة عليهم السلام مخلوقون جميعاً مثل بني آدم، وأنه سبحانه قادر على

(١) سورة النحل، الآية: ٤.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٦٠.

كل شيء، قادر على أنْ يبدّل أهل الأرض كلهم بمخلوقات غيرهم، أو أنْ يجعل من الناس أنفسهم ملائكةً في الأرض يخلفون على عمارتها بعد إهلاك أهلها الظالمين. . فإذا كان الله جلَّت قدرته قادر على أنْ يجعل من الناس ملائكة، فهل يكون عجباً أنْ يخلق عيسى عليه السلام على المثال الذي خلقه فيه؟، فهو سبحانه القادر على أنْ يخلق ما يشاء من مخلوقات، وبالكيفية التي يشاء، سواء مثل خلق آدم من ترابٍ، أو مثل خلق عيسى من أمَةِ الطاهرة دون أن يمسسها بشر، وبلا فرق في ذلك بين المخلوق إبداعاً (آدم) أو توالداً (عيسى). . أما الغاية البعيدة في هذا السياق، فهي أنَّ الجنسين الملائكة والناس وهما مخلوقات، لا يصلحان للألوهية، لأنه لا إِلَهَ إلا الله، وهو الخالق الذي لا خالق غيره، ولا معبود سواه.

٣ ـ ضربُ الكافرين بالملائكة مثلاً على اتخاذ الرحمٰن ولداً

يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ * أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ * وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾[1].

فقد جعل الكفار ـ بحكم الظن الذي لا يستند إلى برهان أو دليل ـ لله تعالى أولاداً، حيث قالوا: الملائكة بنات الله!. . ولو كانوا يعقلون ما قالوا ذلك، وما نسبوا لله الولد، لأن نسبة الملائكة إليه عزَّ وجل إنَّما تعني إزالة صفة العبودية عنهم، كما أنَّ تخصيصهم بقرابة

(١) سورة الزخرف، الآيات: ١٥ ـ ١٩.

التوالد للّه، إنَّما يعني إلصاق صفة الألوهية على هؤلاء الأولاد، لأن الولد جزء من الوالد. وهذا ما لا ينطبق على الملائكة، بل وليس له من موجب، لأنهم في الحقيقة عبادٌ لله، مخلوقون مثل سائر مخلوقاته، ولأنه يستحيل في الأصل أنْ يكون المخلوق ولداً لخالقه، أو قريباً له بصلة القرابة التي نعهدها في حياة الجنس البشريّ، والتي تقوم على رابطة التوالد والدمّ!.

وإنَّ ادعاء الإنسان بمثل هذا الظن الباطل، إنما هو الكفر الذي لا شبهة فيه، لأنَّ الله تعالى لم يلد ولم يولد، وقد نزَّه نفسه عن ذلك كله بقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[1].. فعندما يجعل الإنسانُ لله مالك السماوات والأرض من عباده ولداً، فذلك هو إذاً الكفر البيّن، الواضح، والإنسان الذي يقول ذلك، أو يعتقد ذلك هو كفور، ظاهر الكفر، كما يبيّنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾..

ويستنكر الله جلَّ جلاله على أولئك المشركين من العرب؛ مثل ذلك التصور الأخرق، فيبيّن لهم، بمنطقهم وعرفهم، ما يبطل دعواهم، ويسفّه أحلامهم، وهم يزعمون بأنه اتخذ الملائكة ـ المخلوقين ـ بناتٍ، وأصفاهم، هم، بالبنين.. فأي مكرمة لهم عند ربّهم حتى يخصّهم هم ـ هؤلاء المشركون ـ بالبنين، ويتّخذ مما يخلق البنات؟!. وهل يستقيم ذلك مع العقل، أو يألفه الشعور؟ إنَّ قولهم ليس إلَّا ضرباً من الجهل، الذي أعمى بصائرهم، وشلَّ مداركهم، فلم يعودوا قادرين على التمييز بين الخالق وعباده، وبين الوالد وما ولد،

---

(١) سورة الإخلاص، الآيات: ١ ـ ٤.

فوقعوا في الكفر الظاهر، وهو أعتى أنواع الظلم الذي يوقع الإنسان فيه نفسه.. بل وإنَّ منطق أولئك الكفار والمشركين من عرب الجاهلية ـ وممن يتوهمون أنَّ الخالق اتخذ من عباده ولداً له ـ هو الذي يكذِّبهم، ويبطل كل قول لهم من هذا القبيل، لأنهم، هم أنفسهم، عبادٌ لله تعالى سواء أقروا بذلك أم أنكروه. ومن أدب العبادة ألّا ينسب العباد لخالقهم ما لا يليق بجلال قدسه وعظمته، فكيف إذا كان هؤلاء العباد يستاؤون من شيء، ويكرهونه، ثم ينسبونه إلى ربّهم، الذي يملك التصرّف بحياتهم، وأولادهم، وبكل شيءٍ في الوجود؟!..

وأبعد أثراً من ذلك، أنَّ السماوات والأرض تكاد أنْ تتصدّع من اعتقاد جماعات من أهل الأرض عندما تدّعي أنَّ للرحمان ولداً!.. بل والحقُّ سبحانه وتعالى ينكر عليهم إنكاراً عظيماً أن يقولوا ذلك، بقوله الحق المبين: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾[1].. أجل، كل من في السماوات والأرض، سوف يأتي ربَّهُ، يوم القيامة، عبداً ذليلاً، لا يبتغي إلّا رأفته ورحمته به، أفلا يعقلون مدى فداحة جريمتهم: ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾؟!

وتلك هي حال كثير من عرب الجاهلية، الذين كانوا ينسبون إلى الله تعالى اتخاذ البنات، بينما هم يأنفون من أن تولد لهم بناتٌ، بدليل أنه: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾[2].. فمن حيث مقتضى الحكمة الإلّهية، فالأنثى من هؤلاء

---

(1) سورة مريم، الآيات: ٨٨ ـ ٩٣.

(2) سورة الزخرف، الآية: ١٧.

البشر الذين صورهم الله أحسن تصوير، وهي الأمُّ، والابنة، والأخت، والزوجة.. وهي بخلقها، ووضعها الاجتماعي، يجب أنْ تكون بشرى جميلة عندما تولد، كما يصفها خالقها بذلك ﴿وَإِذَا بُشِّرَ﴾ ـ الآية ـ والبشرى هي مما ينبيء عادة عن الخير.. أي الخيرُ بولادة الأنثى، ومع ذلك فالجاهلي الغبيّ، الذي لم يكن يقدّر نعمة هذا الخلق، كان يسوؤه كثيراً أن تولد له إبنةٌ، فإذا بشّر بها اسودَّ وجهه واكفهرَّ تعبيراً عما يجيش في قلبه من الكمد، والغيظ، لمجرد خبرها، فلا يجد ملجأً له من الخزي الذي يتوهمه، إلّا الفرار من القوم، والانفراد في عزلةٍ، لوحده، وهو كظيم مكروب، لا حيلة له ولا طول على ما بُشِّر به، إلّا أنْ يندب حظه وتعاسته!.. ثم تتضاعف عليه آلامُهُ وأحزانه، وهو يفكر: أيدسها في التراب، ويئدها طفلةً ما اقترفت ذنباً، أم يبقيها حيَّة، وفي حياتها كثير من القلق على مصيرها، وعلى مصير العشيرة التي ينتمي إليها؟!..

فأيُّ تفكير أخرق كان عند أولئك المشركين بأنْ ينسبوا لله تعالى «ممَّا يخلقُ بناتٍ»، ويكرهونهنَّ لأنفسهم؟! أو أيُّ شعورٍ بليدٍ كان يطغى عليهم، بأنْ يجعلوا لله البنات، وهنَّ من يُنَشَّأْنَ، عادة، بالحلى، والزينة والدعة نظراً لطبيعة خلقهنَّ الأنثوي من الرقة، وعدم احتمال الشدة كالرجال؟! ولعلَّ هذا الضعف في البنية الجسدية، ما كان يجعل المشركين ينظرون إلى النساء على أنهنَّ ضعاف العقول، فلا يملكن الحجج والبيّنات التي يملكها الرجال إذا احتدم خصام، أو نقاش!.. ولذلك لم يكونوا يدعونَهُنَّ للمشاركة في مجالسهم، ونواديهم، لأنهنَّ يجب أن يبقين بعيداً عن اتخاذ المقررات، والأمور التي يعزم عليها القوم!..

أما أكبر الهموم تجاههنَّ فكان اعتبارهنَّ مجلبَةً للعار والشَّنار، إذا غزتهم قبائل أخرى، لأنه لا قدرة لهنَّ على حماية، ولا حيلة في دفاعٍ أو ذود عن الحياض، بل ربما يتعرَّضْنَ للسبي والعبودية، مما يحطّ من شرف القبيلة كلها، ويخزيها في أعين العرب جميعاً..

وعلى الرغم من تلك النظرة إلى النساء، بمختلف سلبياتها، كانوا يتوهَّمون بأنَّ الله تعالى خلق الملائكة إناثاً، واتخذهنَّ بناتٍ!... فهل بعد أشدُّ رعونةً من تلك الجاهلية الحمقاء البلهاء التي كانت تحمل المشركين على مثل ذلك الظنَّ بالله العلي العظيم؟!..

ولئن كانت الجاهلية قد أغرقت المشركين في ظلمات عاداتٍ ذميمةٍ كانت تصل إلى حدّ الإجرام، ومثالها الصارخ وأد البنات، فإنَّ تلك الجاهلية هي نفسها التي جعلت تصورهم عن الملائكة بأنهم أناث، وطبعاً، من غير أنْ يكون لديهم أية بيّنة على ذلك !...

وهنا يسأل القرآن الكريم (لإزالة تلك الشبهة لدى المشركين، بل ولدى كل من يكون لديه نفس التصوّر عن الملائكة): وكيف يعرفون أنَّ الملائكة بناتٍ؟ أشهدوا خلقهم؟ أم هل رأوا الملائكة أو عاينوا خلقهم حتى علموا جنسهم من الإناث؟

ولا بدَّ هنا من الإشارة إلى إحدى البديهيات، وهي أنَّ الادّعاء بصحة الشيء ـ إنْ لم يكن من الحقائق الثابتة ـ يفترض أنْ يكون مصحوباً بالدليل الذي يثبته، ويبيّن ماهيته.. وهم، عرب الجاهلية، لم يكن لديهم أي دليلٍ أو برهانٍ على جنس الملائكة، لأنهم ـ بكل بساطة ـ لم يشهدوا خلقهم في السماوات، ولم يعيشوا معهم على الأرض؛ ثم إنَّ ما يمكن أنْ نستوحيه من الآيات القرآنية، التي تأتي على ذكر الملائكة، أنهم كائناتٌ حية، ذواتُ أجسام لطيفة، يعجز

البشر عن رؤيتهم، إلّا إذا تحوّلوا عن هيئتهم الملائكية إلى هيئة بشر، كما هو الحال بالنسبة إلى جبرائيل الأمين، عندما تمثَّل للسيدة مريم العذراء بشراً سويّاً، أو عندما كان يتمثل للنبي محمد ﷺ بشراً سوياً، في بعض الأحيان، ناقلاً الوحي إليه من ربّه تعالى - مثلما كان ينقل الوحيَ إلى سائر النبيين والمرسلين لأنه أمين الوحي - ثم لا يلبث بعد أن يؤدي مهمته أن يعود إلى جنسه الملائكي لكي يستطيع العروج إلى السماوات؛ فإذا كان شأن الملائكة كذلك، فإنَّ قول المشركين عنهم بأنهم أناث، وبأنهم بنات الله، لا يعدو ذلك القول من أنْ يكون مجرد زعم باطل، وزورٍ فاضح لحقيقة خلقهم، فكان عليهم احتمال تبعة مقولتهم التي تشهد على كذبهم وافترائهم على الله تعالى، وستكتب شهادتهم عليهم، وتدون في صفحات كتابهم، لأنهم سوف يسألون عنها يوم الحساب، يوم يكون كلُّ شيء حاضراً بين يدي الله عزَّ وجلَّ!. فالمشركون قد شهدوا باطلاً، وشهادتهم سوف تحفظ لحين حسابهم، فيُواجهون بها، وسوف يترتب عليها العقاب - حكماً - والعقاب يكون بقدر الوزر أو الجرم الناجم عن المسؤولية.. بل ولقد ذهب المشركون إلى أبعد من ذلك، فقد افتروا على الله تعالى بأنه هو الذي لم يمنعهم عن عبادة الملائكة، ولو شاء سبحانه ما عبدوهم، فيلاحقهم آيُ الذكر الحكيم على هذه الفرية العظيمة، وعلى ما صاغوه حولها، بإبطال ما قالوا، وتكذيب ما ظنوا، وذلك بقول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[1].. ويبدو أن تفكير الكفار والمشركين من عرب الجاهلية قد انعقد على سلسلة من المغالطات:

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٢٠

فقالوا: إنَّ الملائكة إناث..

وقالوا: إنَّ الملائكة بنات الله..

﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾..

وهكذا رتَّبوا المسؤولية في عبادتهم للملائكة على الله جلَّ وعلا، وذلك بزعمهم أنهم ما عبدوا الملائكة إلا برضى الله، ولو شاء الرحمٰن ما عبدوهم!.. وتلك المقولة إنما هي بدعةٌ من عند أنفسهم، فليس لهم علمٌ بأنَّ الله قد ارتضى لهم عبادة الملائكة، ولا يملكون دليلاً أو برهاناً على أنَّه لو شاء الرحمٰن ما عبدوهم، فإنْ هي إلَّا مزاعم كاذبة، وتصورات خاطئة يريدون بها إحالة الباطل من عندهم على الله جلَّ شأنه!.. وهنا الخطأ الفادح الذي أوقعوا أنفسهم به: فإذا كانوا يعتقدون بأنَّ عبادتهم متعلقة بما يشاء الله، ويرتضي لعباده، وأنه لو شاءَ ما عبدوا الملائكة، فلماذا لم يصدقوا، إذاً، رسول الله ﷺ الذي كان يدعوهم لعبادة الله وحده ـ وهذا أليقُ وأسمى بالعبادة ـ بل كانوا يصرُّون على الشرك، ويتخذون من دون الله أنداداً له ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[1]؛ فالقضية ليست في إحالة عبادتهم على مشيئة الله عزَّ وجلَّ، بل لأنهم لم يؤمنوا بوحدانية الله، وبأنه لا شريك له، فكان أن طغت عليهم الوثنية، فأشركوا، وعبدوا آلهةً مزعومة، إنْ هي إلَّا أسماء سمّوها ما أنزل الله بها من دليل ولا برهان، ثم أحالوا عبادتهم الباطلة تلك على الله جلَّ شأنه..

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٣.

بل وكانوا يزعمون أنه لو شاء الله ما عبدوا من دونه من شيء، لا هم، ولا آباؤهم، ولا حرَّموا من دونه من شيء، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾(١)، فقد كانوا يحرّمون السائبة، والبحيرة، والحام وغيرها من الأنعام والحرث، ويجعلون فيها نصيباً لله، ونصيباً لآلهتهم، ثم يقولون: لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء، ولا حرَّمنا من دونه من شيء، نحن ولا آباؤها، فإشراكنا وتحريمنا هو بمشيئة الله!.. ولكنَّ الحقَّ تبارك وتعالى يكذبُ أباطيلهم تلك، لأنَّ ما يقولون ويفعلون إنْ هو إلَّا تقليد توارثوه، فلّما جاءهم رسولٌ من أنفسهم يدعو إلى ترك تلك العبادات الموروثة كذَّبوه، كما كذّب الذين من قبلهم رسلهم، وهو ما يبيّنه قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾(٢)... فإحالة شركهم وتحريمهم، هم وآباؤهم، إلى مشيئة الله تعالى، إنْ هو إلَّا افتراء كاذب، إذ كما كذَّب هؤلاء المشركون من أهل مكة، كذلك كذَّب الذين من قبلهم حتى أتاهم عذاب الله فذاقوا بأسه الشديد.. وهنا يأتي خطاب الله تعالى للنبي ﷺ بما مؤداه قل لهم يا «محمد» هل عندكم من علم بأنَّ الله عزَّ وعلا يرضى لكم الشرك، ويرضى أنْ تحرّموا من أنفسكّم ما أحلَّ الله لكم ولعباده من الأنعام والحرث؟ فإنْ كان عندكم شيءٌ من علمٍ بذلك

(١) سورة النحل، الآية: ٣٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤٨.

فأخرجوه لنا بالبيّنة والدليل!.. والحقُّ أنْ لا علم عندكم بشيء مما تدَّعون، إنْ تتبَّعون فيه إلّا الظن و﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[1]؛ وإنْ أنتم إلّا تكذبون في هذا الظنّ الآثم..

ذلك ما كان المشركون يظنون.. وذلك منتهى الكفر والضلال، ومنتهى البهتان، وتزوير الحق، كما يتجلّى في تكذيب ربّ العالمين لهم بقوله العزيز: ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾.. فالحقّ أنهم كانوا لا يوقنون بعبادة الله الواحد الأحد، لا شريك له.. ولا يمكن أنْ يحصل لهم مثل هذا اليقين، ما داموا يشركون في عبادة الله ـ والعياذ بالله ـ الملائكة، أو الأوثان والأصنام، أو غيرها من التصورات الموهومة.. فكل ما يدَّعون من الإحالة إلى «ما شاء الله» أو «لم يشأ» مالهم به من علمٍ، إنْ هو إلّا كذبٌ من عندهم، وباطل مبنيّ على الكفر..

٤ ـ جدال المشركين حول صفات محمد ﷺ بما ضربوا له الأمثال

يقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۞ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۞ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾[2].

وهذا نوعٌ جديد من جدل التفكير، الذي يغلب عليه الشك الحائر!.. فالذين لم يؤمنوا بأنَّ سيدنا محمداً ﷺ هو رسول الله وخاتم النبيين، يغلب عليهم الظنُّ ـ أكثر من الاعتقاد ـ أنه لو كان محمدٌ رسولاً، لكان ربُّه أمدَّه بالمعجزات التي تصدّق بعثه برسالة

---

(١) سورة يونس، الآية: ٣٦.

(٢) سورة الفرقان، الآيات: ٧ ـ ٩.

الإسلام؛ أما وأنّه يعيش حياته فيأكل مثل غيره، ويروح ويجيء في الأسواق، فهو ليس برسول!.. فتلك كانت ظنون المشركين، وما كانوا يجادلون به ليدحضوا - بزعمهم - نبوَّته.. إذ كانوا يقولون:

ما لهذا الرسول يأكل الطعام كما يأكل الناس، ويمشي في الأسواق طلباً للمعاش مثل أي بشر آخر؟ أي أنهم كانوا يتوهمون بأنَّ الرسول يجب ألّا يكون بشراً مثلهم.. ثم يعقّبون على ذلك بقولهم: لو كان حقاً مبعوثاً من الله، فلماذا لا يُنزَلُ إليه ملكٌ من ملائكة السماء، فيكون معه نذيراً لما يتوعدهم به من عاقبة الكفر والشرك؟!

ذلك مبلغهم من العلم.. وقد غاب عنهم بأنَّ العزيز الحكيم قد قضى بأن يبعث الرسل من الناس أنفسهم، لأنهم يحسون بأحاسيسهم، ويستشعرون أشواقهم، ويقدّرون بواعثهم، ومن ثَمَّ فهم يعطفون على ضعفهم ونقصهم... وبمثل هذه الصفات يجد الناس في الرسول المبعوث إليهم إنساناً مثلهم، يعيش معهم وفيهم، ويقوم كما يقومون هم بالأعمال والتكاليف، لا تميّزه عنهم إلّا سماتُ النبوّة التي تعصمه عن الخطأ، وتجعل شخصيته ترجمة حيّة للعقيدة التي يحمل ويبلّغ، بحيث تكون حياته، في أقواله وأعماله، وفي حركته وسكنه، صفحةً مكشوفة أمام أسماعهم وأبصارهم تعرض تجاربهم، وتعالج مشاكلهم، وترسم آمالهم. وهكذا تكون نفوسهم أقرب إليه، لأنه مثلهم، بدلاً من أن يكون مَلَكاً له طبيعة غير طبيعتهم، وله طريقة في الحياة غير طريقتهم في كل شيء، فلا يأكل ولا يمشي مثلهم، ولا يعمل ولا يتصرف مثل أعمالهم وتصرفاتهم، وبالتالي فهم لا يتأثرون به نفس التأثر برسولٍ منهم.. وما حياة الرسول الأعظم إلّا المثال الأكبر على هذه الحقيقة التي يتضمَّنها قولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ

رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(١) وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾(٢).

نعم، تلك هي حكمة الله من بعث الرسل من الناس أنفسهم.. ولكنَّ المشركين والكفار لم يدركوا هذه الحكمة السنيّة، ولم يقدّروا قيمة الرسول المبعوث منهم وإليهم، ليسموَ بهم رويداً رويداً، ويسير بهم خطوةً خطوة نحو الأمثل والأحسن. ولذلك قالوا عن خاتم النبيين ﷺ عنه: إنه ساحر، وإنَّ من اتّبعه إنما يتبع رجلاً مسحوراً، مخدوعاً، مغلوباً على عقله بالجنون...

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ فاتهموك أيها النبيُّ الكريمُ على ربك، بأنك شاعر، وكاهن، ومجنون.. وتأمّلْ كيف استهجنوا أن تكون حياتك العادية مثل حياتهم، فقالوا: لماذا لا يكون معك مثلاً ملكٌ يؤيدك، ليصدق الناس ما تبلّغ وتنذر.. أو لماذا لا يغنيك ربُّك عن طلب المعاش، فينزل عليك مثلاً كنزاً من السماء، أو يجعلك في رغدٍ من العيش فيكون لك مثلاً بستان تأكل من ثماره وأرزاقه.. ولكنْ، أليست تلك الأمثال التي ضربوها لك مجرد تخرّصات ضلّوا بها عن الهدى، فلا يستطيعون إليه سبيلاً، ولا يملكون لإبطال أمرك شيئاً؟ انظر كيف أطلقوا العنان لتخيّلاتهم، بتلك الأمثال المستغربة، فما أدركوا الحقَّ الذي أُنزل إليك من ربّك!. وانظر كيف شدَّتهم تلك التخيلات حتى ضلّوا عن سواء السبيل، فحق عليهم قول الله تعالى:

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[1] . . فالذين يجادلون في آيات الله بغير علم، أو برهانٍ جاءهم، إن هم إلّا على ضلالٍ وبهتانٍ. . كبر جدالهم مقتاً وكراهيةً عند الله تعالى، وعند المؤمنين. . ومثل ضلالهم في ذلك الجدال يطبع الله تعالى بالضلال على قلب كل من يستكبر عن سماع الحق، ويظنّ في نفسه الجبروت والقوة، وهو من أضعف المخلوقات عند الله، إذ لو شاءَ العليُّ القدير لابتلاه بالمرض الذي يقعده، فهل يبقى له ما يستكبر، ويتجبّر به على الناس؟! ولو شاء الله لأنزله من سلطانه ومجده ـ الذي يدَّعيه ـ ثم جعله محكوماً بعد أنْ كان حاكماً، وخادماً بعد أن كان سيداً، وفقيراً بعد أنْ غنيّاً . . والله تعالى قادرٌ على أن يفعل ما يشاء، فيعزّ من يشاء، ويذلُّ من يشاء، بحيث لا يبقى أمام الإنسان إلّا أنْ يتَّقي مقت ربّه تعالى، ومقت الذين آمنوا، فلا يكون متكبراً جباراً؟!

٥ ـ جدال إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه حول عبادتهم التماثيل

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[2].

---

(١) سورة غافر، الآية: ٣٥.

(٢) سورة الأنبياء، الآيات: ٥١ ـ ٥٦.

من يقف على سيرة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام من خلال الاطلاع على آيـات القرآن الكريم، يتبين له بوضوح، أنَّ الله تعالى قد آتاه الرشد والهدى منذ سن مبكرة، أي من قبل أن يبلغ الطور الذي يصبح فيه الإنسـان ـ عادةً ـ قادراً على الإدراك والتمييز بصورة كاملة؛ وهذا يعني أنَّ الخالق الكريم قد أودع في نفسه من الملكات ما جعله يدرك حقيقة وجود الله تعالى، من خلال مشاهداته ومراقباته للمخلوقات في السماوات والأرض.. وذلك الإدراك المبكر ما كان إلّا نتيجة حتمية للفطرة الإنسـانية التي جُبِلَ عليها، واسـتجابةً لما كانت نفسُهُ تمتلىء به من استعدادات الرشد والهدى.. وكل ذلك، ممَّا قدَّر له الله تعالى في علمه السـابق، لكي يكون صادق الإيمان، فلا يدخل في قلبه شيءٌ من العقائد الفاسدة، بل تكون عقيدة التوحيـد وحدها التي يتغلغل نورها في نفسه، وينعكس ذلك النور على مختلف جوارحه؛ بما يؤهّله لأنْ يكون نبيّاً من الصالحين، ورسولاً من ربّ العالمين، مسلماً حنيفاً لا يميل عن الحق، وعن عبادة ربّه وطاعته.. وبذلك الرشد المبكر الذي وهبه له خالقـه الكريم، امتلك الحجج والبراهين التي تؤيـد دعوتَهُ إلى الحنيفية السمحاء، فجاء قومَهُ يبيّن لهم الرشـدَ الذي أُوتيه، ويدعوهم للإيمان بالله تعالى، من دون تلك التماثيل التي يعبدونها!.. إلّا أنَّ قومه أبوا تصديقه، بل وانبروا يحاجّونه في جدالٍ يظهر سخف التقليد الجـاهل الذي دأبوا عليه مثـل آبائهم وأجـدادهم.. قال إبراهيم لأبيه وقومه: ما هذه التماثيل من الأصنام والأوثان التي تعكفون على عبادتها؟!

قالوا: وجدنا آباءَنا لها عابدين، فسرنا على آثارهم، وكنا عليها

عاكفين، لا نحيد عن عبادتها.. (وتلك كانت حجتهم، بلا أي برهانٍ أو دليلٍ عقلي، سوى أنهم اتخذوها آلهةً من دون الله، بلا أدنى تفكير، أو تمحيص، أو تدبّر لما كان عليه آباؤهم من صدق تلك العبادة الوثنية).

قال إبراهيم: لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلالٍ مبين في العبادة، وفي تيهٍ واضحٍ عن الحق؛ فكيف تجعلون هذه التماثيل معبوداتٍ، وتخلعون عليها صفة القداسة، وهي جمادات واهية من صنع أيديكم وتتاجرون بها لمعاشكم؟! ألا ترون أنها قابلة للتحطيم والرمي، بحيث تصبح مثل سائر الأشياء التي لا نفع فيها؟!..

وما كان إنكار إبراهيم عليه السلام على قومه تلك العبادة، إلّا لأنّ العقيدة الدينية الحق، إنّما تنبع من القيم والمثل العليا، وليس من تقليد الآباء والأجداد؛ كما أنّ العبادة الحق إنما تقوم على البراهين العقلية، والحجج الدالّة، وعلى انعقاد القلب والوجدان على التصديق بالحق، حتى يأتي التقدير طليقاً، متحرراً من أية خلفيّةٍ مبنيَّةٍ على التقليد الأعمى، والتفكير الخاطىء.. وعندما واجَهَ إبراهيم عليه السلام قومه بالحقائق الملموسة التي تنقض معتقداتهم، لم يجدوا إلّا الإنكار والرفض لما يدعوهم إليه، فقالوا: ﴿أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾؟

وهذا سؤال من ليست لهم عقيدة مستقرة في نفوسهم، فكأنما الفكر والإرادة قد عطَّلهما لديهم تأثير الوهم الذي سيطر عليهم، والتقليد الذي اتَّبعوه، فلا يميزون: أيُّ الأقوال حقاً، وأيُّها هزلاً. وهذا هو الضلال الذي يتخبط فيه من لا يدينون بعقيدة التوحيد الناصعة الواضحة، التي يستقيم معها العقل والضمير، لاستقامتها في

النفس.. فكان خواء نفوس قوم إبراهيم من عقيدة التوحيد، ما أوقعهم في تلك المغالطة، فلا يدرون أجاءهم بالحق من ربّه، أم أنه من اللاعبين، الذين يعبثون بعقول الناس وأفئدتهم، فيدعونهم إلى ما لا يؤمنون، هم، به على أنه حقٌّ!.. وأين إبراهيم عليه السلام من ذلك اللعب والعبث، فقد كان مؤمناً صادقاً، واثقاً من ربّه تعالى، مستيقناً من دعوته، ولذلك نجده بعد أن يجبَهَ عبادتهم الباطلة لأربابٍ متفرقةٍ من التماثيل، يعود ليبيّن لهم من هو ربُّهم الحقُّ: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[1].

لا أيها العباد، ليس ربُّكم بشراً مثلكم، ولا تماثيل وأصنام تقيمونها في المعابد، ولا مالاً تلهثون وراءه، ولا أهواءَ تمتطونها!. بل ربُّكم ربُّ السماوات والأرض الذي خلقهنَّ إبداعاً من غير مثال، وجعل قوامهن السنن والنظم التي تحكمهنَّ، بما فيهنَّ، وما بينهنَّ.. هذا هو ربّكم الحقُّ، وما بعد الحق إلّا الضلال!..

ولكونه، سلام الله عليه، مطمئناً إلى قوله، مؤيداً بالبرهان القاطع الذي يقدمه لقومه، أكد لهم أنه من الشاهدين على هذا الخلق العظيم، وقد عرفه بفضل ما أتاه الله ربُّهُ من الرشد، وبما هداه إلى الحق حتى بلغ مرتبه الشاهدين على كثير من حقائق ملكوت السماوات والأرض التي أراه إيَّاها خالقُهُ الكريم بالبصيرة النافذة، والقلب المدرك، اللذين وهبهما له، فاستدلَّ بتلك الحقائق على وحدانية الله تعالى وربوبيته المطلقة..

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٥٦.

الفقرة الثالثة ـ الذين يتّبعون الأهواء

١ ـ تعطيل الجن والإنس لحواسهم ومداركهم يجعلهم كالأنعام بل هُمْ أضلُّ، أولئك هُمُ الغافلون.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(١).

يبيّن الذكر الحكيم أنَّ الله تعالى قد خلق لجهنَّمَ كثيراً من الجن والإنس، لأنه في مكنون علمه منذ الأزل، وبما قضى به، وكتب في اللوح المحفوظ، أنَّ أولئك المخلوقين لجهنَّم، قد غلب عليهم الكفر والشرك، فطبع على قلوبهم بالجهل، والضلال والغفلة التي غلبت على فطرتهم، فانقادوا في متاهات كفرهم وضلالهم حتى عطّلوا ملكاتهم التي كان يمكن أنْ يدركوا بها الإيمان والهدى، فكانوا من الغافلين عن حقيقة خلقهم، وعن سلوك السبل التي فيها خيرهم وصلاحهم.. ذلك أنَّ الله تعالى، وهو الذي خلقَ الجنَّ والإنس، قد جعل لهم قلوباً تميّز وتدرك، وعيوناً ترى وتبصر، وآذاناً تسمع وتعي، ولكنَّ كثيراً منهم ـ ويا للأسف ـ أفسدوا طبيعة تلك الحواس والجوارح، وما أودع فيها الخالقُ من الخصائص المميزة، ومن استعدادات الخير، بما يجعلها مهيَّأة للانتفاع بها، سواء فيما يتعلق بحياتهم، أوحياة بني جنسهم.. وكان إفسادهم لطبائعهم، بسبب أنهم قد أغلقوا على قلوبهم بأغلاف الجهل والضلال، فلا يدركون الحق، ولا يقبلون الهدى، وطمسوا على أعينهم بعمى البصيرة، فلا يبصرون

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

ما في السماوات والأرض من عظيم الخلق، الذي يدل على قدرة الله تعالى، وضربوا على آذانهم بأغشية التكذيب فلا يسمعون بها، سماع تدبّر، دعوات المبشرين والمنذرين من الأنبياء والرسل، وهي دعواتٌ من شأنها أنْ تحثّهم ـ مدى الزمان ـ على اليقظة من الغفلة، وتبعث فيهم روح البحث لمعرفة الله تعالى، والعمل لنيل مرضاته ورحمته. . فكان لا بدَّ أن يجعلهم تعطيل حواسهم ومداركهم، كالأنعام، التي بطبيعتها عجماء غير معدَّة لأن تعقل وتميّز، ما دام أنها ليست على شيء من العقل أو التمييز. . لا بل إنَّ تعطيل هبة العقل، ونعمة الإبصار، وعطاء السماع، التي وهبها الله تعالى للجن والإنس ـ كي يعبدوه فلا يشركوا بعبادته أحداً ـ، إنّما يؤدي إلى صرف كلّ طاقاتهم الحيوية في مجالات الكفر والشرك، وهذا ما يجعلهم كالأنعام، بل أضلٍّ من الأنعام. . إذ هذه الأنعام ـ وبحكم ما ركّز فيها من غرائز ـ تطلب منافعها، وتبتعد عن مضارها، بينما هم أولئك الجنُّ والإنس ـ وبحكم عدم تقديرهم لخلقهم حق التقدير ـ يضيّعون نعمة وجودهم، ويفقدون مكانتهم طواعيةً، أي بإرادتهم، فكانَ محتوماً أنْ يهبطوا إلى مرتبةٍ دون الأنعام، وتلك هي الغفلة ـ ليس عن قيمة خلقهم، وغاية وجودهم وحسب ـ بل وعن المنهاج القويم الذي يربطهم بخالقهم الكريم، فكانوا لجهنم حصباً، وساءت مستقراً. . ذلك أنَّ الجنَّ والإنس ما خلقوا إلّا ليعبدوا الله الواحد الأحد، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]، فإنْ لم تستقم حياة كثيرين منهم على هذه العبادة، التي هي قوام كل شيء في وجودهم، بل وفي السماوات والأرض جميعاً، فإنهم يكونون قد اختاروا طريق الكفر بربّهم تبارك

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

وتعالى، واختاروا السبل التي تقودهم إلى جهنَّم، فحقَّ عليهم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾(١)..

والقرآن الكريم عندما يشبه أولئك الجن والإنس بالأنعام، ويقول إنهم أضلُّ منها، إنما يريد أن ينبّه الجنسين جميعاً إلى ضرورة مراعاة خلقهم، فلا يكونون غافلين عما أودع فيهم الخالق من السمع والأبصار والأفئدة التي عليهم أنْ يوفُّوها حقها، ويستعملوها في طاعة الله، وتصديق النبيين والمرسلين؛ وفي هذا التنبيه فضل منه تعالى ورحمة بعباده، والحسنى لمن وعى واتقى.

٢ ـ اتخاذ الأهواء آلهةً يحيل أصحابها كالأنعام بل هم أضل سبيلاً.

يقول الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾(٢).

لقد بعث الله تعالى رسولَهُ محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق.. فحمل هذا النبيّ الكريم، والرسول الأمين دعوة الإسلام، وهو يتزوَّد من القرآن، ومن إلهام ربّه له، بما يهدي للتي هي أقوم. وعلى الرغم من أنه كان يبلغ ما أنزل الله إليه، بالحكمة والموعظة الحسنة، ويقدِّم للناس البراهين والحجج العقلية، ويسوق لهم الشواهد والأدلة الحسية على صدق دعوته، وأحقيتها وكمالها، فإنَّ شيئاً لم يفلح مع رؤوس الكفر، ودهاقنة(٣) الشرك الذين تصدّوا له، وللمسلمين الأوائل، وراحوا يؤلّبون

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

(٢) سورة الفرقان، الآيتان: ٤٣ و٤٤.

(٣) دهاقنة: الدُّهقا بالكسر وبالضّم: القويّ على التصرّف مع حدّة. وأيضاً: التاجر، وزعيم فلاّحي العجم، ورئيس الإقليم، مُعرَّب.

عليهم العشائر والقبائل، وينالون منهم بالأذى والاستهزاء، ويحاربونهم ـ ولا سيما في مطلع الدعوة ـ بالكيد والمكر. كل ذلك والرسول ﷺ صابر لا يملُّ، ولا يني عن بذل الجهود المضنية من أجل هدايتهم، وانتشالهم من الضلال الذي فيه يعمهون..

وإزاء هذا الواقع المرير، نزل الوحي يخفف عن الرسول ﷺ بعض همومه بالإيناس والتوجيه، ويكشف له حقيقة نفوس أولئك الذين غلبت عليهم الشهوات، والرغبات وحب الدنيا، فجعلوا تلك الأهواء بمثابة آلهةٍ يتعبدونها، دونها تلك الآلهة من الأوثان والأصنام التي توهموا أنها تقربهم ـ بعبادتها ـ إلى الله زلفى.

لقد طغت الجاهلية بكل تصوراتها المشوَّهة، وسيطرت المطامع والميول بكل نوازعها المنحرفة على النفوس الضّالّة، حتى باتَ محتوماً، على من انْقاد لها، أن يكون عبداً مملوكاً لهواه، فلا ينفعه هديٌ، لأنه غير قابل للهدى، ولا تجدي معه موعظة، لأنه غير مستعد لقبول الوعظ... إذاً فهل يكون الرسول عليه وكيلاً، حافظاً له من اتّباع هواه الذي أضلَّهُ؟ أبداً، لأنَّ ما على الرسول إلّا البلاغ المبين، إلّا أنه يبقى ثابتاً ـ وبالوحي الإلهي ـ خواء نفوس أصحاب الأهواء من أية قابلية لسماع، وتدبّر معاني ومقاصد الآيات التي يتلوها عليهم رسول الله ﷺ، ومصاديق البراهين التي تقدمها لهم هذه الآيات الكريمة ولذلك يقول له ربّهُ تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾؟! أبداً، لا تحسب يا محمدُ أن أكثر هؤلاء الكفار والمشركين يسمعون أو يعقلون الحقَّ الذي أنزل إليك من ربك.. إذْ لو سايروا الفطرة، وقبلوا أنْ ينفذ الإِيمانُ، ولو إلى جزء من خواء نفوسهم، لكان من شأن آيات الله التي تتلى عليهم، أن تحيي نفوسهم

الميتة بالكفر، كما يُحيي المطر الذي ينزل من السماء الأرض الميتة، فيخرج منها النماء والنضارة للحياة.. إلّا أنهم ليسوا على شيء من ذلك أبداً، إنْ هم إلّا صمٌّ، عميٌ عن مقومات الشفاء الذي يقدمه القرآن، لما في الصدور من أمراضٍ وعاهاتٍ دفينة، فهم لا يهتدون.. ومثلهم في ذلك كالأنعام التي تسمع نداءً وصراخاً، فلا تميّز تعابيره، ولا تعقل غاياته؛ لا بل هم أضلُّ من الأنعام، فهذه تستجيب لصراخ الراعي الذي يقودها في المراعي، بفعل استعدادها الفطري لطلب الكلأ والماء، بينما الذين اتخذوا من أهوائهم آلهةً، انصاعوا لتلك الأهواء، فلم يعودوا ينتفعون بشيء من خصائصهم البشرية، حتى قادتهم أهواؤهم إلى الهلاك في الآخرة، وذلك هو الخسران المبين..

ولعلَّ جمال هذا المثل القرآني ـ بل وكل الأمثال في القرآن ـ أنه يقدّم لنا منهاجاً لتربيتنا الإنسانية، وهو يرشدنا إلى تلك المعاني التي تسلط الضوء على الذات البشرية، لتقول لنا بأنْ لا شيء أضلُّ من الإنسان عندما يطغى هواه الضالُّ على عقله وقلبه، حتى ليفقده كلَّ قدرة على التمييز السليم، والاختيار الصحيح، وهذا ما يخرجه من طوره البشري ليصير كالبهيمة، أو أضلَّ سبيلاً!..

٣ ـ من يتَّبع من الناس لهو الحديث ليضلَّ عن سبيل الله، ويتولى عن آياته مستكبراً كأنْ لم يسمعها، أولئك لهم عذاب أليم

يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

(١) سورة لقمان، الآيتان: ٦ و٧.

من الأهواء الشائعة في حياة كثير من الناس حبُّهم للحديث اللاهي، حيث يغلّبون السخرية والاستهزاء على الجدّ والرصانة، ويسمون ذلك هزلاً وتفكهة. . وقد يستشري هذا الهوى في نفوس أولئك اللاّهين، حتى تصبح الثرثرة سمةً تميّزهم، وكثرة الحديث ـ ولو تخلَّله كلامٌ بذيء ـ بمثابة عادةٍ لا يستطيعون الإقلاع عنها، فكأنما إذا أعياهم القول، يريدون أن يشتروا لهو الحديث بالمال شراءً، لا بل وتجدهم ـ في الواقع ـ يسعون وراء كتب الفكاهة والتسلية، وجمع أشرطة اللهو والكوميديا ـ بأثمانها ـ حتى يحصلوا على ما يعتبرونه مشوّقات تجذب الناس إلى أحاديثهم، فضلاً عمّا تكسبهم، هم، تلك الوسائل من خبرةٍ زائدة في التندّر، وأسلوب جديد في المزاح! . . ولعلَّ ذلك ما يجرّدهم ـ في الأعراف الاجتماعية ـ من الذوق الرفيع، والخلق الحسن، ويمنع على الناس، الذين ليسوا على شاكلتهم، من الجلوس معهم، أو احترامهم! . .

ومثل هذا اللهو بالحديث، وعلى النحو المشين الذي يمارسونه، هو مضيعة للوقت، وهدر للكرامة، لأنَّ من شأنه أنْ يبعد الإنسان عن ذكر الله تعالى والتأدب بأدب الطاعة والتعبّد، فضلاً عما يجرُّ إليه من إضلال الآخرين عن سبيل الله، وذلك بعلمٍ، أو بغير علم لآثاره السيئة، وعواقبه الوخيمة على الإنسان نفسه، وعلى محيطه من حوله، حيث يصبح الذين يتقبلون هذا الواقع، ولا يحاربونه، في حالةٍ من اللامبالاة، التي لا يعنيها الغثُّ من السمين! . .

وإذا كانت الآداب في المجتمع تمجُّ عادةً التفاهة والقباحة، فما بال أولئك اللاهين، والعابثين يتطاولون على كرامات النبيين والمرسلين، بل وأحياناً على مقام العزة الإلّهية؟! وأية جريمة نكراء أنْ

يتخذوا سبيل الله جلَّ جلاله هزواً، ويجعلونها مادة للمزاح؟! فهذا ما لا يليق بالعبد تجاه ربّه، أياً تكن مذاهبه وأهواؤه، لأنه، بجهله وسوء أدبه، إنما يقع بالكفر والإلحاد، ويشيع السوء والفحشاء بين عباد الله.. فهذا العبد الفاسق وأمثاله لهم عذاب مهين..

ولعلَّنا نجد في استهزاء ذلك اللعين أبي جهل المثال الذي يعبّر عمَّن يضلُّ عن سبيل الله بغير علم، ويتخذها موضوعاً للهزء والسخرية. فقد كان ذلك المشرك يأتي بالتمر والزبد ويقول: تزقَّموا يا سادة قريش، فهذا هو الزقوم الذي يعدكم به «محمد».. فنزل آي الذكر الحكيم يتوعده، ويتوعَّد ذوي الإثم الكبير جميعاً، بأنَّ شجرة الزقوم سوف تكون طعاماً لهم، وهي كالزيت يغلي في بطونهم، كغلي الماء الحار في ذروة غليانه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ * كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ * كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾[1].

... فتباً لمن يصرف حياته، ولا همَّ له إلا لهو الحديث الذي يضلّ به نفسه، ويضل الآخرين عن سبيل الله، وعاقبته بمقتضى العدل الإلَهيّ، سوف تكون جهنم وبئس المصير، حيث يلاقي العذاب المهين الذي يتناسب ومهانتَهُ في الحياة الدنيا.. وإنَّ هذا اللاهي، الساهي، والمتهتك هو نفسه إذا تتلى عليه آيات القرآن المبين، من أجل إصلاحِهِ، وردِّهِ إلى جادة الصواب، ولَّى عن الاستماع لها مستكبراً كأنه لم يسمعها، أو كأنَّ في أذنيه ثقلاً يحجب الآي العظيم عن النفاذ إلى أذنيه وقلبه!.. وهذا للتدليل على مدى ضلاله، الذي يحول بينه وبين حواسه من تلقّي الهدى، والاستماع للحق، فكان

(١) سورة الدخان، الآيات: ٤٣ ـ ٤٦.

توعده بالعذاب الأليم.. وقد بُشّر به «هزواً» ـ لأن البشارة تحمل الخير ـ بينما اللهو المقيت، والاستكبار البغيض عن سماع آيات الله، والانتفاع بها، لا يحمل إلّا الوعيد..

٤ ـ من كان على بينة من ربّه ليس مثلَ من اتّبعوا أهواءهم

..وكذلك من الأهواء التي تجرُّ إلى الضلال، أنْ يرى الإنسان أعماله حسنة، بينما هي، في الواقع، وكما خبرها الناس، أعمالُ سوءٍ لا تجلب إلا الأذى والشر.. ولذلك يأتي المثل القرآنيّ ليميز بين من كان على بيّنةٍ من ربّه تعالى فرأى الحق وعرفه، فلا يأتي إلّا فعل الخير، والبر، والتقوى ونفع الآخرين، وبين من كان مخدوعاً بعمله، مفاخراً به، فيراه حسناً، وهو سيّءٌ بأصله ونتائجه.

يقول الله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾(١).

لا! مستحيل أنْ يستوي من هداه ربُهُ تعالى بالبيّنة، أي بالحجة، والدليل، والموعظة الحسنة، مع من زيَّن الكفرَ لنفسه فرآه حسناً، فاتبع هو، وأمثاله من الكافرين، أهواءهم في عبادة الأوثان والأصنام، والولوغ في الشهوات وارتكاب المحرمات، دونما وازع من قلب يعقل، أو مانع من عينٍ تُبصر، أو رادع من أذن تسمع!..

ولذلك كان مِثلُ هذا التوبيخ أو التأنيب الذي يحمله النص القرآنيّ للكفار والمشركين الذين اتبعوا أهواءهم، فأعرضوا عن ذكر الله، واتباع سبيله القويم، وكان هذا التوكيد على أنَّ من كان على بينة

(١) سورة محمد، الآية: ١٤.

من ربه، لا يمكن أنْ يكون كمن أعجبه سوء عمله حتى ظنه حسناً؛ فهما لا يستويان حساباً وجزاءً، ولا يستويان مصيراً ومآلاً . .

٥ ـ الله خلق الناسَ وشدَّ قواهم، وإذا شاءَ بدّل أمثالهم تبديلاً

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا * نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا * إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾[١].

وهذه هي حال أكثر الناس، أي هؤلاء الذين يحبون العاجلة ـ الحياة الدنيا ـ بما فيها من الشهوات والزينة ومتاع الغرور، ويذرون الآخرة، فيديروا ظهورهم لذلك اليوم الذي يأتي بعد الموت ـ حكماً ـ وكأنهم ينسونه أبداً، ويجهلون بأنه يوم ثقيل بأعبائه، فلا يحسبون له حساباً، ولا يتزوَّدون له بالزاد الذي يخفف عنهم تلك الأثقال والأوزار التي حمولها من دنياهم. . وذلك اليوم العظيم، هو يوم القيامة، والدينونة. . ويومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم، فمن خفَّت موازين صالح أعماله، فسوف يجده عسيراً عليه، لأنه أغفل قلبه عن تذكر ذلك اليوم الثقيل، فلم يستعدَّ له، ولم يعمل من الصالحات ما يخفف أثقاله. . وهؤلاء الذين يحبون العاجلة، ولا يسعون للآخرة سعيها، هم الذين يزاولون الحياة الدنيا بكل مهارةٍ وأنانيةٍ، وبكل ظلمٍ واستكبارٍ، لكي يحققوا ما يستطيعون تحقيقه من مطامع ومنافعَ، وأهواء ورغبات! . . وهؤلاء، هم من يفسدون ـ عادة ـ في الأرض مغترين بما لديهم من قوةٍ ونفوذٍ، أو بما ملكوا من الشركات والمال،

(١) سورة الإنسان، الآيات: ٢٧ ـ ٢٩.

أو بما يتمتعون به من صحة وعافية! . . ولكن من أين لهم ذلك كله؟

يقول ربُّ العالمين: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾.

وهل من خالقٍ إلَّا الله؟! فهو الذي خلقهم، وبمقتضى الحكمة التي يشاؤها، جعل فيهم قوة، بما شدَّ أبدانهم من تركيب متينٍ، وزوَّد نفوسهم من تفكير، وإرادةٍ وعزمٍ حتى يكونوا قادرين على الإنتاج، ثم آزرهم بمن حولهم، حتى استوت الحياة لديهم مليئة بالحركة، والكسب والوجاهة. . ولكن أليس كل ذلك بفضل الله تعالى، فهو المولى لعباده جميعاً، وهو الذي شدَّ أسر هؤلاء العباد، وأمكنهم من خوض غمار الحياة، ولولا مشيئته لما أمكن لهم أن يفعلوا شيئاً، أو أن ينتفعوا بشيء على الإطلاق. . ومع ذلك فإنَّ أولئك المغترّين بالدنيا، لم يعطوا نعمة الله التي أسبغها عليهم، ما تستحق من حمده سبحانه، وشكره والثناء عليه؛ لا بل وجحدوا هذه النعمة، وجعلوا أنفسهم عبيداً لأهوائهم، فضلّوا عن السبيل القويم، ولو شاء مولاهم، ومالك نواصيهم لأهلكهم، وبدَّل أمثالهم تبديلاً كاملاً، لا من حيث الخلقة، أو الصورة التي يخلق الناس عليها ـ ولو شاء الله تعالى ذلك لكان ـ، ولكن من حيث الطباع، وقبول الإيمان، وطاعة ربهم، وعدم نسيان يوم الحساب الذي ينتظرهم. . وإذا كنا نرى في هذه الحياة نجاحاً ونفوذاً لمن يحبون العاجلة، ويذرون الآخرة، فإنَّ في القرآن الكريم من الآيات ما يبيّن لنا أنَّ ما يمدُّهم الله تعالى به، إنما هو استدراج لهم، فلا يحسبونه خيراً لأنفسهم، إذا لم يتذكّروا ما يتوعدهم به ربّهم من الحساب والدينونة، فيتخذوا من جراء هذا التذكّر إلى ربّهم سبيلاً، أما من لم يشأ أنْ يتخذ إلى ربّه تعالى سبيل الهدى والتقوى، فسوف يجد نتائج أعماله، وحصيلة دنياه، كلَّها حاضرةً

أمامه وبانتظاره، حيث ينال الجزاء الذي يستحق. وليتذكّر الناسُ جميعاً أنَّ الأمر بيد الله تعالى، وما يشاؤون من شيءٍ إلّا أن يشاءَ الله، أي فلا يتحقق، ولا يكون لهم شيءٌ إلّا بمشيئة الله تعالى، لأنه سبحانه كان عليماً بخلقه، حكيماً في هدايتهم، رؤوفاً رحيماً بهم، وبمقتضى رحمته الواسعة يدخل من يشاء الجنة؛ بينما أعدَّ للظالمين عذاباً أليماً، مصداقاً لقوله تعالى ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾(1).

٦ ـ نهيُ بني آدم بألّا يفتنهم الشيطانُ كما فَتَنَ أبوَيهم (آدمَ وحوّاءَ).

يحذّر الله تعالى بني آدم بألّا يفتنهم الشيطان فيخرجهم عن الدين والاستقامة، كما أخرج بفتنته أبوَيْهم من الجنة.

يقول الله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(2).

لقد جعل الله تعالى اللباس الذي يواري سوءات الناس خيراً لهم، مثلما هو لباس التقوى من العمل الصالح. خيرٌ لهم، وهذا ما تهدي إليه الآية (٢٦) من (سورة الأعراف) التي أعقبها تحذير الله سبحانه لبني آدم من غواية الشيطان، كي لا يضلّهم عن الدين، ويصرفهم عن الحق، فيقعوا في المكائد التي ينصبها لهم. بل ويأمرهم ربّهم بعدم الاستسلام لوسوسة الشيطان الذي يُزيّن لهم ارتكاب

---

(١) سورة الإنسان، الآيتان: ٣٠ ـ ٣١.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.

الفواحش والمعاصي، التي تميل إليها - عادةً - النفس الأمارة بالسوء. وقد قدَّم القرآنُ البرهانَ على ذلك بما أغوى الشيطانُ أبوَيهم - آدم وحواء ﷺ - عندما دلَّهما على الشجرة التي نهاهما ربُّهما عن الاقتراب منها، مدَّعياً - كذباً واحتيالاً - بأنها شجرة الخلد.. فكان بسبب ذلك الإِغواء إخراجهما من الجنة، أي من المكان الآمن الظليل، المليء بالخيرات والثمرات، حيث جعلهما الله تعالى ينعمان فيه بالسعادة ردحاً من الزمن، وإلى أنْ يحين اختبارهما كما هو مقدَّر في سابق علم الله.. أما أنَّ النص قد نسب الإِخراجَ للشيطان، ففيه التأكيد على أنه هو مسبب الغواية، ومثير الفتنة التي فيها الابتلاء.. وهو نفس السبب لما نُسِبَ إليه من أنه نزعَ عنهما لباسَهما ليريهما سوءاتهما.. وهذا يدلُّ على أن الحياة التي ابتدأها آدم وحواء كانت صافية، خالصة من الشهوات والنوازع والأهواء، فلما وقعا في الإِغواء، كان لا بد من أنْ تتبدَّل نظرتهما إلى وجودهما، حتى بشأن اللباس الذي عليهما ارتداؤه، بحيث يأتلف ومشاعرهما التي استيقظت من كمونها في نفسيهما..

ولذلك جاء التوكيد على بني آدم بأن يحذروا، ويتقوا فتنة الشيطان ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ هذا القابع دوماً معكم، الذي يلاحقكم حيثما كنتم، ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾ قال ابن عباس: إنَّ الله تعالى جعلهم (أي الشياطين) يجرون من بني آدم مجرى الدم في عروقهم، فجعلوا من صدور بني آدم مساكنَ لهم، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ﴾، أي من الشيطان وقبيله من الجن، الذين يرون بني آدم، وبنو آدم لا يرونهم..

وقال قتادة: «وَاللَّهِ إن عدوّاً يراك من حيث لا تراه لشديد المؤونة إلّا من عصم الله، وإنما قال ذلك لأنّا إذا كنا لا نراهم فلا نعرف قصدهم لنا بالكيد والإِغواء، فينبغي أنْ نكون على حذر فيما نجده في أنفسنا من الوساوس خيفة أنْ نخضع للشيطان، ونكون من أوليائه». .

﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي أنّا قضينا بأنْ يكون الشياطين أسياداً للكافرين، لأنهم يتناصرون، مع بعضهم بعضاً، على الكفر والباطل. وإنما خصَّ «الذين لا يؤمنون» تنبيهاً إلى أنَّ الشياطين، مع اجتهادهم في الإِغواء، لا يتمكّنون من خيار المؤمنين المتيقظين، وإنما يتمكّنون من الكفرة الظالمين، والفاسقين، والمفسدين والمغفلين، الذين يتخذونهم بمثابة مملوكين، يستخدمونهم مطايا لنفث سمومهم وأحقادهم عليهم أولاً، بسبب خذلانهم هم لأنفسهم، ومن ثم لتطال الغواية كل جنس بني آدم، لو أمكن للشيطان وقبيله ذلك! . .

الفقرة الرابعة ـ مثل الحياة الدنيا في فنائها

١ ـ إنما مثل الحياة الدنيا في فنائها كالنبات الحصيد

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١).

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٤.

إنَّ واقع الحياة البشرية يثبت مدى تعلق الناس بأهداب الحياة الدنيا، والسعي وراء ما زُين لهم من حُبّ الشهوات والرغبات، كما يهدينا إليه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[1]! وهذا يعني أنَّ الإنسان مشدود إلى دنياه، غارقٌ في خضمِّها الواسع، ومستعداً لأنْ يفعل كلَّ ما يمكن أنْ يوصله إلى غاياته ومآربه، حتى ولو بالطرق غير المشروعة، إلا من عصم الله تعالى بالإيمان، فسار على طاعة ربِّه وتقواه، فلم يُفتن كغيره من الناس.. وإنَّ من أهم مظاهر الفتنة في الحياة، تلك الأفكار التي سيطرت على أذهان معظم الناس، وزيَّنت لهم القوة مقياساً لكل شيء، حتى أهل العلم فقد غرقوا في متاهات تحديد معايير النفع أو الضرر من العلوم، بحيث يعتبر المعيار الوحيد لدى كثير منهم هو إحراز التقدم تلو التقدم في مجالات اكتشافاتهم، دونما اعتبار للنتائج التي تترتب على ذلك، وعدم التطلع إلى كيفية تطبيق تلك العلوم، الذي يجعل حبَّ السيطرة والاستئثار هو الغاية القصوى لدى الذين يطبقون تلك العلوم في مختلف مناحي الحياة!!

ومثل تلك الرغبات التي تتحكم بالإنسان من جراء تقدم العلوم المادية، هي التي تحدوه إلى الظن بأنه قادر على أنْ يكيّف الحياة الأرضية برمتها، وكأنها عجينة ليّنة بين يديه، ومطواعة لإرادته وعزمه!.. وعلى الرغم من كل نظرياته وأهوائه ورغباته، فإنه لم يفطن ـ أو لعلّه يتناسى ـ ما كان لكل أشكال التمدن، وأنواع النظم

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤.

والتشريعات والعلوم التي ابتدعها وجعلها بعيدة عن شرع الله، من آثار سيئة على صحته الجسدية والنفسية، ولا سيما ما ترهقه به متطلبات الحياة المستجدة التي نراها تزداد يوماً بعد يوم، فتعمّق جذور تعبه وشقائه وقلقه! . .

والغريب في هذا الإنسان، ذلك التباهي بأنه أَغنى الدنيا بعلومه واكتشافاته، في حين يعرف مقدار عجزه أنْ يرد غوائل الطبيعة عنه، وعن كل ما حوله. . فكم من فيضانات، أو زلازل أو رياح عاتية، وقف مشدوهاً خائفاً أمام قواها العاتية وهي تدمر، وتخرب وتبيد منشآته ومبانيه! . وكم من أمراض تفتك بحياة الناس، ولم يتمكن من القضاء عليها لدرء غوائلها! . أو كم من أمراضٍ تجتاح مواسم الزروع والثمار ويقف عاجزاً عن تلافي أضرارها! .

إنها شواهد حية على ضعف الإنسان ووهنه في رد قضاء محتوم، أو قدر مقدور ينزل بساحه، فيسلبه كل ما يعتدُّ به. . وهو وحده قضاء الله تعالى الذي يُظهر عجز الإنسان، وهلعه مما قد يصيبه من المآسي، أو قد يؤدِّي به إلى الفناء، أو مما قد يحل بأشيائه وموجوداته من الخراب والدمار والضياع. . والمؤمنون، وحدهم من دون سائر الناس، يعلمون أنه الحق من ربهم فيما يشاء من الحكمة، والصنع والتقدير في حياة عباده لعلهم يخشون أو يتذكرون أو يعقلون. . ومن هنا كان تحذير القرآن الكريم للإنسان، وفي أكثر من موضع في آياته المبينة، من سوء فعاله التي قد تجلب له الويل، ونعيه عليه انشغاله بهذه الحياة الدنيا، وانصرافه إلى خدمتها حتى في أوضارها[1] وأوحالها. . ومن ثَمَّ توجيهه لهذا

(١) أوضارها: الوَضَرُ: محرّكة: وسخ الدّسم واللبن أو غُسالة السّقاء والقصعة ونحوهما.

الإنسان بألّا يغترَّ ويزهو بفعاله وأمجاده، وألا يتفاخر بما قدَّم وأخَّر، وألّا يجعل هذه الدنيا غايته القصوى بحيث لا يكون همُّهُ إلا ما يريد الحصول عليه منها، دون الالتفات أو التذكر بأنه مهما بلغ من العمر، ومهما وصلت به الحال، فإنه فانٍ، ولا بقاء له في دنياه هذه.. إنَّ عظمة القرآن المجيد تتجلّى هنا بما تربّي عليه الإنسان، كي لا يجعل همَّه الدنيا وحدها، وأنْ يعمل للدنيا والآخرة على حد سواء، وأنْ يبتغي من وراء ذلك كله الإقرار بإحسان ربّه تعالى إليه، كما يبيّنه هذا الدعاء المأثور من المؤمنين لربهم الكريم في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾(١).

فالإنسان عليه أنْ ينظر إلى الحياة الدنيا بروح إيجابية وبنّاءة، بحيث يجعل جهوده منصبة، فعلاً، على إعمار هذه الأرض، ولكن بشرط أنْ يتوسّل لذلك العمل الصالح، وفعل الخير، والدعوة إلى الحق، ونشر الهدى والسلام بين الناس؛ ودون أن يحرم نفسه مما أحلَّ له الله تعالى من الطيبات، ومن متع الحياة ومباهجها.. ولكن دائماً، ضمن الحدود التي لا يعصي فيها ربّه، أو يسيء إلى كرامته هو وإنسانيته، أو إلى كرامة الناس وإنسانيتهم. ولذلك فإن العزوف عن الدنيا يخالف أمر ربّنا تبارك وتعالى، لقوله الكريم: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ﴾(٣). وهو سبحانه في مخاطبته لرسوله الكريم يقول له: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۞ وَإِلَىٰ رَبِّكَ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠١.
(٢) سورة القصص، الآية: ٧٧.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

فَٱرْغَب﴾[١]. . وقد ورد في بعض التفسيرات أنه إذا فرغت من الصلاة فاجهد في الدعاء إلى ربّك تعالى. . إلّا أن النص قد يحتمل معاني أبعدَ وأوسع، بحيث أنَّ على عاتق رسول الله ﷺ شؤوناً كثيرة، ومنها شؤون الدعوة في إيصالها إلى الناس، ورعاية شؤون المسلمين، ورعاية شؤون أهله، والاهتمام بصحته وسلامته وراحته. . وما إلى ذلك من شؤون الحياة الدنيا، حتى إذا فرغ من ذلك كله جهد في الدعاء إلى مولاه الكريم. .

وعلى هدي الوحي الإلَهيّ كانت السنة النبوية الشريفة تحضُّ المؤمنين على عدم ترك الدنيا لنوال خيرها، مثلما تحضهم على العمل للآخرة كي يفوزوا بثوابها، ومنها قول رسول الله ﷺ: «ليسَ خيرُكُم مَنْ تَرَكَ الدُّنيا للآخرةِ، ولا الآخرة للدُّنيا، ولكنْ خيرُكُم مَنْ أخذَ مَنْ هذِهِ وهذه»[٢]. وقوله ﷺ: «نعمَ المطيَّةُ الدُّنيا فارْتَحِلُوها تُبَلِّغكُمُ الآخِرةَ»[٣]. وقوله ﷺ: «اعملْ لدُنياكَ كأنَّكَ تعيشُ أبداً واعمل لآخرتِكَ كأنَّكَ تموتُ غداً»[٤].

فالتصور الإسلاميّ قائم على التوازن في العمل للدنيا والآخرة، مع ترجيح كفة الآخرة وحسابها، لأنَّ الدنيا هي المطية التي يرتحلها الإنسان للآخرة، حيث إنَّ الأعمال الصالحة في دنياه هنا، هي التي تقوده إلى الجنة، والأعمال السيئة إلى النار، فكانت الأعمال هي المطية، وهي الزاد. . فالدنيا ـ وكما هو مشاهد ومحسوس ـ دار ممر

---

(١) سورة الشرح، الآيتان: ٧ و٨.

(٢) رواه أحمد بن حنبل، رقم ١٨٨٥.

(٣) رواه أحمد بن حنبل، رقم ١١٩.

(٤) رواه أحمد بن حنبل، رقم ٣٨١.

وفناء، والآخرة دار مقر وبقاء. ومن وعى هذه الحقيقة أدرك أنَّ النتائج التي تترتب على أعمال هذه الدنيا لا يمكن أنْ تذهب أدراج الرياح في الآخرة، فالعدل الإلَهيّ يقيم الموازين الحق يوم القيامة ليجزي كل نفس بما كسبت. ولذلك كان على الإنسان، طالما هو موجود في هذه الحياة، أنْ يؤدي واجباته تجاه وجوده هذا، سواء فيما خصَّهُ بنفسه، أم فيما يعمل لنفع الآخرين وللصالح العام.. ولكن يبدو أنَّ من أغفل قلبه عن الهدى، قد ضلَّ عن هذه الحقيقة، فانصرف إلى متاع الدنيا وغرورها، وانغمس في شهواتها وملذاتها، وغرق في أطماعها ومكاسبها حتى أنسته الآخرة، وأعمته عن الحساب الذي لا بد أنْ يؤديه يوم يقف العباد لربِّ العالمين.. فمثل هذا الإنسان، الذي غالباً ما يعمل السوء، وينشر الفساد في دنياه، قلما يدرك أنَّ ربّه تعالى يحصي عليه كل حركة من حركاته، وكل سكنةٍ من سكناته، وقد أوكل به مَلَكَيْنِ يسجلان كل ما يقوله أو يفعله.. فصار مثله في توجهه وعمله لامتلاك الدنيا وحيازتها - دونما عمل يذكر للآخرة - مثل هذا الماء الذي ينزله الله تبارك وتعالى من السماء، حتى إذا اختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، وأخذت الأرض زينتها من المروج الخضراء التي تمتلىء بالزروع والأزهار على اختلاف أنواعها، وألوانها، وبالأشجار التي أينعت ثمارها، وظن الناسُ أنَّ كل هذه الخيرات من الثمار والحبوب، وكل تلك المباهج من الألوان إنما كانت بجهودهم، وأنهم قادرون على التصرّف بها، إذا بأمر الله تعالى يأتيها ليلاً أو نهاراً فيجعلها هباءً منثوراً، وذلك بأنْ يسلّط عليها رياحاً هوجاء فتقتلعها، أو رياحاً حارة عاتية تحرق الغابات والبساتين، وتجعل المواسم والغلال يباساً، أو يبعث عليها الفيضانات التي تدمر كل شيء، أو يقيّض لها أمراضاً

تفتك بالمواشي، وتفسد الثمار، وتتلف الزروع حتى يصير كل شيء كالحصيد الهش تذروه الرياح في كل مكان، وكأنَّ الأرض لم تكن على حال من الزخرف والزينة، وكأنْ لم تَغْنَ بشيء مما كانت عليه بالأمس.. هكذا مثل الحياة الدنيا: لا متاع فيها دائم، ولا نعيم باقٍ، ولا جمال قائم، وكل شيءٍ فيها زائل، وذلك تقدير العزيز الحكيم..

وأهمية هذا المثل أنه يصوِّر لنا واقع الحياة بالمشاهد الحسية التي يراها الناس في مختلف بقاع الأرض، وعلى مدار المواسم والفصول، بحيث لا يلبث النباتُ في نهاية كل موسم أنْ يهمد، ثم ييبس، ويحين اقتلاع جذوره، بعد أن تكون الارض تعجُّ بالحركة النابضة، وتمتلئ بالغنى والثروة.. وذلك ليثبت في روع الإنسان أنَّ حياته إلى فناءٍ ـ لا محالة ـ مثل تلك المشاهد التي يمرُّ عليها كل يوم، وهو غافل عنها، ولا يعيرها أي التفات أو انتباه.. ولكنَّها في الحقيقة من آيات الله تعالى في خلقه، وقدرته على التصرف في ملكه، فخليق بالإنسان أنْ يعتبر، ويستدل على أنَّ الأمر كله لله تعالى، وأنَّ أَجَلَ هذا الإنسان سوف يأتي في موعده تماماً، فيذهب من هذه الدنيا، ويزول مثل هشيم تحمله الريح وتذروه فلا يبقى له أثر. كذلك يفصل الله الآيات الدالّة لقوم يتفكرون بمصائرهم بعد هذه الحياة الدنيا.

ويؤكد القرآن الكريم هذه الحقيقة عن الحياة الدنيا في آية أخرى، فيقول العزيز الحكيم: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾[1].

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٥.

إنه أمر الله جلَّ وعلا للنبيّ محمد ﷺ بأنْ يضرب لهم مثل الحياة الدنيا في إيجادها وفنائها. . فالله القادر المقتدر ينزل الماء من السماء، فيختلط به نبات الأرض، ثم ينضج، ثم سرعان ما يصبح هشيماً تذروه الرياح. . أو قد تنبت بهذا الماء الزروع، وتطلع الثمار، ولكن قبل نضوجها يرسل الله تعالى عليها ما يجعلها بَدَداً. .

فالسياق القرآنيّ يستخدم نفس العناصر من المطر ونبات الأرض، ونفس المشهد الحسيّ من الهشيم والرياح، تاركاً للناس أنْ يتفكروا في نهاية الحياة السريعة التى ينعدم بها وجودهم ـ أفراداً وجماعات ـ وفقاً لسنة الله في الخلق، لأنه سبحانه هو الذي يقدر الحياة والموت على عباده، كما يقدرهما على كل كائن حيّ، بحيث لا يغترُّ أي إنسان بهذه الحياة القصيرة الفانية، ولا ينساق وراءها، تاركاً الآخرة من غير أن يعمل لها.

ونلاحظ أنَّ القرآن الكريم قد استخدم النسق اللفظيّ في تقصير عرض المشاهد، في ثلاث جمل قصار، وبالتعقيب الذي تدل عليه «الـفـاء» ـ ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾[1] ـ ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾[2] لتوكيد فكرة قصر الحياة، وفنائها سريعاً، مثل النبات الذي ما إن يطلع حتى ييبس، ويصبح هشيماً. فما أقصرها حياة، وما أهونها على الله العليّ القدير! . والعبرة التي تكتمل بها المشاهد في الإحياء والإماتة في الأرض، ثم بعث الموتى للحساب والدينونة، تتبين بقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[3].

(١) سورة يونس، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٥.
(٣) سورة الروم، الآية: ٥٠.

٢ ـ مثل الحياة الدنيا فيما تهوى الأنفس كمثل النبات ينمو ويزهو ثم يكون حطاماً.

ويوجهنا ربُنا تبارك وتعالى إلى الاعتبار بمِثل آخر عن الحياة الدنيا، ولكنَّ المثل هنا يتناول أعزَّ وأغلى ما في حياة الناس، أي الأموال والأولاد، فيقول عزَّ وعلا: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[(١)].

واضح في هذا المثل التشابه في الصور التي يوردها عدد من النصوص القرآنية حول الحياة الدنيا، وذلك للتوكيد على الغاية الأساسية التي ترمي إليها هذه النصوص، وهي إيقاظُ الإنسان من غفلته عن مصيره إلى الفناء، وحثُّه على العمل للآخرة، وما ينتظره هناك من الحساب والجزاء..

وتلك الصورة الحسية التي تتناولها الأمثال في القرآن الكريم، هي ـ كما بيّنا سابقاً ـ ممّا يشاهد الناس بأم العين من النبات في أبدع مظاهره وزهوه، ومن الحصيد الهشيم الذي يتبدد ويتناثر.. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الأفكار والمشاعر حول المتاع، واللهو والزينة التي تفتن الناس، ونراهم يتهافتون عليها تهافت الجياع على قصعة الطعام!.. وكلُّ ذلك قد يكون من مألوف الإنسان الذي اعتاد عليه من غير أنْ يعيره اهتماماً، إلّا أنَّ فضل القرآن الكريم أنه يشد أنظاره إلى كل ما يحيط به، ويدعوه للتأمل في كل شيءٍ من حوله، ولا سيما ما

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٠.

يتعلق بحياته، ويكون له تأثيره المباشر عليه، بل وله شأوٌ خاصٌ في حياتنا جميعاً، نحن البشر، نظراً لشدة أهميته وتأثيره على وجودنا الإنسانيّ بأسره، ونعني به كسب الأموال، وإنجاب الأولاد. وغنيٌّ عن التأويل أو التكهُّن فإنَّ القرآن المبين عندما يهدينا إلى قول الله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾(١)، فأول ما يتبادر إلى الأذهان كيف أنَّ الناس يفنون العمر من أجل كسب المال، وحيازة الممتلكات والأرزاق، وكيف يجهدون لإنجاب البنين، والعمل على توفير متطلباتهم. . وهذا أمر طبيعي، لأنَّ أعزَّ الأشياء عندهم، وأحبَّها إلى قلوبهم هم الأبناء. . وهذا أمرٌ جليل في الحياة. . ولكنْ ما ينبِّه إليه القرآن الكريم هذا التفاخر في التملك والاقتناء، وهذا الاعتداد بوجود الأولاد والأحفاد، على ما هو مشاهدٌ في حياة الناس!. . مما يجعلهم حريصين على الدنيا، وقد ينسون الآخرة بسبب هذا التفاخر بينهم والتكاثر في الأموال والأولاد، بينما يرشدهم القرآن وفي نفس الآية المباركة إلى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾(٢).

صحيح أنَّ الرغبة في اقتناء الأموال ليست إلا تعبيراً عن غريزة حب البقاء، التي تظهر لدى الإنسان بحب التملك والاقتناء، والطمع. . وصحيح كذلك أنَّ حبَّ الأولاد هو الشعور الذي أودعه الله تعالى في النفس البشرية ومنطلقه غريزة النوع التي تظهر بالحنان والعطف وغيرهما من مشاعر الأمومة والأبوة، بحيث إنَّ نزعة الإنسان إلى الاجتماع، وإلى تحقيق قيمته الإنسانية هي التي تدفعه إلى الزواج والإنجاب، ليكون

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٦.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٦.

الأبناء صورةً عن الآباء، وتعبيراً عن استمرارية وجودهم في هذه الحياة. . إلا أنَّ ذلك ليس من شأنه على ضرورته وأهميته ومحاسنه، أنْ يصرفهم عن الآخرة بحيث لا يولونها اهتمامهم، ولا يحسبون لها حساباً! . . فجاء المثل القرآني يشبّه إيثارهم للحياة الدنيا الفانية على الدار الآخرة الباقية بالغيث الذي أعجب الكفّارَ[١] نباتُهُ، ثم يكون هشيماً فانياً. . ذلك أنَّ الزرّاع يكدون، ويكدحون، عادةً، في الفلاحة والغرس والبذر، ثم يأتي المطر فتؤتي زروعهم أكلها بإذن الله، ثم تأتي أوقات القطاف والحصاد، ثم يتوزع كل شيء على الاستعمال والاستهلاك ليصير، من بعدُ، حطاماً لا أثر له، وهذا في أحسن الأحوال. . أما إذا أراد الله تعالى غير ذلك، فقد تهيج الزروع والثمار، وتبدو في أحسن رونقها بما يعجب أصحابها، ثم يأتي ما يقضي عليها قبل أوانها، فتصفر، وتذبل وتموت، ثم تكون حطاماً لا نفع فيه. . هكذا شأن الحياة الدنيا، يصرف الاهتمامُ بمشاغلها الإنسانَ عن التفكير بأنَّ له أجلاً موقوتاً، لا بد أنْ يحل به ساعة موته، تماماً كما هو الحال في الزرع الذي يصير حطاماً، ثم يتبدَّد فلا يبقى له أثر. . ولكنَّ الأمر لا يقف عند نهاية هذه الحياة، بل هنالك الآخرة وفقاً لسنة الله تعالى في خلقه. وإنَّ في الآخرة عذاباً شديداً لمن آثر عليها الدنيا، فأبعدته عن طاعة ربّه ورضوانه. . وإنَّ في الآخرة مغفرةً من الله ورضواناً لأوليائه وأهل طاعته. فالدارُ الآخرة هي الحيوان، أي الحياة الدائمة، لأنها لا تنتهي كما تنتهي هذه الحياة الدنيا، ولا تصير إلى عدمٍ كالنبات الذي صار حطاماً تذروه الرياح، بل هي حساب وجزاء، ثم ديمومةٌ وأبدية. .

---

(١) الكفّار: الزرّاع، لأن من معاني الكافر ـ لغةً ـ الزارع الذي يغطّي البذور بالتراب.

وما هذه الحياة الدنيا ـ بما فيها من اللذة واللهو، وبما فيها من التفاخر بين الناس، والتكاثر في الأموال والأولاد ـ إلا متاعٌ خادعٌ، وغرورٌ وجهلٌ، إن لم تكن محصلةُ الأعمال فيها موصلةً إلى الفوز بالآخرة.. وهذا ما يريد المثل القرآنيّ أنْ يصحِّحه في أذهان الناس، ويربّي نفوسهم على الحقائق التي تبعدهم عن الغرور الخادع، والتفاخر الزائل، والتكاثر الفاني..

في كتاب (مقدمة المصحف المفسَّر) وتحت عنوان: «الدنيا في نظر القرآن»، يقول الأستاذ محمد فريد وجدي: «ما من فيلسوف أو شاعر أو متأمل في الوجود إلا وحقّر الدنيا واشتكى منها لتوالي آفاتها وتتابع حسراتها. فلا لذة فيها إلا وهي مشوبة بألم، ولا راحة إلا وهي مصحوبة بتعب. فلم تَصفُ لِمَلِكٍ ولا عالمٍ ولا جاهلٍ. ولكنَّ الناس مالكهم ومملوكهم، وعالمهم وجاهلهم، ومؤمنهم وكافرهم، وإن اتحدوا في هذا الذم، إلا أنَّ طرائقهم فيها على غاية التناقض، اتحدوا كلهم في المقدمة، واختلفوا في النتيجة. فمنهم المتكالبون عليها، المتفانون في جمع حطامها، فكان ذلك التكالب مؤدياً إلى التقاطع والتنابذ، وتعمد الشرور التي تزيد دنياهم نقصاً، وحياتهم تنغيصاً. وهو حال شديد التناقض، الواقعون فيه أشد الناس قدحاً لأنفسهم وعجباً من حالهم. ومن الناس من عرف للدنيا هذه الحال، فانقطع عنها ونبذها ولم يعبأ منها إلا بما يسد الخَلَّةَ(١) ويقيّم الأوَد(٢). ولكن إذا كان القسم الأول شديد التناقض، فالثاني مفرّط لا يلبث أنْ يقع تحت سيطرة القسم الأول، لأنَّ الدنيا لمن غلب، ولا غلبة إلا بمادة..».

---

(١) الخَلَّة: الحاجة.

(٢) الأود: الاعوجاج.

وقد جاء الإسلام والناس على هذين الاتجاهين، فأورد القرآنُ، الذي يحمل رسالة الإسلام للناس ، من العبر، والعظات ما يقتلع حبَّ الدنيا من نفوس المتهورين في حبها، ويريهم مقدار قصر النظر في التعلق بأهدابها، كما يتبين في قول الله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[1] - ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[2] - ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾[3] - ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾[4] . . .

وهذا البيان للحياة الدنيا مشفوع بما يجب على الحيّ أنْ يعمله في دنياه من سعي وراء الحصول على المادة، حتى لا يقع أهل الإسلام تحت أسر الأمم المادية، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾. وسمَّى المال «خيراً» ما دام المقصود منه طلب الحق، فقال تعالى: فـ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ وسمَّاه «فضلاً» فقال تعالى: ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾. والمال لم يكن خيراً، ولم يكن فضلاً من الله، إلا لأنه مكتسب من حِلّ، لا مأخوذ بقطع رحم، ولا بمنافسةٍ تجرُّ إلى خراب.

بهذه الحكمة العالية أشرَبَ القرآن نفوس أهله خصلتين

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣٢.
(٣) سورة يونس، الآية: ٢٤.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٤٥.

ساميتين، أولاهما: ترك الدنيا لعشاقها، وثانيتهما: أخذ ما يقيِّم أَوَدَ حياتهم منها، ويحميهم من الوقوع في أسر جاذبيتها. ولا نرى ديناً من الأديان حل هذه المسألة على هذا النحو. وقد سار المسلمون على هذا المفهوم، فظهر على حركاتهم وسكناتهم ـ في أكثرهم ـ وأسسوا على قاعدته بناءَ أمةٍ فاضلة، قامت على أعدل أُسُسِ الفضيلة، حتى قال اللَّهُ تعالى فيهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

٣ ـ هل من وعده ربُهُ بالجنة، كمن متّعه متاع الحياة الدنيا

يقول الله تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾(١).

تبين هذه الآية الكريمة البَون الشاسع بين مصير المؤمن، ومصير الكافر..

..فالمؤمن الذي وعَدَهُ ربُّهُ وعداً حسناً بإدخاله الجنة، سوف يلاقي وعد ربّه جزاءً موفوراً على طاعته، وهذا محقَّق لا محال لأنَّ الله جلَّت عظمته لا يخلف وعده. أما من أتاح له ربُّهُ السبل لينال رونقَ الحياة الدنيا من نعمة الصحة، والأمن والأمان، ورزقه من البنين قرة عين، ومن المال ما يوفر له الوجاهة والنفوذ، وما إلى ذلك من متاع الحياة الدنيا، ولم يدرك أنَّ الله تعالى هو مصدر هذه النعم، وأنَّ عليه أن يعمل بما تستوجب عليه هذه النعم من الطاعة لله، ونصرة دينه، بل سخَّر كل ما آتاه الله من فضله لإشباع شهواته، ومطامعه وأهوائه ـ حتى ولو كان ذلك الإشباع على حساب غيره من الناس، وأكل حقوقهم بما

(١) سورة القصص، الآية: ٦١.

يسخط الله عزَّ وعلا فإنَّ كلَّ ما يبلغُهُ مثل هذا الكافر أو الجاحد أو يعملُهُ، لن يكون إلَّا وبالاً عليه يوم الحساب، ثم يكون من المحضرين إلى النار التي يساق إليها بالقوة مُكرَهاً، لينالَ الجزاء على جحوده فضل ربّه عليه، وسوء فعاله في معصية الله.. ومثل هذا الأسلوب القرآني الذي تورده الآية الكريمة بطريقة السؤال التقريري، إنما ليوقر في عقولنا وقلوبنا: أنَّ من فاز بوعد الله في الجنة، لا يستوي مصيراً، يوم القيامة، مع من يكون من المحضرين إلى النار، وهم يُدَعُّون إليها دعّاً وذلةً.. أبداً لا يستوي من وعده الله وعداً حسناً فهو لاقيه في الجنة، مع من كان محضراً إلى النار، لأنَّ نعيم الجنة يكون خالصاً وكاملاً، وهو دائم لا يزول؛ بينما جحيم النار يكون عذاباً أليماً، وهو باقٍ لا يحول إلَّا ما شاء الله ربُّ العالمين.

الفقرة الخامسة ـ التربية والإرشاد في الأمثال القرآنية

ونتناول في هذه الفقرة بعض وجوه التربية التي ترشدنا إليها الأمثال في القرآن الكريم علَّنا نهتدي بأنوارها إلى ما فيه صلاح نفوسنا، وخير مجتمعاتنا. ومن المآثر التربوية في الإسلام، التي يمكن استنتاجها من بعض الأمثال القرآنية، القضايا التالية:

ـ الابتلاء في الحياة الدنيا.

ـ الإنسان مرهون بأعماله.

ـ التقليد والتبعية.

ـ توجه الإنسان إلى الله تعالى إذا مسَّهُ الضُّرُّ.

ـ مثل الإنفاق في سبيل الله، ومثله في غير طاعة الله.

ـ تأثير الربا على حياة الناس.

ـ حكم الإرث والرضاعة.

ـ علاقة الزوج بامرأته المطلَّقة.

ـ أحكام قتل الصيد في الإحرام.

ـ النهي عن نقض العهود والأَيمان.

ـ التحذير من الطعن بالأعراض، والنهي عن العودة لمثله.

١ ـ الابتلاء في الحياة الدنيا ومثاله ما أصاب أصحاب البستان المثمر

الإِنسان في هذه الحياة محلٌّ للابتلاء والشقاء، ومعرَّضٌ للفتنة والإِغواء. فقد يُبتلى المرء بصحته البدنية، أو بالأمراض النفسية، أو قد يبتلى بالتعرّض لكرامته، وحرماته.. أو قد يُمنى بالخسارة في تجارته، أو قد يضطر إلى بيع ممتلكاته، أو قد يكون رزقه ضيّقاً.. وما إلى ذلك من الحالات التي تصيب المرء، في أكثر الأحيان، بالأضرار المعنوية، أو المادية.. وهذا يعني أنَّ حالات الضرر والابتلاء كثيرة، وقد لا يفلت منها امرؤ على وجه الأرض. والحكيم الذي يقع في الابتلاء، هو مَنْ أقنع نفسه بوجوب التأسّي والصبر، ومَنْ ردَّ الأمور كلها إلى الله سبحانه وتعالى، الذي يهبه العزاء، والقدرة على الاحتمال، بما يخفف عنه بلاءه، ويقلّل من وقع المصيبة عليه!.

وبالمقابل قد يصيب المرء غنىً وثروة، وقد يتقلَّد منصباً أو مكانةً مرموقة. وقد يكون من ذوي الحكم والسلطان، أو الجاه والنفوذ.. وما إلى ذلك من النجاحات والامتيازات التي يحرزها في

حياته، وكلها قد تكون نعمة أو نقمة!.. فهي نعمة عندما يعرف أنها مِنَّةٌ وعطاءٌ من الله تعالى، فيسلك سبيل ربّه، ويتَّبع طريق الرشاد والخير لنفسه، ولذويه وللآخرين؛ وهي نقمة عندما تبطره النعمة وتفتنه، فينقاد لهواه، ولغواية الشيطان ووسوسته، فيقع في مهابط التكبّر والتسلط، أو يزلّ في أوضار الفسوق والفساد غير عابيء بأوامر ربه، وغير مبالٍ بحلاله وحرامه ـ في كل قول أو عمل أو تصرف قد يقوم به ـ حتى يصير عبداً للدنيا، ساعياً، أبداً، وراء متاعها وزينتها وغرورها..

ولهذا عمدت الآيات الكريمة ـ وهي كثيرة ـ في القرآن الحكيم إلى تربية الإِنسان، بما تقدم له من القصص والأمثال الهادية، وبما تحفل به من الحكمة والموعظة الحسنة، التي تبيّن جميعها أنَّ ما قد يصيبه من خير أو شر، هو من قبيل الابتلاء والامتحان لاختباره في نفسه قبل كل شيء، ومدى إيمانه بربّه تعالى، لاسيما وهو يرى أنَّ الناس جميعاً، أفراداً وجماعات، هم مثله معرضون للابتلاء، ما داموا يعيشون على هذه الأرض.. فإن حلَّ سوء بحياة امريء، فقد حلَّ بغيره مثله، وإن وقعت دهماء بساح جماعة، فقد رأت مثلَها جماعاتٌ أخرى كثيرة، ولكن الفارق أنَّ الابتلاء لا يزيد المؤمنين إلّا إيماناً وتسليماً، ولا يزيد الكافرين إلّا فتنةً وضلالاً!..

وهذا ما يريد النص القرآنيّ بيانه بقول الله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[1]، أي ليختبر الله ما في نفوسكم من الطاعة والأخلاص، وليميّز ما في قلوبكم

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

من الكفر والنفاق، وذلك بما تبدون وتظهرون. . والله عليمٌ بذاتِ كل نفسٍ وما في أعماقها، وإنَّما اختباره ليظهر الناس على حقيقتهم في التفكير، والشعور والسلوك، فيظهر فيهم المؤمن والكافر، الصادق والمنافق، الطائع والعاصي. . ولذلك جاء القرآنُ يبيّن خصائص كل من تلك الفئات ـ حتى يكون كل إنسانٍ على علم بأحواله ـ ثم ليقدّم منهاجاً متكاملاً لتربيةِ الإنسان تربيةً صحيحةً سليمةً، تتوافق مع فطرته، ومع خصائصه، والغاية من خلقه؛ ومن الأسس التي تقوم عليها هذه التربية شعور الإنسان واعتقاده بأنه معرض دائماً للاختبار في هذه الحياة الدنيا، فما أصابه من خيرٍ أو شرٍّ، إنّما مردّه لأمر الله، ليختبر ما في نفوس عباده وما في تصرفاتهم، بما قد يتميزون به عن بعضهم البعض، فينكشف الغثُّ من السمين، لأنَّ الابتلاء ـ عافيةً أو مرضاً، راحةً أو قلقاً، عطاءً أو تضييقاً، وجاهةً أو ذلةً ـ أهم محكٍّ للناس في طباعهم، وتحرّكهم في ساحتي التفكير والشعور، والفعل ورد الفعل؛ وقد يكون في الابتلاء، لدى كثير منهم، عامل تربية نفسانية مؤثرة، إذ يستيقنون بأنَّ ربَّهم، وبما أعطاهم أو حرمهم ـ فوقعوا في الابتلاء ـ إنَّما يريد بهم الخير، إنْ أدركوا مقتضى حكمته السنيّة في هذا الابتلاء، فهو يعلم ما صدورهم، بل ويعلم السرَّ وأخفى، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ولكنَّه سبحانه يختبر عباده ليمحّص الذين آمنوا وعملوا الصالحات، من الذين كفروا وعملوا السيئات، فمن اتّبع سبل الهداية والرشاد التي جاء بها القرآن الكريم، فذلك زيادة في رحمته، وفضله تعالى على عباده، ويكون خير معين لهم على احتمال البلاء، والصبر على الشدة حتى ينالوا جزاء الصابرين. .

والمؤمنون يكونون، معنيين عادة أكثر من غيرهم، بالتوجيه

الذي يزودهم به كتاب الله الحميد، لأنهم أصحاب رسالة يجب أنْ يوصلوها إلى الناس. ولذلك كانت تبعاتهم أخطر، ومسؤولياتهم أكبر. والحفاظ على عروة الإِيمان يستلزم دائماً مزيداً من البذل والجهد والجلد، حتى تكون للمؤمن المقوّمات التي تمكنُّهُ من التغلُّبِ على العقبات والصعاب التي تعترضه، فكان من مقاصد تربية القرآن الكريم أنْ تشدّ العزم، وتقوّم الاعوجاج، وتصقل النفس، وتقوّي الإِرادة لدى الإنسان.. والمؤمن الذي يعرف أنَّ المسؤولية هي تكليف، لما فيه إصلاح العباد، وأنَّ الابتلاء هو تمحيص لما في القلوب، ويعمل على هذا الأساس، فإنه يفوز برضوان الله تعالى، لأنه اختار طريق الصلاح في الدنيا، والطريق الموصل للفلاح في الآخرة.

ويضرب الله تعالى لنا مثلاً عن الابتلاء بأصحاب بستانٍ غلبت عليهم نزعةُ الطمع، فطاف على بستانهم طائف من عنده تعالى، فأحرقه ودمَّره، كما تبيّنه هذه الآيات المجيدة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ * فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ * أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ * فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ * أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ * وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ * قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ * عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ * كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ * إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾(١).

(١) سورة القلم، الآيات: ١٧ ـ ٣٦.

في أسباب نزول هذه الآيات، كما أخرج ابن أبي حاتم عن ابن جريج، أنَّ أبا جهل قال يوم بدر: خذوهم أخذاً فاربطوهم في الحبال ولا تقتلوا منهم أحداً، فنزلت: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي إنّا بلونا المشركين من أهل مكة، في عدم قدرتهم على هزيمة المسلمين، على الرغم من اعتدادهم بكثرتهم وقوتهم مثلما بلونا أصحاب الجنة (البستان) فلم يقدروا على رد ما أصاب جنتهم. إذاً فهنا إخبار على أنَّ ثمةَ بلاءً من الله تعالى أنزله بالمشركين، وأنَّ مثل هذا البلاء، كما في معظم الشدائد التي تصيب الناس، إنما تأتي من فعالهم هم، وتكون نتيجةً لنواياهم وأعمالهم السيئة.. فالبلاء الذي حلَّ بأهل مكة يوم بدر، أو في غيره من المواقف، والأحداث التي أذلهم الله تعالى بها، والمصائب التي حلَّت بهم بما كانوا يقترفون، كانت كلها بسبب عداوتهم للنبيّ ﷺ، ومحاربة الدعوة إلى دينه القويم. ولذلك يؤكد لنا النص أنَّ ربَّ العالمين قد ابتلاهم حقاً، كما ابتلى أصحاب تلك الجنة على سوء نيتهم..

والروايات التي تتحدث عن أصحاب تلك الجنة تقول بأنهم كانوا يعيشون في قرية من قرى اليمن الغنية، التي تكثر فيها الحدائق والبساتين والزروع على اختلافها (وقيل إنَّ بينها وبين صنعاء مسافة اثني عشر ميلاً)، وأنهم ورثوا تلك الجنة عن أبيهم، وقد كان رجلاً مؤمناً قد آتاه الله من فضله رزقاً كثيراً، فكان لا يمسك من ثمار بستانه الغنيّ إلا ما يكفيه وعياله، ثم يتصدَّق بالباقي على ذوي القربى، واليتامى والمساكين والفقراء. فلما مات آلَ ذلك البستان إلى أبنائه، وكانوا أصحاب طمع، لا يحبون التصدق على المساكين، أو الإحسان للمحتاجين، بخلاف ما كان عليه أبوهم المحسن الجواد.

فلما حلَّ الموسمُ، وحانَ وقت القطاف والحصاد، تواعدوا على أنْ يغدوا على حرثهم باكرين، وخُلسةً عن الناس، حتى لا تراهم الأعين، وهم يعتمدون على عزيمتهم في الجني، من غير أنْ يتوكلوا على الله، أي بأنْ يقولوا: إلّا أنْ يشاء الله. وهذا معنى: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾، أي لا يقولون: إلّا أنْ يشاء الله ألّا نجني أرزاقنا؛ أو إلّا أنْ يشاء الله منعنا من ذلك، أو عدم تمكيننا من فعل ذلك.. إذ وفقاً لناموس الحياة، فإنَّ أيَّ عزم، أو أيةَ نية غيرُ قابلين للتحقق إلّا أنْ يشاء الله، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾(١).. فعلى الإنسان عندما ينوي فعل أي شيء أنْ يقول: إنْ شاء الله، وحتى إنْ نسيَ، فعليه، حال تذكّره، أنْ يعود ويذكر ربّه تعالى، ويتوكل عليه، ويستثني بقوله: سأفعل ذلك إنْ شاء الله.. أو: ولا أستطيع أن أفعل ذلك إلّا أنْ يشاء الله..

وهذا ما لم يكن في نيّةِ أصحاب ذلك البستان!.

فقد اتكلوا على عزمهم في الغدو على حرثهم وقطاف ثمارهم، بعد أنْ تواعدوا على حرمان الفقراء من التصدق عليهم، فناموا مطمئنين.. هكذا كانت نيتهم ومشيئتهم؛ ولكن العزيز الحكيم قد شاء غير ما يشاؤون، فبعث على جنتهم في الليل، وهم يغطّون في أحلامهم، ريحاً حارَّةً أحرقتها، فأصبحت «كالصريم»(٢)، أي سوداء، كالليل البهيم بظلامه الدامس. وطلع الفجر، فتنادى أولئك الأخوة:

---

(١) سورة الكهف، الآيتان: ٢٣ و٢٤.

(٢) الصريمان: هما الليل والنهار لانصرام أحدهما من الآخر. والصريم من الشجر أو النبات: ما صرمت أثماره، أي قطفت.

أن اغدوا مبكرين إلى ثماركم وأعنابكم وزروعكم إن كنتم تريدون قطافها!. وانطلقوا، وهم يتخافتون، ويُسرُّون الحديث فيما بينهم، لئلا يسمعهم أحدٌ من المساكين، فيلحق بهم، ويدخل عليهم البستانَ فيأخذ نصيبه!

«وغدوا على حرد» أي على قصدٍ بحرمان الفقراء، أو على حنق أو غضب أن يأتوهم، وهم يتوهمون أنهم قادرون على حرمانهم فعلاً..

وكانت المفاجأة التي لم ينتظروها.. فلا أشجار ولا أعناب، ولا فاكهة، ولا زروع، بل رماد أسود يغطي المكان برمته لأنّ جنتهم أصبحت «كالصريم»..

وظنَّ أصحاب تلك الجنة أنهم ضلّوا الطريق عنها، فقد تركوها بالأمس في أوج نمائها، ولم يغيبوا عنها أكثر من سحابة تلك الليلة!.. مما جعلهم لا يصدقون، لأول وهلة، ما يرون أمامهم. ولكنهم بعد أن استفاقوا من هول الصدمة، قالوا: كلا، لسنا بضالّين عن ملكنا، بل نحن محرومون. وقد حرمنا ربُّنا العليّ القدير جزاءً على سوء نوايانا، عندما عزمنا ألّا نتصدق من مال الله الذي يؤتيه من يشاء بغير حساب، وما الله بغافل عن النوايا، فأوقعنا في هذا البلاء، وفي هذه المصيبة الدهماء، عقاباً على ما سوَّلت لنا به نفوسنا من الطمع، وعدم الامتثال لأمر الله تعالى في الصدقة، والزكاة..

ولعلَّ أوسطهم رجاحةً في العقل، واعتدالاً في الرأي، كان أجدر على أن يبيّن لهم السبب فيما أصابهم، فقال: ألم أقل لكم لولا تسبحون الله تعالى، وقد آتاكم تلك الخيرات الوفيرة، فتقولوا: سبحان الله، ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم، فلولا كنّا من المسبّحين، لما كنّا محرومين؛ ولولا قدّرنا أنَّ الرزق من عند الله، وهو

يتفضَّل على عباده بالعطاء والمنّ، لكان خيراً لنا، بل ولولا طمعُنا وعزمُنا ألَّا يكون في ثمارنا نصيب للسائل والمحروم، لما طاف على جنتنا طائف من ربّنا فأحرقها، فتبّاً لنا، إنْ كنَّا إلّا ظالمين! . . فاعترفوا بذنبهم، وما ظلموا به أنفسهم، وأهليهم والمحتاجين؛ ثم أقبل بعضهم على بعض يتلاومون، وكلٌّ يلقي التبعة على غيره، وكأنّما يريد أنْ يتنصَّل من وقع ذلك الظلم على نفسه، وما يعقبه من الشعور بالحسرة والندم. . ولكن ماذا يفيدهم ذلك، وماأصابهم قد حرَّك فيهم الإقرار بأنهم كانوا طاغين، متجاوزين حدود الله تعالى، وحقوق عباده. . ولذلك نجدهم يعودون إلى الصواب في الرأي والقول، فيتمنون على ربّهم تعالى أنْ يعوّض عليهم ما فاتهم، فيقولون: عسى ربّنا أنْ يمنَّ علينا بخيرٍ من جنتنا التي كانت مصدر رزقنا وعيشنا. إنَّا إلى ربّنا راغبون بالتوبة والإنابة، وطلب العفو والمغفرة، إنَّ ربَّنا لغفور رحيم.

فهذا المثل الذي ضربه الله تعالى عن الظالمين لأنفسهم، فيه توجيه منه سبحانه للناس أجمعين، بألّا يظلموا، وألّا يطغوا على الفقراء والمساكين، لأن ذلك من فعل المشركين، والعاصين، والمنافقين والكافرين. .

وقد اختتم سبحانه ذلك التوجيه بالتحذير والوعيد، وهو: أنَّ من يظلم في هذه الحياة، فإنَّ له عذاباً مثل العذاب الذي أصابَ أهل تلك الجنة، بما تسبَّبَ لهم سوء تصرفهم من حرمان الرزق، وآلام النفس «كذلك العذاب» أي مثل ذلك العذاب لأصحاب البستان العذابُ لمن خالف أمرَ الله. ثم بعد الوعيد عقَّب سبحانه بقوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾، وأين من عذاب الآخرة، مثل هذا العذاب في الدنيا، الذي يكون فيه تلف للمال أو الرزق، أو الوقوع في

المرض والألم!.. فعذاب الآخرة أكبر بكثير لو كانوا يعلمون ماهيته، ونوعه، وديمومته؛ ولو كانوا يعلمون ذلك العذاب علم اليقين لعبدوا اللَّهَ تعالى، وانصرفوا بكليتهم، وطوال أعمارهم، لمرضاة ربِّهم حتى يُبعدوا أنفسهم عن ذلك العذاب الذي أُعِدَّ للمجرمين. أما المتَّقون، الذين يخافون عذابَ الله، فإنهم يسيرون في الحياة الدنيا على طريق الصلاح والتقوى، ولهم عند ربّهم في الآخرة جنات النعيم.. والمتَّقون هم المؤمنون الذين أخلصوا لله تعالى الدينَ، وصدَّقوا رُسُله فكانوا من أصحاب عقيدة التوحيد، من المسلمين الذين كمل إيمانهم: نيةً، وقولاًوعملاً.. واحتسبوا عملهم لوجهه سبحانه، وأحسنوا لأنفسهم ولغيرهم.

فهل يجعل اللَّهُ تعالى في الآخرة هؤلاء المسلمين المحسنين، كالمجرمين العاصين؟ ما لكم أيها الكافرون!. وكيف تحكمون هذا الحكم الفاسد بأنْ تقولوا للمؤمنين: إنْ بَعَثَنا اللَّهُ فسوف نُعطى أفضل منكم. أو نكون مثلكم في المصير؟ لا! لا تتوهموا ذلك، ولا يظننَّ أحد بالله تعالى إلّا العدل والحق.. ولن يجعل العزيز الحكيم المسلمين كالمجرمين، بل لكل منهم درجات في مستقرهم.. فمن أطاع واتَّقى كانت له جنات النعيم، ومن عصى وكفر كانت له نار الجحيم.

٢ ـ الإنسان مرهون بأعماله وجزاء السيئة بمثلها

يقول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(١).

(١) سورة غافر، الآية: ٤٠.

ما أعظم عدل الله تعالى على المسيئين! وما أعظم إحسانَهُ، وجودَهُ على المحسنين!

فمن يعمل سيئة أو يرتكب معصية، فلا يجازى عليها إلَّا مثلها، أي بمقدار ما تستحق من العقاب، لا أكثر ولا أقل. أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ومما رزقهم الله ينفقون، والذين يؤمنون بما أنزل إلى خاتم النبيين محمد ﷺ وما أنزل من قبله، ولا يبتغون إلَّا مرضاة الله تعالى، فأولئك يدخلون الجنة، ويرزقون فيها، من رزق الله الواسع، بغير حساب، أي لا قدر بقدر، بل بقدر ما يوسعهم الله سبحانه من الفضل العظيم. ولو كان هذا الجزاء بمقدار العمل فقط لكان بحسبه وكفايته.. إلَّا أنه تعالى قد ارتضى أنْ تضاعف الحسنات، وألَّا تضاعف السيئات، وذلك رحمة منه بعباده، وتقديراً لضعفهم، وللجواذب والموانع لهم في طريق الخير والاستقامة، فضاعف لهم الحسنات، وجعلها كفارة للسيئات. فإذا هم وصلوا إلى الجنة، رزقهم الله تعالى فيها بغير حساب.

ويقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(١)، أي والذين دأبوا على فعل السيئات، ولا يتخلّون عنها؛ بل يجدّون دائماً في طلبها، حتى تكون بمثابة الكسب الذي يرومونه ـ لأنَّ أعمال الإنسان هي التعبير الأمثل عما كسب من الحسنات أو اكتسب من السيئات(٢)، ـ فجزاؤهم «جزاءُ

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٧.

(٢) مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ ـ سورة البقرة ـ الآية: ٢٨٦.

سيئة بمثلها»، أي أنَّ العقاب الذي خرجوا به من صفقة الدنيا، لن يكون بمقتضى العدل الإلٓهي إلّا بمقدار السيئة التي اقترفوها؛ من غير زيادةٍ أو نقصانٍ.. وهؤلاء الذين ينالون جزاء ما كسبوا من السيئاتِ، لا بدَّ أن يقعوا تحت وطأة الذلّ والهوانِ حتى ترهقهم شدة الذِّلة، لأنَّ العقاب في الأصل ثقيل على النفس، وغالباً ما يلازمه الشعور بالإهانة والانكسار.. فمن الجزاء (العقاب) إلى الشعور بالذُّل، ينشأ تراكم في العقوبات، يؤدي إلى ذلك الإرهاق، ثم لا يجدون ما يمنع أو يدفع عنهم شيئاً من ذلك، إذ من يمنعهم من الله العزيز القدير، والأمر بيده، ومرجع كل شيء إلى مشيئته؟ فهم ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾، فهم في تلك الحال، ولشدة ما يلاقون من الخزي، تصبح وجوههم سوداء قاتمة، فكأنما أُلبست قطعاً من ظلام الليل البهيم.. ويمكن أنْ نتصورها تماماً مثلَ هذه الأقنعة التي توضع على الوجوه في حفلات التنكّر، أو في جرائم القتل والسرقة، ولكن هنا ـ في الدنيا ـ سرعان ما تسلخ تلك الأقنعة عن الوجوه والأيدي، بينما هناك ـ يوم القيامة ـ فإنَّ الوجوه تصطبغ بالسواد الحالك من شدة الرهبة والخوف، وما يرافقهما من الذِّلة والهوان لتدلّ على الذين اكتسبوا السيئات، وأولئك هم المبعدون عن رحمة الله، وأولئك أصحاب النار، هم فيها خالدون.

٣ ـ التقليد والتبعيّة

يقول اللَّهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ * إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ

وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾(١).

لا ضير من القول بأنَّ التقليد يمكن أنْ يُعدَّ تعطيلاً لنعمة العقل، وأسراً لموهبة الإدراك، فالمقلّدون هم الذين يتّبعون غيرهم من غير أن يحثُوا ملكاتهم على تشغيل طاقاتها في التفكير، والبحث والاستقراء للتوصل إلى الاعتقاد الجازم، والإيمان المكين بالقضايا والمسائل والمواقف التي قد تعنيهم هم أنفسهم، كما قد تعني غيرهم من الناس؛ فكأنهم بذلك يميتون خصائص تكوينهم الذهنية والنفسية التي تتأثر وتؤثر في المجالات الحيوية للإنسان، وفي طليعتها الإيمان أو الاعتقاد الديني.. وفي هذا الوضع يصبحون فاقدي الأهلية لسماع دعوة الحق سماع تدبُّرٍ، وتبصُّرٍ، وتفهُّم، لتخلّيهم ـ بفعل التقليد الأعمى ـ عن النعمة التي خصَّ بها الخالق العظيم هذا الإنسان بما وهبه من إرادة ذاتية وحرية للاختيار.. وهذا شأن المشركين الذين اتخذوا من دون الله أنداداً، وأولياء، فلا يتجاوبون مع دعوة الداعين إلى سبيل الله القويم، بل يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾(٢)، أي وإنَّا على معتقداتهم، وعاداتهم وتقاليدهم، سائرون، وبهم مهتدون في عبادتهم الأصنام والأوثان، لأننا لن نخرج على ملة آبائنا، وما ورثنا عنهم من أَثَر!.. فكان ذلك الاعتقاد من جملة الأسباب التي جعلوها بمثابة الحجاب الذي أقاموه بينهم وبين

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ١٦٥ ـ ١٦٧.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٢٢.

النبي ﷺ عندما جاءهم بالإسلام، ليحجبوا عنهم نور هذا الدين، ويحولوا دون نفاذه إلى قلوبهم، فلا يهتدون، بعدُ، إلى دين الله القويم!.. وهذه هي حال الناس الذين لا يقبلون الإسلام ديناً، (وليس أولئك المشركون في زمن النبي ﷺ وحدهم)، لأنَّ النص القرآني جاء عموماً بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾.. وهؤلاء الناس الذين اتبعوا التقليد والتبعية دونما تمحيصٍ عن الحق، لا يقبل الله تعالى منهم مثل هذا التقليد والتبعية، ولذلك ضرب لهم في القرآن أمثالاً تدلُّ على معتقداتهم وآثارهم في كل زمانٍ أو مكانٍ وُجد فيه أناسٌ يتخذون من دون الله أصناماً، أو كائناتٍ يتعبَّدون إليها، أو أشخاصاً يتخذونهم أولياءَ يعتمدون عليهم، وعلى قدراتهم بمساعدتهم، ومدّ يد العون لهم، دونما إيمانٍ بالله أو توكّلٍ عليه سبحانه وتعالى!.. وهذا ما يوقعهم في الشرك والضلال، لأنَّ عبادتهم، وولايتهم لغير الله جلَّ وعلا كلها شرك خفيٌّ أو ظاهر، إذا ذكرت إلى جانب اسم الله تبارك وتعالى؛ أو إذا أشركها المرء في قلبه مع حب الله!.. فكيف إذا نزع المرء من قلبه حبَّ الله ـ والعياذ بالله ـ وأفرد تلك الأنداد بالحب الذي لا يجوز، بل ولا ينبغي إلَّا أنْ يكون لله، الذي أوجده في أحسن تقويم، ومنَّ عليه بما لا يُحصى من النعمة؟!.. وتلك هي أحوال المشركين، وهم على آثارهم يهرعون!..

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾، لأنهم آمنوا بالله خالقهم، ومولاهم، وهاديهم، والمنعم عليهم، وكل واحدٍ من هذه الأقانيم يكفي بذاته لأن يجعلَ حبَّ المؤمنين لله أشدَّ من حبّهم لأنفسهم، وأهليهم، وسائر البشر مهما كانت مكانتهم.. فكيف إذا امتلأت

نفوسهم بمعاني أسماء الله الحسنى وصفاته العليا[1]، أفلا تجعل حبّهم له جلَّ وعلا حبّاً مطلقاً؛ خلواً من كل موازنة أو مقاربة أو معادلة؟ لقد آمنوا ـ عقلاً وقلباً ـ بحقيقة وجود الله تعالى، فعبدوه حبّاً، وطاعةً واستسلاماً، وحمدوه شكراً، وامتناناً وثناءً، وأنابوا إليه خوفاً ورهباً، وطمعاً. فكان حقاً أن يكون حبُّ المؤمنين لله عزَّ وجلَّ أشدّ من حبِّ الذين اتخذوا من دون الله أنداداً وذلك من وجهين:

الأول: علمهم اليقينيّ بحقيقة ألوهية الله تعالى وربوبيته، فأخلصوا له في العبادة والطاعة، ونزّهوه عن كل شرك، فهو الله الذي لا إلّه إلّا هو عالم الغيب والشهادة، هو الرحمان الرحيم.

والثاني: إخلاصهم في حبّه عن علم بأنه هو المنعم ابتداءً، وبأنَّ صلاح أحوالهم، وتدبير شؤونهم لا يكوَن إلّا بمشيئته، لأنه اللطيف الخبير، والودود الغفور؛ وأنه بمقتضى حكمته السَّنِيَّة يقبل من عباده القليل ويعفو عن كثير، فوجب عليهم أنْ يعبدوه عبادة الشاكرين، ويرجوا رحمته رجاء المتقين، وأنْ يكون حبُّهم لله تعالى، مولاهم وسيدهم، أشدَّ حباً من أي شيء آخر..

---

(١) وأسماء الله الحسنى ـ أو صفاته العليا ـ كما في الحديث: «الله الذي لا إلّه إلّا هو الرحمان الرحيم، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، الخالق البارئ المصور، الغفار القهار، الوهاب الرزاق، الفتّاح العليم، القابض الباسط، الخافض الرافع، المعزُّ المذُل، السميع البصير، الحكم العدل، اللطيف الخبير، الحكيم العظيم، الغفور الشكور، العلي الكبير، الحفيظ المقيت، الحسيب الجليل، الكريم الرقيب، المجيب الواسع، الحكيم الودود، المجيد الباعث، الشهيد الحقُّ، الوكيل، القويُّ المتين، الوليّ الحميد، المحصي، المبدىء المعيد، المحيي المميت، الحيُّ القيّومُ، الواحدُ الماجدُ، الأحدُ الصمدُ، القادر المقتدر، المقّدم المؤخّر، الأول الآخر، الظاهر الباطن، الوالِ المتعال، البرُّ التوّاب، المنتقم العفوّ، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط الجامع، الغنيّ المغني، المانع، الضار النافع، النور الهادي، البديع، الباقي، الوارث الرشيدُ الصبور» ـ رواه الترمذي ـ.

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾. . ومن هم الذين ظلموا؟ هم الذين اتخذوا أنداداً من دون الله تعالى، فظلموا أنفسهم، وظلموا معهم غيرهم من الذين كانوا لهم تبعاً، وأشركوا بالله تعالى مثلهم. . ولو يرى هؤلاء الظالمون عذاب الله الذي سينزل بهم، في يوم مشهد عظيم، حيث الذين كانوا يستكبرون في الأرض سودَ الوجوه، زرق العيون، في أعناقهم أغلالٌ فهي إلى الإذقان فهم مقمحون!. . ولو يرون ذلك واقعاً لا محالة، لأدركوا أن القوة والبأس، والشدة والجبروت، والعظمة والعزة كلها لله تعالى الواحد القهَّار. وأنَّ كلَّ ما كانوا يستندون إليه، أو يعوّلون عليه من دون الله فهو باطل، ولا شأن ولا قدرة له لحمايتِهم، أو نصرتِهم أو مدهم بأي عونٍ إلَّا أن يشاء الله، والله لا يريد ظلماً للعباد!. .

إذاً فتقدير المعنى: أنهم لو علموا في الدنيا ـ ويا ليتهم يرون ويعلمون ـ شدَّة عذاب الله، وأنَّ القوة لله جميعاً وحده، فلا يملك أحدٌ غيره سبحانه أية أسباب للقوة. . لما اتخذوا من دونه أنداداً، ولا أشركوا به شيئاً، ولتركوا تقليد آبائهم الذي يقوم على عبادةٍ باطلةٍ، وعلى معتقدات من خواء! ولما ظلموا أنفسهم وغيرهم بمثل ذلك الظلم العظيم!. .

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾، إذ يوم القيامة، يوم يقوم الناس للحساب، هنالك يتبرّأ الآباء والرؤساء، والآلهةُ المزعومة، والأربابُ المتفرقة وسائرُ المتبوعين من الذين اتَّبعوهم في معتقداتهم، وساروا على منهاجهم. . ولا يقف الأمر عند حدّ التبرّؤ منهم، بل وينكرون عليهم ضلالهم وتقليدهم، وذلك حين رأوا العذاب جميعاً ـ

التابعون والمتبوعون ـ يحلُّ بهم، ويساقون إلى جهنم زمراً، وحين تقطعت بهم (أي بنفوسهم وأفئدتهم) كل أسباب القرابة والأرحام والمودة، أو الحلف أو العهد، وكل الصلات التي كانت تربطهم في الدنيا، بحيث لم تعد تنفعهم بشيء في الآخرة، لأنَّ مدار النفع والثواب والأجر لن يكون إلّا عمل الإِنسان وحده، وما كسبت نفسه في حياته الأولى على هذه الأرض. .

وبعد ذلك التبرؤ من المتبوعين، يأتي دور التابعين: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾ أي لو أنَّ لنا عودةً إلى الحياة الدنيا، وقد رأينا من عذاب الله ما رأينا، فإننا نتبرَّأُ هناك من الذين اتبعناهم كما تبرَّأوا، هم، منا، ههنا، ولن نقتديَ بهم، ولن نعود إلى اتّباعهم أبداً. .

فيا له من مشهد مؤثر: مشهد التبرّؤ، والتعادي والتخاصم بين التابعين والمتبوعين!. . فكلٌّ يريد أن يتنصَّلَ من وزر الآخر، ومن إضلاله له. . ولكن هيهاتَ أنْ تكون لهم عودة، فقد صاروا في الآخرة ـ وأُحضروا إلى الحساب ـ حيث لا رجوع إلى دار الدنيا. . وكما بدت لهم سيئات أعمالهم، باتّباع الضالين المضلّلين، كذلك يريهم الله تعالى أعمالهم حسراتٍ، ملؤها الندم، واللوعة والقهر؛ فهم يتحسرون على أعمالهم التي ارتكبوها في الشرك والمعصية، وترك عقيدة التوحيد، والطاعة لله تعالى، لأنهم أدركوا يومئذٍ مقدار الثواب الذي ينالُهُ الذين فعلوا الطاعات، فكانت حسرتهم على ذلك الثواب الجزيل، الضائع منهم، حسرةً دائمة، لا تقل ألماً عن العذاب الذي يقعون فيه، إن لم تكن من جنس ذلك العذاب نفسه، على الرغم من شدته، وطول مقامه. لأنَّ الحسرة على الشيء، هي، عادةً، من جنس

هذا الشيء فكانت حسرتهم في الآخرة، على أعمالهم في الدنيا من جنس تلك الأعمال، التي لا جدوى منها، ولا طائل، لأنها هي التي جعلت مصيرهم في النار، وما هم بخارجين منها.

٤ ـ كما زُيّن للإنسان الإعراض عن الدُعاءِ لله بعد كشف الضر عنه كذلك زين للمسرفين أعمالهم.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(١).

«إنها صورةٌ لنموذجٍ بشريٍّ مُكَرَّر. فالإِنسان يظلُّ مدفوعاً مع تيار الحياة: يُخطيء ويذنب، ويطغى ويُسرف، والصحة موفورة، والظروف مواتية. وليس من يتذكّر في إبّانِ قوته وقدرته أنَّ هنالك ضعفاً، وأن هنالك عجزاً، إلّا من هدى اللّهُ ورحم، لأنَّ ساعات الرخاء تُنسي، والإِحساس بالغنى يُطغي».. ولكن هذا الإِنسان الذي كان يغترُّ بالقوة، تراه إذا مسَّهُ الضرُّ جزوعاً هلوعاً. يضيق صدره بالشدَّة، فلا يجد إلا الدعاء لله ربه كي يذهب عنه البلاء الذي حلَّ به. فإذا استجاب له ربُّه، وكشف عنه الضّر، انطلق لا يعقّب، ولا يفكر، ولا يتدبّر، ثم هو لا يسأل نفسه: من أوقعه في هذا الضر، ومن كشفَهُ عنه؟ بل ولا يلبث أنْ يعود إلى ما كان فيه قبلاً من اندفاع واستهتار..

هذا النموذج من البشر الذي نجده يتكرر دوماً، تصوّره الآية الكريمة في حركاته وسكناته، في راحته وتعبه، في هنائه وشقائه..

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٢.

فهو عامل، متحرك، مندفع على مسرح الحياة بلا هوادة. فإذا وقع في محنةٍ أو بلاء، أو حاقَ به أي مكروه، فإنه لا يجد إلّا الله تعالى، يلوذ إلى حماه بالدعاء والرجاء على أي حال كان، إنْ في تقلّبه على جنبيه من الأرق، وإن في قعوده أو قيامه اللذين يحرّكهما التشوش والاضطراب لشدة ما يكون عليه من القلق، وعدم الاحتمال على الضرّ..

ولا يزال ذلك الإِنسانُ مجتهداً في سؤاله لله تعالى، وفي طلب العافية منه سبحانه، لا ينقطع عنه ولا يحيد، وليس غرضُهُ إلّا زوال ما هو عليه من الكرب، وما ينتابه من الألم والشدة، دون أي تفكير في نيل الثواب أو الأجر في الآخرة.. فإذا ما كشف الله سبحانه وتعالى عنه الضرَّ، ودفع عنه البلاء، وأعادَ له الأمن والأمان ﴿مَرَّ﴾ على حالة الضرّ التي كان فيها مرور العابر، وأعرض عن الدعاء والرجاء، فكان مثله كمن اعترضَهُ ظالمٌ أو جهول فالتجأ إلى من يخلّصه من شره، وهو يتذلّل، ويستغيث به، حتى إذا قدَّم له العون الذي طلب، ولّى معرضاً عنه من غير أنْ يلتفت إليه، أو أنْ يبدي بادرة شكرٍ له.. بل وقد لا يتأمَّل بما جرى معه، ليعتبر!. فإذا كان هذا النموذج من البشر مثالاً للإنسان الجاحد والمنكر لصنع الجميل، فما بالك بالذي يكشف اللَّهُ تعالى عنه الضرَّ الذي مسَّهُ، ثم لا يلبث بعده أنْ يعود إلى دأبه من الاندفاع وراء مظاهر القوة، وكأنه لم يستجر بالله تعالى، ولم يَدْعُهُ لأنْ يكشف عنه الضر. أو كأنه لم يسأله برجاءٍ وذلٍّ وانكسار أنْ يزيل عنه الشدة، وأنْ يذهب عنه الألم؟!.. وأسوأ من ذلك أنَّ فريقاً من الذين كشف الله الضرَّ عنهم، لا يلبثون بعد الإنابة إليه تعالى في الشدة، أنَّ يعودوا إلى سابق عهدهم في الشرك بالله، من خلال اندفاعهم مع تيار الحياة، دون كابح، ولا زاجر، ولا أيّة مبالاة لطاعة

أو إنابة، أو دعاء؛ يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾[1] فما شأن هذا الفريق من البشر الذي لا يعرف اللَّهَ تعالى إلّا وقت الشدة، وينساه فيما عدا ذلك؟ وما بال هؤلاء البشر الذين يجحدون فعل الخير، وينسون حسن الصنيع، ويتنكرون للمعروف؟ هل ينطبق عليهم وصفٌ من صفات الإنسانية؟ لا، لأنهم من ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ كما وصفهم ربُّ العالمين.. فهؤلاء هم الذين ينسون رحمة الله تعالى التي تكشف الضرَّ الذي يمسهم، لانقيادهم الأعمى إلى شهوات نفوسهم الأمارة بالسوء، وأهوائها، وابتعادهم عن الله تعالى، وإنكار فضله عليهم..

وعلى كل حال وكما تزيّن شياطين الإنس والجن لأهل الغيّ الاستسلام لأهوائهم ونزعاتهم، فينصرفون إلى الباطل، وينغمسون في الشر حتى ينسوا ذكر الله، وكما يُزيِّنُ الضرُّ أو البلاءُ الدعاء لله تعالى وقت شدتهما على الإنسان، ثم يعرض عن ذكر الله وقت الرخاء، كذلك زُيّن للمسرفين الذين تجاوزوا حدود الله، ما كانوا يعملون من فعال منكرة، وتصرفات ضالّة، فتركوا الحق والخير والإيمان، واستمروا في إسرافهم من غير أن يحسّوا ما فيه من تجاوز للحدود التي فرضها الله تعالى لصالح العباد!..

وفي هذه الآية الكريمة، وبما تحمل من تصويرٍ بشعٍ للنموذج البشريّ الجاحد، حثٌّ ضمنيٌّ ـ بالمقابل ـ للمؤمنين خاصةً، وللناس عامة، بألّا ينسوا ربَّهم إذا منحوا الرخاء بعد الشدة، والعافية بعد البلاء. بل عليهم أنْ يتذكروا دائماً حسن صنيعه تعالى لهم، وجزيل

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٣.

نعمته عليهم، وأنْ يشكروه ويسألوه دوام النعمة، والصنيع الجميل، والفضل العظيم. كما أن فيها تنبيهاً من الله تعالى على وجوب الصبر عند المحنة احتساباً للأجر، وابتغاء للثواب، وأملاً في تغيير الحال بأحسن حال.

٥ ـ جزاء الإنفاق في سبيل الله تعالى

أ ـ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۞ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[(١)].

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[(٢)].. هذا ما يهدينا إليه القرآن المجيد.. فهذا المال الذي يجهد الإنسان في جمعه، هو، في الأصل، عطاء من الله الجواد الكريم، الذي يرزق من يشاء بغير حساب، ولكنَّ الوسائل لكسب هذا المال قد تختلف بين إنسان وآخر، ولذلك قد يكون المال نعمةً من أعظم النعم، على صاحبه إنْ جاء عن طريق الكسب الحلال، أو قد يكون نقمةً من أعظم النقم إن جاء عن طريق الكسب الحرام؛ فإن وسَّع صاحب المال الحلال على نفسه وعياله بوجوه الانفاق، وأكثر من الحسنات سراً وعلانية، وساهم في مشاريع إنسانية، وأعطى الفقراء والمساكين.. إلخ ففي جميع هذه الوجوه يكون قد أنفق في سبيل الله، ويكون إنفاقه خيراً له وأبقى..

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٢٦١ و٢٦٢.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٦.

أما إذا طمع صاحب المال بماله، وغلب عليه الجشع بجمعه، وتكالب على اكتنازه وتكديس الثروة، ثم بخل على نفسه وعياله، ولم يدفع زكاة أو يتصدّق بصدقة، فإنَّ المال قد يكون نقمة تنزل عليه، ولا يناله إلَّا التعب والشقاء في عدِّه وإحصائه، لأنه لم يراع فيه حقوق الله تعالى، وحقوق عباده. ثم تكون الطَّامَّة الكبرى إذا كان جمع ماله من حرام فهنا، يكون قد أسخط الله في جمعه، وسوف يكون مالُهُ ويلاً عليه، عند ملاقاة ربّه تعالى..

وقد زيّن القرآن الكريم للنفوس المؤمنة، الإِنفاقَ في سبيل الله، مبيّناً أنَّ هذا الإنفاق هو بمثابة قرض لله ـ مما يُقرِضُ عادةً الدائنُ للمدين في دنيا الناس ـ وأنَّ من يقرض الله قرضاً حسناً ـ والله هو الغنيّ عن عباده، وهو الرزاق الوهاب ـ يضاعفه له يوم القيامة[1]. ولعلَّ في هذا المفهوم القرآنيّ العلاج الشافي لشحّ النفوس، وطمعها في حب المال؛ فهو يستل[2] منها الحرص والتقتير، ويدفعها إلى البذل والإنفاق بسماحةٍ، وطيب خاطر.

ويضرب لنا الحقُّ تبارك وتعالى المثل على الإنفاق في وجوه البرّ والخير ـ وهو الإنفاق في سبيل الله ـ بالنبات الجيّد المعطاء.. فالإنسان يبذر الحبَّة، التي لا تنبت عادةً إلَّا سنبلة واحدة، فإذا أنبتت الحبةُ سبعةَ فروعٍ، في رأس كل منها سنبلة، وفي كل سنبلة مائة حبة، فإن الحبَّة الواحدة تكون قد أعطت سبعمائة حبة.. هكذا يكون فضل الذين ينفقون في سبيل الله، كما يبرزه لنا التمثيل القرآنيّ.. ولا

---

(١) يقول الله تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

(٢) يستلّ: سَلَّ الشيء سَلاًّ: جرّده، أخرجه من.

يستغربنَّ أحدٌ تصور مثل هذه السنابل بجذعٍ واحدٍ من حبةٍ واحدة، إذا كان الله جلت مشيئته هو المنبتُ، والحبَّةُ ليست إلّا سبباً أُسند إليها الإنبات، كما أُسنِدَ إلى التربة، والماء والهواء، وغيرها من العناصر ممّا يجعل هذه الحبة الواحدة تعطي كلَّ ذلك النماء الكبير. . فهل بعدُ من ينكر أنَّ الحنَّان المنَّان قادر على أنْ يضاعف لعباده المحسنين من الأجر بقدر ما يشاء، وخاصة عندما نعلم أنَّ مثل هذا التمثيل في القرآن ليس إلّا تصويراً للأضعاف كأنها ماثلة أمام أعيننا، وأنَّ كلَّ نفقة في سبيل الله قد يضاعف أجرها في الآخرة سبعين ضعفاً، أو أنه يمكن أنْ يُعطى المنفق رزقاً في الدنيا، يعادل نفقته الواحدة سبعمائة مرة. . فما أعظم كرمَ الله على عباده المحسنين، وقد استحقوه على بذلهم، وعلى ما في نفوسهم من بذور للخير تؤتي ثمارها كل حينٍ بإذن الله. .

ومثل هذا الإنفاق في وجوه البرّ والخير لأجل مساعدة العباد للعباد، لا يقل عنه شأناً الإنفاق لإعلاء كلمة الله تعالى، ونشر دينه القويم، أما مضاعفة أجره، فالأمر فيه يعود لله تعالى؛ ولكنْ ما هو أعلى منه مقاماً في الأجر، الجهاد في سبيل الله، حتى بذل النفس، ونيل الشهادة، وهو الجهاد الذي أمر به ربُّ العالمين بقوله العزيز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾(1)؛ أما أجر المجاهدين فقد بيّنه القرآن الكريم في كثيرٍ من الآيات، ومنها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(2). من أجل ذلك رأينا

(1) سورة التوبة، الآية: ٧٣.

(2) سورة التوبة، الآيات: ٢٠ ـ ٢٢.

المسلمين الأوائل أحرصَ الناس على الجهاد في سبيل الله، إذ كانوا لا يتوانون عن بذل أموالهم لتجهيز أنفسهم، وتجهز الجيش الإسلاميّ لأداء واجبه المقدس، ثم الإقدام على خوض القتال، وبذل المهج والنفوس دون أي تثاقل أو تقاعس، من أجل نيل رضوان الله تعالى. . فمثل هذه الحسنات في الجهاد تكون ـ إذا شاء الله ـ أضعافاً مضاعفة، وتصل إلى المئات، بينما تكون النفقة في غير الجهاد حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، وكلُّ مضاعفة رهنٌ بما يريد مولانا وربُّنا الكريم. .

ومن ينفق في سبيل الله تعالى، ومن أجل مرضاته عزَّ وجلَّ، ولا يُتبع هذا الإِنفاق بالمنّ، وبتعداد ما أنفق، وإذلال من يُعطي، أو لا يرافق هذا الإِنفاق أذىً في التطاول على كرامة من يُحسَنُ إليه. . أجل، فالذين ينفقون ابتغاء وجه الله، كان أجرهم عند ربّهم عظيماً، وهؤلاء لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون يوم القيامة، لأنهم يعطون أو يبذلون وقلوبهم مفعمة بالإِيمان والرحمة، وبحبِّ عمل الخير، فيخرج المال، حينئذٍ، من قلوبهم قبل خروجه من أيديهم، ومن غير جزع أو هلع من فقر أو حاجة، فهم يعلمون أنَّ المال مالُ الله، وأنَّ إنفاقه يجب أنْ يكون في سبيل الله. .

وكم تكون الحياة جديرة بالتقدير والاحترام عندما تكون زاخرة بمثل هذا العطاء الصادر عن قلب طيِّبٍ ونفسٍ سخيَّة. . ففي موكب الحياة يوجد كثيرون من ذوي الحاجة والعوز، والإِنسانُ الطيِّب يتَّجه فيها دائماً إلى البذل ومدّ العون للآخرين، وخصوصاً إذا كان كريماً بطبعه، متأثراً بعقيدته، وشاعراً بأحوال أمته، وأحوال أبنائها. . إنه ـ بلا شك ـ يحب أن ينفق لإعلاء كلمة الله، وتأمين مصالح الأمة، وسدّ حاجات المؤمنين من إخوته في الدين، ومن أبناء وطنه المحتاجين.

والإِنفاق الذي يقبله اللَّهُ سبحانه ويضاعفه في الدنيا والآخرة يرفع من قدر الإِنسان، لأنه لا يؤذي كرامات الناس أو يخدش مشاعرهم، ولأنه يكون منبعثاً، في الأصل، عن أريحيَّةٍ[1] ونقاءِ طويَّةٍ، ويكون متجهاً إلى الله تعالى وحده، وابتغاء مرضاته. .

أما الإِنفاق الذي فيه منٌّ وأذى فهو مكروه عند الله تعالى. لأن المنَّ ظاهرةٌ كريهة فيها لؤمٌ وشعور خسيس منحط. والنفس البشرية لا تمنّ بما أعطت إلّا رغبة في الاستعلاء أو في إذلال الآخذ. فالمنّ إذاً فيه ضرر للمنفق وللآخذ على حد سواء. ضرر بما يثير في نفس المنفق من كبر وخيلاء، وأذى للآخذ بما يثير في نفسه من انكسار وانهزام. . وما أراد الإِسلام بالإِنفاق مجرد سد الحاجة وملء البطون، وإنما أراد تطهيراً وتزكية لنفس المعطي، وربطاً له بأخيه في الدين، ، ونظيره في الإِنسانية، وتذكيراً له بنعمة الله عليه في غير منعٍ عن المحتاجين، ولا منٍّ عليهم. . كما أراده الدين الحنيف ترضيةً وتندية لنفس الآخذ، وتوثيقاً لصلاته الطيبة بالمحسنين. . . وهكذا تسير الجماعة على أساسٍ من التكافل الاجتماعي والتعاون الجماعي، ويكون قوامها وحدة اتجاهها ووحدة أهدافها. . والمنّ يذهب بهذا كله، ويحيل الإِنفاق سمّاً زعافاً، وناراً محرقة. فهو أذىً وإنْ لم يصاحبه الإيذاء باليد، لأنه يحمل في ذاته وطبيعته الإيذاء الذي يمحق الإِنفاق، ويمزق وحدة المجتمع، ويثير السخائم والأحقاد بين الأفراد.

فمن ينفق في سبيل الله هو من يستحق الأجر والثواب، والله يضاعف الحسنات لمن يشاء، وهو سبحانه واسع الفضل لا ينقطع

---

(١) أريحيّة: الأريحيُّ: الواسع الخُلُق. وأخذته الأريحيّة أي إرتاح للندى والكرم.

عطاؤه ولا ينضب. كما أنه عليمٌ بالنوايا، مثيبٌ عليها، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

وكما في القرآن الكريم أمثلة دالة على الإِنفاق في سبيل الله، كذلك فيه أمثلة دالة على الإِنفاق رياءً، وفي سبيل حب الظهور والتعالي.

ب ـ مثل الإنفاق رياءً، ومثل الإنفاق ابتغاء مرضاة الله

يقول الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۞ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۞ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

تلك مأثرة أخرى من المآثر التي يريد القرآن أن يربّينا عليها، وهي أنَّ الرياء يبطل ثواب العمل، والأذى يحبط أجر الصدقة.. فالرياء مَرض من أمراض المجتمع البشريّ، يدل على ضعف في الشخصية، وسوءٍ في الخُلُق. وطريق هذا الرياء المراوغة التي يسلكها ـ عادة ـ كل متلوِّن مخادع يريد الوصول إلى منافع ومكاسب

(١) سورة البقرة: ٢٦٤ ـ ٢٦٦.

شخصية، دون أنْ يحسب، في المقام الأول، حساباً لكرامته، وعزة نفسه، وسجيّته[1] الإنسانية! . .

والإِسلام عندما جعل الصدقة ركناً من الأركان التي يقوم عليها هذا الدين، إنما أوصى بها تزكية لنفس المتصدِّق وماله، وحرصاً على أخيه المسلم لكي يمنع عنه غائلة الجوع، ويرفع عنه وطأة الحاجة. ولذلك ينهى الله تعالى الذين آمنوا بألّا يبطلوا صدقاتهم بالمن والأذى على مستحق الصدقة، وأنْ يحافظوا على كرامته بأَلّا تمتهن بالمن، وعلى شعوره بألّا يمسَّه أذى، لئلاّ يسبب له ذلك ألماً نفسياً يجلب له التعاسة. وهذا ما يُسقط معنى الصدقة بل ويحيلها شقاءً ونقمةً . .

وعندما يَنهى الله تعالى الذين آمنوا بألّا يبطلوا صدقاتهم بالمنّ والأذى، فذلك حتى لا يكونوا كالذي ينفق ماله رياءً أمام الناس، وحباً بالظهور، ولفت الأنظار دون أدنى نيةٍ في نيل جزاء أو فضلٍ من ربّه. . ورياؤه في ذلك دليل على عدم إيمانه بالله واليوم الآخر، فمثله في إنفاقه وريائه كمَثَل حجرٍ أملسٍ عليه تراب، نزل عليه مطر شديد، فجرف ما عليه من تراب، وتركه صلباً أملس على أصله. . فالمنّانون الذين يُتبعون إنفاقهم أذًى، هم على شاكلة ذلك المرائي، يذهب إنفاقهم سدىً، لا يقدرون على شيء من فائدة أو منفعة لأنهم لا يجدون له أجراً أو ثواباً في الآخرة وفي هذا يقول رسول الله ﷺ: **«مَنْ أَسْدَى إلى مُؤمنٍ معروفاً ثم آذاهُ بالكلام أو مَنَّ عليه، فقد أبطَلَ الله صدقَتَهُ»**[2]؛ بل ويبيِّن الرسول الأعظم أنَّ المنَّان له عذاب أليم يوم القيامة بقوله ﷺ: **«ثلاثةٌ لا يكلِّمُهُمُ اللَّهُ يومَ القيامةِ، ولا ينظُرُ إليهم**

---

(١) سجيَّته: السَّجِيَّة: الخُلُقُ والطبيعةُ.

(٢) رواه ابن ماجه، باب الصدقات، ص٣.

ولا يُزَكِّيهِمْ ولَهُمْ عذابٌ إليمٌ: المَنَّانُ بِمَا أَعْطَى، والمُسْبِلُ إزارَهُ، والمنفِقُ سِلعَتَهُ بالحَلَفِ الكاذِبِ»[1]. ولذلك كان التعقيب ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، الذين لا ينفقون ابتغاء مرضاة الله، فلا يستحقون أجراً على أعمالهم، بل ولأنَّ كفرهم، في الأصل، قد أحبط أعمالهم جميعها، وحال دون استحقاق الثواب عليها.

وبمقابل المثل على الإنفاق رياءً، فإن القرآن الكريم يسوق المثلَ على الإِنفاق المثاليّ، أي الإنفاق الذي يرتكز على دعائمَ من الإِخلاص والتقرب إلى الله تعالى، وتثبيت الإيمان في النفس. وهذا الإِنفاق، مهما كانت قيمته، فإنَّ مثوبته قائمة، وجزاءَه لا ينقطع، فالذين ينفقون أموالهم ابتغاءَ مرضاةِ الله سبحانه، وتثبيتاً من أنفسهم، هم أصحاب فضلٍ كبيرٍ عند ربّهم العليّ القدير. فهم ينفقون تصديقاً لوعده تعالى بالثواب، وتعبيراً عمَّا هم عليه في قرارة نفوسهم من الجود، وحب الإحسان، لأنَّ المال معادل للنفس ـ كما يقال ـ وقد يكون إنفاقه أو بذله أشق على النفس من القيام بالعبادات الأخرى، حتى تلك التي فيها مشقة مثل الصوم أو الحج.. فالإنفاق النابع من النفس قد يزيد الإِيمان فيها تثبيتاً، ويجعلها أشدَّ بصيرةً في الدين حتى لترى الثواب في الآخرة حق اليقين، ومَثَلُ إنفاق هؤلاء المؤمنين كمثل بستان في مكانٍ مرتفع مستوٍ. وقد سمَّاهُ التشبيه القرآني «ربوة» ـ أي المكان المرتفع المستوي ـ التي يكون نبتها، عادةً، أحسن، وريعها أكثر من الأرض المنخفضة التي يتجمع فيها الماء.. فإذا هطل المطر شديداً على بستانٍ في ربوةٍ، أعطى ثماراً وغلالاً تعادل ضعفين عمَّا تكون عليه في الموسم العادي، وإذا نزل المطر طلًّا، أي خفيفاً، فإنه

---

(١) صحيح مسلم، رقم ٣٨.

يكون كافياً لبقاء البستان على رونقه وجناه: يثمر ويزكو.. وسواءَ كثر المطر عليه أم قلَّ.. فكذلك نفقات الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله، وتثبيتاً من أنفسهم على حب الصدقة والخير، فهؤلاء نفقاتهم تزكو عند الله سبحانه كثرت أم قلَّت. والله بما يعملون بصير، فيجازيهم به.

وهذا المثل يبيّن للناس أنَّ الإنفاق قد يكون إما إنفاقاً كثيراً مثل المطر الوابل، أو إنفاقاً قليلاً مثل الطل الخفيف، فالأول يعبر عن سعة الرزق، والثاني عن قلة الرزق، أي ما دون السعة، كما ذهب إليه صاحب المنار إذ يقول: «ووجه الشبه عندي أن المنفق ابتغاء مرضاة الله والتثبيت من نفسه هو في إخلاصه وسخاء نفسه وإخلاص قلبه، كالجنةِ الجيدةِ التربة، الملتفة الشجر، العظيمة الخصب في كثرةِ بِرِّه وإحسانه. فهو يجود بقدر سعته، فإن أصابه خير كثير أغدقَ ووسَّعَ في الإنفاق، وإن أصابه خير قليل أنفق منه بقدر. فخيره دائم، وبرّه لا ينقطع، لأن الباعث عليه ذاتيٌّ لا عرضيّ كأهل الرياء وأصحاب المنِّ والإيذاء، فالوابل والطلُّ عبارة عن سعة الرزق، وما دون السعة»[(١)].

ثم تمضي الآيات الكريمة بعد ذلك لتبين عاقبة الرياء والأذى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾[(٢)].

أيود أحدكم أنْ تكون له جنة، غنية بأشجار النخيل والفواكه، والأعناب والزروع على أنواعها وألوانها، وتجري فيها المياه الدافقة لتؤتي أكلها كل حين بإذن الله، ثم أصابه الكبر فأصبح شيخاً فانياً،

---

(١) تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٦.

عاجزاً عن رعاية جنته، وليس له إلا ذريةٌ صغارٌ، ضعفاء لا يقدرون على شيء؟ أجل، أيودُّ أحدكم أنْ تكون له مثل تلك الجنة ثم أصابها إعصارٌ فأتى عليها كلها، ودمرها بناره المحرقة، دون أنْ تكون له ـ وهو الشيخ الهرم ـ أو لذريته ـ الصغار العاجزين ـ أيةُ حيلة في رد ما أحاق بهم، وفي وقت هم بأمسّ الحاجة إلى رزقهم الذي تلف، لأنهم وقعوا في الفقر، فلا يملكون شروى نقير؟

ذهكذا يسأل الله تعالى المؤمنين، بما يضرب لهم في هذا المثل من العظة، وبما يحمل هذا المثل من نذير مبين على التهاون في إعطاء الصدقة، وإيتاء الزكاة. . كما يجعله مثلاً للذين ينفقون أموالهم رياءً ومنّاً؛ فالذي لا يدفع نصيبه من الزكاة، ولا يحسن بالصدقة، وكذلك الذي ينفق ماله لِيُرائيَ الناس به، فهذا أو ذاك ـ ومن هم على مثاليهما ـ يذهب ماله هباءً، فلا يأجره الله عليه؛ فإذا كان يوم القيامة، واحتاج إلى أجر نفقته، وجدها قد أحرقها الشحُّ أو الرياء، وظلت في الحياة الدنيا بلا ثواب أو أجر. . إنَّ مثله كمثل صاحب تلك الجنة، الذي أفنى العمر في الإنفاق عليها جهداً ومالاً، حتى إذا كبر، وكثرت عياله واحتاجت لخيرها، أتاها أمر الله بريحٍ سمومٍ فأحرقتها، ولم يجد منها شيئاً وقت الحاجة.

هذا المثل يدل على الحسرة، بعد سلب النعمة، من عدة وجوه:

أولاً: إنَّ الذي يرائي في إنفاقه ربما ينتفع من ريائه عاجلاً بالتفاخر وحب الظهور، لكن سرعان ما تنقطع هذه المظاهر عندما يصبح كبيراً وعاجزاً عن التباهي بنفسه، مما يورث في نفسه الحسرة والأسى.

ثانياً: إنَّ الذي يهمل طاعة الله من أجل ملاّذ الدنيا لا يحصل في الآخرة إلا على الحسرة والندم. فهو يحتاج في آخرته إلى الأعمال

الصالحة كحاجة صاحب الجنة وذريته إلى ثمارها وخيراتها. ولعلّ حسرة هذا الشيخ الفاني تكون أعظم بعدما يئس من الشباب الذي ولّى، فلم يعد لديه إمكانية على العمل والعطاء.

ثالثاً: إن هذا المثل يصور لنا نموذجاً من واقع الحياة البشرية حيث نجد مثل هذا الشيخ الكبير في ضعف جسمه، وقلّة حيلته، وقد تكون له ذرية لا يعطفون عليه، أو قد يكونون فقراء لا يقدرون على نفعه بشيء، إنْ لم يكونوا عالَةً عليه دائماً، فكما يتحسّر هذا الشيخ على حياته السابقة، هكذا يتحسَّر الذي ينفق منًّا وأذىً، أو الذي ينفق رياءً في حياته الدنيا، لأنه لا ذخر له في عمل صالح يوم الدّين، مما يعني في النهاية أنَّ الإنسان أحوج ما يكون إلى العمل الصالح إذا انقطعت عنه الدنيا.

«كذلك» أي مثلما بيّن الله لكم ما ذكر عن الإنفاق، يبين الله لكم الآيات التي تحمل الأمثال وفيها العظات والدلالات لعلكم تتفكرون، وتنظرون، وتتدبرون.

ج ـ مثل إنفاق الكافرين كمثل ريحٍ سمومٍ أصابت حرث قومٍ فأهلكته

يقول الله وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1].

إنَّ الذين كفروا لن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١١٦ و١١٧.

الله شيئاً. . وهنا تظهر الحكمة من هذا النصّ القرآني، من حيثُ أنَّ الإنسانَ يمكن أن يدفع عن نفسه، وقت الخطر أو الشدّة، بأعزّ شيءٍ لديه، إمَّا بواسطة التضحية بالمال، أو عن طريق الاستعانة بالأولاد، والتي قد تعرّضهم للشدة!. . وهذا في الحياة الدنيا، أما يوم القيامة، فالأمر يكون مختلفاً تماماً حيث لا يطلب الإنسانُ، ولا سيما المجرم، إلّا النجاة بنفسه، حتى ولو ضحَّى بكل مَن في الأرض، بمن فيهم أبناؤه، يقول تعالى ﴿يُبَصَّرُونَهُمْۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ * وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾[1]. . . إذاً فهل ينفع الكافرين يومئذٍ فداؤهم بأموالهم وابنائهم؟! كلًا، فلا رادَّ لعذاب الله، وقد كتب في اللوح المحفوظ أنَّ الكافرين هُم وقود النار.

ولكن قبل الوصول إلى ذلك اليوم المشهود، فقد يرى المؤمنون أنَّ الله تعالى يمدُّ في هذه الدنيا الكافرين من فضله، ويغدق عليهم من نعمه، فينفقون ما طاب لهم من الإنفاق على اللذائذ والشهوات، وعلى البطانة والأعوان؛ بل وربما يعطون المحتاجين، أو ينشئون المؤسسات الاجتماعية والخيرية، إلّا أنَّ ذلك لا يكون عادةً حباً بعمل الخير، وإنما خدمةً لمصالحهم، أو مصالح عقيدتهم في الكفر والشرك. . وحتى إنفاقهم، ولو كان بعضه في وجوه الخير، فلا عاقبة له في ميزان العدل الإلَهي، لأنه لم يكن إنفاقاً لنيل رضوان الله، أو في سبيل الله، بل كان إنفاقاً من أجل الدنيا، وفي سبيل الدنيا، طالما أنه من كافرين، سادرين في الكفر، أو من منافقين

---

(١) سورة المعارج، الآيات: ١١ ـ ١٤.

متلوّنين بالنفاق، فمثل إنفاقهم كمثل ريح فيها صِرٌّ ـ من حرٍّ أو بردٍ ـ يلفح الوجوه والأبدان، ويتلف الزروع والأشجار، لأنه ريح سموم، ما إنْ يصيب حرث قومٍ حتى يذوي ويموت.. وما ظلمهم الله تعالى بضياع نفقاتهم ـ كما يَضيع ذلك الحرث ـ ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم عندما تجاوزوا حدود الله، وخالفوا أوامره ونواهيه بالكفر والنفاق.. فالانفلات من التمسك بحبل الله الممدود يضيع أجر عملهم كلَّهُ، حتى ولو كان في ظاهره الخير، وذلك جزاء كل الذين يتنكَّبون عن حدود ما أنزل الله جلَّ وعلا على لسان رسله الكرام (صلوات الله عليهم).

وهكذا يتقرَّر أنْ لا جزاء يجدي على بذل، وأنْ لا قيمة لعمل ينفع، إلَّا إذا ارتبط بمنهج الإيمان، وإلَّا إذا كان باعثه حبَّ الله وطاعته. وعندما يقرّر القرآن الكريم ذلك، وهو قول الله الحق، فلا تبقى بعده كلمةٌ لإنسانٍ، ولا يجادل في أمر الله، أو قوله، إلَّا الذين يجادلون في آيات الله بغير علم، ولا هدى ولا كتابٍ منيرٍ.

٦ ـ لا يتحرك المرابون إلَّا كما يتخبط المجنون من مسّ الشيطان

يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ * يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم

مُّؤْمِنِينَ*فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾(١).

إنَّ كل الآيات القرآنية التي تتحدث عن الإنفاق الطيب إنما تحمد الإِنفاق في سبيل الله، وإعطاء ذي القربى، واليتامى والمساكين وابن السبيل والغارمين، ودفع الفدية عن المظلومين، وما إلى ذلك من وجوه البر، وذلك في الوقت الذي تبيّن ما للمنفق من الأجر الكريم، عاجلاً في الحياة الدنيا، أو آجلاً في الحياة الآخرة، وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٢).

وبعد هذا البيان القرآنيّ للإنفاق يأتي حكم اللّهِ في الربا، فيقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾. وهذا التشبيه الذي يعطيه سبحانه لآخذي الربا، يرسم لهم صورةً مهزوزةً، يحركها دافع شيطانيّ، بل يحركها الشيطان نفسه، بحيث إنَّ المرابين لا يقومون ـ من قبورهم يوم القيامة ـ إلا كما يقوم الذي يصرعه الشيطان من الجنون.. وهذه علامةٌ لآكلي الربا حتى يُعرفوا بها يوم القيامة. ويمكن أنْ تنطبق هذه الصورة على آخذي الربا في الحياة الدنيا، حيث نرى في تصرفاتهم ما يشبه، أحياناً كثيرةً، الجنون لشدة حبهم للمال، والحصول عليه بأية وسيلة، ولا سيما عندما يتخذون الربا، وهو الزيادة على مقدار المال في الحال أو الأجل، سبيلاً للكسب والعيش.

(١) سورة البقرة، الآيات: ٢٧٥ ـ ٢٧٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٤.

قال رسول الله ﷺ: «**لمَّا عَرَجَ بي جبرائيلُ إلى السَّماءِ رأيتُ أَقواماً يريدُ أحدُهُمْ أنْ يقومَ ولا يقدرُ مِنْ عِظَم بطنِه، فقلتُ: مَنْ هؤلاءِ يا جبرائيلُ؟ قالَ: هٰؤلاء الذينَ يأكلون الرِّباَ لا يقومونَ إلَّا كما يقومُ الذي يَتَخَبَّطَهُ الشيطانُ مِنَ المسِّ**»[1]. . فهذا التصوير لمن يتعاطى الربا هو تهديد واضح. وما كان أي تهديدٍ معنويٍّ ليبلغ إلى الحس ما تبلغه هذه الصورة المجسمة، الحية، المتحركة. . صورة الممسوس المصروع. . وهي صورة معروفة، معهودة للناس، إذا تذكروا رؤية المجنون وهو يتخبط بحركاته اللاواعية واللامسؤولة. . فالنص القرآنيّ يستحضرها لتؤديَ دورها الإِيمائيّ في إفزاع النفس لاستجاشة مشاعر المرابين، وهزها هزّة عنيفة تُخرجهم عن مألوف عادتهم، في نظامهم الاقتصاديّ، وفي حرصهم على ما يحققه لهم الربا من فائدة.

وذلك الصرع الذي يمسُّ المرابين، كان بسبب أنهم قالوا: إنما البيع مثل الربا في الجواز، وفي الربح. فوقعوا في شبهةٍ خاطئة، وهي ظنُّهم بأنَّه كما يحققُ البيع فائدة وربحاً، كذلك الربا فإنَّه يحقق فائدة وربحاً. وهي شبهة واهية، لأنَّ العمليات التجارية قابلة للربح والخسارة، في حين تكون العمليات الربوية محققة الربح، في كل حالة، ولا خسارة فيها؛ وهذا هو الفارق بين البيع والربا، وهنا مناط التحليل والتحريم؛ بمعنى أنَّ الربا لم يحرّم في الإسلام إلَّا لأضراره البليغة على الناس، ولعلَّ أهمها ما يؤدي من ظلمٍ للمدين، كما نعهد في كل حالات الربا التي تتراكم فيها الفوائد على رأس المال، والتي تربو وتتزايد طالما لم يجرِ التسديد، حتى يصبح المدين في حالة

---

(١) صحيح مسلم، رقم ٣٦٧.

إفلاس.. ولا يكون الربا في أعمال التجارة وحدها، بل وفي كل حالةٍ يلجأ فيها المعسر، أو صاحب الحاجة إلى الاستدانة، حتى إذا لم يجد من يعينه، فإنه يضطرُّ للّجوء إلى المرابي، الذي يقرضه المال، مقابل نسبة مئوية على رأس المال، وقد تكون هذه النسبة مرتفعة إلى الحد الذي تشكل فيه إرهاقاً للمدين، بحيث لا يقدر على التخلص من براثن المرابي إلّا بشق النفس، هذا إنْ لم يضطرَّ إلى بيع بيته، أو مؤسسته، أو التنازل، للمرابي الذي يستغلّه، عن عقاره أو أي مالٍ غير منقول يملكه حتى لا يبقى له شيء من حطام الدنيا!.. وأما المحتاج الذي لا تكون لديه قدرةٌ على التسديد، فلا يلجأ أصلاً إلى الاستدانة، فمثل هذا المحتاج لا يجد من يمدُّ له يدَ المساعدة في النظام الربوي، فيبقى على حاجته؛ وقد تغلبه هذه الحاجة حتى توقعه في مشكلة اقتصادية أو معيشية أو اجتماعية قد تزعزع الاستقرار في حياته!..

هذا بعضٌ من ملامح النظام الربوي، أفلا يكون حكم الله تعالى في تحريم الربا ما يخلّص الناس من الآفات التي يخلّفها هذا المرض الاقتصادي في المجتمع؟! ومن هنا نفهم لماذا جاء الردُّ في القرآن الكريم على الذين قالوا: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ بتحريم الربا تحريماً جازماً، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾.. فقد أحلَّ الله البيع الذي لا ربا فيه، وجعله كسباً حلالاً، وحرَّم الربا الذي ينطوي ـ كما أشرنا قبل قليل ـ على سوءَيْن: الزيادة التي يفرضها المرابي على رأس المال الذي يقرضه، وقطع سبل المعروف بين الناس، الذي يؤدي إلى تحمل المحتاج عبئاً ثقيلاً؛ فالبيع، في مفهومه الشرعي، هو عقد على العين بِعوَض، بينما الربا زيادة في غير عِوَض

للتأخير في الأجل، أو زيادة في الجنس. قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ قَرْضٍ جَرَّ إلى نَفْعٍ فَهوَ رِبَا**»[1].

وإنَّ في علة تحريم الربا ما يوحي بأنَّ هذه الآفة الاجتماعية تعدُّ من أهم العوامل التي تؤدي إلى تعطيل المعايش والمتاجر بوجهٍ عام، طالما أنَّ المُرابي لا يقرض المال إلّا بزيادة. وقد قال جعفر الصادق عليه السلام: «إنما شدَّد اللَّهُ سبحانه في تحريم الربا لئلا يمتنع الناس عن اصطناع المعروف قرضاً فيما بينهم أو رفداً». .

﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ﴾ أي فانزجر، وتذكر واعتبر، (فامتنع عن أكل الربا)، فله ما سلف قبل النهي، فلا يُستردُّ منه، وأمره في العفو عنه إلى الله تعالى. أما من عادَ إلى أكل الربا مُشبِّهاً إياه بالبيع في الحلال، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، لأنهم عصوا أوامر الله تعالى في النهي عن الربا، وظلوا متعمّدين تعاطيه،، فكان جزاؤهم البقاء الدائم في النار. وقال محمد الباقر عليه السلام: «من أدرك الإسلام وتاب ممَّا كان عليه في الجاهلية، وضع الله عنه ما سلف. فأمّا ما لم يُقبض بعد، فلا يجوز له أخذه، وله رأس ماله فقط. وأمره بعد مجيء الموعظة والتحريم إلى الله تعالى، إنْ شاء عصمه عن أكله في انتهائه عنه، وإنْ شاء خذله، أي عامله بما يستحق. ولذلك فإنَّ من عاد إلى أكل الربا بعد التحريم، فقد استحق أنْ يكون في النار خالداً فيها».

ثم يبيّن الله تعالى في محكم الآيات الكريمة أنه «يمحق الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم». . فهو سبحانه يمحق الربا بأن ينقص رأس المال الربوي، ويذهب ببركته. بينما بالمقابل،

---

(١) مصنّف إبن أبي شيبة، ج٥، ص٨٠.

يزيد الصدقات وينمّيها ويضاعف ثوابها؛ ولأن الربا هو من عمل الإنسان العاصي لأمر الله فإنّه تعالى لا يحب أي عاصٍ لأمره، كافرٍ بتحريم الربا، فاجرٍ بأكله، وهو سينال عقابه إنْ عاجلاً أو آجلاً.

أمّا أصحاب الصدقات فهم المؤمنون الذين أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، الذين لهم أجرهم العظيم عند ربهم، ولا خوف عليهم من العذاب، ولا هم يحزنون في الآخرة من العقاب الذي يطال الكافرين من آكلي الربا، وأصحابِ الفواحش..

ثم يخاطب اللَّهُ سبحانه المؤمنين مباشرة، ليأمرهم بترك ما بقي مستحقّاً لهم من الربا، إنْ كانوا صادقين في إيمانهم، لأنَّ من شأن المؤمن الامتثالَ لأمر ربّه (وقيل إن هذه الآية نزلت لما طالب بعض الصحابة ـ بعد النهي ـ بربا كان لهم من قبل).. وهذا النهي الربانيّ هو لجميع المؤمنين، لكي يحاسبوا أنفسهم في كل وقت، فيتخلَّوا عن الربا، إنْ وجد في حياتهم، ويتركوه إلى ما لا نهاية. فإنْ لم يفعلوا ما أمرهم اللَّهُ به، فإنه ينذرهم بحربٍ منه تعالى، وبحرب من رسوله الكريم. وهذا تهديد لهم، فإنْ تابوا، ورجعوا عنه، فإنَّ رؤوس أموالهم تعاد إليهم بلا زيادة، فلا يَظلمون غيرهم بزيادة يأخذونها منهم رباً، ولا يُظلَمون بنقصٍ في رؤوس الأموال التي تعاد لهم بتمامها..

فالربا، إذاً، ممقوتٌ من الله القوي المتين، وهو يجلب البلاء والعقاب، بخلاف الصدقات التي تزكّي النفوس ورؤوس الأموال. قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الربا وإنْ كَثُرَ فإنَّ عاقبتَهُ إلى قِلّ** ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾»[1].

(١) صحيح مسلم، رقم: ٨٩.

هذا حكم الله تعالى، وسنة رسول الله ﷺ في الربا. . ولكن ماذا فعل الناس؟ لقد جعلوا الربا الوجه الآخر المقابل للصدقة، بينما الاختلاف بينهما بيّنٌ، ففي حين أنَّ الصدقة عطاء، وسماحة، وطهارة، وزكاة، وتعاون وتكافل، فإنَّ الربا سلبٌ وقذارة، ودنس وأثرة. ذلك أنَّ الصدقة تُعطى من المال بلا عوضٍ، ولا ردّ. والربا استرداد للدَّين ومعه زيادة محرّمة مقتطعة من جهد المدين أو من لحمه. من جهده إنْ كان قد عمل بالمال الذي استدانه فربح هو نتيجة لعمله وكده، ومن لحمه إنْ كان لم يربح أو خسر، أو كان قد أخذ المال للحاجة فأنفقه على نفسه وأهله، ولم يربح شيئاً. . .

ومن ثمَّ فهو ـ الربا ـ الوجه الآخر المقابل للصدقة ـ إنْ صحَّ ذلك ـ إنما هو الوجه الكالح! لهذا كان عرض السياق القرآنيّ للربا بعد عرض الصدقة مباشرةً. وقد عرضه عرضاً منفِّراً، يكشف عمَّا فيه من قبح وشناعة، ومن جفاف في القلب، وشرٌ في الجشع، وفساد في الأرض، وهلاك للعباد. وأما الصدقة فهي الوجه الطيب ،السمح، الطاهر الذي يطرد الجشع، ويصلح الأرض، ويوطد الإلفة والمحبة بين العباد، يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾[1].

ولم يبلغ من تفظيع أمرٍ أراد الإِسلام إبطاله من أمور الجاهلية ما بلغ من تفظيع الربا. . ولا بلغ من التهديد في اللفظ والمعنى ما بلغ التهديد في أمر الربا. ولله الحكمة البالغة، فلقد كانت للربا في الجاهلية مفاسده وشروره، ولكن الجوانب القبيحة من وجهه الكالح،

(١) سورة الروم، الآية: ٣٩.

ما كانت كلها بادية في مجتمع الجاهلية كما بدت اليوم وتكشفت في عالمنا الحاضر، ولا كانت البثور والدمامل في ذلك الوجه الدميم مكشوفة كلها كما كشفت اليوم في مجتمعنا الحديث. فهذه الحملة المفزعة البادية في هذه الآيات البينات على ذلك النظام المقيت، الذي هو النظام الربوي، تتكشف اليوم حكمتها على ضوء الواقع الفاجع في حياة البشرية، أشد مما كانت متكشفة في الجاهلية الأولى.

ومن يُرِدْ أنْ يتدبر حكمة الله، وعظمة هذا الدين، وكمال هذا المنهج في تحريم الربا، يدرك اليوم مما يجري في العالم ما لم يكن يدركه الذين واجهوا هذه النصوص أول مرة، وأمامه من واقع الحياة ما يصدّق كل كلمة تصديقاً حيًّا مباشراً واقعاً؛ فالبشرية الضالة التي تأكل الربا تنصبُّ عليها البلايا الماحقة من جراء هذا النظام الربويّ، في أخلاقها، ودينها، واقتصادها.. وتتلقى ـ حقّاً ـ حرباً من الله تصبُّ عليها النقمة والعذاب أفراداً وجماعات، وأمماً وشعوباً، وهي لا تعتبر ولا تفيق!..

والنظام الربويّ، والنظام الإِسلاميّ: هما نظامان متقابلان، متضـادان لا يلتقيان في تصور، ولا يتفقان في أساس، ولا يتوافقان في نتيجة. إنَّ كلًّا منهما يقوم على تصور للحياة والأهداف يناقض الآخر تمام المناقضة، وينتهي إلى ثمرة في حياة الناس تختلف عن الأخرى كل الاختلاف.. ومن ثم كانت هذه الحملة على الربا المفزعة من القرآن الكريم، وكان هذا التهديد المرعب: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

فالنظام الإِسلاميّ ينعش الإِنسان ويجعله رفيقاً رحيماً بالآخرين،

فينفق ماله لا مِنَّةً، ولا حبّاً بجاهٍ، بل ابتغاءَ وجه الله سبحانه وتعالى، الذي جعل في مال المؤمن حقّاً معلوماً للسائل والمحروم.

أما النظام الربويّ فقد أفسد طبيعة الإنسان في تشريعاته التي سحقت البشرية سحقاً، وأشقتها في حياتها أفراداً وجماعات، ودولاً وشعوباً، لمصلحة حفنةٍ من المرابين المنحطين أخلاقيّاً ونفسيّاً؛ وأحدثت خللاً في دورةِ المال، ونموِّ الاقتصاد نموّاً سويّاً.. وهؤلاء المرابون الذين لا يراعون في البشرية إلّاً ولا ذمةً، ولا يرقبون فيها عهداً ولا حرمة، هم وحدهم الذين ترجع إليهم الحصيلة النهائية لجهد البشرية كلها، وكدِّ الآدميين وعرقهم ودمائهم، وذلك في صورة فوائد ربوية لم يبذلوا هم حبة عرق، ولا نقطة دماء من جهودهم، في تحصيلها...

فالمرابون، أفراداً وأصحاب بنوكٍ ربويةٍ، لا يملكون في ظل النظام الربوي، المال وحده، بل ويملكون ـ في الغالب ـ النفوذ أيضاً.. ولما لم تكن لديهم أفكار سليمة، ولا تصور دينيّ صحيح، بل لمَّا كانوا يسخرون من حكاية الأديان والأخلاق والمُثل، فإنهم بطبيعة الحال يستخدمون هذا النفوذ الهائل الذي يملكونه في إنشاء الأوضاع والأفكار والمشروعات التي تمكنهم من زيادة الاستغلال، ولا تقف في طريق جشعهم وخسة أهدافهم أية عوائق.. وأقرب الوسائل هي تحطيم أخلاق البشرية وإسقاطها في مستنقع آسن من اللذائذ والشهوات، التي يدفع فيها الكثيرون آخر درهم يملكونه، حيث تسقط جميع الأموال في المصائد والشباك المنصوبة. وذلك مع التحكم في جريان الاقتصاد العالميّ وفق مصالحهم اللامحدودة، مما أدّى إلى الأزمات الدورية المعروفة في عالم الاقتصاد، وإلى انحراف

الإِنتاج الصناعيّ إلى مصلحة الممولين المرابين الذين تتجمع في أيديهم مفاتيح الثروة العالمية.

والكارثة التي تمت في العصر الحديث ـ ولم تكن معروفة بهذه الصورة البَشعة في الجاهلية الأولى ـ هي أن هؤلاء المرابين الذين كانوا يتمثلون في الزمن الماضي بصورة أفراد أو بيوت مالية، قد أصبحوا يتمثلون الآن بصورة المصارف والمؤسسات المالية، بالإضافة إلى الأفراد الأغنياء الذين ما يزالون يرابون بأشكال متنوعة غالباً ما يداخلها الاحتيال وسرقة أموال الناس البسطاء.. وقد استطاع أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة، بما لديهم من سلطة هائلة مخيفة، داخل أجهزة الحكم وخارجها، وعلى مستوى الدولة المتقدمة والنامية، وبما يملكون من وسائل التوجيه والإِعلام في الأرض كلها، سواء في ذلك الصحف، والكتب، والجامعات والأساتذة، ومحطات الإِرسال التلفزيونية والإذاعية ودور السينما والمسارح وغيرها.. أجل بفعل ذلك كله، استطاعوا أنْ ينشئوا عقلية عامة تسوّغ أكل الربا بين جماهير البشر المساكين، الذين يأكل أولئك المرابون لحومهم، ويشربون دماءهم في ظل النظام الربويّ.. وجعلوا هذه العقلية خاضعة للإِيحاء الخبيث المسموم بأنَّ الربا هو النظام الطبيعيّ المعقول، والأساس الصحيح الذي لا أساس غيره للنمو الاقتصاديّ، وأنه من «بركات» هذا النظام و«حسناته»، كان هذا التقدم الحضاريّ في الغرب!. وأنَّ الذين يريدون إبطاله جماعة من المتديّنين التقليديين الخياليين ـ غير العمليين ـ وأنهم يعتمدون في نظرتهم هذه على مجرد نظريات ومُثُل لا رصيد لها من الواقع؛ وهي كفيلة بإفساد النظام الاقتصاديّ كله لو سمح لها أنْ تتدخل فيه!. حتى لَيتعرض الذين ينتقدون النظام الربويّ

للسخرية، ليس من صانعي النظام وحدهم، بل ومن هؤلاء البشر الذين هم في حقيقة الأمر ضحايا بائسة لهذا النظام ذاته!. أجل ضحايا لهذا النظام، شأنهم شأن الاقتصاد العالميّ نفسه، الذي تضطره مجموعات المؤسسات المالية، والكارتلات الاقتصادية ـ وجميعها ربوية ـ لأنْ يجري جرياناً غير طبيعيّ ولا سويّ، ويتعرض للهزات الدورية المنظمة، بحيث لا تحصل فيه البشرية على نفع، لأن مداخيله تظل حكراً على حفنةٍ ملوثة من الذئاب، مصّاصي الدماء، وذلك باسم التنمية، والاقتصاد الحرّ، والعولمة!..

وليس هذا وحده هو كل ما للربا من جريرة، فإن قيام النظام الاقتصاديّ على الأساس الربويّ يجعل العلاقة بين أصحاب الأموال وبين العاملين في التجارة والصناعة، علاقة مقامرة ومشاكسة مستعرة. فالمصارف الربوية تجتهد في الحصول على أعلى نسبة من الفائدة، ومن ثم تمسك المال حتى يزيد اضطرار التجارة والصناعة إليه، فيرتفع سعر الفائدة، وتستمر المصارف في رفعه حتى يجد العاملون في التجارة والصناعة أنهم ليسوا سوى أجراء يعملون لحساب أصحاب المال، إذ يجني ثمرةَ كدهم أولئك المرابون، وأنه لا فائدة لهم من استخدام هذا المال، لأنه لا يدر عليهم سوى ما يوفون به الفائدة، ولا يفضل لهم منه إلّا شيء زهيد. عندئذٍ ينكمش حجم المال المستخدم في هذه المجالات التي تشغَّل فيها الملايين، وتضيّق المصانع دائرة إنتاجها، ويتعطل العمال، فتقل القدرة على الشراء، ويعم الكساد، ويحصل اضطراب في العلاقات. ويجد المرابون أنَّ الطلب على المال قد نقص إلى حد كبير أو كاد أنْ يتوقف، حينئذٍ يعودون إلى خفض سعر الفائدة اضطراراً، فيقبل على الاستدانة العاملون في الصناعة

والتجارة والزراعة من جديد، وتعود دورة الحياة تعمل بخوفٍ من جديد. . وهكذا دواليك مما يؤدي إلى وقوع الأزمات الاقتصادية العالمية بصورة دورية، ويظل البشر هكذا يدورون فيها كالسائمة.

ثم إنَّ جميع المستهلكين هم الذين يؤدون الضريبة للمرابين، ولكن بصورة غير مباشرة، لأنَّ الصناعيين والتجار لا يدفعون فائدة الأموال التي يقترضونها بالربا إلا من جيوب المستهلكين، فهم يزيدونها في أثمان السلع الاستهلاكيةِ، فيتوزع عبئُها على أهل الأرض، لتعود وتدخل في جيوب المرابين في النهاية.

أمَّا الديون التي تقترضها الحكومات لتقوم بالإِصلاحات والمشروعات العمرانية، فإن رعاياها هم الذين يؤدون فائدتها للمؤسسات الربوية كذلك، إذ إنّ هذه الحكومات تضطر إلى زيادة الضرائب المختلفة لتسدد منها هذه الديون وفوائدها، وبذلك يشترك كل فرد في دفع هذه «الجزية» للمرابين في نهاية المطاف. وقلما ينتهي الأمر عند هذا الحد، إذ إنَّ النتائج المترتبة على الديون التي تُعطى للحكومات، إنَّما تكمن في الاستعمار السياسيّ والاقتصاديّ الذي يمسك بتلابيب الدول المستدينة، ثم تكون الحروب، في حال حصول التضارب في المصالح الدولية، بسبب هذا الاستعمار السرطانيّ الخبيث، الذي يتغلغل في شرايين الاقتصاد العالميّ بأسره! . .

ونحن هنا نوردُ بعضاً فقط من عيوب النظام الربويّ، لأنَّ عيوبه لا تحصى، ولكن نكتفي بهذا القدر لنخلص منه إلى تنبيه المسلمين إلى حقائق أساسية تتعلق بكراهية الإِسلام للنظام الربوي المقيت:

الحقيقة الأولى: التي يجب أن تكون مستيقنة في نفوس جميع

المسلمين، أنه لا أتتلاف أو توافق بين ما شرع الله تعالى في الإسلام ووجود نظام ربويّ، في كل زمانٍ ومكانٍ. . وما سوى هذه الحقيقة، ممّا يمكن أن يقوله أصحاب إلفتاوى من رجال دين أو غيرهم، إنما هو دجل ومراءاة للتكسّب لا غير، دونما حاجة للدخول في جدلٍ عقيم حول مختلف المبررات التي يفتون بها للتعامل بالفائدة، فالحلال حلالٌ، والحرام حرام إلى يوم القيامة، لأنَّ أساس التصور الإِسلاميّ يصطدم اصطداماً مباشراً بالنظام الربويّ، ومن ثم بنتائجه العملية في علاقات الناس وتصوراتهم.

الحقيقة الثانية: أنَّ النظام الربويّ بلاء على الإِنسانية، لا في إيمانها وتصورها للحياة فحسب، بل كذلك في صميم حياتها الاقتصادية، وأنه أبشع نظام يمحق سعادة البشر محقاً، ويسحقها سحقاً، ويعطل نموها الإِنسانيّ المتوازن، على الرغم من الطلاء الظاهريّ الخدَّاع، الذي يبدو فيه هذا النظام وكأنه ضرورة للنمو الاقتصاديّ العام.

الحقيقة الثالثة: أنَّ التعامل الربويّ يفسد حياة الجماعة البشرية، وتضامنها بما يبثه من روح الشره، والطمع والأثرة بصفة عامة. والمال المستدان بالربا ليس همه أنْ ينشيء أنفع المشروعات للبشرية، بل همه أنْ ينشيء أكثرها ربحاً، ولو كان الربح متأتياً أحياناً من استثارة أبشع مظاهر الغرائز وأقذر الميول التي يتسبَّب بها أمثال دور الخلاعة، وأندية القمار، والملاهي، ومؤسسات الاحتكار على شتى أشكالها. كما هو مشاهد اليوم في أكثر أنحاء الأرض!. . وسببه الأول هو التعامل الربويّ.

الحقيقة الرابعة: أنَّ الإسلام نظام متكامل، فهو حين يحرم التعامل الربويّ، ينظم جوانب الحياة المجتمعية بحيث تنتفي منها الحاجة إلى هذا النوع من التعامل، وبدون مساس بالنمو الاقتصاديّ المطّرد. ففي النظام الإسلاميّ يوجد بيت المال الذي تتجمَّع فيه حصيلة الزكاة ـ وأحياناً الخمس ـ فيعاد إنفاقها على المشاريع العامة التي تؤمن فرص العمل لكل صاحب صنعة أو مهنة، أو صاحب اختصاص، أياً يكن مجاله الحيوي.. ومن مال الزكاة يجري أيضاً التوزيع على الفقراء والمساكين والمحتاجين، وعلى الغارمين، أي المدينين الذين لا يقدرون على سدِّ ديونهم من أموالهم الخاصة أو من أتعابهم.. بحيث لا يبقى في المجتمع الإسلاميّ محتاجٌ، ولا يضطر المدين إلى التعامل بالفائدة والربا.. مما يعني أنَّ المال، عندما تُؤدَّى منه الزكاة بحقها، لا يكون دُولةً بين الأغنياء وحدهم، بل يجري توزيع جزء من الثروة، الذي هو حاصل الزكاة، على سائر أبناء المجتمع، وفي ذلك ما فيه من العدالة، وتنقية المجتمع من الأدران، وفي طليعتها هذا الربا الذي يفسد الحياة الإنسانية أصلاً..

مما تقدم يمكن أنْ نتبين بوضوح، كيف أنَّ في أمثال القرآن الكريم، تربيةً للنفس على الطاعة والإنفاق.. ذلك أنَّ في الحياة مقاييسَ وأوزاناً ملازمة في الأصل للفطرة، وإنْ لم تظهر في المجتمعات الإنسانية على شكل قواعد وأنظمة ملزمة.. فلو حاول الإنسان أنْ يجري مقارنة ما بين اللهو واللعب، وبمقابلهما الجد والرصانة، لتبين له أنَّ الأوقات التي يصرفها على المتعة والتسلية، والاسترخاء والكسل سرعان ما تنقضي ملذاتها، حتى ولو توهم أنَّ في لذَّتها فائدة، فإنَّها تكون عبارة عن مشاعر وقتية وآنية.. بينما تبقى،

في الحقيقة، الأعمال والجهودُ التي يبذلها وتؤتي ثمارها، وقد تلازمه نتائجها الحسنة، إذا كانت من العمل الصالح، طوال عمره في هذه الحياة.. وهذا ما يريدنا النص القرآنيّ، مع مقاصد أخرى، أنْ ندركه في هذه الآية الكريمة، بقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ * إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ * هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾(١).

إنها هذه الحياة الدنيا بكل ما تضجّ فيه من حركة على مختلف الساحات الشعورية والعملانية..

والإنسان وهو يذرع ساحات الحياة طولاً وعرضاً، قد يتقلّب في كثير من الحالات، بين المتعة واللهو، وبين العمل والجدّ، ثم لا يلبث أنْ يتحوَّل عنها إلى حياة أخرى، مهما ظنَّ أنه باقٍ، ومهما تلهّى وعبث، أو كدح واجتهد.. ونظراً لقصر عمر الإنسان ـ ولو كان من المعمّرين ـ فإنَّ الحياة الدنيا تبدو وكأنها ومضة عين، أي تماماً مثل أوقات اللعب واللهو للأطفال، أو مثل أوقات التسلية واللذة للكبار، التي تكون لساعتها، ثم تذهب إلى غير رجعة، ولو خلَّفت وراءها آثاراً معينة.. وهذا يعني أنَّ الإنسان محكومٌ عليه بمفارقة الحياة الدنيا لحظة يحلُّ أجله، الذي كتب له في اللوح المحفوظ عند الله تعالى.. ولكنَّ أعماله وجهوده خلال مسيرة حياته قلّما تذهب عبثاً، بل كثيراً ما تنعكس فيما يحقق من طموحات، ويقوم من إنجازاتٍ تعتبر نجاحاً له

(١) سورة محمَّد، الآيات: ٣٦ ـ ٣٨.

في حياته، مثلما تؤدي إلى فوزه في الآخرة.. إنّما هنالك مقومات لذلك، يحثُّنا عليها القرآن الكريم، وفي طليعتها الإيمان والتقوى، اللذان يخرجان الحياة الدنيا من مجرد أنْ تكون بمثابة اللعب واللهو، ويطبعانها بطابع الالتزام بأوامر الله تعالى ونواهيه، التي هي في صالح العباد، سواءَ فيما أمروا القيامَ به، وفيما أمروا الانتهاء عنه.. وهذا ما يجعل حياة الإنسان مثمرة، ليس لنفسه وحده، بل وللآخرين من بني جلدته، الأقربين منهم والأبعدين، لأنَّ مقارنة بسيطة بين غلبة صالح العمل على السيء منه، تدلنا تماماً على نجاح الإنسان ـ كفرد ـ وعلى صلاح المجتمع الذي يعيش فيه الأفراد الصالحون..

ولكن الأهم من ذلك كله سعي الإنسان لآخرته، فإن كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فالقرآن الكريم يعده بالأجر والثواب، وما قد يضاعف له ربُّهُ تعالى من الحسنات، وجميعها مما يُرجّح كفة ميزانه للفوز في الآخرة..

ومن مقاصد التربية الإسلامية في هذا المجال، أنَّ من مضامين الطاعة لله تعالى، والقيام بصالح العمل، أنْ ينفق الإنسان المؤمن في سبيل الله، وفي وجوه البرّ والتقوى، ومع ذلك فإنَّ ربَّنا الكريم ـ وهو الرزّاق، وذو الفضل العظيم بما ينعم على الناس من الأرزاق والخيرات ـ لا يسأل الناس أنْ ينفقوا أموالهم كلَّها، لأنه إنْ يأمرهم بإنفاقها كلها فقد يحرك ذلك الشحَّ في نفوسهم، ويظهر البخل لديهم، وهذا ما يُخرج، بدوره، الأضغان والأحقاد لدين الإسلام، الذي جاء بأحكام فريضه الزكاة في المال؛ وهي فريضة أرادها الله تعالى تزكيةً للنفوس وعتقها من الشحّ والبخل، فضلاً عن أنها تؤدي إلى نماء المال

ـ الذي جرت تزكيته ـ وزيادته، كما هو ثابت في حياة المؤمنين. . أما من الناحية الإنسانية، فإنَّ الزكاة تؤلّف ـ عادةً ـ بين القلوب، وتغسل عنها الشحناء والبغضاء، لأنَّ الفقراء عندما يُعطَوْن من أموال الأغنياء، فلا يسعهم إلّا الاعتراف بحسن صنيعهم، والدعاء لهم بالتوفيق والسعة، فوق ما يورث هذا العطاء في قلوبهم من محبة ومودةٍ للمتصدّقين. . فإذا لم يكن في أموال الأغنياء حق معلوم للسائل والمحروم ـ من زكاةٍ وصدقة ـ فمعنى ذلك الذهاب بمفاهيم التضامن والتآلف بين أبناء المجتمع، واستجلاب مشاعر الحقد والضغينة لبعضهم البعض. . وهذا ما لا يرضاه الله تعالى لعباده. . ومن هنا كان التوجيه القرآني لحثّ الناس، ولاسيما المؤمنين، على الإنفاق الزَّكيّ والطيب، ومن وجوهه: الإنفاق في سبيل الدعوة إلى الإسلام، والإنفاق من أجل معالجة أوضاع الفقراء والمحتاجين، والإنفاق للقيام بالمشاريع الإنمائية التي تؤمّن مصالح أبناء المجتمع كافة. .

ولكن على الرغم من هذه المزايا والفضائل فإنَّ كثيراً من الناس تأبى طباعهم مثل هذا الإنفاق، ويحجمون عن بذل أي مال قد يكون فيه تعاون على البرّ والتقوى. . إنما عاقبة هذا البخل سوف ترتد على البخيل نفسه، فلا فضل له في هذه الدنيا، لا بل قد يكون مكروهاً في وسطه الاجتماعي، فضلاً عن أنه قد لا يدّخر من جراء هذا البخل، أيّ رصيدٍ قد يحتاجه يوم الحشر، يوم يؤدي الحساب، الذي لا مناص منه، وسيجد الحسرة راهنةً من جراء بخله، وعدم إنفاقه الطيب، ولو لجزءٍ من ماله في دنياه. .

أجل، فمن الناس من يبخل، «ومن يبخلْ فإنَّما يبخلُ عن نفسه»

والله تعالى غني عن العباد، وغنيّ عن أموالهم وإنفاقهم، وما يأمرهم به إنما هو لخيرهم في الدنيا، وانتفاعهم به في الآخرة، فهم، في الحقيقة، الفقراء ـ دائماً ـ إلى ما عند الله من الرزق، والخير والرحمة، لأنَّ بيده الخيرَ كلَّه، فلا يحتاج إلى إنفاق العباد، ولا إلى عطاء الناس، إنما هو الأمر بالطاعة لصلاح الأنفس، وكسب الأجر والثواب. فإن تولَّى هؤلاء الناس عن طاعة ربّهم، فإنه قادرٌ على أنْ يستبدل قوماً غيرهم، ثم لا يكونون أمثالهم في التولي عن الطاعة والبخل، وعدم الإنفاق، بل يكونون خيراً منهم، وأجدرَ لأنْ يرثوا أموالهم وأرزاقهم.

وفي التدليل على أهمية الإنفاق في حياة الناس، يورد القرآن في موضع آخر خطاب الله تعالى للمؤمنين بشيء من الاستنكار لعدم الإنفاق، وهم لا يملكون شيئاً، في الأصل، إلا من مال الله، ولا يجودون بشيء إلا من جود ربّهم وكرمه ورحمته، فيقول تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1].

أجل هذه هي الحقيقة، فميراث السماوات والأرض هو لله تعالى والناس إنما هم مستخلفون في هذا الميراث، ليؤدوا حقه في سبيل ربّهم، وكل ما استخلفوا فيه، وإنْ كان يجري تداوله وانتقاله من جيلٍ إلى جيلٍ فيما بينهم، إلّا أنه سيؤول إلى مالك الميراث الحق، وهو الله تعالى. فإذا كان الأمر كذلك فما بال الناس لا ينفقون في سبيل الله، وهو الذي يدعوهم إلى الإنفاق؟ أجل، وما لكم أيها الناس ألّا تنفقوا في سبيل الله وهو المالك للمال الذي جعله أمانةً بين

(١) سورة الحديد، الآية: ١٠.

أيديكم، والمالك أولى في ملكه من الوكيل، فكان عليكم أنْ تَعَوْا هذه الحقيقة، وتعملوا بهديها حتى تنالوا جزاء الطاعة والامتثال لأمر الله العلي العظيم.

فهذه الدعوة من الله تعالى للإنفاق في وجوه الخير، هي إحدى السبل التي يربي فيها القرآن المجيد النفوس على طاعة الله تعالى والخضوع لمشيئته، فإذا أمرهم بالإنفاق، فما عليهم إلّا الامتثال، والطاعة، والاستجابة لأمره سبحانه.. فكان جديراً أنْ تفعل هذه التربية الإسلامية فعلها في نفوس العباد، وأن تقودهم إلى الإنفاق في سبيل الله.

٧ ـ حكم الإرث والرضاعة

أ ـ على الوالدات أن يرضعن أولادهن وعلى المولود له رزقُهنَّ وكسوتُهنَّ بالمعروف، وعلى الوارث مثلُ ذلك.

يقول الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[١].

لقد بيّنت سورة البقرة في القرآن الكريم كثيراً من الأحكام الشرعية، إذ بعد أحكام الطلاق، وردت الأحكام التي تتعلق برضاعة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

الأطفال بعد حصول الطلاق، بحيث تبقى هنالك علاقة قائمة، بين المطلَّقَيْن، من أجل مصلحة الأولاد، ما داموا في طور الرضاعة، وذلك تبعاً لعلاقة النسب التي تربط المطلَّقَيْنِ بأولادهما، والتي جاءت ثمرة العشرة الزوجية. فإذا تعذر العيش المشترك بين الوالدَيْن، فلا بدَّ أنْ يكون للرُّضع الصغار ضماناتٌ دقيقةٌ مفصَّلة، تستوفي كل حالة من الحالات. ومن يفرض هذه الضمانات إلّا الله العزيز الرحيم، الذي هو أولى بالناس من أنفسهم، وأبرُّ وأرحم بهم من والديهم.. وأولى الضمانات واجب الوالدة المطلقة تجاه طفلها الرضيع، حتى لا تنساق وراء عاطفتها التي قد تفسدها الخلافات الزوجية، فيقع الغرم على الرضيع، وهذا الواجب هو حق مفروض له في عنق أمه، بأنْ ترضعه سنتين كاملتين، لمن يريد من الأزواج أنْ يتم الرضاعة. والقرآن الكريم يحدد هذه المدة، وبهذا المقدار، لأنها المدة المثلى لاشتداد بنية الطفل الجسدية، وتنشئته على الحنان، والرأفة، وغيرهما من المشاعر التي يمكن أنْ يسكبها ثدي الأم في فم رضيعها.. وهذا ما تثبته البحوث الطبية اليوم، عندما تعتبر أنَّ مدة العامين ضرورية لنمو الطفل نموّاً سليماً في صحته البدنية والنفسية.. ومِنَ النعم الجليلة على الجماعة الإِسلامية أنْ علَّمهم الله العليم الحكيم هذا الأمر قبل اكتشافه من أهل العلم، وقبل أنْ تُجري عليه الأممُ الأبحاثَ والتجارب!. فقد قضى اللطيف الخبير بألّا يبقى الأطفال متروكين ـ وهم رصيد الإنسانية وذخرها ـ للجهل الذي كان يطبق على الناس قبل نزول الأحكام الشرعية التي جاء بها الإسلام، ومنها تبيان أهمية الرضاعة الطبيعية من الأمهات للأبناء؛ ولذلك كان الإِسلام رحمة للإِنسانية جمعاء، حيث يمكنها أنْ تغرف من معينه ما تشاء. وفي

القرآن، كتاب الإسلام المجيد، ما يبيّن للناس كافة، كيف يصونون صغارهم، وكيف يعالجون نموهم، بأهمّ علاجٍ خلقه لهم ربُّهم الكريم، ألا وهو الرضاعة من حليب الأم لمدة سنتين كاملتين، وتلك هي الرحمة التي شاءَ سبحانه أن يسبغها على الناس قبل أجيالٍ طويلة من بحوثهم العلمية، وقبل حقباتٍ من نزوع الأمهات نحو ترك الرضاعة، وإبدالها بالطرق الاصطناعية التي لا تلبي حاجة الرضيع بدنياً ونفسيّاً، بل على العكس ربما تخلّف على صحته آثاراً ضارة من ناحية أو أخرى.

إذاً فقد فرض اللَّهُ تعالى على الوالدة الحضانة والرضاعة، وفي الوقت نفسه فرض لها على المولود له - أي والد الرضيع - حقّاً بأنْ يقدم لها ما تحتاج إليه من الرزق والكسوة بالمعروف، وحسن المعاملة. وبذلك جعل الأم والأب - كليهما - شريكين في التبعة، ومسؤولَيْن تجاه طفلهما الرضيع: فأمه تمدُّه بالحليب والحضانة، وأبوه يمدُّها بالغذاء والكساء، والنفقة إجمالاً، لترعاه. وكل منهما يؤدي واجبه في حدود طاقته: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾، فلا يرهق أحدهما الآخر، لأن القاعدة العامة هي أنَّ التكليف يكون على قدر الوسع أي الاستطاعة. ثم لا ينبغي أنْ يتخذ أحد الوالدين من الرضيع سبباً لمضارَّة الآخر: ﴿لَا تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِۦ﴾ فلا يستغل الأب عاطفة الأم ولهفتها على طفلها، فيهددها بفصله عنها، أو تقبل بإرضاعه من غير مقابل.. ولا تستغل هي عاطفة الأب على ولده وحبه له، لتثقل كاهله بمطالبها، وبأعباء النفقة الباهظة.

وتمضي كفالة الله تعالى للولد، عندما يضع على عاتق الوارث

للأب، في حال وفاته، مثل الذي كان على عاتق الأب في حياته.. فإذا كان الرضيع نفسه هو الوارث، فإن وليَّهُ يقدّم لأمّه مثل الذي كان على أبيه أن يقدمه لها من الرزق والكسوة.. بل إنَّ الحكم الشرعي يفرض هذا الواجب على وارث الأب المُتوفى، أيّاً يكن الوارث لتركته، فهو المكلف أنْ يعطي الأم بالمعروف والحسنى لضمان التكافل العائليّ الذي يتحقق أحد طرفيه بالإِرشاد والرعاية، ويتحقق طرفه الآخر باحتمال التبعات. وهكذا فإنَّ الطفل لا يتعرض لمخاطر الجوع إذا مات والده، طالما أنَّ حقَّهُ وحقَّ أمّه مكفولانِ من تركة الأب، أو وارثه الشرعي..

وعندما يستوفي النص القرآني هذا الاحتياط، يعود إلى استكمال حالات الرضاعة: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَاۗ﴾.. فإذا شاء الوالد والوالدة، أو الوالدة والوارث، أن يفطما الطفل قبل استيفاء العامين، لسبب صحيّ أو سواه، لدى الرضيع أو لدى الأم، «فلا جُناح»، أي فلا إثمَ عليهما إذا تم هذا الأمر بالرضى والتوافق بينهما، ومن خلال التشاور في مصلحة الرضيع الموكول إليهما رعايته، والمفروض عليهما حمايته، مما يعني أنَّ اشتراط التراضي والتشاور إنما هو في مصلحة الرضيع لناحية الرعاية والتربية، وتكاليف العيش، وكل ما يلزم لإحاطة هذا الرضيع بالعناية وإبعاد الضرر عنه، وهذا لا يكون إلا بالتشاور؛ الذي لولاه ربما قد تضيع حقوقه التي فرضها الله تعالى على كافِلَيْهُ، بحيث لا يكون ثمةَ إثمٌ عليهما من التشاور والتراضي حول كل ما يؤمن مصلحة الطفل..

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ أي إذا أردتم أنْ تطلبوا لأولادكم مراضع غير أمهاتهم، في حال امتناع الأمهات عن الرضاعة،

لسببٍ من الأسباب، كأن يحصل مع الأم انقطاع للحليب، أو مرض أو غيره، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ﴾، فلا خوف عليكم ولا عقاب أو مخالفة في هذا الإرضاع إذا سلمتم إلى المرضعات ما أردتم إيتاءه لهنَّ من الأجرة بالمعروف الجميل، وطيب النفس. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الوقوع بالمعاصي في مجاوزة ما حدَّه الشارع الأقدس لكم، وإنَّ تقوى الله والخوف منه تعالى يبقى الضمان الأكيد في النهاية، بل هو الضمان الوحيد للرضيع.. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يرى كل شيء تعملونه، ولا يزال يطلع على النوايا والخفايا، وعلى الأعمال والتصرفات، فلا يخفى عليه شيء مما تعملون..

ب ـ الميراث للأولاد، وقاعدته العامة: للذكر مثل حظ الأنثيين

يقول الله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾(1).

لقد وضع المنهج القرآنيّ نظام التوارث، وطهَّره من دنس الأفكار الجاهلية، ورفعه إلى ذلك الأفق الوضيء حيث يبدأ بوصية الله للأهل في الأولاد فيقول تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾، فوصايا الله سبحانه وتعالى ما ألزم عباده وأوجبه

---

(1) سورة النساء، الآية: ١١.

عليهم، ومن وصاياه الجليلة بأن جعل في الميراث للذكر نصيبَ اثنتَين من أخواته إذا اجتمعتا معه، فيكون له نصف التركة، ولهما النصف الآخر. وليس في هذا التوزيع من ربِّنا تبارك وتعالى محاباةٌ لجنس، على حساب جنس كما يزعم أعداء دين الإسلام القويم، أو كما يفتري على هذا الدين الجهلةُ من الناس أجمعين، لأنَّ الأمر أمرُ توازن وتعادل، بين أعباء الذكر وأعباء الأنثى في تكوين الأسرة، وفي النظام الاجتماعيّ الإِسلاميّ. فالرجل المسلم الذي يتزوج امرأة يصبح مكلفاً بإعالتها، وإعالة أبنائه منها في كل حالة، سواء وهي معه، أو وهي مطلقة منه، وذلك ضمن الحدود التي حددتها الأحكام الشرعية. أما المرأة المسلمة، فإنها قبل الزواج إمَّا أنْ تقوم بإعالة نفسها إذا لم يكن لها وليّ، وإمَّا أنْ يقوم بإعالتها رجل من ذوي قرابتها، من مثل والدها أو إخوتها أو أحد أرحامها، وأمَّا بعد الزواج فإنَّ الزوج يصبح هو معيلها وكفيلها.

أي أنَّ الأنثى قبل الزواج، يجب أنْ تكون موضع رعاية من قبل ذوي الأرحام الذكور، الذين تفرض عليهم صلة الرحم الإنفاق عليها حتى تبقى مصونة، وبحرزٍ من الاعتوار؛ أما بعد الزواج فالعبء في الإنفاق عليها ينتقل على عاتق الزوج، فهي ليست مكلفة بنفقة له، ولا للأبناء في أي حال، مما يجعل الرجلَ مكلفاً ـ على الأقل ـ بضعف أعباء المرأة تجاه عائلته. . فالزوج يتقاسم وزوجته ـ عادةً ـ الأعباء المعنوية في البيت الواحد، والأسرة الواحدة، بينما عليه وحدَهُ أنْ يتحمل الأعباء المادية كلها، حتى ولو كانت الزوجة تملك مالاً خاصاً بها، مما يُضاعف أعباءه مرتين بالنسبة للزوجة، مرةً من الناحية المعنوية، ومرة من الناحية المادية لأنَّ عليه واجبَ الإنفاق بينما لا

تتحمل الزوجة، الأعباء إلا مرةً واحدةً لأنه ليس عليها أية نفقة مادية. ومن ثم يبدو العدل كما يبدو التناسق بين الغنم والغرم في هذا التوزيع الحكيم.

وقد أجمعت الأمة على أنَّ حكم البنتين حكم من زاد عليهما من البنات، ففي الآية الكريمة بيانٌ لحكم البنتين فما فوقهما، ومعناه: فإذا كانت الوارثاتُ اثنتين فما فوق، فلهن ثلثا ما ترك المورِّث، إلَّا أنه قدم ذكر «الفوق» على «الاثنتين» بقوله تعالى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ﴾. وهو ما يوضِّحه أيضاً الحديث الشريف حيث رُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «لا تُسافِرُ امرأةٌ سفراً فوقَ ثلاثةِ أيام إلَّا ومعها زوجُها أو ذو مَحْرَم لها»[1] ومعناه لا تسافر ثلاثة أيام فما فوقها.. وبعد أن ذكر الحكم في إرث النساء إنْ كنَّ فوق اثنتين، عاد يبيّن إرث المرأة عندما تكون واحدة ﴿وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ﴾ مما ترك المورث..

ثم ذكر ميراث الوالدَيْن: ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ﴾، وفي كل تلك الأحوال لا يتوزع الميراث إلَّا بعد إنفاذ الوصية التي يكون المورث قد أوصى بها، وبعد سداد الديون التي تكون متوجبة عليه..

على أنَّ تلك الأحكام المتعلقة بالوصايا والإرث يجب الرجوع فيها، ولاسيما في تفصيلاتها إلى آراء الفقهاء لدى مختلف المذاهب الإسلامية المعروفة؛ وغني عن البيان أنها تخرج عن نطاق البحث في

---

(١) صحيح مسلم، رقم ٩٧٥.

هذا الكتاب، فكان لا بدَّ من الوقوف عليها في مظانِّها، وإنما لا بأس من التوقف، ولو قليلاً، عند اللمسة الأخيرة الواردة في الآية ١١ من سورة النساء. وذلك بقوله تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.. فهذه اللمسة هي لتطييب النفوس تجاه ما فرض الله تعالى من أحكام الوصايا والإرث؛ فهنالك من قد تحملهم الرحمة على إيثار آبائهم على أبنائهم، أو من قد تغلب عليهم الرأفةُ بالأبناء فيجعلون لهم النصيب الأكبر من الإرث حتى ولو كان فيه تجاوز النصاب؛ وفيهم من يحتار، وتتأرجح مشاعره بين الرحمة بالآباء، وحب الأبناء فيعدل في وصيته دون أي افتئات على هؤلاء أو هؤلاء.. وقد تفرض الأعراف والتقاليد اتجاهاتٍ معينة على المورِّثين، فيحاولون مراعاتها، مما يستدعي تحذيرهم للعمل بما فرض الله تعالى من الأحكام.. ولذلك نجد أنه سبحانه وتعالى قد أرادَ في هذه اللمسة الأخيرة من تبيان الإرث أنْ يسكب في القلوب راحة الرضى والتسليم لأمره تعالى، وأنْ يشعر الآباء والأبناء أنه وحدَه سبحانه الذي يعلم ما فرضه من أحكام لصالحهم جميعاً، وأنهم، هم، لا يدرون أيُّ الأرحام أقرب لهم نفعاً، ولا أيُّهم أقرب لهم مصلحة؛ فهو سبحانه لم يزل عليماً بخلقه، حكيماً فيما دبَّره لهم من شؤون وأمور حياتهم، مما يفرض عليهم العمل بتقوى الله، بعيداً عن أعراض الدنيا..

بقي أن نشير، ولو بصورة عاجلة، إلى حكم الكلالة، وفيها نزل قول الله تعالى:

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ

أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1].

لمَّا بيَّن الله سبحانه وتعالى في أول سورة النساء سهام الفرائض في الإرث، ختم هذه السورة ببيان ما بقي من ذلك، فقال سبحانه: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾. أي إنْ طلبوا الفتوى منك يا محمد في الكلالة فقل: اللَّهُ يبيِّن لكم الحكم في هذه الكلالة.. فما هي الكلالة؟ هي معرَّفةٌ بقوله سبحانه: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أي إنْ مات شخص وليس له ابن ولا ابنة ولا والد، لأن الكلالة اسم للنسب المحيط بالميت دون اللصيق به، والوالد لصيق الولد، كما أن الولد لصيق الوالد، ولذلك جمعت الكلالة المحيطين من الإخوة والأخوات، (دون الأولاد والوالدَيْن اللصيقين) فإن مات هذا الشخص، وليس له أولاد ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ أي أنْ الأخت ترث نصف تركته، أما إنْ ماتت هي وليس لها ولد ولا والد، فأخوها يرث كل تركتها، ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ ـ أي أختين ـ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ أخوهما. ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾. أي إن مات وترك إخوة وأخوات فقط، فتقسم التركة فيما بينهم وفقاً لقاعدة الميراث الأساسية (للذكر نصيب أنثيين).

ثم تُختتم السورة كلها بالتعقيب القرآنيّ الذي يرد الأمور كلها لله تعالى، ويربط تنظيم الحقوق والواجبات بشريعته السمحاء، فيقول تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي يبين الله

(١) سورة النساء، الآية: ١٧٦.

لكم أحكام الإرث لئلاَّ تضلوا عنها، فإذا ضللتم ولم تراعوها، فإنه عليم بكل شيءٍ يفعلونه. كما هو عليم بجميع ما يحتاج إليه عباده من أمر معاشهم ومعادهم.

وكما أشرنا فقد تضمّنت الآية التي جاءت في أول سورة النساء بيان ميراث الولد والوالد، والآية التي تلتها بيان ميراث الأزواج والزوجات والإخوة والأخوات من قبل الأم، وتضمنت الآية التي ختمت بها السورة بيان ميراث الإخوة والأخوات من أب وأم، والإخوة والأخوات من أبٍ فقط، عند عدم وجودهم من أب وأم، فيكون توزيع الميراث قد شمل جميع الحالات التي يمكن أن تقع في حياة الناس جميعاً. . وكل ذلك يمكن الوقوف على أحكامه وتفاصيله في مؤلفات العلماء والفقهاء.

٨ ـ علاقة الزوج بامرأته المطلَّقة

أ ـ للمطلَّقات (والزوجات عامة) حقوق مثل الذي عليهنَّ من واجبات

يقول الله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًاۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١).

لقد فرض الله تعالى على المطلقات أنْ ينتظرن قبل الدخول في زواج جديد، ثلاثة قروء تمضي من حين الطلاق (والقرء هو الطهر بعد الحيض)، ولا يحل لهنَّ أنْ يكتمن أو يخفين ما خلق اللَّهُ تعالى في

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

أرحامهنَّ من الحمل. . فإنْ كنَّ مؤمنات بالله تعالى واليوم الآخر، فلا يفعلن ذلك، أي لا يكتمن حملهنَّ. وفي مدة التربّص تلك يبقى أزواجُهُنَّ أحقَّ بردِّهنَّ، إنْ أرادوا إصلاح الخلاف والعودة إلى حياة الزوجية المشتركة. وفي هذا الطلاق الرجعيّ، أو في مدة العدة، لا حقَّ لغير أزواجهن فيهنَّ. ولهن أي للمطلقات (والأولى أنْ يكون الحكم للنساء كافة) على أزواجهن حق بالمعروف[1]، مثل الذي للرجال عليهنَّ من حق بالمعروف. وكلمة «المعروف» هنا تعتبر من الكلمات العجيبة الجامعة للفوائد الجمة، أو للحقوق المتعددة، لأنها تجمع كل ما يتعلق بحسن العشرة وترك المضارة أو الضرر، والتسوية في الكسوة والنفقة. ومقابل ذلك يكون للرجل على المرأة حقوق الطاعة، وعدم الدخول في فراش غيره، وأنْ تحفظ ماءه (الجنين منه) فلا تتعمد إسقاطه، وأنْ تحفظ ماله فلا تهدره وتُنفقه بلا طائل. . إلى غير ذلك ممَّا فرضه الله سبحانه على الرجل والمرأة، كل منهما نحو الآخر، على أنْ يبقى للرجال درجةُ أفضليةٍ في حقوقهم على النساء، مقابل ما يترتب عليهم من حقوق تجاههن في المهر المعجَّل والمؤجَّل، وفي الإنفاق الدائم، أي العودة إلى القاعدة الأساسية التي تقوم عليها الرابطة الزوجية، وهي أنَّ الأعباء التي تقع على عاتق الزوج من المهر والنفقة لا تفرض أبداً على المرأة في الإسلام.

ب ـ تعويض المسلمين الذين ذهبت أزواجهم إلى الكفار مثل ما أنفقوا عليهنَّ

يقول الله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ

(١) أي كما هو متعارف عليه في معاملة الزوجة يوم كانت في محيطها الأهليّ قبل زواجها، وذلك هو الأدنى.

﴿فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾(١).

في صدر الإِسلام أسلمت نساء متزوجات، كنَّ في عصمة رجالٍ من المشركين، وبقيت زوجاتٌ مشركات في عصمة رجالٍ أصبحوا من المسلمين. فلما نزلت هذه الآية ـ وإنفاذاً لحكم الله تعالى ـ أدّى المسلمون نفقاتِ زوجاتهم المشركات، اللواتي أبين الدخول في الإِسلام، ثم طلقوهنَّ. ولكنَّ المشركين أبوا العمل بالمثل، ولم يعطوا مطلقاتهم المسلمات شيئاً. . فنزل حكم الله تعالى يبين هذه القضية من حيث أنه إذا ذهبت زوجات الرجال المسلمين إلى ديار أهل الكفر، لبقائهن على الشرك، أو إذا ارتدّ بعضهن بعد إسلامهن، وذهبن إلى المشركين، وأدَّيتم أيها المسلمون حقوقهن لهنَّ، ثم غزوتم وغنمتم في قتال المشركين والكفار، فآتوا الذين ذهبت أزواجهم سهماً من الغنيمة، بمقدار ما كانوا قد انفقوا لزوجاتهم المشركات، أو الكافرات من المهور وغيرها، ولا تنقصوا على هؤلاء الأزواج المسلمين شيئاً من ذلك الذي دفعوه. . ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾، والتقوى تكون باجتناب المعاصي، وعدم تجاوز أمر الله سبحانه، ومنها هذا الحكم بأن تُؤتوا، أيها المسلمون، إخوانكم الذين ذهبت أزواجهم إلى الكفار مثل ما أنفقوا عليهنَّ. . ويبقى هذا الحكم سارياً ما دامت أسبابه قائمة، فإذا ارتفعت أسبابه ارتفع بحكم ارتفاعها. .

٨ ـ جزاءُ المُحرمِ للحجّ أو العمرة إذا قتل الصيد، مثلُ ما قَتَل

يقول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ

(١) سورة الممتحنة، الآية: ١١.

مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾[1].

في هذه الآية الكريمة تحريمُ الصيدِ على المؤمنين، وهم مُحرِمون للحج أو للعمرة. .

وقد اختلف في معنى الصيد، فقيل: كل حيوان أُكل أو لم يؤكل.

وقيل: «هو ما يؤكل لحمه».

ومن اصطاد متعمداً في نطاق البيت الحرام (ويشمل مكة كلها) وقت الإِحرام في حجٍّ أو عمرةٍ، فجزاؤه بأن يقدّم من الأنعام مثل ما قَتَلَ، أي ما اصطاد من طيرٍ أو حيوانٍ. واختلف في هذه المماثلة أهي في القيمة أم في الخِلقة. . فالذي اعتمده معظم أهل العلم أنَّ المماثلة معتبرة في الخلقة، ففي النعامة بُدنة، وفي حمار الوحش وشبهه بقرة، وفي الظبي والأرنب شاة. وقال إبراهيم النخعي: «يقوَّم الصيدُ قيمةً عادلة ثم يُشترى بثمنه مثلُهُ من النعم». فاعتبر المماثلة في القيمة. .

والحكم في رأينا أنه عند إمكان المماثلة بالخلقة فيمكن تقديم الحيوان المشابه للحيوان المقتول، وعند عدم الإِمكان في الحصول على حيوانٍ مشابه، يمكن أنْ يقوَّم الحيوان المقتول ويُشترى بثمنه أيُّ حيوان آخر. . ويحكم في ذلك ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ أي رجلان عادلان يميزان أشباه الأشياء، ويقدران قيمتها. ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ أي أنَّ الذي أصاب

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٥.

الصيد، وهو محرم بالعمرة يهدي ما حُكِمَ به هدياً، بحيث ينحره في مكة قبالة الكعبة؛ وإن كان محرماً بالحج ذبحه أو نحره بمنىً. ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ أي أنْ يكفّر عن قتل الصيد بأن يقوّم مثله من النعم، ثم يتصدق بقيمته على المساكين والمحتاجين؛ أو أن يصوم بمقابل ذلك عدداً من الأيام. ويكون الصيام يوماً واحداً عن كل ما توازي قيمته مُدَّين من القمح. وذلك جزاءٌ لمن قتل الصيد لينال عقوبة عمله..

وقد يسأل سائل: كيف يسمى هذا الجزاء الذي يدفعه أو يصومه المؤمن «وبالاً» وهو عبادة؟ فإذا كانت عبادة فهي نعمة ومصلحة!.. فالجواب إنَّ الله سبحانه شدَّد التكليف على قاتل الصيد بعد أنْ ارتكب فعله عمداً، فهو مأمور بألّا يقتل هذا الصيد وقت الإحرام، فَقَتْلُه بعد الأمر يعني ارتكابَ معصية تستوجب التكفير عنها، بما يثقل عليه، لأنَّ الصوم يثقل على النفس والجسد لما فيه من تعب وحرمان مؤقتين. وهذا الثقل يسمو النص القرآنيّ بما يعبِّر عنه، أي وكأنه يتذوق الوبال «ليذوق وبال أمره»، ومثاله ما حُرِّم على بني إسرائيل من الشحم لما اعتدوا في السبت، فثقل ذلك عليهم، وإنْ كان فيه مصلحة لهم.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ من قتل الصيد قبل تحريمه ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إليه ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ ممن عصاه وخالف أمره.

٩ ـ النهي عن نقض العهود والأيمان

أ ـ مثل ناقض العهد كالتي نقضت غزلها المنسوج

يقول الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ

بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[1].

من الفضائل التي يحرص عليها الإِسلام فضيلة الوفاء بالعهود، والحفاظ على المواثيق. ولذلك كان نقض العهد نقيصة مخجلة، لأنَّ الإِنسان يحيد بها عن حق الله تعالى، وحق عباده. ذلك أنّ من ينقض ما عاهد الله ربَّهُ عليه، من السهل أنْ ينقض عهود الناس، وألَّا يلتزم بوفاء أو صداقة، مما يجعل المعاملات عرضة للمخاطر، التي تجلب الأضرار المادية والمعنوية، وتلحق الأذى والدمار بالصلات، والروابط، والمواثيق على اختلافها. من هنا نجد أنه لما تقدم ـ في سورة النحل ـ ذكر الأمر بالعدل والإِحسان، والنهي عن الفحشاء والمنكر والعدوان[2]، أتبعه هذا التعقيب بقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾، وفيه توجيه للناس نحو الحق والخير، وأمرٌ لهم بالوفاء بالعهد، ونهيٌ عن نقض الأيمان. فإنْ عاهد أحدٌ ربَّه تعالى على أنْ يفعل شيئاً حسناً، صار واجباً عليه فعلُهُ التزاماً بعهده مع ربّه، (ومنه الوفاء بالنذر)، وإنْ حلَف أحدٌ أو أقسمَ بالله تعالى، فإنَّ هذا الحلف أو القسم فيه عقد وإبرام باسم الله تعالى، فلا يجوز بعده اللغو بأَيمانه، خصوصاً وأنه جعلَ اللَّهَ تعالى كفيلاً عليه في ذلك. والكفيل بالشيء يحفظه ويؤديه.

---

(١) سورة النحل، الآيتان: ٩١ و٩٢.

(٢) سورة النحل الآية: ٩٠، قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

والإِنسان عندما يقسم بالله تعالى، فإنما يؤكد على نفسه أنَّ الله تعالى يكفل ويحفظ هذا الأمر الذي أقسم عليه، وأنه سَيَفي به، ولا يحنث بوعده في وفائه، أو في الامتناع عن القيام به (إذا كان الأمر يتعلق بنفي الأمر أو الامتناع عنه). فعندما نقسم أو نحلف بالله تعالى، فإنه سبحانه يعلم ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ من وفاءٍ بالعهود، أو نقض لها، لأنه السميع العليم فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

والوفاء بعهد الله يشمل بيعة المسلمين للرسول ﷺ. ويشمل كل عهدٍ على معروفٍ يأمر به ربُّ العالمين. والوفاء بالعهد هو الضمان لبقاء عنصر الثقة في التعامل بين الناس، وبدون هذه الثقة لا يقوم مجتمع، ولا تقوم إنسانية. والنص القرآني يُخجل المتعاهدين إنْ نقضوا الأيمان بعد توكيدها، وقد جعلوا الله تعالى كفيلاً عليهم، وأشهدوه على عهودهم، وجعلوه كافلاً للوفاء بها. ولذلك يهددهم النصُّ تهديداً خفيفاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾. فلا يغيب عنه أمر من أموركم، ولا يخفى عليه شيء في حياتكم، وهو يرقبكم، ويحصي عليكم حركاتكم وسكناتكم، فحاذروا من فعلٍ لا يرضاه، لأنه تعالى يعلم كل عمل، وكل فعل تقومون به..

ثم ضربَ سبحانه وتعالى مثلاً على من ينقضون العهود، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾. فجاء هذا المثل من واقع حياة الناس، حيث يأمرهم ربّهم بألّا يكونوا مثل تلك المرأة الحمقاء التي تغزل صوفها بإحكام، ثم تعود وتحلّ ما غزلته أنكاثاً، أي قطعاً متفرقة أو خيوطاً مبعثرة لا تصلح في حياكة

ثوب، أو صنع شيء للانتفاع بها. ويقال إنه كان لرجلٍ من مكة، وهو عمرو بن كعب بن سعد، بنت تدعى «ريطة». وكانت إذا غزلت الصوف عادت ونقضته لحماقتها، فكانت تلقّب بخرقاء مكة. ولكن ليست «ريطة» مكة هي المقصودة بهذا المثل، لأنه مثل عام يتناول أعمال الناس التي فيها نقض للعهود، فيأتي التشبيه ليرسم لهم صورة هذا النقض بواقعٍ من حياتهم قد يرونه كل يوم؛ أفلا ترون أن كل جزئية من جزئيات التشبيه تشي بالتحقير والتعجب، وتشوّه الأمر في النفوس، وتقبّحه في القلوب؟ وهذا هو المقصود هنا: تقبيح عمل النقض، وتشويهه وتحقيره..

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾، فالدخل هو ما يُدْخَلُ في الشيء ـ ولا يكون منه ـ لإفساده، فقد كان بعض من القبائل يبرمون ميثاقاً، أو عهداً، أو يعقدون حلفاً مع قبائل أخرى، ويغلظون الأَيمانَ على الوفاء بما عاهدوا عليه؛ إلّا أنَّ أيمانهم تلك لم تكن إلّا نوعاً من المداهنة والمخادعة لطمأنة حلفائهم على صدق التزامهم!.. فإذا رأوا مصلحة لهم في نقض العهد، فإنهم لا يتورعون عن ذلك، إذْ يبادرون إلى ترك حلفائهم السابقين، لعقد اتفاق مع حلفاء جدد يرون فيهم أكثر عدداً، وأشدَّ قوةً ومنعةً، وهذا ما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾، أي أن تكون جماعة (قبيلة) أعزَّ نفراً، وأقوى شكيمةً على القتال، وأظهر في الدفاع عنهم، فإذا وجدوا مثل هذه الجماعة تعاهدوا معها في حلف جديد، دونما أي اعتبار للحلف الذي كانوا أقاموه مع الجماعة السابقة، ضاربين عرض الحائط بالأَيمانِ التي

أغلظوها للحفاظ على التحالف والالتزام بشروطه، بل وغير آبهين بإشهاد الله جلَّ وعلا على الوفاء بالعهد. ولكنْ ما دروا أنَّ نكث العهود من شأنه أنْ يرتّب آثاراً سيئة جداً، بما يحط من شأن وكرامة الجماعة الناكثة، ويسيء إلى سمعتها لدى غيرها من الجماعات، وأقله وصمها بالخيانة والغدر. . ومن أجل إبطال مثل تلك الأعمال المشينة، والأخلاق الذميمة أمر الله تعالى «الوفاء بالعهود»، وعدم نقض الأيمان بعد توكيدها، وخاصة إذا جعلوا الله تعالى شاهداً على الالتزام بالوفاء، لأنَّ إشهادَ الله معناه أنَّ المتعاهدين قد جعلوه سبحانه كفيلاً بالوفاء، وهو تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾، فإنْ كان وفاءٌ فهو خير لكم، وإنْ كان نكثاً فهو شرٌّ لكم، وما على المتحالفين إلّا أنْ يُصغُوا إلى تهديد الله العلي العظيم لهم، إنْ كانوا يضمرون المصلحة الدنيوية فقط، دون الحفاظ على العهد كأساس لنجاح العلاقات بين الجماعات. .

ويدخل في مدلول النص أنْ يكون نقض العهد متأتياً عما يرونه، في هذه الأيام، «مصلحة الدولة»، وذلك بأنْ تعقد الدول معاهداتٍ ثنائية ـ بين دولة وأخرى ـ أو معاهداتٍ متعددة الأطراف ـ بين مجموعة من الدول ـ ثم تبادر إحدى الدول المتعاهدة إلى نقض المعاهدة من طرفٍ واحدٍ، لعقد معاهد بديلة مع دولة أخرى تراها أربى قوةً من التي عاهدتها من قبل، أو أنها تنقض المعاهدة لمجرد إرضاء دولة أخرى، تحرّضها على النقض! .

وهذا ما لا نجده في الإسلام الذي يحتّم الوفاء بالمعاهدات والمواثيق وعدم نقضها من طرفٍ واحدٍ، مهما كانت المبررات، لأنَّ الأصل في المعاهدات توافقُ إرادة الطرفين سواء على عقدها، أو

إلغائها، المعاهدة، أو تعديلها، وإلّا كان نقضُها من طرف واحد، تنصلاً من الوفاء، مع ما يحمل هذا التنصل من الغش، والخداع، والإفساد في العلاقات الدولية... وينطبق على مدلول ﴿ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ الأعراف، أو «اتفاقات الشرف» التي تتغنّى بها بعض الدول، وتدعو لاقتباسها، أو الانفتاح على مضامينها، بينما تضمر في الخفاء خداعاً، وغشّاً ومراوغة، لتحقيق أهداف قد تكون قريبة أو بعيدة، وتتخذ من العرف الدولي، أو اتفاق الشرف سِتراً لها!.. «واتفاقات الشرف» أكثر ما عرفت بها بريطانيا مع علاقاتها مع غيرها، إذ كثيراً ما تداهن، وتتقرّب من جماعاتٍ أو دولٍ أخرى، وتبدي لها غير ما تبطن، للوصول إلى غايات غير منظورة، ثم تظهر تلك الغايات في المدى القريب أو البعيد، والمثال الأبرز في القرن العشرين، «وعد بيلفور» لليهود بإقامة وطنٍ قومي لهم على أرض فلسطين، وهو الوعد الذي ما زالت آثارُهُ تنتج مفاعيلها السيئة ـ منذ عام ١٩١٧م ميلادية وإلى اليوم ـ على ما يسمونه منطقة «الشرق الأوسط»، حيث تعيش الشعوب في هذه المنطقة حالة من عدم الاستقرار والاضطراب والقلق بصورة دائمة، من جراء الحروب التي يشنها «الكيان الصهيوني» ـ الذي أوجده وعد «بيلفور». وزير خارجية بريطانيا آنذاك ـ على الدول العربية المجاورة، وما يقوم به هذا الكيان العدواني من تحريض دائم للغرب ـ ولاسيما أميركا وبريطانيا ـ على معاداة أية دولة في منطقة «الشرق الأوسط» لا تتوافق سياستها مع مصلحة «دولة إسرائيل» كما هو ظاهر للعيان في سياسة العداوة ضد الفلسطينيين، ولبنان، وسوريا والجمهورية الإسلامية في إيران!... والمثال الآخر على «وعود الشرف» البريطانية، ما خدعت به هذه الدولة الشريف حسين في بلاد

الحجاز، من خلال المراسلات التي جرت بينه وبين مكماهون، الذي كان يتعهد في تلك الرسائل بمساعدة العرب على نيل استقلالهم عن الدولة العثمانية، شرط أن يعلنوا الثورة على العثمانيين، ويقفوا بجانب الحلفاء في الحرب العالمية الأولى!.. وفي الوقت الذي قامت الثورة العربية ضد العثمانيين، كانت بريطانيا تعقد مع فرنسا، في الخفاء، معاهدة «سايكس ـ بيكو» التي أدت إلى تقسيم العالم العربي إلى دويلاتٍ زرعت فيها الدولتان المتآمرتان، زمنَ الانتدابِ، كلَّ عوامل الفتنة والتفرقة، حتى لا يقوم لأية دولةٍ في بلاد العرب قائمة من قوة أو عزةٍ، أو استقلالٌ فعليٌّ ناجزٌ، وهو ما تحقق فعلاً بنتيجة تلك المؤامرة ـ الخدعة، التي كانت ثمرة «وعد الشرف» الذي قطعه مكماهون للشريف حسين!.. بحيث إنه بدلاً من إنشاء دولة عربية موحدة في المشرق العربي، أنشئت الدول الحالية المعروفة، ثم أقيم في وجهها «الكيان الصهيوني» ليكون مجرد وجوده سبباً للخلاف فيما بين هذه الدول، وبالتالي بقاءها على حالة من الضعف، وعدم النمو والتقدم، بما يخدم مصالح اليهود، والعالم الغربي على حد سواء.. وهذه هي بعض نتائج «وعود الشرف» البريطانية، وهي لا تختلف عن الوعود التي تخادع بها معظم دول الغرب غيرها من دول العالم الثالث، لإبقائه تحت هيمنتها المباشرة، أو غير المباشرة!..

من هنا تتبين لنا أهمية المفاهيم الإسلامية التي تحملها النصوص القرآنية وهي تؤكد أمر الله تعالى على الوفاء بالعهود، وعدم نقضها، سواء كانت على شكل معاهدات، أو أعراف دولية، أو مواثيق شرف، لأنَّ الإسلام لا يقرّ، بل ويحرّم أي تعاهدٍ أو تعاونٍ على الإثم والعدوان، أو على الفسوق والعصيان، أو على استلاب حقوق

الناس، واستغلال ثروات الشعوب والدول، بما يتناقض ومصالحها المشروعة على مختلف الأصعدة! . . فالإسلام يريد بناء العلاقات بين الجماعات والشعوب والدول على أسسٍ سليمة من الوفاء بالعهود، وعدم نقض شروطها وأحكامها، بل ويجعل الالتزام بها أمراً يكفله الله تعالى، لأنه لا يريد الإضرار بالناس من خلال العلاقات التي يقيمونها مع بعضهم بعضاً . .

وهذا من جملة المقومات التي نشأت عليها الجماعة الإسلامية، وبناء الدولة الإسلامية، في العهد الإسلامي الأول. . وقد تجلَّى ذلك بمشاعر الطمأنينة والثقة، وبالصدق والنظافة في المعاملات والعلاقات بين الأفراد والشعوب في كل مكانٍ وصل إليه الإسلام، وكانت له القيادة، ورعاية شؤون الناس. . والله تعالى عندما يأمرنا بقوله الكريم: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾، فإنَّ هذا الأمر الربّاني يحمل اختباراً للمؤمنين أنفسهم، للنصرة فيما بينهم، ولمن يرغبون أنْ ينصروا المؤمنين في ضعفهم، وقلة عددهم، ومؤازرتهم على عدوٍّ يتربَّص بهم الدوائر، ولو بدا هذا العدو قادراً، مقتدراً . .

ولا تقف آثار الوفاء بالعهود على العلاقات الدنيوية وحدها، بل تتعداها إلى مصير الناس في الآخرة. . فقد بيّن القرآن الكريم أنَّ الله تعالى قد جعل الوفاء بالعهود ابتلاء يختبر به العباد، ليبين لهم يوم القيامة عاقبة نقضهم لتلك العهود، ولاسيما إذا جرى نقضها بدون وجه حق، وما يجر إليه من الخلافات فيما بينهم، بحيث يكون لله سبحانه الحكم بأنْ يثيب الملتزمين بعهدهم إذا عاهدوا، ويعذب الذين نكثوا العهود بعد توكيدها. والرسول الأكرم قد بيَّن لنا أنَّ كل نقضٍ للعهد إنما هو، ولا ريب، غدر، فقال ﷺ: «أربعٌ مَنْ كُنَّ فيه كانَ

مُنافِقاً خالِصاً. ومَنْ كانتْ فيه خِصْلَةٌ مِنهُنَّ كانَتْ فيه خِصْلَةٌ مِنَ النِّفاقِ حتى يَدَعَها: إذا أُؤتُمِنَ خانَ، وإذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا عاهَدَ غَدَرَ، وإذا خاصَمَ فَجَر»[١].

ب ـ دعاء الإخلاص لله تعالى، إذا غشيَ الفلكَ موجٌ كـالظُّلَلِ

يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۞ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾[٢].

. . ومن لا يرى الفلك تجري في البحر؟ كل منا يراها. . ولكنَّ قول الله تعالى يوجِّهُ انتباه الإنسان، ويحرك عقله وحواسه إلى آياته سبحانه التي خفيت على أفهام البشر، بعد أن اعتادوا على رؤيتها من غير أنْ تتحرك في نفوسهم أية مشاعر، أو يثور لديهم أيُّ استفهام حول تلك الآيات!. . فالفلك تجري في البحر، وجريانها فوق سطح الماء هو من آيات الله تعالى، لأنه لا يمكن أن يكون إلّا بنعمة من الله وفضله، ولو شاء العزيز القدير لما سخّر لنا البحر، ولما وهبنا العقل لنصنع تلك السفن، ثم نقذفها فوق اليمِّ لنحقق بواسطتها مصالحنا.

ولو أمعن الإنسان التفكير في مشهد الفلك وهي تجري في البحر، لأدرك حقّاً أنها من الآيات الربانية، أي من الأدلة المبيِّنة لرحمة الله تعالى، بحيث توجب علينا ألّا ننظر إليها بنظرة سطحية وعابرة، بل نتأمل بها بنظرة اعتبارٍ وتبصرةٍ، من شأنها أنْ تقودنا حتماً

---

(١) رواه البخاري ومسلم (الكبائر للإمام الذهبي).

(٢) سورة لقمان، الآيتان: ٣١ و٣٢.

إلى الإِقرار بأنَّ في جريان الفلك في البحر آياتٍ بيِّناتٍ للناس، وأقربها إلى علم الإنسان أنَّ الله تعالى جعل في كثافة مياه البحار ضغطاً ينبعث من أدنى إلى أعلى لكي يستطيع الماء أن يحمل ثقل الجسم الملقى على صفحته، وأن يجعله يطفو، بالغاً ما بلغ وزنه، إذا توفرت له شروط التوازن في الحجم والشكل والصنع. . ونتيجة لذلك القانون الذي أوجده الله تعالى في الماء، كانت تلك العمارات من الأساطيل التجارية التي تجوب البحار والمحيطات بين مختلف القارات، فتسهِّل عملية انتقال الأشخاص ومبادلات السلع، بما يحقق إقامة العلاقات بين أمم الأرض، وشعوبها. . أوليس في ذلك ما يستدعي من الإنسان الشكر لله تعالى على هذه النعمة الجزيلة، والثناء عليه سبحانه لهذا الفضل العظيم، ثم الإِقرار بأنه على كل شيء قدير؟

والعبرةُ من هذا البحر، ومن الفلك التي تجري فيه، كثيرة لمن فكَّر، وتأمَّل، فوعى! . . ومنها ما قد يصادف الذين يجوبون البحار من عواصف عاتيةٍ هوجاءَ، تهبُّ على الأمواج فتجعلها كالظُّلل (أي مثل الجبال العالية التي تظلّل ما تحتها)، وعلى السفن فتزلزلها، وتتركها عرضةً للهلاك، تتقاذفها الأخطار من كل جانب، حتى ليظنَّ البحارة ـ والركاب على متنها ـ أنَّ لا نجاة لهم من الموت المحتوم. . . وغالباً ما يتعاونون جميعهم، ويبذلون قصارى جهودهم للحفاظ على السفينة لئلا تحطمها العاصفة، ويبتلعهم اليمُّ؛ إلَّا أنهم لا يقدرون على شيء من ذلك، إلَّا أن يشاءَ الله تعالى لهم الخلاص والنجاة. . ويلاحظ أنَّهم، أمام ذلك الخطر الداهم، ولا حول لهم ولا قوة، يتوجَّهون ـ كائناً ما كان اعتقادهم ـ بالدعاء إلى الله كي يلطف بهم، ويُنجيهم إلى برّ الأمان؛ وهنا تكمن العبرة والعظة، فالإنسان تتعرَّى نفسه بصورة

بديهية ـ في الحالة القصوى من الخطر والشدّة ـ من معتقداتها الموروثة؛ وتتجرّد من تلك «القدرات» الموهومة التي كانت تثق بها، أو من تلك «القوى» الخادعة التي كانت تطمئن إليها، بحيث تعتبرها كلها باطلة، لا تقدر على شيءٍ ممَّا كان يعوّل عليها، لتبقى وحدها، في داخل الإنسان، الفطرة التي فطره الله عليها، وبهذه الفطرة السليمة يكون انقياده طوعاً إلى بارئه، لأنه يجد ملاذه، وملجأه الأخير في رحمته تعالى. . فترى المؤمن بالله تعالى يركع خاشعاً بالدعاء. . ومَنْ كانَ غير مؤمنٍ بحقيقة وجود الله تعالى، نجده يرفع بناظريه ويديْه إلى السماء، يدعو مَنْ هو في الأعالي، وكأنَّ نفسَهُ تقول له: ليس إلّا الله في السماوات العلى، فاستسلم لمشيئته كي تكون لك النجاة! . . وهذا أمر طبيعي بعد سقوط جميع الحوائل التي كانت تفصل ما بين نفس الإنسان وخالقه، إذ تتغلّب الفطرة في الظروف الحرجة لكي تعود وتستقيم نفس الإنسان بالتوجه إلى بارئها، طلباً للعفو والرحمة. . فعندما يتأمَّل المؤمن في مثل تلك الظروف أو الحالات التي يمرُّ بها الناس، سواء في البحر أو البرّ، يتبيّن له الأثرُ البالغ في الصدوع لأمر الله بقوله العزيز: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1]؛ فالدعاء هو التوسّل إلى ربّ العالمين في أي أمرٍ من الأمور، ولذلك كان كل دعاءٍ عبادةً.

أما الذين ضربَ الله تعالى مثلهم، عندما يغشاهم الموج كالظلل، فدعوا الله مخلصين له النية والإيمان، نجدهم إذا نجّاهم، وعادوا إلى البرّ سالمين، قد تفرَّقت بهم الأهواء: فمنهم مقتصد، وهو الذي يبرُّ بالوعد الذي عاهد الله عليه، ومنهم جاحد، وهو الذي يتنكَّر

(١) سورة غافر، الآية: ٦٠.

للقادر الذي أمَّن له النجاة، فيغرق في جحوده وكفره.. فهما إذاً صنفان من البشر، صنف شاكر مقتصد، وصنف جاحد منكِر.. فأما المقتصد، فهو الذي يكون على طريقة مستقيمة، وصلاح في الأمر، وثبات في الإِيمان، ووفاء بالعهد، لا يدفع به الأمن والرخاء إلى النسيان والاستهتار، بل يظل ذاكراً، شاكراً، وإن لم يوفِّ كامِلَ حق الله تعالى على جميل صنعه به، بل ولم يوفِّ وفاءَهُ في الذكر والشكر حقَّهُ الذي يستأهل!. من هنا سمّاه تعالى ﴿مقتصد﴾.. وأما الجاحد فهو الذي ينكر رحمة الله عليه بالنجاة، لمجرد زوال الخطر، والعودة إلى البرّ، فكأنه لم يقع في ضيق، وكأنَّ قلبَهُ لم يعاهد الله على الإيمان والتصديق والوفاء.. ومثل هذا الجحود بآيات الله تعالى، لا يكون إلّا من كل ختّار كفور. (والختَّار هو الشديد الغدر، والكفور هو الشديد الكفر). ومثل هذه المبالغة الوصفية تليق هنا بمن يجحد بآيات ربّه وتدبيره، وبمن يتنكر لفطرته التي جعلته يخلص لربّه الكريم في تلك اللحظات الحاسمة التي عاشها بين الأعاصير والأمواج، ثم لا يلبث بعد النجاة أن يعود إلى كفره المبين.

١٠ ـ التحذير من الطعن بالأعراض والنهي عن العودة لمثله

يقول الله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١).

هذه الآية الكريمة وإن جاءت تعقيباً على حدثٍ في موضوع الأعراض، إلّا أنها تحمل قاعدة إسلامية شاملة وهي عظة الله سبحانه

(١) سورة النور، الآية: ١٧.

وتعالى بعدم التعرض للأعراض والطعن بها، أو التقوّل على الناس بالسوء. ولا يتوقف النص القرآنيّ عند حدّ العظة المجرّدة، بل العظة المقرونة بالأمر الناهي لئلّا تعودوا، أيها المجدّفون بالأعراض، إلى مثله أبداً، إنْ كنتم تؤمنون بالله، ورسله، وأنبيائه، وتتدبرون معاني ما يعظكم به ربُكم تبارك وتعالى.

وهذا يُعدُّ من أجمل أساليب التربية، وأبلغه أثراً في النفوس، كون لفظ «العظة» لا يحمل هنا معنى التحذير وحسب، بل ومعنى الأمر، أي يحذّركم!.. وإيّاكم ﴿أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾. ثم إن لفظة «أبداً» هي التي تحمل النهي الجازم، بصورة قاطعة، بحيث يختفي نهائياً التعرّض للأعراض، ويُصان أبناء المجتمع الإسلامي، ولاسيما النساء، من أهم السيئات التي تخرب الحياة الاجتماعية.. وكل ذلك مع تعليق إيمانهم على الانتفاع بالعظة والأمر ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.. فالمؤمنون لا يمكن أن تتكشف لهم بشاعة ذلك العمل القبيح، وبهذه الصورة التي يوضّحها القرآن، وأنْ يتلقوا بشأنه الأمر الناهي، ثم يعودون إلى مثله، وهم أهل الإيمان والتقوى.

ومن محاسن التربية الربانية للمؤمنين كذلك، ما ينهاهم الله تعالى عنه بألّا يرفعوا أصواتهم بحضور النبي ﷺ بما يحجب صوتَهُ عن أسماعهم، ولا أنْ يجادلوا في مجلسه الكريم بمثل ما قد يجادلون به فيما بينهم، فأدب اللياقة والكياسة أن يعرف المؤمنون ما لهذا النبي من مكرمةٍ عند ربّه تعالى، فيحسنوا الأداء بين يديه حتى وهم يخاطبونه، أو يخاطبون بعضهم بعضاً، يقول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ

﴿لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[1] فسبحان الله: رؤوفٌ بالمؤمنين، عليمٌ بمصالحهم، حليمٌ بالصبر عليهم، العفوُّ عنهم، الحكيمُ بما يوجِّه ويربِّي هؤلاء المؤمنين، وذلك كلُّهُ خيرٌ لأنفسهم، وللآخرين بانعكاساته الإيجابية على أبناء المجتمع الإسلامي. .

١ ـ حب الله للذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾[2]، قد يكون الحب، بحسب فهمنا البشري، أسمى المشاعر التي أودعها الله تعالى في نفوسنا، فكان حبّنا ـ قبل كل شيءٍ ـ لله ورسوله. . . ثم للأهل والأقارب والأصدقاء. . ثم للذين يعملون الصالحات. . ومن ثم للكائنات الأخرى من حولنا. . وإنَّ من شأن هذا الحب أنْ يرقى بالإنسان ـ إذا اقترن بالنية الخالصة، والطاعة التامة لله تعالى ـ إلى مرتبة الملائكة، وهذا ما يجعله يختلف عن الهوى الذي قد يجنح بالإنسان حتى يطيح بإنسانيته! . .

وإذا كان من مقومات صلاح النفس حبُّ الإنسان لله تعالى خالقِهِ، الذي أوجده، وأنعم عليه بما لا يقدر على إحصائه من النعم، بحيث يكون هذا الحب بمثابة طاعةٍ من الطاعات. . فإنَّ حبَّ الله تعالى لعبدٍ من عباده هو ذروة اللطف والرضى، ووسام الرحمة والرفعة. . وغيرها من المكرمات التي يمكن أنْ يحظى بها هذا العبد في دنياه وآخرته. . وقد بيّن لنا سبحانه وتعالى في قرآنه المجيد أنَّه يحبُّ الذين يقاتلون في سبيله صفاً، أي متعاونين، كلٌّ بحسب طاقاته

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ٢.

(٢) سورة الصف، الآية: ٤.

وإمكانياته ـ سواء بمدّ المقاتلين بما يلزمهم من الدعم المعنوي والمادي، أو بالمشاركة في القتال ـ بما يقوي فيهم روح العزيمة والتضحية، ويجعلهم كتلةً متراصة في هدفهم السامي، ألا وهو القتال في سبيل الله، ولذلك يشبّههم سبحانه في هذا التعاون، والتلاحم، والتكاتف، كأنهم بُنْيانٌ مرصوص، تضافرت فيه جهود المصمّم، والبنّاء، والمنفّذ، حتى شُدَّت أجزاؤه بعضها إلى بعض فتماسك صرحاً ممرَّداً يعجب الناظرين. .

أما لماذا هذا التشبيه فلأنَّ «سبيل الله» هو السبيل الأوحد لنصرة دينه، ونشر البر والتقوى بين أبناء البشر، ورفع المظالم والمفاسد من حياتهم، ومن أحقُّ أنْ يختار هذا السبيل إلَّا الذين آمنوا، فجاهدوا بأموالهم وأنفسهم حتى حظوا بحب الله العزيز الحكيم. .

٢ ـ واجب الردّ على الاعتداء بمثله

يقول الله تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾(١).

إدَّعى المستشرقون، بل والغرب بأسره، أنَّ الإِسلام قام على القتال، وفي ذلك مطلق التجنّي الحاقد، الصادر عن سابق تصور وتصميم، لأنهم يريدون أنْ يظهروا للناس أنه لولا استعمال القوة، لما انتشر الإِسلام ذلك الانتشار الواسع في القارات التي وصل إليها. والحقيقة أن رسول الإِسلام محمد ﷺ، والمسلمين من ورائه، لم يبدأوا قوماً بقتال، ولا قاتلوا إلا دفعاً لأذىً أو رداً لظلم، ولم يقصدوا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

بلداً، أو اضطروا لخوض معركةٍ إلّا من أجل تعريف الناس على الإِسلام، وإزالة الحواجز المادية والنفسية التي تحولُ دون الناس للوصول إلى منهج «إعلاء كلمة الله». . فقد كانت غاية المسلمين تتلخص في عرض دينهم الحق على الناس، كما أمرهم بذلك ربُّ العالمين، فمن قَبِلَ هذا الدين دخلَ فيه مختاراً، ومن لم يقبله خلّوه على دينه، لأنَّ من القواعد الإيمانية في الإِسلام قول الله تعالى ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[(1)]. فهذا نصٌّ قرآنيّ يفضح كذب الدسَّاسين على الإِسلام، والكارهين لدين الله الحق، لأنهم لا يريدون أنْ يسود العدل بين الناس، وتُؤدَّى الحقوق لأصحابها، وتصانَ الحرمات، والمقدسات، والقيم، والمثل والأخلاق بين الأفراد والجماعات. . وبكلمة وجيزة هم لا يريدون أنْ يسود الخير، وينهزم الشر في هذه الأرض، وإلّا لاختلَّ توازن وجودهم، وقضي على مطامعهم وشهواتهم. . ولذلك كانت حملاتهم المغرضة، التي ما تزال قائمة ومستعرة على الإِسلام، وضد المسلمين. .

وأيّاً يكن أمر أعداء الإِسلام، وأياً تكن أفكارهم، أو دراساتهم ومخططاتهم، فالقرآن الكريم يقدّم الأمثالَ التي تتضمن بعض أحكام القتال، وهي تردُّ على المغالين والمنافقين في كل حين. . فعندما يقولُ الله تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ فمعنى هذا القول القدسيّ أنَّ من ينتهك حرمة الشهر الحرام جزاؤه أن يُحرمَ الضمانات التي يكفلها له هذا الشهر من الأمن والأمان. . وقد جعل الله تعالى البيت الحرام (الكعبة الشريفة) واحةً للأمن والسلام في المكان، كما جعل الأشهر

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

الحرم واحةً للأمن والسلام في الزمان، وذلك لتُصان فيها الحرمات، وتحجب الدماء، ولا يُمَسّ فيها أحد بسوء. . فمن أبى أنْ يستظل بهذه الواحة، وأراد أنْ يحرم المسلمين منها، كان جزاؤه أنْ يُحْرَمَ هو أيضاً منها. . فالذي ينتهك الحرمات، لا تصان حرماته، لأنَّ الحرمات قصاص ـ أي يقتص بمثلها إذا انتهكت ـ ومع ذلك فإن هذه الإباحة بالرد، توجب على المسلمين أنْ يضعوها في حدودٍ لا يتعدونها. فلا يُباح مثلاً القتال في الشهر الذي حُرِّم فيه القتال إلَّا للضرورة وبقدرها؛ فإذا قاتلكم أعداؤكم، أيها المسلمون، في الشهر الحرام فقاتلوهم بالشهر الحرام مثله، لأنَّ حرمة القتال فيه ارتفعت حتى لا يستغلَّها أعداؤكم، وتكون سبباً لنصرهم عليكم، وذلك امتثالاً لأمر ربكم تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾، أي فمن ظلمكم بالاعتداء عليكم، فجزاؤه على اعتدائه بمثله، وعقابه على نفسٍ قدر ظلمه لكم. . فقد سمَّى العقوبة التي تنالُ المعتدي «اعتداءً»، لأنَّ الاعتداء ينطوي في مفهومه على الضرر والأذى، ولكنَّ العدل الآلهي لم يجوّز العقوبة إلَّا بقدر الاعتداء وبمثله ﴿بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾، وإذا كان الاعتداء الأول جوراً، فالثاني عقوبة، ولكنها عقوبة عادلة. أما أنه مثلُهُ في الجنس، وفي مقدار الاستحقاق، فالعلّة لكونه ضرراً، كما أنَّ الاعتداء ضرر. ولذا فهو مثله في الجنس والمقدار والصفة. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه، ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ بالعون والنصر. .

وفي هذه الآية الكريمة دلالة أيضاً على أنَّ من غَصَبَ شيئاً أو أتلفه، يلزمه ردُّ مثله. ثم إنَّ المِثْل قد يكون من طريق الصورة في ذوات الأمثال (أي مقدارها في الكمية والجنس والنوع والخصائص)

ومن طريق المعنى، كالقيم فيما لا مِثْلَ له، ومن قبيله التعويض الأدبيّ أو التعويض عن الألم وما شابه ذلك.. فيا سبحان الله ما أروع تعاليم الإسلام وهو يقيم موازين العدل حتى في حالة الاعتداء والغضب!..

٣ ـ تأسّي المؤمنين بمثل الذين خلوا من قبلهم

يقول الله وتعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾(١).

إنه لجدير بالمسلمين أنْ يعتبروا بهذه الآية المباركة من ناحيتين:

الأولى: أنَّ الحياة ابتلاء، لأنَّ أيام البأساء (البؤس والفقر والقلق والشدة..) وأيام الضَّراء (المرض والمحنة والاعتداء والظلم..) قد تكون ملازمة للناس أكثر من أيام الدعة والسلام، فكان خليقاً بهم ألَّا يعوِّلوا على آمال كاذبة بسعادة أو راحة أو فرح، بقدر ما يتوقعون عذاباً وتعاسة وشقاء.

والثانية: أنَّ الصبر على البلاء فضيلة، والدخول إلى الجنة محفوف بالمكاره، فكان التأسّي بالمؤمنين السابقين، ولا سيما التأسّي برسول الله ﷺ، وأصحابه الميامين، ما يقوّي صبرَ المؤمنين ـ في أي زمانٍ ومكانٍ ـ عند نزول الشدائد والمصاعب بهم، إذ قد نزل بالمسلمين الأوائل، أولئك الأبرار الأخيار، كربٌ عظيمٌ، وبلاءٌ كبيرٌ في مواجهة الأعداء، فصبروا حتى جاء نصر الله.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

وهذا الصبر والتأسّي لا بد وأنْ يقترنا بالتوجُّه إلى الله تعالى ورجائه بأنْ يخفِّف المصائب وآلامها. وفي تكوين هذه الحالة النفسية أول أَمارات النصر من الله لعباده المؤمنين، بما يهبهم من قوة على تحمل الشدة، واصطبار على المكروه، حتى يمكن السيطرة على الألم والانتصار عليه.

ذلك أنَّ الرسول ﷺ والمسلمون قد لقُوا في مكة أذىً شديداً من المشركين، ثم كانت من بعده الصراعات التي شنَّها هؤلاء عليهم، بما فيها المعارك القتالية، وحصار الأحزاب للمدينة، والغدر والمكائد التي وقف فيها، مع أولئك المشركين، الذين كفروا من أهل الكتاب، والمنافقون.. فكان نزول هذه الآية الكريمة تسريةً للآلام عن نفوس المسلمين، وتخفيفاً لثقل الأعباء عن قلوبهم، وذلك بما تعظهم به من أخبار الأمم الخالية التي لاقى فيها المؤمنون أمثالهم العداء والعذاب من الكفار الوثنيين، فصبروا على دينهم، وكان لهم الوعد بالجنة..

من هنا جاء الخطاب في مطلع النص موجهاً إلى المؤمنين مباشرة: «أحسبتم» ـ أيها المؤمنون ـ أنْ تقولوا أنَّ لكم الجنة تدخلونها وأنتم لا تُفتنون، وتُبتلون كما ابتُلي الذين من قبلكم؟ وأمَّا الحكمة من هذا الابتلاء فليعلمنَّ الله عزَّ وعلا الذين صدقوا ـ بالنية أو العمل الظاهر ـ وليعلمن الكاذبين من الذين يقولون آمنَّا وما هم بمؤمنين.. أم حسبتم أنْ تدخلوا الجنة ولم تصبروا كما صبر الذين خلوا من قبلكم، وليس بعد الصبر إلَّا الفرج والنصر؟ فالذين سبقوكم من المؤمنين مسَّتهم «البأساء والضرّاء»، ولاقوا من الشدَّة، والمصاب والعذاب ما يكرهون، ولكنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فكان حليفهم النصر من الله تعالى.. ومثل تلك «البأساء والضرّاء» قد

أصابت المسلمين في غزوة «الأحزاب» لما لاقوا من الجهد، والتعب، والسهر، ومحاولات المشركين لاقتحام مواقعهم، وتأليب اليهود عليهم حتى بات كلُّ ما يحيط بهم ينذر بأوخم العواقب، فكان ذلك بمثابة الزلزال الذي أصابَ نفوسهم حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه، بعد تناهي ذلك البلاء والشدّة عليهم: «متى نصر الله» الذي وعدنا به؟ ونزل الوحي بأمر الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾، إلّا أنه مدَّخر بشروط استحقاقه، وأهمُّها موقف المؤمنين، بحيث لا يستحقون نصرَ الله إلّا إذا ثبتوا حتى النهاية في المعركة، وعزمهم ونيتهم نصرةُ دين الله، فإذا ثبتوا أمام تلك القوى العاتية التي جاءت تغزوهم وتقاتلهم[1] ـ على كفرها وشركها بالله تعالى ـ وإذا كان لديهم اليقين القاطع بأنْ لا نصْرَ إلّا من الله، يؤتيه من يشاء، ولمقتضى الحكمة التي يشاء، فإنَّ نصرَ الله آتٍ، وآتٍ قريباً.. وهذا يعني أنَّ المؤمنين، وحتى لو بلغت المحنة بهم أقصى ذروتها، فإنهم يتطلعون دائماً إلى النصر الذي وعدهم الله به ﴿وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا﴾[2]، وهذا اليقين بالله تعالى، وما يُبنى عليه من الوعي، والتخطيط، والاستعداد، والعمل الجدي والبلاء الحسن هو الذي يؤهلهم لدخول الجنة، أي أن مقوماته الأساسية: الجهاد، والثبات، والصبر والتوجّه الصادق إلى الله تعالى وحده، وإغفال ما سواه..

ويأتي التوكيد على هذه القاعدة الإسلامية التي تقول بأنْ لا نصرَ إلّا من عند الله، بقوله تعالى: ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ

(١) في غزوة الأحزاب.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٥.

﴿تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾(١).

وهذا بيان عمَّا حصل في موقعة «بدر» حين تقابل المسلمون مع المشركين. فالمسلمون كانوا أقلَّ عدداً، لا يزيدون على ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً، وليس معهم من العدَّة إلا النزر اليسير، بينما كان عدد المشركين يربو على الألف، وقد خرجوا من مكة، مدججين بالسلاح، وهم يقولون: لا نرجع حتى نشرب الخمر، وننحر الجزور وتضرب لنا القيان، فيتسامع بذلك الناس فيهابوا قريشاً، وتبقى لها السيادة على العرب.. وكل ذلك ليصدوا عن سبيل الله، ويمنعوا الناس من الدخول في الإسلام.. فكان نهيُ الله تعالى، وبتوجيه سَنيٍّ للمسلمين، ألَّا يكونوا مثل أولئك المشركين الذين خرجوا مغترين بأنفسهم، ومعتدّين بقوتهم، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾(٢) فهاتان الفئتان التقتا يوم بدر: فئة المسلمين وهي تقاتل في سبيل الله، وفئة الكفار من قريش، وهي تقاتل في سبيل البقاء على الشرك، والحفاظ على السيادة والحكم.. ونظر المشركون إلى المسلمين باستخفافٍ وصلفٍ لقلة عددهم وعدتهم، فبادروا إلى اقتحامهم وهم يقولون: عليكم بهم، فما هم إلا كأكلة رأس!.. أما المسلمون فأراهم اللَّهُ سبحانه المشركين قليلي البأس، ضِعافَ القوةِ والتماسكِ، ضِعاف الهمم على القتال، فاجترأوا عليهم، واستهانوا أمرهم، كما

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٧.

يُنبيء بذلك ربّ العالمين، بقوله العزيز: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾[1]. ومثل هذه الرؤية، كانت من أهم أسباب النصر للمؤمنين، والتخذيل للكافرين، لأنَّ النصر منه تعالى يمكن أن يكون:

إما بالغلبة في القتال، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[2]. وهذا على خلاف المجرى الطبيعيّ للأمور.

وإما بالغلبة بالحجة الدامغة، والبرهان القاطع، اللذين لا يتركان مجالاً للجدال، ويقطعان الخصام، والآيات عليها كثيرة في القرآن الكريم..

وفي ذلك عبرة لأولي الأبصار، الذين ينظرون ببصائرهم، ويُعملون عقولهم، فيرون أنَّ الله سبحانه وتعالى، قادر على أنْ ينفذ حكمه في أي أمرٍ من الأمور، ويظهره خلافاً للسنن العادية التي يألفها الناس.. إذاً فلا بدّ من بصيرةٍ نافذةٍ، وعقلٍ واعٍ لإدراك العبرة ومعرفة حقيقتها؛ وإلّا فالعبرة تمرُّ في كل لحظة من الليل والنهار، وليس من يعتبر بها، وليس من يعيها، أو من يقف على أبعادها ومراميها.

٤ ـ أمرُ الله تعالى للمؤمنين بألّا يكونوا كالذين كفروا في نَهيِ أقاربهم عن الجهاد أو السفر طلباً للرزق

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾(١).

ينهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين أنْ يكونوا كالمشركين، والمنافقين الذين كانت تربطهم بالمسلمين صلات القرابة بالدم، أو صلات الجوار والصداقة، وذلك بسبب أنّه إذا مات أحد من المسلمين في أسفارهم ابتغاء التجارة وطلب الرزق، أو إذا استشهد بعضهم في غزواتهم، أو في أي قتال دفاعاً عن دينهم أو وجودهم، فكان المشركون من أقاربهم، أو أصدقائهم يبدون الحسرة، ويقولون: لو كانوا عندنا، أي بين ظهرانينا، ومن جماعتنا، ونحن وإيّاهم سواء في العيش، من غير مشقة الأسفار، وخطر القتال، ما ماتوا، وما قتلوا.. فيحذّر الله تعالى المؤمنين، وينهاهم عن أنْ يقولوا كقولهم، ليجعلَ قولَ المشركين في عاقبة أمرهم، حسرةً في قلوبهم، أياً تكن نواياهم أو الغاية التي يرمون إليها، سواء أرادوا من وراء ذلك تثبيط عزائم المؤمنين ليبقوا فقراء محتاجين، أو لتخذيلهم عن الخروج للغزو في سبيل الله!.. وحتى إذا كانوا يتحسرون فعلاً على من يقتلون من أقاربهم وصحبهم ـ فرضا ـ فالحسرة، على كل حال، كانت تملأ قلوب الذين كفروا، وهم يرون عزة الإسلام تتعاظم يوماً بعد يوم، والمسلمين يزدادون منعةً وغنائمَ، وهم يخوضون ميادين الجهادَ، ويحققون نصراً تلو نصرٍ على أعدائهم.

وبعد هذا البيان للحسرة في قلوب الذين كفروا يأتي التعقيب:

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٥٦ و١٥٧.

﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ﴾[1] من يشاءُ من عباده، وفي الأجل المضروب له، فلا مقدّم لما أخَّر، ولا مؤخّر لما قدَّم، ولا رادَّ لما قضى، ولا مناص مما حكم. فالله هو الذي يملك أسباب الموت والحياة، وهو وحده القادر على أن يميت الناس في السفر والحضر، وفي أي حالٍ أو زمانٍ أو مكانٍ، فلكلٍّ أجلٌ محدود، وموعدٌ مضروب سواء أكان الناس في بيوتهم وبين أهليهم، أو في ميادين الكفاح للرزق، أو في ساح الحرب دفاعاً عن العقيدة: إذ يدركهم الموت ولو كانوا في بروج مشيدة.

وإذا كانت أعمال الناس لا تخفى، عادةً، على الناس، إلّا أنَّ كثيراً من تلك الأعمال قد يبقى طي الكتمان، سواء في العلاقات الشخصية، أو المجتمعية أو الدولية، ولا بدَّ أنْ يظهر، أو تظهر خفاياها، أو آثارها ولو بعد سنين عديدة؛ هذا بالنسبة للناس.. أما عند الله تعالى فكلٌّ شيء مكشوف، وكل أمر معلوم لأنه سبحانه عالم الغيب والشهادة؛ فعندما يدرك الإنسان، ويشعر في قرارة نفسه أنَّ ربَّه أقرب إليه من حبل الوريد، فهو سميع لأقواله، بصير بأعماله وأفعاله، عليم بنواياه[2]، فإنَّ ذلك سيكون ـ ولا ريب ـ عاملاً قوياً لترغيبه في الطاعة، وترهيبه من المعصية. فإذا ما جاهد الإنسان في سبيل الله، ذوداً عن حياض دينه؛ أو استشهد في سبيل هذا الدين، أو دفاعاً عن عرضه، وكرامته ووجوده؛ أو إذا ما راح يضرب في الأرض سعياً وراء الكسب الحلال، ومات في سفره، فإنَّ له في مثل تلك الحالات مغفرةً لذنوبه، ورحمةً من ربّه. ذلك أنَّ الله تعالى لا يكل المؤمنين

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٦.

(٢) يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠].

ـ في هذا المقام ـ إلى أمجاد شخصية، ولا إلى اعتبارات بشرية، ولكنه يكلهم إلى ما عنده من رحمة ومغفرة، ويعلق قلوبهم بطاعته طمعاً بعفوه ورضوانه. فطلب العفو، والمغفرة، والرحمة ـ والعمل لنوالها ـ خيرٌ مما يجمعون من الأموال، ويحوزون من الأمجاد، وخيرٌ مما تتعلق به القلوب من أعراض الحياة الدنيا، لأنَّ العاقبة الحسنى التي يجب أنْ تكون مدار اهتمام المؤمن، قبل أي شيء آخر، فوزه في الآخرة حيث النعيم المقيم..

٥ ـ لا يستعظم المسلمون أية مصيبة قد أصابوا مثلَيها من أعدائهم.

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[(١)].

إنَّ في التربية الربّانية للمؤمنين حقائقَ لا ينبغي أنْ يفرّطوا بشيء منها، فإذا رأوا النعم تتدفق عليهم وفيرة، فذلك لتجاوبهم الصادق مع العقيدة، ولاستجابتهم المخلصة مع أوامر الله ونواهيه. وإن انصرفوا قليلاً أو كثيراً عن هذا التوجه، فلا بدَّ أنْ يروا انعكاسه عليهم مباشرة...

وفي الآية الكريمة تظهر هذه الحقيقة بوضوح، عندما يواجه العزيز الحكيم المؤمنين بحقيقة ما أصابهم يوم «أحد»، وبأنه من عند أنفسهم.. ذلك أنَّ مصيبة المسلمين يوم «أحد» كانت شهادة سبعين رجلاً منهم؛ بينما كانت مصيبة المشركين يوم «بدر» قتل سبعين رجلاً، وأسر سبعين آخرين، أيْ مثلَي المصيبة التي أصابت المسلمين.. ويوم «أحد» قال بعض المسلمين: كيف يحصل لنا هذا وفينا رسولُ الله ﷺ الذي يتلقى الوحيَ من الله تعالى، ونحن نجاهد في سبيل مرضاته؟!.. فيوجّه آيَ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٥.

الذكر الحكيم النبيّ ﷺ لأن يقول لهم: إنما هو من عند أنفسكم، وليس من عند الله تعالى.. أما تلك الدهشة، وهم يتساءلون كيف يُهزمون فإنَّ السبب المباشَر والقريب، فقد كان في مخالفة الرماة لأوامر رسول الله ﷺ، التي كانت تفرض عليهم ملازمة أماكنهم، أياً يكن سير المعركة لصالح المسلمين أو ضدهم. ولكنهم أهملوا هذه الأوامر، واندفعوا وراء المغانم والمكاسب العاجلة، فالتفَّ من ورائهم الكفار، وأوقعوا بهم الهزيمة المادية، بعد أنْ كان النصر محققاً للمسلمين في بداية المعركة منذ الصباح.. إذاً فهاجس الكسب، وإغراء المغانم كانت مشاعر من الطمع الذي داهم نفوس الرماة في ساعة غفلة، فكانوا مسببين للمصيبة التي حلت بهم وبإخوانهم أجمعين.. وهذا ما عليهم أنْ يعلموه، أي أنه كان من عند أنفسهم، فلا يستغربون ما حلَّ بهم!. وقد وجَدَ المسلمون في تلك المصيبة الدرسَ والعظةَ البالغين، وهما من مقاصد التربية التي يريدها الله تعالى للمؤمنين، ولكنْ يبقى كلُّ شيء بيده سبحانه وتعالى، فإذا أرادَ أنْ ينصرَ المسلمين نَصَرَهم، وإذا شاء أنْ ينزل بهم الهزيمة هَزَمَهم، سواء في تلك المعركة أم في غيرها، وسواء في عملٍ أو آخر، حاضراً أو مستقبلاً، لأنَّ الأمور كلها بيد الله، ولا يملك المؤمنون، ولا الناس أجمعون، لأنفسهم شيئاً إلّا أنْ يشاء الله، لأنَّ أمره يجري وفق السنن التي أقام عليها الكون، والحياة، وأجرى بها الأحداث، فكان حقاً أنْ تمضيَ الأمور وفقاً لقضاء الله وقدره، لأنَّ الله على كل شيء قدير.

بل ومن الدروس[١] التي جاءت بها معركة «أُحُد»، أنه فقد من بين الغنائم التي حازها المسلمون قطيفة حمراء (دثار مُخمَل) فقال

(١) لقد بيّنا تلك الدروس في كتابنا «خاتم النبيين»، ج٢ ص٢٤٧ ـ ٢٦٣.

بعضهم: لعلَّ النبيّ ﷺ استعملها لحاجة، أي وكأنه نوع من الاتهام في توزيع الغنيمة، فنزل قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾(١).

ولكن آي الذكر الحكيم لم يدحض فقط تلك التهمة الشنيعة (أن يغلّ في الغنيمة) عن النبي محمد ﷺ وحده، بل وعن كل نبيٍّ، لأن الأنبياء معصومون عن الخيانة أو الخطأ.. بل وأتبع الذكر الحكيم بقاعدةِ أساسٍ من قواعد العدل الإلهي، وذلك بأنّ من يتبع رضوان الله تعالى بطاعته ليس مثل من يرجع بسخط من الله لمعصيته. فقال تبارك وتعالى: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(٢)، بحيث يستحيل أن يكون مصير الطائع مثل مصير العاصي الذي مأواه جهنم وبئس المصير الذي سيلقاه..

٦ ـ المسلمون الذين يخشون القتال كما يخشون عذاب الله

يقول اللّهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾(٣).

وهذا بيان لحال فريق من المسلمين في مرحلة ظهور الدعوة في مكة؛ فقد كانوا يبدون استعدادهم للقتال. فيقولون للنبي ﷺ: لِمَ نبقى ساكنين يا رسول الله على هذا الأذى من المشركين، ولا نقابله بالمثل؟! فكان النبي ﷺ يقول لهم: «لم أؤمر بالقتال بعد»، ثم

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦١.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٢.
(٣) سورة النساء، الآية: ٧٧.

يحضّهم على ما فيه تزكيةُ نفوسهم، وصلاحُ أحوالهم وذلك بأنْ يحافظوا على صلواتهم، وأنْ لا يتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنْ لا يخالفوا أيَّ أمر يعطي المشركين حجةً ليزيدوا من أذى إخوانهم، حتى يتحقق أمر الله في هذا الدين.. فلما فرض القتال على المسلمين وهم في المدينة، إذا بالفريق من الذين كانوا يبدون الاستعداد للقتال في مكة، يكرهون المواجهة مع قريش، تماماً كما كرهوا الهجرة من ديارهم، وكما كرهوا إخراج النبيّ عنوةً من بيته، بعد أنْ تآمر المشركون على قتله، فأوحى الله تعالى إليه بالهجرة التي كانت خيراً على الإسلام والمسلمين.. يقول الله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ * يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾[1].. أمَّا المناسبة التي أبدى فيها أولئك المسلمون كراهيتهم للقتال، فقد كانت عندما خرج النبي ﷺ بحوالي ثلاثماية وثلاثة عشر رجلاً لملاقاة عير قريش وقد بلغهم أنَّ أبا سفيان، صخر بن حرب قد عاد بها من بلاد الشام، وهو في طريقه إلى مكة، فأرادوا أن يغنموها ليخففوا عنهم غائلة الفقر والجوع، التي أوقعهم بها المشركون في الهجرة، بعد أنْ خلّفوا وراءهم كل أموالهم وممتلكاتهم، وكل متاع يحتاجونه.. وتناهى إلى قريش نبأ المسلمين، فخرجت بكامل عديدها وعتادها للدفاع عن قافلتها التجارية، وفي الطريق جاءها الخبر بأنَّ أبا سفيان غيَّر وجهة سير العير إلى طريق الساحل، فنجت من الهجوم عليها.. فأراد غالبية المشركين الرجوع إلى مكة، دون مواجهة المسلمين، إلَّا أنَّ قائدهم أبا جهل أبى إلَّا المتابعة لقتال المسلمين واستئصالهم من

(١) سورة الأنفال، الآيتان: ٥ و٦.

الوجود، فتابعوا سيرهم حتى وصلوا محلة «بدر».. وهنا كان على النبي ﷺ اتخاذ أحد موقفين: إما العودة إلى المدينة، وذلك معناه الهروب من المواجهة، ودلالة على ضعف المسلمين، وبالتالي إغراء المشركين بمتابعة خروجهم لغزو المدينة.. وإما مواجهة قريش، وإثبات قدرة المسلمين على القتال، على الرغم من كثرة المشركين، وتفوقهم بالسلاح.. فشاور أصحابه في الأمر، فوافقوه على القتال.. وكان لا بدَّ أنْ يبيّن الرسول ﷺ للمسلمين الوضع الذي هم عليه، وأنْ يحضّهم على القتال، وقد وعدهُمُ الله تعالى إحدى الحسنيين: إما الشهادةُ ودخولُ الجنة، وإمّا النصرُ وعزُّ الإسلام، وهنا برز جدال ذلك الفريق الذي كره المواجهة لأنهم لم يستعدوا لها، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(1). ويأتي البيان القرآني في «سورة النساء» ليكشف عن الحالة النفسية التي سيطر فيها الخوف على الفريق الذي كان يكره خوض القتال، فهم بين أمرين:

- إما عدم الامتثال لأمر الله تعالى، وعدم طاعة النبي ﷺ في قتال المشركين، وهذا فيه عذاب الله..

- وإما قتال المشركين، وهذا فيه عذاب القتل والموت..

ويبدو أنَّ الخوف الذي يلازم طبيعة البشر قد جعل هؤلاء يخشون قتال المشركين من قريش كخشية عذاب الله، أو أشد خشية من هذا العذاب لشدة ما داهمهم، في تلك الحالة من الضيق والهمّ جزعاً من الموت، حتى وصَلَ بهم الحال إلى أنْ يناجوا ربّهم، قائلين: ﴿رَبَّنَا

(1) سورة الأنفال، الآية: ٧.

﴿لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾؟! أو يتمنون على ربّهم الأماني، فيسألونه أنْ يؤجل عنهم الموت، ولو إلى حينٍ من الزمن، قائلين: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍۢ﴾!.. وهذا يعني أنهم كانوا يدركون بأنَّ الموت حق على رقاب العباد، وأنَّ كل بني آدم ميتون، سواء في القتال أو غيره، ولكنَّ مفاجأتهم لخوض قتالٍ مع أناسٍ أكثر منهم عدداً، وفي أول تجربة لم يخوضوا مثلها سابقاً، قد جعلهم يشعرون بالتخاذل عن القتال.. ولعلَّ أهم من ذلك كله، ما مردُّهُ إلى تعلق الإنسان بمتاع الحياة الدنيا، وما فيها من الأطايب واللذائذ والمنافع التي تشدُّه إليها وتُغريه.. ولذلك يوجّه الله تعالى نبيَّه محمداً ﷺ أنْ يقول لهم: ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ مهما بدا في أعينكم كبيراً، وسوف يؤول إلى الفناء مثلما أنكم فانون، والآخرة في الجنة خير لمن اتقى، وعمل بأمر ربّه وطاعته.. وأنتم يا معشر المؤمنين سوف لا تُبخسون حقوقكم يوم الحساب، ولا تُظلمون ولو بمقدار فتيل (أي ولو بقدر شق النواة، وقد سمي فتيلاً لأنه كالخيط المفتول) فهل ترغبون عن أجر الآخرة العظيم إلى متاع الدنيا القليل؟ بل ويوجه الوحيُ النبي ﷺ لأن يلفت أنظارهم إلى أنَّ الموت يمكن أن يدرك الإنسان ليس في القتال حتماً، بل في أي حين، وفي أي مكان وجد، فلا يخشون القتال خوف الموت، وذلك هو قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍۢ مُّشَيَّدَةٍۢ﴾[1].

إذاً فالعظة المؤثرة التي تتوخاها الآية الكريمة في «سورة النساء» هي: تصوير للنفس المؤمنة في تقلّبها بين الإيمان، والخوف من المكروه. فقد يكون أشدُّ الناس حماسةً واندفاعاً وتهوراً ـ كما يظهرون في الأحوال العادية ـ أشدَّهم جزعاً وانهياراً وهزيمةً ـ عندما يجدُّ الجدّ

(١) سورة النساء، الآية: ٧٨.

ويحين القتال ـ فالحماسة والاندفاع الذين تظهر فيهما مبالغة، قد يكونان عن عدم التقدير الفعليّ والعقلانيّ للمواقف والتكاليف، وليس عن شجاعة وإصرار على القتال أو غيره، وقد يكون الباعث عليهما قلة الاحتمال لوطأة الضيق والأذى، مما يدفع الإنسان إلى طلب الحركة والانتصار بأي شكل، دونما اعتبارٍ لتكاليف الحركة والانتصار. حتى إذا واجهته هذه التكاليف، وكانت أثقل مما قدَّر، وأشقَّ مما تصور، كان أشدّ الناس فزعاً وجزعاً، وأكثرهم نكولاً وانهياراً.. ويَثْبُتُ فقط، أولئك الذين كانوا يمسكون أنفسهم، ويحتملون الضيق والأذى، وهم يعدّون للأمر عدّته، لمعرفتهم مقدار ما يكلفهم النصر، ومقدار ما تحتمل نفوسهم في سبيله. وهذا في الوقت الذي كان المندفعون والمتهورون يعتبرونهم ضعافاً، ولا يعجبهم تمهلهم، ووزنهم للأمور. ولكن في المعركة يتبين أيُّ الفريقين كان أبعد نظراً، وأشدّ تحملاً، وأكثر إقداماً في سبيل تحقيق النصر.

٧ ـ من قتل نفساً ظلماً فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً.

وفي معرض التربية للمسلمين، يخبر القرآن الحكيم عن الاختلاف في العقيدة والرأي والتصرف بين ابْنَي آدم، كما يظهر في هذا التوجّه، الإيمانيّ على لسانِ هابيلَ لأخيه قابيل، فيقول الله تعالى: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ* إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ* فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ* فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِيۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ* مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ

﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾(١).

إنها حكاية أول جريمةِ قتلٍ وقعت على وجه الأرض، وارتكبها قابيلُ بن آدم عليه السلام بحق أخيه هابيلَ، لأنَّ الله سبحانه تقبَّل قربانَ هابيل المؤمن، ولم يتقبَّل قربان قابيل الجاحد.

ويبيِّن لنا السياق هنا ذلك الحوار الذي دار بين الأخوين، وقد عزم قابيل على قتل أخيه، فيقول له هابيل: لئن مدَدْتَ إليَّ يدك لتقتلني ظلماً وعدواناً، من غير أنْ أرتكب خطأً بحقك، ومن غير أنْ افتريَ على الله كذباً، أو أقترف معصية بحقِّه تعالى، أو بحق والديَّ، فلن أمدَّ يديَ إليك لأقتلك، ولن أبادئك بظلم، إني أخاف الله ربَّ العالمين. إني أريد أنْ ترجعَ إلى ربّك بإثم قتليَ، وبإثمك ظلماً لنفسك، وظلماً لي، بهذا تحمله على عاتقك، فتكون من أصحاب النار، وذلك جزاء الظالمين.

وبذلك صوَّر هابيل لأخيه إشفاقه من جريمة القتل، ليثنيَهُ عما تراوده به نفسه، وليحذّره من هذا الذي يدفعه إليه هواه، خصوصاً تجاه أخٍ، مسالم، وديع وتقيٍّ. فقد عرض له وزر جريمة القتل، لينقذه منها، ثم زيَّن له الخلاص من الإِثم المضاعف بالخوف من الله تعالى، وبلغ من هذا وذاك أقصى ما يبلغهُ إنسان في صرف الشر ودوافعه عن قلب إنسان. ولكنّ أخاه قابيل، ذلك النموذج الشرير، من الجنس البشريّ، لم يأبَهْ للنصح والتحذير، فأصرَّ قابيل على

---

(١) سورة المائدة، الآيات: ٢٨ ـ ٣٢.

ارتكاب جريمته، وزيَّنت له نفسه قتل أخيه، فقتله وأصبح من الخاسرين في الدارين، لأنه خسر بذلك الدنيا والآخرة وذهب عنه خيرهما، وذلك هو الخسران المبين.

وبعد أنْ قتل قابيل أخاه لم يدرِ ما يصنع به، لأنَّ دافع القتل لم يكن مركوزاً في جبلَّته، بل سوَّلت له نفسه الأمَّارة بالسوء هذا القتل فابتدعه، مما اضطره إلى حمله على ظهره، والدوران به من مكانٍ إلى مكان، حتى صار جسد أخيه جيفةً نتنةً، شكلاً ورائحةً - وهي السوأة - فبعث الله غراباً أمامه، راح ينبش التراب بمنقاره وبرجليه حتى حفر حفرة، جرَّ إليها غراباً ميتاً، ثم أهال التراب عليه حتى واراه، وذلك ليُرِيَ قابيلَ كيف يستر جيفة أخيه، التي حملها، ولا يعرف ما يفعل بها!.. فقال عندها قابيل: يا ويلتى أعجزت أنْ أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي؟ فأصبح من النادمين. وربما لم يكن هذا الندم منه على الوجه الذي تكون فيه التوبة إلى الله تعالى، لأنَّ جريمته كانت مع سبق الإصرار والعمد، بل كان ندماً على التعب أو القلق الذي أصابه حين كان حائراً، متنقِّلاً بجثمان أخيه بعد أنْ قتله، حتى بعثَ اللَّهُ تعالى ذلك الغرابَ، وعلَّمهُ طريقة دفن الميت.

وقد قال رسول الله ﷺ: **«لا تُقتَلُ نفسٌ ظُلْماً إلَّا كانَ على ابْنِ آدَمَ الأول كِفلٌ مِنْ دَمِها، لأنه أوَّلَ مَنْ سَنَّ القَتْل»**[1]. من أجل ذلك، أي وبسبب تلك الجريمة البشعة، وكان أول من ارتكبها قابيل، وتحريماً للقتل على العباد، لفداحة جرم القتل وحرمته، فقد حكم اللَّهُ تعالى على بني إسرائيل - لعلمه سبحانه بأنهم أكثر الناس حباً للقتل، بل وأكثرهم تسبُّباً، أو قتلاً مباشراً، للآخرين، ظلماً وعدواناً - بأنه من

---

(١) صحيح مسلم، رقم ١٣٠٤.

قتل نفساً بغير استحقاق للقتل ـ أي ظلماً واعتداءً عليها ـ أو من قتل شخصاً بغير فسادٍ أتاه في الأرض من كفرٍ، أو زنى، أو خيانة الوطن أو الأمة وغيرها من القبائح والشرور التي تفسد النفوس، وتزري بالناس. . «فكأنما قتل الناس جميعاً»، أي فكأنما عاقبته مثل عاقبة من قتل الناس جميعاً، ومن أحيا نفساً محترمة، فخلَّصها بعد أنْ كانت على وشك الموت، أو ساعد نفساً على أنْ تتحرر من الكفر أو الشرك، أو ردَّها عن نشر الفساد في الأرض، «فكأنما أحيا الناس جميعاً» من القتل، أو فكأنَّما حررهم جميعاً من تلك الموبقات التي كان يمكن أن يوقعهم بها الفاسدون. . أي فكأنما جزاؤه مثل جزاء من خلّص الناس جميعاً من القتل أو الفساد. . من أجل ذلك فإن من يقتل إنساناً ظلماً وعدواناً، فإنَّ الناس جميعاً يصيرون وكأنهم خصماء للقاتل، لأنهم يشعرون وكأنما القاتل لا يتورع عن أنْ يقتل أياً منهم، إذا واتته فرصته لذلك. . وبالمقابل فإنَّ من يستنقذ إنساناً من غرق، أو حريق أو مرض، أو أية شدة أخرى قاتلة، أو من يهدي إنساناً من ضلال أو كفر، أو من يصلح فاسداً أو فاسقاً أو فاجراً فيبعده عن زلل أو معصية. . فإنَّ له، في كل من تلك الحالات، من الأجر ما يوازي أجره لو أنقذ الناس جميعاً، أو لو أصلح الناس جميعاً؛ لأنه بإحياء النفس المحترمة، أو بإصلاح النفس السيئة يكون وكأنه قد أسدى معروفاً لهم جميعاً. وهو ما يهدي إليه قول رسول الله ﷺ: «**مَنْ سَنَّ سُنَّةَ حَسَنَةً فَلَهُ أجْرُها وأجْرُ مَنْ عَمِلَ بِها إلى يوم القِيَامة، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةَ سَيِّئَةً فَلَهُ وِزْرُها وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِها إلى يومِ القِيَامَةِ**»[1].

والقتل في كل حال، ليس القضاءُ على حياةٍ خلقها اللَّهُ تعالى

(١) صحيح مسلم، رقم: ١٥.

وحسب، بل وهتك لحرمتها، ولا فرق بين الواحد والجمع في ذلك. . وفي هذا تعظيم لشأن الأنفس، ووجوب امتناع الناس عن الإساءة لها، والرغبة في المحاماة عن حرمتها، لأن المتعرِّض لقتل نفسٍ واحدةٍ، إذا تصور أنه بهذا القتل، كأنما قتل الناس جميعاً، عظُمَ عليه ذلك فثبَّطَهُ، وكذلك من أراد إحياءها عظم في عينه ذلك فشجَّعَهُ؛ وعلى كل حال فإنَّ قاتل النفس ظلماً جزاؤه جهنم، فكأنَّما قتل الناس جميعاً.

قال رسول الله ﷺ: **«إذا تَواجَهَ المسلمان بسَيفَيْهِما فالقاتُل والمقتولُ في النار. قالوا: يا رسولَ الله هذا القاتِلُ، فما بالُ المَقْتُول؟ قالَ: إنَّه كانَ حَريصاً على قَتْلِ صاحِبِهِ»**[1]. .

من هنا يتبيّن لنا حكم الله على بني إسرائيل الذين جاءتهم رسلُ الله بالمعجزات الكثيرة، ولكنهم كانوا كلما جاءتهم معجزة ألحُّوا في طلب المزيد، ولجّوا في الكفر، وتمادوا في القتل، وفي التعدي على حقوق الناس، فكانت فعالهم تجاوزاً لحدود الله تعالى، وإسرافاً في الظلم، ونشر الفساد في الأرض. .

٨ ـ العقاب يكون بمثله، والصبر خيرٌ للصابرين

يقول اللَّهُ تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾[2].

إنه التوجيه من ربّ العالمين لعباده في كيفية إنزال العقاب بالمعتدين. فإن أراد أحَدٌ معاقبة الذي اعتدى عليه، فليعاقبه بمثل ما

---

(١) صحيح مسلم، رقم: ٢٢٨٣.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٦.

عوقب به ولا يزيد عليه: النفس بالنفس، وفي القصاص حياة يا أولي الألباب. وهذا العقاب لا يكون من المعتدى عليه مباشرةً، بل يرفع أمره للحاكم الذي يقضي بالعدل، وفقاً لما أنزل الله تعالى، تطبيقاً لقاعدة المماثلة القرآنية في العقاب.

وقيل إنَّ هذه الآية نزلت بعد معركة «أحد».. ذلك أنَّ المشركين لما مثَّلوا بقتلى المسلمين، ومنهم حمزة بن عبد المطلب ـ عم النبيّ، وأسد الوغى في سبيل الله ـ حيث شقَّت هندُ بنتُ عتبة بطنه، وأخذت كبده ولاكتها، ثم جدعت أنفه وأذنه، جاشَ الغضب في نفوس المسلمين فقالوا: لئن أمكننا اللَّهُ تعالى منهم لَنُمثِّلَنَّ بالأحياء منهم قبل الأموات، فنزلت الآية المباركة تنهى عن التمثيل، وأن يكون عقاب القتل بالقتل فقط..

ثم إن الآية الكريمة هي حكم عام في كل ظلم، أو اعتداء، أو غصبٍ أو نحوه. فالمعتدي، أو الظالم، أو الغاصب إنما يجازى فقط بمثل فعله.. ولكنَّ ترك القصاص أو العقاب، والعفو مع المقدرة فذلك عمل الصابرين الذين يصبرون على ما أصابهم من ألم ومرارة. وفي هذا العفو مع الصبر على البلاء، خير للصابرين لأنه ينيلهم جزيل الثواب، بسبب ما يحتاجه الصبر من مقاومةٍ للانفعال، وضبط لهيجان الغضب، وهو ما يستدعي جهوداً نفسية تكون غالباً مضنية، فلا يمكن احتمالها لولا نعمة الصبر على الإنسان.

إذاً فالقاعدة هي القصاص بالمثل. ولكنَّ القرآن الكريم يدعو إلى العفو كلما كان الإنسان قادراً على هذا العفو. كما يدعو إلى الصبر على البلاء والشدة، ولا سيما في حالة استعداد الجماعة المسلمة، أو ترقبها لدفع الشر ووقف العدوان، فيكون الصبر ـ في مثل هذه

الحالات ـ أعمقَ أثراً، وأكثرَ فائدةً للدعوة. . فأشخاصهم لا وزن لها إذا كانت مصلحة الدعوة تؤثر الصبر، أو إذا كانت مسيرتها تستدعي العفو، فكان لزاماً عليهم الاحتمالُ من أجل ذلك، أمّا إذا كان من شأن العفو والصبر الاستهانة بالدعوة إلى الله، أو التفريط بأحكامها، فالقاعدة بالدفع ـ أي القصاص بالمثل ـ هي الأَولى. وفي جميع الحالات فإنَّ الصبر على الابتلاء لهو خير للصابرين.

وفي حالة من عاقب بمثل ماعوقب به، ثم بُغي عليه من جديد، فإنَّ حكمه أنْ ينال نصرَ الله، كما يبيّنه لنا قوله الكريم: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾[1].

أي أنَّ ذلك الأمر الذي بيّناه لك يا «محمد» مِنْ أنَّ الذي اعتُديَ عليه من المؤمنين، ظلماً، وعاقب وجازى الظالم بمثل ما ظلمه، أو قاتل المشركين كما قاتلوه، ثم بُغيَ عليه بزيادة الظلم والعدوان، فإنَّ الله لينصُرَنَّهُ على من بغى عليه. . وهذا ما حصل مع المسلمين الذين أخرجوا من ديارهم ظلماً وبغياً عليهم لا لشيء، إلّا لأنهم آمنوا بالله ورسوله. . ولكن إذا كان الله سبحانَهُ قد حرَّم الظلم والبغي على عباده، إلّا أنه تعالى أوجب عليهم حق الدفاع عن النفس، وصون الحرمات والمقدسات، فإنْ مارس المؤمنون هذه الحقوق ـ حتى القتال في الشهر الحرام ـ دفاعاً عن دعوتهم وأنفسهم، فإنه تعالى عفوٌّ عن المؤمنين، غفور لهم على قتالهم. .

ولا يقف عفو الله العزيز الحكيم عند هذه الحدود، بل ويشمل

---

(١) سورة الحج، الآية: ٦٠.

التائبين المنيبين، الذين فارقوا الشرك، ودخلوا في الإسلام، فأصلحوا أنفسهم، وأمورهم في هذه الحياة الدنيا، ولا سيما مع الذين كانوا قد بغَوْا عليهم وظلموهم، فالإسلام يَجُبُّ ما قبله.. وما يجب الانتباه إليه أنَّ نصر الله لمن بُغي عليه، شرطه أنْ يكون العقاب قصاصاً على اعتداء، لا عدواناً ولا بطراً، وأن لا يتجاوز العقاب ما وقع من العدوان، فيكون بلا زيادة أو مغالاة..

وإذا كان الله تعالى هو العفوُّ الغفور، فما جزاء العبد الذي يعفو عمن ظلمه؟ إن الله تعالى الحكم العادل لا يترك شاردة ولا واردة في قرآنه المجيد، وقد جعل سبحانه أجراً عظيماً للعافين بالمعروف، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[1].

﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ﴾ يعني القصاص في الجراحات والدماء. وقد سمَّى سبحانه الثانية سيئة لأنها في مقابلة الأولى كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ﴾؛ فالسيئة هي المكروه، ومن نال غيره بمكروه، فعقابه بمكروه مثله..

ثم ذكر سبحانه العفو، فقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ أي فمن عفا عمَّن له عنده حق، وأصلح الأمر فيما بينه وبين المعفوِّ عنه، فثوابه على الله، والله سبحانه يأجره، لا محالة، وهو تعالى لا يحب الظالمين، البادئين بالظلم فيرتب عليهم عقابه. والله اللطيف بعباده، يحبُّ من عبده المؤمن أن يملأ قلبه باللطف، والرحمة، ولذلك فإنه يحثه على العفو، لا ترغيباً للمظلوم في العفو عن الظالم ولكن ليُنعم

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

على المظلوم من خلال عفوه عن الظالم، بجزيل الثواب، ولكي يحضّه على حب الإحسان والفضل. وقد روي عن النبيّ ﷺ أنه قال: **«إذا كانَ يومُ القيامةِ نَادَى مُنادٍ: مَنْ كانَ أجرُهُ على الله فليُدْخُلِ الجنَّة؛ فيُقالُ مَنْ ذا الذي أجرُهُ على الله؟ فيُقالُ: العافونَ عَنِ النَّاس، فيدخلون الجنةَ بغيرِ حِسابٍ»**[1] فهذا هو ثواب من أجره على الله تعالى الذي ورد في الآية الكريمة، وبيّنَهُ رسول الله ﷺ بحديثه الشريف، ليعلمَ الناسُ، والعافون منهم خاصة، مقدار ذلك الأجر، إذ يدخلون الجنة بغير حساب، فهل أعظم من ذلك أجراً وثواباً ورحمة؟

٩ ـ الخوف من القتال يجعل عيون المنافقين تدور كالذي يُغشى عليه من الموت

يقول الله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2].

يبدأ هذا النص بتقرير علم الله بما في نفوس المعوِّقين، الذين يسعون بالتخذيل في صفوف الجماعة المسلمة، وهم يدعون إخوانهم الذين هم مثلهم من أهل النفاق إلى القعود في منازلهم، وعدم الخروج

---

(١) صحيح مسلم، رقم ٢١١٩.

(٢) سورة الأحزاب، الآيات: ١٨ ـ ٢٠.

إلى القتال، فيقولون لهم: هلمُّوا إلينا ولا تحاربوا، وخلُّوا «محمداً» وأتباعه إلى سبيلهم، فإنّا نخاف عليكم الهلاك!..

﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لا يشهدون الجهاد إلّا لِماماً.. وإنْ أتوهُ، أحياناً، فإنّما يأتونه خوفاً على أنفسهم، أو رياءً وطلباً للغنيمة، فهم مكشوفون لعلم الله، ومكرهم غير خافٍ عليه تعالى.

ثم يأتي البيان لإبراز سمات مثل هؤلاء الناس بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ بخلاء، قلّما يعينونكم بمال أو بمساعدة، بل وفي نفوسهم كزازة بالتعاطف والمشاعر معكم، فإذا جاء القتال، وحلَّ معه الخوف في قلوبهم، رأيتهم ينظرون إليك ـ يا محمَّدُ ـ وأعينهم تدور كالذي تدور عيناه إذا يُغشى عليه من سكرات الموت. وهي حالة مكرورة يعرفها الأطباء تمام المعرفة عند الذين يشارفون على الموت، إذ تدور أعينهم في محاجرها، بحركة غير عادية، وغير مألوفة، يستدلون بها على أن الموتَ حالّ بهم لا محالة. أما عند المنافقين فهي دليل على شدة الخوف من الموت في القتال.. ولكن هذا الخوف، سرعان ما يتبدّد من نفوس أولئك المنافقين، بعد أنْ يتبدَّل الوضع، ويجيء الأمن: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ إذ ترونهم، حينئذٍ، خرجوا من القعود والاختباء، وقد ارتفعت أصواتهم بعد الخفوت، وانتفخت أوداجهم بعد الحشرجة، وبدَّلوا كل ارتعاش بالحركة، مدّعين ـ بغير حياءٍ ـ البلاءَ في القتال، والشجاعة والاستبسال في المعركة.. وكل ذلك ما يثير السخرية منهم فعلاً!.. ثم لا يقف بهم هذا الغرور الفارغ عند حدِّ الاعتداد بأنفسهم، والتشوُّف على المؤمنين الصادقين، بل يذهبون إلى إيذائهم بالكلام، ومجادلتهم بألسنة سليطة ذربة.. فمثل تلك التصرفات من المنافقين

لكونهم أشحةً على المسلمين بالخير، بخلاء في أيِّ بذلٍ أو عطاءٍ، بل ويشاقُّونهم عند قسمة الغنائم.. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾ حقيقة، وإنما كان إظهارهم للإِيمان نفاقاً، فأحبط الله أعمالهم، لأنها لم تكن أعمالاً يستحقون عليها الثواب، ولم يقصدوا بها وجه الله تعالى. وكان ذلك الإِحباط على الله يسيراً، هيّناً.

أما ما يكونون عليه ـ كدأبهم في كل مرة تحزب الشدة على المؤمنين ـ فهم كما وصفهم اللَّهُ سبحانه وتعالى بقوله العزيز ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وهذا ما ظهرت عليه حالُ المنافقين في غزوة الأحزاب، إذ ظلَّ الخوف يأخذ بمجامع قلوبهم، على الرغم من تفرّق المشركين شتتاً، بما سلَّط الله تعالى عليهم من الرياح فهزمتهم.. فقد بقي الوهم يسيطر على المنافقين وهم يظنون أنَّ الأحزابَ لم يتركوا حصار المدينة، ولم يذهبوا بعد إلى مكة.. أما أمانيهم التي يكشف عنها النصُّ القرآني، فتكمن في رغبتهم، بالَّا تأتي الأحزاب لغزو المدينة، «وإنْ يأتِ» الأحزابُ كرةً أخرى يودون، لو أنهم كانوا في البادية، يلتجئون إلى مضارب الأعراب، بعيدين عن أجواء القتال، حتى وهم هنالك، فإنهم لا ينفكّون عن القلق، والسؤال عن أخباركم، وماذا حلَّ بكم من هزيمة أو نصر، ليرسموا على أساسه ماذا يدَّعون، وماذا يقولون!.. ولو كانوا بينكم، فيما لو أتى الأحزاب من جديد، ما قاتلوا إلَّا قدراً يسيراً، دفاعاً عن أنفسهم، لا حباً بنصر دين الله!.. ولذلك كان قتالهم، في كلِّ مرةٍ يشاركون في قتال، رياءً، وخوفاً من التعيير ليس إلَّا.. وأولئك المنافقون الذين كانوا يعيشون مع الجماعة الإِسلامية

الناشئة، وينخرطون بين صفوفها في المدينة المنوَّرة، إنما يشكلون المثال المعبّر عن النفاق البشري، الذي نجده في كل جيل، وكل قبيل، وهو يتكرر مع أناسٍ بنفس الملامح من الخوف والجبن، وذات المواصفات من التلوّن، والخداع! . .

الفقرة السابعة ـ ما يصيب المؤمنين ألمٌ إلّا وأصابَ أعداءَهُم ألمٌ مثلُهُ

يقول اللّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ* إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾(١).

ما أعظم هذه المواساة من العزيز الحكيم للمؤمنين! . إنه سبحانه ينظر إليهم بعين الرأفة والرحمة على ما يصيبهم من جهدٍ في قتال الكفار، ولكن ينهاهم عن الوهن واليأس، لأنَّ النصر سيكون في النهاية لهم، وهو وعدٌ مؤكد: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢).

﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ فهو أمرٌ منه سبحانه وتعالى بألّا تضعفوا عن قتال الكفار . . ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما أصابكم أو ما قد يصيبكم وأنتم تجاهدون وتقاتلون في سبيل الله؛ فإنْ لاقيتم الشدائد، وويلات القتال، فأنتم دائماً ﴿الْأَعْلَوْنَ﴾، أي أنتم المنتصرون، الظافرون لأنكم

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٣٩ و١٤٠.

(٢) سورة الروم، الآية: ٦.

على الحق، وهم على الباطل. وستكون لكم الغلبة بإذن الله، إنْ كنتم مصدّقين وعْدَ الله لكم بالنصر والثواب..

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ أي إنْ يصبكم جراحٌ، أو ألمٌ أو نصَبٌ، فقد أصاب القومَ المشركين قرح مثلُهُ... وقيل إنَّ هذه المواساة قد نزلت من ربّ العالمين على ما أصاب المسلمين في يوم «أحد»، عن ابن عباس قال: «لما كان يوم «أحد» صعد أبو سفيان الجبلَ يريد التباهيَ على المسلمين، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهم لا يَعْلُنَّ علينا، اللَّهم لا قُوَّةَ لنا إلَّا بك».. فنادى أبو سفيان بملء صوته: يوماً بيوم، وإنَّ الأيام دول، والحرب سجال.. فقال ﷺ: «أجيبوه.. فقولوا: لا سَوَاءَ، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النَّار». فقال أبو سفيان: لنا عُزَّى ولا عُزَّى لكم. فقال النبيُّ ﷺ: «قولوا: الله مولاَنا ولا مَوْلَى لكم». فقال أبو سفيان: أعلُ هُبَل. فقال النبيُّ ﷺ: «الله تَعَالى أَعْلَى وأجلُّ»[1]... وانصرف أبو سفيان.. ولكنَّ الأمر لم يتوقف عند «أحد» بل دارت الأيام وتمَّ فتحُ مكة، ثمَّ تحقق للمسلمين النصرُ المؤزر في كل أنحاء شبه الجزيرة، ليكون ذلك النصر مقدمةً لانتشار الإِسلام في مشارق الأرض ومغاربها..

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ وذلك بتصريف الله تعالى للأيام بين المسلمين والكافرين، بتخفيف المحنة على المسلمين أحياناً، وتشديدها عليهم أحياناً أخرى، وليس بنصرة الكفار عليهم، لأنّ الله تعالى لا ينصر الكافرين على المسلمين، إذ إنَّ النصرة تدل على المحبة، والله تعالى لا يحب الكافرين، ولا الظالمين أو

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣. ص٩٩.

المعتدين، فلا ينصر هؤلاء على المؤمنين الذين يحبون الله ورسولَه، ويحبهم الله ورسولُهُ؛ فالله سبحانه وتعالى وليُّ الذين آمنوا، أما الذين كفروا، ومن دار في فلكهم، فمولاهم الشيطان. . ثم إنَّ القاعدة في الإسلام بـ«أنَّ النصر من عند الله»، هي قاعدة ركنيّة، لأنَّ الله تعالى هو وحده الذي يملك أسباب القوة والسلطان، وأسباب الغلبة والنصر. وهو سبحانه دائماً في جانب من يجاهد لِإعلاء كلمته وجعلها هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى. . ولكنَّ أمره قضى بأن تكون أيام الدنيا متقلبة، ومتداولة بين الناس في النصر والهزيمة، وفي القوة والضعف، وذلك كي لا يطمئن إليها المؤمن دائماً، ولتقلَّ رغبته فيها وحرصه عليها، إذ يهون شأنها وعَرَضُها في نظره، فينصرف إلى مرضاة الله تعالى ليفوز بنعيم الآخرة الذي يعلو مقاماً، أكثر بكثير عمَّا كان عليه حاله في الدنيا. .

وإنَّ في مداولة الأيام بين الناس، ما يجعل الدّولة حيناً للمؤمنين، وحيناً عليهم، ليدخل الناس في الإِيمان على الوجه الذي يدعوه هذا الإِيمان، لا على أساس النفع والفائدة، لأنه لو كانت الدولة أبداً للمؤمنين، لكان الناس يدخلون في الإِيمان على سبيل اليُمْنِ والفأل والمنفعة، وبذلك لا يتحقق الدافع الإِيمانيّ الصحيح. . أما إذا وجد هذا الدافع في وقت الشدة، كما هو في وقت الرخاء، فذلك هو الإِيمان الحق الذي يعلي شأن المؤمن، ويجعله عند ربّه من المقرَّبين. .

وهذا مع الإشارة بأنَّ كل موضع حضره النبيُّ الأعظم لم يخلُ من ظفرٍ، إما من ابتداء الأمر، وإما في نهايته، ليتأكد للمؤمنين على مدار الزمان أنَّ الإخلاص لله في الجهاد، والذود عن حياض الدين،

إنما نتيجته المحتومة تحقيق وعد الله بالنصر، وهو الوعدُ الحقّ الذي لا تغيّره الأزمان. .

ثم إنَّ في مداولة الأيام بين الناس سنّةً لله تعالى في خلقه البشري، وهي أنَّ الدولة تكون لهؤلاء أو لهؤلاء من الناس وفقاً للنوايا والأعمال. فإنْ صفت النوايا، وطَهُرَتِ القلوب، صلُحَتِ الأعمالُ وارتفعتِ الأفعالُ، أمَّا إذا انطوت السرائر على المخادعة وطلب المنافع الذاتية، دون الإيمان الصادق بعقيدة التوحيد، والتطلع إلى تأمين مصالح الجماعة، فإن الجهود تتفرّق، والإِرادات تتبعثر، وتهزم الجماعة لتحلَّ في الدولة جماعةٌ غيرها. .

يضاف إلى ذلك، أنَّ في مداولة الأيام أمراً أراده اللَّهُ تعالى من عباده وقد بيَّنه بقوله الكريم: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾، وليعلم الله المؤمنين من الكافرين ـ فاستغنى بذكر أحدهما (المؤمنين) عن الآخر أي عن ذكر الكافرين ـ وليعلمهم الله بما يظهر من صبرهم على الشدة والبلاء، وبما يتفانون فيه إبّانَ الجهاد في سبيله عزَّ وعلا، وهم على يقين بأنَّ ما يصيبهم من خيرٍ إنما هو بإذن الله، وما يصيبهم من كربٍ إنَّما هو بعلم الله، وعِلْمُ الله تعالى بالمؤمنين ـ كما يبيّنه قوله الكريم: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، لا يعني إنه لم يكن سبحانه عالماً بهم، فهو يعلمهم قبل إظهار إيمانهم وبعده. . واللَّهُ تعالى الذي أحاط بكل شيء علماً، هو الذي خلق الإنسان، ويعلم جِبِلَّةَ وطبعَ كل فرد بشريّ، وما تنطوي عليه نفسه، فكان علمه كائناً بالمؤمن والكافر قبل أنْ يظهرا للناس بالأقوال والأفعال والأعمال، فإذا ظهر المؤمن على حقيقته، وظهر الكافر على حقيقته، أمكن للناس

أن يميزوا بينهما، وأنْ يدلّوا على المؤمن بإيمانه، وعلى الكافر بكفره. .

وإذا كان اللَّهُ تعالى يعلم المؤمنين، ويعلم الكافرين، في طبائعهم وقلوبهم، وفي أقوالهم وأفعالهم وتصرفاتهم، فإنَّ في مداولة الأيام بين الناس ـ جميعاً ـ حكمةً أخرى، وهي أنْ يتَّخذ من المؤمنين شهداء على الآخرين كلما استدعت أيام المداولة الشهادة والتضحية في سبيل الله؛ ففي كل حين يبقى الحق متصارعاً مع الباطل، يكون المؤمنون هم أنصار الحق، والكافرون والمنافقون ـ وأمثالهم ـ هم أنصار الباطل. وتتقلّب الأيام بين هؤلاء وهؤلاء، وتنشب النزاعات، وقد تصل إلى مستوى القتال والحروب، ويسقط القتلى من المؤمنين، ولكنَّ هؤلاء ليسوا أمواتاً بالمعنى المتداول بين الناس، بل إنَّ قتلهم في سبيل الله هو البيّنة على عباده، ليتخذ سبحانه منهم شهداء على الظالمين والمجرمين، سواء في تلك المعارك القتالية، أم في تلك المعركة الدائمة، الدائرة ما بين الحق والباطل. وشهادتهم تكون على ما عاينوا من طاعة أو عصيان، نظراً لما لهم عند ربّهم تبارك وتعالى من مرتبة عالية، ومقام رفيع على غيرهم من الناس. فالشهداء الصرعى في القتال من أجل نُصرة دين الله، والشهداء للحقّ في وجه الظالمين والجائرين، هم الذين يبذلون عادة المهج والأنفس، بل وكلَّ غالٍ ونفيسٍ ابتغاء مرضاة الله، وهي غاية آمال المؤمنين، فحقيق على الله عزَّ وجلَّ أنْ يختارهم ويكرمهم على غيرهم بالشهادة قتلاً في الدنيا، وبالإشهاد في الآخرة على المجرمين والظالمين، يوم يقف الناس للحساب بين يدي ربّ العالمين.

وفي النتيجة ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على ظلمهم، أو كفرهم، أو

فسادهم، أو عصيانهم. . ففي فاتحة كتاب الله التي يرددها المؤمنون في صلواتهم، وفي كل مناسبة تعتمر فيها قلوبهم بالإيمان والتقوى، يكون دعاؤهم إلى ربّهم الكريم أنْ يهديهم «الصراط المستقيم»، كما يبيّنه قول الله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ وهؤلاء المغضوب عليهم، والضَّالُّون كانوا من الذين لا يحبهم الله لا في الدنيا ولا في الآخرة. فإذا رأينا للظالمين، غلبةً أو ظهوراً في تداول الأيام بين الناس، فذلك يكون استدراجاً لهم، لا تأييداً ولا محبة من الله تعالى، لأنَّ العاقبة الحسنة للمؤمنين المتقين، فإن لم تكن في هذه الحياة الفانية، فهي لهم في الحياة الآخرة، لأنه في ميزان العدل الإلهيّ: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾(1).

وهكذا فإنَّ القرآن الكريم يردُّ المسلمين هنا إلى سنن الله التي تتحرك بها الأمور في الأرض؛ فأمور الناس جارية لا تتخلف، ومقدَّرةٌ لا تمضي جزافاً، وفي خلال ذلك تجري الأحداث، وتظهر الوقائع، وتستبين الغايات، فإذا استشرف المؤمنون خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق، وتقيدوا بالسنن التي تتحرك فيها الأحداث، وأخذوا بأسباب النصر الذي يريدونه، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين، حازوا فعلاً النصر والتمكين، لأنهم يكونون في الحقيقة قد ساروا على طاعة الله وطاعة رسوله، وعملوا على إعلاء كلمة الله.

---

(1) سورة الحشر، الآية: ٢٠.

ومن السنن التي يشير إليها السياق هنا ويوجه الأبصار إليها هي عاقبة المكذبين على مدى التاريخ. فمن مداولة الأيام بين الناس، والابتلاء لتمحيص السرائر، وامتحان قوة الصبر لدى المؤمنين على الشدائد، واستحقاق النصر للصابرين، لا بد وأنْ يكون من نتائج ذلك كلِّه محقُ المكذبين، قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾(١)، حيث كان آخر أمرهم إلى الهلاك؛ وهو الهلاك عينه الذي يحيط بالظالمين، قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢).

ومن استعراض تلك السنن التي تحفل بها النصوص في الآيتين ١٣٩ و١٤٠ من سورة «آل عمران» يتبين بوضوح كيف أنَّ هذه النصوص تعبق بأريج الحق، وهي تشجع المؤمنين على الاحتمال في الشدة، والمواساة في تحمُّل القرح، الذي لم يصب المؤمنين وحدهم، وإنما أصاب أعداءهم كذلك، وهم ـ على كلِّ حالٍ ـ أعلى من أعدائهم عقيدة وهدفاً، وأهدى منهم طريقاً ومنهجاً، والعاقبة الحسنة ستكون حتماً لهم بإذن الله والدائرة ستدور بإذن الله على الظالمين لأية فئة أو طائفة انتسبوا، أو لأي مبدأ أو عقيدة انتموا.

الفقرة الثامنة ـ اليهود في عداوتهم للإسلام

١ ـ بئس مثلُ القوم من اليهود، الذين كذَّبوا بآيات الله

يقول الله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٧.

(٢) سورة يونس، الآية: ٣٩.

﴿ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

من خصائص التشبيه القرآنيّ دقته في انتقاء التعابير لإِعطاء صورة جلية، واضحة وأخّاذة عن المعنى، أو المعاني التي يريد إبرازها، وإظهار الدروس والعبر التي يتوخّاها؛ بحيث لا يسع العاقل، العارف والمنصف إلّا أنْ يقف خاشعاً لقول الله عزَّ وجلَّ، مبهوراً ببلاغة الأداء وعظمة البيان. ومن تشابيه الأمثال القرآنية، وصورها الحسية، ما يعبّر عن حقيقة ظلم اليهود لأنفسهم ـ وغيرهم ـ في عدم الأخذ بالتوراة التي تضمنت الشريعة التي نزلت على موسى عليه السلام؛ فاليهود أُخذ عليهم العهد بأن يحملوا التوراة، ويؤمنوا بما فيها من عقيدة التوحيد، ويعملوا بما احتوت من الشرعة الصالحة للمعاش والمعاد، كما أنزلها ربُّ العالمين. ولكنَّ اليهود لم يقدِّروها حق قدرها، ولا اهتدوا بها، أو انتفعوا بما فيها من خير وصلاح، بل عملوا بعكس ذلك، فغَيّروا كثيراً مما أنزل فيها، وبدَّلوه.. بل وتعدَّوا حدود الله، فزوَّروا ما شرع لهم من الدين، بما أُشربوا في قلوبهم من حب العجل، وهو الكفر الصراح، حتى استحوذت عليهم الوثنية، وكان ذلك لمجرد أنْ فارقهم النبيُّ موسى مدة أربعين يوماً، لملاقاة ربّه تعالى.. ثم جرَّتهم تلك الوثنية، التي لم تفارق قلوبهم، إلى الطمع في زخرف الدنيا، والابتلاء بحب المال، فكان في ذلك عوامل إضافية ساعدت على ضلالهم عن الحق، وتعمية بصائرهم عن الهدى، فاستمروا في مطامعهم وأهوائهم لاهثين وراء المال، والتعدّي والتسلط على

---

(1) سورة الجمعة، الآية: ٥.

مقدرات الناس وحقوقهم! . . أي أنهم رضوا بالدنيا عن الآخرة حتى صار مثلهم في حمل التوراة ـ كتاب الله الكريم، الذي أنزل لهديهم ـ كمثل الحمار، يحمل على ظهره الكتب القيمة في الحكمة والمعرفة والعلم، من غير أنْ يحسَّ أو يشعر إلّا بالتعب، لأنه غير مخلوق أصلاً للمعرفة، فلا يمكن أن ينتفع بأدنى شيء من الكتب التي يحملها!

وينطبق هذا المثل ليس على اليهود وحدهم لأنهم لم يعملوا بالتوراة، بل وعلى كل من يقتني القرآن الكريم مِنْ غير أنْ يخصّص وقتاً لتلاوته، أو أن يبذل جهداً لفهم معانيه، والتفكُّر في تدبّر آياته. . فكيف بمن أَعْرضَ عنه إعراضَ من لا يحتاج إليه، أو حمله كما حمل اليهود التوراة؟! فلا ينبغي على المسلمين أن يكونوا كاليهود الذين هجروا كتابهم السماويّ، وعملوا بخلاف ما فيه، حتى حقَّ عليهم قول الله تعالى: ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾، فذمَّهم الله سبحانه على ذلك، وأبعدهم عن واسع رحمته، ونور هداه، لأنَّ الله لا يهدي القوم الظالمين، وهم قد ظلموا أنفسهم باختيارهم الضلالة على الهدى، وبتكذيبهم لآيات الله، فكان جزاؤهم غضباً ولعنةً من العزيز الحكيم، يحلّان بهم إلى يوم الدين.

٢ ـ قلوب اليهود قاسية كالحجارة أو أشدُّ قسوةً.

يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٤.

يورد السياق القرآنيّ قبل هذه الآية الكريمة المعجزة الكبرى التي رآها اليهود بأم العين، والتي تدل على قدرة الله تعالى في إحياء الموتى، وذلك عندما أمرهم الله أن يذبحوا بقرةً، ويضربوا بجزء منها قتيلاً اختلفوا في قاتليه، اختلافاً شديداً كاد يودي بهم إلى الاقتتال الجماعي، فأحياه اللَّهُ الذي يحيي ويميت، فدلَّ على الذين قتلوه من أبناء عمومته، ثم أماته الله لساعته.. ولم تكن تلك المعجزة هي الوحيدة التي أتاها العليّ القدير لبني إسرائيل لِيَثْبُتوا على صدق الإِيمان.. فهم قد رأوا معجزات غيرها كثيرة: كانفلاق أمواج البحر الأحمر وجعل الممرات التي يعبرون منها من ناحية مصر إلى أرض سيناء يابسة، فينجوا من ظلم فرعون وطغيانه.. كما رأوا تفجّر الماء من الصخرة، لمجرد أن ضربها موسى بعصاه، وانبثاق اثنتي عشرة عيناً منها، يشرب من كل عين سبطٌ من أسباطهم الاثني عشر. وكذلك ما شهدوا من دكِّ الجبل حين تجلَّى عليه نور الله العظيم فخرَّ موسى عليه السلام صَعِقاً هو ومن رافقه من أحبار بني إسرائيل عندما ذهب لميقاته مع ربّه تعالى.. ومن المعجزات التي عايشوها أيضاً إنزال المنّ والسلوى عليهم من السماء، ليأكلوا منهما هنيئاً مرئياً، أثناء التِيْه في صحراء سيناء القاحلة المقفرة..

كل تلك المعجزات ـ وما أعظمها ـ رآها بنو إسرائيل بأم العين وتحققت منها أجيالهم، ومع ذلك لم يكن أكثرهم مؤمنين!. فلما حصلت معجزة البقرة المدهشة، وظلّوا على ضلالهم، أظهر اللَّهُ تعالى ما تكنُّه قلوبهم من الأهواء والنزعات التي أبعدتهم عن الهدى والإِيمان، فقال سبحانه مخاطباً إياهم: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي من بعد معجزة البقرة، حتى صارت في قساوتها كالحجارة أو أشد

قسوة. . وهذه الصفة التي أورثَهَا العليم الحكيم لقلوبهم إنما هي مثلٌ لنبوٍّ وابتعادِ تلك القلوب عن الاعتبار، وعن الاتعاظ، فلا يؤثر فيها شيء. . فما دامت المعجزات العظيمة لم تؤثر في قلوب بني إسرائيل، فلا شيء يؤثر فيها بعد ذلك!. . فجاء تشبيه قلوبهم بالحجارة لكونها صلبة قاسية، بل هي أشدّ قساوة من الحجارة لأنَّ من الحجارة، ما قد يلين ويرقّ بفعلِ عوامل الطبيعة، ومنها ما فيه شقوق أو ثقوب يتسرب منها الماء، ومنها ما ينشقّ، طولاً أو عرضاً، حتى تنبجس منه العيون أو تتفجر الينابيع والأنهار، وإنَّ منها الجبال الصخرية الصمّاء التي تُدكُّ وتهبط من خشية الله تعالى، ومن ذكره العظيم. . فإذا كانت الحجارة والصخور والجبال على صلابتها وقوتها أقل قساوة من قلوب اليهود، فأنّى لهذه القلوب أنْ تخشع أو تلين لذكر الله، ولآيات الله، مهما رأت من معجزاته الدالة؟! وأنّى لها أنْ تؤمن وقد أُغلقت على قسوة الضلال؟! وأنّى لها أنْ تعبد اللَّهَ العزيز الجبار وقد امتلأت بالبهتان والنفاق، والمكر والخداع؟!. . وأنّى لها أنْ تصدِّقَ ببعث محمد ﷺ، وبنو إسرائيل قد قتلوا الأنبياء بغير حق، وكذَّبوا المرسلين؟!

نعم أيَّ قلوب قاسية تلك التي يحملها اليهود في صدورهم؟ لقد وصفها ربُّ العالمين بأنها كالحجارة في قساوتها أو أشد قسوة!. . وفي الحديث النبويّ الشريف: **«لا تُكثِرُوا الكلامَ بغيرِ ذِكْرِ الله، فإنَّ كِثرةَ الكلام بغيرِ ذِكرِ الله قسوةٌ للقلبِ، وإنَّ أبعدَ النّاسِ مِنَ الله القلبُ القَاسِي»**[1]. وقوله ﷺ: **«أربعٌ مِنَ الشَّقَاءِ: جُحودُ العَيْنِ، وقسَاوَةُ القَلْبِ، وطُولُ الأَمَلِ، والحِرْصُ على الدُّنيا»**[2].

(١) رواه أحمد بن حنبل، رقم٢٤٠.

(٢) سنن الترمذي، ج٣، ص٦٠.

ولأنَّ قلوب اليهود قاسية، لا تنبض بخشية الله، فهي قلوب مجدبة كافرة، ولذلك كان تهديده عزَّ وجلَّ لهم: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من التمرد والفسوق، والالتواء واللجاجة، والقسوة، وغيرها من أعمال الضلال والباطل، فأعمالكم هذه، أيها اليهود، ليس اللَّهُ تعالى بغافل عنها، أو مهملها، ولكنه سبحانه يؤخركم إلى الأجل الموعود، لتروا عقاب ما كنتم تضمرون، وما كنتم تعملون..

٣ ـ من عادات اليهود الموروثة أنهم يأخذون المتاع الدنيء وأيّ متاع مثله

يقول الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(١).

لقد خَلَفَ، من بعد قوم موسى عليه السلام، الذين عاش بين ظهرانيهم، خلفٌ ورثوا التوراة عن أسلافهم.. ولكنهم لم يعملوا بهذا الكتاب، وما أنزل الله تعالى فيه من أحكام الحلال والحرام، بل انصرفوا عنه إلى أعراض الدنيا من المتاع، والزينة والزخرف، يأخذون منه ما تعجَّل، وقرُبَ لمجرد أنْ يقعوا عليه، أو يصلوا إليه، أيّاً كان نوعه، ولو كان دنيئاً، أو من حرام، كما أنهم كانوا يتّبعون الزائف من القول والفعل، ولو كان عرضياً وفيه سفاهةٌ ونقيصةٌ، مما جعلهم يرتكبون المعاصيَ ويسلكون طرق السوء مثل الغش والخداع، والربا والرشوة، والفتنة والدسّ، والظلم والعدوان.. إلى آخر ما هنالك من

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٩.

المنكرات، وكلها من أعراض هذا العالم الأدنى، الذي هو الدار الفانية، كما عبَّر عنها ابن عباس فقال: «الدنيا عَرَضٌ حاضرٌ يأكلُ منه البَرُّ والفاجرُ، وجميعُ متاع الدنيا عرضٌ». . إذاً فاليهود قد فتنوا بمتاع الدنيا فأخذوه دائبين، مصرّين، وهم يقولون: سيغفر لنا! أي أن اللَّهَ سيعفو عنّا. وقد اختبأوا وراء هذا الظن الكاذب، ليتمادوا في الإِقبال على هذه الدنيا، فكلما يأتيهم عرضٌ مثل الذي كانوا يفعلونه يبادرون إلى أخذه، والعمل به، حتى ولو علموا أنَّ فيه معصية، ثم يقولون من جديد: يغفر الله لنا!. . . وهذا مما يدلُّ على أنه لم يكن يشبعهم شيءٌ من فسادٍ أو فسوق، أو عصيانٍ. . بل يأتون بكل ما تسوِّل به أنفسهم من منكرٍ، على أمل المغفرة!. . . ولكن ألم يؤخذ على هؤلاء ـ الذين يرتشون في الأحكام ـ الميثاقُ في التوراة بألَّا يكذبوا على الله، وألَّا يحرّفوا الكتاب، وألا يضيفوا إليه خلاف ما أنزل الله تعالى على رسوله موسى عليه السلام من تلك الأحكام، ومن الوعد والوعيد؟! ثم ألم يعلموا أنه ليس في التوراة وعدٌ بالمغفرة، مع الإِصرار على الذنوب؟!

لقد درسوا التوراة وعرفوا ما فيها، ولكنهم تركوها وراء ظهورهم، وعملوا بخلافها. فكان من الطبيعي أنْ ينتفي تأثيرها في قلوبهم، وألَّا تستقيم بعدها نواياهم وفعالهم. . وهذا هو شأن العقيدة حين تتحول إلى مجرد ثقافة تدرس، وعلم يحفظ، دون رعاية حق الله تعالى، أو العمل بما أنزل فيها من أحكام الهدى والإِيمان، والعلم، وهو ـ ويا للأسف ـ حال كثير من الدارسين للقرآن الكريم، وقلوبهم عنه بعيدة!. . إنهم يدرسونه ليتأوّلوا حقائقه، ويحرّفوا معانيه، وصولاً إلى المخارج للفتاوى المغرضة التي تنيلهم عرض الحياة الدنيا، بينما الآخرة خير وأبقى. . إذ لا شيء يعدِّل في النفس البشرية الرغبةَ الملحة

في حيازة كل عرض يلوح لها من أعراض هذه الأرض، أو يحجزها عن الطمع والجشع، أو يكفها عن الظلم والبغي، أو يهدّىء فيها هياج الرغائب والشهوات، إلا اليقين بالآخرة، وأنها خير للذين يتّقون. ولذلك قال تعالى: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ فذلك هو الذي يجب أنْ تتفكّروا به وتعقلوه أيها الناس، حتى تؤثروا الآخرة على أعراض هذه الدنيا ومتاعها العاجل. . .

٤ ـ قول المشركين الأميين مثل قول اليهود، ومثل قول النصارى

يقول تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(1).

وقالت اليهود: ليست النصارى على شيء يمكن أنْ يُعتدَّ به في العقيدة، ولن يدخل الجنة إلّا اليهود! وقالت النصارى: ليست اليهود على شيء يمكن أنْ يُعتدَّ به في الدين، ولن يدخل الجنة إلّا النصارى! كما يبيّنه قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾(2). فكان كل أهل ديانة منهما يدّعون أنهم على حق، وغيرهم ليس على شيء. وهذا يعني أن اليهود لم يعترفوا ببعث النبيّ عيسى ابن مريم عليه السلام، ولا بالإنجيل الذي أنزل عليه؛ وأن النصارى لم يؤمنوا بكل ما جاء في التوراة، وبالتعاليم والأحكام التي يعمل بها اليهود. . مع أنهم جميعاً من أهل الكتاب، وكل يتلون كتابهم الذي يوجب عليهم

---

(1) سورة البقرة، الآية: ١١٣.

(2) سورة البقرة، الآية: ١١١.

التصديق بالرسالات السماوية التي أنزلها ربُّنا تبارك وتعالى على النبيين والمرسلين جميعاً. ولعلَّ في هذا الإنكار من أهل الديانتين لبعضهما البعض ما ينبّه المؤمنين، وأهل الإسلام عموماً، بألّا تدخل عليهم الشبهة منه بشيء، لا بل إنَّ إيمانهم بالأنبياء والمرسلين ـ الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم ـ أو أشار إليهم هذا الكتاب المجيد، هو من صلب العقيدة الإسلامية لقول الله وتعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[1].. فهذا إيمان أهل الإسلام الذين لا يفرقون بين أحد من رسل الله؛ ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ بحيث يُبعد عنهم أية شبهة في الإيمان ببعض الرسل، والكفر ببعض، كما فعل اليهود والنصارى. وإيمانهم هو الحق من ربّهم الذي يسمعون آياته فيطيعونها، ثم يسألونه الغفران، ويوكلون إليه مصيرهم في الآخرة..

وكما أنكر اليهود حقيقة ما أنزل في الإنجيل فقالوا: ليست النصارى على شيء، وكما أنكر النصارى حقيقة ما أنزل بالتوراة فقالوا: ليست اليهود على شيء، كذلك قال الأميون الذين لا يعلمون شيئاً عن أحكام التوراة أو الإنجيل، أي قال المشركون من عرب الجاهلية مثل قولهم: لن نؤمن بآيات القرآن التي تتلى علينا، لأننا لم نؤمن أنَّ «محمَّداً»، نبيٌّ ولم نصدّقه!.. وذلك لأنَّ الجهل نأى بهم عن قبول الإسلام ـ بدايةً ـ والعلم بهدى هذا الدين وحقائقه الحياتية والغيبية، فقالوا مثل قول أهل الكتاب. وهذا يعني أنَّ النصَّ القرآنيّ قد

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

ساوى بين الذين كانوا يعلمون صفة النبيّ الأُميّ ﷺ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، ولكنهم عاندوه (كاليهود والنصارى) وبين المشركين الذين لم يكونوا يعلمون شيئاً عن دين الله وهو الحق المبين (مثل عرب الجاهلية).

والنصُّ القرآنيُّ لا يمكن تخصيصه بيهود المدينة، أو نصارى نجران، لمّا جاؤوا يريدون أنْ يتناظروا مع رسول الله ﷺ.. وبعد حجاج طويل، ولمّا لم يقنعوا بالأدلّة التي تقدمها الآيات القرآنية التي يتلوها على مسامعهم، دعاهم للاحتكام إلى المباهلة إلّا أنهم أبوا أن يباهلوا، وذهبوا لا يلوون على شيء.. فالنصُّ القرآني لم يكن نصّاً خاصاً لتلك الحادثة، بل جاء نصاً عاماً يواجه مقولات اليهود والنصارى، ويَجْبَهُ هؤلاء بهؤلاء، ثم يحكي رأي المشركين في الطائفتين معاً. والمشركون هم الذين وصفهم القرآن بأنهم لا يعلمون: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، أي مثل أقوال أولئك من أهل الكتاب، قال الأميّون من العرب، الذين لم يكونوا على دين معين، ولم يكونوا من أهل الكتاب.. فكانوا يرون ما هم عليه اليهود والنصارى من الفرقة والاتهام، ومن التمسك بخرافات وأساطير لا تبتعد كثيراً ولا ترتفع عن خرافاتهم هم، وأساطيرهم في الشرك، ومن قبيل ذلك اعتقادهم الخرافيّ الذي ينسبون فيه البنات لله؛ تعالى الله عما يصفون علوّاً كبيراً!..، ولعلَّ تلك الخلافات بين أهل الكتاب هي التي جعلت المشركين العرب يزهدون في معتقداتهم، فقالوا مثل قولهم: ليست اليهود، ولا النصارى على شيء، أي كما كانت كل طائفة منهما تقول بحق الطائفة الأخرى.

والقرآن الكريم يسجل على الجميع مقولات الخلاف بين

بعضهم البعض، وذلك عقب تفنيد دعوى اليهود والنصارى في ملكية الجنة: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ . . ثم يبيّن أنَّ أمر الحكم فيهم إلى الله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾. وهذه الإحالة إلى حكم الله جلَّ وعلا هي وحدها مصداق الحق في مواجهة قوم لا يستمدون براهينهم من منطق، ولا يعتمدون بحججهم على دليل، بسبب دعواهم الباطلة بأنهم وحدهم أهل الجنة، وبأنهم وحدهم الذين هداهم الله، فكان له الحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون في الدنيا، فيريهم من يدخل الجنة عياناً، ومن يدخل النار عياناً.

٥ ـ الطلب إلى النبيّ محمد ﷺ الإتيان بالمعجزات مثل ما أوتي موسى

يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ۞ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[(١)].

. . لمَّا جاءهم الإسلامُ، الدينُ الحقُّ من عند الله تعالى، وراح النبيُّ محمد ﷺ يدعو إلى هذا الدين، على هدى ونور من ربّه تعالى، أنكر عليه أهل الجزيرة نبوَّته ـ في بداية الأمر ـ ولم يصدّقوه. ثم قالوا: لو أنه أوتي مثل ما أوتي موسى من المعجزات، وأرانا إياها بأم أعيننا، لكنا نفكّر بأنْ نصدّقَهُ! أو قالوا: لو أنَّ القرآن تنزَّل عليه جملة واحدة كما تنزَّلت التوراة على موسى، لكان ذلك أجدرُ حتى نعلم أنه نبيّ!

(١) سورة القصص، الآيتان: ٤٨ و٤٩.

فأنزل الله تعالى الحجةَ عليهم، وعلى دعواهم بقوله المبين: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾؟، فلم يصدّقوا بالبيّنات التي جاءت بها التوراة، كما لم يؤمنوا بآيات الله التي تتنزَّلُ قرآناً عربياً غير ذي عوج!.. فقد كفروا بالتوراة من قبل، ثم كفروا بالقرآن من بعدها، عندما قالوا عن هذين الكتابين المقدَّسين: ﴿سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾، أي أنهما متشابهان، ومكملان لبعضهما البعض بما فيهما من السحر الذي يسلب الناس عقولهم.. ولم يكتفوا بدعوى السحر الكاذبة يحمّلانها لكتابين منزلين من ربِّ العالمين، بل ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ أي، إنا بكلٍّ من موسى ومحمد كافرون، فلا نؤمن بنبوّتهما، وإنّا بكلٍّ من التوراة والقرآن كافرون، فلا نؤمن بأنهما كتابان منزلان من الله!..

وقد ادّعى المشركون هذا الإنكار في وجه النبيّ ﷺ من جراء ما حرَّضهم اليهود عليه من الكفر. فقد بعثَ رؤوس الشرك من قريش إلى أحبار اليهود في يثرب، يستفتونهم في خبر محمد ﷺ، وصدق رسالته، مما يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة، فأنكر اليهود أنْ يكون هو النبيّ الموعود، وأوعزوا إلى قريش أنْ تطلب منه معجزاتٍ مثل التي أوتيها موسى عليه السلام، فنزل الذكر الحكيم يرد عليهم، ويبين خطل دعواهم: أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل فزعموا أنه سحر، كما يزعمون أنَّ هذا القرآن الذي يتنزَّل على محمّد ﷺ هو سحرٌ؟! فكأنَّ الكتابين جاء أحدهما يدعم الآخر بالسحر ـ حسب ظنهم ـ ولذلك قالوا: ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ فلا نؤمن بكتاب «موسى»، وندخل في دينه، ولا نؤمن بالآيات التي يتلوها علينا «محمَّدٌ» وندخل في دينه..

ومع ذلك فالقرآن الكريم، يسير مع الكافرين والمشركين، خطوة أخرى في الإِقناع والإِحراج. وذلك عندما يبين لنا بأنَّ اللَّهَ

تعالى أمر نبيَّهُ محمَّداً ﷺ بأنْ يقول لهم ما معناه: إنْ كنتم لا تصدقون بالقرآن، ولم تصدقوا بالتوراة من قبل، فأتوا بكتاب منزّلٍ من عند الله يكون أهدى من هذين الكتابين، فأتّبعه إنْ كنتم صادقين في دعواكم أنهما غير منزَّلين؟ وهذا اشتراط لم يكونوا يتوقعونه، بل وهو مستحيل التحقيق عليهم!.. فمن أين لهم أنْ يأتوا بكتاب من عند الله، وهو جلَّت مشيئته يجعل رسالته حيث يشاءُ.. ثم إنَّ هؤلاء كافرون ومشركون، يستنكفون عن الحق، ويأبون الهداية، ويصرّون على تكذيب كتب الله، وتكذيب أنبيائه فهل يُؤتى أحدٌ منهم كتاباً من عند الله؟ بل من أين لهم أنْ يأتوا بكتاب أهدى من هذا القرآن المجيد الذي لا ريب فيه هدى للمتقين؟!

لقد كان ذلك معتقد أهل الجاهلية، فلم يؤمنوا بدينٍ من عند الله تعالى: بسبب هيمنة الكفر والشرك على عقولهم، فلمَّا بعث الله عزَّ وجلَّ لهم رسولاً من أنفسهم، ودعاهم إلى الهدى، تصدّوا لدعوته في باديء الأمر بكل أشكال التصدّي!.. ثم انقلب أكثرهم بنعمة الله مسلمين، وقادوا الجيوش وحققوا الفتوحات المباركة في دنيا الأرض.. أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فقد ظلوا على معتقداتهم، وما تزال العداوة في الدين قائمة فيما بينهم، على الرغم من اتفاقهم على عداء الإسلام والمسلمين، كما هو ثابت من الحروب الظاهرة والخفية التي يشنونها بين الحين والآخر، على الأمة الإسلامية: دولاً، وحركاتٍ وأفراداً متوسلين لذلك مختلف الذرائع والأكاذيب الباطلة!.

٦ ـ حسد اليهود أنْ يُؤتى أحدٌ مثل ما أوتي أنبياؤهم من الكتاب والحكمة

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟

بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

يروى أنَّ اثني عشر رجلاً، من أحبار اليهود في خيبر وقرى عرينة، تواطأوا على أن يدخلوا في الإسلام ظاهرياً، ويحضروا اجتماعات المسلمين في وضح النهار، ثم يرتدوا آخره، من أجل أن يشيعوا في الناس القولَ: لقد دخلنا في الإسلام، وعرفنا ما فيه، ثم نظرنا في كتبنا، وتشاورنا فيما بيننا، فوجدنا أن «محمَّداً» ليس بنبيٍّ، وظهر لنا أنه كاذب، وأنّ دينه باطل.. فلئن فعلنا ذلك فقد يساور الشك أصحابَ «محمّدٍ»، ويقولون عنّا إننا أهل كتاب، وعندنا علم أكثر منهم.. وربما يؤثر ذلك عليهم، فيرجعون عن دينهم، ويلوذون بنا، بل ربما يعودون إلى ما كانوا عليه من الشرك...

وكذلك روى ابن إسحاق عن ابن عباس قال: «قال جماعة من اليهود ـ منهم عدي بن زيد والحارث بن عوف ـ بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمّد وأصحابه غُدوةً، ونكفر به عشيةً، حتى نلبس عليهم دينهم، لعلهم يصنعون كما نصنع، فيرجعوا عن دينهم فأنزل الله فيهم: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾[2] ـ الآية.. إلى قوله: ﴿وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾»[3].. كذلك أخرج ابن أبي حاتم عن السدي عن أبي مالك قال: كانت اليهود تقول أحبارهم للذين دونهم: لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾[4].

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ٧٢ و٧٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧١.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٧٣.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٧٣.

ذلك بعض من الدسائس الخبيثة، التي كان اليهود يبتدعونها، ليصرفوا الناس عن النبي ﷺ ودينه، فكانت أحبارهم توصيهم بألّا يثقوا إلّا باليهود أمثالهم، وألّا يركنوا إلّا لمن تبع دينهم...

ولم تكن تلك الحملةُ لتخفى على ربّ السماوات والأرض، فكانت الآيات القرآنية تكشف نوايا أولئك الأحبار، الذين كانوا دهاقنة في الكفر والنفاق من بني يهود، ولا سيما في تآمرهم على المؤمنين حتى يرجعوا عن دينهم، وفي الوقت نفسه كانت الآيات الحكيمة تحمل التوجيه الربانيّ للنبي ﷺ، ومن شأنه تمكينه في مواجهة كلّ الأضاليل، والافتراءات التي تشكل اعتداءً صارخاً على صدقية وقدسية الآيات القرآنية التي يتلوها على الناس.. ومن قبيل ذلك التوجيه الربانيّ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾..

قل لهم يا «محمد»: إنَّ الهدى هدى الله، وقد أنزل سبحانه بيّنات هذا الهدى بآياتٍ قرآنيةٍ واضحة المعاني والمفاهيم والدلالات.. فلا تجحدوا، أيها اليهود، ولا تنكروا على أحدٍ سواكم أنْ يُؤتى مثل ما أوتيَ أنبياؤكم، ولا تعجبوا أنْ يحاجّكم المؤمنون من أهل الإسلام، ويغلبوكم عند ربّكم، يومَ القيامة!.. وإلّا كان عليكم القبول والإِذعان لما أدعوكم إليه، وهو الحقُّ من ربّي، وهو سبحانه الذي أرسلني بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون... ولو كره الكافرون.. فإنْ لم تؤمنوا لي، وتدخلوا في دين الله، فإنَّ الله تعالى يحكم بيننا وبينكم فيما تخالفوننا به..

ويدعم هذا الاتجاه ما قاله الضحّاك، وهو «أنَّ اليهود قالوا: إنّا نحاجُّ عند ربّنا من خالفنا في ديننا، فبيّن الله تعالى أنهم هم المغلوبون الذين لا حجة دامغة لهم، وأنَّ المؤمنين هم الغالبون، وذوو الحجة الدامغة والحقّ الصريح»..

أما قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، فالتقدير: أنَّ النبوَّة والهداية، وسائر نِعم الدنيا والآخرة، إنّما هي فضل من الله تعالى، ودليل هذا الفضل أن يختار ويصطفي من يشاء من عباده للنبوة والرسالة، لأنه عليم بمن هو أهل وجدير بحملها.. وهو واسع الرحمة، جوادٌ، عالم بمصالح هؤلاء العباد، فيجعل رسالته حيث يشاء

وتستوقفنا النصوص الواردة في «سورة آل عمران» ـ كما تستوقف كلَّ باحثٍ مدقّقٍ من ذوي الألباب ـ لندرك بأنَّ الإسلام الذي أُنزل قرآناً على قلب محمّدٍ ﷺ هو دين الله، وهو الدين الذي ارتضاه ربُّ العالمين للناس كافة، فكان من رحمته تبارك وتعالى أنْ يبيّن في كتابه ما يتعرض له هذا الدين من الدسائس والمؤامرات التي كان يحيكها أهل الشرك والضلال لمنع هذا الدين من الظهور، أو الغلبة أو الانتشار!.. وقد تبدّى ذلك بما قام به أعداء دين الله، خلال القرون المتطاولة، ليُدخلوا في التراث الإسلامي ما لا سبيل إلى كشفه ـ إلّا بجهدٍ جهيدٍ ـ ومن ثم إلباس الحق بالباطل بما صدر، ويصدر، من المؤلفات والدراسات، وما يُشنُّ من الحملات الإعلامية، وكلها تهدف إلى تشويه الإسلام، لا لشيءٍ إلّا لإبعاد الناس عنه.. ولا يُنكر أحدٌ أنَّ تلك المؤمرات والافتراءات على هذا الدين وأهله قد أفلحت في كثيرٍ من المجالات، اللَّهُمَّ إلّا في الافتئات على القرآن المجيد، الذي تكفل الله بحفظه إلى يوم القيامة، فالحمد لله على فضله العظيم. أجل لقد دسّوا وحرفوا في التاريخ الإِسلاميّ، وغيروا فى أحداثه وفي سير رجاله الكبار، ووضعوا وعبثوا في السيرة النبوية الشريفة حتى قيّض الله للحديث الشريف رجالاً حقّقوه، وحرروه، إلّا ما ندَّ عن الجهد الإِنسانيّ المحدود.

بل ودسُّوا أيضاً في التفسير القرآنيّ حتى تركوه تيهاً لا يكاد الباحث يفيء فيه إلى معالم الطريق! وكل ذلك من فعل المستشرقين، أو تلامذتهم الذين يحتلون مكانة فكرية مرموقة في بلاد المسلمين، والذين يُصنَعُون على عين الصهيونية والصليبية، ليؤدوا لأعداء الإسلام الخدمات التي لا يملك تأديتَها الأعداءُ الظاهرون.. ثم ما يزال هذا الكيد، إلى يومنا هذا، قائماً ومطرداً. وما تزال مثابة الأمان والنجاة منه هي: التمسك بهذا القرآن المحفوظ، والعودة إليه لاستشارته في المعركة الناشبة طوال هذه القرون. من هنا نرى أن القرآن الكريم يعرض لنا بعض تلك المحاولات التي كان يبذلها فريق من أهل الكتاب لبلبلة الجماعة الإسلامية في دينها وردِّها عن الهدى، والتي ما تزال هي الطريق نفسها، التي كان يتبعها أسلافهم عبر القرون، لإِضعاف المسلمين، والنيل منهم..

٧ ـ شاهد من بني إسرائيل يشهدُ على مثل قول النبيّ بأنَّ القرآن من عند الله تعالى.

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١).

يخاطب اللَّهُ سبحانه نبيَّه محمّداً ﷺ بأنْ يقول لليهود: أخبروني أيها اليهود ماذا حالكم إنْ كان هذا القرآن من عند الله ثم كفرتم به، وشهد شاهد من بني إسرائيل ـ من الأحبار الذين يعلمون التوراة، وما

(١) سورة الأحقاف، الآية: ١٠.

أنزل فيها من الحق على صدق نبوتي ورسالتي ـ وقال مثل ما أقول لكم بأن القرآن هو من عند الله تعالى، ثمَّ صدَّق به فآمن، واستكبرتم أنتم عن هذا الإيمان، أفلا تكونون ظالمين؟! فإنْ آثرتم الظلم لأنفسكم، فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

وأخرج الشيخان عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: نزلت هذه الآية في عبد الله بن سلام، فهو الشاهد من بني إسرائيل الذي آمن بالقرآن أنه من عند الله تعالى، وقد أنزله على قلب خاتم النبيين محمد ابن عبد الله ﷺ، ليكون هدى للمتقين. وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن سلام أنه قال: «نزلت فيَّ».

وعلى الرغم من شهادة الحق التي واجه بها ابن سلام أحبارَ اليهود، الذي كان أعلمهم بأمور الدين، فقد أنكروا عليه إسلامه، وإيمانه واستكبروا عن الإقرار بحقيقة القرآن، وحقيقة بعث محمد ﷺ، فكانوا من الظالمين الذين نأوا بأنفسهم عن الهداية، فلا يقعون إلّا على الضلال!.. والدليل ما كان من موقف كبار أحبار اليهود في المدينة، وما دعاهم إليه رسول الله ﷺ للإيمان بالقرآن، وشهادة عبد الله بن سلام[1] على أنه كتاب الله، وعلى أنَّ

(١) تذكر كتب السيرة النبوية أنَّ عبد الله بن سلام كان من كبار أحبار اليهود، وقد دخل في الإسلام طائعاً مختاراً إلّا أنه أخفى إسلامه عن بني قومه من اليهود حتى لا يقتلوه. ولم يكن هذا الرجل ليألوَ جهداً في تحذير رسول الله ﷺ من كيدهم، لأنهم قوم بهت، وقد لا يتركون سانحة حتى يغدروا به.. وأراد الرسول ﷺ أنْ يختبر نواياهم، فدعا كبار أحبارهم إليه، وعقد معهم اجتماعَ مكاشفةٍ ومصارحةٍ، وحاجَّهم فيما أنزل عليه من الأحكام والأخبار، وفيما يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة من صفته والبشارة به، ولكنَّهم رفضوا تصديقه، والإقرار بأحقيّة القرآن!.. فسألهم حينئذٍ النبيُّ ﷺ: أيُّ رجل الحصين بن سلام فيكم؟. (وكان اسمه الحصين فسمّاه رسول الله: عبد الله) فقالوا: سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا.. فقال النبي ﷺ: «أفرأيتم إن أسلم»؟!. قالوا: معاذ الله، ما كان لأحد=

محمداً رسول الله إلا أنهم استكبروا فحق عليهم قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

= من كبار أحبارنا أن يسلم!.. وكان ابن سلام يتنحي زاوية تمنع عليهم رؤيته، فناداه رسول الله ﷺ أنْ يأتي إليهم ويكلمهم، فقال: يا معشر يهود، اتقوا الله في هذا النبيّ الأمي الذي تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته. وإني أشهد أنه رسول الله، وأشهد أنّ القرآن الذي ينزل عليه هو من عند الله.. فدهشوا!.. ولكنْ، وبلسانٍ واحدٍ، قالوا: كذبتَ يا بن سلام! أنت شرُّنا وابنُ شرّنا!.. فنظر إلى الرسول ﷺ وقال: هذا الذي كنت أعلم من أمرهم، فإنهم أهلُ كذبٍ وفجورٍ وغدرٍ!..

الخاتمة

الخاتمة

من المأثور في تربيتنا الإيمانية أنَّ المسلمَ يُسأل مرتين: مرة في قبره، ومرةً يوم الحساب، عمَّا كان يؤمن به في الحياة الدنيا، فيجيب المؤمنُ الصادقُ، وبدون أدنى تردُّدٍ:

اللّٰهُ ربي.

والإسلامُ ديني،

والقرآنُ كتابي،

ومحمدٌ ﷺ نبيِّي،

والكعبة قِبلتي..

وأشهد أنَّ الجنةَ حقٌّ، والنارَ حقٌّ، وأنَّ الساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها، وأنَّ الله يبعث من في القبور، وإليه النشور.

وحَسُنَ، واللهِ، قولاً يصدِّق به اللسانُ ما انعقد عليه القلب.. وهذه الشهادة من المؤمن تختصر عمره كله في الحياة الدنيا؛ فقد أرادَ الله تعالى به خيراً، فقام على طاعته، وطاعة رسوله الكريم، وأتى من

الحسنات والأعمال الصالحات ما يلقى به ربَّهُ الكريم آمناً مطمئناً، وذلك بفضل رحمته التي حفَّت به، فأدخلته في الصالحين، الذين يرجعون إلى ربّهم بنفوس مطمئنةٍ راضيةٍ، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ*ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ*فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي*وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾[1].

ومثل هذه التربية الإيمانية هي ما تتوخى الأمثال في القرآن الكريم تعليمنا إيَّاها، حتى يمكن أن نستوعبَ القضايا الأخرى التي تتناولها هذه الأمثال، نظراً لما تزخر به من المفاهيم، والتعاليم، والعظات والمثل العليا؛ وما تحفل به من الأدلة، والشواهد والبراهين التي تغطي مساحات واسعة مما يحيط بالإنسان والحياة والكون من الحقائق، والسنن التي أنشأها العليّ القدير ليقوم عليها الوجود بأسره.

ويشرّفنا أنْ نختم كتابنا هذا بتناول أمرين اثنين:

أ ـ المثل عن محمد رسول الله وصحابته الكرام؛ وما اختص به ربُّ العالمين نساءَ هذا النبيّ الأعظم من ميزة جعلتهنَّ لسن كأحد من النساء، إنْ قامت حياتهنّ على التقوى التي تليق بانتمائهنّ إلى بيتٍ له خصوصية النبوَّة، وهي التي جعلتهنَّ أمهات المؤمنين.

ب ـ بيان أهمية الإيمان بالإسلام، فإنْ آمن الناس بمثل ما آمن به أهل هذا الدين فقد اهتدوا، لأنه دين الله، وهو صبغة الله فيما شاءَ سبحانه وتعالى لعباده من الصلاح والفلاح، حيث أكمل لهم دينهم، وأتمَّ عليهم نعمته، بما أنزل على النبيِّ الهادي من قرآن مجيد، فلا يحتاج أهل الأرض إلى غيره إنْ راموا الهداية،

---

(1) سورة الفجر، الآيات: ٢٧ ـ ٢٩.

والسير على نهج الإسلام، كما أراد لهم ذلك ربُّهم العزيز الحكيم.

والأمثال الكريمة، حول هذين الأمرين، والتي هي حسن الختام، قد هدانا ربُّنا تبارك وتعالى إليها في ثلاثة أمثال..

١ ـ مَثَلُ صفاتِ محمدٍ رسول الله ﷺ وأصحابه: ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل

يقول الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾(١).

في هذه الآية المباركة بيان لبعض من صفات محمد رسول الله ﷺ وصفات أصحابه الكرام، وردت بهذه الصورة الوضيئة، وبهذا الثناء الجميل على الجماعة الفريدة السعيدة التي رضي الله تعالى عنها، وبلَّغها رضاه المبين بقوله العزيز: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(٢).

وقد ورد في سورة «الفتح» النصُّ على اسم النبيّ «محمّدٍ» ﷺ ليزيل كل شبهة بشأنه، فقال الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾،

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٠.

كما ورد كذلك في السورة الكريمة التي سمّيت باسمه ﷺ، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾[1]. . فلا شبهة بعد، ولا شك، ولا مرية، والله تعالى يشهد بأنَّ محمداً رسول الله، وبأنْ ما نزِّل على محمّدٍ ﷺ هو الحق من ربِّ المؤمنين، وربّ العالمين. . ثم إنَّ الرسولية، وهي بعث إنسانٍ لحملِ رسالة الله العلي العظيم إلى دنيا الناس، ليست شأناً بشرياً، بل شأنٌ إلَهيٌّ، هو منتهى ما يطمح إليه أحدٌ من البشر، عرف ربَّهُ تعالى بالفطرة، فتهيَّأت نفسُهُ وجوارحُهُ للالتزام بميثاق الإيمان الذي أخذه الله جلَّ وعلا على بني آدم، وهم في عالـم الذرّ، حتى إذا شاءَ الله وجاء أمره سبحانه، بعثَ هذا الإنسان من بني البشر، دون غيره، نبيّاً رسولاً، ليتلقَّى التكليف بإبلاغ رسالة الله إلى أهل الأرض. . فالرسالة، إذاً، فيها اصطفاءٌ وانتقاءٌ، وامتيازٌ، وفيها عهدةٌ إلى مَن قدَّر له ربُهُ الحكيم تحملَ عبء الأمانة، والقيام بما يفرضه التكليف. . وهي مزية فريدة لقلّةٍ قليلةٍ من البشر، يحمل المختار منهم وسام الرضى والرحمة، وشرف الرفعة والسموّ، لينعم، من ثَمَّ ـ هذا الذي اختاره الله بشراً رسولاً ـ بالعطاء الجزيل، والفضل العظيم من ربّ العالمين. . والرسولية بأصولها، ومقاصدها ومصاديقها ليس معنًى مجرَّداً يمكن أنْ يضاف إلى سماتِ بشرٍ معين، بل هي تفاعل حيويٌّ لقيادة البشرية إلى خيرها وصلاحها، وإلى انعتاقها الفكري، وأمنها النفسي، بما تتلقى من نور الحقّ الذي تحمله الرسالة، فتطهر قلوبُها. . ويصفو وجدانُها. . وهذا كله مدعاةٌ لأن يجلبَ لها الطمأنينة

(١) سورة محمَّد، الآية: ٢.

والسعادة.. فالرسالة السماوية، وبهذه المعاني، هي الجوهر لروح حركة هذا التفاعل الزاخر مع الحياة، والمنهاج الصادق لإصلاح الحياة، والتطلع المستبصر إلى ما بعد هذه الحياة.. فصلوات الله وسلامه على من بعث من عباده أنبياءَ، ورسلَ هداية..

وإذا كان الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ فحريٌّ بالناس أنْ يدركوا قدسية هذا الرسول عند ربه الكريم، الذي لا إلَهَ إلَّا هو إلَهٌ واحدٌ في السماوات والأرض، فلا إلَهَ غيره، ولا معبود ـ في الكون ـ إلَّا إيَّاهُ، بيده الخير، وهو على كل شيءٍ قدير.. فإذا كان الوحيُ من الله قد أذن بأنَّ محمّداً رسولُ الله وقد خاطبه سبحانه من عليائه بقوله الكريم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]، فذلك ليكون في علم أهل الأرض، وفي علم أهل السماء، أنَّ أهمَّ سبيل للإيمان بالله تعالى، والعمل بهدى الله، إنّما هو التصديق بنبوة ورسالة محمَّد ﷺ.. الأمر الذي يستدعي من الذين عاشوا في زمانه الالتفاف حوله، ونصرته في نشر الإسلام، كما يستدعي من الأجيال اللاحقة، بل ومن كل الناس الذين يأتون إلى هذه الدنيا، وحتى قيام الساعة، الإيمانَ بما أُنزل على محمّد ﷺ وهو الحق من ربه، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[2].. ومن يبتغِ غيرَ دين

---

(١) سورة القلم، الآية: ٤.

(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ١٥٦ و١٥٧.

محمَّدٍ ﷺ، وهو الإسلام الذي يحمل الرسالة السماوية الخاتمة، والشرعةَ والمنهاجَ الكاملين، فلن يقبل منه، لأنه دين الله الحق؛ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[2].

ولأنَّ التكليف الذي يحمل أعباءَ الرسالة السماوية الخاتمة له شأنٌ عظيمٌ عند الله تعالى، ولأنه سبحانه قد اختار لهذا التكليف محمد ابن عبد الله ﷺ بالذات، فكان من الرحمة الربانية بالناس أن يوجّه آيُ الذكر الحكيم عنايتهم كي يتبيَّنوا بعض صفات حامل هذه الرسالة، وبعض صفات الذين آمنوا به وصدقوه، كما يهدي إليها قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ﴾.

أما عن محمّدٍ رسول الله ﷺ فيكفي في الدلالة على صفاته، ما أكرمَهُ ربُّهُ تعالى به عندما قال له: «وإنك لعلي خلقٍ عظيم». وأما عن صفات أصحابه الكرام فقد قيل إنه بلغ من تشدّد أولئك الصحابة الأبرار، أنهم كانوا يتحرَّزون من ثياب الكفار والمشركين حتى لا تَمَسَّ ثيابهم، بينما بلغ من تراحمهم فيما بينهم، أنه كان لا يَرى مؤمنٌ مؤمناً إلَّا صافحه، ثم تودَّد إليه وتواضع له، حتى لتحسبه ذليلاً بين يديه.. في حين إذا صادف كافراً رأيته يشمخ بأنفه عنه، ويترفَّع عن مجالسته ومحاكاته في شيءٍ من قول أو فعل!.. فكان أولئك المؤمنون كما قال عنهم ربّهم تبارك وتعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

أولئك أصحاب «محمّد» ﷺ، الذين رافقوه في معترك إبلاغ الدعوة، والذين حملوا لواءها منذ بُعث هذا الرسول الكريم.. وكذلك الذين سيظلون يعملون على نشر الإسلام إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها.. ذلك أنَّ من اتَّبع الإِسلام، واعتنق تعاليمه قولاً وعملاً، بنيةٍ خالصة، ومن عامَلَ الناس بأخلاق الإِسلام، وقام بتربية الأفراد والجماعات على أسس إسلامية، هو مع محمّدٍ ﷺ، مهما ابتعد زمانه عنه، أو امتدت به العصور..

فإذا كنت ـ أيها الإنسان المسلم ـ تريد أنْ تكون من أصحاب «محمّدٍ» ﷺ فأمامك القرآنُ الكريم والسنة النبوية الشريفة، فاتَّبعهما واعمل بوحيهما وهديهما، لتتمَّ صحابتك مع رسول الله ﷺ.. ويا لها من صحبة سوف تتلقَّى آثارها ومفاعيلها وأنت تقف بين يدي الله الواحد القهار، يوم الدين، وقد استقبلك رسول الله ﷺ يرحِّب بلقياك صحابياً مؤمناً، محتسباً، عاملاً، أحببت الله ورسوله، فأحبك اللَّهُ ورسولُه!.

والتراحم بين صحابة محمّد ﷺ هو تقارب بين القلوب والأفكار، وهو تعاون على البر والتقوى، وابتعاد عن الإِثم والعدوان؛ كما أنه التفاعل الدائم بين المسلمين على أساس الإِسلام، فلا تنابذ، ولا تناحر، ولا تقاتل، ولا عصبية مذهبية ولا طائفية.. بل توجه إسلاميّ صرف، ودعوة خالصة إلى الله ورسوله.. فهل نحن، اليوم، مسلمونَ رحماءُ، حتى نفكّر بأنْ نكون أشدّاء على الكفار، رحماءَ بين بعضنا البعض؟!

ومن صفات الذين كانوا من صحابة محمّد ﷺ، أنك ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، فهم بصلاتهم: راكعون ساجدون، يلتمسون زيادة النعمة من رضى الله تعالى.. وليس أعظم

وأجل من رضى الله على عبدٍ من عباده، لأنَّ من نال هذا الرضى فقد فاز في الدارين. . .

ومن صفاتهم كذلك أنَّ ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ فهذه العلامة التي تظهر في وجوههم، أو على جباههم، هي من كثرة السجود، حيث ترى الوضاءة والإشراق والنورانية تكاد تشع من تلك الوجوه المؤمنة. وقد اختار لفظ ﴿ٱلسُّجُودِۚ﴾ لأنه يمثّل حالة الخشوع والخضوع والعبودية لله تعالى في أكمل صورها. فكان أثر هذا الخشوع في الجبهة، أو في ملامح الوجه حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء، والتعالي والغطرسة، ويحل مكانها التواضع النبيل، الذي يزيد المؤمن لُطفاً، وكياسةً ورحمةً. وهذه الصورة ليست مستحدثة، بل هي ثابتة لهم في لوحة القدر؛ ومن ثم فهي قديمة، جاء ذكرها في التوراة: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِۚ﴾ لتعبّر عن صفتهم التي عرّفهم الله تعالى بها في الكتاب الذي أنزل على النبيّ موسى عليه السلام، ومن ثم أعيد ذكرها في الكتاب الذي أنزله على النبيّ عيسى ابن مريم عليهما السلام ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾، وخاصة فيما حمل هذان الكتابان ـ التوارة والإنجيل ـ من البشارة بالنبيّ الأميّ العربي، حتى يكون التطابق والتكامل لصفات صحابة أولئك الرسل، متطابقاً في الرسالات السماوية الثلاث ـ التي أنزلت في التوارة والإنجيل والقرآن ـ فيقتدي بهم المؤمنون الصادقون، الذين هم في الحقيقة، يعتبرون أنصار الله على مدى الزمان. . .

أما مثل «محمّدٍ» ﷺ وأصحابه ـ وبتلك الأوصاف التي وردت في الكتب السماوية الثلاثة ـ فهو في التشبيه القرآني ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾، فهو زرعٌ نامٍ قويٌّ، يخرج فرخه نضراً من قوته وخصوبته. وهذا الفرخ لا يُضعفُ العود بل يشده، فيؤازره، مثلما أنَّ العود يؤازر

فرخه ويشده ليستغلظ الزرع، وترتفع ساقه وتمتليء، ثم ليستويَ على سوقه، لا عوج فيه ولا انحناء، بل استقامة وامتلاء.. فهذه صورة الزرع المبارك، أما وقعه في نفوس أهل الخبرة من الزرّاع، العارفين بالنامي منه والذابل، المثمر منه والبائر، فهو وقع البهجة والإعجاب ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾. وأما صاحب هذا الزرع النامي المخصب البهيج فهو رسول الله ﷺ الذي اعتمد أسلوبَ التثقيف بتحفيظ الآيات التي تُنزَّل عليه، وتبيان معانيها للمسلمين الأوائل، الذين انضووا في كنف الإسلام، فحق لأولئك الأبرار، وهم معه منذ فجر الدعوة، أن يكونوا صحابته الكرام، وأنْ يسيروا على نهجه، حيث بدأوا في قلة وضعف، ثم كثروا وقووا على أحسن الوجوه، فكان وقع فعالهم يثير الغيظ، والكمد والحقد في نفوس الكفار.. وتعمُّد إغاظة الكفار يوحي بأن هذه الزرعة هي زرعة الله، وزرعة رسوله، فكان حريًّا أن تكون هذه الزرعة أتباعَ محمّد ﷺ، الذين جعلهم الله تعالى أداةً لإغاظة أعدائه. وهكذا يثبت الله العليم الحكيم في كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة، صحابة رسول الله ﷺ، التي تنبت في صلب الوجود كله، وتتجاوب معها أرجاؤه بالنفحة العلوية التي تجعل الخلائق تعي فعالَ أولئك الأخيار من البشر الذين آمنوا بالله رباً عزيزاً مقتدراً، وبالإسلام ديناً، وبمحمّدٍ ﷺ خاتماً للنبيين، وسيداً للمرسلين.. ليكونوا، من ثمَّ النموذجَ، والمثال للأجيال البشرية من بعدهم، فتقبل على الإيمان الصادق بربّ هذا الوجود، وعلى العمل في سعيها للإصلاح والصلاح في حياة الناس.. لقد كرَّمهم العليُّ العظيم بما وصفهم به في كتابه المبين، تشريفاً لرسوله الكريم، وزادهم فضلاً ورحمةً بما وعدهم من المغفرة والأجر العظيم ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾.. وهذا الأجر العظيم هو الجنة التي هي وعدٌ من الله

تعالى للذين آمنوا وعملوا الصالحات، يدخلونها بمغفرة من الله ورحمة، وحسن أولئك رفيقاً مع النبيين والصدّيقين، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1].. أجل، وكما وعد الله تعالى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن تكون لهم مغفرة وأجرٌ عظيمٌ بدخول جنات عدنٍ، ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ مثل جزائهم.

وهكذا يكون القرآن الكريم قد أعادَ المثلَ الذي ضربَهُ اللَّهُ تعالى في التوراة، وفي الإنجيل، لتنطبق أوصافه على محمّدٍ ﷺ وأصحابه.. فالزرع هو محمّد (عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام)، والشَّطْءُ (أي ما يفرّخ هذا الزرع) هم أهل بيته، والصحابة، والمؤمنون الذين عملوا الصالحات.. وعادة ما يكون أول الزرع دقيقاً، ثم يغلظ ويقوى ويتلاحم، فالمؤمنون، وجميع من كان حول رسول الله ﷺ، في أول الأمر، كانوا يتلقّون الأذى والعذاب، ولكن لم يهنوا في إسلامهم، ولم يضعفوا في نفوسهم، وبفعل إيمانهم القويّ، راح عددهم يتكاثر، مع الوقت، وبدأت قوتهم تتماسك، حتى استووا على أمرهم، فاستغلظوا، وصاروا تلك الجماعة المتلاحمة المتراصة، التي يشد بعضها أزر بعض كالبنيان المرصوص، والتي أغاظت الكفار والمشركين، وأربكتهم بما وصلت إليه من وحدة إسلامية متماسكة، ذات منعةٍ وشدة، بحيث لم يعد العدو قادراً على قهرها والقضاء عليها، كما كان يأمل، ويتمنّى!..

---

(١) سورة النحل، الآية: ٣١.

وبالفعل فإنَّ الجماعة الإسلامية لم تبلغ ما بلغت إلّا بعد عناء طويل، ومشاق مريرة وصعاب لا تحصى. وكان الهمُّ الأكبر يقع على عاتق الرسول، لأنه هو صاحب الرسالة، وحامل الدعوة، ولأنَّ أمر المؤمنين من مسؤوليته، ولذلك كانت دعوةُ ربّه تعالى إليه أن يصبر، ويتحمل مهما كابد وعانى، مصداقاً لقوله تبارك وتعالى:

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۞ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۞ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(١).

فقد كان على رسول الله ﷺ أنْ يصبر لحكم ربّه، الذي قَضَى أن يكون نبيّاً ورسولاً ليبلِّغ خاتمةَ رسالاته السماوية إلى الأرض. ومن مضامين هذا الصبر الذي يوجهه إليه ربُّهُ الذي بعثَهُ، ألَّا يقاتل المشركين، مهما ناله من أذاهم، ومن عنتهم وعداوتهم، حتى يُؤْذَنَ له بالقتال، فيأتيه حينئذٍ النصر من عند الله، الذي ينصر أولياءه، ويقهر أعداءه..

وإذا كان في هذه الدعوة للصبر مواساةٌ للرسول ﷺ على ما كان يلاقيه من عَنَتِ القوم وجبروتهم، إلّا أنها تحمل أيضاً النهي بألّا يكون كالنبيّ يونس عليه السلام، الذي لم يصبر على جهل قومه وكفرهم، فاستعجل في الخروج من بينهم مغضباً، مستاءً، متبرّماً، قبل أنْ يستأذن ربَّهُ تعالى في هذا الخروج، فكان أنْ أوكله الله تعالى إلى حوت كبير ابتلعه في جوفه، ليقبع، في ظلمات ثلاث شديدة، فيعاني ويكابد في ظلمة الليل البهيم، وظلمة البحر القاتم، وظلمة بطن الحوت الخانق. وإنّه، وهو في وسط تلك الظلمات، مكظومٌ، مهمومٌ

---

(١) سورة القلم، الآيات: ٤٨ ـ ٥٠.

مغمومٌ، لم يجد إلّا التوجّه بدعاء الندم والتوبة، وطلب العفو والرحمة، من الله الذي لا إلّه إلا هو، إذ نادى: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. فاستجاب سبحانَهُ لدعائه، وأدركته رحمته، ولولا أنْ تداركته هذه النعمة من ربّه الكريم لبقي في بطن الحوت إلى يوم يبعثون، أو لنبذ، وقذف به من بطن الحوت إلى الأرض العراء وهو مذموم أي ملوم (لأنه أتى بما يُلام عليه)، ولكنَّ الرحمة الربانية تداركته، فاجتباه ربّه، وجعله نبياً من الصالحين.

٢ ـ نساءُ النبيّ ﷺ لَسْنَ كأحدٍ من النساءِ إن اتَّقَيْنَ

يخاطب اللَّهُ تعالى نساءَ النبيّ بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾(١).

لقد جاء القرآن الكريم يحدّد القيم الأساسية في تصور الإسلام للحياة. وهذه القيم ينبغي أن تجد ترجمتها الحيَّة في بيت النبيّ ﷺ وحياته الخاصة، لأن النبيّ هو الأسوة، والقدوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، ولأنَّ سيرته في نبوتّه، وعمله، وقوله وبيته يجب أن تظل منارةً ومحطاً لأنظار المؤمنين إلى يوم الدين.

وفي ذلك البيت النبوي الكريم، الرفيع العماد نزلت آيتان تخيّران نساءَ النبيّ ﷺ وتحددان لهنَّ الطريق: فإمّا أنْ يُرِدْنَ الحياة الدنيا وزينتها، وإمّا أنْ يُرِدْنَ اللَّهَ تعالى ورسولَهُ الكريم والدار الآخرة.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٢.

وذلك في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1].

.. فقد اختار النبيُّ ﷺ لنفسه ولأهل بيته عيش الكفاف، ولم يُعِرْ متاعَ الدنيا أقلَّ عناية. ولم يكن ذلك بسبب العجز عن المتاع، فقد قدّمت له زوجُهُ الطاهرة خديجة مالها كله، وكانت العرب تقدِّر ذلك المال بثروةٍ طائلة، فبذله الرسول الأكرم في سبيل الله. ثم تابع الدعوة حتى فُتحت له الأرضُ في شبه الجزيرة، وكثرت الغنائمُ، وعمَّ الفيءُ واغتنى مِن أتباعِهِ مَن لم يكن له مال ولا زاد، ومع ذلك ظلَّ هو وأهل بيته يعيشون حياة التقشف، يجود بالصدقات والخيرات، ويقدم الهبات والهدايا، مختاراً العزوف عما هو فانٍ زائل، والاستعلاء على زينة الحياة الدنيا ومتاعها، لا يبتغي إلّا ما عند الله خالصاً لوجهه الكريم. وقد لا يعجب مثل هذا النمط من شظف العيش، والزهد في الدنيا بأسرها، نساءَ هذا النبيّ المؤمن، فيخاطبه ربُّه تعالى بأنْ يقول لأزواجه: أنتنَّ في الخيار بين أمرين: **إنْ كُنتُنَّ تُرِدْن الحياة الدنيا، والانصرافَ إلى زينتِها فلكُنَّ مِنَ المَتاعِ حقٌّ معلومٌ، ثم أُسَرِّحُكُنَّ وأنتُنَّ راضياتٍ، حامدات. . وإنْ كنتُنَّ تُرِدْنَ الله ورسوله والدارَ الآخرة فقد أعدَّ الله تعالى للمحسنات منكنَّ (بالصبر على شظف العيش، وعلى طاعة الله ورسوله) أجراً عظيماً، ستلقاه في الآخرة**. . ومن الطبيعيّ، وهُنَّ أزواجُهُ وأمهاتُ المؤمنين، أنْ يُرِدْنَ اللّهَ ورسوله والدار الآخرة، تطبيقاً لمنهج الله في بيت النبوة، وتجاوباً مع نور الرسالة الذي يشع في

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ٢٨ و٢٩.

أرجاء ذلك البيت، وامتثالاً للاختيار النبويّ، النابع من ذاتيةٍ أحبّت اللَّهَ تعالى، فعملت بتقواه ومرضاته. .

ثم يتوجهُ الخطاب الربانيُّ مباشرةً، إلى زوجاته ـ أمهات المؤمنين ـ مبيّناً لهنَّ خصوصيّةً ليست لغيرهنَّ من النساء بقوله سبحانه: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ . . إذاً فنساء النبيّ لسن كغيرهنَّ من النساء، بل ولَسْنَ كأحدٍ من النساء، لكونهن أزواجاً للنبيّ ﷺ الذي اختاره الله تعالى ليكون خاتمَ النبيين، وسيّدَ المرسلين، فأمر المؤمنين بالصلاة والسلام عليه كما يصلّي هو سبحانه وملائكتُهُ عليه في السماوات، مصداقاً لقوله المبين: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾[1] . . فهذا النبيّ جعل له باعثُهُ ميزةً على الأنبياء جميعاً، ويكفيه شرفاً ومقاماً ودرجة رفيعة أنْ الله تعالى يصلي عليه، وأنَّ ملائكته يصلون عليه، فكان أمر الله للمؤمنين بأنْ يصلّوا، ويسلّموا عليه في كل أذان للصلاة، وفي كل صلاة، بل وكلما طابَ للمؤمنين تطهير ألسنتهم بالصلاة الطيبة[2]. وإذا كان النبيّ محمّد ﷺ ليس كأحد في الأنبياء، فإنه ليس كغيره من الرجال أيضاً؛ ولذلك وجب ألا تكون نساؤه كغيرهنَّ من النساء. . فإن اتقين الله، كان لهُنَّ من الأجر عند ربهنَّ ما ليس للنساء، ولكن عليهنَّ ألّا يفعلن ما قد يفعله غيرهنَّ. فالمرأة قد يصدر عنها ما يلفت انتباه الرجل مثل

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٦.

(٢) سئل رسول الله، فقيل له: كيف الصلاة عليك؟ فقال: قولوا: «اللهم صلّ على محمدٍ وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميدٌ مجيدٌ. (يراجع: مصحف الشروق، مختصر تفسير الإمام الطبري، دار الشروق، القاهرة، ص٤٨٠، ط: ٢٧ شوال ١٣٩٧هـ.).

نبرة صوتها، أو تأثرها بحديثه فتخضع بالقول، وتترفق باللفظ في مخاطبته، مما قد يثير الطمع في قلبه، ويهيج الفتنة في نفسه.. فهذه ميزة في الضعف البشريّ حيث تجد القلوب المريضة، التي تُثار وتطمع في كل آنٍ، وتجاه كل امرأة، ولو كانت زوجاً للنبيّ الكريمﷺ وأُمّاً للمؤمنين. ولذلك كان من قواعد السلوك عند المسلمين أنه لا طهارة كاملةً من الدنس، ولا تخلُّص تامّاً من الرجس، حتى تمتنع الأسباب المثيرة لذلك من الأساس..

وإذا كان التحذير من الله تعالى يأتي إلى نساء النبيّ ﷺ، اللواتي كنَّ موضع إجلالٍ وإكبار من المسلمين، فكيف الحال بنساء المجتمعات الحاضرة، التي تعيش السمَّ الزعاف في كل شيء؟!.. ألا ترى في هذه المجتمعات، كيف أنَّ النساء يتخنَّثن في نبراتهن، ويتميَّعن في أصواتهن، ويجمعن كل فتنة الأنثى وزينتها، وكل هتاف الجنس ومثيراته، ثم يطلقنه في تأنّثٍ صارخ، وتَعَرٍّ فاضح حتى أصبحت أكثريتهنَّ أبعد ما تكون عن الطهارة؟!.. بل كيف يمكن أن يرفَّ الطهر في هذا الجوّ الملوَّث، والنساء ـ بذواتهن، وحركاتهنَّ، وأصواتهنَّ ـ يُنظر إليهنَّ، في الغالب، على أنهنَّ مصدر الفتنة والإغواء، وكلُّ ما يمكن أنْ يُعدُّ رجساً ممقوتاً؟! ذلك الرجس، إنَّما أراد الله أنْ يذهبه عن أهل بيت نبيّه الكريم، وأنْ يطهرهم تطهيراً، ليكونوا قدوة صالحة لجميع خلق الله من النساء والرجال.. ولذلك ينبّه العزيز الحكيم نساء النبيّ ﷺ بقوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ لا في القول ولا في الفعل.. ثم أمرهن في ختام الآية المباركة: ﴿وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ خيِّراً، عفيفاً، دالاً على الإحسان في الحديث، فتكُنَّ قدوةً لغيركنَّ، إذ لا ينبغي أن يكون بين امرأة

ورجل من غير محارمها، بل وأي رجل غير زوجها، لحنٌ، ولا إيماءٌ، ولا هذرٌ، ولا هزلٌ، ولا دعابةٌ، كي لا يكون ذلك مدخلاً إلى الخضوع، والاستمالة، ومن ثمَّ إلى السوء الذي قد يأتي بالفاحشة..

والله الخالق العظيم، العليمُ بخلقه وبطبيعة تكوينهم، هو الذي يوجّه الأمر والتحذير لأمهات المؤمنين الطاهرات، كي يراعين القول مع الناس، مع أنَّ زمانهن كان خير الأزمنة ديناً، وإيماناً، وطاعةً، وأخلاقاً في ظل الإسلام، الذي استقرَّ نوراً يملأ العقول والأفئدة.. وكان وجوباً على المرأة المسلمة، حيثما عاشت في المكان والزمان، أنْ تمتثل لقول الله تعالى، فتراعي حكمه الذي خاطب به أمهات المؤمنين، حتى يعمَّ الطهر بدل الفساد، ويسود القول المعروف بدل القول الفاحش..

٣ ـ الإسلام صبغة الله تعالى في الأديان

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾(١).

الآية الأولى ـ هنا ـ تعني في مدلولها، وفي اشتراطها أنَّ اليهود والنصارى، إنْ آمنوا بما آمنتم به أيها المسلمون، من حيث أنَّ الإسلام هو دين الله الحق، وأنَّ القرآن هو كلامُ الله المنزل على عبده ورسوله محمد بن عبد اللّه ﷺ، ثم شهدوا بشهادة أنّه «لا إلَهَ إلَّا الله وأنَّ محمداً رسول الله»، فقد اهتدوا، لما تسكب هذه الشهادة في قلب

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١٣٧ و١٣٨.

المؤمن من الهداية والرشد. ولذلك كان توجيه الخطاب إلى المسلمين بأنَّهُ إنْ آمن أهل الكتاب ـ وأهل الأرض ـ بما آمنتم به، فقد اهتدوا، وسلكوا الطريق المستقيم. وإنْ تولَّوا، وانصرفوا عن هذا الدين، وجحدوه ولم يعترفوا به ديناً خاتماً للرسالات السماوية، وديناً تامّاً للناس كافة، فإنما هم في شقاق ونزاع، وخلاف في قرارة نفوسهم، وفي تعاملهم معكم، لأنهم يكونون قد فارقوا الحق الذي يدعو إليه دينكم، وتمسّكوا بالباطل الذي تزيّنه لهم أهواؤهم، فصاروا مخالفين لما أراد الله لعباده، سائرين في طريق الخصام، وسلوك درب العداوة والحرب التي يتسلحون بها، لتصريف أمورهم وشؤونهم، تماماً كما كان يفعل الكفار والمشركون والمنافقون على عهد النبيّ ﷺ، ولكنَّ السميع العليم مطلعٌ على كل شيء، ولذلك ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ يا محمّد بما يعدك من النصر، وبما يكفيك ويظهرك على أعداء دينك، لأنه هو اللَّهُ الذي لا إلَهَ إلَّا هو، وهو يسمع أقوالهم في السر والجهر، ويعلم أحوالهم، وما يعملون ويخططون ليصدوا عن سبيل الله، ويوقعوا بالمسلمين..

والتعبير في قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾[1] هو مصدر مؤكّد،

---

(١) من المعاني التي يحتملُها تعبير ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ الطقوس التي يقوم بها أهل الكتاب لتثبيت أبنائهم على دينهم. ومن قبيله ما يفعل النصارى عندما يولد لهم مولود جديد فإنهم يغمّسونه في «ماء المعمودية» التي يعتبرونها تطهيراً للمولود وإلصاقاً لصفة النصرانية به. فتكون ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾، بهذا المعنى، التطهير على تلك الطريقة. ولذلك قيل إنَّ اليهود يصبغون أولادهم يهوداً، والنصارى تصبغ أبناءها نصارى، أي يلقّنون أبناءهم اليهودية والنصرانية. وإلى هذا يؤول ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، من أنه أخذ العهد على بني تغلب بألّا يصبغوا أولادهم، أي ألّا يلقنوهم النصرانية، وأنْ يتركوهم حتى يبلغوا، فيختاروا لأنفسهم ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ أي ما يشاؤون من الدين. وقيل: سمي الدين «صبغةً» لأنه بمثابة هيئة الشخص التي تتبدّى بالمشاهدة من أثر الطهارة والصلاة وغيرها من الآثار الجميلة التي تظهر على المؤمن كما يظهر الصباغ في الثوب.

ولذلك جاء منصوباً لفعل مقدَّر (صبغنا). أي أنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى قد صَبَغَنا بهذا الدين صبغةً تظهر علينا، كما يظهر الصباغ في الثوب، ويميّزه بألوانه. . وفي المعنى أنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى قد أنزلَ هذا الدين كاملاً في كل شيء يحتاج إليه أهل الأرض، وبيّن أحكامه عن طريق رسوله الكريم ﷺ التي لا يطرأ عليها نقصان أو تعديل أو زوال. فصار تشبيهها بالصباغ الأصليّ الذي يُصبغ به الثوب فيصير بمثابة أصله، غير قابل للمحو أو البوار.

وتتأكد صبغة الله في الإسلام بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾، أي من يقدر أنْ يأتي بمثل ما يأتي به اللَّهُ تعالى، بل ومن أحسن من الله تعالى صُنعاً وصبغةً؟ فهو سبحانه قد أنزل هذا الدين كما يشاء، لأنه القادر على ذلك، ولا أحد إلّا الله يحسن هذا الصنيع الجميل، ولا أحد إلّا الله يفعل ما يريد. فهو الصانع، وهو الباعث، وهو والعالم بما هو أنفع وأصلح لعباده. . وإنَّ من يتّبع هذا الدين القيم، الذي أحسنَ الله تعالى صبغته، وأحسن تزيينه وتجميله، يكون من عباده الصالحين العابدين. .

ونحن نختم كتابنا هذا بقوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾، ونحمده بأنْ منَّ علينا وقدّرنا بأنْ ننقّح هذه الطبعة من كتاب «الأمثال في القرآن المجيد» لكي يأتي تبيان وإبراز بعض جوانب

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

عظمة هذه الأمثال بصورة أفضل، فيسهل معها على القارىء الكريم فهمُ عِبَرِها وعظَاتِها، وأبعادِها وغاياتِها. ونرجوه تعالى أنْ يتقبّل عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم، إنه سميع قريب مجيب.

مراجع الكتاب

مراجع الكتاب

١ ـ القرآن الكريم

التفسير: ٢ ـ تفسير القرآن الكريم، للطبري.

٣ ـ مصحف الشروق، مختصر تفسير الإمام الطبري.

٤ ـ تفسير القرآن الكريم، للقرطبي.

٥ ـ تفسير الكشاف للزمخشري.

٦ ـ تفسير الجلالين للإمامين: جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي.

٧ ـ تفسير القرآن للطبرسي (مجمع البيان).

٨ ـ تفسير (أبو سعود).

٩ ـ تفسير المنار، للشيخ محمد رشيد رضا.

١٠ ـ في ظلال القرآن، لسيد قطب.

الحديث: ١١ ـ صحيح البخاري.

١٢ ـ صحيح مسلم.

١٣ ـ مسند أحمد بن حنبل.

١٤ ـ سنن الترمذي.

١٥ ـ سنن أبو داود.

١٦ ـ سنن ابن ماجه.

١٧ ـ مصنف ابن أبي شيبة.

١٨ ـ شعب الإيمان.

١٩ ـ سنن الدارمي.

الأمثال: ٢٠ ـ الأمثال من الكتاب والسنة، محمد بن علي الحكيم الترمذي.

٢١ ـ الأمثال في القرآن الكريم، ابن قيم الجوزية.

٢٢ ـ الأمثال النبوية، محمد الغروي.

السيرة: ٢٣ ـ السيرة النبوية، ابن هشام.

٢٤ ـ السيرة الحلبية.

٢٥ ـ حياة محمد، محمد حسين هيكل.

اللغة العربية: ٢٦ ـ لسان العرب، ابن منظور.

٢٧ ـ القاموس المحيط، الفيروزآبادي.

٢٨ ـ تاج العروس، الزبيدي

٢٩ ـ مختار الصحاح، الرازي.

٣٠ ـ أسرار البلاغة.

٣١ ـ معجم البستان اللغوي، البستاني.

كتب متفرقة: ٣٢ ـ نهج البلاغة.

٣٣ ـ فضائل القرآن.

٣٤ ـ عصر الظهور، الشيخ علي الكوراني.

٣٥ ـ الدعوة الإسلامية، د. أحمد أحمد علوش.

الفهارس العامة

فهرس الآيات

سورة آل عمران

سورة النساء

سورة المائدة

سورة الأنفال

سورة التوبة

سورة الإسراء

سورة الكهف

سورة المؤمنون

سورة النور

سورة الفرقان

سورة العنكبوت

سورة الروم

سورة لقمان

سورة محمد ﷺ

سورة الفتح

سورة الحجرات

سورة ق

سورة الذاريات

رقم الصفحة		رقم الآية
٥٤١	ـ ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾	٤٢
٦١١	ـ ﴿قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾	٣٠

سورة الطور

٣٢٥	ـ ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾	٢٤
١٩١ ـ ١٩٥	ـ ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾	٣٤

سورة القمر

٩٥ ـ ١٦٨ ـ ١٧٢	﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾	٥٠
٣٠٨	ـ ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾	٧
٥٤٤	ـ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾	٣١
٥٤٢	ـ ﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾	٢٠

سورة الرحمن

١٥٥	ـ ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾	٢٤
٣٢٤	ـ ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾	٥٨
١٠٩	ـ ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾	١٤
٢٥٩	ـ ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾	٣٧

سورة الواقعة

٧٠ ـ ٣٠٥	ـ ﴿عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾	٦١
٣٢٤	ـ ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾	٢٣

سورة الحديد

٤١ ـ ٦٥٧	ـ ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾	٢٠

سورة الحشر

سورة الممتحنة

سورة الصف

سورة الجمعة

سورة المنافقون

سورة الطلاق

سورة التحريم

سورة القلم

سورة الحاقة

سورة المعارج

سورة المزمل

سورة المدثر


رابط بديل
lisanerab.com
أ. علاء الدين شوقي
www.lisanarb.com

فهرس الموضوعات